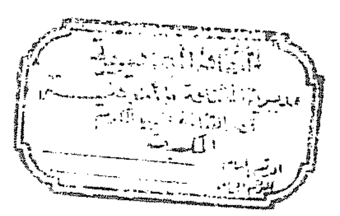
من الفكر السياسى والاشتراكى



آسيا والسيطرة الغربية

تأليف ك . م . بانيكار

ترجمة عبد العزيز توفيق جاويد

مراجعة أحمد خاكى

الجمهورية العربية المتحدة

وزارة الثقافة والإرشاد القومى

الإدارة العامة للثقافة

هذه ترجمة كاملة لكتاب :

ASIA AND WESTERN DOMINANCE

By

K. M. Panikkar



ملتزم الطبع والنشر : دار المعارف بمصر — ١١١٩ كورنيش النيل — القاهرة ج.ع.م.

الاعتراف بالفضل

إني مدين لكثير من الأصدقاء والزملاء بواجب الشكر لما بذلوه لى عن طيب خاطر من مساعدة أثناء عملى . وأود أن أعبر بوجه أخص عن عميم شكرانى للمستر ت . س. ڤنكاتاكار الذى قرأ مسودات الكتاب بأجمعها وقدم إلى مقترحات كثيرة ثمينة ؛ وللمستر جاى ونت الذى أشرف على طبع الكتاب وتولى ذلك العبء الضرورى المتعب ، عبء قراءة تجاربه والمعاونة العامة فى نشره . وأتيحت لى فى مدى فترة طولها خمسة عشر عاماً فرص عديدة للتباحث مع المستر ونت فى المسائل التى يعالجها هذا الكتاب كما أنى أعترف شاكراً بالفائدة العميمة التى نلتها بفضل معرفته العميقة بتاريخ الغربيين فى آسيا . أما المستر جيوفرى هدسن الزميل بجامعة أولسولز All Souls ، فإن دينى إليه مزدوج . فإن مقاله الثمين الدال على تمكنه وأستاذيته الموسوم بـ « الصين والغرب »* هو الذى كان هادياً لى أنا وجميع الدارسين الآخرين لعلاقات الصين بأوربا قبل القرن التاسع عشر . وقد زاد من فضله العظيم على قراءته المسودات وضبطه لهجاء كثير من الأسماء الأجنبية غير المألوفة عدا ما أسداه إلى من أشياء أخرى أعظم أهمية .

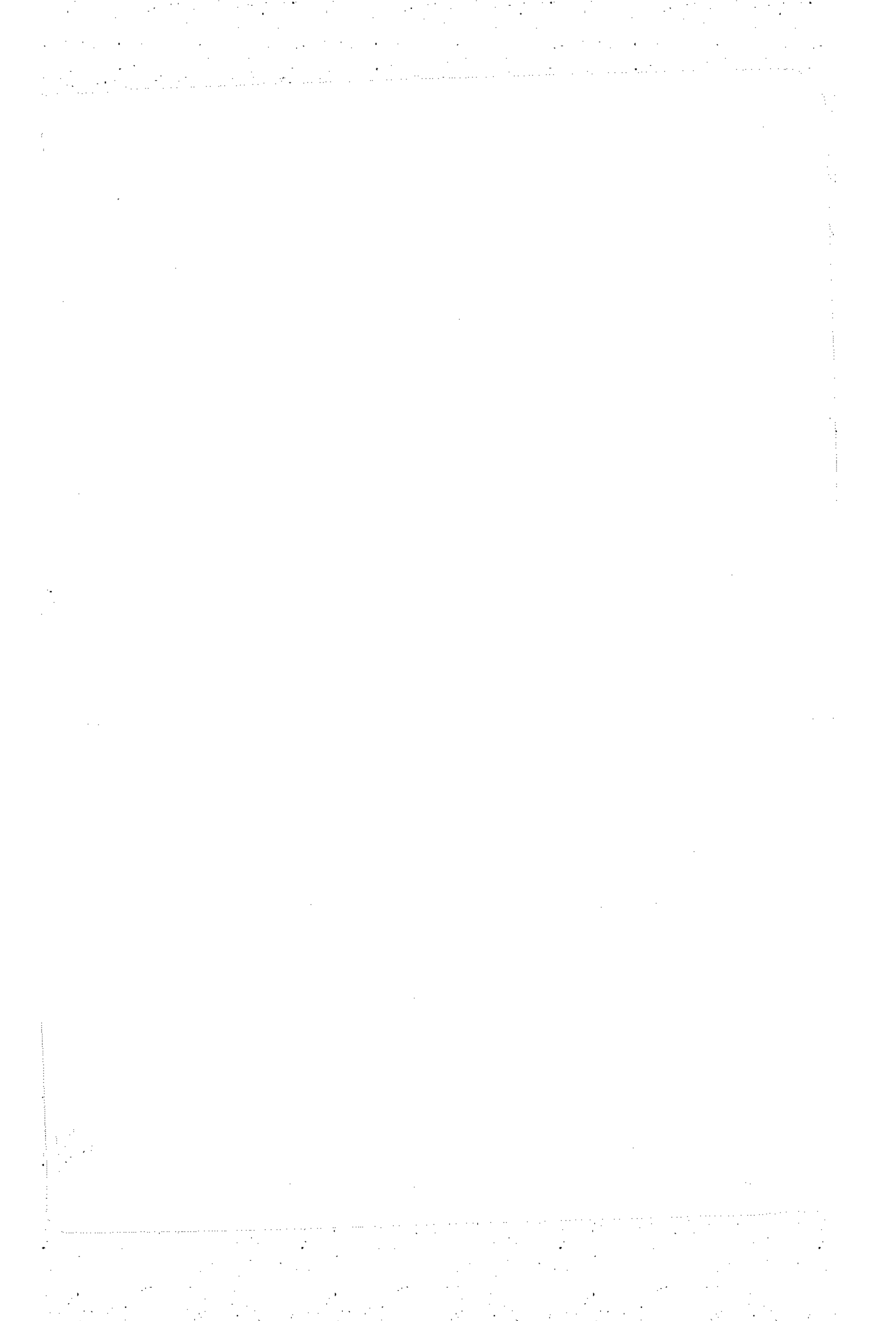
وأريد أيضاً أن أعبر عن شكرى للسادة :

الآباء الذين يتولون العمل فى الپيتانج (الكاتدرائية الكاثوليكية) بمدينة بيكين ، لتسهيلهم لى الحصول على صور القديس فرنسيس زافيير وريكّى ؛

والحكومة البرتغالية لتفضلها بالرسوم التخطيطية للسفن التى تمت بها رحلة الاستكشاف الأولى لڤاسكو داجاما ؛

ولمتحف كونستيستوريشى بڤيينا على الصورة الشمسية للطنفسة التى تمثل نزول يوحنا دى كاسترو أرض الهند ؛ وللمستر ج . ڤ . فورد من السفارة البريطانية ببكين لوضعه تحت تصرفى ما لديه من ترجمات للمواد التاريخية الصينية الهامة .

* « China & the West » : G. Hudson.



مقدمة الكتاب

حدث فى ديسمبر ١٩٢٥ أن دفعتنى الرغبة فى الاستطلاع إلى تعرف المزيد عن تاريخ ساحل ملبار ، موطنى الأصلى ببلاد الهند ، فزرت لشبونة ، وقضيت فترة من الوقت فى دراسة سجلات الرحلات البورتغالية الأولى إلى بلاد الشرق . وهناك على ساحل بلم (Belem) الذى أقلع منه ڤاسكوداجاما فى رحلته التاريخية الذائعة الصيت ، عن لى أن أكتب تاريخاً لعلاقات أوربا بالأقطار الآسيوية أثناء الحقبة الطويلة التى كانت تلك الرحلة فاتحة لها . وقد كنت فى ١٩٤٩ مقيماً بمدينة نانكين يوم جلت السفن الحربية الأوربية عن قواعدها عن أرض الصين الأصلية ، ولم ألبث أن سافرت بعد ذلك ببضعة أشهر فى صحبة الممثلين الديبلوماسيين للأمم الأوربية الذين غادروا شنغهاى بعد أن أعلنت الجمهورية الشعبية فى بكين . وكنت فى أثناء ذلك (منذ ١٩٣٠) أسهم فى المباحثات السياسية التى دارت بين الهند وبريطانيا ، والتى أدت فى النهاية إلى انسحاب السلطات البريطانية من الهند . عندئذ لاح لى أن فى الإمكان تحقيق الفكرة التى ظلت كامنة فى عقلى مدة خمس وعشرين سنة ولم تجد حتى آنذاك من وسيلة تعبر عنها إلا دراسات محدودة ثلاثة هى (ملبار والبورتغاليون وملبار والهولنديون والهند والمحيط الهندى) .

ولا يخفى أن فترة الأربعمئة والخمسين عاماً التى بدأت بوصول ڤاسكوداجاما إلى قاليقوط (فى ١٤٩٨) ، وانتهت بانسحاب القوات البريطانية من الهند فى ١٩٤٧ وانسحاب الأساطيل الأوربية من الصين فى ١٩٤٩ ، إنما تكون حقبة تاريخية واضحة المعالم والحدود . أجل إنها ربما مرت فى أدوار ومراحل كثيرة وتقلبت عليها تطورات مختلفة وظهرت فى آماد مختلفة تحت زعامات مختلفة ، ولكن كان لها فى مجموعها خصائص معينة واضحة الحدود تميزها عما عداها ، وتجعل منها فترة منفصلة فى التاريخ . وكم ألمت بدوافعها التغيرات ؛ وقد زال من الوجود أحد الخيوط الكبرى فى الفكرة الأساسية وهو القيام بحرب صليبية على الإسلام ، والقيام بحركة التفاف استراتيجية حول جناح الدولة الإسلامية ، زال أثر ذلك الخيط بعد معركة

لپانتو التى انتهى بها تعرض أوربا الغربية للخطر بسبب زيادة شأن الاستعمار الإسلامى . ولم تنقض مئة عام حتى تحولت الرغبة الأصلية فى احتكار تجارة الأفاويه إلى الرغبة فى استيراد سلع الشرق إلى أوربا : وهى المنسوجات والشاى وغيرها ، ثم تحولت هذه الحال أيضاً بعد الانقلاب الصناعى ببريطانيا إلى دافع يدعو إلى البحث عن أسواق لتصريف السلع الأوربية المصنوعة وانثنت فى النهاية إلى استثمار رءوس الأموال . وكانت المصالح الأوربية قاصرة فى الأصل على التجارة ، ولكن غلبت عليها أسباب السياسة غلبة قاهرة إبان القرن التاسع عشر فى كثير من الأصقاع . وفى غضون تلك المدة تقلبت التغيرات على زعامة الشعوب الأوربية أيضاً . فانتزع الهولنديون السيادة التجارية قسراً من البورتغاليين . واصطرع عليها حيناً من الدهر كل من بريطانيا وفرنسا فى أواسط القرن الثامن عشر . ومنذ تلك اللحظة ارتفع شأو بريطانيا ولم يتعرض بعد ذلك أبداً لأى تحد خطير حتى بداية الحرب العالمية الثانية .

على أن هذه التغيرات والتطورات لن تنقص من صدق الرأى القائل بأن حقبة داجاما هذه إنما تكوّن وحدة فريدة فى بابها من حيث نواحيها الجوهرية . وربما جاز لنا أن نجملها بقولنا إنها فى المقام الأول سيادة الدول البحرية على الكتل الضخمة من الأرض الأسيوية ؛ ثم فرض اقتصاد تجارى على مجتمعات لم تكن حياتها الاقتصادية فى الماضى مؤسسة على التجارة الدولية ، بل قائمة بصفة رئيسية على الإنتاج الزراعى والتجارة الداخلية ؛ ومظهرها الثالث هو تسلط شعوب أوربا ، التى كان بيدها زمام السيادة على البحار — على شئون آسيا . وكان العصر عصر القوة البحرية ، عصر السيطرة القائمة على التحكم فى البحار . فحتى ابتداء القرن الحاضر ولمدة أربعمئة عام خلت من عهد ڤاسكوداجاما ، لم توجد إلا فى المحيط الأطلسى وحده قوة بحرية قادرة على تصريف سياسات المحيطات . ولذا كان معنى التحكم فى الأطلسى السيادة على المحيط الهندى فالسيطرة فى النهاية على المحيط الهادى . وفى أثناء المئة السنة الأولى من تلك الحقبة كانت للدولتين الأيبيريتين السيادة على الأطلسى ، على أن هذه السيادة ما لبثت أن أخذت تتناقص وتضمحل رويداً رويداً منذ الساعة التى تشتت فيها أسطول الأرمادا الذى سيّره فيليب الأسبانى ،

وورثها عنها دول أوربية أخرى — ولكن الظاهرة الجوهرية وهى التحكم فى البحار الأسيوية ظلت على ما هى عليه .

ولا يصدق هذا فقط على مناطق — مثل الهند وسيلان وأندونيسيا — كانت للدول الغربية على امتداد سواحلها مستوطنات تجارية وبعض السلطان السياسى ، بل وينطبق أيضاً على الصين وبلاد اليابان . وظلت الإمبراطورية الصينية ما يربى على ثلاثة قرون تقصر تجارتها مع الأمم الغربية على ميناء واحد ، لم يكن مسموحاً للأوربيين أن يقيموا فيه ؛ ولكن الذى حدث بعد ظهور سفن بيريز فى بحار الصين الجنوبية ، أن الإمبراطورية المتفوقة فى البر اضطرت إلى الانسحاب المطلق من البحار ولم تعد السفن الصينية تبحر بعد ذلك إلى ملقا أو جاوة . وعندما وصل البرتغاليون إلى ملقا وجدوا بها عدداً ضخماً من السفن الصينية . وكان سلاطين تلك المنطقة وراجواتها يعيشون تحت غلالة خفيفة من السيادة التى يبسطها بلاط بيكين . وكانت للصينيين مع الأرخبيل الأندونيسى أيضاً علاقات تجارية ضخمة . لكن السيادة البحرية التى ضربها البرتغاليون هناك فصمت تلك العلاقات فصماً باتاً . بل الواقع أنه يمكن القول أن الصين وقعت منذ بداية القرن السادس عشر فريسة لحصار بحرى قوى الأثر دام حتى منتصف القرن التاسع عشر . ولم يكن حظ اليابان بأسعد من حظ الصين ولا مختلفاً عن ذلك أدنى اختلاف جوهرى . فلم يكن اليابانيون يقتصرون قبل ذلك على تبادل التجارة مع الملايو والجزر الجنوبية ، بل إن هناك من الدلائل ما يبين أن اليابانيين كانت تعتلج فى صدورهم أطماع سياسية حول فرموزة وجزر الفلبين . فهنا أيضاً أدى وصول البرتغاليين إلى المحيط الهادى إلى تضييق دائرة النشاط البحرى اليابانى ، اللهم إلا فى بحر الصين الشمالى والبحر الكورى . وحصار آسيا هذا على يد الدول البحرية الأوربية أول ظاهرة تضفى على حقبة داجاما أسباب وحدتها .

وغنى عن البيان أن فرض اقتصاد تجارى على شعوب آسيا وحدوث انقلاب تدريجى فى كل ناحية من نواحى الحياة تقريباً نتيجة لذلك الاقتصاد من الموضوعات الرئيسية فى هذه الدراسات الراهنة ولا حاجة بنا إلى بحثهما هنا . وكل ما يلزم قوله هو أنهما ظلا منذ بداية الحقبة إلى نهايتها هما العنصران المتحكمان فى علاقة أوربا

بآسيا . وحتى عندما أعلن أن إضعاف الإسلام هو الهدف الرئيسى الكبير ، فإن من المهم أن نلحظ ، كما قال ألبوكرك فى خطابه الذى ألقاه على جنده بملقا ، أن إبعاد العرب عن تجارة الأفاويه هو الوسيلة التى يرجو بها البرتغاليون إضعاف قوة الإسلام . وكانت سياسة البرتغاليين تتلخص فى نشر التجارة نشراً يعززه التفوق البحرى ، وأدى إنشاء سوق عالمية للتوابل نتيجة للكميات الهائلة منها التى شرعت تنقل بالسفن إلى أوربا إلى تغيير فى سياسة المناطق الساحلية ومناطق الجزر التى كانت تنتج تلك السلع ، ولكن تلك السوق لم تؤثر تأثيراً خطيراً فى الدول البرية الكبرى ، وذلك على الأقل فى عهد البرتغاليين . ومع ذلك فإن الموقف أخذ يتغير ببطء منذ وصول الهولنديين والبريطانيين . ولم تكن التجارة البريطانية مع الهند قائمة على التوابل إلى أى حد كبير ، بل كان تجارة فى المنسوجات القطنية وسلع الترف والنيلج ونترات الصوديوم اللازمة لصنع البارود . وكان الطلب على هذه السلع من الضخامة بحيث أصبح اقتصاد الهند فى غضون القرن الثامن عشر يعتمد تماماً على تجارتها المنقولة بحراً . وكان انتقال مركز الاقتصاد والقوة السياسية من المناطق الداخلية إلى الساحل ، ونمو طبقة من التجار متحالفة مع المصالح الأجنبية التجارية وصعود تلك الطبقة فى مدارج القوة والنفوذ ، تطورات عظمى فى كل من تاريخ الهند والصين بعد أن أصبحت للتجارة الأوربية أهمية من الناحية القومية . وفى خلال جميع التغيرات التى حدثت ابتداء من الاحتكار الأول لتجارة الأفاويه إلى التصدير الضخم لرأس المال أثناء الثلاثين سنة التى سبقت الحرب العالمية الأولى ، كانت سيطرة الاقتصاد التجارى على حياة الشعب الأسيوى هى الطابع الذى يضفى على الحقبة لونها المميز .

ولم تكن الظاهرة الثالثة ، وأعنى بها السيطرة السياسية التى أظلت بها الشعوب الأوربية جميع الأراضى الأسيوية تقريباً ، إلا نتيجة للعاملين الأولين . وهى تطور هائل مشهود استرعى بطبيعة الحال أكبر قسط من الالتفات . فإن التحكم فى البحر مكن الأمم الأوربية من توجيه قواتها توجيهاً يؤثر فى أية نقطة بآسيا وخاصة بعد أن قوض الاحتكار الأوربى للتجارة البحرية دعائم القوى الاقتصادية والسياسية للإمبراطوريات العظيمة . واجتلبت السيطرة السياسية فى أعقابها مذهباً للتعصب

العنصرى وشعوراً بترابط الأوربيين وتضامنهم جميعاً ضد الآسيويين ؛ كما أن هذين العاملين يكتسبان فى كل بحث وتقدير للعلاقة بين آسيا والغرب أهمية لم تكن لهما فى الفترات الباكرة .

وهناك ظاهرة أخرى تضفى على هذه الفترة إطاراً من الوحدة وهى المحاولة التى بذلتها فى أثنائها الأمم الأوربية فى سبيل تنصير آسيا . ومع ذلك فإن من الخطأ الظن بأنها كانت من الخصائص الجوهرية لعلاقة أوربا بآسيا . أجل إن البرتغاليين كانوا فى غضون عصر الاستكشاف تخامرهم وتدفعهم دون أدنى ريب روح الحروب الصليبية الأولى : بيد أن تلك الروح كانت بالضرورة روحاً معادية للإسلام ولم تتضمن بشكل جدى مسألة التبشير بالمسيحية . ولم تبدأ روح التبشير بالمسيحية فى إدخال آسيا فى نطاقها إلا فى أثناء موجة النهوض العظيمة بالعالم الكاثوليكى المعروف فى التاريخ باسم حركة معارضة الإصلاح[1] البروتستنتى . وكان القديس فرنسيس زافيير هو الذى تجسدت فى شخصه تلك الروح ، وانقضت فترة قصيرة احتذى الناس فيها بسنته ، فقاموا بحركة عظيمة لنشر المسيحية بين شعوب آسيا الوثنية . ولم يكن اليسوعيون النازلون بكين بالممثلين الحقيقيين لتلك الروح . بل كان ممثلوها هم الإنجيليون ببلاد اليابان . على أن هذه الحركة لم تكن إلا دوراً مؤقتاً . فبعد وصول الهولنديين والإنجليز واضمحلال قوة البرتغاليين بالشرق ، لم يبق فى كل أرجاء آسيا إلا القليل من نشاط المبشرين لفترة تزيد على قرن من الزمان . والواقع أن الطوائف البروتستنتية لم تشرع فى الاهتمام بالتبشير بالمسيحية إلا عند مختتم القرن الثامن عشر ، كما أن نشاطها التبشيرى بالهند والصين — ذلك النشاط الذى أصبح ظاهرة شديدة البروز فى العلاقات مع آسيا — كان مرتبطاً بالتفوق السياسى للغربيين بآسيا ومتحداً معه فى الزمان .

إن هذه الظواهر هى التى تضفى على الحقبة صفتها المميزة الخاصة كصورة فى التاريخ تمثل حركة عظيمة . وربما اعترض قائل بأنه لئن توقف السلطان السياسى لأوربا على الأقطار الآسيوية ، إلا أن الفصل الذى يحوى علاقاتهما معاً لم يختم بعد: أى أن أوربا لا تزال لها فى كثير من نطاقات النشاط الأسيوى صلات أوثق كثيراً

---

(١) Counter-reformation.

مما كان لها : فإن تلك التجارة المتبادلة بين آسيا وأوربا أكثر اليوم كثيراً منها آنفاً . ولاشك أن ذلك وأكثر منه صدق صراح . بيد أن الفارق الجوهرى هو أن أساس العلاقة قد ألم به تغيير شامل . فلئن كانت العلاقات الاقتصادية أوثق ، فإن أساسها اليوم هو تبادل المنافع بين الطرفين ، كما تحددها المصالح القومية للفريقين وليست مما تفرضه أوربا . فالعلاقات السياسية بين الأمم الآسيوية والأوربية تسير كما ينبغى أن تكون عليه العلاقات بين دول مستقلة . فآسيا وأوربا تواجهان هنا إحداهما الأخرى وربما انبجست من هذه المواجهة الجديدة نتائج تاريخية كثيرة ذات أهمية حيوية . على أنها لم تعد بأى حال نفس العلاقة السائدة فى حقبة داجاما ، وذلك لأن تغييراً ثورياً ومحدوداً يفصل بين الحقبة الجديدة التى استهلت الآن والحقبة التى سبقتها .

وثم حقيقة عظمى أخرى يتسم بها تغير خصيصة الحقبة ، هى زيادة نفوذ الاتحاد السوفيتى وأمريكا فى شئون آسيا . وقد وصلت الولايات المتحدة إلى ساحل المحيط الهادى فى ١٨٤٤ . ولم تنقض بضع سنوات حتى نجح موراڤييف فى احتلال المنطقة البحرية باسم الروسيا وأسس مدينة ڤلاديڤوستك . وفى غضون نصف القرن الذى عقب تثبيت سلطان الولايات المتحدة على ساحل كاليفورنيا ، انطلقت أمريكا فى مضمار التوسع بخطى جبارة فى المحيط الهادى عن طريقين هما نشر تجارتها ونفوذها ببلاد الصين وضم الفيليبين إليها بعد الحرب مع أسبانيا . ولم تنقض السنوات العشرون الأولى من القرن العشرين حتى بلغ نفوذ أمريكا مبلغاً عظيماً . فإذا انتهت الحرب العالمية الأولى إذا هى سائدة مسيطرة سيطرة أفضت إلى أفول نجم الأوربيين ببطء فى الشرق الأقصى .

وكان تطور النفوذ الروسى موازياً — فى بعض نواحيه — للحركة الأمريكية . ففى أثناء النصف الثانى من القرن التاسع عشر بلغت الروسيا تخوم بلاد الأفغان والهند ، بضمها إلى دائرة نفوذها إمارات خيوة وبخارى ، وفى الحين نفسه تمكن الاستعمار القيصرى من النفوذ إلى منشوريا . وعلى حين تقدم التوسع الأمريكى عبر البحر من الشرق إلى الغرب ، كان التقدم الروسى على امتداد التخوم البرية لأقطار القارة . وكانت نتيجة الحركتين نقل ميزان القوى من يد دول أوربا الاستعمارية ،

التى قدر لسلطانها أن يطغى عليه فى النهاية نفوذ هاتين « القوتين » الجديدتين اللتين كانت تقاليد علاقاتهما بآسيا مختلفة اختلافاً مطلقاً عن تقاليد الأمم الغربية معها .

إن العصور الجديدة فى التاريخ تنمو متوازية جنباً إلى جنب لا متعاقبة عصراً فى إثر عصر . ولذا فبينما كانت المدة من ١٨٤٠ إلى ١٩١٤ العصر الذهبى للإمبراطوريات الأوربية بآسيا ، شهدت أيضاً إلى جوار ذلك نمو القوميات الآسيوية وظهور أمريكا والروسيا كقوتين عظيمتين لهما مصالح بآسيا . ومعالجة سياستى الروسيا وأمريكا فى الشرق تخرج عن مجال هذا البحث ، ومن ثم فهما لا تبحثان فى هذا الكتاب إلا بالحد اللازم لتقدير السياسة الأوربية التقدير الصحيح . على أنه يجوز لنا مع ذلك أن نؤكد هنا نقطة واحدة . ذلك أن الروسيا موجودة بآسيا وجوداً دائماً كحقيقة جغرافية سيتضح تأثيرها اتضاحاً متزايداً بمضى الزمن . والدول العظمى الثلاث ببلاد المشرق وهى الهند والصين واليابان تتاخم الأراضى السوفيتية . ثم إن النفوذ السوفيتى مستقر بأرض القارة نفسها وليس نفوذاً بحرياً ، فهو مختلف من هذه الناحية اختلافاً جوهرياً عن النفوذ الذى مارسته أوربا أمد أربعمئة عام . وكذلك الاتصال بأمريكا فهو شىء يعد قطعة من طبيعة الحقائق الجغرافية ، وذلك لأن المحيط الهادى وإن كان صفحة ماء مترامية الأطراف ولم يكن مستكشفاً قبل عصر وصول الأوربيين إلى آسيا ، إلا أن أقطار الشرق الأقصى هى وأمريكا اليوم من الجيران الأدنين ، وسيظل هذا شأنها وبدرجة متزايدة مع تحسن المواصلات الجوية . من أجل هذه الأسباب جميعاً يتضح أن اختفاء السلطان السياسى الأوربى من آسيا يسجل نقطة الختام فى حقبة محددة .

والفشل النهائى الذى حاق بجهود الأوربيين فى فتح آسيا والاحتفاظ بها إلى الأبد مثال على الحدود التى تحد القوة البحرية ، وفيه من الدروس والعبر ما لا يستطيع أحد إغفاله . وقد ادعى هيلاير بيلوك فى بحث له حول فشل الحروب الصليبية بفلسطين ، أنها شاهد على شىء تجده يحدث دائماً فى التاريخ العسكرى بأكمله ، وأعنى بذلك أن الاعتماد على القوة البحرية فى الشئون العسكرية خدعة تفضى فى النهاية إلى خيبة الأمل المطلقة . فى المنازلات الرئيسية الختامية الفاصلة فى التاريخ

يدل الاستقراء على أن الجانب الذى يبدأ النزال بقوة بحرية عظيمة تنزل به القوة البرية الهزيمة ؛ وسواء اتسمت تلك القوة البحرية باسم قرطاجنة أو أثينا أو الأسطول الفينيقى للملك العظيم ، لقد كان الإخفاق نصيبها فى خاتمة المطاف وكان النصر حليف القوة البرية . وذلك هو الذى حدث بآسيا أيضاً حيث انتهى الأمر بأن أبرزت الكتل البرية نفسها وتغلبت على القوى المعتمدة على البحر ، وما انسحاب القوة الأوربية من آسيا إلا مظهر لإبراز قوة الإمبراطوريات البرية نفسها من جديد بعد أن تخلصت من أصفاد النزعات التجارية البحرية .

ويجنح بعض الكتاب الأوربيين إلى اعتبار التوسع الأوربى نتيجة حتمية لحضارة تجد فى الزحف على الدوام . مثال ذلك أن السير چورچ سانسوم يلاحظ « أن (غزو العالم الأسيوى) ، كان التعبير ، والتعبير الذى لا مفر منه ، عن حضارة تزحف قدماً . وهو أمر سجل دوراً جديداً فى تطور الجماعة البشرية * » . على أن الأستاذ تاونى يرى من الناحية الأخرى أن الغزوات الأوربية الأولى لآسيا إن هى إلا قبضة تجار أنتورب الجشعين تمتد متلهفة على المال . فهو يقول : « أمسكت البرتغال وأسبانيا بمفاتيح خزائن الشرق والغرب . ولكن الذى جنى الثمار المادية للتوسع الأمبريالى الذى دخلت الدولتان حومته ، فنزلته الأولى ببذل الجهد والصبر على النصب ، واندست إليه الثانية عن طريق الحظ وأخذتا تجمعان من الغنائم والأسلاب ما لا قبل لهما بالاحتفاظ به وتكدسان من الثروات ما أفلت من بين أصابعهما ، — الذى جنى تلك الثمار لم يكن البرتغال بقلة سكانها وإمبراطوريتها التى لم تكن لتزيد عن خط من القلاع والمصانع يمتد عشرة آلاف ميل ، ولا أسبانيا التى ظلت قروناً عدة ، وكل قواها منحصر فى جيش لا ينى عن الزحف ، وقد أخذت الآن تترنح تحت وطأة مسئوليات إمبراطوريتها الضخمة المتناثرة ، وهى تجعل التعصب الدينى ديدنها وتظهر إزاء المسائل الاقتصادية عدم كفاية . لم تكن هاتان الدولتان إلا مجرد وكلاء سياسيين لعقول أشد مكراً ودهاءً ولشخصيات أخبر وأعلم بفنون السلم * » .

والواقع الفعلى أن التوسع الأوربى المبكر فى المياه الآسيوية لم يكن « حضارة

* Sansom : The Western World & Japan, London 1950.

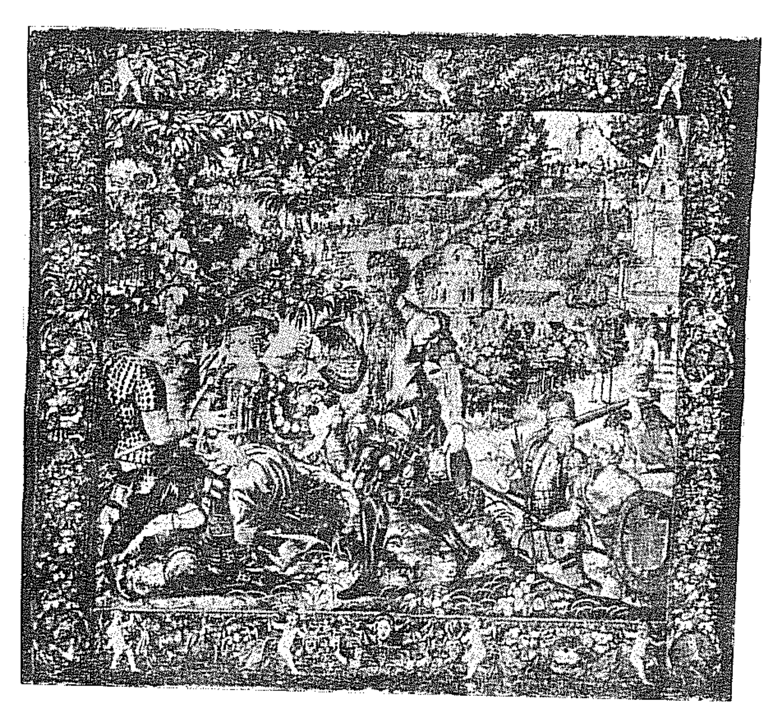
* Tawney : Religion and the Growth of Capitalism.

تزحف نحو الأمام » كما يريد منا سانسوم أن نعتقد ، ولا هو مسرح عرائس يديره تجار مهرة من وراء الكواليس . بل كان كما سنحاول أن نثبت — محاولة للالتفاف حول قوة الإسلام البرية الجارفة فى الشرق الأوسط ، فضلا عن دافع كان يحدو الناس إلى الإفلات من « سجن البحر المتوسط » الذى حبست فيه جميع الطاقات الأوربية . وكما يلاحظ تاونى فى مكان آخر من كتابه : « كانت أوربا فى استدرارها لثروة الشرق عن طريق فتحات الشرق الأدنى الضيقة ، أشبه الأشياء من حيث صرامة الحدود المفروضة على استراتيجيتها التجارية بمارد جبار يطعم من خلال ثقوب أحد الجدران » . ولا سبيل إلى نكران أن طاقة الأوربيين الدافقة كانت حتى فى تلك الأيام الباكرة الأولى تمثل حقيقة بارزة لها عواقب هائلة : بيد أنها ظلت أمداً طويلا لا تمثل أية حضارة تسير فى طريق الزحف إلى الأمام ، ولا تمثل أى التقاء بين حضارة وأخرى ، ولا أى تحد لطرائق الحياة التى تعارف الناس عليها وتقبلوها . أجل إن أوربا كانت تمثل والحق يقال حضارة تزحف أماماً إبان القرن التاسع عشر بعد إعادة تنظيم تكوينها الاجتماعى والاقتصادى والسياسى بفضل النهضات الصناعية والثورية الجبارة التى ظهرت فى أخريات القرن الثامن عشر . هى حضارة أخذت تتحدى أسس المجتمعات الآسيوية ؛ وفرضت إرادتها عليها وأحدثت فى آسيا تغيرات اجتماعية وسياسية لها أهمية جوهرية . ولكن لعل من يتصور أن تلك المغامرات التجارية بين الشرق والغرب التى انبعثت فى القرون الثلاث الأولى لاتصال الشرق بأوربا كانت كفاحاً بين الشرق والغرب ملحمياً جليلا له مفهوم فاخر عظيم ، إنما يلتمس فى أحداث قديمة بعض المعانى الخاصة بأشياء حدثت بعدها بآماد طويلة .

وهذه الفترة وإن جعلت — لأهميتها — موضوعاً لدراسات عديدة نفيسة ، إلا أنها لم تهتم حتى اليوم إلا بمناطق خاصة . فلم يحاول أحد حتى اليوم أن يقوم بدراسة علاقات أوربا بآسيا غير الإسلامية ككل متكامل ، فإن السفر اللوذعى الذى ألفه المستر ج. ف . هدسون حول « الصين وأوربا » إنما ينتهى عند ١٨٠٠ . ثم إن البحث الجديد الذى دبجه السير چورج سانسوم حديثاً وأسماه « عالم الغرب واليابان » وإن كان يعالج المسائل العامة المتعلقة بالعلاقات الأسيوية بالغرب ، إلا أنه يهتم فى

المقام الأول ببلاد اليابان . فأما كتاب المستر جاى ونت « بريطانيا فى آسيا » فهو دراسة كاشفة هادية إلى سر تكوين ما يسميه نشر الحضارة البريطانية بآسيا ، ولكنه مقصور بطبيعة الحال على المناطق التى كان للنفوذ السياسى البريطانى فيها الكلمة العليا . فأما عن الناحية التاريخية البحت ، فإن هناك أعمالا كثيرة ذات قدر عظيم تعالج شئون كل قطر على حدة وتتجاهل الوحدة الأساسية للمسألة كلها ، التى أسدل عليها إلى حد كبير ستر من الغموض بسبب مركز الإمبراطورية البريطانية ببلاد الهند الذى وصفه أحد النابهين من وزراء خارجية تلك الحكومة بأنها لا إلى الشرق الأقصى ولا إلى الشرق الأدنى ، ولكنها فقط بلاد الهند . وبذا يكون مركز بريطانيا بالهند قد فصل من بقية المسألة ، وبذلك صار الوصول إلى صورة لآسيا صحيحة شاملة تعطى لكل أمر أهميته النسبية أمراً شاقاً إن لم يكن مستحيلا .

من أجل ذلك بذلنا هذه المحاولة الراهنة رجاء إرجاع تلك الصورة الحاوية للأهمية النسبية للأشياء إلى نصابها ، تلك الصورة التى كان الناس يفهمونها ويدركون تماماً حقيقتها إبان القرنين السابع عشر والثامن عشر . وربما جاز لنا أيضاً أن نتبع ذلك بكلمة ختامية ، هى أن هذه ربما كانت المحاولة الأولى التى بذلها دارس آسيوى مبتغياً من ورائها أن يرى ويفهم مناشط الأوربيين بآسيا فى مدة ذرعها أربعمئة وخمسون عاماً .



وصول نائب الملك يوحنا دى كاسترو إلى الهند

عن طنفسة بمتحف الفنون بفيينا



القسم الأول

عصر التوسع

من ١٤٩٨ — ١٧٥٠



الفصل الأول

الهند والمحيط الهندى

(١)

وصل ڤاسكوداجاما إلى ميناء قاليقوط على الشاطئ الجنوبى الغربى للهند فى ٢٧ مايو ١٤٩٨ . وليس ثمة أدنى ريب أن وصوله يسجل نقطة تحول فى تاريخ بلاد الهند وأوربا .

كانت الهند معروفة لدى أوربا منذ أقدم أيام التاريخ . فإن الجند الهنود كانوا يخدمون تحت الراية الفارسية على الأراضى الإغريقية فى ٤٨٠ ق.م.، وقبل أن يصل الإسكندر إلى حدود الهند بزمن مديد ، كانت العلاقات الودية متبادلة بين هيلاس والهند . وكانت السفن الرومانية المتخذة من مصر قاعدة لها تزور الموانى الهندية بانتظام كما أن حفائر أريكمّا ميدو أثبتت الآن أنه كانت تجرى فى القرن الأول الميلادى تجارة مزدهرة بين الإمبراطورية الرومانية ودويلات جنوب الهند . وكان جغرافيو الإغريق والرومان يعرفون من قبل الساحل الهندى كما أنهم وصفوا الأرخبيل الإندونيسى نفسه . وفى عصور أوربا المظلمة كانت الهند لا تزال تثير خيال الغرب وتلهبه ، كما أن لدينا بعض الآيات التى تشهد بأن بعض الأقطار الآسيوية كانت معروفة بأوربا ، وإن لم يكن الاتصال إبان ذلك العصر على نفس الدرجة من الانتظام والوثاقة . وتزايد اهتمام أوربا بآسيا بعد الحروب الصليبية الأولى تزايداً عظيماً وكانت لدى كل من البندقية وجنوة معلومات تفصيلية عن أحوال الهند وتجارتها . حتى لقد كانت الهند معروفة بمدينة أنتورب على شاسع بعدها وكانت منتجاتها موضع التقدير . وقد زار الهند فى أثناء القرن الثالث عشر كثير من الرحالة الأوربيين ، نخص بالذكر منهم ماركوبولو والراهب أودوريك ومونتى كورڤينو . والواقع كما لاحظ هجل فيما بعد : « إن الهند كأرض مرغوبة مشتهاة كانت عنصراً جوهرياً فى التاريخ العام . فمنذ أقدم العصور إلى اليوم ظلت الشعوب أجمع تجعل الهند

قبلة مشتهياتها ورغباتها راجية أن توفق إلى الوصول إلى كنوز بلاد العجائب تلك ، بلاد أثمن ما تهب الأرض من ذخائر ، وهى كنوز الطبيعة التى تجمع بين اللؤلؤ والماس والروائح الجميلة وعطور الورد والأسود والفيلة إلخ — فضلا عن كنوز الحكمة . والطريقة التى انتقلت بها تلك الكنوز إلى الغرب كانت لها فى جميع العصور أهمية تاريخية عالمية مرتبطة بمصير الأمم » .

وقبل وصول ڤاسكوداجاما ببضع سنين إلى قاليقوط ، وصل إلى ملبار مبعوث لملك البرتغال الدوم چواو الثانى . وقد أرسل پيرو دا كوڤلهام وهو لغوى ضليع وجندى وجاسوس وديبلوماسى بعث به العاهل البرتغالى سفيراً له لدى « البريسترچون » [١]. فاتخذ ثياب المسلمين وركب سفينة عربية من النوع المسمى بالدهو[٢] وبلغ الهند فى ١٤٨٨ وزار قاليقوط فى السنة عينها — قبل وصول ڤاسكوداجاما إلى نفس المشهد بعشر سنين كاملة . وفضلا عن ذلك فإن تجار الهنود من قاليقوط وكانونور كانت لهم مكاتب ومستودعات بالقاهرة وعلى امتداد ساحل البحر المتوسط حتى مدينة فاس . وقيل إن ڤاسكوداجاما حياه فى قاليقوط نفسها عربيان من تونس خاطباه باللغة القشتالية . فأين إذن توجد أهمية استكشاف ڤاسكوداجاما ؟

لن يتهيأ لنا أن ندرك المغزى الكامل لوصول داجاما إلى قاليقوط إلا إذا قدرنا أنه كان تحقيقاً لحلم دام مئتى عام ولجهود دائبة متواصلة استمرت خمساً وسبعين سنة. وقد تقاسم ذلك الحلم جميع الشعوب التجارية بالبحر المتوسط عدا البنادقة ؛ وكان الجهد الرئيسى من نصيب البرتغال . ولكى يتيسر لنا فهم الباعث الدينى والاقتصادى والسياسى الكامن وراء هذا الحلم وهذا الجهد ، ينبغى لنا أن نستعرض فى إيجاز بعض الاتجاهات المعينة فى التاريخ الأوربى أثناء القرنين السابقين على ذلك .

ومنذ عهد صلاح الدين الذى استرد بيت المقدس من الصليبيين فى ١١٨٧ ، نظم الإسلام الذى جعل من مصر قاعدة له بحيث أصبح حاجزاً هائل القوة يفصل

---

(١) البريسترچون أو القس يوحنا : شخصية خرافية لأمير مسيحى ، كان الأوربيون إبان القرنين الثانى عشر والثالث عشر يعتقدون أنه يحكم دولة قوية بآسيا . ثم قالوا عنه أثناء القرنين الرابع عشر والسادس عشر إنه ملك إثيوبيا . (المترجم) .

(٢) الدهو أو الضو : (Dhow)

بين آسيا وأوربا . وقد تلاشت كل آثار الانبجاسة الخارقة التى ألمت بالطاقة والحماسة والغيرة الدينية التى دفعت النصرانية إبان الحروب الصليبية الثلاث الأولى . كما أن انتصار صلاح الدين الذى صار من وجهة نظر ما تلا ذلك من التاريخ من أشد الانتصارات حسماً فى تاريخ العالم ، قد أدى إلى إقرار سلطان المسلمين أمد قرون عدة بعد ذلك بمنطقة ذات أهمية حيوية هى منطقة سواحل سوريا ومصر . ومما يدلك على أن رجال السياسة الأوربيين لمْ يكونوا يجهلون تلك الحقيقة ، أن الحرب الصليبية الخامسة (١٢١٨ — ١٢٢١) وجهت إلى مصر ذاتها . ثم إن عدداً كبيراً من عظماء ملوك أوربا انضموا معاً بقيادة القديس لويس العاهل الفرنسى وقاموا بهجوم نهائى (الحرب الصليبية السابعة) ، على أن هذه الحملة أيضاً منيت بالهزيمة . وهكذا ظلت مصر وسيف البحر ذو الأهمية الحيوية فى قبضة المسلمين القوية المكينة بعد مئتى عام من الجهد الذى بذلته قوى المسيحية الموحّدة .

إن تجارة الأفاويه مع الشرق وهى من أعظم العوامل الدافعة فى التاريخ ، كما أنها كانت تدر على التجار أعظم الأرباح بوصفها سلعاً يشتد عليها الطلب من الناس جميعاً ، لم يكن فى الإمكان الحصول عليها من الموانى الهندية إلا عن طريق الأراضى التى يتحكم فيها الحكام المسلمون . ويقول أحد الكتاب المحدثين : « لعله ليس للفلفل الآن أهمية كبيرة ، بيد أنه كان فى ذلك العصر يقف على قدم المساواة مع الأحجار الثمينة . فإن الناس كانوا يجابهون مخاطر البحار ويقاتلون ويموتون فى سبيل الفلفل » . ويحلل المستر ج. ف. هدسن فى دراسته الضليعة لشئون « أوربا والصين » الموقف بهذه الكلمات : « إن الأفاويه التى أخذت تزداد قيمتها شيئاً فشيئاً كعنصر جوهرى الأهمية لفن الطبخ الأوربى لم يكن فى الإمكان الحصول عليها إلا من الهند وأندونيسيا ، ولابد لها من المرور من خلال فارس أو مصر ؛ فهذه التجارة التى لا يستغنى عنها . والاحتكارية بطبيعتها أصبحت محور النزاع فى سياسة بلاد المشرق ، كما كانت أقوى عامل بمفرده فى استثارة التوسع الأوربى أثناء القرن الخامس عشر . وساعد ارتفاع شأو التتار ببلاد الفرس — قبل اعتناق دولة إيلخان الإسلام — التجار الإيطاليين على الوصول إلى الهند رأساً وتخفيض الأسعار على المصريين ، الذين تعودوا على رفعها ثلثمئة فى المئة كوسطاء بين الهند وأوربا ؛ وكانت نتيجة ذلك أن

عرف الأوربيون أين تُنتج التوابل وبأى سحر تُنتج ، حتى إذا قُطع عليهم الطريق ثانية وسدت دونهم أبواب الأسواق الهندية لوجود دولة إسلامية معادية وللحروب التى لا تنقطع ببلاد المشرق ، تجلى لديهم تماماً عظم الفرص التى تتنظر أية دولة تستطيع أن تجد سبيلا جديداً إلى « بلاد الهند التى تنمو فيها الأفاويه » .

وانضم إلى تلك الرغبة عامل جديد هو المنافسة بين البندقية وجنوة . وقد تمكن البنادقة بجمعهم بين المهارة الديبلوماسية وروح المخاطرة بالنفس وبعد النظر فى السياسة من تكوين نفوذ قوى مكين لهم بالقاهرة ، كما جعلوا من أنفسهم الوكلاء المحتكرين لتجارة الشرق بأوربا . وعلى حين أن حظهم كان يختلف فى بيزنطة من حيث الطرق البرية باختلاف التقلبات السياسية التى تحدث بتلك المدينة ، إلا أنهم تمكنوا من مقاومة كل تحدّ لهم ومن المحافظة على تفوقهم فى تجارة البحر الأحمر . أما الجنويون فإن رجحان كفة منافسيهم المكروهين رجحاناً متواصلا فى هذه التجارة أشد التجارات جميعاً مكاسب وأرباحاً ، كان السبب فى أن أوجد لديهم ذلك الدافع القوى الذى لا يهدأ له أوار والذى يحفزهم إلى الخروج من محبس البحر المتوسط .

والمنافسة التى دارت رحاها بين البندقية وجنوه فى القرنين الثالث عشر والرابع عشر مسألة ذات أهمية حيوية فى التاريخ . وكانت البندقية دولة تجارية لا يخدم جهازها الحكومى مصالح التجار بل تجارة الدولة . ذلك أن العائلات المتاجرة المثتين قد تشيد لنفسها — كعائلات — ما تشاء من إمبراطوريات تجارية ببلاد المشرق ، بيد أن السياسة والتعيينات فى الوظائف وشئون الحرب وقواعد التجارة نفسها ، كانت تحددها الدولة تحديداً دقيقاً . فلم تكن هناك أساطيل بحرية خاصة ولا احتكارات خاصة ، بل أسطول للدولة واحتكارات للدولة ، بل اقتصاد بأكمله تديره الدولة .

فأما جنوة فحالها مختلف عن ذلك جداً . فإن العائلات الكبيرة والأحزاب الكبيرة كانت تقبض على جهاز الجمهورية الحكومى وتدفعه فى سبيل الربح الخاص . فإذا استولى أحد الأحزاب على مقاليد السلطة فى المدينة أبعد منافسيه عنها نفياً وتشريداً . وكانت هذه النزعة الفردية لدى الجنويين مما مكنهم أن يعملوا فى كل بلاط ملكى مستشارين وخبراء وأن يصقلوا كثيراً من الأصول الفنية للتجارة ، ويكملوا

ما فيها من نقص ، وأن يحملوا قصب السبق فى المسرحية العظيمة مسرحية الكشوف الجغرافية بالمحيط ، وخاصة حيث تستطيع هذه الكشوف أن تهدم الاحتكار الذى كانت البندقية تحظى به .

وفى العقد الأخير من القرن الثالث عشر اقترح الجنويون على الخان أرغون صاحب فارس خطة يرمون من ورائها إلى تحويل تجارة الأفاويه مع ملبار إلى الخليج الفارسى ، ومن ثم تحمل براً إلى موانى شرق البحر المتوسط ، حيث تمكن الجنويون برعاية أباطرة أسرة باليولوجوس من الحلول محل البنادقة . وكانت الفكرة تقضى بأن يبنى الجنويون أسطولا على الخليج الفارسى يُغلق البحر الأحمر فى وجه التجارة الهندية . على أن ذلك الاقتراح لم يتحقق ، ولكن جنوة لم تكف أبداً عن الشخوص ببصرها نحو الهند . فلم يكن ثم وسيلة للرد على قوة الإسلام واحتكار البندقية سوى إيجاد طريق بحرى من أوله لآخره . ويصف هدسن الجهود السابقة التى بذلها الملاحون الأوربيون فى سبيل كشف ذلك الطريق ، وأشدها إثارة للاهتمام ، تلك الرحلة التى قام بها آجولينو دى ڤيڤالدو ، الذى دفعه قصده الصريح إلى كشف طريق بحرى إلى الهند ، إلى الإقلاع فى ١٢٩١ من جنوة عن طريق جبل طارق محاذياً للساحل الإفريقى . وأخيراً تمكن الجنويون بفضل تأييد أسبانيا والبرتغال لهم من اختراق نطاق احتكار البنادقة وحصار الإسلام البحرى ، وذلك بالوصول إلى المحيط الهندى بالدوران حول رأس الرجاء الصالح والوصول إلى المحيط الهادى عبر القارة الأمريكية .

ومع ذلك فإن أحداً لم يصل إلى النتيجة المنشودة إلا بعد خمسة وسبعين عاماً قضيت فى بذل الجهد الجهيد فى مضمار النهوض بأصول الملاحة الفنية وارتياد الساحل الغربى لإفريقية . كان جهداً تعاونياً لا يعزى الفضل فيه إلى شخص بمفرده ، وإن جاء الإلهام فيه إبان أمد يربى على الأربعين عاماً فضلا عن الإرشاد والأموال اللازمة لوضع الخطة الشاملة والجهود المتواصلة التى تقضى الضرورة ببذلها لإنجاح الخطة ، جاءت كلها من أحد أبناء ملك البرتغال الأمير هنرى الملقب بالملاح .

وقبل البحث فى شخصية الدوم هنرى وما قام به من جلائل الأعمال حيث طبع عصراً بأكمله بطابع من روحه ، ينبغى لنا أن نؤكد للقارئ ناحيتين أخريين

للمسألة . ذلك أن شبه جزيرة إيبيريا والبرتغال بوجه خاص ، قد أصبحت — على نحو ما — وريثة لمأثور التقاليد الجنوية . وحدث فى ١٣١٧ أن نبيلا جنوياً اسمه مانويل پسّانيا عُين أميرالا للأسطول البرتغالى وجعل منصبه وراثياً ، فأخذ على عاتقه أن يستجلب الملاحين المهرة الخبراء ليقودوا سفن (غلايين) الملك . ويلوح أن پسانيا كان رجلا ذا قدرة فائقة ، وذلك لأن الملك أنعم عليه فى ١٣١٩ بمزارع ضخمة مترامية تضم مدينة أوديمارا . وكان العدد الجم من ربابنة پسانيا من نبلاء جنوة كشأنه تماماً . وانقضى على ذلك الترابط قرن لم يقتصر البرتغاليون أثناءه على التشبع التام بروح المغامرة البحرية المتسلط على جنوة ، بل تناولوا منها راية مواصلة الرسالة التى لم تستكمل رسالة اكتشاف طريق آخر للشرق بديل للقديم . وكانت البرتغال فى موقع جغرافى حسن شديد المواءمة لمواصلة هذا العمل ، فلئن وجب أن يرتاد الشاطئ الغربى لإفريقية وأن تُصور خرائطه وأن ترسل البعثات للدوران حول الرأس ، فلم تكن بأوروبا كلها ميناء أصلح موقعاً لهذا الغرض من لشبونة ، وكانت قد أصبحت منذ أوليات القرن الرابع عشر مستودعاً تمر من خلاله تجارة إفريقية من العاج والبلح فى طريقها إلى أوروبا .

وإذا كانت البرتغال قد أصبحت بذلك وريثة تقاليد الكشف والارتياد الجنوية ، فلقد أصبحت أيضاً فى القرن الخامس عشر نصيرة المسيحية وراعيتها على الإسلام . فكأن روح الحروب الصليبية لم تبق فيها جذوة الحياة متقدة فقط ، بل لقد ازدهرت أيضاً مكتسبة قوة على قوتها بشبه الجزيرة الإيبيرية إبان القرنين الخامس عشر والسادس عشر . وبينما لم يكن الإسلام فى نظر دول غرب أوروبا الأخرى إلا شبحاً بعيداً لتهديد شاسع ، فإنه لدى شعوب شبه الجزيرة الإيبيرية ولدى شعب قشتالة وأرغونة والبرتغال ، كان يمثل قوة على الأبواب تهدد بالثبور وتتوعد بالقهر وشدة المراس وتكل بها عيناً يقظة لا تنام . وكانت الحماسة ضد المسلمين تلم بغير هذه من الأقطار على فترات متقطعة ؛ ولكن الإيبيرى كان محارباً صليبياً بحكم الضرورة الملحة فى كل يوم من أيام حياته ، وذلك لأن الممالك الإسلامية كانت لا تزال موجودة على أرض شبه الجزيرة نفسها وكانت لا تزال تهدد . وكان الإيبيرى المخلص لدينه المتفانى فى حب وطنه إسبانيًّا كان أو برتغالياً ،

يعد القتال مع الإسلام ضرورة ماسة صارمة : ويراه خليطاً يجمع على حد سواء بين الواجب الديني والضرورات الوطنية . لقد كان الإسلام هو عدوه اللدود الذى لابد من قتاله فى كل مكان . وسيظل الشيء الكثير من تصرفات البرتغال فى آسيا غامضاً لا سبيل إلى تفسيره ما لم نتذكر هذه الحقيقة على الدوام .

وقد تجمعت هذه العوامل جميعاً فى شخصية الأمير هنرى الملاح الذى يعتبرونه بطلا . وكان الدوم هنرى (١٣٩٤ — ١٤٦٠) هو الابن الثالث للملك يوحنا الأول . وقد ربى متشبعاً بتقاليد الشهامة والفروسية التى أثرت عن نونو ألفاريز البطل القومى العظيم ، الذى أحرز للبرتغال استقلالها بنصره الذى فاز به على المسلمين ، وقد غُذى هنرى منذ أيام طفولته الأولى بلبان تصوف دينى مسيحى عسكرى يخالطه بغض مرير للإسلام . وكانت روح البغضاء التى تملأ نفسه حقداً على الإسلام من العظم بحيث جرد حملة وهو بعد حدث صغير على مدينة سبتة (Cevta) ، فأخذها عنوة فى ١٤١٥ . وينبغى أن لا يغيب عن البال ، أن ذلك النزال كان أول هجوم شُن على قاعدة الإسلام بإفريقية ، وهى الباب الذى دخل من خلاله الإسلام إسبانيا فى ٧١١ . ثم قام بحملة أخرى على طنجة فى ١٤٣٧ رجا من ورائها أن يكرر النجح الذى أصابه فى المغامرة الأولى ، ولكنه باء بكارثة كبيرة . وقد عرف هنرى حتى قبل ذلك الأوان المهمة التى ألقتها على عاتقه الأيام . فأخذ يفقد رويداً رويداً اهتمامه بالنشاط العسكرى المحدود النطاق . وكان هدفه منذ حوالى ١٤١٧ وضع الخطة الاستراتيجية الكبرى التى تطوّق جناح الإسلام ، وتحمل العالم المسيحى رأساً إلى المحيط الهندى . وأخذ اهتمام هنرى بشئون الهند ينمو ويزداد بمرور الزمن . وقد قال أزورارا كاتب ترجمته المتحمس : إن كثيراً من الهنود زاروه ، بل لقد أقلع بعضهم على سفنه . وأوشكت فكرة الوصول إلى الهند أن تملك عليه مشاعره أناء الليل وأطراف النهار . بل الواقع أن هنرى كما يقول برّوس وغيره من المؤرخين البرتغاليين ، كان يعتقد أنه تلقى من الله أمراً بأداء هذا الواجب . ومهما يكن من أمر ، فإنه استخدم لهذه الغاية المقدسة الموارد الضخمة التى كان يملكها عقد رهبان المسيح ، والذى كان هو زعيمه الأكبر . وتهيأ له بفضل وجود هذه الموارد الضخمة تحت تصرفه أن يجمع حوله فى قلعته على رأس ساجْرس طائفة من

الرياضيين ورسامى الخرائط والفلكيين بل حتى من أسرى المغاربة الذين لهم علم بالجزر البعيدة ، وتجرد جدياً لدراسة الملاحة البحرية . وكان بين المتصلين به رجل اسمه يهوذا قريسقوس يعرف باسم الأستاذ (المعلم) جاكومى ، وهو رسام خرائط ماهر خبير بصنع الأدوات البحرية . وقد أدرك الدوم هنرى منذ البداية أن الخطوة الاستهلالية الجوهرية لنجاح الحملة الموجهة إلى الشرق هى ارتياد الشاطئ الإفريقى وكشفه — وكان يقع إلى جنوب رأس باجادور منطقة غير مأهولة لم يمر من خلالها أى ملاح أوروبى قبل ذلك . وهى تمتد مسافة تزيد على عدة مئات من الأميال ، كما أنه لم يكن ثم بارقة تبشر بإمكان وصول أية حملة إلى رأس الرجاء الصالح ، فضلا عن التوغل فى المحيط الهندى — حتى تستطيع السفن أن تكتشف الأراضى الواقعة وراء الصحراء . بيد أن البحارة أظهروا نفوراً لا سبيل إلى قهره والتغلب عليه خشية — فيما يقال — أن يصبحوا جميعاً من السود الزنوج إن هم تجاوزوا باجادور ، وقد استكشفت جزر ماديرا فى ١٤٢٠ وجزر أزورس فى ١٤٣١ . وبعد القيام بأربع عشرة محاولة مخفقة ، تمكنت إحدى حملاته بقيادة جل إيانس من عبور رأس باجادور فى ١٤٣٤ . ثم بلغت سفنه بعد ذلك ساحل غينيا التى كانت فى ذلك الأوان سوقاً عظيمة للذهب المصدر من تمبكتو . وما لبث أحد ربابنته أن عبر بعد ذلك خط الاستواء وبلغ مناطق ليست بأى حال امتداداً للصحراء الكبرى ، وهى أرض كريهة رهيبة مقفرة موحشة ليس فيها أى أثر للحياة البشرية . لقد كان ذلك الاستكشاف أعظم ما أنجزته الملاحة البرتغالية البحرية ، إذ أن ذلك العمل وحده هو الذى يسّر الدوران حول الرأس وجعل اختراق الطريق إلى الهند ممكناً .

وكان ساحل إفريقية حتى الرأس الأخضر (رأس ڤردى) واقعاً بالفعل تحت هيمنة الأمير هنرى ، ولم يبالغ مترجمه ازوراراً أو يتزيد فى القول عندما أشار إلى أن : « يقيناً أنى لاشك فى أن أميراً فى العالم قد أرسى منذ أيام عظمة الإسكندر وقيصر من صوى غزوه ما يبعد مثل ذلك البعد السحيق من بلاده * »

* حدث أثناء إحدى حملات اقتناص الرقيق على امتداد الشاطىء بعد عبور رأس باجادور ، أن قبض كرو نكالودى ستارا على رئيس زنجى اسمه أدلن وكان رجلا مدهشاً من نواحى كثيرة . وكان ذا حظ كبير من الأسفار ، كما كان قادراً على التحدث بلغات المغاربة . وهو الذى أخبر الدوم هنرى نبأ القيروانات (القوافل) التى كانت تعبر الصحراء إلى السودان ومنه تسير قدماً إلى البحر الأحمر .

وقد امتد ما أنجزه الأمير هنرى الملاح من جلائل الأعمال إلى ميادين أخرى كثيرة ، وكلها ترمى إلى الهدف الأعلى وهو الإحاطة بجناح الدولة الإسلامية المبغضة إليه ، وهى التى كانت تمد ألويتها عبر إفريقية الشمالية وتسد المسالك على كل الطرق الموصلة بين الهند وأوروبا . فأسس أول مدرسة نظامية للملاحين والبحارة ، أخذت تنهض حتى أصبحت على كر الزمان الأكاديمية البحرية بساجرْس . وهناك أخذ يجمع إليه ويدرب كل ذى روح مغامرة وثابة من الرجال ، ممن تهيأت أفئدتهم للقيام بغزو البحار وتذليلها — بروح الحرب الصليبية . وكان النوتية البرتغاليون يلقنون فى تلك المدرسة أحدث ما بلغه العلم من معرفة . وقد أدرك هنرى فضلا عن ذلك أن الرحلات الشاسعة ليس فى الإمكان القيام بها بالسفن المستخدمة فى ذلك الأوان . فحسن من صنع السفينة الكاراڤل حتى بلغ بها حد الإتقان ، وهى سفينة سريعة وخفيفة ولكنها محكمة الصنع قوية البناء ، وقادرة على المسير قريباً جداً من الشاطئ وعلى اختراق المستنقعات الساحلية . كما أنه حسّن فى صناعة الغلايين ، وهى سفن ثقيلة البناء بطيئة الحركة ، ولكنها تستطيع حمل المدافع .

وفى عام ١٤٥٤ تلقى من البابا نيقولاس الخامس تفويضاً بأن له الحق فى جميع الكشوف التى يكشفها حتى بلاد الهند . وقد اقتبسنا فيما يلى شذرات من ذلك المرسوم ذى الأهمية الجوهرية كما أنه أول مراسيم ثلاثة تحدد الاحتكارات البرتغالية ببلاد الشرق :

« إن سرورنا لعظيم إذ نعلم آن ولدنا هنرى أمير البرتغال ، إذ يترسم خطى والده العظيم الذكرى الملك يوحنا وإذ تلهمه الغيرة التى تملأ الأنفس كجندى باسل من جنود المسيح ، قد دفع باسم الله إلى أقصى البلاد وأبعدها عن مجال علمنا كما أدخل بين أحضان الكاثوليكية الغادرين من أعداء الله وأعداء المسيح مثل العرب والكفرة (كذا ... !!)

« حتى إذا أقر العائلات المسيحية ببعض جزر المحيط غير الآهلة بالناس وأقام بها الكنائس ابتغاء إقامة شعائر الأسرار المقدسة ، وإذ تذكر الأمير أن أحداً فى محيط ذاكرة البشر لم يمخر عباب البحر إلى شواطئ الشرق القصية ، فإنه أيقن بأنه

مستطيع بذلك أن يقدم لله أعظم آية على خضوعه له ، فإذا تم على يديه اختراق المحيط ملاحة حتى بلاد الهند ، التى يقال إنها خاضعة آنفاً للمسيح ، وإن هو توصل إلى إنشاء العلاقات بينه وبين هؤلاء الناس ، فإنه سيتمكن من حملهم على النهضة لبذل العون لمسيحيي الغرب على أعداء الدين . وسيستطيع فى الحين نفسه أن يدخل فى الطاعة والخضوع بإذن من الملك جميع الوثنيين الذين لم تمسهم حتى الآن يد الإسلام ويدخل اسم المسيح فى نطاق علمهم .

« وهكذا تجده إبان السنوات الخمس والعشرين الأخيرة قام دون الحصول على عون جيوش البرتغال ، ومع التعرض لأشد المخاطر ومجابهة أعظم المحن ، قام بما له من مراكب كاراڤل سريعة الانطلاق يبحث فى غير دعة ولا هوادة جميع المناطق الجنوبية حتى القطب الجنوبى عابراً المحيطات ، حتى إذا اخترق لجـّات عدة بحار بلغ فى النهاية ولاية غينيا ، ثم تقدم منها بعد ذلك إلى مصب النهر الذى يسمى عادة باسم النيل . (وهذا خطأ وقع فيه الكاتب) .

« وقد رأينا بعد التأمل العميق وبعد أن وضعنا فى حسباننا أننا برسائلنا الرسولية ، قد منحنا إلى الملك أفـّونسو الحق الكامل المطلق فى غزو وفتح وقهر جميع الأقطار الواقعة تحت حكم أعداء المسيح مسلمين كانوا أو وثنيين ، فإننا نريد برسالتنا الرسولية هذه أن يقوم نفس الملك أفونسو والأمير وجميع خلفائهما منفردين دون غيرهم بكافة الحقوق فى احتلال وامتلاك جميع الجزر المذكورة والموانى والبحار المذكورة أدناه ، كما أنه محظور على جميع المسيحيين المخلصين دون إذن من أفونسو المذكور وخلفائه أن يعتدوا على ما لهم من سيادة . وستصبح جميع الفتوح التى تمت حتى اليوم أو التى ستتم فى قابل الأيام ، أو الفتوح التى تمتد إلى رأس باجادور ورأس نون حتى ساحل غينيا وجميع بلاد الشرق على الدوام وإلى الأبد فى المستقبل تحت سيادة الملك أفونسو » .

وفى الثالث عشر من مارس ١٤٥٦ ، أصدر البابا كاليكستوس الثالث مرسوماً بابوياً ثانياً يؤكد المنحة التى وهبها نيقولاس الخامس ، وبذلك تمكن هنرى من الحصول على شىء كان يعد فى القرن الخامس عشر حقاً قانونياً مطلقاً لا سبيل إلى منازعته ، فضلا عن إعلانه عن غاياته السياسية والدينية . والشىء الوحيد الذى يبرز بأقصى غاية الوضوح فى المرسوم البابوى والذى قدر أن يكون له أثر قوى فى السياسة إبان المائة السنة

التالية ، هو المزج بين الدافع الروحى إلى فتح الأراضى الوثنية من أجل المسيح ، وبين الحمية المتعصبة ، بالدعوة إلى توجيه الضربات إلى جذور الإسلام بمهاجمته من الخلف .

وكانت المرحلة التالية من مراحل رسالة البرتغال هى معاهدة ترودیسیلهاس التى أبرمت فى التاسع من يونيو ١٤٩٤ . وبهذه المعاهدة حددت كل من البرتغال وإسبانيا خطاً يقع إلى الغرب من جزر رأس ڤردى بنحو ٣٧٠ فرسخاً وجعلتاه الحد الفاصل بين ممتلكاتهما . وقد أكد البابا الإسكندر السادس هذه الاتفاقية وبذا أصبح الخط حد التقسيم النهائى بين مستكشفات كل من الدولتين الإيبيريتين .

وفى الوقت نفسه كانت الحملات البحرية المنظمة على الأسس التى وضعها الأمير هنرى تحرز التقدم . وفى ١٤٩٧ اكتشف بارثليمى دياز « رأس العواصف » التى تغير اسمها عن جدارة فأصبح رأس الرجاء الصالح ، وبلغ المحيط الهندى . وبذا أصبح الطريق البحرى إلى الهند مفتوحاً ؛ وبقى على الدوم مانويل الملقب بالسعيد ، أن يحقق ذلك الحلم . ولم يتم البت فى الإقدام على هذه الحملة إلا بعد مناقشات طويلة . وفى المجلس الأكبر الذى بحث ذلك المشروع كانت المعارضة قوية وملحة تلقاء الخطة الموضوعة التى كان كثير من زعماء الرأى فى البلاد يدفعون بأنها إن هى إلا سراب خادع من المحتمل أن يدمر مالية الدولة . وكان الذى بت فى الأمر هو الدوم مانويل نفسه حيث أعطى رأيه فى جانب المشروع وأمر بتجهيز السفن المسلحة فوراً .

وفى الثامن من يوليو ١٤٩٧ أقلعت أربع سفن من ميناء بلم على مصب نهر التاجه . وكان على رأس هذه الحملة ڤاسكوداجاما وهو نبيل من رجال البلاط الملكى . وكانت سفينة القيادة المسماة سان جابرييل والتى تحمل عشرين مدفعاً وزميلتها سان رافاييل التى يقودها بول داجاما الأخ الأصغر لڤاسكو ، قد بناهما قبل ذلك بست سنوات بارثليمى دياز أعظم الملاحين البرتغاليين قاطبة . وكانت السفينة الثالثة سفينة كاراڤل سريعة ، على حين أن الرابعة كانت سفينة بضائع بقيادة جونسالونونس ضابط العتاد الحربى . وكانت سفينة القائد الربان الأكبر ترفع على ساريتها علماً رسم عليه صليب كبير للمسيح كما كانت تحمل المدافع أيضاً ، وهما الرمزان اللذان اتخذتهما القوة الجديدة الزاحفة على الشرق .

ولا يحتاج المقام هنا إلا إلى أقل القول عن رحلة داجاما . وكان يساعده الملاحون

والنوتية الذين دربوا بالمدرسة العظيمة التى أنشأها الأمير هنرى . وكانوا يعرفون البحار على طول الطريق حتى رأس الرجاء . أما من حيث الساحل الشرقى لإفريقية ، فإن الرحلة صعوداً إلى موزمبيق لم يبد فيها أية صعوبة . وكان دليل الربان العام للحملة أثناء عبورها المحيط الهندى نفسه مرشداً هندياً ، وضعه ملك ميليندى تحت تصرفه . ولا يعزبن عن البال أن المحيط الهندى بما فى ذلك شاطىء إفريقية بأكمله كان يرتاده الملاحون الهنود قبل ذلك بعدة قرون خلت . وكانت السفن الهندية تتردد على موانى الساحل الإفريقى الشرقى ، وكانت دون أدنى ريب تعرف مدغشقر . ولكن أحداً لا يدرى بوجه التحقيق هل داروا حول رأس الرجاء وأبحروا صعداً بمحاذاة الشاطئ الغربى أم لا . ويذكر هدسن أن كوقلهام علم أنه : « فى تلك البحار (المحيط الهندى) كانت تشيع بعض الأخبار عن عبور بعضهم إلى البحار الغربية وذلك بأن العلماء المذكورين قالوا إنهم عثروا على نصب تذكارى لذلك الأمر » . وهو يزيد ذلك تفسيراً بإشارته إلى خرائط فرامورو : « ويحتفظ فرامورو بذكرى رحلتين قام بهما من الهند حول الطرف الجنوبى لإفريقية ، وهو يطلق على الرأس الجنوبية اسم دياب ، ويقول إن إحدى العواصف دفعت إحدى السفن الهندية فى قريب من ١٤٢٠ إلى تلك النقطة وإنها سارت غرباً ألفى ميل فى أربعين يوماً دون أن تمس الأرض . وقد تحدث فرامورو هو نفسه مع شخص جدير بالثقة قال إنه أقلع من بلاد الهند ، ماراً بإزاء سوفالا إلى مكان يدعى جاربن على الشاطئ الغربى لإفريقية » . فكأن المحيط الهندى كان إذن بحراً له خرائط مرسومة وطرق معروفة ، ولذا فإن وصول ڤاسكوداجاما إلى قاليقوط لا يمكن أن يوزن — كعمل ملاحى عظيم — بأعمال الربابنة الأول الذين مروا بإزاء سواحل الصحراء لأول مرة وعبروا خط الاستواء ولا بمأثرة دياز الكبرى حين وصل إلى رأس الرجاء . ومع ذلك فإن الذى تم كان تحقيقاً للحلم العظيم ، والحدث الجلل الذى توج مفرق سبعين عاماً من جلائل الأعمال .

وقد أسلفنا البحث فى الدوافع المستترة وراء جهود البرتغاليين ، وهى الخطة الاستراتيجية الكبرى المرسومة ضد قوة الإسلام السياسية والتبشير بالنصرانية والرغبة فى احتكار تجارة الأفاويه . ومنذ ساعة وصول داجاما صارت هذه الأهداف

المناهل الكبرى للسياسة البرتغالية فى الشرق مدة تقارب مائة سنة . ومن ثم وجب أن ينظر إلى علاقة البرتغاليين بآسيا على أساس هذه الأهداف .

وقد أدخل وصول السفينة سان جبرييل إلى المحيط الهندى عاملا انقلابياً آخر : ـ هو السفينة التى تحمل المدافع . ذلك أن تسليح السفن البرتغالية كان كما سنرى من فورنا مباغتة غير منتظرة تماماً ، بل شيئاً جديداً لا عهد للبحار الهندية بمثله ، كما أنه أتاح للبرتغاليين ميزة سريعة وحاسمة على خصومهم من الهنود . وكانت الدولة غير الأوروبية الوحيدة التى استخدمت المدفعية فى الأسطول هى الدولة العثمانية ، ولكن عندما وصل البرتغاليون إلى المحيط الهندى لم يكن لدى الأتراك أسطول بحرى هناك . حتى إذا حان وقت تنبه السلطان إلى ذلك التهديد ، لم تكن البرتغال قد حصلت فقط على موطئ قدم ، بل كانت فى موقف تستطيع فيه على الدوام أن تعزز بحريتها ، وهو أمر لم يكن فى مستطاع الأتراك الذين كانت قواتهم البحرية مركزة بمنطقة المشرق . لذا وجب علينا أن نتحول بنظرنا الآن إلى هذه الناحية الهامة من الموضوع .

لقد كان المحيط الهندى منذ أزمان سحيقة القدم مسرحاً لحركة تجارية ضخمة . وكانت السفن الهندية منذ فجر التاريخ تمخر البحر العربى وتتوغل حتى موانى البحر الأحمر ، وتمد فى حبال العلاقات الثقافية والتجارية الوثيقة مع مصر وفلسطين وغيرهما من أقطار الشرق الأدنى . وقبل أن يفشى هيبالوس سر الرياح الموسمية للرومان بزمن طويل ، كان الملاحون الهنود يستفيدون من هذه الرياح ويستخدمونها ويصلون بواسطتها إلى باب المندب . وتقدم النوتية من الهنود شرقاً حتى بلغوا بورنيو ، وكانت هناك مستعمرات هندية مزدهرة مدة تربى على ١٢٠٠ سنة ببلاد الملايو وبجزائر أندونيسيا وبكمبوديا وتشامپا وغيرها من مناطق الشاطئ . وكانت سفن هندية من كويلون تقوم برحلات منتظمة إلى الساحل الجنوبى لبلاد الصين . والواقع أن عهداً طويلا من قديم التقاليد فى الحياة البحرية كان جزءاً هاماً من تاريخ شبه الجزيرة الهندية . على أن الحقيقة الواقعة أن تجارة الأفاويه التى كانت تغذى أوروبا والتى كانت عاملا قوياً لجذب الغربيين لم تكن تجيء كلها من بلاد الهند وإن كانت تحمل من الموانى الهندية على طريق البحر الأحمر .

كانت الهند قبل كل شيء بلاد الفلفل وحب الهان ، على حين أن القرنفل وجوزة الطيب وأنواعاً أخرى من الأفاويه تعدلها فى علو قدرها كانت تجئ من جزائر أندونيسيا . وكذلك كان شأنها منذ بواكير الحقبة المسيحية ، وذلك لأنا نجد فى ملحمة كاليداسا المسماة راغوڤامسا إشارة إلى السفن المحملة بالأفاويه الفواحة الواردة من الجزر وراء البحار .

وظل تسلط الهند فى المياه التى تحيط بسواحلها غير منازع لا يجد من يتحداه حتى نهضت البحرية العربية فى عهد الخلفاء الأوائل. على أن العرب والهنود تنافسا فى ذلك المضمار صراحاً ، كما أن فكرة « السيادة على البحر » اللهم إلا فى المضايق الضيقة ، كانت شيئاً غير معروف فى مفاهيم الآسيويين . أجل إن إمبراطورية سرى ڤيجايا التى كانت تتحكم فى مضيق الملايو كانت لها الهيمنة التامة على السفن المارة بهذا الدرب البحرى أمد قرنين من الزمان ، ولكن لم يحدث قط فى أى عصر من العصور أن دولة من الدول الآسيوية مارست السيطرة على حركة مرور السفن على صفحة البحار المفتوحة أو ادعت أن لها الحق فى ذلك . والنتيجة الحتمية لهذه الفكرة عن حرية البحار ، أن حكام الهنود الذين كانت لهم أساطيل بحرية قوية مثل أباطرة الكولا أو آل زامورين ، لم يكونوا يستخدمونها إلا فى حماية الشاطئ ، وفى القضاء على القرصنة وفى نقل الجند وحراستهم عبر البحار فى حالة الحرب . وهكذا حدث أثناء حرب المائة عام بين ملوك سايلندرا أصحاب دولة سرى ڤيجايا وبين أباطرة الكولا ، أن جميع المعارك المدونة وقعت كلها براً ، حيث كان ملك الكولا يحمل جيوشاً بأكملها عبر ذلك المضيق إلى شبه جزيرة الملايو ويقوم بحملات متعاقبة على أرض حكام الملايو . أما القتال البحرى على أى معيار كبير كالذى حدث أثناء الحروب التى دارت رحاها بين قرطاجنة وروما ، فالظاهر أنه كان شيئاً غير معروف بالهند قبل وصول البرتغاليين . من أجل ذلك لم تكن السفن الهندية مزودة بالعتاد اللازم للقتال فى بحار بعيدة .

ولم يحدث قط أن شابت نشاط العرب التجارى أية شائبة سياسية . وكان العرب يتجرون بمنتهى الحرية بجميع الموانى الهندية ، وينطلقون بسفنهم إلى المحيط الهادى بل يبلغون ساحل الصين . ويلوح أنهم بعد القرن التاسع دخلوا حلبة منافسة فعالة

الأثر مع التجار الجوجراتيين على تجارة الأفاويه المستجلبة من الجزر الأندونيسية ، وذلك أن أفونسو ألبوكرك عندما وصل إلى ساحل الملايو ، لاحظ أن التجار العرب والهنود والصينيين كانوا يتنافسون فى أسواق تلك المنطقة تنافساً صريحاً لا لبس فيه .

وقد ظهرت السفن الصينية أيضاً منذ أقدم العصور فى مياه الملايو كما كانت تظهر بين حين وآخر بالموانى الهندية . غير أن التوسع الصينى البحرى المنظم نحو الجنوب لم يبدأ إلا فى عهد أسرة منج . ففى حكم الإمبراطور يونج لو من أسرة منج جهزت حملات بحرية متعاقبة بقيادة قائد بحرى عظيم اسمه تشنج هو ، وهناك وصف واف لرحلات ذلك القبطان فى البحار الجنوبية خلفه لنا خصى اسمه ماهوان كان يصحب الحملة ويعمل معها مترجماً . ومن العمارات البحرية الضخمة التى قادها تشنج هو أرمادا ، تحتوى ما لا يقل عن خمس وستين سفينة ، كان بعضها ذا حجم ضخم جداً . فزار فى منطقة المحيط الهندى جزيرة سيلان وقاليقوط عدة مرات بل لقد مضى قدماً حتى بلغ عدن* . على أن هذه الطفرة الفجائية من النشاط البحرى كانت شيئاً مؤقتاً ، ومن ثم فنحن لا نسمع بعد وفاة تشنج هو بأى نشاط صينى منظم على صفحة البحر . ومع ذلك فإن الزيارات المتكررة التى قام بها أمراء البحر إبان عهد أسرة منج لبلاد الملايو لم تحرم بعض النتائج السياسية . إذ أصبح حكام الملايو لأول مرة على ذكر من قوة إمبراطورية ابن السماء ، وإذا هم لا يجرأون على تحديها ويصبحون تبعاً لها ويقبلون سيادة إمبراطور بكين عليهم . وقد دامت هذه التبعية زهاء قرن من الزمان ، وذلك حتى وصلت السفن الحربية البرتغالية إلى قبالة الشاطئ ، كما أن الذى حدث — كما سنرى ذلك فى إبانه المناسب — أن مسلك السلطات البرتغالية نحو هؤلاء الرؤساء المسلمين قدر أن تكون له عواقب بعيدة المدى

---

* إن ما ذكره سانسوم عن وجود مصنع صينى بقاليقوط لا أساس له من الصحة على الإطلاق . وهو يبنى ما أدلى به على ما كتبه قسيس نسطورى حيث أبلغ كبرال عن وجود ذلك المصنع ، وأن عمارة بحرية صينية جاءت إلى قاليقوط ودمرت المدينة لأن حاكمها اعتدى على ذلك المصنع . ثم يستنتج سانسوم أيضاً نتيجة مريحة للبال هى : « أنه من حيث الأسبقية ، ينبغى على البرتغاليين أن يتنحوا عن مكانهم للمعتدين الصينيين ببلاد الهند » . والواقع أنه لم يقم للصينيين أبداً مصنع بقاليقوط ، كما أن أساطيل تشنج هو لم تقذف المدينة بقنابلها . ولا هناك أية إشارة إلى مثل ذلك العمل فيما سطره ماهوان عن تلك الرحلة .

فى علاقات الدول الغربية بالإمبراطورية الصينية .

وفى نهاية القرن الخامس عشر وعلى التحديد إبان الفترة التى بلغ فيها سلطان البرتغاليين فى المحيط الهندى أقصى قوته الفعالة (١٤٩٩ — ١٦٠٠) كان شبه الجزيرة الهندى تحت حكم دول ذات قوة ضخمة نشرت فيه ألوية الاستقرار الداخلى . وقد نظمت المنطقة الواقعة إلى الجنوب من تنجابهدرا حتى تستطيع مقاومة الغزو الإسلامى الذى حدث فى ١٣٣٧ . حتى إذا انتهى القرن كانت إمبراطورية ڤيچاياناجار قد أوثقت تماسكها وبسطت رقعتها حتى رأس قومورين ذاتها . وفى عهد ديڤارايا الثانى (١٤٢٢ — ١٤٤٦) أصبحت أقوى دولة بالهند فى زمانها ، وقد اجتمع لنا وصف جديد بالثقة لقوتها وسلطانها ومواردها فيما دبجه لنا نيقولوكونتى الرحالة الإيطالى الذى زار تلك الولاية فى ١٤٢٠ ، وما خلفه عبد الرزاق السفير الفارسى فى ١٤٤٣ .

وعند وصول البرتغاليين إلى البحار الهندية ، كانت تلك الإمبراطورية تتفوق تحت تاج ناراشمهارايا تفوقاً لا سبيل إلى منازعته بالمنطقة الواقعة إلى الجنوب من رايشور دوآب . ومن المهم أن نلحظ أن أباطرة ڤيچاياناجار كان يجمعهم مع البرتغاليين نزعة القتال الصليبى ضد المسلمان (المسلمين) . وكما أن وجود المسلمين بشبه جزيرة إيبيريا وقيام إمبراطوريتهم وراء مضيق جبل طارق كان فيهما الخطر كل الخطر على البرتغاليين ، فكذلك كان وجود السلطنات البهمنية على حدود دولة الفيچاياناجار يمد تلك الدولة بدافع قوى يحفزها على حماية العقيدة والثقافة الهندوكية بجنوبى الهند ، وعلى مظاهرة الاستقلال القومى ضد الدول الإسلامية . فكان الإسلام هو العدو المشترك لكل من البرتغال والفيچاياناجار ، وذلك عامل كانت له أهمية ضخمة كما سنشهد ذلك فى توطيد قدم سلطان البرتغاليين بمدينة جوا .

وكانت تقع إلى الشمال من دولة الفيچاياناجار سلطنة عادل شاهى فى بيچابور ، التى أسسها يوسف عادل خان (١٤٩٠) ، وهو أحد أبناء السلطان مراد عاهل تركيا ، وقد فر إلى بلاد الهند ودخل فى خدمة الملك البهمنى ، حيث كانت مملكة البيچابور تمتد إلى ساحل كنكان . وإلى الشمال كانت تقع سلطنة الجوچرات القومية التى اتخذت مدينة أحمد أباد عاصمة لها . وقد اشتد ثراء تلك المملكة التى

أسسها فى ١٤٠١ ظفرخان أحد أبناء رجل من راچبوت اعتنق الإسلام ، وكانت تتحكم فى أعظم موانى كامباى وشاول وسورات التى كانت تجارة شمال الهند تتدفق منها إلى الغرب . وفى عهد محمود بيجارا الذى اعتلى العرش فى ١٤٥٨ وحكم البلاد ثلاثة وخمسين عاماً (حيث توفى ١٥١١) ، كانت سلطنة الجوچرات تحظى ببلاد الهند بكل المهابة والقوة التى تنعم بها أية مملكة عظمى .

وهناك عوامل عظمى ثلاثة تتصل بالأحوال السياسية بآسيا ، ويمكن وضعها فى الحسبان من حيث تأثيرها على تطور العلاقات مع الأمم الأوروبية . وأول هذه العوامل هو كما رأينا ، تماسك الإمبراطورية الهندوكية فى وحدة واحدة بجنوبى الهند ، وهى حركة هدفها مقاومة انتشار الإسلام . وكان العامل الثانى هو التسلط الذى حظى به الصينيون لعهد أسرة منج على المنطقة الجنوبية من القارة الآسوية حتى سلطنة ملقا ، بل حتى جزائر إندونيسيا . ويصف مؤرخ أندونيسى حديث النتائج السياسية لتوسع الصينيين جنوباً فيقول : « كان السفراء يرحلون من ميناء إلى آخر ليفسروا مهمتهم بأدب جم ويقنعوا بها أولى الرأى ويلتمسون من الحكام المحليين القيام بزيارة شخصية لعاصمة الصين لتقديم الجزية . وانقضت بضع سنين حدث أثناءها اندفاع من القوم نحو بيكين . وكان أول من ذهب ملك پيونى (وهى إما بورنيو الغربية أو برونى) ، وقد تقدم عند وصوله إلى البلاط الإمبراطورى بطلب عجيب فى خروجه على المألوف . فإنه سأل الإمبراطور سيد آسيا الشرقية أجمع ، أن يعفيه من دفع الجزية التى ينبغى عليه قضاؤها إلى دولة مادچاپاهيت ، وأن يسمح له بأدائها رأساً إلى الصين ، وهى مكرمة تفضل الإمبراطور بمنحه إياها فوراً . . . وحظى راچا ملقا بنفس النجح فى بيكين وحصل على أمر إمبراطورى إلى ملك سيام بأن يدعَ ملقا وشأنها . وفى هذه الرحلة بأرجاء الأرخبيل ، زار السفراء الصينيون أيضاً دولة مادچاپاهيت ، حيث شاء لهم سوء الحظ أن تورطوا فى معركة محلية قتل فيها بالصدفة مائة وخمسون من أتباعهم . فأبلغوا الأمر إلى سلطان بيكين وألزمت مادچاپاهيت بدفع غرامة فادحة لم تجرأ على رفض تسديدها . وفى سومطرة وجدت تلك البعثة السياسية مدينة پاليمبانج فى قبضة زعيم قراصنة صينى ، كان يقوم بمهام الملك بتلك المدينة القديمة . فاعتقلوه وأرسلوه إلى الصين ، وهى حقيقة تثبت تماماً

أن سلطان الإمبراطور كان موضع الاحترام التام » .

ومع أن سلطان الصين بتلك الجزر وبملقا قد ضعف ضعفاً شديداً باضمحلال أسرة منج ، إلا أن الصين ظلت مع ذلك عاملا سياسياً له أهميته . وكان سلاطين ملقا وبيتانج وغيرهما من ولايات الملايو يشخصون بأبصارهم نحو الصين ملتمسين الحماية ، وامتد على هذه المنطقة بأجمعها اتحاد صينى أشبه ما يكون بالأشباح الخيالية .

وثم عامل ثالث لا يقل أهمية عن هذين ، هو الكفاح المرير الذى كان يشتجر على الدوام بمنطقة ذلك الأرخبيل بين الإسلام والهندوكية . وقد انتقل الإسلام من جوچرات ودخل الملايو وما يليه من جزر . وما وافى منتصف القرن الخامس عشر حتى سار فى أعقاب التجارة أشواطاً بعيدة بالموانى . على أن المنطقة الداخلية ظلت مع ذلك محافظة بقوة على عقيدتها الهندوكية . ومع ذلك فإن النظام الاجتماعى الهندوكى الأساس على الجزر قد أخذ يتفكك ، كما أن الهندوكية كانت تتخذ موقف الدفاع وإن لم تبرح قوية ويناصرها عدد من الدول المنظمة .

وكانت الشقة الساحلية الواقعة عند النهاية القصوى لشبه جزيرة الهند ، وهى التى يفصلها عن امبراطورية الڤيچاياناجار جبال الغات الغربية التى لا يستطاع اختراقها ، — هى المنطقة الوحيدة التى كان لبعض صغار الأمراء سلطان مستقل بها . وكانت هذه المنطقة المعروفة باسم ملبار أو كيرالا والممتدة من منجالور إلى رأس قومورين هى أيضاً « منطقة الفلفل » المثلى التى ظلت السفن زهاء ألفى سنة من الزمان تقلع منها دون توقف إلى الخليج الفارسى والبحر الأحمر ، حاملة التوابل والمنسوجات وغيرهما من منتجات الهند . وكان أهم حاكم بتلك المنطقة هو الزامورين صاحب قاليقوط ، وهو العاهل الذى وصل إلى عاصمته ڤاسكوداجاما بسفنه الأربعة فى ذلك اليوم المشهود يوم ٢٧ مايو ١٤٩٨ . وكان ملك قاليقوط أى الزامورين ، وهو الاسم الذى يعرف به (ولا يزال ذلك اللقب موجوداً إلى اليوم) ، ملكاً عظيماً وإن كانت رقعة مملكته صغيرة . وقبل ذلك بعدة قرون خلت ، كانت قاليقوط هى المركز الأساسى لتجارة الأفاويه . ولم يكن ذلك قاصراً على الفلفل وحب الهان ومنتجات أخرى من ساحل ملبار ، بل إن توابل منقولة من جزر المحيط الهادى كانت تمر

بقاليقوط فى طريقها إلى أوروبا . وقد حملت لنا الأيام مما سطره بعض المشاهدين الأجانب عدة أوصاف لميناء قاليقوط وما كانت عليه من يسر ورغد . وقد لاحظ عبد الرزاق المبعوث الفارسى أن أية سفينة مهما يكن المكان الذى ترد منه أو المكان الذى هى قاصدة إليه كانت عندما تلقى مراسيها بميناء (قاليقوط) تعامل معاملة السفن الأخرى تماماً ولا تجد أية متاعب تواجهها . وكان اتجاه الرياح الموسمية الخاص هو الذى أضفى على قاليقوط أهميتها الممتازة تلك . كانت ذات موقع ممتاز مكنها من الاستفادة من الرياح الموسمية من البحر الأحمر حتى الساحل الهندى ومن الهند قفولا إلى شواطئ بلاد العرب .

وكان لتجار قاليقوط مستودعات لبضائعهم بالقاهرة والإسكندرية ، بل حتى بمدينة فاس فى المغرب الأقصى . وكانت هناك محالفة وثيقة دامت أربعة قرون على الأقل بين الزامورينات والمجتمعات التجارية التى كانت تتحكم فى تجارة الأفاويه . ولما كانت البيوت الكبرى التى تهتم بتلك التجارة بيوتاً عربية ، فقد نمت علاقات خاصة جداً بين ذلك الحاكم الهندوكى والمسلمين ، الذين لم يكونوا يشكلون أى خطر على السلطات الهندوكية لأنهم لم تكن لهم أى سلطة سياسية بذلك الشطر من بلاد الهند ، كما لم تكن لهم أدنى علاقة بسلاطين الهنود شمالا . وكانت العلاقات السياسية لتجار السواحل العرب هؤلاء مقصورة على مصر وبلاد العرب والمحيط الفارسى . وغنى عن البيان أن تلك الحقيقة ذات أهمية عظمى فى تفهم التطورات التى عقبت ذلك . وكان الزامورين على تنبه تام إلى سياسة البرتغاليين ، كما أنه سرعان ما تنبه بفضل المعلومات التى حصل عليها من التجار المسلمين ، إلى ما يحمله وصول الأسطول البرتغالى من تحد لسلطانه . وكان اللقب التقليدى الرفيع لزامورين قاليقوط هو « ملك الجبال والبحر » . وكان له فوق ذلك عمارة بحرية يبلغ من قوتها أن تبرز سلطانه على سواحل بلاد الهند . وقد ألقى ڤاسكودا جاما مراسيه* أمام عاصمة ذلك الملك صديق المسلمين وملك البحر .

---

* إن شئت بياناً عن الأحداث التى أفضت إلى الخلاف مع الزامورين انظر ما سطره المؤلف فى : « ملبار والبرتغاليين Malabar & the Portuguese» بومباى ١٩٢٧ . ويمكنك العثور على وجهة نظر البرتغاليين مسرودة دون نقد عند دانفرز ومع قدر أعظم من روح العدالة عند هوايتأواى .

ولما لم تكن الرحلة الأولى إلا رحلة ارتياد واستكشاف ، فإن داجاما قصر همه على التماس الإذن له بالتجارة إذناً بادر الزامورين إلى تلبيته . بيد أن رفض ربابنة البرتغاليين دفع رسوم الجمارك كان دلالة آذنت بالمتاعب التى تبطنها الأيام . هذا إلى أن داجاما لاحظ فى شىء من الدهشة والانزعاج وجود « العرب » بالمدينة ، والسلطان الكبير الذى كانوا يحظون به فى البلاط الملكى . وذلك أمر لم يخطر على باله ولم يتهيأ لمجابهته . ويحسن بنا أن نتذكر أن مرسوم نيقولاس الخامس كان الأصل فى صدوره افتراض ذلك البابا أن سكان الهند من المسيحيين . حتى لقد بلغ الأمر بداجاما أن أخطأ فى أحد المعابد الهندوكية فزعمه كنيسة مسيحية . من أجل ذلك كان وجود المسلمين واحتكارهم الفعلى للتجارة ونفوذهم الذى كانوا يستمتعون به لدى الزامورين ، مفاجأة غير سارة جاءت على غير ما تهوى آمال السلطات البرتغالية .

وبعد التبادل الرسمى للتحيات وبيعه للسلع التى أحضرها معه مقايضة على الأفاويه ، أقلع داجاما بسفنه عائداً إلى البرتغال ليبلغ سيده نبأ نجاحه فى بعثته . وأدرك الدوم مانويل ومستشاروه أنهم قد التقوا فى المحيط الهندى أيضاً وجهاً لوجه مع أعدائهم الألداء وأعنى بهم « العرب » ، وأنهم إن لم يبذلوا جهداً هائلا ومتواصلا ، فلن تعود عليهم منافع استكشافهم للطريق البحرى الكامل إلى بلاد الهند بأية جدوى . وكانت الحملة الثانية التى أمر الملك بتجهيزها على معيار أضخم كثيراً . إذ كانت تتألف من ثلاث وثلاثين سفينة وألف وخمسمائة رجل ، مع قدر كاف من العتاد الحربى . كانت تجريدة بحرية عظيمة قصد بها إلى إبراز سلطة ملك البرتغال على البحار الهندية . وكانت هذه الأرمادا القوية تحت إمرة پدرو ألڤاريز كبرال ، وهو نبيل من ذوى الاقتدار الممتاز ، كما أن ضباط السفن الأخرى اختيروا من زهرة النبلاء البرتغاليين . وكانت الأوامر الصادرة إلى كبرال تقضى عليه بالسفر رأساً إلى قاليقوط ومطالبة الزامورين تحت التهديد بالحرب ، بالإذن للبرتغاليين بإنشاء مركز تجارى والسماح لخمسة من الآباء الفرنسسكيين بالتبشير بدين المسيح . ولم تبلغ الساحل الهندى من هذه العمارة الضخمة البالغ عددها ثلاثاً وثلاثين قطعة إلا ست قطع فقط . ولم يستأ الزامورين بأى حال من عودة البرتغاليين وأرسل إلى كبرال رسالة يرحب فيها بقدومه إلى قاليقوط . ولكن الأميرال لم يكن مستعداً من الناحية النفسية لتقبل الصداقة . فطلب الإذن له بمقابلة الزامورين مصراً فى الحين

نفسه على ضرورة تسليمه بعض الرهائن قبل نزوله إلى البر . ووافق الزامورين على هذا الاقتراح غير المألوف واستقبل المبعوث البرتغالى أطيب استقبال ومنح موضعاً للتجارة . على أن الغطرسة والجرأة التى تجلت فى أعمال كوريّا أحد معاونى كبرال أدت إلى قيام ثورة شعبية أفقدت البرتغاليين كثيراً من رجالهم . فأما كوريّا نفسه وهو الذى بدأ القتال ، فإنه قتل مع خمسين من رجاله . وعندئذ انسحب كبرال بسفنه وقصف المدينة بمدافعه . وإزاء ذلك جهز الزامورين عمارة من ثمانين سفينة تحمل ألفاً وخمسمائة رجل للانتقام من هذا العمل الهمجى . على أن كبرال رحل بسفنه عندما شهد مراكب قاليقوط .

ومع أن كبرال رحل بسفنه ، فإن البرتغاليين لم يتخلوا عن المحيط الهندى . بل على العكس من ذلك اتخذ الدوم مانويل لنفسه لقب « سيد الملاحة والفتح والتجارة ببلاد العرب وبلاد الحبشة وفارس والهند » ، وجهز حملة أقوى من السالفة أو تكاد حملها الأوامر بأن تنفذ بالقوة ادعاءه السيادة على البحار الهندية . وعين ڤاسكوداجاما نفسه رباناً عاماً لذلك الأسطول . وكانت العمارة تتكون من خمس عشرة سفينة منها ست أعظم حجماً وأقوى عتاداً من تلك التى بلغت البحر الهندى من قبل . وكانت سفينة القيادة هى سان هيرونيمو . فأما الخمس الباقية فهى سفن كاراڤل* ذات شراع مثلث ومزودة بمدفعية ثقيلة كما أن البعثة كانت تحمل ثمانمائة من الجند المدربين . وقدّر القوم أن الحملة قد تلقى مقاومة شديدة فجهزوا قوة تعززها من خمس سفن بقيادة استافوداجاما وأرسلوها بعد ذلك بخمسة أشهر .

وأعجب حقيقة فى هذه الفترة الأولى والحاسمة فى جهود البرتغاليين مواصلة حكومتهم تعزيز أساطيلها فى الشرق مواصلة مثيرة للإعجاب . فكانت العمارة

---

* ربما شاقنا أن نلحظ أن تزويد السفن بالشرع المثلثة كان من المستحدثات العربية التى نقلها عنهم البرتغاليون . ذلك أن العرب عند ما نزلوا إلى البحر أدخلوا التعديل على الأشرعة التى كانت تستخدم قبل ذلك « فخففوا من وزن العرق المستعرض وأطالوه ورفعوا قمة الشراع إلى أعلى كثيراً وشقوا قاعدته ، وسرعان ما حصلوا على ذلك الشراع المثلث الذى لعله سيظل حياً على حين تندثر كل آية أخرى من آيات طاقتهم المبكرة فى ميادين الفتح » . انظر هيلير بيلوك فى « Stories, Essays & Poems » طبع مكتبة إفريمان ص ٣٤٠ .

تعقب العمارة تعاقباً لا نهاية له تحت قباطنة مدربين. كما أن رؤساء البرتغاليين بالمياه الهندية كانوا يعلمون علم اليقين أن مدداً من السفن والرجال كان يمخر الطريق إليهم دائماً جالباً إليهم النجدة . لذلك كان فى إمكانهم الصمود لأعدائهم حتى فى أشد المواقف ضنكاً وهم على يقين جازم بأن المدد قريب لا ريب فيه . وكان يظاهر الحكومة البرتغالية بالعون المالى فى هذا العمل أمراء أنتوْرب التجار العظام ، الذين أدركوا الانقلاب الهائل الذى تحدثه بالتجارة الاستكشافات البرتغالية ، فسارعوا إلى ضم المنافع التى تعود من ذلك إلى أنفسهم . مثال ذلك أن آل ويسلر قد أسهموا فى نفقات الرحلات البرتغالية التى تمت فى ١٥٠٥ ، ووجدت حكومة لشبونة أن الضرورة تقضى عليها منذ ١٥٠٣ أن تفتح مستودعاً للتوابل بمدينة أنتورب . وإلى خطة التعزيز المتواصل هذه التى اختطها الدوم مانويل بمساعدة رأس مال أنتورب : يجب أن ينسب النجاح الذى أصابته الأساطيل البرتغالية بالبحار الشرقية .

وقد شرع داجاما وعصبته حتى قبل وصولهم إلى ساحل الهند فى أن يطبق بالقوة ادعاء مولاه أنه « سيد الملاحة ومولاها » . فكان يقطع الطريق دون أى تحذير على أية سفينة يلتقى بها فى طريقه ويدمرها تدميراً . والحادثة التالية التى يرويها لنداس دا إنديا خير مثال للإرهاب والقرصنة ، التى بثها فى المياه الهندية . إذ تصادف أن التقت العمارة البرتغالية ببعض السفن غير المسلحة العائدة من مكة . فألقى ڤاسكوداجاما القبض عليها وكان كما يقول لنداس : « يعمد بعد تفريغ السفن مما بها من بضائع ، وحظر أى فرد من إخراج أى عربى منها ، إلى إصدار الأوامر بإشعال النيران فيها » . ولعلنا نحصل على تفسير لدوافع الاستيلاء على السفن من الملحوظة التى أدلى بها بارّو حيث قال : « أجل إنه يوجد بالفعل حق عام للناس جميعاً بأن يمخروا عباب البحار ، ونحن فى أوروبا نعترف بالحقوق التى يمسكها الغير علينا ؛ ولكن ذلك الحق لا يتجاوز قارة أوروبا ، ومن ثم فمن حق البرتغاليين كسادة للبحر مصادرة جميع بضائع من يخوضون البحار دون إذن منهم » .

وهذا ادعاء غريب واكنه شامل ، بيد أنه شىء لم يبرح كل شعب أوروبى يتمسك به بدوره بشدة حتى جاءت خاتمة السيطرة الغربية فى آسيا أو كادت . أجل إن شعباً آخر لم يعرضه على الأنظار بمثل تلك الطريقة الفجة الخشنة ولا حاول أن يطبقه

بالقوة بمثل تلك الهمجية البشعة على النحو الذى فعله البرتغاليون فى الربع الأول من القرن السادس عشر ، ولكن المبدأ القائل بأن مبادئ القانون الدولى لا تطبق خارج أوروبا ، وأن ما يعد همجية فى لندن أو باريس يكون سلوكاً متمديناً فى بيكين (مثل إحراق قصر الصيف) وأن ليس على الشعوب الأوروبية التزامات خلقية عند معاملة الشعوب الآسيوية (كما حدث مثلا يوم أصرت بريطانيا على تنفيذ تجارة الأفيون خارقة بذلك قوانين الصين ، وإن كان تدخين الأفيون شيئاً يحرمه القانون بانجلترة نفسها) — كان شطراً من العقيدة المعمول بها فى علاقات أوروبا بآسيا . إذ حدث فى زمن متأخر هو ١٨٧٠ أن رئيس الغرفة التجارية بهونج كونج صرح بأن : « الصين لا يمكن بأى حال أو معنى من المعانى ، أن تعد قطراً له الحق فى الاستمتاع بنفس الحقوق والامتيازات التى تستمتع بها الأمم المتحضرة التى تقوم بينها رابطة القانون الدولى » . وظل القوم حتى أسدل الستار على خاتمة السيطرة الأوروبية ، لا يسيغون عقلياً إلا بقدر كبير من التحفظ الفكرة القائلة بأن للآسويين حقوقاً حيال الأوروبيين . أجل إن الأقطار الواقعة تحت الاحتلال البريطانى المباشر مثل الهند وبورما وسيلان ، كانت تقوم فيها الحقوق المتساوية التى يقررها القانون ، ولكن كان من المعلوم المعترف به أن القانون كان لا ينفذ على الأوروبيين تنفيذاً شديد الصرامة* . وبمقتضى الامتيازات القضائية للأجانب ببلاد الصين ، كان الأوروبيون يستمتعون بالحماية من تنفيذ القوانين الصينية عليهم . والواقع أنه باستثناء بلاد اليابان وحدها ، ظل مبدأ اختلاف الحقوق هذا معمولا به حتى النهاية نفسها ، كما أنه كان سبباً رئيسياً فى الفشل الذى منيت به أوروبا بآسيا فى النهاية .

وبلغت أنباء أعمال القرصنة الهمجية التى اقترفها ڤاسكودجاما مسامع الزامورين حتى قبل أن تبدو سفنه أمام الساحل ، وكان سيد الجبال والبحار مستعداً لمقابلة التحدى بمثله . ذلك أن الزامورين راح بعد ضرب كبرال لمدينته بالمدافع يقوى قواته البحرية ، فعززها بأسطول من مراكب ثقيلة تابع لخوجا أمبار ، أحد كبار تجار

* وإذا شئت بعض الأحداث الشائقة التى تلقى ضوءاً على هذه المسألة فى القرن العشرين فانظر ما سطره ماريوس كوليس بعنوان « محاكمات فى بورما » .

قاليقوط المشتغلين بتجارة البحر الأحمر . ومع أن أسطول قاليقوط كان يمتاز بالسرعة ، إلا أنه كانت تعوزه قوة النيران التى كانت للسفن البرتغالية المجهزة بالمدفعية الثقيلة . وفى أثناء الاشتباك الذى حدث بعد ذلك خارج مياه كوتشين ، أصيبت سفن خوجا أمبار ببعض الخسائر من نيران البرتغاليين . بيد أن قاسم أمير البحر لدى الزامورين تمكن من المداورة بسفنه مداورة بلغ من قوة تأثيرها أن أعجزت البرتغاليين عن توجيه نيرانهم إليها . وأحاطت سفن قاليقوط بسفن البرتغاليين كالصقور ، وكانت نتيجة ذلك أن داجاما أوقف الاشتباك وأقلع بسفنه إلى أوروبا .

ومع أن أكاليل النصر فى المعركة التى دارت تجاه ساحل كوتشين عقدت لأسطول قاليقوط ، إلا أن عجز قاسم عن تعقب داجاما قضى على كل ثمرة لنصره . ذلك أن أسطول قاليقوط لم يكن معداً لأعالى البحار ، وكان فى أحسن الأحوال لا يستطيع القتال إلا فى المياه الساحلية . فقد كان بالقرب من الساحل قادراً تماماً على لقاء الأسطول البرتغالى لقاء الند بل أكثر من الند ، ولكن سفن قاليقوط كانت غير صالحة تماماً للقيام بأية عمليات بعيداً عن قاعدتها . وكشف البرتغاليون فى معركة كوتشين اللثام عن ذلك السر واستفادوا منه فيما بعد أقصى درجات الاستفادة .

ولم يكد داجاما يغادر المحيط الهندى حتى أقبل إلى مياه قاليقوط أسطول آخر من أربع عشرة سفينة بقيادة لوبو سوارس . وكان سوارس هذا رباناً خبيراً مجرباً ، فقام بهجمة مفاجئة دمر بها سرباً من عمارة قاليقوط كان راسياً بقيادة ممالى قبالة مرفأ كرانجانور . ثم تحول إلى مهاجمة أسطول تجارى تجمع بميناء آخر وبدد شمله بعد قتال عنيف مع القافلة الحربية التى تحرسه . وعندئذ أدرك الزامورين أن سفنه لم تكن متكافئة مع مراكب الكاراڤل الثقيلة التسليح وأنها لن تفوز أثناء العمليات البعيدة المجال إلا بأضأل الفرص . فطلب مساعدة سلطان مصر الذى كانت تربطه به علاقات المودة والصداقة . وعندئذ تقدم إلى بحر العرب أسطول مصرى يحمل ما لا يقل عن ١٥٠٠ جندى ومجهز بأحدث الأسلحة البحرية بقيادة أمير بحر مجرب اسمه مير حسين . وكانت خطة مير حسين الاستراتيجية بسيطة وسليمة . وكان هدفه الأول هو جزيرة ديو التى صمم على أن يتخذ منها قاعدة له ،

وأن يوجد الاتصال بينه وبين بحرية الزامورين ، وعندئذ يقوم الأسطول المشترك بمهاجمة البرتغاليين .

وكان نائب الملك البرتغالى فى ذلك الأوان ، وهو الدون فرانسيسكو دا ألميدا ، رجلا أوتى بعد نظر خارق وقدرة فائقة ، ولكن نبوغه قد أخمله وغطى عليه منافسه وخلفه ألبوكرك . كان نبيلا عظيماً أوتى نفوذاً ضخماً بالبلاط الملكى ، وكان دون أدنى ريب يعارض معارضة قاطعة كل سياسة ترمى إلى التوسع والفتح ، ولكنه يقدر تمام التقدير أهمية حصول البرتغال على السيادة فى البحار الهندية سيادة لا ينازعهم فيها منازع استعداداً لمستقبل البرتغاليين بآسيا . وهو وإن كان ضابطاً بالقوات البرية وله ماض مجيد من القتال بمراكش ، إلا أنه أدرك ضرورة حصول بلاده على الهيمنة على البحر هيمنة لا يتحداها فيها أحد ، وكان يعلم علم اليقين أن جميع خطط مولاه الرامية إلى تكوين امبراطورية تجارية ببلاد الشرق تعتمد على إحراز تلك الهيمنة .

ووصل مير حسين إلى جزيرة ديو بعد الرياح الموسمية مباشرة . وانضمت إليه سفن الزامورين هنالك وتحركت القوات المتحدة نحو الجنوب . وتقدمت العمارة البحرية البرتغالية بقيادة لورنسودا ألميدا ابن نائب الملك نحو الشمال من قاعدتها بكوتشين لملاقاة هذا الخطر الجديد . والتقى الأسطولان عند تشاول فى منتصف الطريق على الساحل . وكانت المعركة فى جملتها حرب مدفعية ، كما أن البرتغاليين فشلوا فيما حاولوه من النزول على ظهور السفن المصرية . وبعد يومين من تبادل إطلاق المدافع عزم البرتغاليون على الفرار ، ولكن سفينة قيادة دا ألميدا أصيبت وقتل الربان القائد .

عندئذ أطلت الكارثة على البرتغاليين . ذلك أن عدواً يكافئهم فى العتاد ويفوقهم فى المهارة البحرية قد برز لهم فى المياه الهندية ، وفى تلك اللحظة أوشك حلم الدوم مانويل الزاكى أن يتحول إلى كابوس رهيب . بيد أن نائب الملك الدون فرانسيسكو داليدا لم يفقد شجاعته . فجمع كل ما أمكنه جمعه من سفين وكل ما استطاع وضع يده عليه من جند ، وانطلق شمالاً لملاقاة العدو . وكانت معه ثمان عشرة سفينة وألف ومائتا رجل . حتى إذا بلغ ديو فى اليوم الثانى من فبراير ١٥٠٩ ، وقف ينتظر القوات المصرية الهندية . وهنا ساعدته الخيانة . فإن مالك آياز وهو

أوروبى أسلم وحاكم ديو من قبل ملك جوچيرات ، انضم سراً إلى البرتغاليين وحرم مير حسين من المدد والمؤن . فاضطر أمير البحر المصرى أن يعتمد فى مدده على المائة سفين التى أرسلها الزامورين . وكان أسطوله الفعال — بغض النظر عن أساطيل الزامورين المساعدة ، يتكون من عشر سفن ليس غير . وعلى الرغم من هذه المساوئ التى ألمت بموقفه صمم أن يخوض غمار المعركة . وفى ٣ فبراير ١٥٠٩ التقى الأسطولان المتناحران خارج ديو . وللمرة الثانية لم تكن لذلك الاشتباك نتيجة حاسمة . فلم يستطع أىٌّ من الطرفين أن يدعى لنفسه النصر ، بيد أن الأسطول المصرى أسخطته خيانة سلطان جوچيرات ، فانسحب بعد ذلك بقليل .

وبرحيل مير حسين والأسطول المصرى من المياه الهندية فى ١٥٠٩ ، يمكن القول بأن البرتغاليين قد أثبتوا ادعاءهم بأنهم « سادة الملاحة » فى البحار الشرقية . حقاً إن قوة الزامورين البحرية لم تهزم واستطاعت قاليقوط من ثم لمدة تسعين سنة أخرى (حتى ١٥٩٩) أن تتحدى سلطان البرتغاليين بمنطقة ملبار الساحلية وخاضت معهم عدة معارك كللت بالنجاح ، ولكن البرتغاليين أسسوا لأنفسهم فى أعالى البحار سيادة لا ينازعهم فيها منازع ، جعلت تجارة البحر الهندية تحت رحمتهم مدة تربى على قرن ونصف من الزمان . وكان الرجل الذى نظم هذه الإمبراطورية البحرية وحملها بالفعل إلى المحيط الهادى نفسه هو أفونسو ألبوكرك ، وهو دون ريب من ألمع الأسماء فى تاريخ العلاقات بين أوروبا وآسيا ، كما أنه مشيد السيطرة الغربية بآسيا .

وصل ألبوكرك إلى الشرق لأول مرة فى ١٥٠٦ يوم رافق تريستان داكونيا فى إحدى الحملات التى أرسلت لمهاجمة تجار البحر الأحمر ولضرب الحصار على مدخل ذلك البحر . وكانت هذه الرحلة الأولى حول عدن وسقطرى وهرمز هى السِّفْر الذى تعلم منه ألبوكرك فكراته الاستراتيجية الأساسية عن سياسته فى المحيط . فاستولى على سقطرى وحولها إلى قاعدة بحرية ، حيث أدرك أهميتها فى التحكم فى تجارة البحر الأحمر . وإذ أنه كان يعمل مستقلا ودون تفويض من أى إنسان فإنه طالب ملك هرمز بالجزية وألزمه بدفعها . ومن المهم أيضاً أن نذكر أن بعثة سياسية مرسلة من ملك البرتغال إلى الشخصية الخرافية « بريسترچون » ملك إثيوبيا تتكون من جواوجوميز

وجواو سانكيز بهداية دليل تونسى اسمه سيدى محمد ، — قد رافقت الحملة وأنزلت برأ عند ملندى لتشق طريقها إلى العاصمة الإثيوبية . غير أن تلك الجماعة عادت أدراجها بعد ذلك بسنة وقدمت نفسها إلى ألبوكرك ، فأعطاها هذا بدوره خطابات بالعربية والبرتغالية إلى الإمبراطور المسيحى . وسيرى القارئ من هذا النشاط الأولى أن رؤيا ألبوكرك كانت تضم آنفاً البحرين العربى والأحمر بأكلهما يوم أقدم فعلا على الاضطلاع بمهام الحكم ولقبه فى الممتلكات البرتغالية .

وكان همه الأول أن يؤسس لنفسه قاعدة منيعة ببلاد الهند يستطيع بها أن يفرض بالقهر فى البحار الشرقية سيادته تامة لا ينازعه فيها منازع . وكانت الممتلكة البرتغالية الوحيدة فى ذلك الزمان هى قلعة كوتشين القائمة على جزيرة صغيرة ، وهى جزيرة لا تكاد رقعتها تصل إلى نصف ميل مربع . وقرر ألبوكرك أن كوتشين غير صالحة لمآربه فوجه همه إلى قاليقوط ، وهى بعد المركز العظيم لتجارة الأفاويه . وكانت أحداث الإخفاق القديم الذى لقيه البرتغاليون على يد إلزامورين ذات آثار عميقة فى نفوسهم ، لذا أرسل الدوم مانويل شخصية رفيعة المقام هى الدوم فرناندوكوتينو الماريشال الأعظم ، مع أوامر مشددة بإخضاع قاليقوط والقضاء على سلطان الزامورين . وعقد القوم النية على القيام بهجوم مباغت . وما لبث أن ظهر أمام المدينة أسطولان يحملان قوة عسكرية ضخمة أحدهما يسمى أسطول البرتغال والثانى أسطول الهند ، والأول بقيادة الماريشال الأعظم والثانى بقيادة الحاكم . ونزل الجند إلى البر فى غير مشقة كبيرة . وكان الزامورين غير موجود بعاصمته فى ذلك الحين ، ولكن حرس القصر الذين اشتبكوا فى القتال مع البرتغاليين الغزاة لم يجدوا أية صعوبة فى هزيمتهم . والتحم الطرفان التحاماً شديداً تمزقت فيه قوات البرتغاليين إرباً إرباً ، ولقى الماريشال الأعظم مصرعه مع طائفة من الهدالجة (النبلاء) Hidelgos عدتها سبعون رجلا . وجرح ألبوكرك نفسه جرحين ، أحدهما فى ذراعه الأيسر والآخر فى عنقه . وطرحته إحدى قذائف المدافع أرضاً فحملوه إلى سفينته فاقد الوعى . وهكذا انتهت بكارثة أول محاولة لتحدى سلطان أحد حكام الهند براً .

وكانت لهزيمة البرتغاليين — تحت إمرة أعلى قوادهم كعباً — عواقب بعيدة الأثر ؛ إذ لم يحاول بعد ذلك شعب أوروبى واحد أمد مائتين وثلاثين عاماً ، أن يقوم بفتح

عسكرى ، ولا حاول أن يخضع لسلطانه أى حاكم هندى . أجل إن جوا قد احتلت فعلا وحولت إلى قاعدة عظيمة ، بيد أن ذلك تم بمساعدة تولاچى رئيس المنطقة الهندوكى ، الذي انحاز إلى البرتغاليين لكى يضعف من قوة سلاطين آل عادل شاه بتلك المنطقة .

وينبغى أن لا يغيب عن البال أيضاً أن جوا تقع فى الطرف الأقصى من ممتلكات عادل شاه المترامية الرقعة ، وأن فتح البرتغاليين لهـا وتحصينهم إياها كانت مسائل ذات أهمية بالغة لإمبراطورية فيچاياناجار الهندوكية فى حملاتها على الإسلام . وسرعان ما أدرك أباطرة فيچاياناجار أن جوا كانت بالنسبة لهم منفذاً إلى البحر ، وعن طريقها لا يستطيعون الحصول على الأسلحة والعتاد الحربى فحسب ، بل على الخيول أيضاً التى كانت حاجتهم ماسة إليها لفرسانهم . فالواقع إذن أن فتح جوا لم يؤد إلى إقرار قدم البرتغاليين كقوة برية ببلاد الهند ، بل أدى فقط إلى إنشاء مكان مناسب للعمليات الحربية بالمحيط الهندى .

وأبلغ ألبوكرك مولاه أنه عرض على السيف كل عربى بمدينة جوا ، مردفاً ذلك بقوله « حيثما أمكنه العثور على عربى كان إفلاته من يده من المحال وأنه كان يملأ بهم المساجد ويضرم فيها النار » . وأدت هذه الكراهية المريرة للإسلام إلى ربط البرتغاليين برباط المودة مع ملوك ڤيچاياناجار الهندوكيين ، الذين ظلوا يصلون الإسلام أمد مائة وسبعين عاماً حرباً لا هوادة فيها . وفى ١٥٠٩ اعتلى عرش الڤيچاياناجار الملك كريشناديفارايا أعظم حكام تلك الأسرة ، كما أنه العدو اللدود لحكام الدكن المسلمين . فلم يقتصر على إبداء الترحاب باحتلال البرتغاليين لجوا ، وهو أمر مكنه من تلقى العون العسكرى من الخارج ، بل أقام معهم علاقات ودية . وفى ١٥١٠ كتب ألبوكرك إليه رسالة يلتمس الإذن بإنشاء مؤسسة فى بهاتال ، فقبل الطلب على الفور . وكانت العلاقات الودية بين الإمبراطورية الهندوكية والسلطات البرتغالية — وقد وحد بينهما عداؤهما للإسلام — حقيقة واقعة كثيراً ما يغفلها كل متأمل باحث يعجب كيف استطاعت البرتغال المكث بجوا بقوة عسكرية ضئيلة لا تكاد تذكر بعد انقضاء خمسين عاماً على ظهورها لأول مرة فى المياه الهندية .

وبعد أن سوى ألبوكرك شئون البحر العربى على الوجه السالف الذكر التفت إلى منطقة الملايو والمحيط الهادى . وكان شطر ضخم من تجارة الأفاويه يستجلب من الجزائر الإندونيسية ، وكانت هذه التجارة إذا مرت من خلال مضيق ملقا وانطلقت فى عرض البحر ، حملها تجار العرب إلى موانى البحر الأحمر . ولم يكن فى الإمكان السيطرة التامة على تجارة المحيط الهندى ما لم تتوطد الهيمنة على مضيق ملقا . وفى ١٥٠٩ بلغ لوبودى اسكويرا ملقا بعمارة صغيرة عدتها ست سفن وتلقى من سلطانها إذناً بالنزول إلى البر والاتجار هناك كسائر الناس . ولكن التجار العرب بمدينة ملقا الذين قاسوا الأهوال من نشاط البرتغاليين بالمياه الهندية والعربية حرصوا كل الحرص على أن يفسروا للسلطان الطبيعة الحقة لمطامع البرتغاليين وشدة عداوتهم للإسلام . وطبيعى أن يعزم السلطان على سحب ما منح من إذن وفرض سطوته وسلطانه ، وحُذر اسكويرا مقدماً بتغير موقف السلطان منه ، فابتعد عن الشاطئ معاجلا وقد خلف وراءه بضعة نفر من رجاله .

وينبغى ألا يغيب عن الأذهان أن ملقا كانت فى تلك الحقبة من التاريخ ميناء دولياً عظيماً . وقد جعلها موقعها الطبيعى مفتاحاً للمحيط الهادى . وكانت بوصفها المستودع الرئيسى لتجارة الأرخبيل — أى لتلك التوابل النادرة التى كانت تنمو بجزيرة جاوه ومُلَكّا وغيرهما من الجزائر — كعبة ترتادها السفن بانتظام من بلاد الصين واليابان شرقاً ، ومن الهند وفارس وبلاد العرب ومصر غرباً . وكما يلاحظ ألبوكرك نفسه : « كانت تفد إلى ملقا فى كل عام سفن من كامباى وتشاول ودوبول وقاليقوط وعدن ومكة والشحر وجده وكروماندل والبنغال ومن الصينيين والجوريين واليابانيين ، ومن پيجو وجميع تلك الأماكن » . ويذكر القارئ مما ألمعنا إليه آنفاً أن سلاطين الملايو قد قبلوا بعد حملة تشنج هو سيادة الإمبراطور الصينى عليهم وأخذوا يدفعون الجزية بانتظام لابن السماء النازل فى بيكين . من أجل ذلك كانت لملقا فى ذلك الحين أهمية لا بوصفها إحدى المراكز التجارية ببلاد الشرق فحسب ، بل كهمزة الوصل أيضاً بين الصين والأقطار الموجودة جنوب آسيا وجنوبها الشرقى .

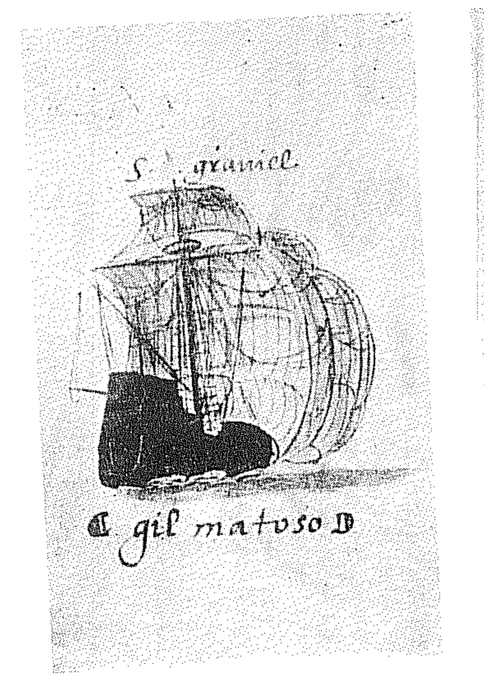
وعندما تسلم ألبوكرك تقرير اسكويرا عزم على الشخوص إلى ملقا بنفسه . فجمع

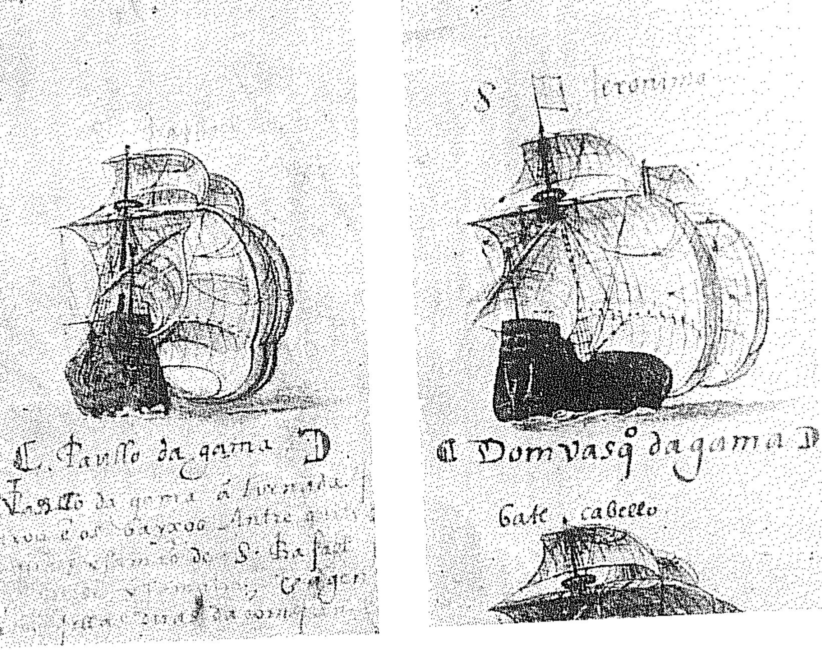
أسطولا من ثمانى عشرة سفينة أقلع به من كوتشين ووصل أمام ملقا فى ١٥١١ . وهناك أقدم — كحركة تمهيدية للمفاوضات ، لعل المقصود منها الضغط على السلطان والتأثير فيه — على إحراق السفن التجارية التى يملكها كل من العرب وكامباى والراسية فى الميناء ، ولكنه أبقى على المراكب الصينية التى لا يملكها المسلمون . وتقدم ربابنة السفن الصينية بالميناء — وكان السلطان قد أساء فيما يظهر معاملتهم قبل ذلك — يعرضون على ألبوكرك مساعدتهم فى هجومه ، فقبل أن يمدوه ببعض سفن النزول إلى البر . وتم الهجوم على ملقا يوم عيد القديس چيمس ، وهو القديس الذى يستظل برعايته كل من الجيش البرتغالى وهيئة دينية كان ألبوكرك زعيماً لها . ولاشك أن الغيرة الدينية الكامنة وراء محاولة البرتغاليين فى هذه المرة واقتناعهم التام بأنهم إنما يقومون فى آسيا بالحملة الصليبية على المسلمين تتجلى أشد الجلاء لا فى هذه العملية وحدها بل فيما أعقبها أيضاً من أحداث .

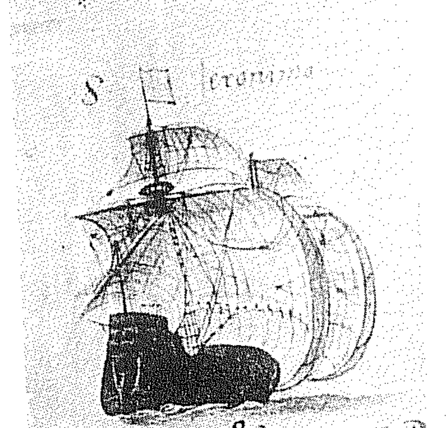
وأخذ ألبوكرك يؤثر بهذا النغم فى خطبة ألقاها على رجاله . ذلك أنه أكد لهم بوجه خاص تلك : « الخدمة الجليلة التى سنقدمها لله بطردنا العرب من هذه البلاد وبإطفائنا شعلة شيعة محمد بحيث لا يندلع لها هنا بعد ذلك لهيب » . وبعد ذكر خدمة الله عرج إلى خدمة الملك ، حيث قال : « وذلك لأنى على يقين أننا لوانتزعنا تجارة ملقا هذه من أيديهم (أعنى المسلمين) ، لأصبحت كل من القاهرة ومكة أثراً بعد عين ولامتنعت عن البندقية كل تجارة التوابل ما لم يذهب تجارها إلى البرتغال لشرائها من هناك » . فما أشد مهارته فى مزج الدافعين أحدهما بالآخر .

غير أن الهجوم الأول باء بالفشل . فإن السلطان نفسه خرج يقود المدافعين ممتطياً صهوة فيل . على أن المدينة ما فتئت بعد ذلك أن سقطت بعد قتال عنيف ، ولكن ذلك لم يتم إلا بعد انسحاب حاكم الملايو وجيشه . وبيع المسلمون الذين نجوا من السيف فى المذابح التى تلت سقوط المدينة بيع الرقيق ، ولكن أبقى الفاتحون على نزلائها الصينيين والهنود والبورميين . وانتهبت المدينة انتهاباً تاماً : حتى لقد بلغ النصيب المرسل إلى الملك وحده مائتى ألف «كروسادو» من الذهب .

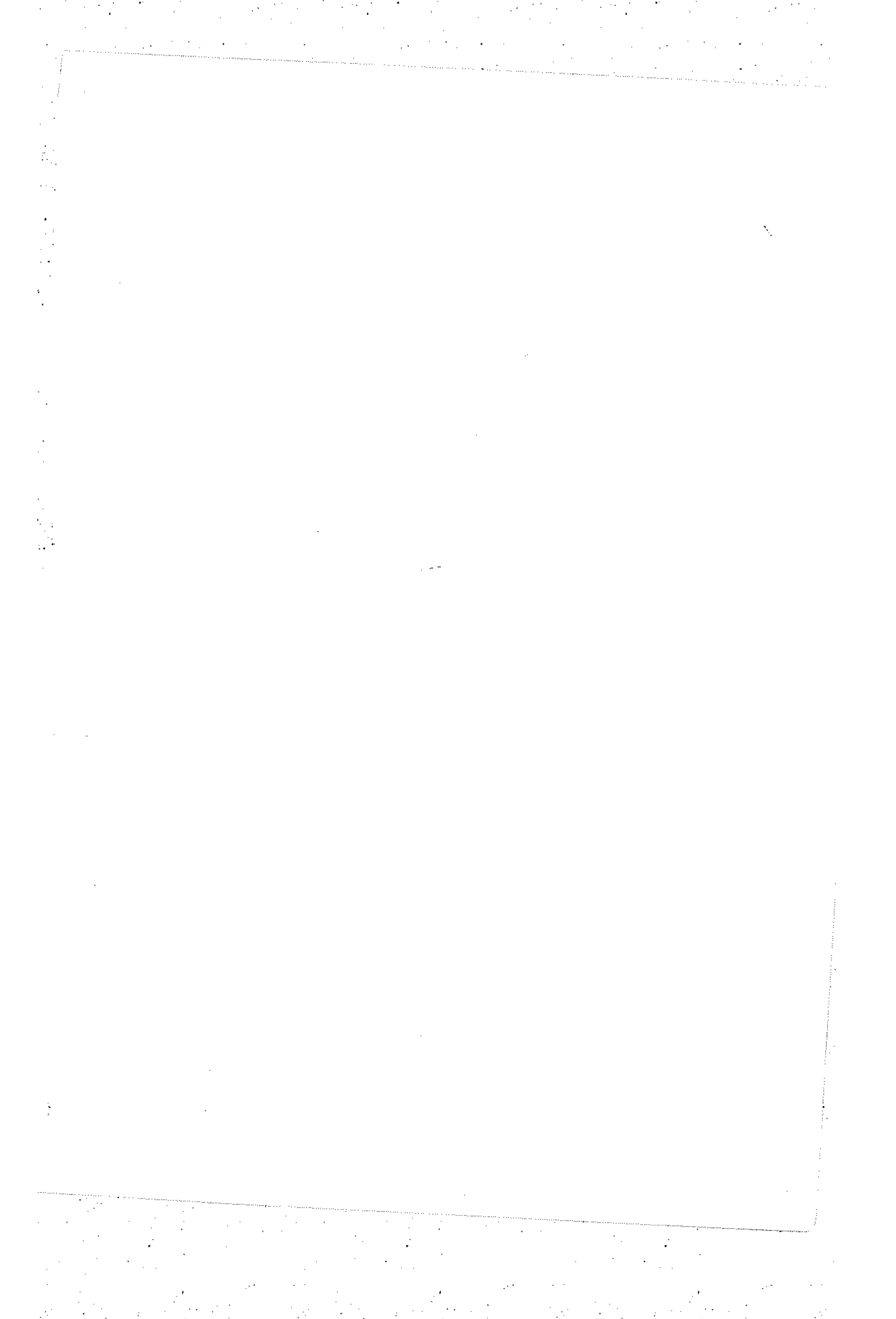
وكان الفضل فى هذا الهجوم معقوداً لقائدين هما «فرناند بيريز دانتريد» و « أنطوان أبريو » ، وذلك لأن ألبوكرك أدرك أن المحيط الهادى كان مفتوح الفجاج أمامه ،







السفن التي تمت بها رحلة ڤاسكو دا جاما الأولى الاستكشافية
والصور المعاصرة ملك للحكومة البرتغالية



فعين دانتريد أميرالا لبحر الصين ، على حين أرسل أبريو بثلاث سفن لاستكشاف جزر إندونيسيا ، مستودع التوابل الخرافى الذى لا ينضب معينه . وبذا اتصل البرتغاليون بكل من إمبراطورية الصين العظيمة بصورة غير مباشرة كما اتصلوا بصورة مباشرة بجزائر المحيط الهادى الغنية . وفتح ملقا لم يؤد فقط إلى توطيد سيادته على المحيط الهندى توطيداً راسخاً بل فتح السبيل إلى التوسع فى جنبات المحيط الهادى . أما المدينة نفسها فقد حولها ألبوكرك إلى قلعة حصينة وعين على رأس حكومتها قائداً بحرياً قديراً هو راى داڤيو قبل عودته إلى جوا .

وبفتح ملقا أتم ألبوكرك بناء صرح الإمبراطورية الأوروبية البحرية بآسيا . وكان خروجه لتشييد إمبراطورية تجارية يقوم على أساس مركز ممتاز لا سبيل إلى تحديه بالمحيط الهندى . وكانت الموانى الكبرى على شاطئ إفريقية قد وقعت كلها آنفاً تحت سيادة البرتغاليين ، ولكن لم يكن لهم قبل زمانه ببلاد الهند إلا موطئ قدم صغيرة فى كوتشين ، دون وجود أية نقاط منيعة فى أى مكان يمكن منها للبرتغال ممارسة سلطتها البحرية . فلما أن تم ضم سقطرى ، وأصبح لهم سلطان سياسى فى هرمز وبعد استيلائهم على ملقا ، تأسس لهم نظام للهيمنة والضبط ظل ثابتاً لا يتزعزع ما بقيت لقوة البرتغال البحرية بأوروبا قوة وعزم . ولتهيئة الظروف المواتية للنجاح فى تنفيذ هذه السياسة ، كان من ألزم الضروريات قيام قاعدة برية ببلاد الهند تقوم بدور المحور المركزى لقوة البرتغال . وكان فتح جوا واستيطانها جزئياً والتطور بها لتصبح مدينة وقصبة كبرى تضم جهازاً كاملا للحكم هو الأساس الذى قامت عليه جميع خططه .

ثم إن أبريو ، الذى كان ألبوكرك أرسله إلى جزائر التوابل بلغ جريسيك* ، ولكن الرحلة كانت شاقة ولم تعد إلى ملقا إلا سفينة واحدة من الثلاث ، عادت فى السنة التالية . ومهما يكن من شىء فإن الطريق قد فتح ومهد . فإن القبطان «سيراو» أحد ضباط أبريو — وقد دمرت العواصف سفينته — بلغ مع ذلك أمبوينا ، وهناك أنشأ الصلات بينه وبين السلاطين المحليين .

وكانت الأحوال بإندونيسيا فى ذلك الأوان موائمة كل المواءمة لما يشتهى

---

* « جريسيك Gresic » .

البرتغاليون ، فإن صراعاً مريراً كانت تدور رحاه فى جاوة بين الحكام المسلمين الذين اعتنقوا الإسلام حديثاً والممالك الهندوكية القديمة ولا سيما مملكة كيدرى . وكان أعظم حكام المسلمين آنذاك هو سلطان ديماك الذى التمس منه العون سلطان ملقا المخلوع . فجهز حاكم جاوة ذاك أسطولا مكوناً من مائة سفينة وأرسله إلى مياه ملقا ، ولكن نيران مدافع سفن الكاراڤل التى يقودها بيريز دانتريد شتتت شمله . وبهذا النصر أسس البرتغاليون سيادتهم البحرية على بحار جاوة ، ومنذ تلك اللحظة صار فى مستطاعهم تأليب الحكام بعضهم على بعض فى الحروب الدينية التى كانت منتشرة آنذاك بجزيرة جاوه . ولكنهم لم يحرزوا أى تقدم يعتد به حتى دخلت الميناء من الشرق سفينة أوروبية فى ربيع ١٥٢١ . وهى ڤيكتوريا سفينة ماجلان * التى عبرت المحيط الهادى من أمريكا . وانزعج البرتغاليون لمقدمها فسارعوا إلى تثبيت مركزهم السياسى بعقد المعاهدات مع القواد المحليين .

وسنعود فى مرحلة تالية إلى معالجة بعثة بيريز دانتريد فى بحر الصين ، والمحاولات التى بذلها البرتغاليون لإنشاء العلاقات بإمبراطورية منج . وبتقدمهم البطىء فى الجزر واحدة بعد أخرى وظهورهم أمام الساحل الصينى ، انتهت الفترة الأولى لتفوق البرتغاليين بالمياه الآسيوية وصار احتكار البرتغال لتجارة الأفاويه راسخاً وطيداً . ثم قام سلطان تركيا بمحاولة أخيرة لطرد الدخلاء من المحيط الهندى. ذلك أن سليمان القانونى الذى أصبحت مصر جزءاً من إمبراطوريته ، قد أدرك أخيراً فداحة الأضرار الناجمة عن إبعاد العرب عن أسواق التجارة فى الشرق . وكما شهدنا آنفاً كان من أعظم دوافع البرتغاليين على تصرفاتهم فى المحيط الهندى إنزال الفاقة بالمسلم البغيض إليهم . فلما أن انتقلت مصر إلى حوزة العثمانيين أصبحت المسألة تهم بوجه مباشر سلطان الأتراك بالقسطنطينية . لذلك فتح باب المفاوضات مع الزامورين بقاليقوط ومع ملك كامباى المسلم ، وهما العاهلان الهنديان اللذان تأثرت مصالحهما بسبب عدوان البرتغاليين ، وتمكن من عقد اتفاق يقضى بالعمل المشترك ضد الأعداء. فلما أن عقدت المعاهدة أصدر السلطان مرسوماً إلى سليمان باشا الخادم والى مصر :

« عليك يا بيك البكوات (بكلرباك) بمصر سليمان باشا ، أن تقوم فور

* عن اهتمام ماجلان بجزيرة ملكا وغيرها انظر طبعة ستانلى « لرحلاته » التى نشرها لجمعية الهاكليوت (ص ١٢٤) .

تسلمك أوامرنا هذه بتجهيز حقيبتك وحاجاتك وإعداد العدة بالسويس للجهاد فى سبيل الله ، حتى إذا تهيأ لك إعداد أسطول وتزويده بالعتاد والميرة والذخيرة وجمع جيش كاف ، فعليك أن تخرج إلى الهند وتستولى وتحافظ على تلك الأجزاء ، فإنك إذا قطعت الطريق وحاصرت السبيل المؤدية إلى مكة والمدينة تجنبت سوء ما فعل البرتغاليون وأزلت رايتهم من البحر » .

وطوعاً لهذه التعليمات جهز سليمان باشا أسطولا عظيماً دلف به إلى المحيط الهندى فى ١٥٣٨ . على أنه لم يستطع أن يحدث اتصالاً بينه وبين أسطول الزامورين ، وذلك أنه حدث فى ٢٠ فبراير ١٥٣٨ يوم كان الأسطول التركى يقترب من الهند ، أن مارتن دى سوزا الحاكم البرتغالى تمكن من إجبار أميرال قاليقوط على الاشتباك معه فى معركة ومن تشتيت سفنه . وعندما بلغت هذه الأنباء مسامع سليمان عاد أدراجه إلى مصر بعد جولة بالبحر العربى لم يكن فيها غناء . من ثم أصبحت للبحرية البرتغالية الكلمة العليا دون منازع فطفقت تحكم المياه الهندية مدة السنوات الستين التالية .

وربما جاز لنا أن نتساءل عند هذه المرحلة لماذا لم يؤد ارتفاع شأن البرتغاليين بالمحيط الهندى ولألوان نشاطهم فى مؤسساتهم الساحلية إلى أى رد فعل واسع النطاق ببلاد الهند ؟ ذلك أن أبرز شىء يبدو جلياً فى علاقات البرتغاليين بالدول الهندية فى ذلك الحين ، هو موقف الصداقة العام والتسامح حيال هؤلاء الأجانب الجدد بمختلف البلاطات الهندوكية فى الجنوب باستثناء قاليقوط . وقد سبق أن أشرنا إلى أن إمبراطورية ڤيچاياناجار الهندوكية العظمى كانت تقيم علاقات مودة مع البرتغاليين فى جوا وتسمح لهم بالإتجار داخل ممتلكاتهم الفسيحة الأرجاء . وذلك على حين أنه كانت للسلطات البرتغالية علاقات مودة وثيقة مع حكام كوتشين ، حيث أقام البرتغاليون أولى مؤسساتهم . وكانوا يتجرون بوفرة عظيمة ودون أية منازعات سياسية مع الرؤساء الصغار على طول الساحل . والواقع أننا لن نعدو الصواب إذا قلنا إن البرتغاليين لم يجدوا أية عداوة فى بلاطات الحكام الهندوكيين إلا بقاليقوط وحدها .

على أن حالة الزامورين كانت حالة خاصة جداً . فإن دولته كانت الدولة البحرية الضخمة الوحيدة على الساحل ، كما أن مدعيات البرتغاليين فى السيادة على

البحر كانت لا تتفق وسلطته . وانقضت مائة عام تواصل فيها دون انقطاع القتال البحرى بين أساطيل الزامورين والبرتغاليين من جوا وكوتشين ، ولم يتم عقد معاهدة بين الطرفين إلا فى ١٥٩٩ . وينبغى أن لا يغيب عنا أيضاً أن رغد ولاية قاليقوط ، ظل مدة تتجاوز الأربعمائة عام مرتبطاً بنشاط تجار التوابل العرب . من ذلك نستطيع فهم دوافع عداء الزامورين ، كما أنه كان قائماً على اعتبارات لا تتوافر إلا لولايته وحدها .

أما بالنسبة للآخرين فإن نشاط البرتغاليين لم يكن ليؤثر إلا فى التجار المسلمين ، ولا يخفى أن ذلك كان هدفاً أساسياً من أهداف سياستهم الثابتة . وقد سبق أن لاحظنا كيف حدث عند فتح ملقا أن تجار الهند والصين وبورما قد تركهم ألبوكرك ولم يتعرض لهم بسوء . وكانت مهنة النقل والحمل قد أصبحت احتكاراً خالصاً للعرب بالمحيط الهندى ، ولم يكن لتصميم البرتغاليين الأكيد فى محاولتهم انتزاع تلك الحرفة منهم أى ضرر على حكام الهنود ولا تجارهم . ولم يكن هناك أدنى فارق عند الحاكم الهندى بين أن يبيع التجار من رعاياه سلعهم للبرتغاليين أو العرب . بل الواقع أنه كانت هناك مزية فى صف البرتغاليين ، هى أنهم كان فى مستطاعهم أن يبيعوا للحكام الهنود أسلحة وعتاداً كانوا فى حاجة إليهما . أما تجار الهنود فإنهم سرعان ما استحدثوا نظاماً للتراخيص تمكنوا به من مواصلة تجارتهم بعد ذهاب منافسة تجار العرب ، لذا يمكن أن يقال إن احتكار البرتغاليين كان عوناً لهم . وكان العمل العظيم الذى أحرزه البرتغاليون أثناء الفترة الأولى لتفوقهم ، هو إجلاء التجار العرب من البحر وقضاؤهم الفعلى على الاحتكار الذى ظلوا يستمتعون به أمداً طويلا . ولم يكن فى ذلك شىء لا يرحب به الهندوكيون ، كما أنه لا يلوح أن أحداً من التجار المسلمين غير العرب بكامباى وجوجرات ، قد قاوم ذلك أو اعترض عليه بصورة فعالة .

ولا ننس أيضاً أن البرتغاليين بعد كارثة الهزيمة التى منوا بها فى قاليقوط جردوا أنفسهم فيما يبدو من كل أطماع كانت تخامرهم نحو امتلاك الأراضى ببلاد الهند الأصلية . فلقد كان كل ما يمتلكونه هو جزيرتا ديو وبومباى ومراكز تجارية بأماكن مختلفة من الشاطئ ، فضلا عن منطقة جوا وقلعة كوتشين ، وكان لهم فيها غناء كل غناء ، ولعلهم كانوا من الحكمة بحيث قنعوا بها ورضوا . ومع أن نائب

الملك كان يعيش عيش الأبهة العظيمة والمراسم الفاخرة بجوا ، ويدعى لنفسه الهيبة والكرامة الإمبراطورية أو يكاد، إلا أن القوم كانوا — والحق يقال — واقعيين تماماً فى علاقاتهم مع الحكام الهنود . فكانوا يتبادلون وإياهم السفارات والبعثات السياسية ، ويتلقون الهدايا ويردونها بمثلها ، ويحافظون على الصلات الكريمة المتبادلة بينهم وبين الدول المجاورة . والواقع أنهم أصبحوا « دولة برية صغرى » ، وذلك شيء يستثنى منه البحر بطبيعة الحال ، حيث كانت مدعياتهم فيه شاملة كاملة وسلطانهم على صفحته مبسوطاً غير منازع .

(٢)

وتبدأ الفترة الثانية لتفوق البرتغاليين البحرى بآسيا بتعيين أفونسو دى سوزا حاكماً فى ١٥٤٢ . فعكفوا فى تلك المدة على استخلاص أعظم ما يستطيعون استخلاصه من المنافع من احتكارهم التجارى ، وظلت سفنهم (غلايينهم) ستين عاماً تعود فى كل آن إلى البرتغال محملة بأفاويه الشرق وجواهره وحريره . وكان خدام الملك يصبحون أثرياء ، كما أن الحياة بجوا التى نعتها كاموينز بأنها بابل الشرق تشهد بوجود ترف وانحلال لو جاز لنا أن نصدق فى شأنهما ما روته روايات البرتغاليين فى ذلك الأوان ، لأمكننا أن نعدهما شيئاً لا ضريب له فى التاريخ . غير أن الفترة كلها غير ذات أهمية من الناحية السياسية بغض النظر عن توطيدهم أثناءها لسلطانهم على الخطوط الساحلية بسيلان ومدهم لآفاق التجارة فى جزر إندونيسيا وتأسيسهم لشئ من العلاقة المحدودة مع الصين واليابان . ولكن ألم بسياسة البرتغاليين تطور له أهميته فى ناحية الديانة ربما جاز لنا أن نشير إليه هاهنا .

ونشاط بعثات التبشير التابعة للدول الأوربية بآسيا ، تلك البعثات التى بدأت بها البرتغال يكوّن فصلا له أهمية عظمى فى العلاقات بين الشرق والغرب ، وسنفرد لمعالجته موضعاً خاصاً * . وكل الذى يعنينا بحثه هنا هو التغير الذى ألم بالسياسة البرتغالية بارتقاء الدوم چواو (حنا) الثالث العرش ، فإن هنرى الملاح وإن كان حلم بأنه سيفتح بلاداً أجنبية مجهولة باسم المسيح ، فالذى وجهه فى هذا الشأن هو فى الواقع البابا نيقولاس ، إلا أن سياسة البرتغال فى عصر الاستكشاف لم تتخذ

* انظر القسم السابع .

من الإنجيل هادياً لها إلا بصورة يغشاها شيء من الإبهام . وكانت الروح التى يستهدونها هى روح القضاء على المسلمين (أى العرب) الذين يعدون كفرة فى نظرهم لا تنصير الوثنيين . وكان الدوم مانويل وممثلوه يعلمون علم اليقين أن ليس فى إمكانهم القدرة على تنفيذ تلك السياسة ، فقنعوا من الغنيمة ببناء الكنائس وإنشاء الأسقفيات بالمناطق الواقعة تحت سلطتهم المباشرة مثل جوا وكوتشين وملقا . بيد أن الموقف تبدل بارتقاء جواو الثالث عرشه . ذلك أن انتعاش الغيرة الدينية داخل الكنيسة الكاثوليكية بعد ظهور الحركة البروتستنتية ، كان له أثر هائل فى البلاطات الملكية الإيبيرية . ولقيت الحركة المعروفة باسم حركة معارضة الإصلاح الدينى أعظم مؤيد لها بين شعوب شبه الجزيرة . فهنالك وجدت جمعية اليسوعيين التى أنشأها إغناطيوس ليولا أشد أنصارها إخلاصاً وصدق يقين ، ومع أن مؤسس تلك الجمعية كان إسبانيا ، فإنها وجدت من العاهل البرتغالى معيناً ونصيراً وراعياً قوياً . على أن الفلسفة الدينية شهدت فى نصف القرن التالى نهضة انتعاش عظيمة فى مراكز العلم البرتغالية ، وبخاصة مركز كوامبرا الذى أشرق ضياؤه بوحى من المعلمين اليسوعيين . ذلك أن التعليق الموسوعى على فلسفة أرسطوطاليس الذى يشير إليه لبنتز واسبينوزا تحت اسم الكوامبرينيات * (Coimbricensis) قد فصله وأحكمه هناك مانويل داجوآيس ورفاقه . وهنا قام لويس دى موتينا العظيم بشرح فلسفة توماس الأكوينى ، على حين أقبل الدكتور نوارّو صديق فرانسيس زافيير على تعليم قانون الإيمان للناس . وفى جامعة إيڤورا كان فرانسوا دى جوڤيا مبعث النور والإشعاع فى الفلسفة . وقد انعكس روح هذه الغيرة والحمية الدينية بجلاء فى سياسة التاج البرتغالى حيال آسيا . ومما هو جدير بالذكر أن بعض النابهين من الرجال فى تاريخ النشاط التبشيرى ببلاد الشرق كانوا يتخذون من البرتغال موطنهم الثانى . وقد خرج فرانسيس زاڤيير من وطنه مبعوثاً من قبل ملك البرتغال للتفتيش على البعثات التبشيرية . وقد جمع الأب ڤاجيليانو الإيطالى بمدينة لشبونة اثنين وأربعين مبشراً . لم يكن منهم إلا ستة من البرتغاليين . وكان ركىّ — وهو إيطالى آخر ، أتم تعليمه فى كوامبرا وجوا — يعد البرتغال موطنه الروحى .

---

* نسبة إلى كوامبرينا Coimbrina وهى بلد فى البرتغال بإقليم بيرا (المترجم) .

تلك هى الدعامة الأساسية للتوجيه الجديد للسياسة البرتغالية التى استبدلت فى عهد جواو الثالث المغانم الروحية بالمكاسب التجارية . ولم يكن لهذه السياسة ببلاد الهند –عدا جوا بطبيعة الحال– أية نتائج هامة فيما يتعلق بالسكان الهندوك، بيد أنها كانت تعتبر عند المسيحيين المحليين بساحل ملبار حدثاً ذا أهمية عظمى . وحدث فى بقاع أخرى غير الهند مثل سيلان والصين ومُلَكّا وبلاد اليابان ، أن اختلط النشاط التجارى للبرتغاليين بجهودهم التبشيرية ، اختلاطاً أدى إلى طرد جميع الأجانب عن اليابان فى زمن متأخر عن ذلك ، كما أدى إلى وقوع شقاق كبير مع الإمبراطوية الصينية إبان القرن السابع عشر .

وكان لانتشار المذهب البروتستنتى بأوروبا نتائج أعظم أهمية وأبعد مدى فيما يتعلق بآسيا . فإن ذلك الانتشار أبطل فيما يتعلق بالأمم البروتستنتية منحة البابا للبرتغال باحتكار التجارة بالشرق . وحدث أيضاً أن توازن القوى بأوروبا أخذ يتغير رويداً رويداً ؛ فإن إنجلترة لعهد إيليزابث تحدت احتكار فيليب الثانى فى البحار العالية الإسبانية ، وبعد هزيمة الأرمادا التى ظن أنها لا تقهر ، وتشتيت شملها ، صار فى إمكان دول أوروبا البحرية اقتحام المياه الهندية . ومن الأمور الهامة التى يجب تذكرها أن مركز تجارة الأفاويه قد انتقل من لشبونة إلى الموانى العظيمة بالأراضى المنخفضة أثناء ذلك القرن . ذلك أن الإقبال على التوابل كان أعظم فى مناطق أوروبا الشمالية ، كما أن أهمية لشبونة كانت ترجع بوجه رئيسى إلى أنها المستودع لتلك البضائع الضرورية . بيد أن التجارة فى أوروبا كانت بأيدى تجار شماليين وكانت أنتورب منذ البداية مركزاً لتلك التجارة التى ما لبثت أن احتكرتها فعلا فيما بعد ؛ فإن التجار الهولنديين الذين كانوا يصرّفون هذه السلع لم يعودوا راغبين بأى حال بعد ذلك أن يدفعوا أسعار الاحتكار التى كان يطلبها البرتغاليون ، وخاصة وقد اتضح أن تحدى قوة البرتغاليين فى البحار الشرقية كان من السهولة بمكان . وفى ١٥٩٢ عقد كبار تجار الهولنديين بامستردام اجتماعاً قرروا فيه إنشاء شركة للتجارة مع الهند . ورغبة فى إعداد العدة للرحلة وجمع المعلومات الضرورية لها أرسلت تلك الهيئة كورنيليوس دى هوتمان إلى لشبونة . ثم حصلت الشركة على المعلومات حيث وضعها تحت تصرفها جان هيوجن لنشوتن الذى أتاح له منصبه إذ كان



يعمل أميناً لأسرار كبير أساقفة جوا، أن يحظى بفرص استثنائية نادرة لفهم نقاط الضعف والقوة فى مركز البرتغاليين ببلاد الشرق . وينبغى ألا يفوتنا أن البرتغاليين حتى فى عهد الدوم مانويل اتخذوا أعظم الاحتياطات للاحتفاظ بسرية الطريق إلى الهند . فأصدر مانويل فى سنة ١٥٠٤ مرسوماً يحظر أن توضع على الخرائط أية إشارات تدل على الطريق بعد منطقة الكونغو . وجمعت جميع الخرائط التى كانت عليها قبل ذلك إشارات إلى مختلف الأماكن الواقعة بعد الكونغو ، جمعت جميعاً ومحيت منها الإشارات . وكانت الحكومة البرتغالية تحيط دائرة رسم الخرائط الرسمية بأعظم الكتمان ، ومن ثم صار لزاماً على الهولنديين أن يجمعوا المعلومات الضرورية من تقارير لنشوتن وهوتمان .

وقد خرج أول أسطول هولاندى للتجارة مع آسيا فى ١٥٩٥ من مرفأ تكسل ، وكان يتكون من أربع سفن بقيادة هوتمان . فبلغ الجزائر الإندونيسية ، ثم عاد إلى هولندة بعد غيبة دامت سنتين ونصف . ولم يعد من ملاحى السفن الذين خرجوا معه والبالغ عددهم ٢٥٩ رجلا سوى تسعة وثمانين ، بيد أن المكاسب كانت وافية . فإن بيع البضاعة جلب مكسباً مقداره ثمانون ألف فلورن .

وكانت تلك الرحلة استهلالا لرحلات منتظمة عقبتها ، كما أنها أدت إلى تأسيس شركة الهند الشرقية المتحدة التى نظمت بإيحاء من السياسى العظيم أولدن بارنفلت . فبمقتضى مرسوم صدر فى ٢٠ مارس ١٦٠٢ منح مجلس طبقات الأمة تلك الشركة احتكار التجارة — ولم يكتف بذلك — بل خولها سلطات سيادة عليا واسعة لعقد المعاهدات والمحالفات ولفتح ما تشاء من الأراضى ولبناء الحصون إلى غير ذلك . وكانت أول معاهدة عقدتها الشركة مع ذلك العدو اللدود للبرتغاليين : « الزامورين إمبراطور ملبار » ، وقد وقعها بالنيابة عن الشركة الأميرال س . فان ديرهاجن (١٦٠٤) ، وتقرر ديباجة تلك المعاهدة أن الهدف من المفاوضات بشأنها : « هو طرد البرتغاليين من أرض عظمته وسائر أرجاء الهند » ، ولكن كيف السبيل إلى ذلك ما دامت أسس الدفاع التى أقامها ألبوكرك سليمة لم يمسها سوء . من أجل ذلك كانت أول محاولة بذلها الهولنديون الحلول محل البرتغاليين فى جزائر إندونيسيا التى كانت قبضة البرتغاليين عليها لا تزال ضعيفة .

وأعلنت الشركة المتحدة فى ١٦١٠ أول تقرير لأرباحهما وقدره ١٣٢½ فى المائة . وكانت قد استولت من قبل فى ١٦٠٥ على أمبوينا من يد البرتغاليين ، وسرعان ما تحولت فى ذلك الأرخبيل إلى سياسة الهجوم والعدوان اقتصادياً وسياسياً . ومع ذلك ، لم يمكن القول بأن مركز الشركة قد توطد تماماً إلا بعد فتح جاكرتا واحتلالها فى ٣٠ مايو ١٦١٩ على يد چان بيتر زكوين . وكتب كوين تقريراً عن تلك الحادثة إلى رؤسائه المديرين قال فيه : « الآن تم إرساء أسس المثوى والمستقر الذى طالما اشتهيناه ؛ فإن شطراً عظيماً من أشد بقاع الأرض خصباً وأشد بحار الهند خيرات قد أصبح الآن ملك يمينكم ؛ . . . فانظروا وتأملوا مبلغ ما تفعله الشجاعة من خير وكيف قاتل القوى القاهر ذياداً عنا و بارك لسيادتكم » .

ولئن رجع إلى كوين الفضل فى إرساء أسس سلطان هولندة بجزائر الهند ، فإن أنطونى ڤان ديمين — الذى عين حاكماً عاماً فى ١٦٣٣ — هو الذى شاد صرح الإمبراطورية وقضى نهائياً على البرتغاليين . وفى ١٦٤١ انتزع من البرتغاليين ملقا صولجان عظمتهم فى الشرق ، وبذلك مزق نظام الدفاع الذى وضعه ألبوكرك . فلما أن صارت تلك القاعدة فى يد الهولنديين أصبح فى مستطاعهم أن يوجهوا التفاتهم إلى تجارة الهند نفسها التى لم تبرح بيد البرتغاليين . ومن قبل ذلك فى ١٦٠٣ كتب الأميرال سيبالت دى ڤيرت تقريراً قال فيه : « ليس ثم مكان أصلح لمهاجمة البرتغاليين من كولمبو ؛ وذلك لو أننا استطعنا أن نحافظ على صلات المودة بيننا وبين الملك وسكان الجزيرة » * . ومن ماقما شرع الهولنديون فى مساعدة ملوك السنهاليين فى حروبهم مع البرتغاليين ، بيد أن كولمبو كانت من القوة بحيث صمدت لجميع الهجمات التى وجهت إليها من ناحية البحر . وفى ١٦٥٤ تمكن ڤان دير هايدن بعد حصار طويل من احتلال الميناء وإقصاء سلطان البرتغال من سيلان .

ومن ثم كان سقوط الإمبراطورية التجارية البرتغالية انهيارا سريعاً . وما لبثت كوتشين مؤسستهم الأولى أن احتلت فى ١٦٦٠ ؛ ثم سقطت المحطات التجارية الصغيرة الأخرى فى يد الهولنديين الواحدة تاو الأخرى . وأخذ الهولنديون يقومون من كولمبو بحملة منظمة للقضاء على كل أثر للبرتغاليين فى تجارة الهند البحرية ** . ولم يبق بعد جوا وجزيرتى داماں وديو الصغيرتين (حيث قدمت بومباى بائنة للعاهل

* بيريز : وثائق تتعلق بسيادة الهولنديين بسيلان .

** إن قصة تدمير سلطان البرتغاليين على ساحل ملبار على يد الهولنديين يرويها كتاب « Malabar & the Dutch » للمؤلف .

البريطانى فى ١٦٦٥) أى أثر لذلك الصرح العظيم الذى شاده ألبوكرك !

وقد وفق فان ديمين بجزيرة جاوه إلى احتكار التجارة وإلى المحافظة إلى حدما على نفوذ الشركة السياسى ، واتبعت الشركة نظام دفع الأموال مقدماً على المحصولات إلى المزارعين ، فتهيأ لها بذلك أن تنتزع الأملاك فعلا من أيدى ملاكها فى جزائر باندا وأمبوينا وملكا ، فامتلكت الأراضى وأخذت فى انتزاع كل شجر القرنفل خارج أراضيها ، فلما أن قاوم السكان ذلك أخمدت مقاومتهم بالقوة . ويصف مؤرخ هولندى الحالة التى نجمت عن ذلك بجزيرة ملكا فيقول : « جعلتهم الشركة يحولون بساتين القرنفل إلى حقول أرز وإلى مزارع لزراعة أشجار الساجو ؛ ذلك أن الجزائر الجبلية الصغيرة لم تستطع أن تنتج القدر الكافى من الطعام ، وكان الأهالى مضطرين أن يشتروا من الشركة من الأرز ما يسد النقص عندهم . وكانت الشركة تبيع تلك السلعة لهم بسعر فاحش جعل الموقف أسوأ وأنكى . وبذا تحطم نظام ملكا الاقتصادى وذاق الأهلون ذل المتربة »[١] . وسيرى القارئ فيما بعد كيف أن هذه السياسة التى جربت بنجاح تام فى جزر ملكا قد فرضت فيما بعد على جاوة والجزر الأخرى يوم توطد سلطان الشركة السياسى عليها .

وما أن انتصف القرن حتى صار مركز الشركة وطيداً فى تلك الجزر ، فإن السلطنات الكبيرة الثلاث ، وهى سلطنة ما تارام فى جاوه وأتجه وترنات لم تكد تحافظ على استقلالها إلا بشق النفس ، ومع أن رقعة الممتلكات الهولندية كانت لا تزال صغيرة ، إلا أن سلطانهم السياسى أخذ يتزايد بانهيار نظم الولايات الإندونيسية . وأبدى ملك مكسر وسلطان أتجه عزماً أكيداً فى محاربتهم لمدعيات الشركة ، وقضى الهولنديون عدة عشرات من السنين فى قتال مرير قبل أن تهيأ لهم أن يوطدوا سلطانهم نهائياً عند ١٦٨٠ . وكانت الحملة الموجهة على مكسر ذات أهمية خاصة مشوقة ، ذلك أن ملك تلك البلاد قد كون لنفسه قوة بحرية بدت مهددة للهولنديين . فسيروا إلى مكسر أسطولا من إحدى وعشرين سفينة عليه قوة أوروبية ، ولم يستطيعوا إلا بعد حملتين مريرتين أن يرغموا السلطان على توقيع معاهدة أصبحت الشركة بمقتضاها صاحبة السيادة على الأرض التى نزل عنها .

---

(١) انظر : « Nusantara » تأليف برنار هـ . م ڤليك ص ١٣٩ .

حتى إذا انتقلت تجارة الهند الشرقية فعلا إلى يد الهولنديين ، انكمشت سلطنات ماتارام وأتجيه وغيرهما وفقدت قوتها الفعالة . ولم يبد شيء من علامات النهوض والانتعاش إلا فى بانتام وحدها ، وكانت تحت حكم ملك جدير بالإعجاب هو السلطان عبد الفتاح ، ولكن الهولنديين استغلوا المنافسة بين الأب وابنه ، فأخضعوا تلك الدولة أيضاً لنفوذهم .

ومع أن الشركة حصلت لنفسها بذلك على النفوذ السياسى الأعلى فى شئون التجارة وصار الهولنديون السادة الذين لا ينازعهم منازع فى ثروة الجزر ، إلا أن فتح إندونيسيا لم يتم فعلا بطريقة فعالة ولا بُسط حكم الشركة المباشر على المناطق الداخلية . وفى تلك المدة لم يكن الاستغلال هو غرض الهولنديين — اللهم إلا فى مناطق صغيرة منعزلة — بل كانت التجارة هدفهم . ذلك أن مديرى الشركة كانوا يعارضون فى تولى شئون الحكم والسيادة . وقد كتب مجلس المديرين إلى ريكاوف ڤان جوين عندما اقترح أن تتولى الشركة السيادة على جزيرة سيلان ، معلناً بصراحة تامة : « إن مثل ذلك العمل قد يكون عمل ملك عظيم وطموح وليس عمل تجار لا يبحثون إلا عن الأرباح » . ومع ذلك فإن تغيراً أساسياً ألم فيما بعد بتلك السياسة عندما وجد القوم أن الاستغلال أعود عليهم بالنفع من التجارة .

واتخذ الهولنديون جزر المحيط الهادى أساساً رئيسياً لنشاطهم ، وبذا كانوا فى موقع ممتاز طوّع لهم تنمية تجارتهم مع الصين واليابان . واحتل أسطولهم جزيرة فرموزا حيناً من الدهر ، غير أن كوكسنجا — وهو مغامر صينى جدير بالإعجاب كان يناصر أسرة منج المنهزمة — طردهم من الجزيرة . ثم حاولوا أن ينشئوا علاقات دبلوماسية مع إمبراطورية المانشو فلم يوفقوا ، وإن سمح لهم بالقيام بقدر محدود من التجارة بمدينتى كانتون وفوكين . وكانت علاقاتهم التجارية مع اليابان مشوقة كل التشويق وذات عواقب أعظم أهمية ؛ وذلك أنه سمح لهم أن ينشئوا مصنعاً بهيرادو أولا ثم آخر فى ديشيما يديرونهما تحت إشراف غاية فى الدقة . وبفضل تجارتهم مع الصين أدخل الشاى إلى بلاد الغرب كما أنه كان لاتصالهم باليابانيين شيء من الأثر فى إثارة الرغبة فى المعارف الغربية بتلك الإمبراطورية الجزرية .

(٣)

وقبل إنشاء الشركة الهولندية بعام واحد ، كانت شركة الهند الشرقية الإنجليزية تلقت من الملكة إيليزابث المرسوم الذى يمنحها حق احتكار التجارة فى الشرق . وكانت التوابل شديدة الأهمية لدى الإنجليز فى ذلك الحين . ولقد كان يقال : « إن أبناء عصر إيليزابث كانوا يعيشون على اللحم المملح من الخريف إلى الربيع ، وكان اللحم الطازج لديهم من نوع ردىء بوجه الإجمال ؛ ورغبة فى خدمة مصالح الصيادين كان القانون يحتم عليهم أن يأكلوا السمك أكثر مما يحبون ولعل جميع ألوان هذا الطعام الماسخ الطعم جعل تلهفهم على المواد الحريفة أقوى بطبيعة الحال من إقبالنا عليها . وكانوا فوق هذا يحبون الخمور القوية النكهة بالتوابل ، وذلك لعدم وجود الشاى لديهم »[1]. غير أن الهولنديين الذين كانوا أهم الوسطاء فى تجارة التوابل فى القرن السادس عشر ، قد أمدوا الأقطار الشمالية بتلك السلعة الجوهرية ، ولكنهم عندما رفعوا فى ١٥٩٩ سعر الفلفل من ثلاثة شلنات إلى ثمانية للرطل الواحد ، صمم التجار البريطانيون على خوض غمار تجارة الشرق بأنفسهم .

وأقلعت أول سفينة للشركة إلى بلاد الشرق بقيادة الربان لانكستر فى ٢٤ يناير ١٦٠١ . فوصلت إلى أتشين بسومطرة وعادت بعد سنتين ونصف فى أبريل ١٦٠٣ تحمل حمولة وزنها ١,٠٣٠,٠٠٠ رطل من الفلفل . وأعقبت هذه الرحلة رحلات أخرى جعلت وجهتها جزائر التوابل بوجه خاص . ولكن أمور الشركة لم تسر على ما يرام ؛ إذ لم يكن لدى إنجلترة شىء تبيعه بدلا مما تأخذ ، وكان اقتصاديو ذلك الزمان يكرهون تصدير العملة الفضية أو الذهبية أشد الكراهية ، على أن وكلاء الشركة بالجزر اكتشفوا مع ذلك طريقة مناسبة ومرضية . فإنهم قدموا تقارير مفادها أن تلك الجزر يشتد بها الطلب على المنسوجات الهندية ، فإذا أمكن جلب هذه المنسوجات وبيعها فى بانتام وملكا ، أمكن تمويل تجارة التوابل من الأرباح . وهكذا كان الهدف من إنشاء مركز تجارى للهند هو شراء المنسوجات ، وكان المكان الذى اختير لهذا الغرض هو سورات (١٦١٢) .

---

(١) مقتبس من : « Rise & Fulfilment of British Rule in India » تأليف تومبسون و جارت

وفى ١٦١٥ أقنع الملك جيمس بأن يرسل سفيراً له إلى بلاط جيهانجير . وكان الإنجليز قد طردوا من إندونيسيا فى تلك الفترة . وتركز اهتمامهم التجارى بأرض الهند الرئيسية . وهنا عادت مشكلة الشركة الإنجليزية إلى الظهور مرة ثانية : فكيف السبيل إلى دفع أثمان التجارة الهندية ؟ ذلك لأن دفع الأثمان بالعملة الفضية أو الذهبية المجتلبة من إنجلترة لم يكن من الأمور التى يمكن البحث فيها . وهنا بدا للناس أن طريق التجارة بالبحر الأحمر منفذ مربح . ولكن قبل أن تزدهر التجارة الإنجليزية ، نشبت الحرب الأهلية بإنجلترة فتحرج مركز الشركة ، فإن شارل الأول منح مرسوماً لمجموعة أخرى من التجار منافسة للشركة يخول لهم الشروع فى التجارة ببلاد الهند . ولكن لم يكن لهذه المنافسة أثر خطير ، وهنا شرعت شركة الهند الشرقية تتخذ سياسة زيادة عدد مراكزها التجارية بحذر . فاستقرت ماسوليباتام فى ١٦٤١ . وفى سبتمبر من السنة نفسها حصلوا من راجاشاندراجيرى ، وارث إمبراطورية ڤيچاياناجار على حق تشييد قلعة بمدراس . حتى إذا وافت ١٦٤٧ صار لهم ثلاثة وعشرون مركزاً تجارياً وتسعون موظفاً — وهو نجاح ليس بالأخاذ على كل حال .

وتغير الموقف قليلا بوقوع بومباى فى حوزة الشركة فى ١٦٦٥ . ونقل شارل الثانى للشركة حق الولاية الكاملة (١٦٦٨) التى كانت ترغب فى الحصول عليه داخل مستقراتها . ونقل المركز الرئيسى للشركة من سورات ، حيث كانوا يعيشون فى ظل الحكام الهنود إلى بومباى ، التى كان فى إمكان مدافع الأسطول أن تدافع عنها بسهولة . حتى إذا عادت الملكية إلى إنجلترة أخذت شئون الشركة فى الازدهار أو فى استرعاء أنظار الجمهور على أقل تقدير ، وذلك منذ أصبحت تحت رياسة السير جوشياتشايلد ، وكان رجلا مدهشاً حقاً مهيباً قليل المبالاة بوازع الضمير صلفاً متكبراً كأنه الإعصار فى عنفه ، ولكنه أوتى خيالا نادراً . « ولا شك أن ظهوره كتاجر من تجار المدن بدلا من امبراطور للصين أو المغولى الأعظم يبدو كأنما هو خطأ من أخطاء المقادير » ذلك ما كان يقال عنه . وأخذ جوشياتشايلد يدافع عن سياسة جريئة . فإنه كان يحس بأعظم احتقار وأعمقه لكل ما هو آسيوى ، بل لقد « أعلن الحرب » على الإمبراطورية المغولية . وكانت نتيجة ذلك العمل شائنة بصورة مطلقة . فقد احتلت مؤسسات الشركة فى البنغال ، وبذا ضاع بضربة واحدة

ما اقتنته الشركة بالجهد الجهيد . واضطرت الشركة أن تطلب السلم بذل وضراعة ، فوافق الإمبراطور أورانجزيب بعد أن وعد الإنجليز « بأن لا يسلكوا مستقبلا مثل ذلك المسلك المخجل » . كما أنه فرض غرامة على التجار المغرورين .

فلما أن عاد وكلاء الشركة إلى البنغال استقروا فى قرية للسماكين على نهر هوجلى (كلكتا فى ١٦٩٠) ، سمح لهم بتحصينها بعد ذلك بست سنوات . وهكذا ظهرت إلى عالم الوجود عند نهاية القرن كل من بومباى ومدراس وكلكتا ، وهى المراكز الثلاثة التى استطاعت منها السلطات البريطانية أن تنفذ إلى داخل الهند بعد ذلك بمائة سنة . على أن الشركة لم يكن لها فى ذلك الحين وإلى عشرات كثيرة من السنين فيما بعد أى نفوذ سياسى ، كما أن الفكرة التى يخادع الناس بإذاعتها مؤرخو هذا الزمان الحديث ، من أن آل كاربوك وآل پت وآل اوكسن ون وآل يول الذين كانوا يبيعون ويشترون ويمارسون التجارة كانوا شخصيات سياسية ذات قدر كريم فى ذلك الزمان ، إنما هى محض تضليل واختلاق .

وربما جاز لنا أيضاً أن نلحظ هنا فى إيجاز دخول الفرنسيين حلبة التجارة الهندية . ذلك أن الملك هنرى الرابع أدرك أهمية السير على قدم المساواة مع الدول الأوروبية الأخرى فى المحيط الهندى ، فحاول أن يؤسس شركة فرنسية للهند الشرقية فى ١٦٠١ . ثم تمت رحلات كشفية منوعة أخرى ، بيد أن انشغال فرنسا الشديد بالتطورات الأوروبية ، ثم نشوب حرب الفروند بعد ذلك ، حالت دون مواصلتها الاهتمام بشئون الشرق حتى عهد كولبير . فإن ذلك السياسى الكبير الذى كان تواقاً إلى تكوين صرح عظمة فرنسا البحرية ، كان يهتم اهتماماً مباشراً بتأليف شركة الهند الشرقية (١٦٦٤) . وتم إنشاء المصانع فى إبانها المناسب ، وكان للفرنسيين كغيرهم من الأمم الأوروبية ، مستقراتهم الصغيرة ببلاد الهند . وكانت فكرة كولبير الأصلية إرساء قواعد سلطان الفرنسيين بجزيرة سيلان ، ومن ثم وجه إليها لهذا الغرض أسطول ضخم بقيادة جاكوب دى لاهاى فى مارس ١٦٧٠ . على أن الهولنديين كانوا شديدى اليقظة فحالوا بين الفرنسيين وبين الاستقرار بتلك الجزيرة ، ولم يبلغ تلك الحملة من مرادها إلا إنشاء بوندشيرى على يد فرانسيس مارتن ، الذى تخلف فيها هو وستة نفر من الفرنسيين .

وسننقل إليك فى إيجاز صورة الشرق عند نهاية القرن السابع عشر : فقد أزيلت بالفعل قوة البرتغاليين من المحيط الهندى والمحيط الهادى أيضاً ، وإن بقيت لهم مستقراتهم فى جوا ومكاؤ وتيمور لا يزعجهم فيها أحد . وكان فى يد الهولنديين الشقة الساحلية من سيلان ، فضلا عن مؤسسات تجارية أخرى قليلة بشبه الجزيرة الهندية ، أهمها كوتشين ونيجاباتام . وقد احتلوا ملقا وأصبحت تجارة الملايو فى قبضة أيديهم . فأما إندونيسيا فإنهم شادوا بها إمبراطورية تقوم على الاحتكار التجارى ، ومنها مارسوا مع الصين واليابان تجارة مثمرة مربحة . فأما البريطانيون فإنهم وقد طردوا من جزائر إندونيسيا ، ركزوا اهتمامهم فى شبه الجزيرة الهندية التى أنشأوا بها هيئة تجارية ضخمة . ثم جاء الفرنسيون بعد الجميع وركزوا مدعياتهم فى بونديشيرى . ولم يكن للتجار الأوربيين أى سلطان سياسى إلا فى مناطق الجزر ، وعندما دخل البرتغاليون فى ١٦٣٣ والبريطانيون فى ١٦٨٩ حومة المنازعات مع الحكام الهنود أجبرتهم الظروف على أن يدركوا أن محاولة تحدى سلطان الدول المستقرة ما هو إلا حماقة من الحماقات .

ومن المهم أن ندرك فى هذه المرحلة التغير العظيم الذى حدث فى تكوين التجارة الآسيوية . وقد أسلفنا لك أن الأمم الأوروبية أخذت تبحث وراء الأفاويه . وفى القرن السادس عشر كانت الأفاويه تتسلط كل التسلط على التجارة بين أوروبا وآسيا . وحدث حتى فى القرن السابع عشر أن ظل اهتمام الهولنديين الأكبر موجهاً للتوابل وحدها . حتى إذا تم طرد البريطانيين نهائياً من إندونيسيا ، واستتب نمو التجارة مع موانى الصين ، تحولت نقطة الاهتمام التجارى إلى المنسوجات كالبفته والموسلين والحرائر إلى غير ذلك . ومما ساعد على ذلك التغيير مساعدة عظيمة الانقلاب الذى حدث فى الشئون الاقتصادية بأوروبا . وقد ظلت ثروة أمريكا تتدفق إلى أوروبا مائة سنة من الزمان . فإن مناجم الذهب والفضة بأمريكا الوسطى والجنوبية أغدقت الثراء على الشعوب البحرية النازلة على ساحل الأطلسى . كما أن مستعمرات إنجلترة وهولندة بأمريكا الشمالية زادت فى رغد الأقطار الأم . وكذلك أسهمت تجارة التوابل بآسيا بنصيبها . ولما أن انتصف القرن السابع عشر بلغت أمم الأطلسى من الرغد وخفض العيش حداً لم تعرفه من قبل غير البندقية .

وغنى عن البيان أن ذلك الرخاء الاقتصادى أورث أوروبا أنواعاً جديدة من الطلب . فاشتد الطلب بانجلترة وفرنسا وإسبانيا ، وهى الدول العظمى الثلاث فى ذلك الأوان ، على الموسلين (الموصلى) والمنسوجات المطبوعة المستوردة من الهند . وعلى الشاى والحرائر من بلاد الصين وعلى البن من جزر الهند الشرقية الهولندية . على أن تجارة الأفاويه ظلت بطبيعة الحال على أهميتها الشديدة الأولى ، ولكن المنافسة أدت إلى التقليل كثيراً من الأرباح . ثم صار إقبال الناس على المنسوجات الهندية مشكلة سياسية كبرى فى كل من إنجلترة وفرنسا . وانبرى كتاب النشرات الذين يبرز من بينهم ذلك الأديب المرتزق ستيل ، وأخذوا يدافعون عن فضائل البضائع الصوفية البريطانية . وشعر البرلمان فى زمن مبكر – يرجع إلى ١٦٧٧ – بأن الواجب يهيب به أن يحظر على الناس أن يرتدوا فى الشتاء جميع أنواع الأقمشة عدا الصوفية منها . وما وافت ١٦٩٥ حتى حلت المنسوجات الهندية محل البضائع البريطانية حلولا بلغ من قوته أن اشتد إلحاح الجمهور على ضرورة حظر المنسوجات الهندية حظراً تاماً . وقام نساجو الحرير بمدينة سبيتالفيلد Spitalfields بمظاهرة أمام دار البرلمان . ولم يكن الموقف بفرنسا بأحسن من هذا بأى حال . فأصدر الوصى على العرش – تحت ضغط مصالح صناع المنسوجات بتلك البلاد – عدداً متعاقباً من التشريعات يعترض سيل الإقبال على البضائع الهندية والصينية .

ومع أن التجارة الشرقية قد تحولت بوجه خاص إلى المنسوجات التى من أجل رخصها ومتانتها وزهاء ألوانها فضلا عن قابليتها للغسل ، صارت موضع التهافت الشديد لدى كل من الأثرياء والطبقات الوسطى بأوروبا ، – إلا أن تلك التجارة لم تقتصر على المنسوجات وحدها ؛ ذلك أن ورق الجدران والمراوح والخزف الصينى والخزائن (الشكمجيات) والشاى من الصين والسلع المعالجة باللّك وشيلان الكشمير والديباج الموشى من الهند ، قد أصبحت من السلع التجارية الهامة . وتعالت الصيحة بالمعارضة لتزايد حجم تلك البضائع وكثرتها . ويقول فى ذلك سانسوم* : « وكان الأصل فى ذلك الجدل – وقد تفرعت منه مناقشات عديدة – هو الحرص على ألا يسحب من البلاد الذهب الذى بها . لقد أظهر كتاب الرسائل من الإنجليز

* السير چورج سانسوم فى : « العالم الغربى واليابان » .

الانزعاج الذى ألم بهم حين رأوا أن منسوجات الهند منسوجات شفافة وأشفقوا أن تظهر فتيات الإنجليز فى مظهر غير لائق ولا محتشم ، فدعوا إلى تجنب مثل هذه الثياب الرقيقة ، ولكن لم يكن كل هذا إلا رياء يشف عما تحته : رياءً لا يدانيه فى الرقة إلا ثياب الموسلين ؛ فلم تكن اعتراضات هؤلاء قائمة فى الأصل إلا لحماية الصناعات المحلية بوجه خاص والاحتفاظ بالذهب والفضة بوجه عام » .

وربما جاز لنا أن نتذكر أن هذه الشكوى شىء قديم عاصر عهد التجارة الرومانية مع آسيا. وقد قدر پلينى مدفوعات روما للهند بنحو ٥٥٠ مليون سسترکا . ومع أن ذلك الرقم ربما انطوى على شىء من المبالغة ، إلا أن هناك من الدلائل ما يشهد تماماً بوجود الشكوى من أن التجارة الهندية تستنزف ذهب الإمبراطورية ، وأنها كانت سبباً فى حدوث اضطراب مرير فى روما . والواقع أن السلع التى كانت بلاد الهند والشرق توردها لروما كانت هى هى لم تتغير تقريباً ، وهى المنسوجات الشفيفة والتوابل وخشب الصندل وصبغة النيلج واللآلئ إلى غير ذلك ، فضلا بالطبع عن الحرير من بلاد الصين . وربما شاقنا بالمثل أن نلحظ أنه فى مقابل ذلك كله لم يكن لدى روما إلا النزر اليسير جداً الذى تستطيع بيعه للشرق ، ويقال إنه كان قاصراً على مقادير متواضعة من الخمور والمعادن وصبغ الأرجوان .

كانت التجارة الآسيوية بحكم الضرورة حتى القرن التاسع عشر تجارة من جانب واحد ؛ فلم يكن الناس يقبلون كثيراً على البضائع الأوروبية فى أى قطر من أقطار آسيا . لقد كانت إمبراطوريات آسيا من النوع الذى يدعوه ويتفوجل « دول المصانع المائية » ، التى تعتمد على إيرادات الأرض الزراعية ، ولذا فإن لها على وجه الإجمال اقتصاداً ذا اكتفاء ذاتى . ومع أن تجارة الهند كانت كبيرة فى كل الأوقات ، إلا أن اقتصاد البلاد لم يكن معتمداً على التجارة . وينطبق ذلك على الصين أيضاً ، كما أن حكومات الإمبراطورية المتعاقبة كانت فيما ياوح لا تشجع استيراد البضائع الأجنبية إلى بلادها . وفضلا عن ذلك لم يكن لدى أوروبا فى ذلك الأوان إلا القليل تقدمه للاقتصاد الأسيوى . وليست قصة شركة امستردام التى صدرت إلى سيام مجموعة مكونة من آلاف من المنحوتات والتماثيل ومن صور العذراء (المادونّا) ومناظر التوراة والعهد الجديد ، « وهى صور مطبوعة تسجل

قصص لاوى ، وأخيراً صور ذات نواح إنسانية أعم ،ومجموعة من الصور العارية وتصاوير أقل احتشاماً » ، ليست تلك القصة بأى حال عجيبة ولا فريدة فى بابها . وربما جاز لنا أن نذكر هنا أيضاً رسالة ريتشارد كوك المرسلة من اليابان يشكو فيها عدم إقبال الناس على صور الكتاب المقدس . « فإن رقعة من الورق عليها صورة حصان أو سفينة أو طائر تجد منهم تقديراً أكثر من إحدى تلك الصور الثمينة . ولن يمنحك أحدهم ستة بنسات مقابل صورة مليحة مثل صورة تنصير القديس بولس » .

لقد كانت قلة الطلب على البضائع الغربية مثار الشكوى الخطيرة حتى تمكنت مانشستر من إنتاج منسوجات رخيصة وحتى أصبح فى المستطاع تصدير البضائع المصنوعة بالآلات . وحتى فى القرن التاسع عشر نفسه كان الطلب على البضائع الأوروبية أقل من المتوقع بكثير ، كما سنحاول تبيان ذلك فيما بعد . وليس من العجب أن كان الناس فى ذلك العهد ينظرون بعين الإنكار والنقد اللاذع إلى تجارة شركة الهند الشرقية . فقد كان هذا عهد القومية الاقتصادية التى بدأت بقوانين الملاحة البحرية للدولة وتقدمت إلى الأمام بما ابتدعه كولبير من وسائل القومية الاقتصادية فى فرنسا . كانت هذه القومية تهدف بخاصة أن تحمى الصناعات القومية ، وأن تنمى تجارة الصادر وتحمى ثروة البلاد . على أن آراء الاقتصاديين لم تستطع أن تحدّ مما يطلبه الناس من متاجر الشرق بل ساعد ازدياد الثروة والترف على أن يحتفظ الناس بطلباتهم من بضائع الشرق بل والتزيّد منها .

وقد شهد الشطر الأخير من النصف الأول من القرن الثامن عشر شبوب المنافسة العظيمة بين إنجلترة وفرنسا فى المحيط الهندى . وتجلت الأحوال السياسية المتغيرة بأوربا ، التى دفعت إلى الوراء كلا من البرتغال وهولندة ، منعكسة فى المنازعات التى دارت رحاها وتطورت بين الدول الأوربية ببلاد الشرق . ولم يبق فى حلبة المنازعة سوى فرنسا وإنجلترة وحدهما . وليس يعنينا فى هذا المجال هذه المنازعات التى نشبت بين أمم أوربا مما سلطه بعضهم على بعض فأدت إلى تدميرها جميعاً ، ولا المتاعب التى جرها المتطفلون من التجار . ولعله يحسن بنا أن نشير إلى أنه

---

* مقتبس فى نوسانتارا Nusantara ص ١٩٨ .

لم يكن لجهود فرنسا المتقطعة أى أثر فى الحوادث التى نمت فيها قوة الأسطول البريطانى * . أما فيما يتصل بالمحيط الهندى فكان قد قضى على منافسى بريطانيا فى سيطرتها التجارية . وأما فيما يختص بالصين والبحار الشرقية فلم يكن للدول إلا قدر محدود من التجارة . أما فى إندونيسيا فقد تم للهولنديين احتكار التجارة بلا منازع .

---

* يضرب الكاتب مثلا لهذه الجهود بما فعله «لابوردونيه» فى خليج البنغال إذ قام بأعمال بحرية .

الفصل الثانى

الصين واليابان

(١)

لقد أصبح المحيط الهادى (الباسيفيكى) مفتح الفجاج للسفن الأوربية منذ أن استتب الأمر لسلطان البرتغال بملقا فى ١٥١١ . ولقى البرتغاليون بشبه جزيرة الملايو كثيراً من الصينيين معظمهم من «فوكين» ، سمعوا منهم الشئ الكثير عن ثراء الإمبراطورية الصينية العريض وتجارتها الضخمة . وكان أول برتغالى بلغ شاطئ الصين هو رافائيل بيرسترللو (١٥١٦) ، وقد سافر على إحدى السفن الصينية الطراز ، وعاد بعد رحلة شاقة مليئة بالمغامرة . وفى السنة التالية زار جورجى ماسكارياس — فيما يقول جورج فيليبس — ميناء تشوانج تشاو ، وتاجر مع التجار الصينيين . وقد أقنعت المعلومات التى جمعها بيرسترللو وماسكارياس السلطات البرتغالية بفائدة فتح باب التجارة مع الصين . وأعدت لذلك الغرض بعثة سياسية ، وحمل الأسطول بقيادة فرناند دانترادى إلى كانتون توماس بيريز وهو صيدلى حمل رسالة من ملك البرتغال ، وكان دانترادى رئيساً للمحطة البرتغالية البحرية بملقا ، وقد أحضر معه شحنة ضخمة من الفلفل ، وهى سلعة كان الطلب عليها عظيماً ببلاد الصين فى جميع الأوقات . ولقى السفير استقبالا حسناً ، كما سمح الموظفون بكانتون لدانترادى أيضاً ببيع ما معه من فلفل وشراء ما يلزمه من البضائع الصينية بدلا منه .

وكان الإمبراطور الذى يلى الحكم فى بيكين فى ذلك العهد هو كانج تى من أسرة منج . وقد أسس هذه الأسرة المالكة راهب بوذى قوى الوطنية هو تشويوانج تشانج ، الذى نظم المقاومة الوطنية ضد المغول الأجانب ، وكانت أسرته تلك صادقة النزعة القومية ، كما أنها تمثل نهضة وبعثاً جديداً للروح الصينية . وفى عهد تشويوانج تشانج الذى أطلق على نفسه لقب هنج وو الملكى ، مدت الإمبراطورية

سلطانها إلى كوريا نفسها وجزائر ريوكيو ، كما تقبلت الخضوع لسيادته بورما ، وغيرها من الدول والولايات البعيدة التابعة . وكان أباطرة اليابان يتقبلون السيادة الصينية بالرضا التام فى مستهل حكم أسرة منج . فإن مجموعة متعاقبة من العواهل اليابانيين قد اعترفوا بتلك التبعية فى مراسلات رسمية ، وقال ينج لو فى مرسوم إمبراطورى موجه إلى الإمبراطور يوشى متسو : « أنت أيها الملك كنت دائماً موالياً وحكيماً ومخلصاً . وقد قمت على الدوام بالخدمات الجليلة لنا . وأنت تحترم عرشنا بكل توقير . . . لذا نمنحك يا ملك اليابان مكافأة إظهاراً لسرورنا »* .

وكانت سياسة أسرة منج كعاهلية قومية تقوم بوجه عام على إعادة بعث روح الثقافة الصينية . وسنّ هنج وو مجموعة من القوانين وأعاد تأسيس الهيئة البيروقراطية التقليدية بالإمبراطورية ، وقوى هيئة الماندرين بإعادته نظام الامتحانات الإمبراطورية . وكان خلفه ينج لو (١٤٠٣ — ١٤٢٤) امبراطوراً ذا كفاية عظيمة هو الآخر ، وقد خلد إلى اليوم ذكراه بإعادته بناء بيكين على صورتها الحالية وبالموسوعة الهائلة التى جمعها — وهى المسماة تاتين الملك ينج لو — وبالمغامرات البحرية التى قام بها أمير بحره تشنج هو ، الذى انطلق بأسطول مكون من خمس وستين سفينة بالمحيط الهندى حتى بلغ به بحر العرب . ولكنه فضلا عن هذه فإن له من الأفضال ما يخوله أن يعد من أكبر من حكموا بلاد الصين . فإنه بسط سلطانه الإمبراطورى على أنام وكوريا واليابان . وتم له أيضاً بفضل حملات تشنج هو البحرية تحويل السيادة المبهمة التى كان الصينيون يدّعونها لأنفسهم على المناطق الجنوبية إلى شىء يشبه نظام الدول التابعة . فإن بيكين بدأت لأول مرة تدعى أن لها على سيام وجاوة وسومطرة والملايو حقوق الدول العظمى .

ولم يكن خلفاء ينج لو رجالا ذوى اقتدار ملحوظ ، ولكن يجدر بنا أن نركز فى الأذهان أن الذى حدث عند مستهل القرن السادس عشر ، بل ولمدة تتغلغل فى

* اقتبسه « كونو » فى : « التوسع اليابانى فى القارة الآسيوية .Jap. Expan. on As. Cont » مج ١ ص٢٧٣ — ٢٧٤ . وقد أصدر الأستاذ يوشى كونو أيضاً مستندات عديدة تؤكد بما لا يدع سبيلا لشك أنه فى أثناء الشطر الأكبر من عهد اشيكاجا كانت للصين سيادة فعلية على اليابان ، وكثيراً ما بلغ الأمر بإمبراطور اليابان أن يصف نفسه بأنه « رعية لإمبراطور منج » ، وأن يستخدم الخاتم (الختم) الذى أعطاه إياه بلاط بيكين . انظر « كونو » فى : « التوسع اليابانى » مج ١ ملحق ٢٣ ص ص ٢٦٦ — ٢٧٤ .

صميم السابع عشر حتى منتصفه ، أن الإمبراطورية الصينية كانت تتمتع فى عهد أسرة منج بسلام وخفض عيش دائمين ، يكاد لا يكدر صفوهما شىء . وظل النظام الإدارى يقوم بعمله سوياً وفق النسق الذى رتبه عليه هنج وو ، وينج لو ، ولو وضعنا حجم الإمبراطورية موضع الاعتبار لعلمنا أنه كان يتصف بالقدر المعقول من الكفاية والقدرة على تنفيذ سلطاته فى كل مكان . وفى عهد كانج تى الذى بلغ فيه البرتغاليون الصين لأول مرة ، كان ذلك النظام الإدارى الذى أعاد الإمبراطوران السالفان تنظيمه يعمل عمله على خير وجه ، كما أن الروافد (نواب الملك) والحكام المحليين قد أوتوا من الكفايات والقدرة على المبادأة والابتكار ما جعلهم يعالجون بمهارة كل المسائل التى كانت تنشأ بالأقاليم . والواقع أن أبرز الظواهر التى يتسم بها تكوين الصين السياسى حتى معاهدة تيان تسن (١٨٥٨) ، كانت هى الولاء والقدرة التى كان نواب الملك بالصين ينفذون بها سياسات الإدارة المركزية ، وذلك حتى حين كانت حكومة بيكين نفسها ضعيفة وفاسدة وعديمة الكفاية .

وأبلغت سلطات بيكين على الفور بوصول بيريز ، وبعد فترة التأخير التى لا مناص منها صدر إليه الإذن بالمثول إلى بيكين . وفى الحين نفسه أخذت تبلغ مسامع بلاط أسرة منج معلومات ليست فى صالح البرتغاليين مطلقاً . فإن سلاطين الملايو الذين كانوا بوصفهم تبعاً للإمبراطور يدّعون الحق فى حمايته لهم ، كتبوا يستنجدون به على الوافدين الجدد . وكان سلطان بيتانج بوجه أخص قد كتب تقريراً مفصلا حذر فيه حكومة بيكين من أن البرتغاليين كانوا حين يفدون ابتغاء التجارة ، يضمرون فى أنفسهم الفتح . وعرض على الأسماع طرائق البرتغاليين فى المحيط الهندى . غير أن الإمبراطور وإن ملأ الشك فؤاده إلا أنه لم يجنح إلى عدم استقبال السفير البرتغالى ، ولذا صدرت الأوامر بأن يرسل توماس بيريز إلى بيكين . وفى نفس الحين الذى وصل فيه بيريز إلى العاصمة ، كان البرتغاليون أنفسهم قد أثبتوا للسلطات الصينية أنه لا يجوز الثقة فيهم ، وهو أمر أزاح عبئاً ثقيلا عن عاتق تلك السلطات . ذلك أن سيمون دانترادى أخا أمير البحر الذى أوصل بيريز فى البداية ، تقدم بسفنه إلى شانج تشوان وأخذ يتصرف بالطريقة التى اعتادها ربابنة البرتغاليين بمنطقة الملايو . فأنزل بضعة نفر من رجاله وشرع فى بناء قلعة . وعندئذ

هاجمه الأسطول الصينى حتى أجلاه عن الموقع . ولما أن بلغت أنباء قرصنة سيمون دانترادى مسامع بيكين ، رفضت الحكومة الصينية بطبيعة الحال استقبال السفير ، وأمرت به فأعيد إلى كانتون ، حيث مات سجيناً فى ١٦٢٣ .

ومن الضرورى أن نؤكد للقارئ أنه لم يكن يخامر الصينيين فى ذلك الأوان أى كراهية للأجانب . ذلك أن أسرة منج وإن كانت ذات نزعة قومية ، وتمثل نهضة الثقافة الصينية بعد حكم أسرة يوان الأجنبى ، كانت مستعدة للترحيب بكل علاقة تعقد أواصرها مع الأجانب . والواقع أنه حدث فى أوائل عهد تلك الأسرة نشاط بحرى عظيم كما لاحظنا ذلك آنفاً ، كما أظهرت رحلات تشنج هو فى المحيط الهندى والاتصالات التى أنشأتها الإمبراطورية مع شبه جزيرة الملايو والجزر الجنوبية ، بأجلى بيان أن الصين لم يكن يحدوها فى تلك المدة روح الاعتزال . فكان الصينيون يرحبون بالأجانب ، كما أنهم خضوعاً لمراسم البلاط وتسليماً منهم بمدعيات ابن السماء ، تعودوا أن يستقبلوا السفراء من الأقطار الأجنبية . بل الحق أن توماس بيريز نفسه كما رأينا تلقى الإذن بالشخوص إلى بيكين . فلماذا قلب بلاط بيكين على حين بغتة سياسته رأساً على عقب ، ورفض أن تكون له أية معاملة مع البرتغاليين ؟ إن القارئ ليعثر على جواب ذلك فى المدعيات السياسية للبرتغاليين ، وفى سلوكهم البربرى نحو شعوب آسيا .

وكما سبق أن أشرنا آنفاً كان ملك البرتغال قد اتخذ لنفسه لقب سيد الملاحة وادعى السيادة على جميع الأراضى التى يكشفها رجاله . ومن الطبيعى أن البرتغاليين لم يكن لهم قبل بتنفيذ ادعائهم هذا فى البر ، ثم عدلوا عن ذلك الادعاء بعد الكارثة التى منى بها ألبوكرك ، بقاليقوط فى ١٥١١ ، بهدوء تام ، من ناحية السلطة على البر . ولكن حيثما استطاعت سفنهم أن تضعه موضع التنفيذ ، أعنى على جزر مثل سيلان وفى ملقا ، لم يخففوا قط من غلواء مدعياتهم . كما أنهم استمسكوا بشدة على صفحة البحر بالمبدأ القائل بأن لهم الحق فى الملاحة بالبحار الشرقية بكل ما لهم من احتكار شامل كسادة للملاحة ، بحيث احتفظوا لأنفسهم بالحق فى مصادرة جميع بضائع كل من جرؤ على شق عباب البحر دون إذن منهم . وفضلا عن ذلك فإن طريقتهم فى التجارة على ما تطورت ببلاد الملايو وفى

كوتشين وبمناطق أخرى ساحلية تابعة لولايات صغرى ، كانت تقوم على النزول إلى البر بمنطقة مناسبة وبناء حصن واتخاذه منطقة مملوكة لهم والاتجار من تلك القاعدة . وذلك هو ما حاول سيمون دانترادى فعله فى تشانج تشوان ، وذلك بينما كان السفير فى طريقه إلى بيكين .

ولا يغرب عن البال أيضاً أن بيكين كانت على علم تام بقرصنات البرتغاليين فى أعالى البحار . ذلك أن راجاوات الملايو الذين كانوا يعترفون بالتبعية لبيكين ، وبخاصة سلطان بيتانج ، قد أبلغوا الإمبراطور ما ارتكبه البرتغاليون من اعتداءات على طول الشاطئ ، كما أنهم حذروه أيضاً من مطامع البرتغاليين السياسية . وكان الإسلام فى ذلك الحين شأنه اليوم مجتمعاً دولياً ، ولذا فإن نشاط البرتغاليين فى جوا وهرمز وسواحل البحر الأحمر ، لم يكن بالأمر المجهول لدى حكام الملايو المسلمين . وعن طريقهم بلغت البلاط بعض المعلومات عن الأهداف التى لم يهتم البرتغاليون بإخفائها فى علاقاتهم مع الأقيال الصغار بمنطقة المحيط الهندى .

والحق الذى لا مراء فيه أنه بعد أن عـلّم الزامورين فى قاليقوط القائد البرتغالى المغامر استحالة استيلائه على الممتلكات البرية والاحتفاظ بها ، حين لم يكن فى الإمكان استخدام القوة البحرية بطريقة فعالة ، قنع البرتغاليون بالهيمنة على الجزر الصغرى ولم يجرأوا على تحدى قوة الصين — بيد أن أباطرة الصين لم يكونوا يريدون أية مشكلات ؛ ولذا رفضوا أن تكون لهم بعد ذلك أية معاملات أخرى مع شعب لا يعترف بأية حقوق دولية ، ويقترف القرصنة علناً وعلى أوسع نطاق فى أعالى البحار .

وبذلت البرتغال بعد ذلك الزمن عدة محاولات لفتح العلاقات الدبلوماسية مع بيكين ، ولكن الرفض المهين كان نصيبها على الدوام حتى القرن التاسع عشر . ففى ١٥٢٢ وصل أفونسو مارتنز دى مللو ، ومعه عمارة بحرية آملا أن يؤذن له بالشخوص إلى بيكين ، فهوجم ودمرت عمارته تلك . وكانت المحاولة الثانية فى ١٥٥٢ ، بيد أن البعثة السياسية لم تتقدم عن ملقا حيث نصح حاكمها البعثة بأن تعود أدراجها علماً منه بمزاج الصينيين فى هذا الصدد . غير أن البرتغاليين قاموا بأخطر جهد بعد ذلك بمائتى سنة ، يوم بلغت بعثتهم بيكين فعلا . والظاهر أن هذه البعثة قد استقبلها الإمبراطور ، وأن اسكندر متللو سوزا إى منيسيز قد سجد بالطريقة

المقررة وتلقى هدايا الإمبراطور إلى مليكه وهو راكع على ركبتيه . وعدها الصينيون على طريقتهم المألوفة سفارة تحمل إليهم الجزية .

ومع أنهم لم يسمحوا بتطور أية علاقة سياسية ولا ديبلوماسية ، إلا أن البرتغاليين واصلوا القيام بتجارة مزدهرة مع الموانى الجنوبية . ولم يكن هناك أى خطر خاص على التجارة ، والظاهر أن الحكام الصينيين المحليين كانوا يشجعون الاتصال التجارى بالأجانب الذين كانوا يستجلبون مثل تلك البضائع الثمينة لبيعها . وقد تمخضت زيارة چورچى ماسكرياس لمدينة تشوانج تشاو عن إيجاد العلاقات الودية مع طائفة التجار ، ونشأ عن ذلك تبادل تجارى مزدهر وإن لم يكن رسمياً ؛ بإغضاء متعمد من السلطات المحلية وبخاصة فى تشوانج تشاو وننجپو . على أن طبع البرتغاليين وادعاءاتهم المسرفة فى السيادة العليا على الشرق ما لبثت أن أفضت بهم إلى النزاع مع السكان المحليين ومع حكومة نائب الإمبراطور ، وما عتموا أن طردوا من كل من هذين المستقرين جميعاً . على أن التجارة كانت مربحة للطرفين معاً ، حتى إذا دفع البرتغاليون التعويضات الكافية عما بدر منهم من سوء السلوك وقدموا الهدايا المناسبة لنائب الإمبراطور وغيره من الموظفين ، سمح لهم فى ١٥٥٧ بأن يستخدموا تبة بحرية مهجورة تسمى أماكاو ويتخذوا منها موضعاً ينزلون فيه بضاعتهم ويقومون بتجارتهم — وأما كاو هذه أو مكاؤ كما سميت فيما بعد إنما هى شبه جزيرة صغيرة يربطها بالأرض من ورائها عنق أو برزخ — لأنه حدث يوماً أن أمير بحر صينى يتعقب القراصنة تلقى شيئاً من العون من إحدى السفن البرتغالية ، وإظهاراً للاعتراف بهذا الفضل سمح الحاكم للبرتغاليين أن يستخدموا مكاؤ كنقطة تجارية . وظلت على وضعها ذاك حتى ١٨٨٧ . ويهمنا الآن أن نشير إلى أن البرتغاليين ظلوا حتى ١٨٤٩ يدفعون بانتظام إيجار تلك الأرض ، وأن الصينيين كان لهم اختصاص السلطتين المدنية والجنائية والصدقات فى مكاؤ . وظلت المحاكم الصينية تعمل بها حتى ١٦٩٠ ، كما أن قاضياً خاصاً ظل يقيم فى مكاؤ يمارس سلطاته . فإذا حدثت جريمة قتل كان الفصل النهائى فيها من اختصاص محكمة كانتون ، بل لم يكن يجوز حتى ١٨٤٣ بناء المساكن بمكاؤ البرتغالية ، دون دفع الرسوم المقررة على ذلك إلى السلطات الصينية . من ذلك يستبان أن الفكرة

السائدة بأن البرتغاليين بأخذوا مكاؤ واحتفظوا بها ، رغم جبروت الصين وقوتها ، إنما هى كما هو ظاهر فكرة كاذبة من أساسها . والحقيقة الواقعة أنه حتى منتصف القرن التاسع عشر يوم أن أسس البريطانيون والفرنسيون السيطرة الأوربية ببلاد الصين ، لم يكن مقام البرتغاليين بمكاؤ إلا مقام الملتمس الضارع المتواضع ، لا لبلاط بيكين بل لموظف مرءوس بمدينة كانتون .

وكان الإسبانيون هم الجيل الثانى من الأوربيين الذين اتصلوا بالصين . وقد وصلوا إلى جزائر الفلبين فى وقت مبكر من القرن ، حتى إذا وافت ١٥٧١ كان الأرخبيل قد غزى كما أنشئت مدينة مانلا . وهناك تم الاتصال بينهم وبين السفن الصينية . وكان أول من زار الصين من الإسبان قسيسين ، هما مارتن دهيرادا وجيرونومومارين . وتأسست العلاقات الودية مع سلطات الصين الجنوبية ، ولما بلغ القرن نهايته حصلوا على الإذن بالإتجار فى كانتون . ولكن الأسبان لم يكن حظهم من النجاح أعظم من حظ البرتغاليين فى محاولتهم إنشاء العلاقة الديبلوماسية ، وإن ازدهرت تجارتهم مع الفلبين فيما يبدو . وكانت نوعاً غريباً من التجارة ، وذلك لأن الفلبين كانت تستخدم كضرب من مستودع لبضائع المكسيك ، وكانت تجارة إسبانيا مع الصين تتم عن طريق أمريكا الوسطى . « ظلت الفضة المستخرجة من المناجم الأمريكية يتقايض عليها فى كلاؤ وأكابلكو مقابل المنسوجات الآسيوية المصنوعة من القطن والحرير ، ومقابل التوابل والخزف الصينى البورسلانى مع غش خزانة الدولة التابعة لأصحاب الجلالة الملوك الكاثوليك * » .

واضمحلت قوة البرتغاليين بالمحيط الهادى حوالى الربع الأول من القرن السابع عشر ، عندما تمكن الهولنديون بعد طردهم البرتغاليين من أمبوينا فى ١٦٠٥ من إبعاد خصومهم رويداً رويداً من المناطق الأخرى من الأرخبيل الإندونيسى . وقبل ١٦١٩ تهيأ للهولنديين إقامة مصنع بجاكرتا التى أطلقوا عليها اسماً جديداً هو باتاڤيا ، وبفضل هذا العمل كما يقول القائد الهولندى فى تقرير له : «أحرزنا موطئ قدم ومستعمرة على أرض جاوة » . ولم يلبث الهولنديون أن تبوءوا شيئاً فشيئاً وإلى حين

* هدسون ص ٢٤١ . انظر أيضاً بيرى هنرى برنارد : « جزائر الفلبين Les Isles Philippines » طبع تيان تسن .

المنزلة نفسها التي كانت للبرتغاليين بالبحار الشرقية . فجاء ربان هولندى فى ١٦٦٢ وبصحبته أسطول من خمس عشرة سفينة ، ووقف قبالة مكاؤ ، ومع أنه لم يستطع طرد البرتغاليين من شبه الجزيرة ، فقد كان لحملته نتائج مشوقة إلى أقصى حد حيث انتهت باحتلال فرموزا ، التي لم يكن الصينيون قد استعمروها فعلا فى ذلك الأوان . واستقر الهولنديون بتايوان وابتنوا لأنفسهم حصناً . وصار لتلك الجزيرة أهمية فيما عقب ذلك من عصور التاريخ ، فلعله ينبغى أن نشير بإيجاز إلى مجرى الحوادث بفرموزا قبل تناول قصة محاولات الهولنديين فى إنشاء العلاقات بينهم وبين الصين ذاتها .

لم يستعمر الهولنديون فرموزا بل استخدموها مثابة لتجارتهم بصفة رئيسية ، كما استخدموها ميناءً وسيطاً فى علاقاتهم المتطورة مع بلاد اليابان . بيد أن مركزهم ما لبث أن أحدق به خطر عظيم ، جاءهم هذه المرة من رجل صينى من موالى أسرة منج المخلوعة هو تشنج تشنج كنج المعروف فى التاريخ باسم كوكسنجا . فعندما احتلت أسرة المانشو شمال الصين وأخذت تقضى ببطء على أنصار منج بأرض الصين الأصلية ، صمم تشنج بعد أن صمد لهم بعناد فى أموى ، أن يؤسس قاعدته بفرموزا . فهاجم الجزيرة بقوة عدتها ٢٥,٠٠٠ رجل واضطر الهولنديين إلى التسليم بعد حصار طويل لحصنهم واستولى على الجزيرة باسم إمبراطور المنج . ثم صمد كوكسنجا فى موقفه أمام كل مهاجم بل أخذ يغير على ساحل فوكين ويعيث فيه فساداً حتى اضطر إمبراطور المانشو إلى إصدار الأوامر بإخلاء المنطقة الساحلية من الولاية . وظل كوكسنجا يتولى شئون الحكم بالجزيرة ، ولم يلبث أن تولى الحكم ابنه بها بعد مماته ، فلم تستطع أسرة المانشو ضمها إلى أملاكها إلا بعد وفاة ابن كوكسنجا .

وينبغى أن نشير إلى أن غزو أسرة مانشو للصين ، ذلك الغزو الذى أتاح لكوكسنجا فتح فرموزا ، إنما هو حدث عظيم فى تاريخ آسيا ، وذلك نظراً لأن الأسرة المالكة التى طردت أسرة المنج ظلت متربعة فى دست الحكم ببلاد الصين حتى ١٩١١ ، وكانت بذلك فى بهرة المسرح إبان السنوات المائتين والخمسين التى دارت فيها رحى العلاقات بين أوروبا وآسيا . وغنى عن البيان أن صعودهم معارج

القوة وأن السلطان والهيبة اللذين أسبغاهما على الصين أمد مائتين من السنين ثم انهيارهم النهائى إنما يكوّن فصلا له أهمية وإمتاع فوق المألوف .

وقد أنتجت أسرة منج بعد تشانج تى مجموعة متعاقبة من الحكام الضعاف العاجزين الذين أصبحوا ألعوبة فى يد خصيان القصر وفسدة الموظفين . وكان الإمبراطور وان لى (١٥٧٣ — ١٦٢٠) — الذى تولى الملك طفلا — عبداً لشهواته يدير أعمال الدولة بواسطة خصيانه وجواريه . وكان مستشاره الأكبر هو الطواشى واى تشنغسيان الذى صار يعد فى الصين أسوأ الشخصيات سمعة فى تاريخها الطويل . ولم يلبث خليفة وان لى حتى قتلته حظية أبيه بمساعدة واى الخصى . وكان الإمبراطور الذى خلفه شخصاً ضعيفاً واقعاً وقوعاً تاماً تحت سيطرة واى الذى استطاع بتأييد زوجة أبى الإمبراطور أن يحكم الدولة باسم مولاه . وبلغت أعمال واى تشنغسيان من الفظاعة واستهانته وتحديه للرأى العام وإهماله لمصالح الدولة حداً صارخاً * أنزل الضرر الجسيم — بل التدمير الذى لا سبيل لإصلاحه — بهيبة الدولة وكرامتها . وكان أن حصد الإمبراطور التالى وهو تشنج تشن عواقب سوء أعمال واى تشنغسيان . فحدثت الاضطرابات فى كل مكان ، وسقطت العاصمة نفسها فى يد لى تزو تشنج الزعيم الثائر . لقد آلت الإمبراطورية إلى حال يرثى لها من التمزق ، سهلت لقوة المانشو المتزايدة سبيل الاستئثار بالملك .

وكان شعب المانشو أمة تقيم على التخوم قبلت السيادة الصينية فيما مضى إبان فترات مختلفة ، ولكن الصينيين لم يفتحوا بلادهم بالفعل قبل ذلك البتة . كانت تنتظمهم عشائر ، ولكنهم لا يعيشون فى وحدة قومية ، حتى ظهر بينهم زعيم اسمه نورها تشى (ولد فى ١٥٥٩) ، وكانت نفسه تضطرم بالرغبة فى الثأر لمقتل أبيه وجده على يد موظف صينى على الحدود ، فبدأ يجمع قبائل المانشو فى اتحاد عام . وحاولت السلطات الصينية التهدئة من ثائرته بتعيينه حاكماً على المستنقعات ومنحه لقب « القائد الأفعوان النمر » . ولكن ذلك لم يزد نورها تشى إلا هيبة ومكانة لم يلبث حتى استخدمهما فى تقوية سلطانه السياسى بين القبائل وفى إنشاء جيش قوى .

* قد لخصت هذه المآخذ فى ستة عشر بنداً جمعها ملتمس جدير بالإعجاب رفعه إلى الإمبراطور الرقيب يانج ليان فى ١٦٢٤ .

وقبل ١٥٨٦ أصبحت مختلف قبائل المانشو تخضع لسلطانه واعترف به الجميع حاكماً لإقليم منشوريا . ولم يلبث حتى بسط سلطانه رويداً رويداً على منغوليا التى لم يعد للصينيين فى ظل آخر الملوك من أسرة منج وحكمهم الواهن الضعيف أى سلطان فعال عليها . فلما أن أعانت الحكومة الصينية شعب الياهو (Yehos) فى قتاله لهم ، أعلن نورها تشى الحرب على الصين فى ١٦١٨ . ومع أن أسرة منج كانت عند ذاك تهوى سريعاً إلى خاتمتها النهائية ، إلا أن تحدى الإمبراطورية لم يكن من الأمور الهينة ، لذلك جرد على ذلك المانشوكى الوقح جيش يتولى عقابه . استمرت الحملة تقوم بعملها بطريقة مفككة مدة سبعة عشر عاماً وقوة المانشو تزداد فى كل عام شدة . وعندما حانت منية نورها تشى فى ١٦٢٦ كان سلطان المانشو قد امتد إلى شبه جزيرة لياؤتنج مهدداً الإمبراطورية ذاتها .

وكان اسم خليفة نورها تشى هو تيين تسنج . وهو الذى بسط سيادة المانشو على ولاية كوريا وعلى مغول تشاهار ودفع بالحرب إلى أرض الصين ذاتها . وحدث بالصين فى عهد خلفه العصيان العظيم الذى قام به لى تزوتشنج والذى حمل آخر أباطرة أسرة منج على الانتحار . وكانت تلك هى الفرصة التى كان المانشو يترقبونها بفارغ الصبر . فاتحدوا مع أعوان أسرة منج فى الشمال وتدخلوا ضد الثائر ، حتى إذا هزم لى تزوتشنج طالب عاهل المانشو لنفسه بالإمبراطورية وأدخل الصين بأجمعها تحت سلطانه(١٦٤٥) .

وكان استبدال أسرة قوية جديدة بأسرة منج الضعيفة العاجزة مدعاة لتقوية الصين فى وقت كانت له أهميته وخطورته ، ذلك أن قبائل التخوم الشمالية أمثال المغول ، قد أعلنت فى أخريات أيام أسرة منج خروجها على سيادة الصين . وفضلا عن ذلك خرجت عن الطاعة قبائل القلخان والإليوث وغيرهما من القبائل شبه المستقلة ، وذلك على حين أن الإقليم الهائل الذى عرف فيما بعد باسم سنكيانج كان مستقلا استقلالا مطلقاً . وقد أخذ الروس يتحركون ليملأوا الفراغ القائم بسيبيريا . فالذى حدث فعلا هو أنه عندما بدأت أسرة تشنج وهو الاسم الذى عرفت به أسرة المانشو — حكمها فى بيكين ، كانت رقعة بلاد الصين قاصرة على المناطق الواقعة

جنوبى السور الأعظم، ولم تكن تضم سنكيانج ولا التبت . ثم تعاقب على الإمبراطورية عدد من الحكام المقتدرين ، نخص بالذكر منهم اثنين كانا من أعظم العواهل الذين شهدهم التاريخ الصينى بأكمله ، وهما كانج هسى وتشين لنج — فقاموا جميعاً بإحكام الترابط مرة ثانية بين مختلف أجزاء الإمبراطورية وأوقفوا التوسع الروسى عند حده على نهر عامور ، ثم أعادوا فتح إقليم سنكيانج ووضعوه تحت سيطرتهم الفعالة ، وتدخلوا بالقوة فى بلاد التبت ووضعوا أسس مدعيات الصين فيها أيضاً . وكان القرنان التاليان مسرحاً لبسط سلطان الصين على أوسع رقعة بلغتها : من التخوم الشمالية لكوريا شمالا إلى كمبوديا ومن المحيط الهادى إلى جبال الهملايا وجبال قره قورم .

وكان يقيم فى بيكين منذ نهاية عهد أسرة منج حتى بداية القرن التاسع عشر عدد من القسس الأوروبيين الذين كان البلاط يستخدمهم فى شئون مختلفة . ومع أنهم كانوا مبشرين دينيين ، فإن عملهم فى بيكين كان علمياً بحتاً ، وكان الإمبراطور كانج هسى ينطوى على تطلع عقلى عظيم كان جديراً بالذكر بالنسبة لحاكم يعيش فى تلك المدة . وزادت معرفة أوروبا كثيراً ببلاد الصين، وكان للحضارة الصينية والفكر الصينى اللذين كانا ينتقلان إلى أوروبا عن طريق الترجمات التى كان يقوم بها هؤلاء المبشرون ، — كان لهما بعض الأثر فى حضارة القرن الثامن عشر وفكره ، كما سنحاول أن نوضح ذلك فى فصل تال .

وبذلت محاولات عديدة من الهولنديين بوجه خاص للدخول فى علاقات ديبلوماسية مع الإمبراطورية الجديدة . وقد قدم الهولنديون لأسرة المانشو شيئاً من المساعدة أثناء قتالها مع كوكسنجا ، فزعموا بناء على تلك المساعدة أن فى استطاعتهم أن يقترحوا السماح لهم بإرسال السفراء إلى بيكين . على أن مصالح المبشرين الكاثوليك تضاربت مع مطامع هولندة البروتستنتية . وقد حدث فعلا أن بعثة ديبلوماسية برياسة بيتر دى جويز سافرت حتى بلغت بيكين فى ١٦٥٥ بوصفهم « حملة جزية » للإمبراطور . فانطرحوا على الأرض ساجدين أمام العرش الخالى من صاحبه ، ثم تفضل الإمبراطور فمنحهم الهدايا والألطاف. وكانت الثمرة السياسية الوحيدة لهذه البعثة السياسية ، هى أن صاحب الجلالة الإمبراطورية أذن بشخوص بعثة مثل تلك إلى

عاصمته مصحوبة بأربع سفن تجارية مرة كل ثمانية سنوات . ووصلت البعثة السياسية التالية برياسة بيتر ڤان هورن إلى بيكين فى ١٦٦٥ ، ومع أنه لقى هو الآخر ترحاباً كريماً كرئيس لبعثة تحمل الجزية إلا أنها هى الأخرى لم تتمخض عن أية نتائج سياسية ، وأبلغ السفير رياسته فى بتاڤيا أنهم أدخلوا بيكين كالجواسيس وأخرجوا منها كاللصوص .

وفى تلك الأثناء كان الإنجليز دخلوا بحار الصين ، وكانت أول محاولة اجترأ بها الإنجليز على دخول تلك المنطقة بناء على اتفاق مع الهولنديين ، وهم آنئذ أعداؤهم الألداء فى تجارة الهند الشرقية ، ففى ١٦١٩ عقدت بين الشركتين معاهدة اتفق فيها على احتلال جزيرة فى مكان ما قرب الشاطئ وعلى إجبار السفن التجارية الصينية على قصر معاملاتها التجارية عليهم دون سواهم . واتفق الطرفان أيضاً على أن يكون لهما « مجلس دفاع مشترك » . ونصت المادة العاشرة من الاتفاقية على أن : « الدفاع سيستخدم فى الحصول على التجارة مع الصين ، ومن أجل تلك الغاية اتفق على أن يرسل الأسطول إلى جزر الفلبين ، وذلك لكى يعطل حركات الصينيين وينبههم إلى أنهم لن يتجروا مع أحد آخر سوانا » . وقد فشلت هذه المحالفة غير الطبيعية ، لأن الهولنديين راحوا بعد تحصين جزائر بسكادورس بمعاونة الإنجليز يعملون على احتكار التجارة . فلما أن فشلت المحالفة الهولندية على ما ترى ، صمم التجار الإنجليز على التفاهم مع البرتغاليين . ولم يلبثوا أن حصلوا على رخصة من نائب الملك البرتغالى بجوا وجهزوا عدة سفن بقيادة القبطان ودل . وكانت المعلومات التى لديهم عن أحوال بلاد الصين من الضآلة بحيث أن ودل رأى أن يقتصر على استحضار بعض خطابات التعريف من سلطات جوا إلى حاكم ماكاؤ حتى يمكنه من الاتجار مع الصين . على أن « القهر المزرى » الذى كانت السلطات الصينية ترهق به البرتغاليين بمكاؤ ، كما قال ذلك الحاكم — لم يتح لهم أن يقدموا إلى الإنجليز أية مساعدة . ومن أجل ذلك أخذ الربان الإنجليزى على عاتقه أن يحصل على النتيجة قهراً ، فأعد صندلا وزورقاً من زوارق السفن زودهما بخمسين رجلا ودفع بهما داخل نهر كانتون . على أن السلطات الصينية أوقفتهما وأمرتهما بمغادرة النهر . وتصرف الإنجليز كعادتهم بصلف « وطالبوا بأن يسمح لهم بالمرور والتجارة بحرية ، كما كان يفعل البرتغال ، وأن يزودوا منذ ذلك الحين بأموالهم وبالمؤن

اللازمة لسفنهم ، وهى أمور وعد الماندرين أن يرفعوها إلى الموظفين الأعلين المقيمين بكانتون ، وطلبوا فى الوقت نفسه مهلة مدتها ستة أيام فمنحوها » *

وطبيعى أن هذا الموقف الذى اتخذوه وهو موقف الفاتح الذى يقدم الشروط ويطالب بالأشياء « فوراً » أدى إلى عواقب وخيمة ، فأنزلت السفن جماعة قوامها مائة رجل ، واحتلت قلعة صغيرة قرب النهر ، ورفعت بكبرياء « علم جلالة ملك بريطانيا العظمى على الجدران » . ثم ارتكبوا فى النهر أعمال قرصنة مختلفة . وأظهر الصينيون صبراً جميلا ، كما أن اثنين من ضباط السفينة طلبتهما كانتون حيث تلقى الموظفون المحليون على الفور التماساتهم . ولكنهما لم يحصلا على أى إذن ، وبعد أن اعتذر القبطان ودل° عن مسلكه ، وتعهد بأن لا يعود إلى غلطته ، سمح له بأن يشحن بضاعته ويعود إلى بلاد الهند .

وفى ١٦٨٥ ، يوم كانت ميناء كانتون تحت الانتداب الإمبراطورى ، وقد فتحت أبوابها للتجارة ، حصلت شركة الهندالشرقية التى كان لها آنذاك احتكار التجارة البريطانية فى المياه الآسيوية ، على حق إنشاء مصنع بمدينة كانتون . ثم فتحت كذلك مركزاً تجارياً فى ننجبو . وبعد رحلة السفينة ماكلزفيلد فى ١٧٠٠ زادت هذه التجارة أهمية وصارت سفن شركة الهند الشرقية تتردد على كانتون فى كل عام . وفى ١٧١٥ أنشئ مصنع مستديم فى كانتون ، وتهيأ للشركة الوصول إلى اتفاقية تجارية مع القوميسير الإمبراطورى ، المعروف عند الإنجليز باسم هوپو ، وبها تم جعل التجارة منتظمة . ولكن ذلك كان مقصوراً على كانتون فقط ، وحتى تلك المدينة ذاتها لم تكن الأعمال التجارية تتم فيها إلا على يد هيئة تسمى تجار الهونج ، وهى نقابة احتكار من رجال الأعمال الصينيين ، حصلوا فى البداية على اعتراف الموظفين الصينيين ، إن لم يكن على حمايتهم . حتى إذا أسبغت السمة الرسمية فيما بعد على مركز تلك النقابة أى الكوهونج « سلحت بكامل سلطات الحكومة ، وأخذت تقوم بعمل الوكيل لها ، وتتلقى مؤازرتها التامة من ناحية وتعمل من الناحية الأخرى عمل الممر الذى يمر عن طريقه سيل الثروة ، وهو ما كان الموظفون يتوقعون أن ينالوا منه نصيباً ضخماً » .

---

* انظر المجلد الأول من « السفارات لدى الصين » ص ٨ ، ٩ طبعة بالمر وشركائه بلندن ١٧٩٧ .

Embassy to China, Vol. 1, pp. 8 & 9. London. Balmer & Co. 1797.

ولاشك أن جهاز هذه التجارة فيه شيء يدعو إلى الاهتمام ، وخاصة لأنها أصبحت عاملا ضخماً للمتاعب السياسية التي حدثت في القرن التاسع عشر ، على أن موقف الصينيين من التجارة الأجنبية قد ترجم عنه بأوضح عبارة مرسوم أصدره نائب الملك في كانتون ، وهو يعلن : «أن الإمبراطورية السماوية تعين الموظفين المدنيين لحكم الناس ، وتعين الحكام العسكريين ليرهبوا الجناة الأشرار . أما الشئون التافهة المتصلة بالتجارة فهي من شئون التجار أنفسهم : فلا يجوز للموظفين أن يستمعوا إلى أي شأن يتعلق بذلك الموضوع» . وكان تجار الهونج يسيطرون على التجارة في الجانب الصيني ، وكانوا بدورهم تحت سلطة قومسيير الجمارك الإمبراطوري الذي كان الإنجليز يحرفون اسمه فيجعلونه هوپو . وكان للقومسيير الهوپو وحده الحق في إصدار رخص التجارة ، وكان يهيمن بواسطة تجار الهونج هيمنة دقيقة على العمل بأكمله .

وكانت مصانع الدول الأوروبية المختلفة بكانتون صفاً من المباني تابعاً لتجار الهونج تستأجره منهم الشركات الأجنبية . ويصفها السير جون برات على هذا النحو : «كانت تغطي مساحة طولها ١١٠٠ قدم وعرضها ٧٠٠ قدم فضلا عن فضاء براح صغير أمامها . ولم يكن يسمح بوجود النساء ، وفي عهد متأخر هو سنة ١٨٣٠ هدد نائب الملك بإيقاف التجارة ، لأن السيدات الإنجليزيات جئن من مكاؤ لزيارة المصانع . وكانت وسائل الراحة والإقامة فاخرة مما يشاهد في القصور» . وكان المصنع الإنجليزي فيما يقول المصدر نفسه ، أفخر المصانع شكلا وأشدها ترفاً ، وكانت الشركة الإنجليزية معروفة بمستوى معيشتها العالي وبكرم ضيافتها الكبير . وكانت بوابة المصنع الكبيرة الخارجية تنفرج عن طريق عريض مرصوف يؤدي إلى «مجموعة من الدرجات العريضة» . وعند نهاية الدرجات شرفة يدخل منها إلى المكتبة ، التي كان الضيوف يجتمعون فيها لتناول غدائهم . وكانت الأبواب ذات المصاريع القابلة للطي تنفرج عن قاعة طعام فاخرة تضيئها ثريات من البللور المشطوف مدلاة من السقف وشمعدانات من خالص الفضة على المائدة ، وكانت العادة أن يجلس إليها ثلاثون شخصاً ليتناولوا عشاء إنجليزياً على الطراز القديم يقدم إلى المدعوين بكل أنواع الأبهة والمراسم الشائعة في القرن الثامن عشر .

ومع أن داخل الشركة كان كله أبهة وجلالا ، فإن السلطات الصينية لم تكن تدع للتجار الإنجليز أية فرصة للشك فى مركزهم، فلم يكن يسمح لهم أن يستخدموا الكراسى المحمولة ، ولا أن يجدفوا طلباً للمتعة فى النهر ، وإذا هم زاروا حديقة من حدائق المسرة والنزهة وجب أن يكون ذلك تحت إشراف موظف صغير . ولا يجوز لهم أن يوجهوا الخطابات إلا عن طريق تجار الهونج كما لم يكن يسمح لهم بدخول المدينة .

ولما أن تزايدت قوة شركة الهند الشرقية ونمت مواردها بتلك الدرجة الهائلة ببلاد الهند ، صار للإنجليز إبان القرن الثامن عشر نصيب الأسد فى التجارة الصينية . وكان الشاى السلعة الرئيسية لشركة الهند الشرقية ببلاد الصين ، وكانت مصلحة البريطانيين تنحصر بوجه رئيسى فى الاتجار فى الشاى الأسود الذى تنتجه ولاية فوكين ، ومنها كان يحمل إلى كانتون ويشترى عن طريق تجار الهونج . وقد قرر أحد الشهود أثناء إدلائه بشهادته أمام اللجنة التى اختارها مجلس العموم : « للشركة فيما أعتقد وفيما أستطيع أن أقرره الخيار فى الحصول على كل ورقة من الشاى الأسود ، وأعنى بذلك أن كل رسالة من الشاى الأسود مهما بلغت قيمتها تعرض أولا على الشركة ويسمح لها بفحصها » . أجل إنه كان هناك بطبيعة الحال منافسون لهم من المشترين الأجانب الآخرين، ولكن المبالغ التى كان يستثمرها المشترون الأوروبيون الآخرون لم تكن تصل إلى سبع ما تستثمره الشركة البريطانية ، وقبل أن يبلغ القرن الثامن عشر نهايته كان الشاى قد أصبح شراباً قومياً بانجلترة ؛ واسداد قيمة المبالغ الهائلة المستخدمة فى ذلك الاستثمار كانت الشركة تشجع بيع الأفيون الذى حوله وارن هيستنجز إلى احتكار له ببلاد الهند .

وكان للشركة أكبر جالية من الأوروبيين المقيمين ببلاد الصين، ومع ذلك فقد مضت عليها مدة طويلة لم ترسل خلالها بعثة دبلوماسية إلى بيكين . وكان أول سفير اختير للقيام بهذه المهمة هو الكولونيل كاثكارت ، غير أنه مات قبل أن يصل إلى بلاد الصين (١٧٨٧) . وبعد ذلك ببضع سنين وصلت إلى بيكين البعثة السياسية الشهيرة برياسة لورد ماكارتنى ، وكانت تحمل أوراق اعتمادها من

الملك چورج الثالث ، وكانت بعثة غير عادية بدأت أعمالها بعد إعدادات محكمة وبعدد ضخم من الموظفين . وسافر السفير وحاشيته إلى بيكين فى موكب رسمى ضخم ، ولكنه كان يرفع علماً مكتوباً عليه بالصينية « السفير الذى يحمل الجزية من بلاد الإنجليز » . ومع ذلك فإن اللورد ماكارتنى تصرف تصرفاً مليئاً بعظيم الهيبة والكرامة ، وأبى السجود على الأرض ، ولم يوافق إلا على تقديم أوراق اعتماده راكعاً على ركبة واحدة . وأبدى الإمبراطور تشين لنج تلطفاً عظيماً مع السفير ، ولكن النتائج السياسية والتجارية للبعثة كانت سلبية محضة .

ثم أرسلت بعثة أخرى فى (١٨١٦) برياسة اللورد أمهرست ، واضطرت إلى العودة من بيكين ، لأن الصينيين أصروا على ضرورة سجود السفير أمام الإمبراطور ، وأصر السفير بثبات لا يقل عن ثبات الصينيين على عدم النظر فى تلك المسألة مطلقاً ، وظل الموقف على تلك الحال حتى صممت بريطانيا على إنهائه ، وقد قويت شوكتها بفتح الهند وعلى استعمال القوة لإرغام الصينيين على التجارة معها .

(٢)

وصل البرتغاليون إلى اليابان فى ١٥٤٢ بناءً على ما يقرره أنطونيو جالڤانو حاكم ملقا ، وكان أول من نزل على تلك الجزر فيما يقول المصدر نفسه هم أنطونيو دى موتو وفرانسيسكو زيمورو وأنطونيو بيروتا . وكانت تغشى اليابان فى ذلك الأوان فترة من الحرب الإقطاعية ، اتخذ فيها أمراء المناطق الغربية برياسة أسرة ساتسوما سمة الاستقلال بمناطقهم ، وجعلوا سلطة كل من الميكادو والشوجن صفراً على اليسار . وينبغى أن لا يغرب عن بالنا أن وظيفة الشوجن فى حد ذاتها لم تصبح أداة قوية للحكم المركزى حتى انتقلت إلى يد أسرة التوكوجاوا عند بداية القرن التالى ، ومن ثم أشرفت اليابان فى الفترة المحصورة بين ١٥٥٠ ، ١٦٠٠ على حال تضارع الفوضى الإقطاعية . وتمخضت تلك الفوضى عن زعيم أوتى عبقرية عسكرية هو أودا نوبيوناجا (١٥٣٤ — ١٥٨٢) ، فاستطاع فى الوقت المناسب أن يكبح من جماح سلطان الدايميونات (نبلاء الإقطاع باليابان) وأن يتولى السلطة العليا باليابان .

وفى تلك الفترة الحرجة من تاريخ اليابان وصل البرتغاليون وهم يلوحون بأسلحة أحدث صنعاً وأشد فتكاً ، ولم يفت الدايميونات أن يدركوا مغزى السفن ذات التسليح الثقيل والجنود الذين يحملون (الأركوبيزات) بنادق الخطاطيف اليدوية . ورحب دايميونات الغرب الذين كانوا يقاتلون من أجل استقلالهم المحلى ، بهؤلاء الدخلاء . بل الواقع أن أحد هؤلاء الدايميونات أرسل فى ١٥٥١ مبعوثاً مع فرانسيس زاڤيير ، وكان الأمل يداعب كثيرين من الرؤساء الإقطاعيين على الساحل الغربى فى أن يعظم شأنهم بمساعدة البرتغاليين .

ومن حسن حظ اليابان أن البرتغال لم يعد لها عند منتصف القرن المكانة ولا المركز الذى يتيح لها أن تمارس نفوذاً سياسياً فعالا فى أى مكان ، ولا حتى على المناطق الساحلية نفسها ؛ ولو أن الوضع كان فى عصر البطولة أيام ألبوكرك لجاز أن يحدث بالبلاد شغب ومتاعب داخلية عظيمة ، ولأمكن أن تحتل بعض الجزر الصغيرة . ولكن فترة « سنى الأسر الستين » التى عقبت اتحاد التيجان ، جعلت من الصعب على البرتغال أن تحتفظ بسلطانها حتى فى الأماكن التى رسخ فيها قدمها مدة نصف قرن ، وسرعان ما طردها الهولنديون من ممتلكاتها الرئيسية بالجزر ، وفضلا عن ذلك ، فإن نمو قوة أسرة نوبيوناجا واتحاد البلاد على أيديها أزال كل احتمال فى نجاح العصيان الذى يقوم به الحكام المحليون وأضعف رويداً رويداً خطره على قومية البلاد . أما الخطر الحقيقى فكان مصدره البعثات التبشيرية التى سنعالج نشاطها فى موضع آخر . والنقطة الوحيدة التى يجوز لنا أن نؤكدها فى هذا المقام هى العلاقة الوثيقة التى كانت تربط قواد البرتغاليين بالبعثات التبشيرية ، تلك العلاقة الناشئة عن الروابط التاريخية التى تربط التاج البرتغالى بعملية التبشير بالمسيحية تحت الرعاية الملكية Jus patronatus والمصالح التى كانت البعثات التبشيرية فى ذلك الزمان تحصل عليها من عظمة البرتغال وارتقائها غارب المجد . وقد جاء القديس زاڤيير إلى الشرق ممثلا كلا من البابا — بوصفه قاصداً رسولياً — والملك بوصفه مفتشاً على البعثات التبشيرية . ولما كان القيام بالتبشير مهمة من مهام الدولة توكل فى البرتغال إلى موارد التاج المالية ، فإن ذلك التطابق بين المصالح القومية والنشاط الدينى ينبغى ألا يثير دهشتنا .

وكاد التشجيع الذى لقيته بعثات التبشير المسيحية فى عهد نوبيوناجا أن يجلب على الدولة الكوارث ، لولا أن قيض الله للبلاد زعيماً عسكرياً خلفاً له جمع إلى الحكمة بعد النظر . لم يكن هيديوشى بالقائد العادى ، بل كان وطنياً عظيماً ، ورجل سياسة وتدبير بعيد النظر واسع الخيال وصاحب تنظيم عبقرى . وقد حرص فى البداية شأن نوبيوناجا على المحافظة على حسن العلاقة بينه وبين البرتغاليين ومبشريهم ، بيد أنه كان يرقب الأمور ببصيرة شاحذة ، فلاحظ أن البرتغاليين أنزلوا المدفعية إلى البر لحماية المنطقة التى كان يعيش فيها من أدخلهم المبشرون إلى المسيحية . وعندما زار إحدى السفن البرتغالية ليرى الأب كويلهو ، لاحظ أن المركب كان ثقيل التسليح وإن كان صغير الحجم . وكان متنبهاً تماماً إلى اهتمام دايميونات الغرب بأسلحة البرتغاليين وعتادهم الحربى ، فضلا عن محاولتهم تقوية أنفسهم بعقد أواصر الصداقة مع الأجانب . وتصرف هيديوشى بحزم ، حتى إذا وافت ١٥٨٧ حظر على المبشرين القيام بأى نشاط فى كل أرجاء اليابان .

وفى ذلك الحين كان قد استقر الإسبانيون ببلاد الفلبين وفتحوا مجموعة الجزر الرئيسية ، وكانت لليابانيين مع بلاد الفلبين علاقات تجارية من أقدم العصور ، ولم يكن هيديوشى يمانع فى الدخول فى مفاوضات تجارية مع السلطات الأسبانية ، لولا أن حدثت حادثة أفسدتها . فإن إحدى الغلايين الأسبانية دفعتها الريح إلى الشاطئ حيث تحدث قائدها عن قوة الأسبان وروى للدايميون (النبيل الإقطاعى) المحلى ، الذى أنقذ السفين وادعى ملكية ما عليه من بضاعة ، روى له مفاخراً مباهياً أمجاد غزاة المكسيك وبيرو وبسالتهم ، وعندئذ أصغى هيديوشى لدوافع عقله المتشكك المستريب الواعى من قبل لكل حركات البرتغاليين فى الشرق ، فأمر بجميع الأسبان فى البلاد فاعتقلوا ، ثم صلبهم فى نجازاكى متهماً إياهم بالجاسوسية .

وبعد هيديوشى تولى القيادة إياسو توكوجاوا فى ١٦٠٠ ، وبعد ثلاث سنوات قلد وظيفة شيتاى شوجن أى « القائد العظيم قاهر البرابرة » ، واستمر منصب الشوجنية فى أسرة توكوجاوا مائتين وخمسة وستين عاماً ، وهى تمارس بالأمر الواقع Defacto السلطة العامة على الإمبراطورية اليابانية بأكملها ، ولكنها كانت تحافظ على شكليات اللقب الإمبراطورى وهيبته . وعلى حين كان الشوجن هو الحاكم الفعلى للبلاد ،

كان عليه بالإضافة إلى ذلك أن يقدم تقريراً للإمبراطور عن تصرفاته، وأن يبلغه أولا بأول كل ما يتعلق بالأمور ذات الأهمية القومية العظمى، ويحصل على موافقته عليها . ووضعت السلطة العسكرية بأكملها فى قبضة الشوجن ، وكان على الدايميونات أن يقسموا يمين الولاء لكل شوجن جديد . وقد قضى على كل من حارب أسرة توكوجاوا فى توليها منصب الشوجنية ، وهم الذين يسمون باسم التوزاما أو النبلاء الخوارج ، بأن يحتفظوا بإقطاعياتهم ولكن لم يسمح لهم بأى نصيب فى حكم البلاد.

ومع أن شوجنية أسرة توكوجاوا قد استطاعت بهذه الوسيلة أن تسترد السلطة المركزية وتؤسس دكتاتورية دامت أكثر من قرنين من الزمان ، إلا أن طابع حكمهم الإقطاعى وعدم تمكنهم من إخضاع اللوردة الخوارج ، والسلطان العظيم الذى كان يستمتع به أمراء من أمثال أمراء ساتسوما وغيرهم من الرؤساء الإقطاعيين فى الغرب ، جعل اليابان عرضة للتآمر الخارجي . وإن بعض اللوردة الخوارج من أمثال أسرة تشوتشو التى كانت تقبض بيدها على مقاليد ثلاث عشرة مقاطعة من مقاطعات اليابان الخمس والستين وأسرة ساتسوما التى لها السلطان فى جزيرة كيوشو ، كانت مجتمعة ــ تستطيع دائماً أن تتحدى سلطة أسرة التوكوجاوا ، وكانت عائلة الشوجن وهى اليقظة الحذرة فى كل ما يتصل بدوام حكمها ونظامها ، تدرك الخطر المحيق بالنظام الذى أسسته ، والذى لم يكن للاتصال فيه بالأمم الأجنبية القوية على صفحة البحر من معنى سواه ، وكانت النتيجة المنطقية لذلك هى صدور قرار بمنع جميع أنواع الاتصال بالأجانب ، ما لم يكن ذلك تحت الرقابة الرسمية . لذلك ترى أن سياسة الاعتزال التى فرضتها أسرة الشوجن من ١٦٣٧ ، كان لها ناحيتان داخلية وخارجية . وكان المقصود بها من الناحية الداخلية ضمان أمن النظام القائم من ثورات النبلاء الأقوياء، الذين قد يجرأون ، لولا تلك السياسة ، على عقد المحالفات مع الدول الأجنبية ، أو يحصلون على الأقل على أسلحة وعتاد أقوى وأفعل . وكانت النية متجهة من وجهة نظر السياسة الخارجية إلى منع كل اتصال مباشر بين الأجانب والشعب وإلى تحديد جميع العلاقات التى لا يمكن تجنبها بقصرها على الممثل المفوض عن الشوجن بميناء معين . وكان للشوجن فى تصرفاته هذه مبرر أى مبرر . ذلك أن چاك سبكس كان قد أوضح لإياسو الطرائق التى تتبعها إسبانيا والبرتغال ، وفى ١٦١٢ قدم هنريك براور إلى الشوجن مذكرة عن

طرق الأسبان والبرتغاليين فى الفتح . وفى أيام هيديتاوا الشوجن الثانى من أسرة توكوجاوا ، كانت الأمم الأوروبية الاستعمارية نفسها يستنكر بعضها مقاصد البعض. وقد أظهر معتنقو المسيحية من اليابانيين ، كشأن معتنقيها فى كل مكان آخر ، أنهم يعطفون على معلميهم ومستشاريهم الأجانب ، فدفعوا من أجل ذلك ثمناً فادحاً جداً. وقد أظهر العصيان المسيحى الذى شب فى ١٦٣٧ بشمبارا مدى ذلك الخطر للشوجن ، واستدعى قمع العصيان ، الذى قيل إنه كان يتلقى العون والمناصرة من البرتغاليين ، تجهيز جيش ضخم وبذل نفقات باهظة. وكان اليابانيون أيضاً على علم تام بنشاط البرتغاليين والهولنديين والأسبان والإنجليز بجزائر المحيط الهادى — وبخاصة جزر الفلبين وملكا وجاوة — وقد لقنتهم تلك الخطوب ضرورة معالجة أمر الأجانب بحزم ، وحرمانهم من كل فرصة تمكنهم من الحصول على موطئ قدم بالأراضى اليابانية . وفى ١٦١٥ أرسل اليابانيون جاسوساً خاصاً إلى المناطق الجنوبية لكى يقدم التقارير عن نشاط الأوروبيين هناك .

وقد ازداد إهتمامهم بأمر هذا التجسس ، لما سمعوه من أخبار فى ١٦٢٢ عن خطة إسبانية لغزو اليابان ذاتها . ذلك أن إسبانيا شدت من أواصر ممتلكاتها بالفلبين ، حيث كانت تحتفظ بقوة بحرية ضخمة . وكانت اليابان هى المنطقة الوحيدة فى المحيط الهادى التى تستطيع إسبانيا مهاجمتها دون الاحتكاك بادعاءات البرتغال أو توزيع البابا لأراضى العالم ، ذلك التوزيع الذى كانت مصلحتها تقتضيها أن تدعمه وتحافظ عليه . وكأنما كان من الطبيعى لدى الأسبان أن يقوموا بهذا الفتح . ولكن رد الفعل الذى قامت به الحكومة الشوجنية كان قوياً وحاسماً . فأمرت بإبعاد الأسبان جميعاً من بلاد اليابان ، ثم وضعت السياسة الحازمة المتعلقة بالقضاء على اليابانيين المسيحيين موضع التنفيذ ، ولم تلبث البلاد حتى أغلقت أبوابها فى بضع سنين فى وجه جميع الأمم الأوروبية على السواء .

وقد يشوقنا أن نوازن بين نظام الشوجنية وبين نظامين آخرين مماثلين له ، تطورا تحت ظروف مماثلة لظروفه نوعاً ما — هما نظام البيشوا فى إمبراطورية الماراثا ونظام حكم الرانا فى نيبال . وكان البيشوا الحاكم الفعلى لبلاده كالشوجن سواء بسواء ، ولكنه كان يدعى دائماً أن سلطته كانت بتفويض من مليكه بمدينة ساتارا . وكما هو

الشأن مع الشوجن ، كانت سلطته وراثية هو الآخر . وقد وصل البيشوات إلى منصة السلطان؛ كنصراء اسياسة التوسع فى ممتلكات الأسرة المغولية ، ومع أن سلطتهم كانت على عكس سلطة الشوجن مدنية فى أساسها وليست عسكرية ، إلا أن سياستهم العسكرية الداعية إلى فتح بلاد الهندوستان (الهند) هى التى أبقت السلطة فى أيديهم . وكان السبب الرئيسى فى ضعف نظام الشوجنية هو معارضة رؤساء محليين عظام خارج حزبهم لهم ، وكانت الحال هى نفسها مع البيشوات أيضاً . فعلى حين كان الزعماء العسكريون فى الشمال : هولكار وبيووار وسكنديا يؤيدون أسرة البيشوا ، إلا أن معارضة أسرة جايكواد التى كانت تدعى أنها تناصر الملك النازل فى ساتارا ، كانت مصدر ضعف شديد لأسرة البيشوات . وقد سقطت إمبراطورية الماراتا لأن البيشوات عجزوا عن منع أتباعهم الإقطاعيين ، وبخاصة أسرتى جايكواد وسكنديا من التآمر مع الأجانب ،وبذلك أضعفوا قوة الشعب . ولكن الشواجن تمكنوا من الحيلولة دون ذلك التآمر مدة تربى على مئتى سنة .

وهناك مثيل آخر أقرب شبهاً للشوجن أو يكاد هو عائلة الرانا فى نيبال ، ففى ١٨٣٨ أصبح چنج بهادور رانا بعد قضائه على منافسيه رئيساً لوزراء الولاية وقائدها الأعلى ، ومن ثم جعلت المناصب وراثية فى العائلة ،وظلت على تلك الحال حتى ١٩٥١ ، ودفع الملك إلى خلفية المسرح ، ومع أن رؤساء الوزارات كانوا من الناحية الشكلية يدعون أن مصدر سلطانهم هو الملك ، فإنهم شخصياً كانوا السادة المطلقى التصرف فى المملكة . وكما هو الوضع فى حالة الشوجن ، كانت سلطتهم تقوم قبل كل شىء على قوتهم العسكرية ، وذلك نظراً لأن المناصب الرئيسية فى الجيش كان يحتفظ بها لأسرة الرانا ، بينما كان رئيس الوزراء أيضاً هو القائد الأعلى . وكانوا كأسرة الشوجن أيضاً يتبعون سياسة اعتزالية متشددة جداً ، حيث لم يكن يسمح حتى حين قريب إلا لعدد قليل من الأجانب بزيارة أى جزء من البلاد؛ حتى العاصمة نفسها . ومع ذلك ، فعندما اضطرهم تغير الأحوال إلى نبذ سياسة الاعتزال تلك ، لم يستطيعوا أن يحولوا دون استعادة الملك سلطانه .

وبعد تنفيذ الأمر القاضى بالاعتزال ، أظهرت « الباكوفو » أى حكومة الشوجن ، التى كانت تعتمد فى قوتها على الطائفة العسكرية ، نظرية ومبدأ للعيش

نشرتهما بين أتباعها بكل دأب . ولا يزال منطوقهما المذهبي قائماً فى وصية إياسو ، وهو مؤسس أسرة توكوجاوا الشوجنية . وهى فلسفة تقوم على النظام وتقبل الحياة الشاقة أساساً للعظمة القومية . وكان النظام الشوجنى فى حقيقة أمره محاولة لتنظيم الأمة على أساس عسكرى ، مع جعل ضمان أمن البلاد ـــ وبطبيعة الحال التأكد من دوام نظام الشوجن الذى هو تعبير عنه ـــ الهدف الأول لكل يابانى . وأوجد حكومة مركزية قوية وجهازاً إدارياً قادراً على معالجة المسائل المعقدة التى كانت تواجه اليابان . وتطورت « الباكوفو » فأصبحت بيروقراطية منظمة يشرف عليها مجلس من المسنين . وهكذا تمكنت اليابان مع إعادة السلام إلى نصابه بعد مدة طويلة من الصراع الداخلى ، وبفضل قيام نظام إدارى ذى كفاية معقولة وحكومة مركزية قوية ، أن تواجه العالم دون أن يساورها خوف .

على أن مرسوم الاعتزال لم يكن معناه أن جميع سبل الاتصال مع الغرب قد طرحت جانباً ، إذ حدث قبل عهد إياسو أن الهولنديين أنشأوا داراً تجارية لهم فى هيرادو (١٦١١) ، وكان البرتغاليون يباشرون التجارة فى نجازاكى* . وكان دايميون هيرادو يستفيد أعظم الفائدة من هذه التجارة . ودخل الإنجليز أيضاً المشهد نفسه عندما وصلت إلى بلاد اليابان فى ١٦١٣ السفينة كلوف التى يقودها الربان جون سارس ويحمل رسالة من الملك چيمس الأول إلى الشوجن . ويبدو أن سارس قوبل بحفاوة وأذن له بالاتجار . وعندئذ أسست أيضاً دار تجارية إنجليزية . وعادت المنافسة بين هذه الدور المختلفة بالمنفعة على اليابانيين ، على أن سلعة واحدة كانت هى المطلوبة بلا انقطاع وهى المدافع . والظاهر أن كلا من الإنجليز والهولنديين كانوا يصبون المدافع فى هيرادو ، ولكن موظفى الشوجنية كانوا يطالبون بمدافع مسبوكة بانجلترة ، وذلك كما تقول مفكرة ريتشارد كوكس اليومية ، لأن اليابانيين كانوا على علم تام بالفرق فى الجودة بين الصنفين . وكان الهولنديون فى علاقتهم قد

* كان الهولنديون أرسلوا قبل ذلك بعثات تجريبية لعجم عود اليابانيين فى مناسبات مختلفة بدأت أولاها فى ١٥٩٤ ، على أن الهولنديين لم يعرفوا كشعب لدى اليابانيين إلا يوم أن جنحت السفينة على الشاطىء ليفدى إحدى سفن البعثة الرابعة . وقد عامل إياسو الباقين على قيد الحياة من ملاحيها بتلطف وكرم . وفى ١٦٠٩ أرسل ملك هولندة مبعوثاً للتعبير عن تقديره للرعاية التى وجهت إلى رعاياه ، وقد تكرم الشوجن نتيجة لتلك البعثة بالسماح للهولنديين بمزاولة التجارة .



جعلوا من أنفسهم ذوى منفعة على وجه الجملة ، لذا لم يكن أمر الاعتزال مطبقاً عليهم . على أنهم نقلوا مع ذلك من هيرادا إلى جزيرة صغيرة تسمى ديشيما قرب نجازاكى ، ولم يكن يجوز لأى تاجر أو بحار أن يمكث فى الدفعة الواحدة من إقامته أكثر من سنة . وكان عليهم أن يقدموا أنفسهم كل عام ، كملتمسين ضارعين أمام الشوجن فى يدّو . ولم يكن يجوز لهم أن يحضروا معهم زوجاتهم ولا أى نساء أوروبيات أخريات ، ولم يكن ليجوز للنساء اليابانيات عدا المومسات أن يزرنهم . ومع ذلك ، فإن الهولنديين لم يكونوا محبوبين من الشعب . ويشير تاكى كوشى وهو مؤرخ يابانى معاصر إلى ذلك قائلا : « على الرغم من سياسة الشوجنية التى تؤثر بعطفها التجار الهولنديين ، لم يكن اليابانيون بصفة عامة يحبونهم » .

وفى الحين نفسه كانت ديشيما هى النافذة التى تطل منها اليابان على الغرب . وسنعالج فى الموضع المناسب أثرها فى تطور الفكر اليابانى إبان القرن الثامن عشر عن طريق رانجاكوشا أى جماعة العلماء الهولنديين . وبحسبنا هنا أن نذكر أن اليابانيين كانوا يظهرون منذ البداية اهتماماً عظيماً بالمسائل العسكرية . وفى ١٦١٥ سبك چاك سبكس مدفعاً معدنياً زنته ستمائة رطل . وفى ١٦١٨ طلب إلى سبكس أن يعلم اليابانيين كيف يصنعون المدافع ، ومع أنه كان تواقاً إلى مرضاتهم ، فإنه لم يجد بين يديه شخصاً واحداً يعلمه . ولكن حدث بعد ذلك أن وجد الخبراء فى ذلك الأمر ، وذلك لأننا نعرف أن دايميون هيرادو أمر بقطع كثيرة فسبكت بحضرته . وفى ١٦٣٨ أرسل الشوجن لجنة خاصة لفحص وتقديم تقرير عن عمل وطريقة أداء بعض قطع من المدفعية أهديت إليه من شركة الهند الشرقية الهولندية . ولم يسر الهولنديون بطبيعة الحال من ذلك الاهتمام الذى كان يبديه الشوجن وضباطه بالمدفع والهاون . فإن رئيسهم فرانسوا كارون قال : « إن مدافع الهاون لن تصنع مستقبلا ببلاد اليابان » . بل لقد كان خلفه انطونيزون أو ڤرواتر أكثر منه صراحة . أملت عليه حكمته أن يكتب لرؤسائه عن طلب مدفعى لمدفع الهاون ، قال : « وربما تساءل المرء : ألم يكن من الحكمة أن نحبس العلم بالمدافع عن هذا الشعب المتكبر المتغطرس ؟ ولكن نظراً لأن السيف قد سبق العذل وجب أن نستسلم بعد ذلك لما حدث » . وأخيراً أحضر مدفعى للهاون اسمه چوريان شايدل من هولندة فأقام فى

يدّو ستة أشهر (١٦٥٠) . على أن الاهتمام كان نوبة عارضة ، وإن مكن اليابان ، حتى قبل أن تعيد فتح أبوابها للغرب ، أن يكون لها شيء من العلم بمسائل الدفاع ، وبذلك ساعدها على إدراك ضعفها بالنسبة إلى الأمم الأوروبية .

وظل أمر الاعتزال قائماً حتى وصلت « السفن السوداء » التى يقودها القومودور پرى (Perry) أمام الساحل اليابانى فى ١٧٥٢ . ومع ذلك ، فعند بداية القرن التاسع عشر ظل الاتصال بالعالم الخارجى يتزايد على الرغم من كل محاولة بذلها الشوجن لمواصلة سياسة العزلة ومناصرتها . وكان الروسيون وصلوا بالفعل إلى المحيط الهادى ، وكانوا يرتادون البحار الواقعة شمالا ، ولما أن استقرت سلطة البريطانيين تماماً ببلاد الهند ، أخذوا يظهرون هم أيضاً كثيراً من القلق إزاء تلك العزلة ، لذا كانوا يلتمسون بعض المعاذير فيرسلون عدداً من سفنهم للمرور إلى أعلى الساحل اليابانى . وقد تمكنت السلطات اليابانية عن طريق الوكلاء النازلين فى ديشيما من أن تظل إلى درجة لا بأس بها على علم بالأحداث ، على حين أن عدداً صغيراً من الناس ، ولكنه يزداد فى كل حين ، واصلوا دراسة اللغة الهولندية وترويض أنفسهم على التطورات العلمية ببلاد الغرب . وكانت ديشيما أكبر معوان على عملية الإخصاب تلك التى قدر لها أن تؤتى ثمارها رائعة مدهشة أثناء نصف القرن الذى عقب زيارة القومودور پرى * .

نبذة عن الكتب والمراجع المستخدمة فى القسم الأول

هناك كتب كثيرة تعالج بتعمق الأسس التى تكمن وراء الجهود الأوروبية للوصول إلى الهند بطريق البحر . ولا شك أن من العمد فى هذا الاتجاه كتاب رايموند بيزلى « فجر الجغرافيا الحديثة Dawn Mod. Geog. » (لندن ١٩٠٦) ، فضلا عن كتاب « هنرى الملاح » لنفس المؤلف (نيويورك ١٩٠٤) . ثم إن كتاب

* الظاهر أن مقدار التجارة التى واصل الهولنديون مزاولتها وحملها من ديشيما كان غير ذى بال . ففى ١٧٠٠ لم يسمح إلا لخمس سفن فقط بدخول الميناء . وفى ١٧١٥ زيد التخفيض وإذا بالإذن يصدر لسفينتين فقط ، ثم زاد التخفيض بعد ذلك فى عصر الكانسو ، فلم يكن يسمح إلا لسفينة هولندية واحدة فى العام ، ثم لم يعد يسمح بعد ذلك لأية « سفينة حمراء الشعر » بأن تدخل نجازاكى . انظر كيونو من ص ٩٣ — ٩٤ .

« مدونات غينيا التاريخية Chronicles of Guinea » ، الذى هو المصدر الرئيسى لنشاط الملاح ، قد نشره بيزلى وبريستاج فى سلسلة كتب هاكاويت (١٨٩٦) .

وسيجد القارئ أن كتاب « Les Hommes d'Affaires Italiens du Moyen Age » تأليف إيف رينوارد عن الأسس الاقتصادية به متعة لا بأس بها ، على حين أن كتاب الأستاذ تونى « Religion & the Rise of Capitalism » يعالج شأن مصاحبة أنتورب فى الاستكشافات . وهناك خلاصة نافعة وهى أيضاً موثوق بها يحتويها كتاب « Europe and China » تأليف هدسون (لندن ١٩٣١) .

وقد جرت عادة المؤرخين الإنجليز فى حالة فترة التوسع البرتغالى أن يتقبلوا على وجه الجملة ودون أى تمحيص بالنقد الروايات الرومانسية الزاهية الألوان التى يرويها مدونو الأخبار التاريخية من البرتغاليين . لا يستثنى من بين هؤلاء المؤرخين غير واحد منهم هو المستر ر . س . هوايت وايز فى : « Rise of Portuguese Power in India » . وربما جاز للقارئ أن يرجع أيضاً إلى بحث قديم لمؤلف هذا الكتاب عنوانه « Malabar and the Portuguese » (بومباى ١٩٢٨) .

وإن كتاب هنرى كورديه « L'arrivé des Portuguais en Chine » تونج باو ، السلسلة الثانية مج ١٢ ، غنى بمستنداته ؛

كما أن كتاب Siny-Portuguese Trade من ١٥١٤ — ١٦٤٤ تأليف تشانج تيان تسى (ليدن ١٩٣٤) شائق أيضاً .

وأما النشاط الذى قام به الهولنديون الأوائل فى كل من المحيطين الهندى والهادى فليس عنه إلا القدر الضئيل من المؤلفات الموثوق بها باللغة الإنجليزية . وإن كتاب بيريز « Dutch in Ceylon » وكتاب المؤلف « Malabar & theD utch » إنما تعالج مناطق محددة . وإن كتاب چون نيوهوف المعنون « Peter de Goyers... etc. » له ترجمة إنجليزية عملها چون أوجيابى . هذا وكتاب الأستاذ س . ر . بوكر « Jan Compagnie in Japan » . يلقى أنواراً كاشفة ممتعة جداً على علاقات الهولنديين بالإمبراطورية اليابانية .

القسم الثانى

عصر الفتح

١٧٥٠ — ١٨٥٨



الفصل الأول

الهند والجزر

(١)

لقد كان مما يتطلب بعد نظر خارق للعادة فى ١٧٥٠ أن يتنبأ امرؤ يشهد مجرى الحوادث إذ ذاك بأنه لن تنقضى خمسون عاماً حتى تكون أمة أوروبية قد فتحت ثلث الهند، وشرعت تتهيأ للاصطراع مع الماراثا طلباً للسيادة العليا على الشطر الباقى منها ذلك أن مركز الأمم الأوروبية ببلاد الهند ظل بعد انقضاء مائتين وخمسين عاماً على نفس حاله بعد ألبوكرك فى ١٥١٥ دون أن يتغير من جوهره شىء . فكان البرتغاليون يحكمون مناطقهم بجوا ودامان وديو ، وهى اللعبة التى تلعبها كل دولة نزلت بلجة البحر ، ولم يكن لهم أدنى قيمة ولا شأن فى الكفاح السياسى الذى قدر له أن يعقب ذلك . وكان للهولنديين عدد قليل غير ذى وزن من المستقرات ، كان أهمها جميعاً كوتشين ، وهى منطقة ذرعها نصف ميل مربع من ساحل محصن يقع على إحدى الجزر ، ومنها كانوا يزاولون تجارة مزدهرة فى الفلفل . وكانت « الهند » التابعة للفرنسيين تتكون من مستقراتهم فى بونديتشيرى ومحطات تجارية قليلة ضئيلة القيمة هى كاريكال وما هى وشاندارناجور ، وكلها يديرها آنذاك دوبليه الشخصية البارزة المتآمرة . أما البريطانيون الذين اتسعت تجارتهم اتساعاً عظيماً أثناء النصف الأول من القرن ، فكانت لهم مستقرات فى سورات ومدراس وماسوليبا تام وكلكتا ، فضلا عن محطات تجارية صغيرة فى البنغال . وكانت جزيرة بومباى تحت سيادتهم ، إذ نقلها البرتغاليون إلى ملك إنجلترة ، ونقلها هذا بدوره إلى شركة الهند الشرقية ، لكى تحتفظ بها « فى حالة ملكية حرة ومشتركة مثل مقاطعة جرينتش الشرقية مقابل دفع إيجار قدره عشرة جنيهات ذهباً فى اليوم العاشر من سبتمبر من كل سنة » .

ومن الضرورى أن نتذكر أن شركة الهند الشرقية لم تكن تدعى فى أى مكان

آخر خارج جزيرة بومباى أى سيادة على أى منطقة أرضية ، كما أن قلعة سانت جورج (بمدراس) كانت قاصرة على الشاطئ فقط . وإلى جوارها بما لا يبعد عن ميل ونصف كانت مستوطنة سانت ثومى البرتغالية . وفى ١٧٠٠ ظهر بمدراس حاكم مغولى ، فاشترت الشركة رحيله بمنحه هبة طائلة ، وإقامة وليمة احتوت على ستمائة لون ، أعقبها الاستمتاع برقص العدد الجم من الراقصات . ثم أصبحت زيارة النواب عملية تتكرر كل عام تقريباً . أما مدينة مدراس نفسها كجزء من مستوطنة الشركة فإنها لم تظهر إلى عالم الوجود إلا فى (١٧٠٨) ، يوم وهبت الحكومة المركزية بدلهى للشركة منحة مكونة من خمس قرى مجاورة للحصن . ولم يكن مركز الإنجليز فى البنغال كذلك مختلفاً بأية حال . وظلت الشركة تخاطب نائب الملك بالبنغال بأشد أنواع الملق والتذلل . فإن أحد الرؤساء الإنجليز يصف نفسه وهو يخاطب الإمبراطور أنه : «جون راسل أصغر من حبة الرمل ، رئيس شركة الهند الشرقية وجبهته طوع الأمر تتمرغ فى تراب الأرض» . وكان للشركة الحق فى التجارة الحرة فى البنغال ، وسمح لها باستئجار قريتين بالقرب من كلكتا . بيد أن حكومة المغولى أنكرت عليهم كل حق فى التشريع ، وبذا اقتصر نشاط الشركة على الأشغال التجارية المشروعة . وظل رجالها فى هذا الموقف الضارع الذليل؛ ليس فقط نحو العرش بدلهى وروافد الملك والحكام المغول ، بل أيضاً للأقيال المحليين ، وذلك لأن حلماً واحداً من أحلام السلطة السياسية أو إنشاء الإمبراطورية لم يكن يساورهم قط فى تلك المدة .

وما كانت قوتهم أيضاً كفءاً لأى تدخل سياسى جادّ ، ذلك أن التجارب السابقة للبرتغاليين والهولنديين والبريطانيين أظهرت أن الأمم الأوروبية ليست بعد فى مركز يهيئ لها أن تحصل على ما تدعيه حتى من صغار الحكام ، فقد ثار الهولنديون على راجاترا ڤانكور فى (١٧٣٩) ، ومع أن قوتهم بسيلان المجاورة كانت ضخمة ، فإن المعركة انتهت بكارثة أحاقت بالهولنديين الذين اضطر فريقهم ، الذى نزل إلى البر وفيه أكثر من مئة أوربى ، إلى أن يسلم تسليماً ذليلا عارياً من كل كرامة . وأدت محاولة البريطانيين مد سلطانهم على القرى القريبة من مدراس إلى طرد السلطات المحلية لهم بالقوة عند بداية القرن . وحتى فى البحر نفسه فى وقت متأخر يصل إلى (١٧٢٢) تمكن كنوچى أنجريا من هزيمة هجوم مشترك قام به البريطانيون

والبرتغاليون . وفى (١٧٣٨) كتبت السلطات البحرية البريطانية على الساحل الغربى تقريراً تقول فيه : « ليست قوتنا كافية للصمود أمامه (يعنى سامباجى أنجريا) وذلك أنى أؤكد لسيادتكم أنه عدو أقوى منكم ، كما أن عدداً كبيراً آخر يعتقد ذلك » . والواقع أنه بعد انقضاء أكثر من ربع قرن على معركة بلاسى ، لم تكن القوة العسكرية عاملا جدياً قوياً بالدرجة التى يميل المؤرخون المتأخرون إلى اعتقادها .

فما الذى مكن إذن هذه المؤسسات التجارية وشركة الهند الشرقية بانجلترة أن تحرز القوة العسكرية فى مدى خمسين عاماً ، بصورة مكنتها من مقاتلة قوة الماراثا وسحقها فى معركة أساى (١٨٠٣) ؟ وما هى القوى ، سياسية كانت أم اقتصادية أم اجتماعية تلك ، التى ساعدت على إحداث مثل ذلك التحول الضخم ؟ لاشك أن تفسير هذا التغير شىء جوهرى لفهم مركز أوروبا بوجه عام فى آسيا فى القرن التاسع عشر ، وذلك لأنه لاشك أن قوة بريطانيا المرتكزة على الهند بوصفها دولة آسيوية عظمى ، هى التى مكنتها أن تفتح أبواب الصين قهراً ، وأن تقيم السيطرة الأوروبية فى وادى نهر يانج تسى ، وتخضع سلطان أسرة المانشو العظيمة ، وتساعد على تحويل آسيا بأجمعها إلى منطقة تابعة لأوروبا . وفتح الهند عسكرياً وإن تم نهائياً فى (١٨٥٨) هو الذى منح البريطانيين فى (١٨١٨) أساساً قوياً لا سبيل إلى زلزلته مكن بريطانيا — وقد حدث بها الانقلاب الصناعى فى أعقاب حروب نابليون — أن تبرز قوتها السياسية والاقتصادية على المحيط الهادى . من أجل ذلك كان من الضرورى أن نقدم فى هذه المرحلة من دراستنا تحليلا للعوامل التى أدت إلى هذا التحول.

* * *

إن الصورة التى تتراءى فيها الهند فى (١٧٤٨) غاية فى التعقيد . ذلك أن الماراثا كانوا قد أسسوا إمبراطورية قوية مركزها پونا وتشمل المنطقة الداخلية المتصلة بالقارة الآسيوية ذاتها ، الممتدة من تخوم ميسور فى الجنوب على امتداد الساحل الغربى حتى أبواب دلهى ، بما فى ذلك المناطق الخصيبة من إقليمى الجوجرات وملوا والمنطقة الوسطى المترامية المحصورة بين نهر الكنج وجبال القندهيا ، وكان الماراثا يديرونها إدارة مركزية من پونا ، ويسيطرون على جميع أجزائها . وكانت هذه الولاية فى ذلك الحين قوام القوة الوطنية السياسية المحركة ببلاد الهند ، التى كان يحركها ، كما

أشار إلى ذلك الدوق ولنجتون، روح من الوطنية، القومية كما وتسترشد فى أثناء نصف قرن آخر بسياسة الحفاظ على كل ما هو قومى . ولم تكن إمبراطورية الماراثا وعاصمتها پونا قد أخذت حتى آنذاك تعد التجار النازلين فى بومباى ومدراس وكالكتا منافسين لإمبراطورية الهندوستان ، وكان قصارى اهتمامها فى ذلك الوقت شد الأجزاء التى فتحتها بمالوا ووسط الهند، والاستيلاء على ميراث المغول . ومع ذلك ، فإن من الشائق أن نلحظ أن قوة الماراثا هى التى تحدت بريطانيا العظمى ليس فقط فى (١٨٠٣) ولا فى (١٨١٨) ، بل أيضاً فى (١٨٥٨) ، وذلك لأن نوع التنظيم والقدرة العسكرية والتوجيه السياسى التى تجلت فى الجانب الهندى أثناء حرب (١٨٥٧ — ١٨٥٨) كان مصدرها الماراثا بقيادة نانا صاحب آخر بيشوا وتاتيا توپى ورانى صاحب چهانسى — وكلهم من بقايا قوة الماراثا .

وفيما عدا دولة الماراثا ، لم تكن هناك أية سلطة سياسية واضحة المعالم، تستثير من حولها مشاعر الولاء أو الطاعة فى أى مكان آخر ببلاد الهند . وكان بضعة نفر من السادة العسكريين المغول قد اغتصبوا السلطة فى ولايات مختلفة . وقد استولى آصاف جاه على منطقة الدكن الكبرى ، وهو نائب ملك طموح عديم الولاء لمليكه ، استطاع باستخدامه دبلوماسية ملتوية ، يساندها دفع مبالغ طائلة للماراثا أن يظل محتفظاً بمركزه فى حيدر أباد . فلما أن مات فى (١٧٤٨) ، لم يستطع إمبراطور دلهى أن يعين موظفاً يختاره بمشيئته ، فترك الطامعين فى المنصب يقتتلون على توليه . ولم يكن ذلك القتال ينطوى على مثقال ذرة من الولاء أو الطاعة المحلية ، وذلك لأن مدار الخلاف على الوراثة كان منصباً لا عرشاً، كما لم يكن هناك مدع يطالب بحق أسرته فى الإرث، ولا حقوق قائمة على متوارث التقاليد ولا العرف ولا القبول الشعبى العام . وكانت الكارناتك ، وهى المقاطعة الهندية الواقعة إلى الجنوب من هضبة الدكن والتى تمتد اسمياً حتى رأس قومورين والتى لم يمارس فيها المغولى أية سلطة بأى حال ، تحت « نواب » كان يدعى أنه يدير « إقطاعه » من قيادته العليا فى أركوت . وينبغى لنا أن نتذكر أنه لم يكن هناك تقليد متوارث للحكم الإسلامى بتلك المنطقة ، وأن النواب وجنده المرتزقة لم يكونوا إلا ممثلين اسميين لإمبراطور اسمى مقره دلهى . وكان فى الإمكان إهمال سلطانه وغض النظر عنه ، كما أنه لم يكن له

من الهيمنة على الإدارة ما يستحق أي ذكر . وكانت ولاية البنغال الغنية الخصبة تحت نائب ملك مقتدر هو أليفرد هى خان فى (١٧٥٠) ، وكان هو أيضاً قد جعل نفسه مستقلا إلى حدما .

أما فى المناطق الكبرى حيث تزاول الشركات الأجنبية تجارتها ، فإن قواد الحرب اتخذوا لأنفسهم من الحكومة المركزية الآخذة بأسباب الانحلال السريع موقفاً يماثل ما اتخذه نظراؤهم بالصين بعد زوال إمبراطورية المانشو . وقد كان الموقف يبدو ثابتاً بدرجة معقولة ما أدار دفة الإدارة المحلية الحكام الأصليون الذين تعينهم السلطات الشرعية . وهكذا لم يكن آصاف جاه بحيدر أباد مجرد رئيس قوى ، بل كان فى رأى الناس عامة يرمز إلى السلطة المركزية . ولكن خلفاءه الذين اشتجر بينهم القتال لم يكونوا يمثلون سلطة ولا مبدأ سياسياً . وكانت الحال بمنطقة الكارناتك أسوأ وأنكى . فلم يكن أنوار الدين النواب إلا موظفاً ثانوياً عينه النظام الذى كان هو نفسه خادماً . فلم يكن ما كان يدعيه ويتطاحن عليه ، كل من تشاندا صاحب ومحمد على ، إمارة ولا مملكة وراثية ، بل مجرد منصب اسمى كانا يرغبان أن ينعم عليهما به البلاط المغولى . أما سلطة النواب على الكارناتك ، فإن مدى صبغتها الاسمية يتجلى من حقيقة ظاهرة ، هى أنه حدث فى (١٧٤٠) أن قائداً من قواد الماراثا جعل البلاد خراباً يبابا ، وقتل حاكمها دُست على ، وفرض على خلفه دفع جزية قدرها عشرة ملايين من الروبيات ! لذا عندما مات أنوار الدين كان ادعاء أى نوع من أنواع السلطة الشرعية — إن وجدت بالكارناتك أية سلطة شرعية على الإطلاق — قد زال تماماً ولم يعد له أدنى وجود .

ونشأ موقف مماثل فى البنغال عندما توفى أليفرد هى خان فى (١٧٥٦) . وكان أليفيرد هى نفسه قد أصبح نائب ملك بحركة عصيان قام بها على سلفه . فلما أن توفى أصبحت وراثة وظيفة نائب الملك تقوم على التآمر العائلى . ولاشك أن حفيده الذى أصبح فى النهاية النواب نظام أو نائب الملك قد تلقى التخويل من المغولى ، بيد أنه لم يكن يستطيع أن يطالب بولاء أى شخص له ولا أن يدعيه لنفسه ، كما أظهرت ذلك الأحداث بأوضح بيان ، بل كان أبعدهم فى ذلك عنه أعضاء عائلته الذين طردهم . والواقع أن العامل الرئيسى فى الموقف الذى تطور فى حيدر أباد — بعد وفاة النظام آصاف جاه ، وفى الكارناتك بعد وفاة أنوار الدين ، وفى البنغال بعد وفاة

أليفرد هى — كان واحداً لا يتغير ؛ وهو زوال كل أثر للولاء السياسى نتيجة لمحاولة تحويل منصب من المناصب إلى إمارة وراثية ، وهو أمر لم يعد على البلاد فقط بالخبال والارتباك نتيجة للقضاء على السلطة الشرعية التى كان الناس يتقبلونها ، والتى كان الناس لا يزالون موالين لها بوجه عام ، لم يعد على البلاد بذلك فقط ، بل جعل السلطة الحكومية أثراً بعد عين بسبب تلك الحروب الأهلية التى لم يكن منها بد والتى كانت أحزاب مختلفة بالبلاط الإمبراطورى تناصر فيها مرشحين مختلفين . وقد اقتتل تشاندا صاحب ومحمد على فى أركوت : وتحدى ناصر چنج ولاية مظفر چنج على منصب نائب الملك بالدكن ، الذى أقره فيه الإمبراطور ؛ وتحدت غاسيتى بيجوم مدعيات سراج الدولة فى منصب نائب الملك على البنغال ، بل لقد بلغ الأمر أن ابنها شوكت چنج حصل فى وقت من الأوقات على فرمان من الإمبراطور .

ولا شك أن هذا التناحر بين القواد فى ممتلكات المغولى الذى جرّت إليه محاولات تثبيت حق الوراثة فى العائلات مكن جماعات التجار فى الموانى من التدخل منضمين إلى الجانب الذى يعدهم ببذل أسخى الجزاء أو منحهم أعظم الامتيازات . وقد أدرك دوبليه الذى فاق خياله حكمته أن هناك احتمالات عظيمة لتكوين ثروة عريضة لنفسه بالتدخل لمصلحة المدعى الشرعى مظفر چنج فى حيدر أباد ومصلحة تشاندا صاحب فى أركوت (١٧٤٩) . ورأت شركة الهند الشرقية بمدراس أيضاً أن قد آن أوان تدخلها هى أيضاً ، وكان من الطبيعى أن يضموا أنفسهم إلى جانب محمد على المنافس للمرشح لمنصب إقطاعية الكارناتاك . إن هذا الشخص وهو من أدنأ الشخصيات فى التاريخ ، أحرز رفعة وذكراً عريضاً بالديون الضخمة التى استدانها (وكان يحصل عليها فى معظم الأحوال بالائتمار والتواطؤ) ، وبالفساد الذى أدخله إلى السياسة البريطانية حيث استطاع بفضل نظام دوائر الجيب الانتخابية بالمدن (Pocket boroughs) أن ينفق على ما لا يقل عن ستة من أعضاء البرلمان فى وقت واحد ، كما ذاع صيته أخيراً بأنه كان موضوع مقالة تشهير بليغة كتبها ادموند برك . وفضلا عن هذه المدعيات التى تنسبه إلى المجد ، فإن محمد على جدير أيضاً بالتذكر لأنه أول موظف هندى طلب من البريطانيين التدخل ، كما استطاع بفضل

المساعدة الأجنبية تحويل منصب الحاكم إلى عرش « جادى gaddi » أمير . على أن شركة الهند الشرقية لم تفد من وراء ذلك التدخل إلا الشئ القليل من الغنم ، وذلك فيما عدا إنزال الهزيمة والخزى بالفرنسيين — وهو أمر لا شك يرضى الكبرياء القومى لدى البريطانيين — وفيما عدا حصولها على حليف مريب استطاعوا أن يحصلوا منه قهراً بعد ازدياد قوتهم على منح وامتيازات أعظم وأثمن .

على أن تدخلهم فى البنغال عاد عليهم بمنافع أكثر قليلا ، فإن البريطانيين كانوا أيدوا بحذر غاسيتى بيجوم ومموليها المصرفيين الهندوكيين على سراج الدولة ، حتى إذا تولى ذلك الشخص منصب نائب الملك ، كان من الطبيعى أن يخصهم بمقته . فأمر البريطانيون بهدم الحصون التى شيدوها بكلكتا بغير مسوغ قانونى . فلما أبوا ذلك زحف على كلكتا واستولى على حصن فورت وليم (٢٠ يونيه ١٧٥٦). ولكن لئن لم تستطع شركة الهند الشرقية أن تقاتل سراج الدولة ، لقد كانت تستطيع التآمر عليه ، وكانوا يتقنون من قبلُ ذلك الضرب من اللعب أيما إتقان . وقد سبق أن أكدنا للقارئ أن سراج الدولة لم يكن يحق له أن يطالب بولاء أى إنسان . وذلك لأنه لم يكن نواب نظام معيناً تعييناً شرعياً ، بل كان المنصب من حق شوكت چنج . من أجل ذلك كانت تناصبه العداء فئة قوية من نبلاء المسلمين يقودهم مير جعفر ، وأهم من ذلك قوة جديدة بدأ أثرها يظهر فى تلك المنازعات .

ذلك أنه حدث عند تأسيس المراكز التجارية الأوروبية بالمناطق الساحلية الرئيسية للهند ، أن نشأت طبقة قوية من الرأسماليين الهنود ترتبط أوثق الارتباط بالتجار الأجانب ، وتحصل على مكاسب عظيمة من الاتجار معهم . وقد كون هؤلاء التجار لأنفسهم فى سورات رفعة وعزة جاه تشهد بها السجلات الأولى للشركة بأبلغ بيان . وكان نفوذهم فى المسائل السياسية عظيماً أيضاً ، وذلك لأنهم كانوا يتوسطون للشركة لدى الحكام المغول منذ (١٦٦٢) . وكانت جماعة أنانا جارانجا پيلايس (وهم الذين يدعوهم دوبليه بالدوباش) وجماعة پاتشياپا موداليار اس بمدراس مكونتين من رجال أوتوا قوة ونفوذاً عظيمين . وقد حدث أثناء القرن الثامن عشر نتيجة لنمو تجارة البنغال أن تقاطر المجتمع التجارى بشمال الهند إلى مرشد أباد وكلكتا . وكان

مليونيرات الماروارى فى البنغال أصبحوا النظير الهندى لطبقات الكومپرادور الذين ظهروا بشنغهاى بعد ذلك الحين . وعلى حين كان القواد والنواب يستطيعون أن يعتصروا منهم بعض المال بين حين وآخر ، فليس ثمة شك أن القوة والسلطة الفعالة المتمثلة فى هيمنتهم على الحياة الاقتصادية للولاية ، قد انتقلت من أيدى النبلاء المغول المضعضعين إلى طبقة بانيا (Bania) من الرأسماليين الذين كانوا يداهنونهم فى دارباراتهم [١] ، ويضنون عليهم بما حوت أكياسهم .

وكان نشوء هذه الطبقة القوية التى كانت مصالحها الاقتصادية مرتبطة بمصالح التجار الأجانب والتى كان يخالط دماءها كراهية موروثة للحكم الإسلامى ، — عاملا ذا أهمية جوهرية فى تاريخ الهند خاصة وآسيا بوجه عام ،وكان معناه حدوث تغير ذى أهمية هائلة فى تكوين آسيا السياسى والاقتصادى . وكما سبق أن أوضحنا آنفاً كان اقتصاد بلاد الهند زراعياً ، أعنى أنه كان قائماً على ما تنتج الأرض من ثمرات ، وكان الإنتاج الصناعى للبلاد مخصصاً بوجه رئيسى للاستهلاك . وكانت نتيجة ذلك النظام تركز القوة فى يد الطبقات مالكة الأرض وفى يد طبقة أرستقراطية عسكرية — هى الطبقة الجاجيردار — التى تعتمد على الأرض وماكيتها . وقد ظل هذا النظام التقليدى الموروث موضوعاً أمد قرنين من الزمان ،تحت تأثير اقتصاد تجارى قائم على التجارة البحرية . وفى القرن السادس عشر ، لما كانت أهم سلع هذه التجارة هى الأفاويه ، فإنها لم تؤثر فى اقتصاد القسم الداخلى الأعظم من الهند . ولكن حدث فى القرن السابع عشر تغيير فى تكوين التجارة الهندية . فقد أصبح الطلب منصباً على بضائع الهند المصنوعة كالبفتة والموسلين (الموصلى) وغيرهما ، وكذلك على المحصولات التجارية كحب الخردل والقنب . وكانت حاصلات وادى الكنج الغنى تفيض إلى موانى البنغال بوساطة تجارة المروارى الذين سرعان ما انتقلت إلى أيديهم القوة الفعالة فى البلاد بما انتشر من مكاتبهم فى كل أرجاء شمال الهند . وكانوا فى دواوين نواب الملك بالأقاليم يناصرون من يدفع أكبر فائدة على القروض ويساعدونهم فى أعمالهم . وقد ازداد نفوذهم فى البنغال بوجه خاص زيادة عظيمة بزعامة جاجات سيث ، وهو رجل من طراز قارون حقاً بلغ من عظم ثروته أن ترامت

(١) الداربار لفظة فارسية معناها بلاط الأمير . (المترجم) .

عنها ببلاد الهند الأساطير . وقد أهان سراج الدولة چاجات سيث علناً ، وكان الانتقام الذى أنزله على النواب أن دخل فى مفاوضات مع شركة الهند الشرقية بكلكتا للسعى لإيجاد ثورة فى القصر .

وكانت معركة پلاسى التى تمخضت عنها تلك المفاوضات صفقة تجارية وليست معركة من المعارك ، صفقة تولى بها وسطاء التجارة الهنود بالبنغال يقودهم چاجات سيث بيع النواب إلى شركة الهند الشرقية . ولم يقدم قواد النواب المتواطئون من قبل مع أمراء التجارة الهندوك وحلفائهم البريطانيين على أى قتال ، وتلقى القائد الخائن مير جعفر رفادة البنغال ثمناً لخيانته وتخليه عن مولاه . على أن من الخطأ الظن بأن معركة پلاسى أعطت ولاية البنغال للشركة ، أو جعلت الشركة قوة عسكرية لها أى وزن . وكل ما فعلته من الناحية الشكلية هو أنها جعلت الشركة « زامندار » أى مالكة الحى المعروف باسم الپارجنات الأربع والعشرين . والواقع أنها وضعت الحاكم تحت إصبع الشركة ، وجعلت منه شخصية يرثى لها ، ويمكن اعتصارها على يد خدام الشركة الشرهين ، ويمكن الحصول قسراً منه على أى امتياز يراد . وقد تقوضت حكومة النواب كل التقوض لأن سلطته صارت تعتمد آنذاك على سلطات الشركة بكلكتا . فكان النواب يتغيرون فى تعاقب سريع . ورأى البلاط المغولى بدلهى أن قد آن له أن يتدخل فى شئون البنغال ، ولكن ظهر أن محاولة التدخل كانت غير مجدية ، واضطر الإمبراطور (١٧٦٤) فى بوكسار بعد اشتباك هزمت فيه جيوشه أن يمنح الشركة الحق الديوانى ؛ أعنى الحق فى التصرف الإدارى فى الإيرادات فى مناطق البنغال وبيهار وأوريسا العريضة الثراء .

وليس يعنينا هنا فى قليل ولا كثير الدخول فى تفاصيل الدنايا التى أتمها الشركة فى توليها للإيراد الديوانى للبنغال . وموجز القول أنه انقضت على تلك الولاية المنظمة عشرة أعوام كانت كل قواها فيها توجه نحو غرض واحد مفرد ؛ هو النهب : كانت دولة لصوص نشأت على ظهر البسيطة ، وكتب ريتشارد بكر أحد موظفى الشركة وخدامها إلى سادته فى لندن بتاريخ ٢٤ مايو ١٧٦٩ يقول : « لا بد أن يحز فى نفس أى إنجليزى أن يكون لديه من الأسباب ما يدعوه إلى الظن بأنه منذ تولت الشركة جمع الديوانى صارت أحوال الناس فى هذه البلاد أسوأ مما كانت عليه من قبل . . .

فإن هذا البلد البديع الذى كان يزدهر تحت أشد الحكام استبداداً وتعسفاً أخذ يشرف على الدمار » . وهناك وثيقة تسترعى الأنظار شكا فيها بعض البارزين من أصحاب الأملاك فى البلاد إلى المجلس وذكروا فى ملتمسهم : « إن مصانع السادة الإنجليز كثيرة ، كما أن كثيراً من مخازنهم التجارية موجودة فى كل مكان وبكل قرية ، بل تكاد تكون موجودة بكل أرجاء ولاية البنغال . . . وهم يتجرون . . . فى جميع أنواع الحبوب والمنسوجات وكل نوع آخر من أنواع السلع يوجد بالبلاد . ولكى يشتروا هذه السلع ، يفرضون نقودهم فرضاً على كل فلاح ، حتى إذا اشتروا البضائع بهذه الوسائل الاستبدادية بثمن بخس ، يجبرون السكان وأصحاب الدكاكين على شرائها بثمن مرتفع يزيد على ما يدفع لها فى الأسواق . . . الواقع أنه لم يعد باقياً فى هذه البلاد شىء تقريباً » .

لقد ظهرت إلى عالم الوجود ببلاد الهند دولة جديدة تقوم على استغلال الناس استغلالا لا رحمة فيه ، ولتلك الدولة سيادة على البحر لا ينازعها فيها منازع ، كانت تمكنها من تركيز قوتها بأى مكان على الساحل . ومع ذلك فإن من الخطأ الظن بأن الشركة قد أصبحت بالفعل شيئاً يماثل المنافس القوى للسلطة ببلاد الهند . فقد حدث فى (١٧٦٩) أن حيدر على الذى اغتصب الحكم بميسور استطاع أن يملى شروط الصلح وهو قائم على أبواب حصن سان چورج بمدراس . كما أن محاولة حكومة بومباى تكرار النجاح الذى أحرزه كلايف فى البنغال بتحدى قوة الماراثا انتهت إلى عقد ميثاق وادجون المهين فى (١٧٧٩) . ولكن الذى حدث بعد (١٧٧٢) ، أن وارن هاستنجز دأب على تكوين إدارة فى البنغال قدر لها فى بضع سنين أن تحول دولة اللصوص لعهد كلايف إلى حكومة قوية ومنظمة . وحدث أيضاً أن هيستنجز أدرك أن تحدى قوة الماراثا كان شيئاً لا قبل للشركة به ، فنصب نفسه بناء على ذلك لفصل أقوياء الإقطاعيين عن الحكومة المركزية فى پونا ، وهم راچاناجبور بأواسط الهند واسكنديا الذى كان يهيمن على مصالح الماراثا فى الشمال .

وانقضت عشرون عاماً من الإدارة المستقرة فى عهد هاستنجز واللورد كورن واليس ، وأدى إبعاد البحرية الفرنسية نهائياً من المحيط الهندى بعد انسحاب الأميرال سفرن إلى منح البريطانيين فى نهاية القرن تفوقاً عسكرياً كان كافياً — وإن لم يكن حتى

آنذاك حاسماً — لإعطائهم نفوذاً وتسلطاً فى الولايات الصغرى بالهند . فانتقلت منطقة الكارناتك إلى دائرة نفوذهم . وتحولت نوابية أوده إلى إقليم تابع . فلم يبق فى نهاية القرن إلا قوى ثلاث تواجه الشركة فى الهند : إمبراطورية الماراثا التى تملك الأجزاء الغربية والوسطى من البلاد ، ونظام حيدر أباد الذى كانت أملاكه تغطى هضاب الدكن ، وسلطان تيبو الذى كان يحكم ميسور فى الجنوب . ذلك هو الموقف يوم خرج اللورد مورننجتون (الذى تسمى فيما بعد باسم المركيز ولسلى) إلى الهند حاكماً عاماً فى (١٧٩٨) . وتاريخ البريطانيين بالهند لا تضيئه أسماء بارزة كثيرة ، على أن من حق وارن هاستنجز وولسلى ودالهوسى أن يطالبوا لأنفسهم بأن يعدوا من كبار السياسيين . ومع أن ولسلى كان مغروراً غير متسامح مع كل معارضة ، ولا يبعد أن تصدر عنه مماحكة أو دناءة ، إلا أنه قد كون منذ البداية لنفسه صورة واضحة جداً لما نصب نفسه لإنجازه من المهام . وذلك هو تدمير قوة الماراثا وجعل الشركة الإنجليزية السلطة العليا بالهند . ومن أجل بلوغ تلك الغاية كان من الضرورى له الاستيلاء على مقاليد السلطة فى ميسور ، حتى يستطاع مهاجمة الماراثا فى موطنها من الجنوب ؛ واضطرار النظام على التزام جانب الحياد ، حتى يمكن إزالة كل أثر للقوة العارمة التى نظمها الفرنسى رايموند ؛ وفوق كل شىء إضعاف الحكومة المركزية للماراثا ببذر بذور الفرقة والخلاف فى پونا . وبعد حملة قصيرة وسريعة ، تمكن ولسلى بفضل المساعدة الفعلية التى أسداها إليه أعوان الأسرة الهندوكية المالكة بميسور التى اغتصب سلطانها تيبو ، أن يدمر قوة السلطان وأن يدفع بقوات الشركة قدماً إلى مسافة قريبة جداً من موطن الماراثا . وأحدث لنظام حيدر أباد انقلاباً مليئاً بالعزم القوى تمخض عن تسريح قوات النظام التى يهيمن عليها الفرنسيون ، وتحويل النظام نفسه إلى مرتبة أمير تابع . عندئذ أحس ولسلى فى نفسه القدرة على تحدى الماراثا . فعقد معاهدة مع خائن يدعى رياسة دولة الماراثا ، وصفها أخوه الأذكى فؤاداً آرثر ولسلى (الذى تسمى فيما بعد باسم دوق ولنجتون) بأنها كانت « معاهدة مع صفر على اليسار » ، ثم حاول مستتراً تحت رداء من يناصر السلطة الشرعية للبيشوا أن يدخل إمبراطورية الماراثا داخل نظامه القائم على المحالفات والحلفاء التابعين .

وفى الحرب التى عقبت ذلك تمكنت العبقرية الكامنة بين أردان دوق ولنجتون المستقبل من تدمير قوة الماراثا العسكرية فى معركة أساى (١٨٠٣) بمنطقة الدكن ، كما أن اللورد لاك تمكن من تشتيت قوات الشمال التابعة لاسكنديا قرب لاسوارى . ومع أن الإنجليز أحرزوا انتصارات عظيمة إلا أنهم لم يتمكنوا من التخلص من الماراثا على نحو ما تخلصوا من تيپو أو على نحو ما أخضعوا النظام . وقد أظهرت إخفاقات اللورد لاك المتكررة أمام بهاراتپور ، وتعقب هولكار قوات الكولونيل مونسون فى كل أرجاء الهند ، أن قوة البريطانيين العسكرية ، وإن أحرزت التفوق فى ميادين القتال كانت مع ذلك غير قادرة على فتح الهند والاحتفاظ بها . وعندئذ عدل البريطانيون عن مواصلة الجهود ، ثم عادوا إلى بذلها بعد اثنتى عشرة سنة . ثم تمكنت الشركة بإمرة المركيز هاستنجز من تدمير قوة الماراثا عند پونا وألحقت ممتلكات البيشوا بالرئاسة التى كان مركزها بومباى وأضعفت قوة اسكنديا بأن انتزعت من قبضته إمارات الراجپوت وبسطت سلطانها بوجه عام إلى نهر ستْلج .

وفى ١٨١٨ أصبحت الشركة الإنجليزية « السلطة العليا » ببلاد الهند ، حيث صارت تملك بصفة مباشرة وادى الكنج حتى دلهى وموطن الماراثا بإقليم الدكن والمنطقة الساحلية المطلة على البحر العربى والمناطق الساحلية الضيقة الممتدة من البنغال إلى الجنوب . وكان القسم الداخلى من الهند لا يزال عليه أمراء تحت الحماية ، وكانت ممتلكات أحدهم وهو اسكنديا تعد دولة مستقلة . وفى الحين نفسه ترعرعت وراء نهر ستلج القوة الهائلة لمملكة السيخ ونمت ، وهى تمتد من ممر خيبر غرباً ، إلى جلجت شمالا وإلى ولاية السند جنوباً . وراقبت الشركة بعين الحذر نمو هذه الإمبراطورية القوية التى لم يكن إلى تحديها حتى آنذاك من سبيل . ذلك بأن الكارثة الفادحة التى نزلت بها نتيجة لحملة الأفغان (١٨٣٨ — ١٨٤٢) — وهى من أوقح ما سجله التاريخ من أعمال العدوان — قد علمت البريطانيين ألا يبالغوا فى تقدير قوتهم العسكرية . على أن وجود مملكة هندية مستقلة كان قذى فى عين البريطانيين ، وعندئذ كررت مع السيخ نفس الخطة الاستراتيجية التى اتبعها ولسلى مع الماراثا . وكانت الخطوة التمهيدية الأولى فى سبيل ذلك تسريح قوات اسكنديا الضخمة (١٨٤٣) كما سرحت قوات النظام فى (١٧٩٩) . وفتحت ولاية السند فى

(١٨٤٤) لنفس السبب الذى من أجله فتح ولسلى ميسور ، وهو تمكين البريطانيين من ضرب العدو من الخلف . فقدمت ولاية كشمير الجميلة رشوة (وهو أمر عادت الشركة فيما بعد فأصرت ظلماً على الحصول مقابله هى أيضاً على مبلغ من المال يدفع نقداً) إلى الراچا جولاب سنغ أمير چمّو ، وهو أقوى شخصية وأعظم قائد فى إمبراطورية السيخ . فلما أن اتخذ البريطانيون تلك الخطوات التمسوا بعض الذرائع لإعلان الحرب على السيخ ، وبعد حملتين دمويتين قهرت آخر مملكة هندية وضمت إلى البريطانيين (١٨٤٨) .

وهكذا استطاع البريطانيون فى مدى مائة عام أن يؤسسوا بحد السيف سلطتهم لا ينازعهم فيها منازع من السند إلى البراهما بوترا ومن الهملايا إلى رأس قومورين . أما الممالك التى سمح لها بالبقاء مثل كشمير وجوالور وحيدر أباد وبارودة وتراڤانكور وولايات الراچبوت ، فضلا عن إمارات صغرى أقيمت اقتطاعاً من الولايات الكبرى أو فصلت عنها — فقد حولت جميعاً إلى أقاليم تابعة معزولة إحداها عن الأخرى ولا قوة لها بمفردها إزاء سلطان البريطانيين . وشعرت الشركة أنها سيد الهند غير منازع ، وراحت برياسة اللورد دالهوسى تشرع فى بناء نظام إدارى عصرى وموحد . على أن الشعب الهندى وإن غلب إلا أنه لم يخضع بعد . فعاد إلى القيام بجهد أخير وحيد بزعامة بيشاوات الماراثا ، الذين كانوا لا يزالون يستخدمون اسم الإمبراطور المغولى وسلطاته لرفع النير الأجنبى عن أعناقهم . وإن الثورة الكبرى التى نشبت فى (١٨٥٧ — ١٨٥٨) والتى تعرف فى التاريخ البريطانى باسم الفتنة الهندية — كانت آخر محاولة مقترنة بالعزم الأكيد — وإن خانها التوفيق — بذلتها الطبقات الحاكمة القديمة : الماراثا والمغول لطرد البريطانيين من البلاد . وقد أخضعت تلك الثورة بعنف شديد بعد ثمانية عشر شهراً من قتال مهوش متقطع ، ولم تلبث شركة الهند الشرقية التى كونت إمبراطورية الهند أن توقفت عن الوجود رسمياً فى ١٨٥٨ . فنى تلك السنة اضطلعت الحكومة البريطانية بالإدارة المباشرة لبلاد الهند .

ولم تكد قدم الحكم البريطانى تستقر قوية راسخة فى الكتلة الأرضية الضخمة من بلاد الهند ، دون وجود أى تحد جادّ لسلطانها حتى أخذت تظهر مطامع استعمارية

توسعية نحو الدول المجاورة . ولم يحدث قط باستثناء إمبراطورية تشولا (٨٥٠ — ١١٥٠) أن إمبراطورية هندية سابقة جرؤت يوماً على النظر إلى ما وراء المحيط كمناطق تصلح للتوسع الاستعمارى ، ذلك لأنها جميعاً لم تكن تملك الإمرة والسيادة فى البحر . وغنى عن البيان أن الموقف كان يختلف عنه فى حالة البريطانيين . وحدث أيضاً أنه عندما أرغمت حروب نابليون الجمهورية الهولندية على التحالف مع الفرنسيين ، تمكنت الحكومة البريطانية من استخدام مركزها بالهند لمتابعة سياسة عدوانية فى الشرق . ومن الهند خططت سياسة توسع استعمارى ، ودفعت الحكومة البريطانية بالهند إلى طريق تحفه المخاطر هو طريق فتح البلاد وضمها فى الشرق لمصلحة بريطانيا ، ولكن ذلك كان بطبيعة الحال على حساب دافع الضرائب الهندى وقد أخذت ملقا أصلا فى (١٧٩٥) ثم أعيد فتحها فى (١٨٠٧) . وأخذت جاوة من يد الهولنديين ثم أعيدت إليهم ثانية بعد معاهدة ڤيينا . ولم تكن هذه إلا البدايات الأولى . ولم تشرع السلطات البريطانية بالهند أن تعدنفسها إمبراطورية فى حركة زحف مستمر إلا بعد (١٨١٨) أى بعد سحق قوة الماراثا نهائياً . وقد شجع اللورد هاستنجز زميله رافلز ليحصل من سلطان چوهور على جزيرة سنغافورة * لشركة الهند الشرقية . والفكرة المستترة وراء ذلك تفسر على هذا النحو : « ما عليك إلا أن تلقى نظرة إلى الخريطة ... فإن محطتنا تحيط تماماً بمضيق ملقا من جناحيه ، وتضمن لنا فى جميع الأوقات وجميع الظروف مرور سفننا القاصدة بلاد الصين . فما لمالطة من مركز فى الغرب قد يصبح لسنغافورة فى الشرق » .

وكانت بورما تتاخم الهند ، وكان فى ذلك سبب كاف لاهتمام البريطانيين بشئونها . وفى (١٧٨٤) فتح البورميون ولاية أراكان ، ومنذ ذلك التاريخ حدثت

---

* إن اختيار سنغافورة مستوطناً قد تم بمحض الصدفة . ذلك أن مجموعة من التوجيهات كتبها اللورد هاستنجز إلى رافلز كانت بها حاشية تنص على أنه إذا كان الهولنديون احتلوا ساحل سومطرة ، فإن چوهور ربما لم تكن بديلا سيئاً عنه ، ولكى يمكن رافلز من التصرف أرسل هاستنجز قبل ذلك رسالة تحية إلى السلطان . وكتب رافلز إلى صديقه مارسدن بعد ذلك بأسبوع يقول : « إن التفاتى موجه قبل كل شيء إلى چوهور ، وينبغى ألا يدهشك أن تصلك رسالتى التالية مؤرخة من موقع مدينة سنغافورة العتيقة » .

وصرح فى مذكرته التى بعث بها إلى السلطات بكلكتا قائلا : « إن موقعها على المضيق يكاد يكون أحسن تحكماً فيه حتى من مدينة رهيو بالنسبة لتجارتنا الصينية التى تمر من خلال مضيق ملقا ولا بد لكل سفينة وطنية تمر فى مضيق رهيو أن تمر بمرأى منها » .

حوادث على الحدود بين الفينة والفينة . وجاءت حادثة فى (١٨٢٣) بالفرصة اللازمة لاختبار القوى . ولكن جهود البريطانيين لغزو بورما من ناحية البر انتهت بالفشل ، وأحرز ماهاباندولا القائد البورمانى الشهير بعض الانتصارات على جيوش الشركة . ولكن البريطانيين جهزوا حملة واحتلوا رانجون ، ثم شرعوا فى الزحف على آفا . ثم وضعت شروط الصلح كيفما اتفق ، وبها تنازل ملك بورما عن أراكان وتناسيريم للبريطانيين ودفع تعويضاً باهظاً. على أن ظمأ الشركة إلى الفتح لم تنقع غلته . فلم تنقض عشرون عاماً حتى التمست سبباً آخر أكثر هزالا . ذلك أن رباناً لإحدى السفن البريطانية اسمه القبطان لويس قدم ادعاء يطالب فيه بمبلغ ٩٢٠٠ روبية تعويضاً له عما لحقه من الإهانة،وما أنزل به من الغرامة على يد السلطات بالموانى البورمية، وتولى اللورد دالهوسى الذى كان آنئذاك المدير العام للشركة الأمر أمام محكمة آفا ، ولكى يضفى طابع القوة على تمثيله للقبطان فى دين قدره ٩٢٠ جنيهاً أرسل إلى رانجون أسطولا مكوناً من ست قطع بحرية بقيادة القومودور لامبرت . وكان القومودور رجلا متعجلا نافد الصبر فى بناء الإمبراطورية ، كما كان فيما عبر به دالهوسى نفسه « أشد تفجراً من أن يطيق المفاوضات » ، فأنهى المسألة عنوة باستيلائه على سفينة تحمل علم الملك . ولسنا نجد للأحداث التى أدت بعد ذلك إلى نشوب الحرب البورمية الثانية خيراً من عبارات رتشارد كوبدن حيث قال :

« يبدأ اللورد دالهوسى الأمر مدعياً على بورما بمبلغ يقل عن ألف جنيه ، ألحقه بطلب إضافى هو تقديم اعتذار من حاكم رانجون على الإهانة التى لحقت ضباطنا ؛ ثم ترفع طلباته بعد ذلك إلى مائة ألف جنيه واعتذار من وزراء الملك، ثم يجىء بعد ذلك غزو الأراضى البورمية ، وعندئذ توقفت فجأة جميع المطالبات بالتعويضات المالية والاعتذارات ، ويصبح سيادته راغباً فى قبول التنازل له عن پيجو ، كتعويض وإصلاح للأضرار ، التى لحقته فى الماضى ، بينما يظل يواصل الكتابة دقائق طويلة وعديدة ليثبت كم سيكون إلحاق تلك المقاطعة بامبراطوريتنا الهندية كارثة فادحة . . . أليس من واجبنا أن نعلن فى جريدة التايمز عن طلب مدير عام يستطيع أن يجمع لنا ديناً مقداره ألف جنيه دون أن يضم إلى أملاكنا قطعة

من الأرض ستؤدى بماليتنا إلى الدمار ؟ » *

وانتهت الحرب نهاية غير رسمية أو تكاد بالقرار الذى أعلنه اللورد دالهوسى القوى بضم پيجو بإعلان أعلنه . فلم تعقد مع ملك بورما أية معاهدة ؛ ولم توقف الأعمال العدائية رسمياً ، بل إنه حتى الدين الذى قيمته ٩٢٠ جنيهاً قد نسى كل النسيان فى طى ما أنفق من ملايين تحملتها الخزانة الهندية . وعندئذ علم البورمانيون علم اليقين أن روايتهم مع البريطانيين لم تتم فصولا . وقد أضاف دالهوسى فى إعلانه فقرة أنذرت بالشر ، حيث قال : إنه إذا تواصلت أعمال العدوان ، فلابد أن تؤدى بالضرورة إلى تقويض أركان الدولة البورمانية نهائياً وإلى القضاء على الملك وعترته ونفيهم من البلاد » . وغنى عن البيان أن الحمل واصل اعتداءاته على الذئب ، فلم تنقض ثلاث وثلاثون سنة ، كما سنرى ذلك فيما بعد ، حتى تحققت النبوءة كل التحقيق ، فقوضت أركان دولة بورما ، ونفى الملك وعترته .

(٢)

ظل الحكم الهولندى بإندونيسيا حتى عهد ڤان إمهوف (١٧٤٣ — ١٧٥٠) قاصراً على إدارة مؤسسات وحصون متناثرة من نقطة مركزية هى چاكرتا (التى أطلق عليها كوين اسم باتاڤيا) . على أن دولة ما تارام الكبيرة ، وسلطنتى أتچه وترنات ، وإمارات عديدة أخرى أصغر منها ، ظلت مستقلة اسمياً ، وإن حل بها الضعف العظيم لما كابدته من اضطرابات داخلية ، ولما أحدثته فيها المؤثرات الاقتصادية من آثار . ولم يتوغل النفوذ الهولندى فى بالى ولمبوك . أما فى سومطرة فكانت سلطنتا باليمبانج وجامبى ولايتين تابعتين لباتاڤيا ، ولكن بقية البلاد كانت مستقلة استقلالا سياسياً ، وإن كان للشركة حق الاحتكار فيما يتعلق بتصدير التوابل . ولم تكد السلطات الهولندية تمد يدها إلى جزيرة بورنيو الهائلة ، كما لم تستطع الشركة إلا فى (١٧٥٦) أن تعقد معاهدة مرضية مع سلطان بانچير مازن فى الركن الجنوبى الشرقى من الجزيرة .

* ريتشارد كوبدن فى مقال بعنوان : « كيف يضرمون نار الحرب بالهند » . فى كتاب « كتابات كوبدن السياسية » Political Writings of Cobden « لندن ١٨٦٧ مج ٢ (صص ٢٥ — ١٠٦) .

لقد قدر الهولنديون منذ زمن مبكر جداً النفقات الزهيدة التى يتكلفها نظام « الحكم غير المباشر » وقوة تأثيره من وجهة نظر الاستغلال الذى لا يعوقه شىء . فأتاحوا للسلاطين حرية القتال فيما بينهم، وظلم رعاياهم وفعل كل ما يشاءون، ما دامت الشركة تحتكر التجارة ، وتمكن الهولنديون مستترين وراء سلطة السيادة التى للسلاطين من استغلال موارد الجزيرة . ولكن كما هى الحال التى لا مفر منها فى ظل مثل هذا النظام من الحكم غير المباشر ، سرعان ما دب دبيب الانحلال إلى الولايات التى يقوم فيها ، فصار من الضرورى للدولة التى تتولى الحماية أن تنعشها بالتدخل المباشر . فمنذ (١٧٠٥) التزمت الشركة بصورة قاطعة محددة سياسة دعم النظام الملكى فى ماتارام ؛ وكان شرط مساندة الهولنديين الالتزام بتسليم جميع الأرز الذى قد تطلبه الشركة بالسعر الذى تحدده هى .

على أن هذا النظام غير الطبيعى الذى جمع بين الاستقلال السياسى والتبعية الاقتصادية أدى إلى ما لا مفر منه من انهيار النظام الإدارى فى الدولة . فلم تكن ماتارام مشتبكة فقط على الدوام فى الحرب مع رؤساء جزيرة بالى ، بل كان عليها أيضاً أن تكافح الثورات التى يقودها أعضاء من الأسرة المالكة وأصحاب الإقطاعات الذين لم يكن بد من استنزاف أموالهم لسداد طلبات الهولنديين التى لا تفتأ تزداد . وأدت هذه الحال إلى مواصلة التدخل لتأييد الحكام إن كانوا أصدقاء للهولنديين ، ولهدمهم إن لم يكونوا خاضعين للسياسة الهولندية ؛ وهو أمر كان مصداقاً للملحوظة الشهيرة التى فاه بها الراهب راينال حيث قال : إن الهولنديين كانوا يسلحون الأب على ابنه والابن على أبيه . وكانت مدعيات الضعيف على القوى والقوى على الضعيف تلقى منهم التأييد حسبما تقتضيه الظروف. فكانوا ينضمون اليوم إلى الملك وينضمون غداً إلى تابعيه » .

وكان ڤان إمهوف أول من بدأ فى (١٧٤٣) سياسة الاستيلاء المباشر على الأراضى ، والتنقص من الاستقلال السياسى للسلطنات . ففى تلك السنة استولت الشركة على جميع النواحى الساحلية فى الجهة الشمالية من جاوه ، كما نقلت إلى يدها نهائياً الهيمنة المطلقة على جميع الموانى البحرية وعلى أراضى ممالك بلامبورجان . ثم اتجهوا بعد ذلك إلى ماتارام ذاتها ، فأخذوا يغذون الحرب الأهلية بتلك المملكة ،

وساندت الشركة أولا الحاكم الشرعى على أقربائه الثائرين ، ثم عادت فى النهاية إلى تقسيم الدولة . ولم يكن الحكام الجدد إلا حكاماً بالاسم فقط . فألحق بقصورهم « مقيمون » كانت بيدهم بالفعل مقاليد الحكم والإدارة . وفى (١٧٥٥) وبغض النظر عن الأراضى التى تحكمها الشركة مباشرة — قسمت جاوة إلى خمس دول صغيرة : بانتام وتشيريبون ودجوك جاكارتا ، وسوراكاترا ومانجكونا جارا . ولم يبق روح الاستقلال حياً نابضاً إلا فى بانتام وحدها . فإن امرأة جديرة بالإعجاب اسمها راتوسچاريچا صار لها نفوذ عظيم على السلطان ، ولكن ثورة شبت عليها بقيادة رجل مقدس اسمه كياى تاپا ، يلوح أنه استغل ما تبقى من عواطف هندوكية لدى السكان المحليين . وفى هذه المرة تدخل الهولنديون ضد سلطة السلطان . وسرعان ما تمكنوا من خلع السلطان الشيخ وأجلسوا مكانه رجلا قبل منزلة التبعية .

وبذلك تقوى مركز الهولنديين بجاوة عند حلول (١٧٦٠) ، ولكن اهتمام الشركة ومصلحتها ظلا فى سومطرة والأقاليم « الخارجية » قاصرين على التجارة وحدها . واحتفظت سلطنة أتچه بكيانها ووجودها منفصلا وإن كان مقلقلا مزعزعاً . وفى المناطق الخارجية كانت سلطة الهولنديين السياسية لا تزال اسمية ولم تصر الشركة هناك إلا على احتكار التجارة ليس غير . حتى إذا ظهرت إلى الوجود منطقة وسطى تابعة لها ، أصبح تغلغل النفوذ إلى جميع المناطق ضربة لازب ، ولم تنقض العشرات القليلة التالية من السنين حتى لم يعد الهولنديون فقط المحتكرين الوحيدين للتجارة الهولندية بل هم السادة الفعليون لجميع أقاليم الجزر .

ولم يكن الذى دفع العجلة إلى سرعة الدوران وأتم التغيير هو مطامع الهولنديين السياسية بقدر ما كان تدخل البريطانيين فى الأمر . ذلك أنه حدث فى (١٧٩٥) أن الأراضى المنخفضة حذت حذو فرنسا واختارت طريق الثورة. وانزعجت السلطات فى باتاڤيا خوفاً من تطبيق المبادئ الثورية فى الأقاليم المستعمرة وتقدمت باقتراحات عامرة بالحيطة : « نحن نفترض أن نيتكم قد انعقدت على تطبيق النظام الجديد فقط فى الإدارة الرئيسية للشركة وعلى موظفيها ومواطنيها الهولنديين . ومع ذلك فإن عدد هؤلاء المواطنين محدود ، كما أن القادرين فيهم على إصدار أحكام سليمة على الأشياء ذات الأهمية قلة صغيرة . ولا شك أن مصالح هذه القلة من المواطنين لا يمكن أن

ترجح مصالح الشركة، كما أنه لا ينبغى لهم مطلقاً أن يعرضوا تلك المصالح الأكثر أهمية لأدنى خطر » . ولذا فإن الحرية والإخاء والمساواة بأرض الوطن . . . ثم الاستغلال فى بلاد المستعمرات — كانت الشعار الذى تنادى به هولندة الثورية .
على أن الثورات لم يكن من السهل ضبطها والهيمنة عليها ، فنى (١٧٩٨) ألغى مرسوم الشركة وأصبحت إندونيسيا مستعمرة للأراضى المنخفضة تابعة للدولة . ومع أن الحكومة بهولندة ظلت تعتنق المبادئ الثورية ، إلا أنهم ذيلوا ذلك بأن نصوا على أن : « مبادئ الحرية والمساواة لا يمكن أن تنقل إلى ممتلكات الدولة بالهند الشرقية ، ولا أن تطبق عليها ما دام أمن هذه الممتلكات يعتمد على الإبقاء على حالة الخضوع الراهنة الضرورية (التى عليها الإندونيسيون) » . ولا كانت الحكومة مستعدة أيضاً لإلغاء الرق ، قناعة منها بالنص فى تقوى وورع بأن ذلك الإصلاح ينبغى أن يرجأ « حتى يسمح بتحسين نصيبهم المقدر لهم ظهور مستوى أعلى من الحضارة العامة بتلك البلاد » .

من العسير على المرء أن يتحدث فى شىء من ضبط النفس عن النظام الهولندى بإندونيسيا . وبحسبنا أن ننقل ألفاظ مؤرخ هولندى بحذافيرها ، إذ قال : « إن التدمير والمقاومة والانتقامات كانت هى القصة المتكررة الرتيبة بجزر ملَكّا » . وهناك كاتب إنجليزى يعطف على الهولنديين وينصب نفسه للدفاع عن الحكم الاستعمارى وهو المستر ج . س . فرنيڤال وهو يصف الحكم الهولندى بالعبارات التالية : « كانت أمبوينا تستطيع أن تنتج من القرنفل أكثر مما يستطيع العالم بأجمعه استهلاكه ،ولذا شجع الهولنديون ملك ترنات . . . على مواصلة حربه مع تيدور حتى تتحول أنظار شعبه عن إنتاج القرنفل . وأحلوا فى باندة العمال الأرقاء محل الفلاحين الأحرار ، وبقطعهم عن جاوة مؤونتها من الأرز اضطروا الناس إلى التخلى عن غذاء الأرز وتناول غذاء أضعف تغذية لهم هو الساجو . فمات الكثيرون من تناول هذا الطعام واستلزم الأمر استخدام عدد أكبر من الأرقاء . وكان هؤلاء يستوردون من مكان سحيق هو أراكان . على أن الأرخبيل نفسه كان المصدر الرئيسى لهم ، فإن الجزر التى لا تنتج طعاما كانت تغير على غيرها لكى تقتنص الأرقاء بغية أن تبادل عليهم بالأرز » .

وقد وضع كوين مؤسس باتاڤيا الذى يقول عنه الكتاب الهولنديون فى عصره « إنه واصل تنفيذ سياسته بطريقة فيها من الإجرام وسفك الدماء والقتل ما يجعل دم الفقراء الواقع على أم رأسه يصيح مطالباً بالثأر والانتقام » * ، وضع المبدأ الذى أقيمت على أسسه السياسة الهولندية فيما بعد ، فلقد تساءل قائلا : « أفلا يستطيع أى رجل فى أوربا أن يفعل ما يشاء بماشيته ؟ هكذا يفعل السيد هنا برجاله ، ذلك لأن هؤلاء بكل ما يملكون إنما هم فى كل مكان ملك للسيد بالمثل ، شأنهم فى ذلك شأن البهائم السائمة بالأراضى المنخفضة . والقانون بهذه البلاد هو إرادة الملك، والملك هنا هو من يكون أقوى الناس » . وقديماً ادعى ملوك أوربا أيضاً أن القانون هو مشيئتهم ، وبعد عهد كوين بزمن قصير ، ادعى لويس الرابع عشر أنه هو الدولة. ولم يحدث قط ، لا فى نظرية الحكم عند الهندوك ولا المسلمين ، أن ادعى أحد أن الحاكم يملك الشعب ، ولكن مذهب كوين الشرير أصبح أساساً لمعاملات الهولنديين وممارستهم والدعامة النظرية التى تقوم عليها علاقة الزارع المستعمر الهولندى بالكولى الإندونيسى * ، تلك العلاقة التى سادت بإندونيسيا مدة مائة سنة .

والآن وقد تسلح الهولنديون بنظرية مناسبة من هذا الطراز ، لم يعد لديهم أية فرصة يدعون بها أن عليهم أى التزام خلقى نحو سكان جاوة . بل الواقع أنه ينبغى أن يقال إنصافاً لهم : إن الغرض الصريح المعترف به من وجودهم بجزائر الهند الشرقية هو الحصول على أقصى ما يمكن الحصول عليه من الأرباح بكل وسيلة تهيأ لهم خلقية كانت أو غير خلقية . وليست صيحتهم « بأن رسالتهم هناك تعوق » إلا ذريعة حديثة اتجهوا إليها ، كما أن الهولنديين أنفسهم لم يكونوا ينظرون البتة فى مطالب السكان حتى ترغمهم الأحداث الدولية فى مختلف العصور على فعل ذلك كارهين .

وكانت تجارة التوابل قد عادت عليهم حتى بداية القرن الثامن عشر بأعظم الأرباح ، وكانت أرباحهم طائلة جداً فى تجارة القرنفل إبان القرنين السادس عشر

---

* انظر : « تقرير من بعض العائدين من جزائر الهند الشرقية » ١٦٦٢ فى المدونات التاريخية ص ٣٢١ — ٣٣٩ . كوين Coen .

* انظر « فرنيفال Furnivall » فى اقتباس عن جونجرچب ص ٤٤ .

* الكولى Coolie : هو العامل الأجير كما يسميه الأوربيون بالهند والصين وإندونيسيا (المترجم) .

والسابع عشر . ولا أدل على ذلك من أن السفينة فكتوريا سفينة ماجلان ، أخذت شحنة من القرنفل من ملكا ، وباعتها بمكسب مقداره ٢٥٠٠ فى المئة . على أن هذه الأرباح أخذت تضمحل عند ابتداء القرن الثامن عشر ، وذلك لأن احتكار الهولنديين اضطر دولاً أخرى إلى تشجيع زراعة القرنفل ببلاد الهند وبأماكن أخرى . ثم تبين للقوم أن للقهوة سوقاً ضخمة بأوربا ، وأنها ستكون سلعة تجارية موفورة الأرباح جداً . وفى قريب من ١٦٠٠ م أصبح استخدام القهوة شائعاً بأوربا ، وسرعان ما أصبحت شراباً شعبياً . وظهر أن الطلب عليها لا ينتهى عند حد . وقد أدخلت شجرة البن إلى جاوة من ساحل ملبار بجنوب الهند عند ابتداء القرن ، ولم تنقض بضع سنين حتى أصبحت محصولاً من أكبر محصولات الجزيرة . ولما كان البن يتطلب أسعاراً عالية فى أسواق العالم ، فلعله كان من المأمول أن يعيد هذا الحصول الرغد إلى فلاحى الجزر ، ولكن الشركة لم تكن ترغب فى ذلك ، وكان الخوف الذى يكثرون من ترداد التعبير عنه فى وثائق تلك المدة هو : « أن سكان جاوة قد يشتد ثراؤهم » ، وذلك على حين أن الحيلولة دون تمتع أهل جاوة بأى رغد ، وجمع الهولنديين أقصى ما يستطيعون سلبه من ثروة الجزيرة فى خزائنهم هما أبسط أهداف الهولنديين التى يعبرون عنها على الملأ صراحاً جهاراً .

من أجل ذلك اتبعت الشركة سياسة ذات ثلاث شعب ، أولاها تخفيض جبرى فى أسعار البن بباتافيا ، وتحديد للزراعة ، ونظام صريح للغش كان المنتجون يضطرون بمقتضاه أن يسلموا ٢٤٠ رطلا إلى ٢٧٠ مقابل ثمن ١٢٥ رطلا فقط يقبضونه ؛ وبعد ذلك كله ، وبعد إجراء تخفيضات لأسباب وذرائع مختلفة لا يصل إلى جيب المزارع الإندونيسى إلا ثمن ١٤ رطلا . وبذلك كان الجاويون يخادعون فى أرباحهم نهباً وغشاً ، ويحرمون وينكر عليهم حتى الحصول على سعر معتدل لمحصولهم ، فلا عجب إذن أن يرغب الفلاحون عن زراعة البن . وفوق هذا لم يبد « الأقيال » * الذين كانوا الوكلاء الإندونيسيين للشركة أية حماسة فى هذا الصدد . ولذلك قرر الهولنديون أن يرغموا كلا من الأقيال والفلاحين على زراعة البن وتقديمه إليهم بسعر محدد . وكانت نظرية الشركة فى ذلك بسيطة ؛ ذلك أنهم ورثوا حقوق

* الأقيال Regents .

السيادة التى كانت للسلاطين ، وكان لهم من أجل ذلك الحق فى الملكية المطلقة للأرض ؛ وكان حق الاستثمار ملكهم بكليته . وكان الأقيال والفلاحون مجرد وكلاء لهم فى العملية . بل الحق أن جاوة كانت فى نظر الشركة قد أصبحت مزرعة ضخمة للبن يملكها الهولنديون . ولم يكن المقصود من حق السيادة الذى كانوا يمارسونه إلا أن يعطوا صاحب الزراعة (وهو الشركة فى هذه الحال) الحق على أساس بعض الذرائع القانونية ، فى حرمان الإندونيسى حتى من الحصول على أجور معقولة لقاء عمله .

ومن قبل ذلك جعل البن من السلع المحتكرة ، وقرابة (١٧٦٠) جعل الأقيال مسئولين عن الزراعة ، ووضعوا تحت إشراف موظف هولندى — وعين عدد من ضباط الصف يعرفون باسم جاويشية البن ، للتأكد من أن الأقيال والفلاحين لا يهملون زراعة البن . والواقع أن خطة المسألة دبرت بنظام محكم كما لو كانت تتم فى مزرعة عادية ، كما أن البن الذى كان يزرع بتلك الطريقة كانت الشركة تتولى جمعه وبيعه .

كان ما أدخله نظام الضياع الكبيرة فى علاقة الهولنديين بالإندونيسيين ثورة صامتة ولكنها بعيدة المدى . وقبل ذلك لم يكن الهولنديون إلا تجاراً يشترون التوابل والأرز اللذين كانت البلاد تنتجهما ويبيعونهما بالأرباح . أجل إنهم استخدموا سلطانهم لإنشاء احتكار ، ولكن نشاط الشركة التجارى لم يكن يتجاوز هذا الحد إلى التدخل فى حياة الأهلين . على أن التحول إلى اقتصاد يقوم على نظام الضياع الكبرى كان ينطوى على الاستغلال الفعلى للعمال ، والتحكم الوثيق فى اقتصاد الأهلين والإشراف الفعال عليهم ؛ بل ينطوى فى الواقع على تطبيق « نظام إدارة الضياع الكبرى » على قطر بأكمله . فلقد أصبحت جزيرة جاوة مزرعة كبيرة للشركة ، كما أن العلاقة بين الحاكم صاحب الحق فى السيادة ، وهى الشخصية التى ادعتها الشركة آنئذاك لنفسها ، وبين رعاياها لم تكن فى صميمها إلا علاقة صاحب ضيعة بعماله الكوليه ، لم يكن فيها الطرف الأول صاحب العمل الذى يستخدم العامل فحسب ، بل كان أيضاً السلطة التى تملك بيمينها حقوق الحياة والموت ، وصاحبة وسائل الظلم الشامل الذى لا يستطيع أن يستنبطه إلا نظام قانونى تعززه

سلطة الحاكم . ولم يكن الطرف الثانى كولياً فقط ، بل كان كولياً ليست له حتى حقوق اسمية على مستخدمه صاحب العمل ، الذى لم يكن بمستطيع أن يلجأ حياله إلى جهة قضائية ولا جهة تنفيذية . وليس هناك نظير فى التاريخ لتلك الحالة التى حولت فيها ممارسة حق السيادة شعباً بأكمله إلى أمة من كولية الضياع الكبرى ، مع النزول بالطبقة الأرستقراطية الأصلية بينهم إلى مركز رؤساء عمال ومشرفين ، يفرض عن طريقهم العمل قهراً وينفذ الظلم جوراً . ولاريب أن جماعة « الإنكا » فى پيرو كانت على هذا النحو من انعدام الرحمة فى استغلالهم المطرد المنظم للأهالى ، ولكنهم كانوا على الأقل يعيشون فى البلاد كما كانت جميع مكاسبهم تنفق بها . فأما هنا ، فكانت المكاسب ترسل إلى بلاد بعيدة ليتمكن بها السادة من الاستمتاع بأسباب ترف العيش بعيداً عن مناظر الكدح والشقاء .

وكان الأقيال هم آلات التعذيب التى تمكن الهولنديون بوساطتها من تنفيذ هذه السياسة القاسية المجردة من كل رحمة ويعينهم المدير العام ، وإن كان المنصب يعد وراثياً ، وكان الهولنديون يضعون فى اعتبارهم المدعيات الوراثية ويحترمونها على وجه الجملة . ومع أن الهولنديين كانوا يعينونهم فى وظائفهم، فإنهم « كانوا يعدون الفلاح والأرض نفسيهما ملكاً خاصاً لهم» ويفرضون على الناس جميعاً العمل بالسخرة فى مزارع البن . فأما أن الأقيال أنفسهم لم يكن مسموحاً لهم أن يثروا ، فأمر يتجلى فى أن قوميسير الشئون الوطنية ، وهو السيد الذى كان الأقيال يعملون بإرشاداته كان يضطر عادة إلى إعطائهم قروضاً بأسعار الربا الفاحش، لكى يردوها إليه أيام تسليم محصول البن ، وكانت الديون تصبح من الفداحة بحيث إنه لم تكن تنقضى فترة قصيرة إلا ويصبح البن المسلم غير كاف لتغطية الفائدة . ولذلك لم يكن أى من الإندونيسيين الفقراء الذين كانوا يضطرون إلى العمل فى الحقول بنظام « السخرة » الجارى استخدامه ولا الأقيال الذين يشرفون على العمال . — يحصلون على أية أرباح ، وكانت سياسة منع الإندونيسيين من جمع الثروات تنفذ بأقصى دقة * .

* وبغض النظر عن هذه المرتبة المنحطة التى تردى فيها الأهالى ، ينبغى أن لا يغرب عن بالنا أن شهادة غير المسيحيين كانت فى ظل القانون الهولندى غير مقبولة بالمحاكم . ولكن شهادتهم قبلت بعد=

ولم ينقذ سكان جاوة من وهدة الإذلال التى ترددوا فيها إلا إلهام الإسلام وروحه المنطبعة بطابع الرجولة ، وقد سبق أن شهدنا كيف أنه عند وصول البرتغاليين ، لم يكن الإسلام قد استقر إلا فى المراكز التجارية الكبيرة وفى بعض بلاطات الحكام وقصورهم . ولم تلق محاولة البرتغاليين تنصير السكان الهندوكيين أى نجاح ، حتى إذا ترامى القرن السادس عشر لنهايته ، كان معظم جاوة وسومطرة قد رضى الإسلام ديناً . وكان الضغط عليهم متواصلا لا يفتر ، فلما أن سقطت مملكة بالامبانجان بشرق جاوة فى (١٦٣٩) أمام هجوم سلطان ماتارام ، لم يعد للدين الهندوكى المنظم وجود بجاوة . وما لبث الإسلام نفسه أن أخذ يدب إليه شىء من التغير . وقد دخل الإسلام فى الأصل إلى تلك الجزيرة من الهند على يد تجار من جوجرات ، ولذا لم يكن حتى منتصف القرن السابع عشر ليزيد عن طبقة إسلامية رقيقة تغطى على المعتقدات الهندوكية القديمة . على أن ديانة كالإسلام يحافظ على تماسكها وسلامة شعائرها وصلابة عودها منسك كمنسك الحج السنوى إلى المدن المقدسة مكة والمدينة ، ومواصلة نشر العلم بين أتباعه بما كان يقوم به الأئمة والوعاظ ، لم يكن ليدوم معها والحالة هذه مثل ذلك الموقف أية فترة من الزمن . وكان الحجاج الجاويون العائدون من مكة يجلبون معهم العلماء إلى بلادهم . وينبغى ألا يغرب عن بالنا أن تركيا كانت إبان القرن السابع عشر هى التى تمثل مركز الإسلام فى العالم ، وكانت قوتها فى الشرق الأوسط وبمنطقة الساحل الشرقى للبحر المتوسط ،وعلى امتداد السيف الإفريقى منه خطراً مهدداً لم تزل أوربا ترتجف منه فرقاً . وكذلك لم تكن الإمبراطورية المغولية ببلاد الهند عاملا يمكن تجاهله فى السياسة الشرقية فى ذلك الأوان . ولما كان الفخار بالمركز الدولى للإسلام عظيماً ، كانت ميزة الانتماء إلى مجتمع عالمى قوى المنة حافزاً يرفع من معنويات المسلمين فى كل مكان،حتى حيث يبدو مركزهم السياسى ضعيفاً أو ذليلا فى أية منطقة بعينها . وبفضل وصول الشيوخ والحجاج والأئمة من مكة والشرق الأوسط ، أخذ تحول هائل يلم بالأحوال الدينية والاجتماعية والسياسية بإندونيسيا .

= ١٦٣٣ « فى بعض القضايا التى ليس المسيحيون طرفاً فيها » . ولا شك أن الإندونيسيين فى ظل تشريع قائم على هذا الأساس — حتى ولو منحوا أى نوع من الحقوق— كانوا يجدون من المستحيل تنفيذ تلك الحقوق .

وقد شهدت فترة اشتداد الدعوة الإسلامية التى بدأت فى (١٦٣٠) : شهدت فى ناحيتها الدينية قوة المبادئ الإسلامية تشتد وتقوى ، كما شهدت بدء تكوين سلطة الزعماء الدينيين ، واقتراب الأهالى بوجه عام من فلك النظرة الإسلامية إلى الحياة . وكان غرضها هو إبعاد الإندونيسيين عما تبقى لديهم من التقاليد الهندوكية ، فضلا عن تنظيم وسائل المقاومة للعدوان الدينى المسيحى . أما من الناحية الاجتماعية فإن تأثير مكة كان موجهاً إلى دفع الناس إلى التمشى مع سنن الإسلام فى الزواج والمواريث إلى غير ذلك مما ينطوى فى معظم الأقطار الإسلامية تحت أحكام الشريعة . أما من الناحية السياسية ، فإن الحركة كانت تمثل روح مقاومة . ويقال : إن شيخاً عربياً حمل إلى حاكم ماتارام لقب سلطان باسم والى مكة من قبل الخليفة . ثم بدأت السلطنات الأخرى وبخاصة أتجه أقرب البلاد إلى القارة نفسها تدخل هى الأخرى فى علاقات مع الدول الإسلامية بالشرق الأوسط .

وفى بانتام أظهر السلطان عبد الفاتح عزماً شديداً وبذل جهداً أكيداً لتحويل دولته إلى مركز للنشاط الإسلامى ، فأرسل ابنه نفسه لأداء فريضة الحج فى مكة ، وزوده بالتعليمات بالتوجه إلى القسطنطينية . وثمة شخصية أخرى جديرة بالذكر والتنويه ، وتمثل هذا الانتعاش السياسى للإسلام هى ابن سكندر ، الذى جمع أسطولا ليعمل ضد الهولنديين . وأعلن الجهاد على الكفرة . وكان زعيم الحركة هو الشيخ يوسف وهو إندونيسى تعلم فى مكة واشتهر بأنه ولى من أولياء الله الصالحين . ويلوح أيضاً أن أورانجزيب إمبراطور الهند المسلم المتوقد غيرة على دينه ، كان له ضلع فى الأمر ، وأنه أرسل عدداً من محركى الفتن ليدعو الناس إلى مقاومة الهولنديين . كما أنه احتج أيضاً لدى الهولنديين على اعتقال أحد هؤلاء المثيرين ، فاضطرت السلطات الهولندية إلى الإفراج عنه .

وينبغى ألا يفهم من ذلك أن جاوة نفسها لم يحدث بها رد فعل محلى على نفوذ الشيوخ الذين تلقوا العلم بمكة ؛ إذ يقال : إن السلطان أمانج كرات الأول مثلا ، قد عرض على السيف عدداً كبيراً من المولوية وعائلاتهم ، لأنهم حاولوا أن يتخذوا لأنفسهم سلطاناً على الأهالى ، كما أنه حرم جميع القضاة من الاختصاصات التى منحهم إياها أبوه السلطان أنجنج .

وأدى اشتداد قوة الإسلام إلى ازدياد عظيم فى شدة مقاومة الأهالى للعدوان الهولندى بالجزر ، وتمخض استياء المسلمين من جهود المبشرين بأمبوينا عن نشوب الحرب بجزر ملكا . واقتنع كبار موظفى الشركة فى ذلك الزمان ، مثل ريكلوف فان جوينز ، بأن الدين كان من أكبر أسباب الحروب المتواصلة على الهولنديين بالأرخبيل ، تلك الحروب التى تكوّن ظاهرة ملحوظة فى التاريخ إبان النصف الثانى من القرن السابع عشر .

ولم يبد الهولنديون بطبيعة الحال أى اهتمام بتعليم الإندونيسيين ، وكان ذلك فرصة انتهزها الإسلام لتقوية مركزه . ومن ثم أصبح التعليم احتكاراً فعلياً لرجال الدين المسلمين ، وكانت المساجد هى المراكز الطبيعية التى يشع منها ضياء العلوم الإسلامية ويؤثر فى الجماهير . وقد ظل المعلمون المسلمون يعززون باستمرار من مكة والهند ، فتمكنوا بفضل ذلك من المحافظة على روح الأهالى مشبوبة نابضة بالحياة . وهكذا كان تقتير الهولنديين وقصر نظرهم سبباً دعا الإندونيسيين إلى إنقاذ أرواحهم .

وجاءت سياسة الهولنديين فى عهد داندالز (١٨٠٨) وهو المدير العام اليعقوبى النزعة * فدفعت الأمور إلى أزمة عاتية . فإنه نصب نفسه لإعادة تنظيم الإدارة وتقوية وسائل الدفاع عن البلاد ، ولكن معارضة الهولنديين المحليين بلغت من الشدة بحيث اضطرت الشركة إلى سحبه . وبعد ذلك بمدة قليلة ظهرت أمام باتافيا حملة بريطانية يحملها أسطول مكون من مائة حاملة جنود عليها اثنا عشر ألف جندى . ولم تنقض ستة أسابيع حتى أتمت التجريدة أعمالها ووقع الهولنديون شروط التسليم فى ١٨ سبتمبر ١٨١١ . وبذلك انتقلت سيادة الإمبراطورية الهولندية للبريطانيين مدة أربعة عشر عاماً .

ولا شك أن فترة مكث البريطانيين بجاوة هى الحدّ الفاصل حقاً بين حكم الشركة واستعمار الدولة الهولندية التوسعية إبان القرن التاسع عشر . فألغى تقريباً

---

* اليعقوبى Jacobin : أحد الأندية الثورية فى الثورة الفرنسية نشأ فى الأصل فى فرساى ، ثم انتقل إلى باريس ، ثم أصبح اللفظ يطلق بعد ذلك على كل من يعتنق الآراء الثورية والديموقراطية . (المترجم)

نظام الحكم غير المباشر الذى عاد على الهولنديين بالأرباح الطائلة دون أن يحملهم متاعب الحكم أو همومه . فإن رافلز حرم الأمراء من حقوق الإدارة . وضمّ بانتام إلى بريطانيا ، حيث تنازل سلطانها عن الحكم مقابل معاش سنوى قدره عشرة آلاف دولار إسبانى (١٨١٣) . وضمت تشيريبون فى (١٨١٥) .

وفى سوراكارتا ودچوكچاكارتا قبل السلطانان أن ينظما إدارتهما لشئون ولايتيهما طبقاً للمشورة التى يشار بها عليهما . وهكذا دمر رافلز فى مدة وجيزة النظام القديم ، وأحل محله تولى السلطة الاستعمارية التصرف المباشر فى الإدارة ، ولم يكن فى ذلك إلا مكملا للسياسة التى بدأها داينداالز نفسه .

ومهما تكن مزايا إصلاحات رافلز وعيوبها ، فلاشك أنها كانت ذات نزعة إنسانية ، وكانت تنطوى على بعد النظر وتهدف إلى منح الحقوق للمزارعين الجاويين ، وهى من أجل ذلك تلقى النقد العدائى من المؤرخين الهولنديين ومن المدافعين عن الاستعمار مثل فرنيڤال — ولا سبيل إلى نكران أنها وضعت حداً لنظام الضيعة الكبرى الجائر غير الإنسانى . فلما أن أعيدت المستعمرة إلى الهولنديين لم يجدوا مناصاً من قبول المبدأ القائل بأن إندونيسيا ينبغى أن تحكم من أجل أبنائها . وعندئذ أعلن أن غرض الملك ، وقد أعيد إلى عرشه آنئذاك بهولندة ، هو النهوض بمصالح جميع رعاياه دون أى استثناء .

وكانت سياسة هولندة بعد عودة الملكية سياسة استغلال شديد لجاوة وأجزاء من سومطرة (هى پادانج وپاليمبانج) وإلى الامتناع عن التصرف فى المناطق الخارجية . وكانت السلطات الهولندية صريحة كل الصراحة فى تبيان أسباب إهمالها للمنطقة الهائلة الواقعة خارج جاوة وسومطرة . فإن تطوير المناطق الخارجية كان يستلزم استخدام جميع الفائض عن إدارة جاوة الذى لم يكن بد من إرساله إلى الدولة الأم . وتعرف تلك السياسة باسم « سياسة الميزان المواثم » وهى تقدر قيمة الإدارة وتحكم عليها حسب مقدار صافى المكاسب التى كانت إدارة جاوة تستطيع إرسالها إلى هولندة .

وفى الحق أن البرتغاليين كانوا فى علاقاتهم بالعرب — وذلك على الأقل أثناء نصف القرن الذى عقب وصولهم إلى الشرق — قساة ، تجردوا من كل إحساس

بالمشاعر الإنسانية . وكان فى الإمكان على الأقل تفسير ذلك بأنه استمرار للقتال المرير بين الإسلام والمسيحية فى أوروبا . ثم دأبوا حيناً من الدهر على التزام خطة التعصب الدينى فى إجبار الناس على اعتناق المذهب الكاثوليكى ، كما أنهم أنزلوا اضطهادهم بغير المسيحيين بجوا وغيرها من ممتلكاتهم . أما البريطانيون فقد أقاموا بالبنغال مدة قصيرة أمدها خمسة عشر عاماً « دولة لصوص» كانوا فيها ، دون إشارة إلى حقوق الغير ، ينهبون ويسلبون تحت ستار حقوقهم أنفسهم ، ولكن التجار الهنود لم يتدخل فى شئونهم أحد حتى فى أثناء تلك الحقبة ، وكان للجمهور الحق حتى فى الاحتجاج العلنى كما شهدنا ذلك آنفاً . فالهولنديون من بين جميع الأمم الأوروبية فى الشرق هم وحدهم الذين اتبعوا سياسة أخذت تنزل شعباً بأكمله بصور منظمة إلى منزلة عمال الضياع الكبيرة ، دون أن تعترف لهم قبلها بأى التزام خلقى أو قانونى . كانوا ببلاد الصين يتذللون ويخرون على الأرض ساجدين ، ويتواضعون ويظهرون التوقير العظيم أمام الموظفين اليابانيين ، ولكنهم كانوا يظهرون استبداداً لا يتصوره عقل نحو الشعب الذى يستمدون منه أعظم الغنم . وإذ أعوزتهم (أعنى الهولنديين) الحماسة الروحية التى ألهبت أنفس البرتغاليين أو — على وجه الجملة — الاهتمام الإنسانى العريض الذى للبريطانيين ، وذلك على الأقل بالمناطق التى لهم فيها السلطة السياسية المباشرة ، أو الشعور بالرسالة الثقافية التى ادعاها الفرنسيون لأنفسهم ، فإنهم استمسكوا بشدة بنظرية للامتلاك والاستغلال ، دون أن يتقبلوا بأى حال ولو على أدنى درجة ، أى التزام برعاية مصالح الشعب الذى استولوا على مقاليد الهيمنة بين ظهرانيه. حتى إذا اضطروا إبان القرن التالى إلى تغيير سياستهم ، لم يكن ذلك نتيجة لأى اقتناع ، بل جرفتهم فى ذلك قوة الحركات التى حدثت خارج هولندة وإندونيسيا .

ملحوظة

إن المؤلفات التى تبحث فى شئون الهولنديين بإندونيسيا باللغة الإنجليزية أو الفرنسية ليست وفيرة، ومع ذلك فإن الكتب التالية لها أهمية خاصة .

Army, Vandenbosch : The Dutch East Indies. University Press, California. 1942.

Angelino, A. D. a de Kat : Colonial Policy, London, 1931.

Angoulvant, G. : Les Indes Netherlands, 2 vols, 1926.

Chailley Bert, J. : Java et ses Habitants, 1900.

Coup Land, Sir R. Raffles 1926.

Fornivall, J. S. Nether lands India, London, 1944.

Raffles, T. S. Memoir on the Administration of the Eastern Islands, 1819.

Raffles, T. S. Substance of a minute recorded in February, 1814.

Raffles, Lady : Life and Public Services of Sir T. S. Raffles. London, 1830.

Schirke, Dr. B. : The Effect of Western Influence on Native Civilizations in the Malaya Archipelago, 1929.

Vlekke, Bernard H. M. : Nusantara - A History of the East Indian Archipelago. Harvard University Press, 1943.

الفصل الثانى

بلاد الصين

لما استقرت بريطانيا دولة برية كبرى فى جنوب آسيا ، أصبح واضحاً أنه لا مفر للمصالح التجارية البريطانية من أن تتدفق إلى المحيط الهادى . وكان مركز الأمم الأوروبية ببلاد الصين أثناء الربع الأول من القرن التاسع عشر مماثلا من نواح كثيرة لمركزهم ببلاد الهند قبل (١٧٤٨) . فكان لهم بضع محطات تجارية على الساحل ، ولكن لم يكن لهم أى نفوذ سياسى ولا قوة عسكرية . وكل ما كان يهمهم هو التجارة التى يتنافسون فيها مع الأمم الأوروبية الأخرى بروح المباراة والتسابق . ولم يكونوا يرغبون فى التغلغل إلى داخل البلاد ، وكانوا قانعين بالتعامل مع وسطاء كانوا يجمعون الثروات من مكاسب التجارة . بيد أنه كان هناك فارقان هامان بين مركز الأوروبيين بالهند ومركزهم بالصين . فإن التجارة كانت ببلاد الهند تلقى التشجيع حتى لقد أصبحت فعلا جزءاً لا يتجزأ من اقتصاد البلاد . فالمناطق الساحلية التى انتقلت إليها من داخل البلاد القوى المالية والاقتصادية كانت تعتمد فى خفض عيشها على تلك التجارة . وكان للكثيرين من حكام المناطق الساحلية الضيقة مصلحة مباشرة فى تلك التجارة . وهكذا كان حيدر على صاحب ميسور يعتبر « ماهى » المستقر الفرنسى الصغير على الساحل الفرنسى مركز مصلحة حيوية له . وكان حاكم كارناتك وراجا تانجور وصغار الرؤساء الآخرين على الساحل الشرقى يعتبرون مدراس وبونديشيرى منفذين طبيعيين لهم . بل الواقع أن الهند بمالها من تقاليد عريقة فى التجارة البحرية ، لم تكن تعد المراكز التجارية الأجنبية ، مما يجوز الاعتراض عليه . أما الموقف فى الصين فكان مختلفاً من هذا الوجه . فإن الحكومة الصينية لم تكن تهتم بالتجارة البحرية . وعندما كتب تشين لنج إلى چورج الثالث ينبئه بأن امبراطوريته تمتلك « كل شىء بوفرة هائلة » ولا ترغب فى شىء من الخارج ، كان فى الواقع يردد تقليدا صينياً راسخ القدم ببلاده ، يعد تبادل السلع مع الأقطار الأجنبية شيئاً لا ضرورة له ، ويتنافى وكرامة الصين .

وثمة فارق ثان له أهمية سياسية يقوم بين الهند والصين ، هو أنه بينما حافظت
الصين حتى فى أيام ضعفها السياسى على وحدتها السياسية ، وكان فى مكنة الإمبراطور
أن يمارس سلطته فى أشد الولايات بعداً عنه ، وكان نواب الامبراطور الروافد
« يرتعدون ويطيعون » ، فإن السلطة الإمبراطورية ببلاد الهند كانت قد انهارت فى
(١٧٤٠) انهياراً تاماً، وأصبحت أثراً بعد عين . وأما الولايات الساحلية الكبيرة التى
تأسست فيها المجتمعات الأوروبية المتاجرة تحت حماية الحصون ، فإن الواقع أن
السلطات المحلية كانت أصبحت فيها مستقلة عن الإمبراطور ولا تحركها إلا
اعتبارات الأسر الحاكمة بصفة رئيسية ، وأعنى بذلك اعتبارات تحويل وظائفهم
كولاة إلى إمارات وراثية . من هنا لم يكن بد فى الصين من أن تُحل المسألة فى
كل حالة عن طريق القتال مع الحكومة المركزية ، وذلك على حين أن الشركتين
البريطانية والفرنسية ببلاد الهند كانتا تتعاملان مع حكام محليين ونواب ملك وأمراء
صغار ، وكانتا تبعاً لذلك قادرتين على توجيه الضغط عليهم .

وقد تغير الموقف السياسى فى العالم تغيراً أساسياً فى النصف الأول من القرن التاسع
عشر . فإن بريطانيا بغض النظر عن مركزها الذى لا ينازع فى بلاد الهند وفى
المحيطات بكل أرجاء العالم ، قد أصبحت الدولة الجبارة فى العالم كله . فإنها كانت
تستمتع فى العالم بتسلط اقتصادى ومعنوى لم تصل إليه دولة أخرى قبلها ولا بعدها .
وكانت الولايات المتحدة لاتزال فى دور التكوين ، بل لم تكن فى الواقع قد وصلت
إلى ساحل المحيط الهادى فى امتدادها غرباً بأرض القارة الأمريكية . ولم تستفق
فرنسا بعد من غاشية ثورتها ومغامرتها النابليونية ، فقنعت باتباع سياسة إعادة بناء
قوتها . ولم يكن هم إمبراطورية النمسا والمجر وهى الدولة العظمى الوحيدة الأخرى
بأوروبا ، منصباً آنئذ كشأنها فى كل آن وزمان ، إلا على شىء واحد هو صيانة
ميراث أسرتها المالكة فى قارة أوروبا من كل تضعضع ، على حين أن ألمانيا خارج
النمسا ظلت ملعباً لإمارات صغيرة ولم تكن مملكة بروسيا تبنى زعامتها لها إلا بغاية
البطء والتمهل . أما إيطاليا المقسمة بين آل هابسبرج ومملكتى سردينيا ونابلى والكرسى
البابوى ، فلم تكن أمة بل منطقة لا تقوم إلا فى المصورات الجغرافية .

وقد تقاعس عن السباق الرواد الأولون للإمبراطوريات البحرية وهم إسبانيا والبرتغال وهولندة . وكانت البرتغال لا تبرح تملك ممتلكاتها الصغيرة بآسيا . على أن خلفاء فاسكو دا جاما وألبوكرك وإن ظلوا يحملون الألقاب القديمة ، إلا أنهم أصبحوا مجرد مفارقات تاريخية . وكان أرخبيل الفلبين لا يزال ملكاً خالصاً لأسبانيا ، ولكنها لم تشترك قط فى تطورات آسيا . وكان مركز هولندة فريداً فى بابه . فإن بريطانيا جردت الأراضى المنخفضة من ممتلكاتها الاستعمارية أثناء حروب نابليون . ولكن الجزائر الأندونيسية جادت بها مكارم بريطانيا فى (١٨٢٦) فأعادتها إلى صاحبتها كأنما هى إمبراطور فى العصور الوسطى أعاد إقطاعياً ثائراً إلى إقطاعيته بعد حرمانه من جزء من ممتلكاته (هو جزيرة سيلان) . لكى يستردها منه بإرادته إن صدر منه خطأ . ومنذ تلك اللحظة قنع الهولنديون بسعادة تامة بأن يركزوا أنفسهم على استغلال مزرعتهم الغنية الضخمة استغلالا منظماً ، دون أن تداعبهم مطامع سياسية ولا ادعاءات استعمارية . وهكذا كان موقف أوروبا إذا استثنينا الروسيا فى الحقبة بين ١٨١٥ — ١٨٤٨ فقد كان يمثلها فى الشرق بريطانيا بقوتها الجارفة الهائلة.

وكان مركز بريطانيا فائقاً وممتازاً جداً من الناحيتين الاقتصادية والمالية ، فإن الانقلاب الصناعى فى القرن الثامن عشر قد تقدم بها إلى الأمام وجعلها تسبق منافسيها أشواطاً . وكان اقتصادها المتزايد على كرّ الأيام ومركزها المتسلط على صفحة البحر يتيحان لها مركزاً لا تستطيع دولة ولا جماعة من الدول أن تتطلع إلى تحديه. فلم يكن من المعقول أن ترضى دولة مثلها تحتاج تجارتها إلى أسواق جديدة بالقيود التى فرضتها الصين ذلك الأجل الطويل . والواقع أن أحوال التجارة الأجنبية بكانتون كانت تنطوى على الذل والهوان . وإليكم صورة تمثل موقف الصينيين منها ، فلم يكن مسموحاً لهم كما أسلفنا لك القول باجتلاب النساء إلى المصانع . وبلغ الأمر بالسلطات الصينية فى عهد متأخر هو (١٨٣٠) أن هددت بإيقاف التجارة لإجبار بعض النساء على العودة فوراً إلى مكاؤ . ولم يكن يجوز للأجانب استخدام الخدم الصينيين ؛ ولا كان يجوز لهم ركوب كراسى السيادة بل كان يجب عليهم السير على الأقدام . ولم يكن يجوز للأجانب أن يقدموا بيانات تمثل وجهة نظرهم ، بل كان يجوز لهم فقط أن يقدموا التماساتهم عن طريق ضامنيهم من الصينيين .

ثم سمحت الصين فى (١٨٣١) بشىء من التساهل إزاء هذه المسألة، فإذا رفض تجار الهونج الصينيون تقديم البيانات التى تمثل وجهة نظر الأجانب « أمكن لأثنين أو ثلاثة من الأجانب أن يتوجهوا خاضعين إلى بوابة المدينة (ولكن لا يجوز لهم دخولها) ويتركوا ملتمسهم عند حارس البوابة » .

ولم يكن معقولا أن بريطانيا بما صار لها من زهو بمركزها المتسلط فى العالم ، تظل تسمح لتجارها بأن يمارسوا التجارة فى مثل هذه الظروف المهينة . أجل إن شركة الهند الشرقية ظلت تقبل هذا الوضع مدة تربى على مائة سنة وإن أظهرت شيئاً من التذمر بين حين وآخر لأن التجارة كانت مربحة . وكما أوضح السيرچون پرات : «إن الربح الوفير الذى كانت تدره التجارة هو الذى جعل التجار الأجانب يتحملون الأهانات التى كان صلف الموظفين الصينيين يأبى إلا تكديسها على رءوس الأجانب جميعاً » . وطالما كانت شركة الهند الشرقية تستطيع التعامل بواسطة التايبان (taipan) التابعة لها مع السلطات الصينية . كان الأمر يسير على ما يرام إلى حد ما ، ولكن البرلمان ألغى فى (١٨٣٢) احتكار الشرقية ، وهو أمر جذب إلى محيط تجارة الصين الجنوبية عددا ضخماً من التجار المغامرين ، الذين لم يكونوا مستعدين بما ملأ نفوسهم من كبرياء بجنسهم البريطانى لقبول أى تضييق ، بل كانوا «يتحرقون » شوقاً إلى القتال .

زد على ذلك أن النظرية القائلة بأن التجارة حق مقدس بكل مكان أخذت تلقى قبولا متزايدا ، وأنه ليس من الطبيعى أن تقفل حكومة أبواب بلادها فى وجه مسيل التجارة الحر وقد كان مثل ذلك الاتجاه شيئاً طبيعياً فى حقبة يتسع فيها أفق الاقتصاد ؛ ولم يكن أحد بمستطيع أن يتكهن آنئذ بأن إنجلترة نفسها ستضطر فى أقل من مائة سنة ، أن تنفذ نظام الأنصبة والحصص ، وأن تمنع الاستيراد وتتولى تنظيم التجارة بكل وسيلة يتصورها عقل . ولا شك أنه فى ثلاثينات القرن التاسع عشر كانت كل هذه الأفكار تبدو لدى التجار الإنجليز رجعية ومناقضة لحقوق التجارة السلمية ، فإن لم ترد الحكومة الصينية أن تشجع التجارة الأجنبية وجب أن ترغم على فعل ذلك لمصلحة السلام والرخاء والتقدم .

وكانت تجارة الصين منذ أمد بعيد شأناً يتم من جانب واحد حيث يشترى

التجار الأوروبيون مقادير ضخمة من الحرير والشاى والراوند، ولا يبيعون مقابل ذلك إلا القليل . وكانت الصعوبة هى العثور على شىء يقبل عليه الناس بالصين ، وكانت موازنة الميزان التجارى تتم فى الماضى بتصدير السبائك إلى الصين ، ثم اكتشفت طريقة جديدة للموازنة نجمت عن زيادة إقبال الناس على الأفيون . ويرجع الفضل فى هذا الاكتشاف إلى البرتغاليين ، على أن الأفيون ما لبث فى (١٧٢٩) أن حرم استعماله بمرسوم إمبراطورى . وبعد فترة من الزمان لم يعد ذلك التحريم معمولا به ، ولكن التجارة لم تكن ضخمة جداً . وفى (١٧٧٣) جعل وران هاستنجز بيع الأفيون احتكارا للشركة ببلاد الهند ، وفى (١٧٩٧) احتكرت هى نفسها صنع الأفيون . وبذلك أصبحت لشركة الهند الشرقية مصلحة ضخمة فى توسيع هذه التجارة لغرضين : ملء خزائنها بالذهب بالهند، ودفع أثمان تجارتها بالصين . وفى الربع الأول من القرن أصبح بيع الأفيون على نطاق كبير أعظم الواردات الأوروبية ازدهاراً بالصين . وفى السنوات الستة عشر من (١٨١٨ إلى ١٨٣٣) قفز الأفيون من ١٧ فى المئة إلى ٥٠ فى المئة من مجموع الواردات البريطانية إلى الصين .

ومع أن هذه التجارة كانت محرمة بحكم القانون تحريماً تاماً، وبخاصة بعد منعها منعاً باتاً فى (١٨٠٠) ، إلا أن الشركة استحدثت نظاماً تمكنت به من تنفيذ مأربها . وإن لم تحمل سفنها العقار بنفسها، كما لم يكن تجار الهونج من الناحية الرسمية يتعاملون فيه ، فكان مقدار ضخم من الأفيون يصل إلى الصين عن طريق « السفن الريفية » التى تسير باسم الترخيص الممنوح للشركة، والتى كانت تبيع مباشرة للتجار « الخارجيين » . فلما أن ألغى احتكار الشركة لم يعد فى المستطاع الاحتفاظ بهذا النظام ، وذلك نظراً لأن التجار الخصوصيين لم يعودوا تحت هيمنة الشركة . وتوقع نائب الامبراطور فى كانتون الارتباك الذى سيحدث إذا لم توضع الرقابة على التجار الخصوصيين ، فطلب من تجار الهونج أن يبلغوا مجلس مديرى شركة الهند الشرقية : « أنه منذ ذلك الحين فصاعداً سيتحتم عليهم أن يتدبروا أمرهم ، ويعينوا رئيساً يفهم شئون التجارة ، وأن يحضر إلى كانتون ليتولى الإدارة العامة للمعاملات التجارية» . واعترفت الحكومة البريطانية بأن مثل تلك الخطوة شىء مرغوب ، وعينت اللورد « نابيير » مشرفاً أعلى على شئون الرعايا البريطانيين ببلاد الصين » .

وقدم اللورد نابيير إلى الصين وقد أعد عدته ونفسه ليقف موقفاً حازماً لا يقبل « السخف ولا المراء » . ومع أنه لم يعين سفيراً لبلاده ، بل مجرد مشرف على التجارة ، كما أن تعيينه لم تخطر به السلطات الصينية ، إلا أنه تقدم إلى كانتون دون إذن ، فلما أن بلغها أصر على الاتصال المباشر بنائب الإمبراطور . وكان غريباً أن يصدر مثل هذا الطلب من مشرف تجارى مهما تكن رتبته الشخصية ، فهو كموقف أحد صغار الموظفين التجاريين غير السياسيين إذا هو أصرّ على الاتصال كتابة بنائب الملك بالهند . وقد رفض أن يتعامل مع تجار الهونج الذين كانوا وحدهم — بناء على تعليمات الصينيين — الوسطاء بين التجار الأجانب والسلطات الصينية . أما نائب الإمبراطور فعلى حين أنه رفض أن يتلقى أية رسالة من المشرف الأكبر على التجارة ، وأصر على أن يتولى تجار الهونج تبعاتهم ، إلا أنه جنح إلى السلم وأظهر كل ميل يتفق وحقوق حكومته فى ألا تتسبب قسراً فى إحداث خلاف . ولكن اللورد نابيير ، وكانت ترجمة اسمه إلى الصينية هى « السافل عن تعمد » فإنه لم يقبل أى تساهل . وعندئذ اتخذت السلطات الصينية الإجراء الوحيد الباقى أمامها . فبعد أن أصدرت تصريحاً استلفتت فيه الأنظار إلى غباء الإنجليز وعنادهم ، أمر نائب الملك الخدم والحمالين فانسحبوا من المصنع ، وحظر على السكان المحليين — مهدداً إياهم بالقتل — بيع المواد الغذائية للبريطانيين ، وحذر الأجانب الآخرين من تموينهم بالبضائع ، ثم أرسل الجند إلى المصنع ليتحققوا من تنفيذ الأوامر .

كان اللورد نابيير قد ظن من أول الأمر أن هيبة بريطانيا الهائلة الجارفة ، لا تستدعى إلا قليلاً من الحزم والإصرار والعزم ، فيخر الصينيون على ركبتيهم ساجدين ، فأحس آنئذ أنه لابد من ترضية لشرفه ، وأمر السفن الحربية (الفرقاطات) التى تحت رياسته أن تحمى سفينته حين تشق طريقها فى النهر بالقوة ، وأنزل البحارة ليتولوا حراسة المصنع . واستدعى هذا الانتهاك لأراضى الصين وسلطانها أن يصدر نائب الإمبراطور تحذيراً سريعاً أتبعه بتدبيرات فعالة للإحاطة بالمنطقة وعزل البريطانيين عما حولهم . وعندئذ أدرك اللورد نابيير أنه غلا فى تصرفه ، وقبل كارها أن يعود إلى مكاؤ ساحباً معه سفنه الحربية ، وهناك توفى بعد أسبوعين من عودته العجلة المذلة .

ولا أدل على موقف البريطانيين من خطابات نابيير إلى اللورد بلمرستون ، فإن هذه الوثائق ممتعة شائقة لما يشيع بين سطورها من صلف ورفض ، لتفهم وجهة نظر

الصينيين واقتناع أكيد بأن شيئاً يريده البريطانيون لا يمكن أن يكون خاطئاً . ومع أنه كان من الجلى أن نابيير هو الذى تصرف تصرفات خرق بها الإجراءات الصينية الثابتة ، بل لقد شق بالقوة طريق سفنه الحربية وأنزل البحارة على البر ، فإن خطاباته تتحدث عن « معاقبة » نائب الإمبراطور ، كما أنه يحسن لبلمرستون سياسة المفاوضة مع الصينيين تحت التهديد بالقوة . وكان هذا أيضاً رأى التجار البريطانيين بالصين . ومنذ أن انتهى احتكار شركة الهند الشرقية فى (١٨٣٤) ، أصبح التجار الأحرار أقوى العناصر فى الأمر ، وصاروا يتحرقون شوقاً إلى القتال . والحق أن مقالا كتب فى صحيفة تشاينا ريبوزيتورى China Repository بإمضاء « تاجر بريطانى » والمقول عامة أن كاتبه هو چاردين وأنه يدافع فيه عن « مزايا الأشغال والجهود الخاصة التى لا تفرض عليها قيود » وهو ينطق بأفصح بيان عن قوة إنجلترة الاقتصادية وعن صناعاتها التى تصيح بأعلى أصواتها قائلة : « أن احصلوا لنا على صفقة نبيع بها سلعنا نزودكم بأى مقدار تريدونه منها » . فكيف السبيل إلى ذلك ؟ لقد كان لدى « التاجر البريطانى » إجابة سهلة على هذا السؤال . « وكذلك أيضاً لا ينبغى أن تجعل تجارتنا الثمينة وإيراداتنا فى كل من الهند وبريطانيا العظمى خاضعة لأهواء بعض ذوى النزوات ، التى يمكن لعدد قليل من الزوارق البحرية توضع أمام تلك المدينة أن تتغلب عليها باطلاق بضعة من مدافع الهاون . . . وذلك لأنه لا سبيل إلى الشك فى نتائج خوض الحرب مع الصينيين » .

وكان « التاجر البريطانى » يتحدث باسم جماعته ، وذلك لأن الموقف قد أصبح لا يطاق البتة . وكانت الملكية المتربعة على عرش الصين عامة ، فى نظرتها إلى الدول الأخرى جميعاً باعتبارها توابع أو همجاً ، تقف وجهاً لوجه أمام استعلاء بريطانى الشامل . بينما كان من الممكن قبل نصف قرن أن يواصل ابن السماء دعواه ، ويصر عليها فى داخل ممتلكات الصين الشاسعة المترامية على الأقل ، فإن تلك الدعوى أصبحت فى (١٨٣٠) مجرد حركة تنكرية وتمويه ، على حين أن بريطانيا قد أصبحت من القوة بعد تأسيس إمبراطوريتها بالهند وإحرازها انتصاراتها بأوروبا بحيث تمارس تسلطها العالمى على المناطق الساحلية على الأقل فى أية دولة . ومن ثم فإن مواصلة نظام مراقبى الجمارك (هوپو) وتجار الهونج والتعليمات الثمانية بما حوت من قيود كثيرة ومكوس مفروضة على التجارة ، أمر لم يعد فى الإمكان الاستمرار فيه

تلقاء دولة أوتيت مثل تلك القوة الساحقة ، وكان الادعاء الذى يستتر وراءه بلاط المانشو هو أنه يتعامل مع جنس أحط منه ، ولا بد من تلقينه درساً فى الأخلاق وإلزامه بجادة النظام . فعند بداية كل موسم (أى فى أغسطس) كان الهوپو (وهى اللفظة التى وضعها الإنجليزكمقابل للفظة يويه هاى كان پوالصينية) وهورئيس جمارك بحر يويه ، ينشر إعلاناً يبلغ فيه تجار الهونج : أنه لما كان من العسير على البرابرة أن يفهموا صفات الإمبراطورية السماوية ، كان من واجب تجار الهونج أن « يعلموا البرابرة على الدوام كيف يخفضون من كبريائهم وفجورهم ،وأن يصروا على تحويل قلوبهم إلى الاحتشام واللياقة » . وكان الهوپو يبعث أيضاً بعواطفه الكريمة إلى البرابرة على هذا النحو إلى حد ما ! ولم يكن البريطانيون مستعدين بأية حال لتحمل مثل تلك النصائح .

والواقع أن هذا النظام قد تحول مدة العشرين السنة الأخيرة إلى مجرد تمويه أجوف ، ذلك لأن التجارة مع الصين خرجت آنئذاك عن كل سبلها الرسمية والحكومية . فقد حولت السفن عن كانتون التى كانت هذه التعليمات تصدر عنها وتنفذ منها إلى مرسى لنتن ، وهى جزيرة عند مصب نهر كانتون . فهناك كان التجار الأجانب باغضاء من الموظفين الصينيين يخادعون الخزانة الإمبراطورية ، ويتحدون سلطة الهوپو ونائب الملك ، ويتجاهلون كلا من التعليمات الثمانية وتجار الهونج . فبينما كانت تجارة كانتون الرسمية تقدر فى (١٨٣١) بمبلغ سبعة ملايين من الدولارات فقط ، فإن التجارة التى كانت تديرها الشركات الأجنبية عن طريق لنتن بلغت سبعة عشر مليوناً كان حساب الأفيون وحده منها أحد عشر مليوناً .

كان من الجلى إذن كما تنبأ چارداين وعبر عنه بوضوح وقوة ، أن الحاجة قد أصبحت ماسة إلى تغيير جوهرى فى النظام ؛ تغيير يكفل للأمم المساواة وتسهيل التجارة . وكان من البين أيضاً أن مثل ذلك التغيير لم يكن فى المستطاع تنفيذه إلا باستخدام القوة . وربما لم يكن من الحرب بد فى تلك الظروف ، فالشىء الذى كان يزعج العالم ويخلق سوء التفاهم فى المستقبل هو المعاذير والأساليب ؛ أما المعاذير فكانت هى الأفيون ، أما الأسلوب فكان القرصنة . وقد سبقت الإشارة إلى الزيادة الخارقة التى أصابتها تجارة الأفيون . ومع أن شركة الهند الشرقية لم تكن تصدره مباشرة إلى الصين . فإن الأفيون الذى كان يحمله التجار الخصوصيون كانت الشركة هى

التى تبيعه فى مزادات كلكتا . وكانت طريقة بيعه تتم بتهريبه فى لنتن ، وباستخدام أعمال قرصنة تجرى على امتداد الشاطئ . وكانت دور الأعمال المشتغلة بتلك التجارة تستخدم سفناً مسلحة ، وتعمل متحدية للقوانين الصينية على طول الساحل فى بيع ذلك العقار السام إلى أهالى الصين . أما تسلح سفن القرصنة الصريحة بنص القانون الصينى والإنجليزى والدولى دون الحصول على رخصة من أية دولة ، وأن تحمل شحنات من بضائع محرمة محظورة ، فأمر لا سبيل إلى إنكاره أو الشك فيه .

وكانت الحكومة الإمبراطورية على تنبه تام إلى هذه الحركات ، وكان الإمبراطور خاصة يشعر بقلق خطير إزاء تلك المحاولة المتعمدة لإجبار شعبه على شراء الأفيون ، فعزم على اتخاذ اجراءات فعالة لإيقاف تلك التجارة . ومن أجل تلك الغاية عين لن تسى هسو مندوباً إمبراطورياً خاصاً ، وهو رجل مختبر الأمانة والشرف والوطنية ، وكان آنئذ يشغل منصب نائب الملك فى هيوكوانج . وخول لن سلطات لا حد لها تقريباً ، بما فيها سلطة المندوب الامبراطورى وأمير البحر الأعلى ، وهى سلطات كانت تجعله فوق نائب ملك ولايتى الكوانجتين . ويقال إن نائب الملك غشى عليه عندما سمع نبأ تعيينه . وكان برنامج لن بسيطاً ؛ فإنه أراد أن يواصل التجارة المشروعة ، بل ويشجعها . ولكنه كان عاقد العزم على استئصال شأفة تجارة الأفيون بكل ما أوتى من وسيلة . وليس هناك أى دليل مطلقاً يدعم القول بأنه كان معادياً للأجانب أو جانحاً للعدوان فى تصرفاته إلا حيث ينبغى أن يصان القانون .

وقد طالب التجار بتسليم ما لديهم من صناديق الأفيون وعدتها (٢٠,٠٠٠ صندوق) واستولى عليها فعلا ، ثم أدهش الناس جميعاً حيث أتلفها فى احتفال عام . ثم حصل من التجار على تعهدات بأنهم لن يواصلوا هذه التجارة البشعة المناقضة لقوانين الإمبراطورية . ومع أن التجار البريطانيين وقعوا تلك التعهدات ، إلا أنهم فعلوا ذلك بتحفظ ادخروه فى دخيلة عقولهم ، ذلك لأن أهم الشركات البريطانية وهى شركة چارداين وماثيسون كانت ترسم خطتها فى الحين نفسه لمواصلة التهريب من ساحل البحر بوساطة سفن مسلحة تتخذ من مانيلا قاعدة لها . وسارت الأمور حتى آنئذ على ما يرام . ثم حدثت المتاعب بعد ذلك ببضعة أسابيع عندما قتل

جماعة من البحارة البريطانيين السكارى رجلا صينياً على أرض بلاده ، ورفض المشرف البريطانى على التجارة تسليم المجرم . وأدرك لن أن سلطان مولاه يمتحن ، فأصدر أمراً قاطعاً بتسليم المجرم وخيّر السفن البريطانية الراسية عند مدخل النهر بين الرحيل أو الدخول فيه فى مدى ثلاثة أيام ، فإن لم تفعل ذلك اضطر إلى اتخاذ ما يلزم من إجراء لتنفيذ سلطته بالقوة . وأتبع أمير البحر الأعلى إنذاره ذاك بحشد السفن الحربية . وأحضر البريطانيون من جانبهم فرقاطتين حربيتين ، هما الفولاج والهياسنث ، ثم شرعوا دون انتظار لأية مفاوضات يطلقون مدافعهم على السفن الحربية وأغرقوها ، وهكذا بدأت حرب الأفيون الأولى .

ولقد أخطأ لن° فى تقديره مرتين ؛ حيث خيل إليه أن الحكومة البريطانية لم تكن طرفاً فى تهريب الأفيون ، ذلك لأنه رجل شريف ظن أن ذلك من عمل تجار لا خلاق لهم أو قراصنة من الفسدة الهمجيين . وذلك أمر يتجلى من الرسائل التى وجهها إلى الملكة ڤيكتوريا . حيث قال : « لقد فكرنا فى الأمر ورأينا أن هذه المادة الضارة يصنعها غدراً مدبرون للشر مكرة تحت سيادة شعبكم الشريف. ولا مراء عندى أنكم وأنتم ذوو الرئاسة الشريفة لم تأمروا بزراعة هذه المادة وبيعها ». وقد أوضح لن أن بريطانيا نفسها « لا يسمح للناس فيها بتدخين ذلك المخدر . فإذا سلمنا بأنه على مثل هذه الدرجة من الضرر الوبيل ، فكيف تحاولون الاستفادة بتعريض الغير لتأثيره المؤذى ، وترون ذلك متفقاً مع ما تأمر به السموات ؟ » فهنا كان لن° على خطأ . فإن حكومة الملكة كانت مشتركة فى الأمر وعلى علم تام به كما أكدت ذلك لجنة شركة لندن للهند الشرقية والصين . فإن مذكرة كتبتها تلك الهيئة تقول ما نصه : « عندما نجد زراعة الخشخاش (الأفيون) داخل أملاك شركة الهند الشرقية موضع احتكار شديد ، وأن العقار (المخدر) تبيعه حكومة الهند فى بيوع علنية وأن المصير الذى يذهب إليه معلوم يقينا ، بحيث إنه حدث فى (١٨٣٧) أن إدارة شركة الهند الشرقية وجهت بإعلان عام للجمهور مبلغاً طائلا من المال ليقدم هبة إضافية لأصحاب السفن الذاهبة إلى الصين فى ذلك الموسم ؛ وعندما نلاحظ أن لجان مجلسى اللوردات والعموم أجرت تحقيقاً دقيقاً فى مسألة زراعة الأفيون ، وبعد أن درست المبالغ التى تعود منه على بند الإيرادات بالهند وعلمت تماماً بالمكان الذى يصدر إليه فى النهاية ،

قد انتهت دون تردد إلى قرار ينص على أنها لا ترى من المصلحة التخلى عن مصدر للإيراد له مثل تلك الدرجة من الأهمية . . . وإذا عرفنا فوق ذلك أن مجلس الهند الذى يرأسه وزير عضو فى الوزارة (البريطانية) له هيمنة فعالة على شركة الهند الشرقية ، ويجوز له أن يمنع كل ما لا يرضاه ، وجب أن نعترف أن من الظلم فعلا وإلى أقصى حد أن نلقى أى لوم أو معرة يتعلقان بتجارة الأفيون على كاهل التجار الذين كانوا يشتغلون فى تجارة تقرها أعلى السلطات بصورة مباشرة وغير مباشرة » .

والواقع الذى لامراء فيه أن الحكومة البريطانية كانت غارقة إلى أذنيها فى هذه التجارة المنحطة غير المشروعة وفى القرصنة التى سارت وإياها جنباً إلى جنب . ومن البديهى أن «لن » لم يكن يعرف تلك الحقيقة ، ولا يمكن أن يتوقع منه أن يعرفها ، وبخاصة أن نظريته فى الدولة بوصفه من أتباع كونفشيوس كانت تقوم على التمسك بالأخلاق ، وفيها يتولى الإمبراطور تحت وصاية السماء إقامة ميزان الاحتشام . وكان خطؤه الثانى الذى نشأ بصورة طبيعية عن الأول ؛ هو اعتقاده بأن الأسطول البريطانى لن يتدخل لحماية المجرمين . ولم يكن لديه بطبيعة الحال فكرة صحيحة عن قوة بريطانيا على صفحة البحر ، وكان بوصفه أمير البحر الأعلى للسفن الحربية الصينية يؤمن إيماناً ثابتاً وهادئاً أنه مستطيع أن يؤيد سلطانه على السفن الشراعية السريعة ، والمراكب التجارية بل حتى فرقاطات البريطانيين . وكان سوء التقدير ذاك وبالا أدى إلى النتيجة التى أسفر عنها الموقف ، ولكنه لا يمس ولا يغير ما تتحلى به جميع تصرفات لن من استقامة مشروعة ، كما لا يمكن أن يتخذ سبباً لتبرير تصرفات إليوت الذى أرغم الصينيين على خوض غمار حرب وأعار كرامة حكومته وسلطانها الخلقى لخدمة نظام تجارى قائم على تجارة غير مشروعة فى المخدرات تقوم بها قرصنة منظمة .

وتفاصيل تلك الحرب لا تهمنا فى هذا المقام ، بيد أن من الضرورى أن نتذكر أنه ما كادت الحرب تبدأ حتى طالب البريطانيون بالتعويض عن الأفيون المستولى عليه ، كما طالبوا بالتعويض عن تسليم الجزر ! وفضلا عن ذلك فإن البريطانيين كانوا مصممين على الوصول بالحرب إلى نتيجة حاسمة ، إذ أخذ يداعب خيالهم أمل باطل فى تجارة ضخمة مع الصين ، وبيع البضائع البريطانية لدى أكثر أمم العالم سكاناً بصورة تدانى الاحتكار تقريباً . فهنا توجد أعظم دولة تقوم بمفردها وهى

لا تزال ثرية بخيراتها لم يذق أفاويقها حتى آنئذاك إنسان ، وهى سوق للسلع البريطانية لا سبيل إلى استنفادها . تلك حجج القوم فى ذلك الزمان . وذلك هو الوهم الباطل الذى قدر له أن يجر بريطانيا فى وهدة الصين من أعمق لأعمق . فاحتلت القوات البريطانية شنغهاى فى ١٣ يونيو ١٨٤٢ ، واخترقت الخط المركزى العظيم لحياة الصين : وهو نهر يانجتسى ، ثم اتخذت الأهبة للقيام بهجوم على مدينة نانكنج العظيمة ، وهناك عقدت معاهدة نانكنج (٢٩ أغسطس ١٨٤٢) .

وثمة عمل عجيب كان الأول من كثير من نوعه فى تاريخ الصين ، ويجوز لنا أن نلحظه ونتذكره هنا ، فصحيفة تشينيز ريبوزيتورى[1] تسجل فى مجلدها الحادى عشر بالعدد ٦٨٠ . « ٣ سبتمبر : (أن جماعة من الضباط البريطانيين وغيرهم اقترفت أعمال الهمجية قصداً وعمداً بأن زارت برج الخزف ، فذهبوا كما يشهد بذلك الرهبان المتعبدون) يحملون الفؤوس والأزاميل والمطارق ، واقتطعوا منه كتلا كبيرة حملوها معهم محدثين بذلك أضراراً كبيرة » . وذكر مشاهد صينى شهد هذا التدنيس للمقدسات بقوله : « كثيراً ما كان البرابرة الإنجليز يصعدون الباجودة ... ونزعوا منها عدة قراميد مزججة ، وهو أمر ممقوت إلى أقصى حد » . وإن وليم دالاس بارنارد ليحاول انتحال المعاذير لهذا الانتهاك للمقدسات بقوله : « إنها رغبة طبيعية فى امتلاك عينات من الآثار » . وقد تكرر من الأوروبيين هذا الميل المزمن إلى التدمير وانتهاك المقدسات مراراً وتكراراً إبان العلاقات الأوروبية بالصين فى القصر الصيفى عام ١٨٦٠ ، وفى تيان تسن عام ١٨٧٠ وفى بيكين نفسها فى ١٩٠٠ .

وبغض النظر عن ضم هونج كونج لبريطانيا ، كانت الفقرة الرئيسية فى تلك المعاهدة ، التى كان سيقام عليها الصرح الكامل لعلاقات الصين بالدول الغربية ، هى الفقرة التى تفتح للتجارة خمسة مرافئ : « يسمح فيها للتجار الأجانب وعائلاتهم ومؤسساتهم بالإقامة بقصد مواصلة أعمالهم التجارية دون أدنى مضايقة أو قيد » . ونصت المعاهدة أيضاً على أن « الموظفين القنصليين » أى المشرفين ، ينبغى أن يسمح لهم بالإقامة ، وأنه يجب أن تنشأ بتلك المرافئ تعريفة جمركية ثابتة وعادلة ورسوم

---

(١) Chinese Repository

جمركية منتظمة ومُقَسطة * . وعقدت معاهدات مماثلة لهذه مع الأمريكيين فى وانجهيا (٣ يوليو ١٨٤٤) ومع الفرنسيين فى وهامبوا (٢٤ أكتوبر ١٨٤٤) . كما أن البرتغاليين ادعوا أنلهم بمكاؤ سلطة لم تكن لهم بأى حال حتى وهم فى أوج قوتهم .

ولعل من الضرورى قبل النظر فى المعنى السىء لهذه المعاهدات لدى الصين ، أن نؤكد نقطةواحدة؛ تلك هى أن المعتمدين الصينيين المفوضين لم يكونوا متنبهين تماماً إلى ما يجبرون على توقيعه. فكانت المعاهدة إملاء أملى عليهم. يقول مؤرخ صينى حديث : « إنه فى كل أطوار المفاوضات كان البريطانيون يضعون الشروط ولا يكتبونها فقط بالإنجليزية بل بصينية ضعيفة ، ومع أنه سمح بشىء من المناقشة والملاحظات على سبيل التأدب والمجاملة ، إلا أن كل شىء كان ينفذ فى النهاية كما طلبه البريطانيون أصلا مع قدر ضيئل من التغيير ** » . وكان الوجهاء الصينيون الذين اضطلعوا بمفاوضات المعاهدة أقل علماً بما يجرى خارج بلادهم من أحداث من القوميسير لن نفسه . مثال ذلك أن نيوتشين عندما استقبل على ظهر إحدى السفن البريطانية كان يظن أن دولابها تديره الثيران !

ولقد كانت معاهدة نانكنج هى حجر الزاوية فى صرح العلاقات الدولية الرهيب وغير الثابت فى الوقت نفسه ، تلك العلاقات التى تحكمت فى الصين مدة مائة عام . وكان الغرض الرئيسى منها هو القضاء على انعزال الصين قهراً، وإجبارها على تبادل التجارة مع الأمم الأوروبية وتعليم الصينيين فوق ذلك أنهم ليسوا بأى حال أعلى من سائر شعوب الأرض ، بل هم على العكس أحط منهم فى الواقع . وكانت مرافئ المعاهدة تقع على مصب نهر اليانجتسى وعلى امتداد الساحل ، وهى شنغهاى وننجپو وفوتشو وأموى وكانتون . فهناك كان للتجار الأجانب الحق فى التجارة المباشرة مع الأهالى . وتقرر أن ترسو سفينة حربية بكل مرفأ من تلك المرافئ الخمسة، كما أن الفرنسيين والأمريكيين طالبوا وحصلوا على التأكيد بأن السفن الحربية « التى تمخر

---

* وهناك ناحية عجيبة فى المعاهدة البريطانية تطيل التعليق عليها كتب التاريخ التى يؤلفها مؤرخون أوروبيون، وهى تحتيمها دفع « فديات » عن المدن التى لم تحتل . وكان المفروض أن ذلك تعويض يدفع مقابل الامتناع عن نهب المدينة ، الأمر الذى كان الجنود يفعلونه لو أنهم احتلوها . فطلب عن مدينة يانج تشاو وحدها مبلغ خمسمائة ألف دولار وهكذا دواليك بالنسبة لمدن أخرى أيضاً .

** Chang Hsi and the Treaty of Nanking p. 13.

البحر لحماية التجارة ينبغي أن تلقى استقبالا حسناً فى أية ميناء من موانئ الصين تصل إليه » . وأضاف الفرنسيون فقرة فى معاهدتهم أدت فى الوقت المناسب إلى هدم كل جهد بذل لإنشاء العلاقات الودية بين بلاد الصين والغرب ، وهى رعاية الدين المسيحى . فبهذا العمل لبست الأمم الأوروبية ثوب دين كانت هى ومبشروها يرغبون فى فرضه على شعب الصين .

وعندئذ شرع التجار الذين طال احتباسهم فى مصانعهم يتنفسون بحرية تامة ، فقد أخذ الحلم الذهبى يتحقق ؛ إذ صارت لهم الآن حرية التجارة فى الموانى الكبرى بجنوب الصين . وكانت لإنجلترة وأمريكا وفرنسا مستقرات بمدينة شنغهاى بوصفها ميناء تجارياً أجنبياً ، لها بلديتها الخاصة ونظم أرضها إلى غير ذلك . وانتقلت البيوت التجارية الكبيرة البريطانية إلى ميناء بدا لهم أنه يزودهم بما لا حد له من أسواق داخل الصين . بيد أن الحلم الذهبى لم يكد يتحقق ، فإن قيمة الصادرات البريطانية إلى الصين فى ١٨٥٠ ، لم يظهر فيها رغم الامتيازات الخاصة التى اختصت بها موانى المعاهدة أية زيادة على قيمتها فى ١٨٤٣ . وكانت الصادرات فى ١٨٥٤ أقل أيضاً . ولا تكف مراسلات بيوت الأعمال بالصين فى ذلك الأوان عن التحدث عن « الكساد » ، وعن « انقطاع حبل الأمل فى مستقبل الأشياء » ، وعن « المركز التعس لأسواقكم الصينية » . وكانت هناك سوق للأفيون ؛ أما ما عداه من السلع فلم تكن له سوق . وقد كتبت شركة چارداين وماثيسون أقوى بيوت الأعمال فى تجارة الصين تقريراً فى يونيو ١٨٥٠ تقول فيه : « قد أبلغناكم فى إخطاراتنا الشهرية الأخيرة عن الانحراف الذى تدل عليه حركة السوق فى تجارة الواردات ، ونحن نؤكد ذلك الآن ، وننصح بإجراء تخفيض جدى فى نسيج القطن والقمصان ، والسفن التى تحمل بضائع أخرى تسبب اكتظاظ السوق بسلع فائضة عن الحاجة لن يمكن التخلص منها لمدة طويلة* » .

فكأن الحلم لم يتحقق بل إنه قد تحول إلى كابوس يجثم على الصدور ، ولم

* هناك دراسة شاملة للتجارة البريطانية بالصين وآثارها السياسية فى كتاب عمال الصين القديمة ووزارة الخارجية « Old China Hands and the Foreign Office » تأليف ناثان بلكوئتس . مطبعة التاج الملكى . نيويورك ١٩٤٨ وچورج ألن وأنوين لندن .

يستطع تجار الصين فهم تلك الحقيقة ؛ إذ لاح لهم أن من الواضح أنه إذا كانت سوق ثلاثمائة مليون من الصينيين لا تقدر جودة بضائع لانكشير ، فلا بد لذلك من سبب خفى . وكانت الأسباب التى نسبوا إليها هذا الإخفاق هى معارضة الموظفين الصينيين ،والعراقيل التى يضعها هؤلاء الموظفون وضعف الممثلين القنصليين البريطانيين. وقد شكا ماثيسون فى الشهادة التى أدلى بها أمام اللجنة البرلمانية المنتقاة للبحث فى العلاقات التجارية مع الصين (١٨٤٧) من أنه « حينما وقع رجل إنجليزى فى صعوبات ومتاعب ببلاد الصين ، عمدت السلطات البريطانية . . . فى جميع الحالات تقريباً إلى الانضمام إلى صف الصينيين ».وكانت الجالية التجارية البريطانية تقترح للأمر دواء بسيطاً لحل ما يجدونه من الصعوبات يتكون من ثلاثة عناصر . أولها : مد التجارة إلى ما يتجاوز موانى المعاهدة،وثانيها : إعطاء القناصل الحق فى استخدام القوة للتعويض عن الأضرار ، وثالثها : الحق فى المعاملات المباشرة مع السلطات الموجودة بالأقاليم بصورة تجبّ سلطة الحكومة المركزية . وأعلنت الغرفة التجارية بمانشستر « أن تجارتنا مع الصين لن تبلغ تمام تطورها حتى يمد حق البيع والشراء إلى ما وراء الموانى المحددة لنا الآن » .

لقد كان عفريت الوهم الباطل يستدرجهم ويغريهم . وهو آنئذ لا يغريهم فى موانى المعاهدة بل فى وادى نهر اليانجتسى . ولم تعوزهم الحجج والذرائع التى تلتمس للقيام بزحف آخر ؛ إذ حدثت اضطرابات عديدة، نشبت فيها حوادث عنف تسببت بصفة عامة من سلوك الأجانب الجامح المتغطرس . وربما جاز لنا أن نقتبس لك هنا مثالا على ذلك ؛ فإن رجلا إنجليزيا اسمه كمبتن شعر بالاستياء من صيحات بائع متجول فى الشارع ، فأخذ مقاليد القانون بيديه ، وطرد البائع ، ودمر بضاعته (٤ يوليو ١٨٤٦) . وبعد ذلك بقليل ضرب أحد أصدقاء كمبتن بائعاً آخر فى الشارع لنفس السبب، وكانت النتيجة بطبيعة الحال هى حدوث شغب . وحمت السلطات الصينية الأجانب ، ولكن النتيجة كانت عجيبة، فبينما لم ينزل أى عقاب بكمبتن ولا تشرش اللذين اعتديا على البائعين الصينيين، فإن السلطات البريطانية دعت الإدارة المحلية إلى معاقبة من أحدثوا الفتنة ، ومن ثم تقرر أن تقف عند كانتون سفينة حربية لحماية التجار، ولكى يستطيعوا — ما فى ذلك ريب — أن يركلوا الباعة بأرجلهم ويضربوهم بعصيهم، مع الإفلات من كل قصاص .

ولو درسنا مراسلات ذلك الزمان لتجلت لنا بوضوح حقيقتان، أولاهما: تلهف الحكومة الصينية على تنفيذ شروط المعاهدة، وعلى تجنب المتاعب إن أمكن ، وثانيتهما كبرياء التجار الأجانب وغطرستهم ، وقد كانوا كما تنطق بذلك أقوال المستر إنجليس في المحكمة : « لا يعيرون أي التفات لأي قانون ببلاد الصين » ، وكان التجار يرغبون في بسط امتيازاتهم وسلطتهم؛ باستنتاجهم بالتخريج تأويلات للفقرات التي تؤكد حقوق الأجانب بالصين . وكانت النتيجة التي جنوها من ذلك مزدوجة أيضاً ، كرهاً حاداً مضاعفا للأجانب من جانب الصينيين، وتواصلا في ضعف سلطة الحكومة كلما لوحت لها البحرية البريطانية بقبضتها الحديدية . وقد اضطرت السلطات المحلية أن تذعن، حتى لأبعد الطلبات عن المعقول مناقضة بذلك رأياً عاماً أشد ما يكون عزماً وتصميماً .

وقد تجلى للعيان أن معاهدة نانكنج لم تؤد إلا إلى قلقلة وضع الأمور، وأن الموقف لم يُثبت كما كان مأمولا . وكانت السلطات البريطانية بوجه خاص واقعة تحت ضغط لا ينقطع يدعوها أن تعيد فتح أسباب النزاع وتحدث بالقوة تسوية نهائية ، وفتح ممثلون لبريطانيا وفرنسا وأمريكا باب المفاوضات لتنقيح المعاهدة في ١٨٥٤ . وكان مقرراً أن توجه تلك المفاوضات إلى الوصول إلى أهداف رئيسية أربعة : حرية الدخول إلى جميع أجزاء الإمبراطورية ، حرية الملاحة في نهر يانجتسي ، إباحة قانونية لتجارتي الأفيون والخنازير (وهو اسم كانوا يطلقونه على العمال الصينيين) ، وأخيراً إنشاء علاقات دبلوماسية مباشرة في بيكين ، وكان معروفاً لدى المبعوثين أن الصينيين لا بد أن يقاوموا تلك الأهداف التي كان اثنان منها مما لا يسع أية دولة أن تقبله ، وهما حرية الملاحة في اليانجتسي، وإباحة تجارتي الأفيون والخنازير (العمال) قانوناً ، إلا بعد أن تصاب بهزيمة ساحقة لا بد أن يقاومها الصينيون .

ولم يجد الأجانب صعوبة في خلق معاذير ينتحلونها للحرب ؛ فإن سفينة اسمها «السهم» يملكها صيني اسمه سسوآه تشنج، ولكنها تدعى أنها مسجلة عند البريطانيين (وإن انقضى أجل شهادة تسجيلها في الواقع قبل ذلك بحين) ، وصلت إلى كانتون تحمل على ظهرها قرصاناً سيء السمعه اسمه لى منج تاى ، وكان قرصاناً قبيح

السيرة له ضلع فى كثير من حوادث القرصنة . فأمر يه منج تشن نائب الملك فى كوان تنج، والمندوب السامى بها باعتلاء السفينة، واعتقال الأشخاص المطلوبين . ووجدت السلطات البريطانية فى هذا العمل الذريعة التى كانت تبحث عنها ، وطالبت بتقديم اعتذار عن الحادث وإزالة آثار ما وقع ، فلم يسع نائب الملك إلا رفض ذلك لشعوره بأنه تصرف فى حدود حقوقه . وعندئذ دخل البريطانيون فى مرحلة مدبرة من اجراءات القهر ، ولكن نائب الملك كان رجلا قوى العزم، فأبى أن يتأثر بخوف أو إرهاب . ولو أنه قبل ووافق لالتمس له البريطانيون عذراً آخر ، وذلك لأنهم قرروا أن يعدلوا المعاهدة، ولم يكن فى الامكان تنفيذ ذلك إلا بالقوة .

فلئن كان العذر الذى انتحل للحرب الإنجليزية الصينية الأولى هو الأفيون ، فقد كان عذرهم بشبوب الحرب الثانية هو الحماية التى بسطتها السلطات البريطانية على النشاط غير القانونى لبعض الصينيين الذين وضعهم البريطانيون تحت جناحهم. ولم يكن سبيل الحرب الثانية مختلفاً كثيراً عن سبيل الأولى . وكان الفرنسيون الذين تلقوا من جديد فى ظل نابليون الثالث درساً فى مزايا المجد تواقين هم أيضاً إلى الحصول على نصيب من مغانم الشرق ، فانضموا عندئذ إلى الحرب بحجة أن قسيساً فرنسياً قد قتل .

وهكذا أصبحت الحرب حرباً إنجليزية فرنسية ، ومع أن الأمريكيين لم يشتركوا فى ذلك النزاع ، إلا أن حكومة الولايات المتحدة أظهرت أيضاً أنها تعطف عطفاً تاماً على الأهداف التى يهدف إليها الشريكان الإنجليزى والفرنسى . فلما أن شبت الحرب بالهند فى ذلك الأوان (١٨٥٧ — ١٨٥٨) لم يعد من المستطاع أن تسير العمليات الحربية سيراً فعالا . ومع ذلك فإنهم استولوا على كانتون فى ١٨٥٧ ، حيث اعتقل نائب الملك يه ونقل إلى الهند . وعندئذ طالب ممثلوا الدول بفتح باب المفاوضات المباشرة مع بيكين . فإن رفضت بيكين ، فإن البحريتين تستوليان على قلاع تاكو التى تحمى تيان تسن . وعرض عليهم نائب الملك فى تيان تسن التفاوض ، ولكن ذلك لم يرض الحلفاء . فقد عقدوا العزم على هدم ما تدعيه الصين لنفسها من تعال ورفعة هدماً نهائياً لا يتكرر ، وأن يتفاوضوا مع مفوضين فوق العادة من قبل الإمبراطور وأن يوقعوا المعاهدة فى عاصمة الإمبراطورية . ورفض الإمبراطور أن يدخل

المبعوثين الأجانب إلى بيكين . وعندئذ احتل أمراء البحر قلاع تاكو ، ولم تبد القوات التي تحمى القلاع أية مقاومة . فلما رأى البلاط ألا أمل يرجى من المقاومة وافق على التفاوض وعين مندوبين إمبراطوريين فوق العادة .

وبطبيعة الحال أعطت معاهدة تيان تسن للأمم الغربية ما كانوا يصبون إليه ويحاربون من أجله مدة السنوات العشرين التي سبقتها ، وهي الحق في الملاحة في نهر اليانجتسي ، وإضافة إحدى عشرة ميناء لينزل بها الأجانب ويتجروا بما في ذلك موانى نهر اليانجتسي الهامة حتى هانكاو ، وخروج الأوروبيين من اختصاص القضاء الصيني ومنح الحرية للمبشرين المسيحيين ، ومنح فرنسا بالذات حق حماية المارقين من دينهم إلى الدين المسيحي . وفضلا عن ذلك قضت المعاهدة بأن يكون للدول الأوروبية الحق في بعث المبعوثين السياسيين المقيمين . على أن البريطانيين كانوا مصممين على تحقير الصين أكثر من ذلك . فإن إيلجن ، وهو أول وزير عين هناك ، تلقى تعليمات بأن يأخذ معه «قوة بحرية كافية » إلى تاكو وهو في طريقه إلى بيكين ، لتبادل التصديق على المعاهدة : وقد أعطيت التعليمات بألا يصر فحسب على أن يستقبل الاستقبال اللائق في بيكين وحدها ، بل وفي تاكو وتيان تسن أيضاً . وقد أتم الروسيون والأمريكيون تبادل التصديق على المعاهدة ، ولكن البريطانيين أصروا على مهاجمة حصون تاكو بحجة أن سفينتهم الحربية لم يسمح لها بدخول النهر . وكان الفرنسيون في عهد نابليون الثالث حريصين على إظهار صداقتهم للبريطانيين بالانضمام إليهم في كل ما يقترفونه من أعمال العدوان ، ومن ثم فتح الحليفان الفرنسي والبريطاني باب الأعمال العدائية للمرة الثانية . ولكن الهجوم على تاكو باء بالفشل ، وإن استولى الحلفاء في العام التالي على الحصون واحتلوا تيان تسن . ثم بدأت محاولات لإعادة فتح باب المفاوضات ، ولكن الحليفين البريطاني والفرنسي كانا غليظين عنيدين ، فأصرا على التقدم إلى تنج تشو بقوة عسكرية ضخمة . ونتيجة لسوء الفهم أو لسوء الظن أولهما كليهما ؛ إذ كان سوء الظن متبادلا بين الطرفين ؛ كما أن كانتون لم يجل عنها البريطانيون أسر الصينيون ثلاثة من الموظفين ذهبوا إليهم رافعين العلم الأبيض . وعندئذ قرر الحلفاء أن يشقوا طريقهم إلى بيكين قتالا ، حتى إذا

بلغوا تسنج تشو فى أرباضها ، فتحت أبواب المفاوضات من جديد على يد الأمير كانج ، الأخ الأصغر للإمبراطور ، وهو الذى كتبت الأقدار له أن يصبح أكبر رجال السياسة عند المانشو أثناء الفترة الحرجة التى عقبت ذلك . ولما كانت المفاوضات التمهيدية فشلت ، تقدمت الجيوش المتحالفة حتى القصر الصيفى ، وهو البيت الجميل القائم على البحيرة والذى بناه تشين لنج . وهناك أعاد جند الحلفاء ورؤساؤهم أعمال التخريب التى لاحظنا حدوثها فى الباجودا الخزفية بنانكنج . فإن القصر الذى يقول عنه القائد الفرنسى مونتوبان : «إنه كان على صورة لا يستطيع أى شيء فى أوروبا أن يعطينا أدنى فكرة عن مثل ذلك الترف البالغ » ، قد نهبه الضباط نهباً منظماً وتاماً .

وليت اللورد إيلجن اكتفى بذلك ، بل إنه عمد بعد دخول بيكين إلى إصدار الأمر بإحراق القصر الصيفى الذى وجد الفاتحون أنفسهم أنه من « العسير عليهم وصف ما به من ألوان الأبهة والبذخ » . وقد تصور إيلجن بجهله أن هذا العمل سيؤثر تأثيراً قوياً فى أولئك الشرقيين ، ويغادر فى أنفس الصينيين خوفاً دائماً . ذلك أن الأوروبيين راحوا بعملية غريبة من الاستدلال العجيب ، يقنعون أنفسهم طوال مدة علاقتهم مع الآسيويين بأن الأعمال الوحشية والتجرد من الإنسانية سيزيدانهم هيبة * فى أعين الشعوب الآسيوية .

على أن ذلك الحادث خلق بالفعل أثراً دائماً لا يزول قوامه الحقد المتأجج المختلط بالاحتقار الصامت لخلق البرابرة . ولم ينس الناس قط إحراق القصر الصيفى ، كما أن كاتب هذه السطور قد أبلغه موظف كبير فى حكومة الشعب المركزية فى ١٩٥١ أن الحساب لا يزال مفتوحاً فى انتظار تسويته . ولقد كان آل إيلجن غير موفقين فى تصورهم للتاريخ — سواء أكان ذلك من حيث تماثيل الرخام اليونانية ** أم القصور الصينية .

---

* وهناك مثال حديث على ذلك ، هو اقتراح قدمه ممثلون أمريكيون فى مؤتمر عقد فى ١٩٤٣ ، وكان كاتب هذه السطور عضواً فيه أيضاً ، وينص على المطالبة بهدم القصر الإمبراطورى فى اليابان كعمل رمزى . ولقى الاقتراح تأييداً من لفيف كبير من الأعضاء ، ولم يسقطه إلا معارضة عضو فى البرلمان البريطانى هو الكابتن جامانز وبضعة نفر آخرين أقنعوا المؤتمر بالتخلى عنه .

** فى هذا إشارة إلى ما فعله إيرل إيلجن فى ١٨٠١ من نقل مجموعة من التماثيل اليونانية القديمة من البانثيون بأثينا إلى إنجلترة ، ثم اشترتها الدولة فى ١١١٦ . وهى الآن بالمتحف البريطانى . (المترجم)

وبمقتضى اتفاقية بيكين التى وضعت حداً لهذه الأحداث غير المشرفة ، أرغم الإمبراطور ليعبر عن «عميق أسفه» لخرق العلاقات الودية . وسمح للدول الأجنبية بأن تؤسس وكالاتها فى بيكين ، وفرضت على الصين تعويضات أعظم ، وأضيفت تيان تسن إلى قائمة موانى المعاهدات ، كما أن بريطانيا عادت فحصلت للمرة الثانية على شيء لنفسها . إذ حملت الصين على التنازل الدائم عن كولون للتاج البريطانى ، كما أن فرنسا أضافت سراً ، وبدون علم الصينيين ، فقرة إلى معاهدتها تنص على أن يباح للمبشرين الفرنسيين فى أية مقاطعة من المقاطعات أن يستأجروا الأراضى أو يشتروها وأن يبنوا الدور ، وذلك أملا فى أن تستطيع بفضل ذلك النص أن تبسط سيادتها الروحية على امبراطورية السماء .

وقد فتحت معاهدتا تيانتسن واتفاقية بيكين فصلا جديداً فى العلاقات الأوروبية الصينية ، أما افتتاح ذلك الفصل بخرق جسيم للثقة الدولية وبعمل تخريبى لا نظير له فى التاريخ وتحقير للإمبراطور لا ضرورة له ، فشىء كانت له أشأم العواقب وأوخمها فى المستقبل . وقد ظلت الأمم الأوروبية فى كل العصور مستمسكة بربيتها من العقيدة الصينية ، فظلت على الدوام تقيم علاقاتها بها على فرض أن الأخلاق الدولية لا يجوز أن تطبق على علاقاتها مع الصين ، وأن الأمم الأوروبية ينبغى أن تعمل معاً من الناحية الديبلوماسية كهيئة واحدة فى المسائل التى تؤثر فى مصالحها *. أما الصينيون فلم يستطيعوا البتة أن ينسوا أو يعفوا عن البربرية الغشوم التى تعد تدمير أثر قومى جميل عملا يؤكد لفاعله الهيبة السياسية ؟ !

---

* وظلت هذه الحال مستمرة حتى ١٨٩٥ .

ملحوظة عن المراجع فى القسم الثانى

إن المؤلفات التى تبحث هذه المدة من التاريخ الصينى كثيرة جداً . وهناك قائمة مراجع شاملة تتضمن المؤلفات الصينية المتصلة بالحرب الإنجليزية الصينية الأولى نشرها فنج تيان تشاؤ فى « Yenching Journal of Social Studies » (اكتوبر ١٩٤٠) .

وهناك لفوئى جيه تشى « المذكرات اليومية ، لتشانج هسى » ، وهو أحد الموظفين الذين كانت لهم علاقة بمفاوضات نانكين (١٨٤٢) ، وقد ترجمها ونشرها وعلق عليها سسويوتنج بجامعة شيكاغو ١٩٤٤ .

وهناك فى الإنجليزية « Chinese Repository » مج ٩ — ١٢ وهى تحتوى كثيراً من البيانات المعاصرة والوثائق المشوقة .

وسيجد القارئ منفعة فى الكتب الوصفية التالية :

برنارد (وليم دالاس) « Narrative of Voyages » فى مجلدين ، لندن ١٨٤٤ .

چون فرانسيس : « China During the War and Since the Peace » فى مجلدين ، لندن ١٨٥٢ ، وهو يعتمد على الوثائق الصينية .

ستانلى لين بول : « Life of Sir Harry Parkes »

جديون ناى : « Peking the Goal. » كانتون ١٨٧٣ .

وحياة لن تسى هسو هى موضوع دراسة عقدها جديون تشن ، بيكين ١٩٣٤ والسجلات البريطانية تعالج فى الكتب التالية :

و . ك . كوستن « Great Britain and China » ، ١٨٣٣ — ١٨٦٠ ، اكسفورد ١٩٣٧ .

ك . ح . ك . فير بانك «Chinese Diplomacy and the Treaty of Nanking» ، ١٨٤٢ « Journal of Modern History » مج ١٢ رقم ١ .

ك . ح . ك . فير بانك « The Manchu Appeasement Policy of 1843 » J. Am. Or. Soc. مج ٥٩ رقم ٤ ، ١٩٣٧ ص ص ٤٦٩ — ٤٨٤ .

كيوينج تشايا : «A Critical Study of the First Anglo-Chinese War»

مع المستندات ، شنغهاى ١٩٣٥ .

ومسألة الأفيون من جميع نواحيها تعالج فى المراجع التالية .

داڤيد إدوارد أوين : « British Opium Policy in China and Japan » نيوهاڤن Conn ١٩٣٤ ؛ ه. ب. مورس : « The Trade and Administration of China » ،

موريس كولليس : « Foreign Mud » (فابروفابر) لندن ١٩٤٥

أما عن الكتب المتعلقة بالمدة بين ١٨٤٢ — ١٨٦٠ ، فانظر بوجه خاص :

ه. كورديه « L'expédition de Chine de » ١٨٥٧ — ١٨٥٨ .

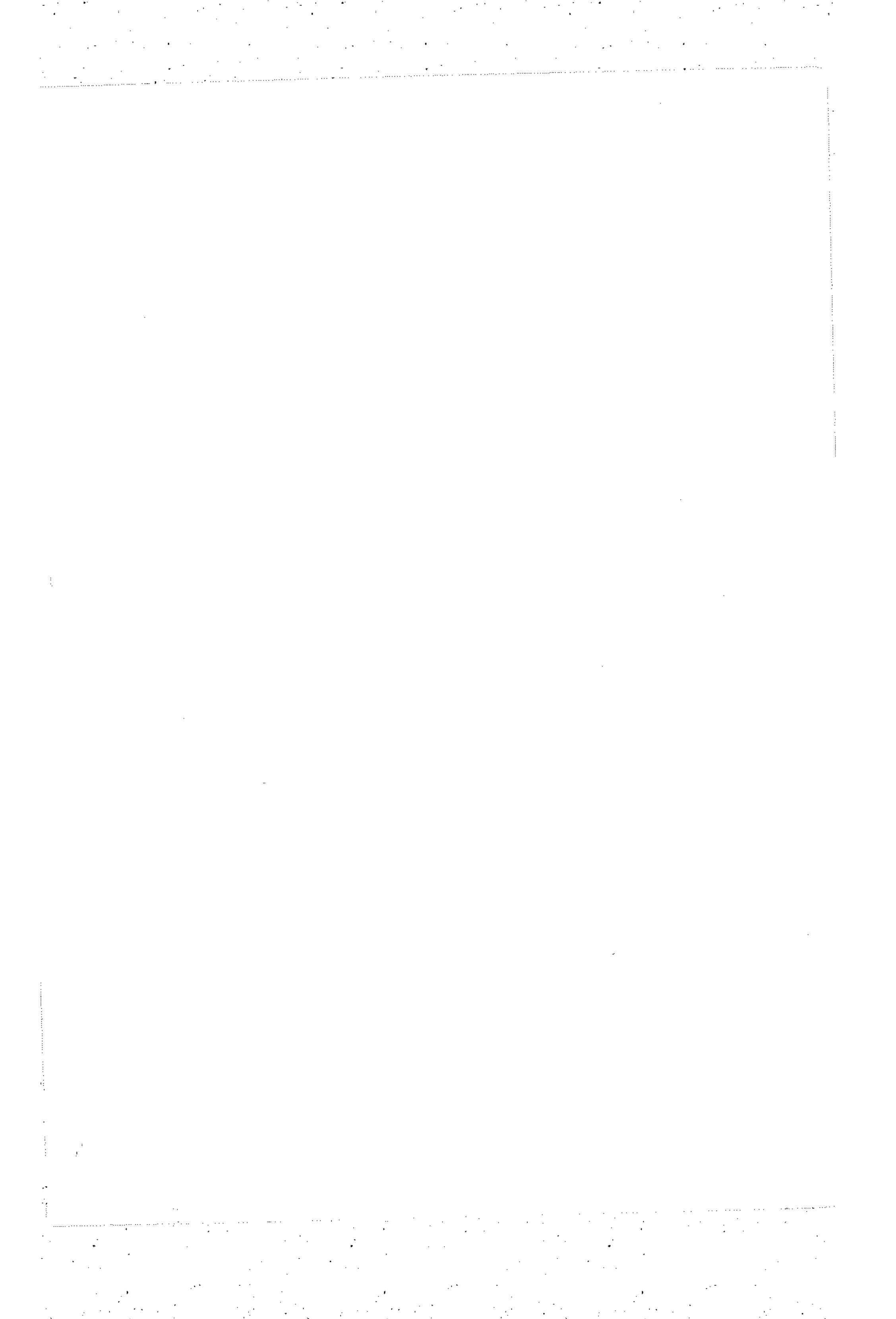
السير چ. ف . داڤيز : « China » لندن ١٨٥٧ ؛

« China During the War and Since the Peace » لندن ١٨٥٢ .

ك. س. ليڤنورث : « The Arrow War with Chinese » لندن ١٩٠١ .

ل. أوليفانت « Lord Elgin's Mission » ١٨٥٧ ، ١٨٥٨ ، ١٨٥٩ .

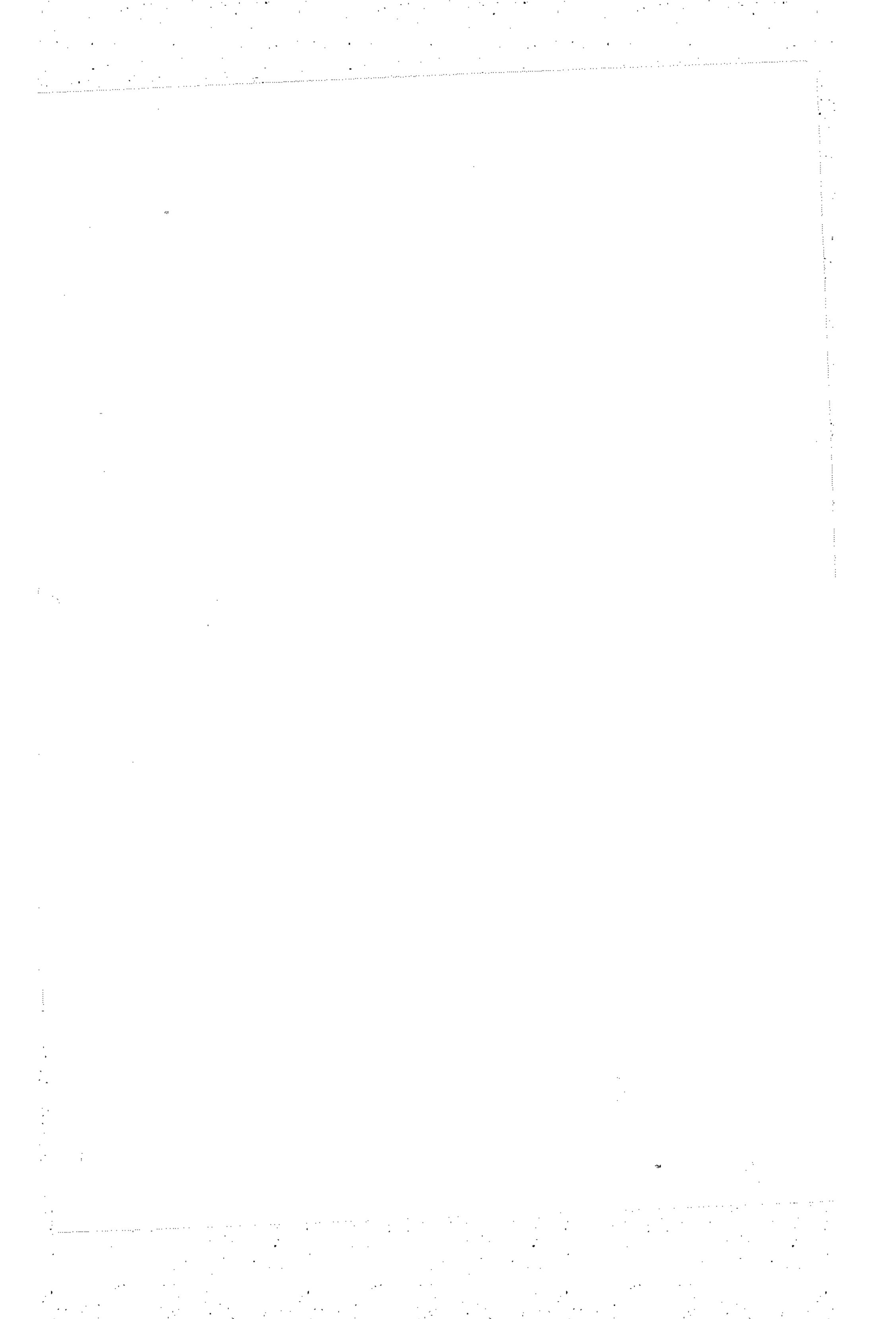
أوراق برلمانية : « China » ١٨٥٩ .



القسم الثالث

عصر الإمبراطوريات

١٨٥٨ – ١٩١٤



الفصل الأول

الهند

إن آخر دولة ذات سيادة بالهند وهى مملكة البنجاب ، تم فتحها وضمها فى ١٨٤٦ — ١٨٤٨ ، وبذلك الفتح امتد سلطان البريطانيين من كشمير إلى رأس قومورين ومن جبال هند وكوش إلى أسام ، ومع أن ممالك الهند وولاياتها قد ضمت كما ترى ، أو ألزمت التبعية ، فإن سكان الهند بذلوا جهداً أخيراً قام على معيار قومى لاسترداد حريتهم المسلوبة . وكانت الثورة الكبيرة التى شبت فى ١٨٥٧ — ١٨٥٨ محاولة يائسة تولت زعامتها الطبقات الحاكمة السابقة ، التى وجدت نفسها مجردةمن أملاكهامحرومة من كل ماكان لها من سلطان. وتم إخماد الثورة بعد قتال دام خمسة عشر شهراً . وكانت الزفرة الأخيرة فى حياة نظام بال يلفظ آخر أنفاسه ، ومع أنها كانت تستثير ولاء الماضى وتستدر حماسة الجماهير فى مناطق مترامية من الأرض ، إلا أنها لم توهب المثالية ، ولا التنظيم ولا القوة اللازمة لبناء دولة كان من الممكن أن تتسلم زمام الأمور من البريطانيين فضلا عن المحافظة عليها . ولم يظهر أى تهديد أو تحد خطير للحكم البريطانى منذ١٨٥٨ يوم أخمدت الثورة ، ويوم نفى عن البلاد إلى رانجون آخر الأباطرة المغول وهو رئيسها بالاسم ، حتى تقررت اصلاحات لجنة مونتاجو وتشامسفورد ١٩١٩ . وانقضت تسعون عاماً على تلك الفترة أى حتى عام ١٩٤٧ والعلم البريطانى يرفرف على القلعة المغولية رمزاً لسلطان بريطانيا على البلاد .

وغنى عن البيان أن تاريخ الهند ، أثناء هذه الفترة من سيطرة الإمبراطورية ، له أهمية خاصة من حيث التحول الخفى الذى مر بالحكم البريطانى نتيجة للعوامل الاقتصادية والسياسية والجغرافية . بدأت الهند البريطانية تلك المرحلة من التاريخ وهى فى مركز « ممتلكة » ومستعمرة ، ولم تلبث أن تطورت على مراحل بطيئة إلى « إمبراطورية » ، كانت دون ريب خاضعة لسلطات لندن ، ولكنها تطالب بالاستماع إلى صوتها كحق من حقوقها ، كما أنها غالباً ما كانت تضطر الحكومة

البريطانية أن تتبع سياسات لم تكن تقرها ولا توافق عليها كل الموافقة . وما عتمت ضخامة حجم الهند وأهميتها ومواردها ومركزها الجغرافى أن أخذت فى إبراز ذاتها رويدا رويدا ، وسرعان ما أصبحت مصالح الإمبراطورية البريطانية فى الهند عاملا عظيماً فى تشكيل سياسات الإمبراطورية . وكما سنبين ذلك فيما بعد ، كان كثير من اتجاهات السياسة البريطانية ببلاد الصين وفارس والأفغان تحدده اعتبارات أمن الهند وسلامتها أو ما كانت بريطانيا تعدّه آنذاك مصلحة الهند . على أن هذا التحول الذى لم تكن له بشعب الهند بطبيعة الحال إلا أوهن الصلات أثناء فترة الإمبراطورية ، فترة التوسع الاستعمارى ، قد أصبح فى الفترة التالية يوم شرعت القومية الهندية فى إبراز ذاتها حقيقة لها دلالتها الهامة فى تشكيل آسيا الجديدة .

وفى أثناء الشطر الأول من تلك المدة (١٨٥٨ — ١٩١٤) كانت الهند اسماً وفعلا ممتلكة بريطانية ، أى قطراً « يملكه » الشعب البريطانى ، ويحكم لمصلحة ذلك الشعب قبل كل شىء . وقد وضعت السلطة الحاكمة للهند بعد ١٨٥٨ فى يد البرلمان البريطانى ، الذى كان يشرف على حكومة الهند ويديرها ويهيمن عليها ، بوساطة وزير مسئول . ولقد كانت حكومة الهند حتى ١٩٤٦ عميلا للوزارة البريطانية وأداة فى يدها بكل ما للكلمة من معان ، وإن قبلت الحكومة البريطانية بعد ١٩١٩ حدوداً معينة على سلطتها فيما يتعلق بالمسائل المالية . فالقرارات العظيمة الأهمية لم يكن ينبغى فقط أن يرجع فيها إلى لندن ، بل كانت تتخذ فعلا هناك ، أو كان عليهم على الأقل أن يحصلوا على موافقة الوزير المختص . وكانت عقود تعيين كبار الموظفين بالهند من اختصاص الوزير ، وكان لموظفى الخدمة المعينين بعقود الحق فى تقديم الشكوى إلى وزير الهند حتى فى المسائل المتعلقة بأحوال خدمتهم . وكان التعيين فى منصب نائب الملك يسبغ على صاحبه مرتباً ضخماً وشرفاً سامياً ، بيد أن سلطان صاحب تلك الوظيفة كان مقيداً تقييداً دقيقاً ، كما أنه لم يكن بالنسبة لوزير الهند إلا مرؤوساً صوته له وزنه دون أدنى ريب ، ولكن لا يمكن اعتباره قاطعاً بأية حال . فكأن حكومة الهند لم تكن إلا كما وصفها اللورد كيرزن ، وهو نفسه كان نائب ملك ذائع الصيت ، حيث قال إنها — لم تكن إلا فرعاً من فروع

الحكومة المركزية خاضعاً لها .

ومن دون حكومة الهند المركزية كانت تقوم الإدارات الإقليمية ،ولها بالمثل سلطات تفوضها إليها الرياسة المركزية . وكانت إدارة الهند فى يد موظفين مدنيين وهى هيئة منظمة المنادرين وتجمع من إنجلترة عن طريق امتحانات مسابقة حرة . وكان منهج الدراسة اللازمة للامتحان منظماً بطريقة تضفى أهمية وهيبة على المتقدمين إليه من جامعتى أوكسفورد وكمبردج العظيمتين ، لكثرة من يتقدم اليهما من طلاب المدارس الثانوية ، وبذلك يضمنون كلا من تكوين الموظفين بشكل طبقة ،وبقاء التقليد الإمبراطورى . ولم يكن هناك تقريباً إبان الربع القرن الأول بعد اضطلاع التاج (١٨٥٨) بالحكم المباشر بالهند أى فرد هندى فى هيئة الموظفين المدنية . ومع أن عدداً من الهنود أخذوا يصلون منذ نهاية القرن كل عام إلى تلك الخدمة ، فإن نسبتهم لم تكن بالكبيرة إلا بعد ١٩١٩ ، أى إبان مدة السيادة الاستعمارية التوسعية بأكملها . ولم تكن هيئة الموظفين المدنية تقوم بالإدارة فقط : أعنى أنها لم تكن تقتصر على جمع الإيرادات ، وإقامة صرح القانون والنظام ، وتكوين طبقة من الحكام تسيطر كجماعة على القطر بأكمله ، بل إنها كانت أيضاً تسهم فى الأعمال القضائية العليا ، حيث كان يؤخذ من بين صفوفها (أى هيئة الخدمة المدنية) نسبة معينة من قضاة المحاكم الإقليمية العليا .

ومن دون هؤلاء الموظفين الذين هم « جميعاً من البيض » كانت هناك هيئة ضخمة من الموظفين الهنود تُعين على أساس إقليمى ، ويهيمن عليها ويشرف عليها بغاية الدقة أعضاء الهيئة الأولى . وعن طريق هذه الهيئة المرءوسة أو الإقليمية من الموظفين ، وهى هيئة هندية من أولها لآخرها ، كانت سلطة الحكومة ويدها تنفذ إلى كتلة الجماهير . على أن الهيمنة والضبط ظل إلى أمد طويل جداً فى يد الموظفين الأوروبيين دون غيرهم . واتبعت طريقة مماثلة لهذه فى رجال الشرطة ، الذين كان رؤساؤهم من ضباط وصف ضباط فى الخدمة العامة للهند كافة يؤخذون من إنجلترة ، على حين كانت تقوم بالأعمال الأقل أهمية هيئة إقليمية للشرطة تُجمع محلياً من البلاد .

وكان الدفاع عن الهند تحت إمرة قائد عام يعين من إنجلترة مباشرة ، وكانت

القوات تتكون من جند من الهنود «Sepoy» الذين لم يكن يتولى رتب الضباط بينهم إلا الأوربيون فقط ، وكانت هذه القوة تعزز بحصة معينة من الجند البريطانيين يرابطون بالهند . فكأن الجيش الهندى العظيم الذى كان الوسيلة العظيمة لسلطة بريطانيا فى الشرق، والذى ذاع صيت بسالته فى القتال فى أرجاء قارات ثلاث ، كان هندياً فى جنده ورجاله ، ولكنه كان أثناء هذه الفترة التى نتحدث عنها تحت قيادة ضباط بريطانيين روحاً ولحماً ودماً . وبعد ما مر بالبريطانيين من خبرة فى الفتنة الكبرى ، اتخذت الحكومة البريطانية كل احتياط للحيلولة دون حدوث أى مساس بمشاعر الجند فى المسائل الدينية ، وهذا من أعظم الأسباب التى دعت الحكومة الهندية إلى الامتناع عن تقديم أى تشجيع رسمى لدعاية المبشرين . وفضلا عن ذلك زودتهم برجال الدين ، لكل فريق منهم فى الجيش ما بين هندوك وسيخ ومسلمين ، وهو أمر له أهميته العظمى فى وقاية الهند من العدوان التنصيرى الذى كانت تقوم به هيئات التبشير الغربية .

وكان لسياسة الاعتماد على جيش من الجند الهنود نتائج سياسية أخرى . إذ أصبح من أهم ما يشغل السلطات البريطانية أن تتحقق من أن من تجند فى جيشها من الرجال لا تنتقل إليهم عدوى الأفكار السياسية . لذلك صار من الضرورى قصر التجنيد على جماعات محدودة كل التحديد، يمكن توجيه تكريم خاص إليهم؛ وتملقهم وإرضاء مزاجهم على الدوام ، وإبقاؤهم فى حالة رضا . ومن هنا تطورت نظرية الأجناس الحربية وغير الحربية، وهى نظرية غاب عنها أن الجند الهنود، الذين قاتلوا قبل ذلك أعداء البريطانيين وفتحوا لهم البلاد، كانوا من طبقات أعلن فيما بعد أنها غير حربية . وفضلا عن ذلك ، فإن الماراثا الذين أظهروا قدرة عسكرية وبسالة بارزة لم يعودوا يعتبرون قوماً حربيين ، وذلك لما لهم من إحساس قوى بالوطنية، كما لم يكن فى الإمكان عزلهم عن بقية المجتمع . وبهذه الطريقة أصبح تجنيد الجند قاصراً بصفة خاصة على السيخ والراچپوت والجات ومسلمى الپنجاب والباالوتشى والدوجرا وغيرهم من المجتمعات المحظوظة . ولم تكن سياسة « فرق تسد » تمارس فى أى مكان أوضح مما كانت تمارس فى الامتيازات التى كانت تمنح لتلك الطبقات التى دفعت طويلا إلى الاعتقاد بأنها المحظوة بوجه خاص لدى الإمبراطورية.

لم تحصل بريطانيا فتحاً إلا على ثلاثة أخماس أرض الهند، وكان خمسا المساحة بأكملها لا يزال تحت حكم حكام من الهنود ، كان بعضهم مثل مهاجات ولايات راجبوت الكبرى ومهراچات ميسور وتراڤانكور وكوتشين يمثلون البقية الباقية من الأسر الحاكمة القديمة ، وذلك على حين أن الولايات الأهم مثل حيدر أباد وولايات الماراثا وكشمير ، لم تكن إلا أقاليم « قادة الحرب » الذين عقدوا الصلح مع شركة الهند الشرقية أيام نمو قوتها. ولم يلبث الحكام البريطانيون أن قاموا رويداً رويداً بعد أن رسخ قدم سلطتهم فى المناطق الواقعة تحت حكمهم المباشر ، بوضع سياسة جديدة ترمى إلى إضعاف « استقلال » هؤلاء الحكام بالتدخل فى شئونهم تدخلا منتظماً . ففى ١٨٧٥ خلع مهراچا بارودا عن عرشه وهو من أقوى الحكام الهنود . ولم تلبث هذه الولايات أن أُخضعت الواحدة تلو الأخرى لنفس النظام ، وذلك إما بمنح « المندوبين » أو الموظفين الدبلوماسيين بالبلاط سلطات أوسع ، أو تعيين مديرين مباشرين للإقليم ، بل حتى التضييق على سلطة الحاكم أحياناً * . وهو نظام من الحكم غير المباشر ما عتمت السلطات الاستعمارية فى مواضع أخرى أن حذت حذو البريطانيين فيه فى الوقت المناسب ، وذلك مثل فرنسا بالهند الصينية ، واليابان فى مانشوكو الخ . وبهذه الطريقة أمست كل من الهند البريطانية والهند « الهندية » فى الواقع وحدة مفردة سياسية هائلة القوة تحت هيمنة سلطات لندن .

وفى إبان تلك المدة كان التصرف فى الشئون الاقتصادية الهندية بأيد بريطانية قحة . فكانت الهند سوقاً احتكارية لبريطانيا أثناء فترة توسعها فى حياتها الصناعية، أثناء النصف الثانى من القرن التاسع عشر . ذلك بأن صناعة القطن بلانكشير التى أصبحت نتيجة للانقلاب الصناعى أكبر مورد للبضائع القطنية فى العالم ، قد بدا للناس أن قد فتحت أمامها أبواب سوق لا حد لها ببلاد الهند، حتى يوم نهضت صناعة المنسوجات الهندية ، وحتى فى ذلك الحين نفسه تمكنت المصالح البريطانية الراسخة القدم من أن تفرض على الصناعة المحلية عن طريق ما تأمر به وزارة الخارجية البريطانية فى هوايت هول ، ضريبة موازنة لتحرمها من أثر وقاية تعريفة حماية جمركية صغيرة . ووكل إنشاء السكك الحديدية بالهند إلى الشركات البريطانية

* انظر للمؤلف كتاب : « Indian States and the Government of India »

مع ضمانات بالحصول على فائدة لرأس المال . ودخل رأس المال البريطانى لتمويل المزارع الكبرى للشاى والمطاط والبن والنيلج ، ثم أضفيت على مناطق مثل أسام وأجزاء من بيهار ومناطق التلال بجنوب الهند صفة نظام المستعمرات : يمارس فيها الزارعون سلطة محلية، ويسيطرون على سياسة الحكومة نفسها . وكان نظام المزارعين الذى أقيم بتلك الأصقاع يجعل العامل الهندى مجرد ألعوبة فى يد مالك المزرعة الكبيرة يعبث به كيف يشاء . وأدخل تنفيذ عقود العمال تحت طائلة قانون العقوبات . وكانت جرائم القتل التى يرتكبها مديرو المزارع الكبرى لا يقام عليها جزاء، كما أن الجاليات الأوروبية الصغيرة كانت تتولى السلطات وتقوم بتنفيذها داخل تلك المزارع .

وكانت حكومة الهند بعد ١٨٥٨ تشجع المستوطنين الأوروبيين بتلك المناطق ، فإن اللورد كانينج سهل على الأوروبيين اقتناء الأرض بإصداره قانوناً خاصاً يسمى «لائحة الأراضى البور» ، وبمقتضاه تحولت مناطق واسعة من أراضى التلال للأوروبيين على أمل ترغيبهم فى الاستقرار بمناخ أكثر اعتدالا وإنشاء مزارع ذات نطاق كبير . وأدت هذه الطريقة فى أسام ونلجيرس إلى قيام جاليات ضخمة ذات مزارع هائلة، واستقدم زراع نبات النيلج الأوروبيون من جزائر الهند الغربية وأنزلوا فى بيهار . وهناك أسسوا نظاماً شبه إقطاعى لامتلاك الأراضى . ويقول إدوارد تومپسون : « إنهم كانوا عصبة لا تقيم للقانون وزناً ، وكانوا يجمعون فى شخصهم بين أسوأ طباع الزامندارات (أى ملاك الأراضى) فى القرن الثامن عشر وبين عناد المرابين الهنود فى الاكتناز . وكان الذين يزرعون النيلج بأنفسهم قلة ضئيلة جداً ؛ وذلك لأنهم كانوا يحصلون على موادهم الغفل بتقديم الأموال للزراع ، ثم إيقاعهم تحت هيمنتهم التامة بالتدريج »* ويقول التقرير الرسمى للجنة النيلج : « ولا يعنينا كثيراً ما إذا كان الفلاح الهندى يأخذ الدفعة الأولى متكرهاً أو مسروراً ، فإن النتيجة فى الحالين واحدة ؛ إذ أنه لن يصبح بعد ذلك رجلا حراً » . والواقع أن الذى حدث بمناطق المزارع الكبيرة هو أن الزراع الأوروبيين قد أعادوا إلى الوجود حالة تصل إلى درجة العبودية والرق بموافقة الحكومة .

---

* انظر « British Rule in India » تأليف تومبسون و جارت ص ٤٧٤ .

وربما أتاح لنا تقرير لجنة النيلج بالبنغال فضلا عن بعض ما سطر فى تلك المدة ، الحصول على فكرة عن الشقاء الذى وقع فى شركة سكان تلك المناطق بسبب هذا النظام القائم على الاستغلال المجرد من كل رحمة لمصلحة رأس المال البريطانى . وهناك مسرحية بنغالية اسمها « نل داربان » أى مرآة النيلج أحدثت أثراً قوياً ؛ بإلقائها بصيصاً من الضوء على هذه الراوية القاتمة من زوايا أعمال بريطانيا ببلاد الهند ، وكان رد الفعل الذى أحدثته فى الدوائر الرسمية ، من القوة بحيث أن مبشراً أوروبياً هو المستر لونج حكم عليه بالحبس والغرامة عندما ترجمها إلى الإنجليزية ونشرها . وفى خلال تلك المدة بأكملها ، بل فى الواقع حتى قيام الحركة الوطنية بعد الحرب العظمى ، كانت أحوال الناس فى المزارع الكبرى تتجلى فيها أسوأ ظواهر العلاقات الأوروبية بآسيا .

ولم تكن مصالح الاحتكار البريطانى بالهند قائمة فى البداية على المزارع الكبيرة ، بل كانت تقوم على أشغال السفن والبنوك والتأمين ، والتحكم فى التجارة داخل البلاد بواسطة أجهزة التوزيع . ذلك لأن أصحاب رؤوس الأموال من الهنود أدركوا أن فرصة الاستقلال أمامهم ضئيلة . فكيفوا أنفسهم حتى أصبحوا وكلاء لدور الأعمال البريطانية . ولم تكن المصالح البريطانية قد طورت بعد إبان العقود الأولى من الفترة التى ندرسها الآن ، فكرة إنشاء الصناعات ببلاد الهند . فكان الجوت الخام ينقل إلى دندى ، ولم تقدم شركات دندى على فتح مصانعها على ضفاف الهوجلى إلا بعد أن شعرت أنها ستستطيع بفضل الأجور الأرخص ، وعدم وجود أية قوانين لتحسين أحوال العمل والعمال أن تحصل من إقامة الصناعة ببلاد الهند على أرباح أعظم . وكانت صادرات الهند هى المواد الخام ، وظلت الهند طوال القرن التاسع عشر على هذه الشاكلة سوقاً للبضائع البريطانية ، فضلا عن كونها على رأس القائمة فى تزويد الصناعات البريطانية بالمواد الخام .

وكان من أحب الموضوعات إلى الصحفيين والاقتصاديين الهنود فى ذلك الزمان قولهم : إن الهند تزداد فقراً نتيجة لاستنزاف الثروة من البلاد . وصدرت دراسة تفصيلية لذلك الموضوع بعنوان « الفقر والحكم غير البريطانى : (الظالم) * فى الهند » كتبها

* يحب الإنجليز أن يطلقوا كلمتى British rule مرادفتين لكلمتى الحكم العادل . والمؤلف يقصد بكلمة Un-British الحكم الظالم . (المترجم) .

دادابهاى ناوروجى ، وهو من زعماء الحركة الوطنية الهندية ، وقد أصبح عضواً فى البرلمان البريطانى بإنجلترة . وسواء أكانت الحكومة البريطانية قد أدركت أنها تستنزف ثروة الهند أم لم تدرك ، وسواء أفرض على الهند أن تدفع ظلماً دفعات مالية أم لم يفرض ، فليس ثمة شك فى أن رأس المال البريطانى ظل أثناء النصف الثانى من القرن التاسع عشر يستغل موارد الهند دون منافس ، ويستدر مكاسب هائلة ضخمة . وكانت تساعده فى ذلك كله السياسات الاقتصادية التى تقرها السلطات البريطانية بلندن . ولعل ذلك كان أمراً طبيعياً وشيئاً لا يحتاج المرء إلى أن يشكو منه ، على أنه لا بد أن يُذكر كحقيقة حدثت ؛ ربما وجب علينا أن نذكر بإزائها عوامل مضادة أخرى .

وهناك ناحية أخرى تتسم بها السلطات البريطانية فى الهند فى تلك المدة ، هى اعتقاد كل أوروبى بالهند بأن له تفوقاً عنصرياً دائماً لا يقبل التحول . وقد فسر سيتون كار أحد وزراء خارجية الحكومة ذلك الأمر بقوله : « سرى الاقتناع الذى يعتز به كل إنجليزى ببلاد الهند من أعلاهم منصباً إلى أدناهم مرتبة ، ويعتنقه مساعد الزارع الأوروبى فى كوخه (بنجالو) الوضيع والصحفى النازل فى الضوء الساطع ببلدة الرياسة — ومن هؤلاء إلى المندوب السامى الموكل بإحدى الولايات إلى نائب الملك على عرش عظمته — سرى بينهم جميعاً ، ذلك الاقتناع بأنهم ينتمون إلى جنس كتب له الله أن يحكم ويخضع » . * ولو شئنا لاقتبسنا لك أقوالا محققة تعبر عن وجهة النظر هذه صادرة عن أشخاص تولوا أعلى المناصب بالهند ، ولبينا كيف أن هذا الاعتقاد كان شائعاً كل الشيوع أثناء القرن الماضى ، بل لقد ظل شائعاً حتى نشبت الحرب العظمى الأولى . ولعلنا نستطيع أن نقدم إليك اقتباساً آخر يلقى ضوءاً ينير لنا الطريق على اتجاه الجيش . فإن اللورد كتشنر وهو من أبرز من تولوا مركز القائد العام بالهند صرح بقوله : « إن هذا الشعور بالتفوق الفطرى للأوروبى هو الذى أكسبنا الهند . فمهما بلغ شأو الوطنى الهندى من التعليم والذكاء ، ومهما أظهر من ضروب الشجاعة ، فإنى أعتقد أن أية رتبة نخلعها عليه لا يمكن أن تجعله مساوياً للضابط البريطانى » .

لقد كانت هذه النزعة العنصرية الصريحة منتشرة بين جميع طبقات الموظفين

* مقتبس فى تومپسون وجاريت ص ٥٣٦ .

وكانت الصفة المميزة للحكم البريطانى بالشرق إبان القرن التاسع عشر ، وكانت آثارها واسعة الانتشار . فلم يكن هندى فى الجيش بمستطيع أن يحصل على براءة ضابط من الملك . أما فى الوظائف المدنية ، فمع أن الهنود كان مباحاً لهم دخولها عن طريق امتحانات مسابقة عامة ، فإن أحداً منهم لم يكن يعين فى وظيفة فوق مرتبة معينة ، كما أن أبرز رجال الإدارة الهنود فى زمانه وهو ر. س. دت اضطر إلى الاستقالة لأنه لم يرق إلى منصب المندوب (القوميسير) بسبب جنسه . وكانت الحياة الاجتماعية تقوم بطبيعة الحال على أساس الاعتزال ، وكانت هناك قواعد غير مكتوبة تباعد بين الهنود وبين الفنادق والأندية بل بينهم وبين بعض الحدائق العامة . وكانت حياة الهنود رخيصة فى نظرهم . فإن رجلا اسمه رد (Rudd) وكان مساعد مزارع أوروبى اقترف جريمة قتل فاقت كل حد فيما انطوت عليه من وحشية ونذالة ، أصبح بعد الحكم عليه شهيداً عند الأوروبيين ، وواصل الجمهور الأوروبى إحداث الشغب لتخليصه من طائلة العقاب . بل إن اللورد كيرزن رسول التوسع والاستعمار فقد محبته الشعبية لدى الأوروبيين حيناً من الدهر ؛ لأنه أنزل العقوبة بفرقة عسكرية اتهمت بأنها آوت لديها أحد القتلة . والواقع أنه لم يكن ممكناً أثناء تلك الفترة بأكملها ، بل ولمدة قصيرة بعدها ، إقامة قسطاس العدالة فى شئون الجنايات على أحد الأوروبيين ، وقد اضطر أكثر من واحد من نواب الملك إلى مواجهة موجة من المقت العام من مجتمعه الأوروبى لإعلانه آراءه فى ذلك الموضوع .

وكان الاضطراب الذى حدث حول مشروع قانون إلبرت هو الذى جعل كل إنسان يدرك شدة تغلغل هذا الشعور بالتفوق العنصرى فى أنفس البريطانيين ببلاد الشرق . وكان المقصود من القانون رفع حالة العجز التى كانت تحول بين الحكام الهنود وبين محاكمة الأوروبيين . وقد قدمه المشرع العظيم السير كورتنى إيلبرت لوضع القضاة البريطانيين والهنود العاملين فى الخدمة العامة على قدم المساواة . على أن حركة الاضطراب التى نظمها غير الموظفين من الأوربيين ، وعددهم فى ذلك الأوان أقل من ألفين ، كانت شيئاً غير مألوف من حيث إنها كانت موجهة إلى أعلى السلطات بالحكومة البريطانية نفسها . وتشكلت عصبات الدفاع ، وجمعت الأموال ، وأقيمت حملة عنيفة عارمة على نائب الملك نفسه . وكتب بعض الحانقين

من السادة البريطانيين إلى الصحف ينكرون ما للهنود من حق فى الهند ! ! فقد تساءل هؤلاء ماذا يراد بهم وبشئونهم إذا لم تكن الهند بلداً من بلاد الرجل الأبيض ، وإذا قيل إن للهنود حقوقاً فى بلاد الهند ؟ وكانت الفكرة بأكملها تعد إهانة للعنصر البريطانى ، وكتبت النساء الإنجليزيات إلى أرض الوطن تسترعين نظر الشعب إلى ما حدث أيام الفتنة من انتهاك للحرمات ، وتحتججن على التحقير الذى لا يصدقه عقل ، والذى حل بالجنس الأبيض بأجمعه ، ذلك التحقير الذى لا بد أن يحدث لو حاكم القضاة الهنودُ الأوروبيين . وفى إنجلترة ، انزعجت فلورنس نايتنجيل لشدة ما تجلى من مظاهر هذه العنصرية العنيفة ، فأطلعت الملكة ڤيكتوريا بهدوء على ما ينطوى عليه الموقف من الأخطار ، وهدأت ضمير* العاهلة. ولكن الأوروبيين بالهند أدركوا ما وراء الأكمة من مخاطر — لقد كان الأمر يدور حول مبدأ التفوق العنصرى الذى كانت الإمبراطورية ببلاد الهند تقوم عليه . وانتصر الأوروبيون إلى حين ، واضطر نائب الملك إلى الإذعان تحت ضغطهم ، وظلت العنصرية مبدأ رسمياً لمدة أربعين سنة أخرى ، وإن أخذت قوتها فى التناقص .

فإن كان الجنس هو أساس الحكم ، فالنتيجة الطبيعية لذلك هى أن هيبة الجنس ينبغى أن تصان مهما كان الثمن ، ولم يكن بد من استحداث قانون ودستور ومراسم للمحافظة على سلطة الرجل الأبيض . ودخلت السلطات البريطانية فى هذه المسألة دخولا منظماً . ولكن نظرياتهم التى افترضوها كانت مليئة بالمغالطات لسوء الحظ . فإنهم اعتنقوا فكرة واعتز وا بها فى أفئدتهم ؛ كأنما هى خرافة من الخرافات أو تكاد : فكرة تقول بأن « الأهالى » يتأثرون بالأبهة والرسميات ، وأن كرامة الأوروبى وهيبته تحتمان عليه « وإن كان مساعداً لمزارع يسكن كوخاً حقيراً » ، أن يعيش عيش الأبهة الرسمية . وقد نقل باستيد فى كتابه « أصداء كلكتا القديمة » كلمة لمكرابى ، تحدث فيها عن مائة وعشرة من الخدم يقومون على خدمة أسرة مكونة من أربعة أفراد . وإن كتاب « رسائل من مدراس » المجهول المؤلف ليتحدث عن أنه كان لكل حصان رجل وفتاة — فالفتاة تقطع

* انظر كتاب « Florence Nightingale » تأليف سسل ودهام سميث لندن ١٩٥٠ ص

له الحشيش — وأن لكل كلب غلاماً . وقد طفقت أبحث عما إذا كان للقطة خدم ، ولكني وجدت أنه قد سمح لها بأن تخدم نفسها بنفسها» . وقد عقب أوليف دوجلاس عند نهاية هذه المدة أى فى ١٩١٣ بقوله : « يبدو لى أنى أطوف فى كل مكان سائلا لماذا طول يومى وليلى ؟ فلا أجد مجيباً يدلى إلى بجواب مقنع عن أى شىء . فلماذا مثلا نحتاج إلى فرقة من الخدم ونحن إنما نعيش فى نوع من الفنادق ؟ * » وكان المظنون أن هذا النوع من عيش المراسم والأصول ضرورى للمحافظة على كرامة « الصاحب » أى السيد البريطانى .

ووضع عرف محكم عن نوع اللغة التى ينبغى أن تستخدم مع طبقات الأهالى المختلفة ، وأين ينبغى أن يستقبلوا ؟ ودرجات المجاملة أو عدم المجاملة التى ينبغى أن يعاملوا بمقتضاها ؛ ومن ينبغى ألا يُقابل إلا فى الفناء ، ومن يُستقبل بالشرفة ، ومن يُسمح له بالدخول إلى غرفة الاستقبال ؛ ومن ينبغى أن يُقدم له مقعد ليجلس عليه ، ومن لا ينبغى أن يقدم له مقعد . والواقع أن الحق فى الحصول على كرسى رُفع إلى مرتبة من مراتب الشرف التى تمنح شخصياً أو وراثياً لقاء خدمات تقدم للإدارة. وكان الأوروبى يعتقد أن هيبته تصان وترتفع بهذه القواعد والتنظيمات ، وأن الأهالى يتأثرون بظلال قلة المجاملة ودرجاتها التى تقدم إليهم . فإلى أى حد من الحماقة بلغ ذلك الاعتقاد ، وكم كان يؤدى إلى كراهية الأوروبيين والاحتقار لآرائهم ؟ ! ذلك شىء لم يكونوا يعرفونه فى اعتزالهم فى برجهم العاجى .

وثمة خزعبلة أخرى محببة إلى نفوس القوم ، ولها أيضاً أثر فى مذهب « الهيبة والكرامة » ، وهى الاعتقاد بأن الهنود فى مجموعهم يتأثرون بمجالى العظمة ، لذا فإن كل محصل كان يقيم ديوانه (دربارة) ، كما كان كل مندوب (قوميسير) يقيم درباراً أكبر ، فيه مراسم أشد إحكاماً ، على حين أن الحكام ونواب الملك كانوا يحسون بأن تلك المراسم جزء من حياتهم الرسمية . وكانت « الدربارات الإمبراطورية » القائمة على الطراز الفخم طراز ليتون وكيرزون بما حوت من أمراء يتحلون بالجواهر ومواكب الفيلة ، إلى غير ذلك من فخامة البلاطات الشرقية — كان كل ذلك شيئاً واحداً . على أن الدربارات الروتينية الخاصة بالموظفين كانت من مصف آخر .

* انظر : « In India » تأليف أوليف لندن ١٩١٣ .

وكان المظنون أن تلك الجرعات من المراسم والتشريفات التى يتناولها الجمهور بين الفينة والفينة ستترك عن هيبة الصاحب ذكرى تترعرع فى عقول الجميع سنة بعد أخرى . وكانت الدربارات الإمبراطورية هى التوسعات التى أضيفت إلى ذلك المبدأ على أساس قومى ، وكان الغرض منها التأثير فى أمراء الهند وشعوبها والتذكير بما للإمبراطورية البريطانية من قوة وعظمة وفخامة .

وما من شك فى أن الهنود ككل الشعوب الأخرى فى سائر أرجاء العالم يحبون الحفلات وهى المهرجانات ذات الألوان الفاخرة المصحوبة بالمواكب والجماهير والاستعراضات العظيمة . ولكن لم يكن ما خالج الأجانب إلا خزعبلة ضحلة حين اعتقدوا أن هيبتهم ستزداد ، أو أن أثراً عميقاً وانطباعة قوية لعظمتهم ستتخلف فى عقل الهند نتيجة لهذه المراسم المنظمة . والحق أن من سبقوا من رجال السياسة فى الهند الإنجليزية مثل هاستنجز ومنرو ومالكولم كانوا يعرفون ذلك ، ولكن « الصحاب » من السادة البريطانيين فضلوا بعد زيادة شقة التباعد بين الأوروبيين والهنود أن يعتقدوا أن الشرق يتأثر بالمظاهر . ولم تأخذ الشكوك تساورهم فيما يعتور هذه الفكرة من وهن إلا فى العقد الثالث من القرن التالى يوم شهدوا ظاهرة عجيبة هى « فقير عريان »* يكرمه الكبراء المتكبرون الذين رفضوا قبل ذلك أن ينحنوا فى الدربارات . ولكن إنساناً أوتى أى درجة من البصيرة العادية ، كان يستطيع أن يخبرهم فى ١٨٧٧ يوم عقد اللورد ليتون أول دربار إمبراطورى له ، أن العادة ببلاد الهند أن ما يضفى على الشخص الهيبة والكرامة ليس رتبته ولا سلطانه ، بل اشتهاره بكرم النفس والقداسة . والواقع أن رد فعل الهنود إزاء الموظفين البريطانيين كان ينبغى أن ينبئهم بذلك أيضاً . وقد أثر اللورد ريپون فى عقول أهل الهند إذ عدوه رجلا « طيباً » ، كما فعل ذلك فيما بعد اللورد إروين « هاليفاكس » ، وينطبق الحال نفسه على شخصيات أصغر منهما مثل مونرو الذى أكسبته «أعماله الطيبة » وعقيدته الدينية احترام الجميع ، على حين أن نواب الملك والموظفين الميالين لعقد الدربارات ، والمقدسين لفكرة المهابة والكرامة كانوا يجعلون من أنفسهم أضحوكة فى أعين الناس .

ونتيجة لمبدأ المهابة والتفوق الجنسى ذاك ، كان الأوروبيون يظلون أغراباً ببلاد

* يشير الكاتب بذلك إلى المهاتما غاندى . (المترجم) .



« بوذا العجوز »

إمبراطورة الصين الأرملة تزو هي



الهند مهما طال مكثهم بها . كما أن هوة لا سبيل إلى عبورها كانت تفصل بينهم وبين شعبها ، وهى حال دامت حتى نهاية الحكم البريطانى. وقد كتب يندرل مون وهو موظف فى الخدمة المدنية أثناء أربعينات القرن الحاضر ، كتب مؤكدا تلك الحقيقة ، ولكن ذلك كان إبان فترة السيطرة الإمبراطورية من الوضوح بحيث لم يكن يحتاج إلى أى تفسير . ذلك أن الطرفين كانا يعيشان فى بلدتين مختلفتين إحداهما الهند الإنجليزية والثانية الهند نفسها ، ولم يلتق الطرفان البتة . فلقد كانت احداهما تحكم الأخرى .

وكانت الإدارة هى المضمار الذى استطاعت فيه بريطانيا بسرعة أن تظهر كفايتها وتعلن للعالم ما أنجزته من أعمال . فنشرت مجموعات عظيمة من القوانين ، ونفذت من أقصى البلاد إلى أقصاها . وأنشىء لتنفيذ تلك القوانين التى نشرت جهاز قضائى مهيب مدرج تدريجاً مناسباً ، وفى قمته وعلى مفرقه المحاكم العليا المختلفة ، فضلا عن استئناف لدى مجلس الملك الخاص . أما الأراضى فقد « قومت وحددت وثبتت » وأدخل فى البلاد نظام موحد للضرائب . ووضعت خطط ضخمة للرى ، وذلك على الأقل بإقليمى البنجاب ووادى الكنج ، فزودت الزارع بما يلزمه من مياه . وأنشئت شبكة من الطرق ، لا شك أن الغرض الأول منها هو النواحى الاستراتيجية ، بيد أنها كانت تربط بين مناطق مترامية ، وتساعد على نهوض التجارة وتنميتها . ومنحت الهند الجهاز اللازم للدولة العصرية بفضل السكك الحديدية والبرق والمواصلات البريدية الرخيصة . وفتحت ببلاد الهند الجامعات والمعاهد الفنية مثل كلية روركى للهندسة ومعاهد للدراسات الطبية وغيرها . وينبغى ألا يغيب عن بالنا أن تلك الأمور كانت نتيجة نشاط الحكومة .

ومن الناحية السياسية أيضاً ، وإن كان ذلك على درجة أقل ، أخذت تطورات مماثلة لهذه تحدث بالبلاد تحت رعاية الحكومة . ففى ١٨٦١ صدر قانون المجالس الهندية مقرراً مبدأ دخول أعضاء غير موظفين للقيام بأغراض تشريعية . وممن عينوا على هذا الأساس فى ١٨٦٢ ثلاثة من الهنود . وتأسست فى الولايات مجالس مماثلة لهذه . وأخذ فى ١٨٩٢ بمبدأ الانتخاب غير المباشر للتمثيل فى تلك المجالس ، وأعطيت حق مناقشة الميزانية وتوجيه الأسئلة فى المسائل المتعلقة بالمصلحة العامة .

وهذا الإصلاح وإن كان شديد التواضع إلا أنه أتاح الفرصة لتوجيه النقد العام لإجراءات الحكومة، كما منح الناس نصيباً فى سن القوانين . وفى ١٩٠٩ اتخذت خطوة أخرى ؛ فقد جعلت الأغلبية فى المجلس التشريعى الهندى من الأعضاء غير الموظفين، وتقرر أن ينتخب منهم ٢٧ عضواً ! منهم من تنتخبه دوائر انتخابية خاصة مثل أصحاب الأملاك والغرف التجارية، ومنهم من تنتخبه الهيئات التشريعية بالولايات. وقضت الإصلاحات أيضاً بأن يكون بمجالس الوزراء المركزية والإقليمية أعضاء من الهنود لأول مرة . ولم تكن إصلاحات لجنة مينتو مورلى افتتاحاً للحكم البرلمانى بالبلاد ، بيد أنها تمثل مبدأ إشراك الهنود فى حكم بلادهم، وكانت الهند تمر بعملية تحول .

وثم حقيقتان أخريان ربما جاز لنا أن ننبه إليهما الأذهان من الناحية السياسية ، أولاهما : تطوير نظم الحكم الذاتى، وثانيتهما : تعمد إدخال المبدأ الخبيث ؛ مبدأ عمل قوائم انتخابية منفصلة للمسلمين . وهو المقدمة لنظرية وجود شعبين بالبلاد . ويرتبط اسم اللورد ريبون بالإصلاح الأول ، وهو الإصلاح الذى وضع أساس الحكم الشعبى بالهند بإنشاء نظام من لجان الأحياء وسلطات البلديات التى فيها للعنصر الشعبى الخبرة الحقيقية الأولى بشئون الإدارة . وكان وجود هذه النظم هو الذى مكن الهيئات التشريعية بالولايات أن تقوم بعملها فى يسر وسلاسة ، وذلك لأنها كانت هى الجهات الانتخابية ، التى كانت تختار الأعضاء للهيئات الإقليمية . وكان نمو أنظمة الحكم الذاتى المحلى هو الذى درب السكان الريفيين على استخدام الأنظمة التمثيلية، وبذلك أصبح حجر الزاوية فى الديموقراطية الهندية أثناء المدة التى عقبت ذلك .

وكان نظام إنشاء دوائر انتخابية خاصة بالمسلمين أول تعبير عن النظرية الخبيثة القائلة بقيام أمتين ، التى ترامت فى النهاية إلى إنشاء دولة الباكستان . والوثائق التى نشرت تؤكد تماماً أن تلك الدولة أنشئت نتيجة لسياسة مقصودة تعمدت جعلها وسيلة فعالة للفصل بين المسلمين والهندوك . وقد لاحظت الليدى منتو زوجة نائب الملك ، المسئول عن تلك النقطة من السياسة المكيافلية ، بجذل عظيم أن زوجها استطاع بهذا القانون أن يضمن استمرار وجود السلطان البريطانى بالهند إلى

أمد طويل . وكان نظام الدوائر الانتخابية المنفصلة وسيلة بسيطة . وكان ينص على أنه ينبغى ألا يمثل المسلمين إلا المسلمون ، الذين لا ينتخبهم إلا الناخبون المسلمون ، وفوق هذا لا يجوز لمسلم أن يمثل دائرة انتخابية هندوكية والعكس بالعكس . وبهذه الوسيلة صار المسلمون ببلاد الهند من رأس قومورين إلى كشمير ذاتية كلية سياسية منفصلة على خلاف أبدى مع الهندوك ، وتحكم على جميع المسائل من وجهة نظر مجتمع دينى . ولما كان المرشحون المسلمون للهيئات التشريعية مضطرين أن يعتمدوا على اقتراع قائم على الدين ، صارت آراؤهم وسياساتهم تصاغ فى قالب اعتبارات التعصب الدينى . واحتاجت الهند إلى أكثر من أربعين سنة لتتخلص من هذا النظام الخبيث ، ودفعت فى سبيل ذلك ثمناً باهظاً هو تقسيمها إلى دولتين .

ويتضح من التحليل السابق أن مذهبى « الامتلاك » و « التفوق العنصرى » كليهما قد ألمّ به أثناء تلك الفترة تغير خفى ولكنه بعيد المدى . أجل إن هذين المبدأين قد داما وتوغلا طويلا فى القرن العشرين ، لكن تغيرهما وتحولهما كان حقيقياً بالفعل ، أما مبدأ « الامتلاك » فقد تثلمت نصاله ، وأما مبدأ « التفوق العنصرى » فقد فقد كثيراً من معانيه السياسية دون الاجتماعية حتى قبل أن يصل القرن التاسع عشر إلى نهايته . فكيف تم ذلك التحول ؟ — لا شك أن هذا موضوع ذو أهمية قصوى لفهم التطور والنجاح النهائى الذى بلغته القومية الآسيوية على وجههما الصحيح .

وخروج الهند من تحت الحكم البريطانى دولة قوية ذات جهاز إدارى كفء كان ثمرة عمل هيئة من الموظفين انتخبت بعناية ونظمت بإحكام وصينت بدرع من المهابة والكرامة . ولم تكن البيروقراطية البريطانية بالهند مجرد هيئة من الموظفين . بل كانت هيئة تعاونية تتولى الحكم ، ولا تتولى إلا أربعة أو خمسة من أهم المناصب بالهند ، وهى : نائب الملك وحكام ولايات البنغال وبومباى ومدراس ومهام العدل والقانون فى الوزارة المركزية . وكان لهم العدد الكافى من التمثيل فى الهيئة القضائية . من أجل ذلك كانت لهم الكفة الراجحة فى تكوين سياسات الحكومة وهم قوام الجهاز الوحيد الذى يتولى تنفيذ هذه السياسات . وسرعان ما خلقوا لأنفسهم تقليداً عاماً ، وروحاً جماعية ألفت بينهم ، كما أصّلوا أصول النزاهة السياسية واتخذوا

موقفاً عاماً إزاء الهند . ذلك أن الهند ، بوصفها الإقليم الذى كانت تبدأ فيه وتنتهى سيرة حياتهم العملية ، و بوصفها القطر الذى يخدمون أصبحت شغلهم الشاغل الذى ليس لهم غيره . أجل إنها لم تكن هند الهنود ، بل هندا خاصة صوروها لأنفسهم ، فخلقوا فى أنفسهم نحو تلك الهند شعورا بالولاء ، وتصوروها بلاداً عهد إليهم برعاية الملايين من سكانها . وبذلك أوجدوا تقمصهم العجيب « لكتلة الشعب » ذلك التقمص الذى كان يقابله من الناحية الأخرى تشكك عميق من جانب الطبقات المتعلمة التى كانت تغمز وتتشكك فى حق ذلك الجهاز المدنى فى تولى الحكم .

وكان النزاع بين وزير الهند فى لندن وبين السلطات الإنجليزية فى الهند نفسها أهم مانتج عن هذه التقاليد التى نمت مع هيئة الخدمة المدنية فى الهند ، وقد كان وزير الهند يمثل سياسة الحكومة البريطانية ، وكان الموظفون فى الهند يمثلون سلطات الحكومة الهندية . ولنذكر أن هذا الخلاف كان يحدث بين الناحيتين قبل تطور القومية ، وقبل أن يقوم أحد من السياسيين البريطانيين للدفاع عن المبدأ القائل بأن خير من يمثل الهنود هم الهنود أنفسهم — ولم يبدأ ذلك إلا فى عهد إدون منتاجو — نقول : إنه قامت بين موظفى الحكومة الهندية من البريطانيين نزعة تريد أن تعتبر الهند ملكاً لها وأن تدافع حفاظاً عليها من أوامر هوايت هول ونواهيها . ومن ثم أصبح من شعار هؤلاء أن يقام كل الوزن ، وتوكل كل الأمور للرجل الذى ندب ليقيم فى الهند الرجل الذى يعرف الظروف المحلية ، وهو من ثم أقدر الناس على الحكم فيهما ذياداً عنها من السياسات التى تتقرر تحت الضغط البرلمانى أو المالى بمدينة لندن . ومن الخصائص الهامة التى تتصف بها هيئات الخدمة المدنية رفضها صراحاً أن تتأثر بالمصالح التجارية والصناعية بالهند . وكانت الطبقات التى ينتخب منها أعضاء هيئة الخدمة العامة معواناً على تكوين هذه الفكرة . وقد كتب السير بارتل فرير إلى اللورد جودرتش يصر على أنه « أهم كثيراً لدى الأهالى أن يكون (أى الموظف المدنى البريطانى) رجلا يحسن اللعب فى ميدان الكريكت ، وعلى صهوة الخيل ، وأن يكون محبوباً من الخدم والفقراء ، ونصيرا للمسخرين المستضعفين من أن يكون ا تفوق عقلى » . وقد لاحظ راسل مراسل جريدة التايمز الشهير أنه « وإن استطاع مضارب ناجح أو أمير من أمراء التجار أن يشق طريقه بالقوة إلى الهيئة

الاجتماعية الراقية بإنجلترة . . . فإنه لا بد له فى الهند من أن يظل إلى الأبد خارج الحاجز المقدس الذى يحول بين عالم غير الموظفين وبين المجتمع العالى لهيئة الموظفين والخدمات » . من هنا لم تقم أية محالفة بين هيئة الموظفين المدنية ودوائر الأعمال العليا ، ولم تكن بيروقراطية هيئة موظفى الهند البريطانيين تهتم باستغلال الهند . والواقع أن فى الإمكان أن يقال بحق إن رجال الخدمة المدنية من الموظفين كانوا يناصرون « الهند التابعة لهم » أى هند الجماهير البكماء التى لا تجد لساناً يعبر عنها ، ليقوها غائلة رجال الأعمال والرأسماليين البريطانيين ، وذلك ما لم يكن هؤلاء قد صاروا أصحاب مصالح قوية مستثمرة بالمناطق الريفية ، مثل مزارع الشاى الضخمة فى أسام ومثيلاتها للنيلج فى بهار .

وكان النزاع مع هوايت هول مستمراً يتخذ فى بعض الأحايين سمة علنية وسياسية ، وقد حدث أن استقال نائب ملك ممتاز بارز ، إباء منه أن ينفذ سياسة تؤيد مصلحة لانكشير بشكل واضح وتضر بمصالح الهند ، وأدى هذا الاتجاه بوزراء متعاقبين أن يعلنوا صراحاً مبدأ وجوب خضوع حكومة الهند خضوعاً مطلقاً لسلطان هوايت هول ، ولكن تنفيذ ذلك المبدأ كان عسيراً إزاء وجود هيئة موظفين مدنية متغلغلة اليد فى العمل تغلغلا عميقاً مستديماً ، وليس فى يدها فقط مناصب سكرتيرية وتنفيذية ، بل مراكز وزارية فيما يتعلق بجميع نواحى العمل الكبرى . وأخذت الحكومة الهندية تمارس ، رويدا رويداً فى دائرة عظيمة جداً من الأعمال ، سلطاناً فعالا أدى إلى تكوينها لسياسات مستقلة تقوم على أساس ما كانت هيئات الموظفين المدنيين تعده مصالح الهند الأصلية .

وثم سبب آخر لهذا التحول أكثر أهمية هو إدراك إنجلترة أن مركز الهند يجعل منها كياناً إمبراطورياً ، ودولة برية عظيمة يشع منها سلطان بريطانيا إلى جميع أجزاء آسيا . ذلك أن تحويل حكومة الهند إلى إمبراطورية لم يكن مجرد تحويل بالاسم أو اللقب فقط . فإن الهند حتى قبل عام ١٨٥٨ نفسه كانت بدأت تلعب دوراً ما فى شئون جيرانها مثل أفغانستان وبورما وغيرهما ، وهى أمور سنحدثك عنها فيما بعد . ولكن مع استقرار قدم الحكومة الهندية بصورة راسخة ، أخذ رجال السياسة البريطانيون يدركون رويداً رويداً أن بين أيديهم آنئذاك مستودعاً ضخماً من القوة

والموارد، وأن فى إمكانهم إن وجد لهم بها جيش عظيم وجهاز إدارى كفء ، أن يكون لهم صوت مسيطر على شئون آسيا . وقد وجهنا الأنظار من قبل إلى دور الهند فى الحرب الصينية الأولى . وفى الفترة التى ندرسها الآن بدأ سلطان بريطانيا القائم على قاعدته الهندية يتغلغل حتى سينكيانج فى ثورة يعقوب بك ، وفى بلاد الأفغان التى كانوا يحاولون كما سنرى فيما بعد أن ينزلوها منزلة المحمية . ثم إنها أيضاً ضمت بلاد بورما ، كما حاولت التدخل فى شئون فارس، وأسست لنفسها سلطاناً متفوقاً على كل ما عداه على الساحل العربى وفى الخليج الفارسى . والواقع أن الهند صارت منذ ١٨٧٥ دولةً إمبراطورية وأمست مركز نظام سياسى بجنوب آسيا .

وربما جاز للورد ليتون، وهو شاعر وابن مؤلف قصصى شهير ، أن يدعى لنفسه الفضل فى تأسيس الهند الإمبراطورية تأسيساً لا يقتصر على المعنى الحرفى للكلمة ، وأنه عقد الدربار الأعظم لإعلان اللقب الإمبراطورى الذى اتخذه لنفسه التاج البريطانى ، وبذلك أضفى على البلاد حالة مخالفة لحالة الممتلكات المستعمرة ، بل إنه أيضاً استطاع بفضل قوة خياله وتصوره ، « أن يضفى على الهند المركز الفائق الممتاز بآسيا الوسطى وموارد دولة من الدرجة الأولى » . وبذلك جعلها فى الحقيقة إمبراطورية مغولية مبتعثة من جديد . وضم ليتون بلوخستان باحتلاله كويتا فى ١٨٧٧ ، و بذلك تجاوز حدود الهند . ومنذ ١٨٦٣ والحكومة الهندية تظهر اهتماماً متقطعاً بشئون بلاد الأفغان ، ولكنها منذ رأت امتداد سلطان الروسيا بآسيا الوسطى ، شعرت بأنه ينبغى عليها أن تقوم بدور أعظم . ومن ثم بدأ اللورد ليتون، بوصفه نائب ملك، سلسلة من المناورات والمداورات، يرمى من ورائها إلى انزال بلاد الأفغان منزلة المحميات . فبدأ ذلك بأن طلب من شير على ملك الأفغان أن يستقبل بعثة دبلوماسية تعلن اتخاذ الملكة لقبها الإمبراطورى . فرفض شير على هذا الطلب بأدب، بحجة أن الروس قد يطلبون أيضاً ذلك الأمر نفسه . وبعد مفاوضات غير مجدية ، كان الهدف منها واضحاً كل الوضوح لدى الأفغانيين ، عول اللورد ليتون على التدخل. وقد أعلن فى خطاب أرسله إلى اللورد كران بروك: « إنى مقتنع بأن سياسة تكوين دولة قوية ومستقلة بأفغانستان ، لا نستطيع أن نمارس عليها مطلقا أى هيمنة، قد أظهرت التجارب أنها سياسة خاطئة، فلو تهيأ لنا بالحرب ، أو بموت الأمير الحاضر . . .

فرصة لتفكيك دولة كابول وتمزيقها ، فإنى أرجو مخلصاً ألا نضيع تلك الفرصة »*

وسرعان ما سنحت الفرصة التى كان ليتون يرجوها ، فصمم على الدخول فى الحرب مخالفاً التعليمات التى أبلغت إليه ، على أمل تمزيق بلاد الأفغان لمصلحة إمبراطوريته الهندية . فاستحدث النزاع قسراً متجاوزاً عن أوامر سلطات لندن . وأعلنت الحرب لادعاءات مفتعلة لا تمت إلى الضمير أو الخلق بسبب . فزحفت على بلاد الأفغان ثلاثة جيوش هندية . وأخفق الأمير فى الحصول على مساعدة الروسيا ، ففر من العاصمة ، ووقع ابنه يعقوب خان معاهدة وافقت بها أفغانستان على أن تتولى الحكومة الهندية الهيمنة على سياستها الخارجية . على أن ذلك النجاح السريع كان وهماً باطلا . فإن المعتمد البريطانى الذى عين بحكم المعاهدة هاجمه الأفغانيون وقتلوه هو ورجاله ، وعند ذلك تحطم البناء السياسى الذى أمل ليتون فى بنائه وراء الهندوكوش بين عشية وضحاها . وقد كتب إلى بيكونزفيلد يشكو من أن « نسيج السياسة الذى ظل ينسج بعناية وصبر تام قد نزلت به قوة غاشمة حطمته ، فعلينا الآن أن ننسج نسيجاً جديداً أخشى أن يكون أوسع مجالا ننسجه من مواد أوهن دون أدنى ريب» ** . وكان السبب الذى طوع لنائب الملك على الرغم من الكارثة العسكرية التى حلت به أن يفكر فى نسج أنسجة أوسع مجالا ، متانة بناء الإمبراطورية ببلاد الهند . وعندئذ تقدم الجنرال روبرتس السيء السمعة على رأس جيش احتل به كابول ، وشرع يشنق الناس ويحرق القرى خبط عشواء ، رغبة منه فى أن يتعلم الأفغانيون أن مقاومة البريطانيين سوف تكلفهم ثمناً باهظاً . ولكن الأفغان أبوا أن يتعلموا ؛ فقاتلوا ووضعوا المغيرين البريطانيين فى مركز لا يطاق ، واستلزم الأمر الوصول إلى تسوية سياسية . وانسحب الجيش الذى زحف على بلاد الأفغان بعد أن كان يأمل الحصول على نصر رخيص ؛ انسحب دون أن يفوز بشرف يتوج به هامته . وعندئذ استولى على العرش عبد الرحمن مؤسس أفغانستان العصرية ، ومع أنه وافق على استقبال مبعوث بريطانى ، وقبل ألا يكون علاقات مع أية دولة أجنبية أخرى ؛ إلا أن استقلال أفغانستان كان قد أنقذ .

---

* انظر « Indian Administration » تأليف اللورد ليتون ص ٢٤٧ .

** انظر المصدر السابق لنفس المؤلف ص ٣٥٨ .

وينبغى ألا يغيب عنا أن حملة الأفغان كانت فشلا عسكرياً ذريعاً، وأنها كلفت الهند قدراً هائلا من المال أضيف على دينها العام . ومع ذلك فإن النظام السياسى الذى تأسس بعد الحرب ظل مستمراً بالبلاد حتى ١٩١٩ . فظلت مملكة الأفغان مملكة حاجزة مستقلة ، وإن تسلط فيها على العلاقات السياسية للدولة نفوذ الحكومة الهندية ، دون أن يمارس بطريقة علنية صريحة . ولكن الهند اكتشفت أيضاً أن مركزها كإمبراطورية يكلفها الأموال الطائلة ، وذلك لأن جميع الحروب التى فى الشرق كانت تضاف على حسابها .

وكان التدخل فى بورما أكثر نجاحاً ، وإن كان يعد مثلا غشوماً وصفيقاً من التوسع الاستعمارى التجارى ، وقد سبق أن رأينا كيف حدث فى زمن دالهوسى أن بورما السفلى ضمت إلى الهند بحجة استيفاء دين طفيف . ومع ذلك فإن بورما العليا ظلت دولة مستقلة . وكان ذلك قذى فى عين أصحاب المصالح التجارية البريطانية الذين أخذوا فى المدة الأخيرة يهتمون اهتماماً شديداً بالإمكانيات التى يمكن الحصول عليها بتلك البلاد الغنية التى لم تكن قد استغلت بعد . واتخذ القوم ذريعة من إجراء اتخذته الحكومة البورمانية حين فرضت غرامة باهظة على الهيئة التجارية لتجارة بومباى وبورما ، وهى شركة للأخشاب ، ظهر أن لكثيرين من علية القوم مصالح مالية بها؛ منهم بعض أقارب نائب الملك بالهند آنئذاك . وتلمس القوم ذريعة سياسية أخرى هى النفوذ الذى كانت فرنسا تكونه لنفسها رويداً رويداً بالهند الصينية وسيام، بل حتى فى بورما نفسها (فيما قررته الشائعات) بسبب نشاط وزيرها . وفى ١٨٨٥ أرسل اللورد دفرين إنذاراً نهائياً إلى الملك ثيبو ، فلما رفض ذلك الإنذار جردت قوة على ماندالاى ، فأنهت الحملة فى خمسة عشر يوماً وأسرت الملك . وعندئذ أضيفت النفقات على الهند للمرة الثانية ؛ ولكن كان فى الإمكان القول على الأقل : إن نفوذ الدولة الإمبراطورية قد دفع آنئذاك إلى تخوم سيام والهند الصينية وأنام !

وإلى الغرب أظهرت السلطات الهندية البريطانية منذ البداية اهتماماً كبيراً بالشئون الفارسية، كما تشهد بذلك بعثة السيرجون مالكولم فى ثلاثينات القرن التاسع عشر . وزاد ذلك الاهتمام حدة عندما توطد سلطان الروسيا أكثر على حدود فارس الشمالية .

وهناك لم يكن الموضوع هندياً بحتاً ، لأن المنافسة بين لندن وموسكو ومصالح بريطانيا بالشرق الأوسط كانت أيضاً عوامل هامة . يقول السير ريدر بولارد : « إن النزاع الذى بدأ فى أوائل القرن التاسع عشر حول من يكون المسئول عن العلاقات الديبلوماسية مع فارس ؛ هل يكون حكومة جلالة الملكة أو حكومة الهند ؟ قد دام ما يقارب نصف قرن . وقد حلت مؤقتاً الصعوبة الناجمة عن وجود مالكولم ممثلا للهند وهارفولد جونز ممثلا للحكومة الإنجليزية بتعيين السير جور أوسلى مبعوثاً وحيداً لدى فارس ، ولكن مسألة المبدأ لم تحل حتى ١٨٦٠ ، يوم اتفق على أن تفوض العلاقات الديبلوماسية لوزارة الخارجية ، وأن تساهم حكومة الهند فى نفقات المؤسسة الديبلوماسية بفارس * . »

وإذا كانت شئون فارس مسئولية مقتسمة فإن التدخل فى بلاد التبت كان دون أدنى ريب للمصالح التى زعموها للهند ، كما كان من أوله لآخره ثمرة سياسة الدولة الإمبراطورية . وقد بدأت منذ أعقاب القرن الثامن عشر محاولات لفتح أبواب التجارة مع التبت ، بيد أن تلك المحاولات باءت بالفشل . وحدث فى ١٨٨٦ أن التبت قامت بغارة على سيكيم التى كانت التبت تدعى لنفسها فيها شيئاً من السلطان ، ولكن حكومة الهند التى كانت أسست هى أيضاً علاقات بينها وبين حاكم سيكيم ، تدخلت وطردت المغيرين فى ١٨٨٧ . ثم حددت التخوم فيما بعد لجنة صينية بريطانية فى ١٨٩٠ ، ومع أن معاهدة تجارية عقدت أيضاً فى ذلك الوقت ، فإن حكومة التبت تمكنت من إيقاف تنفيذ بنودها ، على أن الموقف أخذ يتغير منذ تعيين اللورد كيرزون . إذ بدا له أن انعزال التبت ، ورفض الدالاى لاما السماح بالاتصال الحر بين بلاده وبين العالم الخارجى يكاد يكون إهانة للسلطة البريطانية بالهند . ذلك لأنه شعر بأن مثل تلك الرغبة لا تتمشى « والجوار مع أرض دولة عظيمة متمدينة تجد الحكومة التبتية على يديها أتم الفرص لتبادل العلاقات والتجارة » . وكانت الدولة الإمبراطورية تريد من البلاطات المجاورة الاعتراف بمركزها الفريد فى بابه ، وهو مبدأ سامرا جيا القديم ببلاد الهند ومبدأ الإمبراطورية العامة بالصين .

---

* انظر « Britain & the Middl e East » تأليف بولارد ، طبعة هتشنسون لندن ١٩٥١ ص ٩٠ .

وسرعان ما اكتشفت ذريعة للاحتكاك، فقد قيل على غير أساس من الصدق، إن الروسيا كانت تحاول فرض نفوذها على الدالاى لاما ، فإن راهباً بوذيًّا من بوريات اسمه د ورچييف ذاع صيته فيما بعد كناشر للحكمة فى فونتين بلو ، قد ارتقى حتى وصل إلى منصب رفيع هو منصب موزع الصدقات الأعظم لدى الدالاى لاما . وكان د ور چييف من رعايا الروسيا ، وكان يكتب الرسائل لكبار الموظفين ببطرسبرج ، وهو أمر أتاح لكيرزون الذريعة الضرورية التى يدعى بها أنه اكتشف مؤامرة الروس فى لاهاسا* . وفى ١٩٠٢ اشتد تعطش نائب الملك إلى القيام بدور استعمارى، فألح على وزير الهند حتى وافق على إرسال بعثة إلى لاهاسا. ومع أن الحكومة البريطانية بلندن اعترضت فى البداية ، فإن اللورد كيرزون استطاع أن يحدث النزاع عنوة ، وذلك بتقديم طلبات مستحيلة إلى التبتيين ، فلما رفضوها ، ادعى أنهم ظهروا بمظهر يتنافى والصداقة، وأنهم يقفون موقف الاستفزاز . وعندئذ عبرت الحدود حملة عسكرية، وقتلت بعض أهالى التبت المسلحين بأسلحة قديمة الطراز ، لم يكونوا مدربين على استعمالها . ثم زحفت إلى لاهاسا ، لكى تفوز بمجد الاستيلاء على المدينة المستورة ، ولكنهم وجدوا أن الدالاى لاما قد فر إلى منغوليا . وأجبر الوصى على العرش على عقد معاهدة، على أنه حتى حكومة لندن نفسها قد جزعت لهذا المظهر من مظاهر التوسع الإمبراطورى الذى لم يدع إليه أى استفزاز من الجانب الآخر . وفوق هذا فإن الموقف الدولى استلزم سحب القوات من أراضى التبت، وعقدت اتفاقية مع الروسيا تنص على أن كلا من الدولتين تعترف بسيادة الصين على التبت ، وكانت الحملة على التبت آخر ما بلغته الدولة الإمبراطورية بالهند من ذروة .

فلئن كان اللورد ليتون صاحب فكرة الدولة الإمبراطورية ، فإن اللورد كيرزون كان أبرز ممثليها ، بل كان الشخصية التى تتجسد فيها فكرة الدولة البريطانية بالهند، بوصفها إمبراطورية عظيمة تظلل عظمتها ومجدها الدول المجاورة . ومما له دلالته أن كيرزون حتى قبل أن يعين نائباً للملك كان قد أعد نفسه للمهمة بقيامه برحلات مترامية على تخوم الهند . وهو كنائب للملك — كان يتصور نفسه — كما أشار

* عن بيان صحيح ثقة انظر ما كتبه بل فى كتابه : « Biography of the Da Lai Lama » .

إلى ذلك اللورد مورلى فى حديثه عن الحملة على بلاد التبت — يتصور نفسه فى صورة المغولى الأعظم الذى يقوم بحملة خاصة . وكانت الهند لديه كتائب ملك ، مركزاً للعالم يدور حوله كل شىء . فزار منطقة الخليج الفارسى محاولا أن يزيد من سلطان الحكومة الهندية ببلاد الأفغان ونيبال ، دون أن يحظى إلا بقدر طفيف من النجاح ، كما كان بوجه عام يدعى للهند مكانة الأهمية فى شئون جنوب آسيا كأنما كانت دولة مستقلة .

والواقع — كما لاحظ معلق إنجليزى ممتاز — أن الإمبراطورية الهندية فى ذلك الزمان كانت « نظاماً قارياً » ؛ كانت بناء سياسياً أساسه الهند ويمتد سلطانه من عدن إلى هونج كونج . يقول المستر ونت : « كان امتداد رقعتها نتيجة للزمالة الهندية البريطانية ، زمالة بريطانيا والهند ، زمالة المهاجرين من رجال الطبقة الوسطى فى بريطانيا مع قوة الأيدى الهندية التى نظموها تنظيما . ولم تكن الهند بمستطيعة أن تؤسس الإمبراطورية دون وجود بريطانيا العظمى ، ولا كانت بريطانيا بمستطيعة تكوينها بدون الهند . وكان جميع من قاموا بالتفكير فى السياسة التوسعية من الإنجليز ؛ ولكن الإمبراطورية التى كونوها كانت تقوم على الحاجيات الهندية لا البريطانية . فأية مصلحة كانت تكون لبريطانيا العظمى فى الخليج الفارسى أو التبت أو سينكيانج ، وهى البلاد التى بدأت تتدخل فى شئونها جميعاً — لولا الحرص على تأمين الهند . وكان المهاجرون الهنود لا البريطانيون يتقاطرون على الولايات الجديدة ، وبينما كانت رؤوس الأموال البريطانية تشيد السكك الحديدية وتحفر المناجم ، وتنشئ المزارع الضخمة والصناعات الجديدة ، فإن مقرضى الأموال من الهنود هم الذين كانوا يستحوذون على الأرض . فالإنجليز فى نشاطهم بآسيا كانوا من ناحية يقومون بما تتطلبه الهند من أعمال ، ويعملون كخدام لإمبراطور الهند ، لا كرعايا وموظفين لدى ملك إنجلترة ، وهذا أمر يفسر لنا الإمبراطورية فى ماضيها وحاضرها ، ولا سبيل إلى فهمها فهماً تاماً إلا إذا وضعناه موضع الاعتبار » .

ويستطرد المستر ونت قائلا : « ينبغى أن نفكر فى الإمبراطورية الهندية كثمرة تتكون من لب هو الأراضى الغنية التى تدار إدارة مباشرة ثم من قشرة واقية ، وقد صنعت هذه القشرة الواقية من ناحية جزئية من ولايات صغرى بدائية إلى حد ما

مثل بوتان ونيبال و أجزاء من المناطق الجبلية والصحراوية يسكنها أقوام يعيشون على النظام القبلى . . . وكان للحكومة الهندية على هاتين الطائفتين جميعاً هيمنة تختلف شكلا . . ولكن غرضها المشترك هو الحيلولة دون تبادلها العلاقات مع بلاد أخرى ، أو قصر تلك العلاقات ، أو على الأقل التأكد من ألا تستخدم تلك العلاقات فى أغراض عدوانية » . « وفى خارج المنطقة نفسها وعلى صورة الساحة التى تحيط بها كما تحيط الأرض الفضاء بالمصنع كونت الحكومة الهندية نطاقاً من الدول المحايدة ، هى فارس وبلاد العرب والتبت وأفغانستان ، بل وجزء من سينكيانج ضم إلى الهند حينا من الدهر . فمن ناحية كان حد مصالح الهند هو على الجملة الصحراء المنبسطة بين بغداد ودمشق ، وهى التى تكون الحاجز الحقيقى بين البلاد التى تتجه إلى أوروبا والبلاد التى تتجه نحو آسيا ، والتى كانت فى يوم من الأيام الحد النهائى للإمبراطورية الرومانية . . . وفى الجانب الآخر كانت مصالح الهند تمتد حتى إندونيسيا والهند الصينية ، وإن لم تظهر من الاهتمام واليقظة فى هذا الجانب مثل ما كانت تظهر نحو الجانب الغربى . »

« وكانت هناك هيئة من الإخصائيين بالجيش الهندى ووزارة الخارجية بالحكومة الهندية ، تقوم على هذه السياسة ، وكانت طريقتهم فى ذلك غير ملحوظة ، فكأنما كانوا يتآمرون سراً أو يتعبدون خفية . ومن حول هؤلاء نمت قصة مغربة فى الخيال : رؤيا تتمثل البحار وقد راحت البحرية البريطانية تجوب أرجاءها ، على حين أن منطقة التخوم الجبلية وذرعها ثلاثة آلاف من الأميال بشمال الهند والأراضى الواقعة وراءها التى كانت فى وهم الموظفين البريطانيين (الذين درسوا العلم على الطريقة الكلاسيكية) شديدة الشبه بمنطقة الهمج البرابرة الواقعة خارج حدود الإمبراطورية الرومانية ، كانت تلك المنطقة هى آسيا الوسطى المجهولة التى قد تتجمع فيها القوات فى يوم من الأيام ، وتتحالف لكى تنحدر من السفوح إلى أراضى الجنوب المدارية ؛ وكانت هناك القوات الضئيلة المرابطة على الحدود التى كانت حروبها مع رجال القبائل (إن سمع بها العالم قط) تبدو لعين العالم الخارجى متناقضات مسلية ، ولكنها تحمى ملايين من الفلاحين المسالمين الوادعين ؛ وكان هناك عملاء سريون ، كانوا — شأن شركاء كيم بطل كبلنج الشهير — يتناثرون عبر

الأراضى الجبلية متنكرين فى أبراد التجار أو اللامات وهم مثقلون بالروبيات الفضية وأدوات المساحة والقياس » . *

وكان هذا « النظام القارى » ينطوى كما سبق أن ذكرنا على مساحة من الهند مطبوعة بميسم الخضوع ، ويمثلها ويرمز إليها رجال البوليس السيخ الذين سلمت بوجودهم بلدية شنغهاى والمجتمع التجارى الهندى الضخم الناجح بجزيرة هونج كونج الذى نما وترعرع فى نفس الحين الذى تم فيه احتلال البريطانيين للجزيرة ، والتجار الهنود المستقرون فى سينكيانج. وكذلك أيضاً كان ذلك النظام هو المسئول عن هجرة الهنود ذات النطاق الضخم إلى بلاد الملايو ومورايشيوس بل حتى فيچى نفسها ، ذلك أن تطوير البريطانيين لتلك المناطق كان يعتمد إلى حد كبير على العمال الهنود الذين كان يسير فى أعقابهم تجار الهنود، بل فى الغالب مقرضو النقود . وهكذا شهدت تلك المدة نمو « الهند وراء البحار » . وهى هجرة واسعة النطاق للشعب الهندى إلى المناطق المدارية من الإمبراطورية ، التى كانوا لا يحملون إليها مهاراتهم كزراع فحسب وصناع ، بل أيضاً نظاماً اجتماعياً هندياً معدلا فضلا عن أديان الهند ومعابدها وأعيادها . وهكذا حدث فى جنوب إفريقيا وفى مستعمرات شرق إفريقيا البريطانية وفى الأراضى القاصية فى غيانا البريطانية وترينيداد وجمايكا ، أن ظهرت جاليات هندية زاهرة لا شك أنها لم تكن ضعيفة الأثر فى حياة الهند الداخلية . ومع أن حالة الهند نفسها لم تتحسن ، حيث ظلت شريكاً صغيراً جداً فى هذا التطور الفاخر العظيم ؛ فإن وضع الإمبراطورية الهندية قد تحسن وأصبح وضع دولة عظمى بآسيا .

ولئن جاز أن يقال إن اللورد كيرزون يمثل الإمبراطورية فى أوجها ، وإنه كان يبدو وكأنه الإمبراطور المغولى الأعظم متربعاً فوق عرشه الطاووسى ، فإنه يمكن أن يقال إن نصب الإمبراطورية الذى أقامه الإنجليز فى كلكتا تذكاراً للملكة ڤيكتوريا يرمز إلى روح الإمبراطورية نفسها . ويتجلى فى هذا الصرح الإدعاء والسوقية ، ولكنه ضخم ، اتخذ من الرخام ونقشت عليه صور تمثل شعوب آسيا وهى تبتهل لقوة بريطانيا وإحسانها . ولا يرمز هذا الصرح عندنا — وقد بنى تقليداً للتاج محل — إلا إلى التجربة البريطانية فى الهند بما كان فيها من طموح وما اعتورها

---

* انظر جاى ونت فى : « British in Asia » ص ص ٢١ — ٢٣ .

من فشل . فمن أسف أن نصب ڤيكتوريا التذكارى قد حُرم كلا من الجمال والروح . أجل إنه مبنى من الرخام الأبيض ، محوط برفرف يزدان بأكاليل العظمة والجلال ، وهو يمثل قرناً من الجهود البريطانية التى بذلت بالهند ، ولكنه لا يضفى على نفسه أى جو ، ولا يشع فى جوه أى جمال ، ولم يكن منذ البداية إلا أثراً تذكارياً . كان محاكاة وتقليداً ، وكان من هذه الناحية يكشف عن خيبة أمل البريطانيين ؛ لأنهم لم يستطيعوا أن يخلقوا ببلاد الهند شيئاً يستطيع أن يطاول عظائم مبانى الماضى ، وهو شعور بعدم الثقة فى كل ما أحرزته من أعمال حيث لم تستطع أن تمس قلب الهند ولا روحها .

الفصل الثانى

الصين

قد رأينا فى قسم سابق كيف أن المعاهدات التى أجبر الحليفان الإنجليزى والفرنسى بلاط بيكين على توقيعها قد وضعت مبدأ امتيازات الأجانب . وكانت تلك المعاهدة تتضمن حرية البعثات التبشيرية فى نشر الدين بكل أرجاء الصين والحماية للمبشرين ، ومن ينضمون إليهم من أتباع . وأضيفت تيان تسن إلى موانى المعاهدة ، كما أن المبعوثين السياسيين للدول الموقعة على المعاهدة صرح لهم بفتح مفوضيات، بالمكث الدائم فى بيكين . وبهذه المعاهدات أصبح بلاط بيكين الذى ظل حتى آنئذاك لا يقيم مع الحكومات الأجنبية إلا علاقة تقوم على مسافة مترامية ؛ أصبح عرضة للضغط اليومى للدبلوماسية النازلة فى قصبته يوم كان ذلك البلاط أقل ما يكون استعداداً لمجابهة مثل ذلك الهجوم . ووصلت البعثتان السياسيتان البريطانية والفرنسية فى مارس ١٨٦١ ، ووصلت البعثة الروسية فى يوليو من نفس السنة ؛ ووصل إلى بيكين فى ١٨٦٢ بعد رحلة سار فيها الهوينا من كانتون — المستر انسون برلنجهام الأمريكى الذى كتبت المقادير أن يكون له فيما بعد سيرة خيالية . وهكذا فتحت الصين فصلا جديداً فى تاريخها المديد ، كان أبرز مظاهره هو خضوعها لممثلى الدول التى فرضت نفسها عليها بالقوة واعتمادها عليهم . وكان هؤلاء الممثلون يطالبون فى ظل المعاهدات بالحقوق والامتيازات والإكراميات والأسبقيات المكتسبة ، تلك التى لبثت بفضل إطلاق اليد بسخاء فى تأويلها تأويلا تؤيده القوة ، أن تطورت فى مدى فترة لا تزيد عن خمسين سنة إلى هيئة خاصة من القانون الدولى تتحكم — أو تكاد — فى كل ناحية من نواحى الحياة الصينية . فكيف تم استخدام نظام المعاهدات فى « ربط الأفعوان بالأغلال » ؟ وكيف تم تحت ستارها تكوين نظام للاستغلال التوسعى لموارد الصين بصورة ثابتة منتظمة ؟ وكيف ذلت الإمبراطورية المتكبرة ؛ إمبراطورة أسرات هان وتانج ومنج وتشنج

وأنزلت منزلة العجز التام يوم كانت مناطق تستظل رايتها تختطف منها بهدوء تام ، ويوم اقتسمت الدول فعلا أراضيها الواسعة المترامية ، وجعلتها « مناطق نفوذ » ؟ تلك قصة لا مثيل لها فى التاريخ .

وفى أثناء تلك المدة كلها ، كانت مقادير الصين قد ألقيت بدورة مشئومة من دولاب الحظ فى يد امرأة جاهلة فاسدة لا ضمير لها ولا خلاق ، هى يهونالا وهى المعروفة فى التاريخ باسم الإمبراطورة الأرملة تزوهسى ، أو كما كانت بالاسم الدارج « البوذا العجوز » . وقد ظلت هذه المرأة تحكم الصين من ١٨٦٠ يوم أصبحت أحد الأوصياء على العرش إلى موتها فى ١٥ نوفمبر ١٩٠٨ ، تحكم الصين حكم مستبد لا ينازعه منازع ، فيما عدا فترة قصيرة حاول الإمبراطور أن يظهر فيها سلطته — وكانت لها ثلاث صفات بارزة ، فإن يهونالا كانت ذات شخصية مسيطرة ، وكانت امرأة متغرطسة حقاً ، كما كانت شخصاً خاق ليأمر . وكانت ذات قدرة عجيبة على القيام بمؤامرات البلاط ، ولديها ضرب من شعور الهرة بالخطر ، وقدرة على الوثوب على غرة والقضاء على أعدائها . وثالث خلالها انعدام ضميرها وكل وازع لديها . ولم يكن ثم شىء يحد من تصر فاتها ؛ لا الروابط العائلية ولا العلاقات الإنسانية ، اللهم إلا فى حالة چنج لو محبها الأول المخلص . وكانت توازن بين المصالح القومية وبين أهوائها ونزواتها . ومن سوء حظ الصين أن سلطة الحكومة فى أشد فترات تاريخها حرجاً كانت متركزة فى أيدى امرأة عنيدة جاهلة لا خلاق لها .



ولم تكن يهونالا (المولودة فى ١٨٣٥) وهى ابنة أحد نبلاء المانشو ، إلا مجرد أمة من إماء الإمبراطور هسيان فنج حتى ١٨٥٦ ، يوم رفعها الإمبراطور عند وضعها غلاماً إلى رتبة حظية من الدرجة الأولى .

ومنذ ذلك الحين صار لها وهى أم ولى العهد نفوذ عظيم على الإمبراطور ، استخدمته فى تشجيع الإمبراطور على سياسة مقاومة طلبات الإنجليز والفرنسيين . ولما توفى الإمبراطور فى چيهول ، تمكنت بمساعدة چنج لو قائد الحرس ، وصديقها فى صباها من القضاء على مؤامرة قام بها كبار أمراء المانشو لإقرار سلطانهم ، واستولت على السلطة المطلقة بالاشتراك مع الإمبراطورة الزوجة ، وهى سيدة تافهة

ضعيفة لا رأى لها ، كانت تخضع فى كل شىء « لأختها الصغرى » القوية الشخصية.

وكانت أولى المشكلات التى وجب على يهونالا — وقد صارت آنئذاك معروفة باسم تزوهسى أى الأم الرءوم الميمونة — أن تعالجها ، هى ثورة تايپنج * . وكانت هذه الحركة العجيبة نتيجة فى حد ذاتها للمؤثرات الأجنبية . ولا يغربن عن البال قبل كل شىء أن ضعف حكومة المانشو الذى كشفه للعيان عدوان الغرب ، هو الذى فتح أولا أعين الجماعات الوطنية التى انضمت إلى هنج هسوتشوان الملك السماوى ، وهو الذى تسبب فى تحويل التمرد إلى مرحلة الخطورة التى بلغتها . والأمر الثانى ، أن هنج نفسه الذى كانوا يزعمون أنه أخو يسوع الأجدر بالقداسة ، كان ثمرة لبعض التعاليم المسيحية التى أساء الناس تصورها . كان يبشر بصورة عجيبة عن المسيحية ، بمذهب كنج نفسه كابن لله يمثل أباه الذى فى السموات ، ويدعى أنه يحكم العالم بوصفه الملك السماوى .

وكان لهزيمة القوات الصينية — كما رأينا — أثر عميق لا فى الصين وحدها ، بل فى آسيا جميعًا . وقد صعق زعماء اليابان أنفسهم لأن إمبراطورية السماء قد هدمت بتلك السهولة ، وانتشرت فى كل مكان أقاصيص خيالية عجيبة عن قوة الأجنبى ، وربط الكثير منهم بينها وبين الديانة المسيحية ، بل جعلوها القرين المناظر لها . أما فى الصين نفسها ولا سيما الجنوب ، فقد كانت هزيمة القوات الإمبراطورية مؤثراً قويًّا مزعجًا فتح أعين جميع العناصر المتذمرة بالإمبراطورية ، ولا سيما الجمعيات السرية المضادة للمانشو ، التى كانت تعمل ناشطة على الدوام بتلك المناطق ، ولعل تعاليم إيساكار روبرتس لم تكن تعطى هنج أية فكرة حقيقية عن المسيحية ، بيد أن ملك السماء المنتظر كان مقتنعًا أعمق الاقتناع عند ما خرج من منزل المبشر بمذهب تجسد المسيح فيه لتخليص العالم ، حتى إذا أقنعه كثرة ما رأى فى المنام من أنه هو نفسه المسيح الجديد ؛ أعلن تلك الحقيقة للعالم وأسس كنيسة أسماها مجتمع الأعلين . ولم يدع هنج الألوهية لنفسه فحسب بل ولابنه أيضًا ، وادعى هنج فى مرسوم أصدره فى ١٨٦٠ ونقله عنه هيل : « أن الأب

---

* عن تاريخ هذا التمرد ونظرياته الدينية وطريقة إخماده انظر هيل فى « Tseng Kuo-fan and the Taiping Rebellion » وانظر مطبوعات بيل التاريخية رقم ١٨ نيوهاڤن ولندن ؛ وانظر أيضاً « Events in the Taiping Rebellion » تأليف اجمونت هيك لندن (ألان ١٨٩١) .

والابن الأكبر يسوع » قد نزلا إلى الأرض وأسسا المملكة السماوية واتخذانى والسيد الأصغر (يعنى ابن هنج) منظمين للشئون المتعلقة بهذا العالم ، فالأب والابن والحفيد وهم مجتمعون رب السماء الجديدة » .

ويصف هنج صعوده إلى السماء بالأبيات التالية :

لقد عاد إلى السماء
حيث أعطاه الرب سلطاناً عظيما
وكانت الأم السماوية رفيقة شفيقة
كما كانت برة كريمة إلى آخر المدى
وكانت جميلة ونبيلة إلى أقصى حد
وليس كمثلها فى ذلك شيء
وكانت زوجة الأخ الأكبر السماوى
وليس كمثلها فى ذلك شيء
عفة ورفيقة ترعى مشاعر الآخرين
وتحض الأخ الأكبر على الدوام
أن يفعل الأشياء عن تدبر .

وهكذا اختلط العنصران ؛ التعصب الدينى المسيحى والقومية المضادة للمانشو ، فأنتج الخليط حركة ثورية أوتيت حيوية عظيمة انتشرت فى أرجاء هائلة من الإمبراطورية ، وأوشكت بلججها أن تغرق الأسرة المالكة .

وانتشر الثوار من مقاطعتى كوانج تنج وكوانجسى إلى هيونان ، ثم تقدموا على امتداد نهر هسيانج ، واستولوا على المدن الواقعة على الطريق ، وبلغوا مدينة تشانجشا العظيمة ، حتى واجهتهم عمليات منظمة وقوية ، قام بها عليهم موظف فى إجازة هو « تسنج كيوفان » . وقد قدر له أن يكون أبرز شخصية ممتازة قيضتها المقادير للصين فى ذلك القرن . ومع أن الثوار قد أوقف تقدمهم عند تشانجشا ، فإنهم حولوا وجهتهم شمالا وبلغوا دون أن يلقوا أية مقاومة جدية مدن فوهان العظيمة (هانكاو وو وتشانج وهان يانج) على خط السير نفسه تقريباً والطريق نفسه الذى انتهجته جيوش تشيانج كاى شك فى ١٩٢٦ والسهولة نفسها التى تهيأت له ، واتخذها

الملك السماوى مركز قيادته العليا ، وظل يحكم بها مدة عشرة أعوام كاملة .

وفى ١٨٦٠ يوم ختمت الحرب الإنجليزية الفرنسية ، واستولت الإمبراطورة تزوهسى على مقاليد الأمور ؛ كوصية ذات نفوذ فعال عند رجوع البلاط من جيهول ، كان ثوار تايبنج لا يزالون يقبضون على ناصية الأمور بحوض نهر يانج تسى ، وكان الملك السماوى يتولى الحكم من قصره بمدينة نانكين . وكان أكبر مساعديه فى ذلك الزمان رجل اسمه لى سيوتشنج ، وهو المعروف فى التاريخ باسم تشنج وانج أو الملك الصدوق . كان ذلك الرجل جندياً عبقرياً وصاحب تدبير وإدارة ، وكان قد تطوع فى جيش التايبنج كجندى عادى ، ثم ساهم تقريباً فى كل عملية حربية هامة تمت منذ بدء الحركة . وبعد أن أحرز نصراً مؤزراً فى ١٨٥٦ وضع على رأس جيش ، ثم رفع إلى منصب الملكية . ولاشك أن سيرته الملكية التى ترجمها عنه والتر لاى ، والتى يقال : إن محررها هو تسنج كيوفان نفسه ، وثيقة فى الدرجة الأولى من الأهمية * . واحتفظ تشنج وانج بسلطان الرئيس الثائر على مساحات مترامية إلى الجنوب من نهر يانج تسى . فلما واجه ذلك التهديد الخطير نظام الدولة القائم والأسرة المالكة ، أظهرت الوصية على العرش صدق عزمها بتجهيزها حملة فعالة على الثوار . وسقطت نانكين فى ١٨٦٤ فى يد تشنج كيوفان ، ولحق الملك السماوى أباه الذى فى السموات بإقدامه على الانتحار . وعندئذ أعلن ابنه تشنج وانج نفسه خليفة له ، فلم يمتد حكمه طويلا ، وفى يوليو قبض عليه وعلى مغتصب العرش وأعدما .

وكان أسوأ عواقب هذا العصيان الذى دام أربعة عشر عاماً الصدمة والنكسة التى أصابت العلوم التقليدية فى وادى نهر إليانج تسى : مركز الحياة الثقافية للصين ، فإن الثوار دمروا ثلاث مكتبات إمبراطورية بما حوت من كنوز لا آخر لها ، فضلا عن مجموعات عديدة أخرى أبادوها اندفاعاً وراء تعصبهم لمسيحيتهم المنحرفة . وكذلك دمرت حميتهم المخربة مراكز كثيرة للتعليم القديم ، وهى الجامعات المعروفة

* فى الإمكان الحصول على تحليل تفصيلى لهذه الترجمة الذاتية مع اقتباسات عديدة فى المقال الذى كتبه المسترج . ه تيسديل بعنوان الأمير المخلص فى « J. Roy. As. Soc. » فرع الصين الشمالية ١٩٢٦ (ص ٩٢ - ١٠٩) .

باسم شويوانج . ودمروا أيضاً أشياء أخرى باعتبارها رموزاً للوثنية منها آثار لا سبيل إلى تقدير قيمتها الفنية الفائقة، ومنها باجودا نانكين ذات الشهرة العالمية والمصنوعة من خزف البورسلان الصينى ، والتى يؤكدون أنها كانت إحدى عجائب الدنيا .

وبفضل نجاح الحملة على التايپنج ارتقى غارب الصدارة القومية بالبلاد ثلاثة من رجال السياسة ، ظلوا مجتمعين يتسلطون على الإمبراطورية فيما بينهم طوال الأربعين سنة التالية حتى أنقذوا أسرة المانشو من الانهيار الداخلى ، وحافظوا على مركزها ما وسعهم الجهد ، فى أشد الظروف صعوبة وفى وجه الضغط الأجنبى المتزايد . وكان تسنج كيوفان أسن الثلاثة وزعيم الاثنين الآخرين وهما تسوتسنج تانج ولى هنج تشانج ، وبفضله أنزلت الهزيمة على التايپنج ، ثم أصبح فيما بعد نائب الملك على تشهلى وهى الولاية الشمالية العظيمة ذات الموقع الاستراتيجى الهام . وبفضل نفوذه الهائل بالبلاط الإمبراطورى سارت العلاقات مع الحكومات الأجنبية سيراً مرضياً . وإلى تسنج كيوفان أيضاً يرجع الفضل فى تأسيس مصانع الحديد بشنغهاى ، وهى التى أصبحت فيما بعد ترسانة كيانجنان . وكان هو الذى أيد ينج ونج فى بنائه أول سفينة عصرية بالصين . ولم يكن تسوتسنج تانج* — وهو موظف آخر ممتاز اشترك مع تسنج فى قمع عصيان التايپنج — محبوباً لدى تسنج بأى حال ، بل كان يكرهه كمسرف فى النزعة العسكرية . ومع ذلك فإن خدمات تسو كانت رغم ذلك جديرة بالإعجاب . وهو الذى اضطلع بعبء القضاء على عصيان نيانفاى . ولكن أعظم مآثره هى القضاء على تمرد المسلمين الذى ظل أربعة عشر عاماً من ١٨٦٤ — ١٨٧٨ ينزل الدمار بمقاطعتى شنسى وكانسو . وقد استقلت فعلا مقاطعة سينكيانج تحت لواء زعيم مقتدر هو يعقوب بك ، وشرعت فى إنشاء العلاقات مع الدول الأجنبية . وكان الموقف الذى واجه إمبراطورية المانشو أخطر وأحرج فى كثير من النواحى من الموقف الذى واجهته بسبب عصيان التايپنج . وكانت حركة التايپنج عصياناً صادراً عن الصينيين ، وما كان نجاحها ليؤثر فى أحد

* فى ١٨٧٦ يوم كان تسو يقوم بإخماد العصيان ، بلغ الأمر بوزارة الخارجية البريطانية أن اقترحت على المبعوث الصينى كشنج صنج تاو اقتراحاً مفاده أن من مصلحة الصين إقامة مملكة إسلامية بآسيا الوسطى تحت حكم يعقوب بك ، وهو أمر أجاب عنه تسو بقوله : إنه إذا شاءت بريطانيا قيام دولة إسلامية فيجب أن تقدم لها الأرض بالهند (بايلز ص ص ٣٦٠ — ٣٦١) .

إلا الأسرة المالكة وحدها . أما ثورة المسلمين فى الشمال الغربى فكانت من الناحية الأخرى تمرداً على الصينيين. شرع البريطانيون بالهند والروسيون بآسيا الوسطى يظهرون اهتماماً بما كان يحدث قرب حدودهم . وزعم الناس حيناً من الدهر أن جهود كانج هسى وتشين لنج فى سبيل إعادة هذه المنطقة إلى حظيرة الأراضى الصينية ستمنى بالفشل والبوار وتنقلب رأساً على عقب . ولكن تسوتسنج تانج أنقذ الإمبراطورية من هذا التمزق ، فتقدم فى المنطقة ببطء ناشراً لواء الصلح والتهدئة حيثما سار ومتخذاً استعدادات شديدة قبل التقدم. واخترق تسو مقاطعة سينكيانج، وقضى على الدولة الجديدة التى أنشأها يعقوب باك ، مظهراً أثناء ذلك سعة حيلة مفرطة ولباقة وقدرة عظيمة على السياسة والتدبير ، ومصطنعاً إذا استدعى الأمر قسوة ليس لها نظير . . وفى ١٨٧٨ سلمت قشغر ويرقند وعاد الصينيون فصاروا للمرة الثانية سادة على سينكيانج* .

وسنعالج من تونا أثناء تقدمنا بأحداث التاريخ أمر لى هنج تشانج** وجهوده التى اتجهت فى معظم أمرها إلى الميدان الدبلوماسى فى المدة المنصرمة بين حادثة تيان تسن فى ١٨٧٠ وبين بروتوكول البوكسر فى ١٩٠١ ، وحسبنا هنا أن نقول إن لى هنج تشانج استطاع أن يصل إلى مركز الصدارة شأن زعيمه وحاميه تسنج بما بذل من أعمال انفرادية مستقلة تتجلى فيها الوطنية أنزل بها الضربات بالتايبنج. وعندما تلقى تسنج كيوفان معلومات عن ذلك العمل أخذه تحت قيادته . ولى هو الذى كان على ارتباط أولا مع المغامر الأمريكى وارد ، ثم مع غوردون بعد ذلك فى تنظيم جيش على الطراز الغربى . وهكذا يتبين أنه اتصل بالأجانب منذ وقت مبكر فى مدة خدمته الرسمية وهى خبرة أفاءت عليه الشىء الكثير من الخير أثناء السنين الثلاثين من الدبلوماسية الملتوية التى كان عليه فيها أن يكون المفاوض الأكبر للجانب الأضعف والمنهزم فى غالب الأحوال . .

---

* فى ١٨٧٦ ، يوم كان تسو يقوم بإخماد العصيان ، بلغ الأمر بوزارة الخارجية البريطانية أن اقترحت على المبعوث الصينى كشنج صنج تاو ، اقتراحاً مفاده أن من مصلحة الصين إقامة مملكة إسلامية بآسيا الوسطى ، تحت حكم يعقوب بك ، وهو أمر أجاب عنه تسو بقوله : إنه إذا شاءت بريطانيا قيام دوله إسلامية فيجب أن تقدم لها الأرض بالهند (بيلز من ص ٣٦٠ – ٣٦١) .

** هناك أربع تراجم للى هنج تشانج : وخيرهم ما كتبه ج . ا . ب . بلاند ١٩١٧ لندن . انظر أيضاً د . ك . دوجلاس فى « Li Hong-Chang and Mr. A. Little » ١٩٠٣ وكتاب « The Mannix memoirs of Li Hing-Chang » .

وكانت الإمبراطورية تبدو فى ثياب الرغد العظيم منذ عهد هزيمة التايپنج وعصيانات نيانفاى (١٨٦٥) حتى نشوب الحرب الصينية اليابانية ١٨٩٥ . فإن السلام كان يمد ظلاله على الصين من أقصاها إلى أقصاها بل كان يعم مناطق الحدود نفسها بعد إخفاق ثورة سينكيانج . وحدث انتعاش عظيم فى التجارة، كما أن مالية البلاد كانت تبدو سليمة . وكانت طائفة من الموظفين المجربين ذوى الخبرة ، وهم آخر جيل من الماندرين العظام ، تدير شئون البلاد مستمتعة بقدر لا بأس به من الكفاية . أما فى داخل البلاد فإن هيبة الأسرة المالكة والإمبراطورية كانت عالية كريمة . ولم تحدث منازعات خطيرة بين الدول الأجنبية والصين ، وإن أمدتها حادثة تيان تسن،والعملية الحربية الفرنسية التى عقبتها بصورة تنبأت لها بما يخبئه لها المستقبل .

على أن الدول الأجنبية كانت إبان تلك الفترة تؤسس بنيان العلاقة التى تهبط بالصين إلى العجز ، وتحولها إلى فريسة لا قبل لها بمقاومة عدوانهم . فتحت ستار نصوص معاهدة تيان تسن ، كانت الدول الغربية وبخاصة إنجلترا تصوغ للصين بهدوء وفى خفاء تام ، الأغلال السياسية والتجارية والاقتصادية التى من شأنها أن تحد من سياسة الحكومة المركزية ، فقوضت سلطانها فى الولايات النائية،وأقامت فى مناطق شاسعة مترامية نفوذاً اقتصادياً حولها إلى محميات بريطانية . وفى الحين نفسه كا ـ كل من الولايات المتحدة وفرنسا تنفذ سياسة مرسومة من العدوان الروحى؛ كان المقصود منه فى حالة الأولى فتح الصين لصليب المسيح وتجارة الأمريكيين ، وفى حالة الثانية تمهيد الطريق لفتحها لحساب الكنيسة الكاثوليكية والنفوذ السياسى الفرنسى . على أن ما استخدمته الدول من وسائل عادت عليها فى مدى عشرين عاماً بمنافع سياسية كثيرة ، وهوت بالصين إلى منزلة منطقة شبه مستعمرة . وكانت من الأشياء الجديرة بالدراسة الدقيقة .

وبمقتضى المعاهدات كان يسمح للأجانب بالإقامة فى الموانى المفتوحة للتجارة والقيام بالأعمال المالية. وكانت تلك الموانى وأهمها كانتون وسواتو وآموى وفوتشو ونتجبو وشنغهاى وتسنجتاو وتشيفو وتيان تسن منتشرة على ساحل الصين بأجمعه من كانتون جنوباً إلى تيان تسن شمالا ، ولكن بصرف النظر عن الموانى القائمة على

الشواطئ كانت مدن كثيرة على نهر اليانجتسى من تشينكيانج إلى تشنجكنج بما فى ذلك نانكين وهانكاو ، وإلى مسافة نحو الداخل تقارب الألف ميل تعد من موانى المعاهدات . فإن الأجانب زحفوا إلى تلك الموانى فى بطء وهدوء استناداً إلى النص الذى يسمح لهم بالإقامة والاتجار وأخذوا يشيدون لأنفسهم فيها المستقرات والحلل على مهل وهدوء ، مدعين لأنفسهم الحق فى إقامة مؤسسات البلديات والمحاكم . وهكذا ظهرت فى عالم الوجود فى هانكاو على مئات عديدة من الأميال فى أعالى نهر اليانجتسى ، ظهرت مستقرات بريطانية وفرنسية وألمانية وروسية . ولما كان للأجانب الحق فى الالتجاء إلى محاكمهم الخاصة فإنهم أنشأوا محاكم بتلك الأماكن. ولم تنقض بضع سنين حتى أصبح منتشراً فى كل أرجاء الصين قطع صغيرة من الأرض تنبذ عنها سلطة الصين وقوة تشريعها ، كما أنها أصبحت فى بعض الأحيان مراكز لكل نوع من أنواع التجارة غير المشروعة .

وفضلا عن هذه المستقرات والحلل كانت هناك مناطق الامتيازات التى كان أهمها الامتيازات الدولية والفرنسية بشنغهاى ، والامتيازات البريطانية والإيطالية والألمانية (وبعد ذلك اليابانية) فى تيان تسن ، والامتيازات البريطانية والفرنسية بكانتون . وغنى عن البيان أن قصة قيام (وسقوط) الامتيازات الأجنبية بشنغهاى قصة خيالية ساحرة ، تنطوى على كثير من ألوان المغامرة والروح التجارية وطرائق الغربيين التعاونية فى الإدارة والبوليس والأعمال التجارية ، فضلا عن الممارسات الدولية المنطوية على الحذق والمهارة ، والوصول إلى العظمة على حساب الضعيف ، والتسامح إزاء الرذيلة ، والتغاضى عن ألوان الشر والإثم. وهذه الكلمات خير معوان لنا على تلخيص هذا الفصل من فصول علاقات الغرب بالصين . وكانت شنغهاى فى ١٨٤٢ مدينة مسوّرة عند مصب وادى نهر هوانجبو الذى يصب فى نهر اليانجتسى قرب مصبه . وكانت أهميتها ترجع إلى موقعها عند فم وادى يانجتسى . وقد أدخلت فى معاهدة ١٨٤٢ فى قائمة الموانى الخمس التى جعلت مفتوحة لإقامة الأجانب وتجارتهم . واستطاع قناصل بريطانيا وفرنسا (وأمريكا فيما بعد) أن يحصلوا من السلطات المحلية على «مستقرا » أى مناطق مخصصة لنزول أبناء جنسيتهم ، وظهرت القنصليات إلى الوجود وإلى جانبها وكالات الشركات المشتغلة

بتجارة الصين ، ولم يكن هناك أدنى نزاع حول حق الولاية فى تلك المنطقة ، ولكن موظفى القنصلية البريطانية شرعوا من فورهم يؤسسون نواة لمجلس بلدى ، ما لبث أن أنشأ لجاناً لمختلف الشئون . ولم يلبثوا إبان العشرين السنة التالية حتى جمدوا موقفهم ومركزهم ، فأصدرت لجنة المجلس البلدى فى ١٨٦٩ استناداً إلى سلطتها الخاصة ما أسمته « لائحة تنظيم الأراضى » وبمقتضاها اتخذوا لأنفسهم الحق فى جمع الرسوم والضرائب ، والهيمنة على النظم الصحية والشرطة . وذلك هو ما يسمى باسم مرسوم شنغهاى الموحد نفسه بنفسه ، الذى صرح بشأنه القاضى فيثام فى صنف غريب من المنطق ، اتسمت به بوجه خاص جنوب أفريقيا ، أن له قداسة المعاهدة .

وادعى مجلس بلدية شنغهاى بمقتضى لائحة تنظيم الأراضى أن له الحق فى إنشاء الطرق الخارجة من المستقرة ، وهذا زود المجلس بستار يبسط من تحته الحقوق التى كانت تدعيها البلدية ، وهكذا ادعى المجلس ادعاءات أخرى فى مساحات أكبر من الأراضى . وموجز القول أنه فى غضون العشرين السنة الأولى بعد معاهدة تيان تسن فى المدة بين ١٨٦٠ ، ١٨٨٠ ، تطورت «المستقرة الدولية » بشنغهاى حتى أصبحت دولة مدنية ذات سيادة ، مستقلة عن الصين ، لا يسمح للشرطة الصينيين بالعمل بها ، ولا اختصاص للمحاكم الصينية فيها حتى على رعايا الصين أنفسهم ، ولا تطبق بها القوانين الصينية . وأنكى من ذلك ، أن الصينيين كانوا يعاملون بوصفهم أفراداً من شعب أدنى مرتبة ليس له أى حقوق ، وظهر إعلان فى مواضع بارزة يعلن أنه : « ممنوع دخول الصينيين والكلاب فى هذه الحديقة » . واندمجت الحلتان الأمريكية والبريطانية بعضهما ببعض ، ونشأ ما كان يعرف باسم المدينة الدولية التى تضم آلافاً عديدة من الأجانب وعدداً ضخماً من السكان الصينيين .

وكانت شنغهاى تدعى أن بها أطول حانة فى العالم ، وأنه قد اجتمع فيها كل ما يسر النفس من مباهج ؛ ميدان هائل للسباق ، وأندية ريفية عديدة تجمع بين أعضائها كل مترف ، وتحاكى فى الشرق ملذات الأثرياء بأوروبا وأمريكا . وكانت بها أيضاً أكبر دور الملذات وأعظمها نفقة ، وبها مواخير الأفيون وجميع

مظاهر الحضارة التى يلوح أنها من مستلزمات النشاط البحرى العظيم . ولعل هذه الأمور لم يكن منها مفر فى مثل هذا الكيان الأجنبى عن البلاد ، والذى لم يعمل فيه بقيود القوانين الوطنية . على أن الشيء الذى له أهميته وقيمته الكبيرة لدراستنا أن شنغهاى تطورت أثناء تلك المدة فأصبحت مدينة مستقلة وُضعت الولاية فيها فى يد هيئة من موظفى القنصليات الأجانب ، وكانت الإدارة فيها بيد الأجانب . لقد أوشكت أن تكون دولة عظمى سادسة ببلاد الشرق ، تتصرف فى سياستها المصالح المستثمرة فى التجارة وأعمال المصارف .

وكان لنمو هذه المدينة المختلطة فى ميادين المال والتجارة أثر عميق فى الصين وإن ظل خفياً — فبطريقة تشابه تلك التى شهدناها ببلاد الهند عند نهاية القرن الثامن عشر ، شرعت الحياة الاقتصادية للبلاد ، وقد ظلت قروناً مركزة فى البر وقائمة عليه ، تفيض آنئذاك نحو المدن الساحلية ببلاد الصين وخاصة شنغهاى . وسرعان ما أنتج اقتصاد هذه المدينة القائم على البساطة بين الصينيين ، ومن عداهم من الناس طبقة من التجار والوسطاء والمصرفيين ووكلاء دور الأعمال الأجنبية الذين صارت قوتهم حين ينضمون إلى نقابات التجار القديمة هائلة جداً للعلاقة التى كانت تربطهم بالصين الداخلية — وهو فى الواقع نفس الوضع الذى أصبحت فيه فى ظروف مماثلة طبقة السيث وتجار الموانى بالهند من حيث علاقتهم بالإمبراطورية المغولية بالهند، والحق أن شنغهاى أصبحت عاصمة تنافس بيكين .

وبغض النظر عن هذا التطور للامتيازات والمستقرات التى انتشرت بكل أرجاء الصين ، بدأت الدول الأجنبية ، فى تلك المدة ، أيضاً تبسط سلطانها على الطرق المائية الداخلية العظيمة . وقد نصت معاهدة تيان تسن (مادة ٥٢) على أن يكون للسفن الحربية البريطانية القادمة لغير غرض عدائى أو المشتبكة فى مطاردة القرصان ، مطلق الحرية فى زيارة جميع الموانى الواقعة داخل ممتلكات امبراطور الصين - وتجاوزت السلطات البريطانية ، من ورائها الدول العظمى الأخرى ، وجهة النظر الصينية الذاهبة إلى أن تلك الفقرة لا تمنح للسفن الحربية البريطانية إلا الحق فى زيارة الموانى المفتوحة للسفن الأجنبية فقط ، فاحتفظوا (أى الأجانب) بأساطيل من زوارق المدفعية تتولى أعمال الداورية فى نهر كانتون واليانج تسى .

وبهذه الطريقة أصبحت المنطقة الممتدة بين تشنج كنج وشنغهاى ، وهى تمتد ألفا وخمسمائة ميل فى صميم الصين وقلبها ، خاضعة لهيمنة البحريات الأجنبية . وما فى شاهد أدل على الطريقة البشعة التى أساءت بها الدول الغربية استخدام حقوقها التى نصت عليها المعاهدات من هذا المط الغريب لما قصد به فى البداية أن يكون حق زيارة الموانى . لقد احتفظت بريطانيا بضابط يحمل لقباً عجيباً هو نائب أميرال اليانجتسى ، وربما أتيح لنا أن نفهم وجهة النظر الصينية لو تذكرنا كم غضبت بريطانيا عندما سمى الإمبراطور غليوم الثانى نفسه أميرال المحيط الأطلسى ، وإن لم يدع أحد قط أن ذلك المحيط طريق مائى داخلى تابع لأحد . وكان أسطول زوارق المدفعية الذى كان يطوف بنهر اليانج تسى ذهاباً وغدواً، إغراء مستديماً للممثلين المحليين للدول العظمى بأن يشتدوا ويشحذوا نصال مطالبهم غير المعقولة فى غالب الأحيان بمظاهرة يقومون بها أو بالتهديد بالقذف بالدافع . وفى الإمكان تقديم أمثلة عديدة على هذا النوع من « دبلوماسية زوارق المدفعية » التى كانت تتخذ لصالح المبشرين والدائنين من الأفراد، بل حتى الأهالى العاديين المعتنقين للنصرانية .

وفضلا عن الحالات التى لم تستلزم إلا تدخلا محلياً فقط ، فهناك حادثتان قذرتان استخدمت فيهما دبلوماسية زوارق المدفعية لمصلحة المتنصرين والمبشرين المسيحيين ابتغاء تأكيد السلطان السياسى . ففى ١٨٦٧ ، تمرد السكان المحليون وأحدثوا الفتنة فى مدينتهم عندما افتتح المبشرون داراً لهم بإحدى المدن الداخلية وهى يانج تشاو . وأحرقت دار التبشير ، وإن لم يقتل أحد من المبشرين . وعند ذلك انطلق القنصل البريطانى مدهرست بشنغهاى بعد قيامه ببعض المحاولات لإرهاب الموظفين ، اذ لق إلى نانكين فى حراسة أربع سفن حربية ، وهدد نائب الملك حتى حمله على خلع حاكم المنطقة التى حدثت فيها الشغب . وبذلك تم الانتقام للمسيح وتم إظهار ما لقوارب المدفعية البريطانية من قوة عارمة .

ورأت فرنسا أنه لا يليق بها أن يسبقها أحد ، فشرع الأساقفة الفرنسيون يتخذون لأنفسهم السلطة، ويكتبون مباشرة إلى تصنجلى يامن — وهى المعادل الصينى لوزارة الخارجية — فى شأن مصالح بعثاتهم . وبحجة أن بيتين من بيوت التبشير

قد نهبا فى مكان سحيق بالداخل هو كومتيه دى روش شوات، زار القائم بالأعمال الفرنسى نائب الملك فى نانكين تحف به سفينتان حربيتان تقدمتا فى نهر يانجتسى .

وكان نظام الحقوق الأجنبية بالصين قائماً على نظام الامتيازات القضائية بالنسبة للدول الموقعة على المعاهدة ، أما من حيث المستوطنات ومناطق الامتيازات فإن القناصل كانوا يدعون لأنفسهم فيها أعجب أنواع المدعيات وأشدها تطرفاً من حيث «الولاية» ، حيث ادعى القنصل البريطانى ، فى مكان ما دون أن ينجح فى ذلك ، أن له الحق فى ممارسة سلطات البوليس حتى على النزلاء الأمريكيين المقيمين داخل مستوطنة بريطانية . وكانت اختصاصات البوليس معناها رجال البوليس والسجون ومحاكم الاستئناف إلى آخره . وبطبيعة الحال احتفظ البريطانيون بالجهاز كاملا مع محكمة عليا بشنغهاى . على أن كثيراً من الدول الأخرى لم تتيسر لها مثل تلك الوسائل . ولذا فإن قضايا الاستئناف عن أحكام المحاكم الأخرى كانت تقدم إلى العواصم بأوروبا . وكان قناصل الدول الكبرى يدعون جميعاً أنهم المؤتمنون من حيث المصلحة فى محاكمة الأوروبيين الذين ليست لهم امتيازات قضائية (حقوق التقاضى أمام محاكم بلادهم) . وربما أمكن التجاوز عن ذلك كله ، ذلك لأن الأمر فيه كان مقصوراً على مناطق محددة ، لولا المركز الذى كانت الدول تدعيه لنفسها داخل البلاد والحماية التى كان يدعيها لأنفسهم المتنصرون . وبمقتضى المعاهدات كان كل ما لبعثات التبشير من حقوق هو حق الإقامة حيث شاءوا واقتناء الأملاك حيث أرادوا . بيد أن الفرنسيين دسوا فى معاهدتهم فقرة دون علم من الصينيين ، وبها ادعت فرنسا لنفسها حقاً عاماً من الحماية على الكاثوليك وفيهم الصينيون المتنصرون . ومهما تكن الحال فقد ادعى القوم أن الفقرة المذكورة فى المعاهدات مع الدول الأخرى التى تنص على عدم جواز اضطهاد المتنصرين الصينيين كانت تعطى القناصل الأجانب حق التدخل فى كل قضية يكون الصينيون المسيحيون طرفاً فيها . وسنعالج هذا الموضوع فى شىء من التفصيل فى فصل تال . وكل ما يهمنا تأكيده هنا هو أن الذى حدث بين ١٨٦٥ ، ١٨٨٥ لم يكن أن الكاثوليك وحدهم هم وبعثات التبشير الداخلية ، هم الذين تغلغلوا فى البلاد

إلى أقصى أركانها ، حاملين معهم حقهم فى التقاضى أمام محاكمهم ، وادعاءاتهم فى حماية الصينيين النصارى ، بل شاركهم فى ذلك كثير من الطوائف الأخرى . والواقع أنه تجلى للعيان أن ذلك كان اعتداء أكبر على سيادة الصين وسلطتها على شعبها من الامتيازات نفسها والمستوطنات والتوسع فى رقعة الممتلكات .

وفى أثناء تلك الفترة أيضاً شرعت الدول تقتطع من الصين ولايات ارتضت قبل ذلك سيادتها عليها ، وكان أول ما ذهب من هذه الولايات كمبوديا وأنام . وفى ١٨٨٦ ألحقت بورما العليا ، وألزمت الصين بالموافقة على هذين التغييرين . وقد ظل الضغط على أطراف الصين ومناطقها الخارجية متواصلا حتى استعادت الصين سيادتها كاملة بعد الحرب العظمى الثانية ، غير أنه ربما كان من المستحسن أن نؤكد — بالنظر إلى انتقادات الأجانب لعدوان اليابانيين فى كوريا ومنشوريا ومنغوليا — أن طريقة العدوان على المناطق الخارجية وفصمها تدريجياً عن الصين قد ضرب الأسوة فيها أصلا فرنسا فى موقفها من كمبوديا وأنام وتونكين ، يعقبها فى ذلك بريطانيا فيما يتعلق ببورما .

على أن موقف الدول من الصين فى ذلك الزمن لم يتم فهمه على أحسن وجه إلا تحت ضوء حادثتين تعرفان باسم مذبحة تيان تسن ومعاملة بعثة براونى . وأولى الحادثتين هامة لأنها هى المقدمة الحقيقية للهجمات التى شنت على سلطان الصين ، تلك الهجمات التى جربتها كل دولة فيما بعد بنجاح تام .

أقام الفرنسيون كاتدرائية كاثوليكية فى ١٨٦٩ دون أى حق قانونى ، وذلك فى موضع معبد بتيان تسن الذى كان قصراً إمبراطورياً أيضاً . ويصف المؤرخ الأمريكى مورس بعبارة محكمة سلوك السلطات الفرنسية عامة إبان السنوات العشر حينما استقروا أثناءها فى تيان تسن قبل تلك الحادثة ، فيقول : « ليس من المبالغة فى شىء القول بأن الشعب الفرنسى والبعثات التبشيرية الكاثوليكية بصفة إجمالية كانوا موضع المقت والكراهية فى تيان تسن » * . وكان بتيان تسن أيضا ملجأ للأيتام أسسته جمعية راهبات كاثوليكيات . وكانت هؤلاء الراهبات يدبرن المال اللازم لدفعه عن كل طفل يجلب إلى الملجأ ، ومعنى ذلك بصريح العبارة أنهن كن يقمن

* انظر : « International Relations » تأليف مورس وماك نير ص ٤٠٤ .

بنوع من نظام الشراء ، مشجعات بذلك من لاخلاق لهم من الوسطاء الصينيين على اختطاف الأطفال . وكانت الراهبات تدفعن مبالغ مالية مقابل تعميد أطفال يكونون فى أواخر مراحل المرض على اعتقاد لا يخامرنا الشك فيه بأن الوفاة بعد التعميد مباشرة لابد أن تضمن سلامة الروح . وطبيعى أن الجمهور الصينى كان يضطرب أيما اضطراب بسبب هذا العمل الذى كان يحض الناس على اختطاف الأطفال كما مسهم الاضطراب من أنه بعد التعميد مباشرة كان العدد الجم من الأطفال ، يقضون نحبهم ويدفنون فى مقبرة المسيحيين . وفى ذلك الوقت انتشر بملجأ الأيتام وباء مات به كثير من أطفاله . وتولى النائب الإمبراطورى الذى عرضت عليه المسألة دراسة الموضوع مع القنصل . وتم الاتفاق على أن تقوم بالتفتيش على المؤسسة لجنة من الصينيين . ولكن القنصل الفرنسى شعر هنالك بأن سلطته قد مست ، فتدخل وأخذ يعارض كل فكرة تدعو إلى التفتيش . وسرى تيار الامتعاض العام عارماً قوياً ، كما أن الفقرة التالية المقتبسة من تقرير النائب الإمبراطورى تبين لنا طبع القنصل واتجاهه وموقفه . « وعندما خرجت لاستقباله (يعنى القنصل) رأيته وقد غلب على مسلكه الحنق ، وقد وضع بمنطقته غدارتين وكان معه أجنبى مسلح بسيف . فسارعا بالتقدم نحوى مندفعين ، وما إن وصل المسيو فونتنيه إلىّ حتى أخذ يتكلم بطريقة خارجة عن كل لياقة ، وأخرج من منطقته غدارة أطلقها بحضرتى ، ومن حسن الحظ أن الطلقة لم تحدث أثراً ، كما أنه قبض عليه ، وتجنباً لحدوث صدام شخصى انسحبت من الموقف » . وبينما ذلك القنصل الأهوج عائد من اليامين أطلق النار على الجمهور وما لبث أن قتل . وبعد ذلك أضرم الجمهور النار فى الكاتدرائية ودمرت المؤسسات المسيحية . وفى ٢١ يونيو ١٨٧٠ أفلت زمام الجماهير وأنزلوا انتقامهم بالفرنسيين .

وانتهزت الدول تلك الفرصة لتقديم مذكرة جماعية إلى حكومة بيكين ، وتبع ذلك وصول عمارة بحرية فرنسية إلى تيان تسن بقيادة أميرال ، وسرعان ما انضمت إليها سفن تابعة للبحرية البريطانية والأمريكية والإيطالية . لقد اجتمعت الدول الغربية صفاً واحداً ، وكانت مطالب الفرنسيين التى تؤيدها الدول الأخرى تتضمن الإعدام بقطع الرأس للموظفين المتصلين بالحادث ، وهدد القنصل الفرنسى إذا لم

يقبل هذا المطلب أن يسلم مقاليد الموقف للسلطات البحرية . وكانت الحرب قد أعلنت فى تلك المدة بين فرنسا وألمانيا ، وكان المبعوث الفرنسى يأمل كسادته فى باريس فى أن تحرز بلاده نصراً يعيد عظمة فرنسا وسبقها إلى نصابه. ورفض الصينيون أن يقطعوا رءوس الموظفين دون محاكمة ، وعرضوا أن يعدموا عشرين من المشتركين فى الفتن ، وأن ينفوا الموظفين من البلاد . وعندئذ عاد ممثلو بروسيا (وكانت مشتبكة عندئذ فى الحرب مع فرنسا) وانجلترا والروسيا وأمريكا ، فأرسلوا للمرة الثانية مذكرة جماعية تعبر عن عدم الرضا عن ذلك العرض ! ووقف لى هنج تشانج وكان عين فى ذلك الحين نفسه نائب ملك بمنطقة تشهلى ، وكان مسئولا بناء على ذلك عن المفاوضات ، — وقف موقف الحازم المتشدد وتمت تسوية الأمر لسبب رئيسى هو أن فرنسا كانت طريحة محطمة بعد حربها مع ألمانيا ، وعندئذ أدركت الصين أن الدول تتحد عليها .

وكانت الحادثة الثانية أغرب من ذلك كثيراً ، فإن الحكومة البريطانية بالهند عزمت فى ١٨٧٤ على إرسال بعثة تجسس تعبر حدود بورما إلى يونان . وجهزت حملة تربى عدتها على ١٩٠ شخصاً بقيادة الكولونيل هوراس براونى ، الذى أمر أن يخرج من بهامو — وألحق بالكولونيل براونى ضابط بالخدمة القنصلية بالصين اسمه مارجارى بوظيفة مترجم . فلما عبرت الجماعة الحدود الصينية حذرت من أن السكان المحليين كانوا معادين لهم عداء مفرطاً . بيد أن الجماعة لم تعر ذلك التحذير أذناً صاغية ، اعتماداً على ما قرره مارجارى وسارت قدماً ، ولكنها وقعت فى كمين ، واضطرت إلى العودة عند بهامو ، على أن مارجارى المأفون ، الذى تخلف ، قتله رجال القبائل المعادون ومعه خمسة من الصينيين . والحق أن الحكومة الصينية لم تكن لها أى يد مطلقاً فى هذا الأمر . فإن يونان كانت فى حالة ثورة عليها . وكان البريطانيون يشقون طريقهم بالقوة ، داخلين إلى منطقة كانوا يعرفون مقدماً أن الأحوال فيها غير مستقرة ، وكانوا يريدون أن يقوموا بمهمة تجسس صريحة لا لبس فيها . وفضلا عن ذلك فإن الصينيين الخمسة المرافقين لمارجارى قد قتلوا هم أيضاً ، ومع ذلك فإن الكولونيل وايد أقدم مباشرة على اتخاذ ذلك ذريعة لطلبات شاملة تتضمن أشياء من أمثال « إعفاء التجارة من كل رسوم الاستيراد » و « تسوية جميع المنازعات

الهامة ذات الطابع المحلى » . واستخدمت الديبلوماسية الغربية مع الصين كل وسيلة تعرفها من وسائل الإخافة والإرهاب لدولة أضعف . وكان الوزير البريطانى يرغب فى أن يسوى دفعة واحدة وإلى الأبد المسائل الكبرى البارزة بين الطرفين على أساس هذه الحادثة الصغيرة . وعندئذ عادت الحكومة الصينية فعينت للمرة الثانية لى هنج تشانج مفاوضاً يتفاوض مع السلطات البريطانية ، وكانت نتيجة ذلك هى ما يسمى باسم ميثاق تشيفو . وكان مستشارا « وايد » الرئيسيان أثناء تلك المفاوضات هما الأميرال رايدر والأميرال لامبرت . وهو أمر يدل صراحة على أن البحرية الملكية كانت تقف على أهبة الاستعداد لاتخاذ الإجراء المناسب . وكان الشطر الغريب فى ذلك الميثاق الناشئ عن مقتل مارجارى وإخوانه الصينيين هو المتعلق بالتجارة ، إذ نص الميثاق على فتح مدن عديدة أخرى فى حوض نهر يانجتسى لتكون موانئ ترسو عليها البواخر رسواً عابراً ، كما نص أيضاً على إعلان أن فوهو وونتشو وباخوى موانئ معاهدة إلخ . ومما يشوقنا أيضاً أن نلاحظ أن المعاهدة كانت تحوى مادة منفصلة تنص على دعوة الصينيين أن يقدموا الحماية لبعثة بريطانية سترسل من الصين إلى الهند عن طريق بلاد التبت .

ويدلك هذا الموجز على أن السنوات الخمس والعشرين التى بدأت بالقضاء على عصيان التايبنج كانت أشد السنوات حسماً فى تاريخ علاقة الصين بالغرب . على أن رغد الصين الظاهرى كان برقاً خلبا ؛ فبينما كانت موانى المعاهدة مزدهرة ، فإن الاقتصاد الداخلى للبلاد كان ينحدر فى طريقه إلى الانهيار ، أجل إن الصين لم يكن عليها ديون لابد لها من أدائها ، ولكن الواقع أنه فى أثناء تلك الفترة بلغ من تقوض سلطان الصين ومن انهيار هيبة الحكومة التام فى نظر شعبها نفسه ، بحيث يمكن أن يقال إنه مهد الطريق لانسدال ظلمة الليل الشيطانى الحالك * للتوسع الإمبراطورى الذى اجتاحها إبان العقد الذى عقب الحرب الصينية اليابانية فى ١٨٩٥ .

وثم نزاع كبير جعل العلاقات الدبلوماسية بين الصين والأمم الغربية بقيادة

---

(١) هنا يشبه المؤلف هذا التوسع الإمبراطورى بليلة والبراجس . . وهى ليلة من الأساطير الجرمانية القديمة يجتمع فيها الساحرات ليعبدن الشيطان – وتقع دائماً فى أول مايو من كل سنة . (المترجم)

بريطانيا مفرطة الصعوبة والتعقيد؛ هو موقف جالية التجار البريطانيين . وكانت خرافة التجارة التى لا حد لها قد اجتذبتهم إلى داخل البلاد . وكان أن أصبح الطريق المركزى الكبير لتجارة الصين وهو نهر اليانج تسى مفتوحاً آنذاك أمامهم . فكانت « المستقرات » والمراكز التجارية تقوم فى كل مدينة من المدن الهامة . ولكن لسبب ما كانت النتائج مخيبة للآمال لدرجة مريرة . فإن التجارة الخرافية للصين لم تحقق جسداً سوياً . ففى ١٨٥٧ أى بعد معاهدة نانكين بخمس عشرة سنة ، كان الموقف التجارى بشنغهاى على الوجه التالى : كانت الصادرات من الصين تقدر بما يزيد زيادة طفيفة على عشرة ملايين من الجنيهات ، وذلك على حين لم تكن الواردات المشروعة إلى الصين لتتجاوز الثلاثة الملايين إلا قليلا . وكان الميزان يوازن بالأفيون (٤½ مليون جنيه) والسبائك ، والأمر كما أوضحه ألكوك أكبر حجة بالقنصلية حيث قال :

« عندما عقدت معاهدة تيا تسن كانت هناك صيحة إجماعية مدوية تطالب بعدد أكبر من الموانئ وفتح نهر اليانج تسى إلى هانكاو . وتحققت للقوم أمنيتهم ، ولكن ماذا كانت النتيجة ؟ — إن خير شاهد على ذلك هو الإفلاس العام ، وانتقال التجارة الأجنبية انتقالا تاماً تقريباً إلى أيدى الوطنيين والمناطق غير المحتلة بكل ميناء من الموانئ » .

وكانت جماعة التجار تنسب فشلها إلى معارضة الموظفين الصينيين وإلى الضرائب المكدرة . وكان العلاج الذى يقترحونه ويضغطون به على الحكومة البريطانية مؤثرين إياه عن أى طريق يستطيعون سلوكه ، هو أن تتولى الحكومة البريطانية إجبار الصين على شراء البضائع البريطانية . وكانت صيحتهم هى « تنفيذ المعاهدة » من حيث التعامل المباشر مع المستهلكين الصينيين . وكانت رغبتهم التى يعبرون عنها صراحا هى أن القطر بأكمله ينبغى أن يتحول إلى ميناء معاهدة مكبر ، مع نقل جميع السلطات إلى الموظفين المحليين الذين ينبغى أن يمنح القناصل فى تعاملهم معهم حق استدعاء زوارق المدفعية لتكون آخر حجة يحتجون بها . وكانوا يطالبون صراحاً بضرورة إنشاء محمية على وادى نهر اليانج تسى على الأقل ، ويعدون فى تلك الحالة أن تجد لانكشير سوقاً لا نهاية لها ، وكما قال بوتنچر : « إن جميع مصانع

لانكشير لا تستطيع أن تصنع من الجوارب ما يكفى ولاية واحدة من ولاياتها » .

ولم يفت ذوو الخبرة من رجال القنصليات أن ذلك كله ليس إلا ضرباً من ضروب التفاؤل الأحمق والغرور الأجوف ، وقد قام « متشل» القاضى المساعد بهونج كونج بعمل تحليل جدير بالإعجاب للإمكانيات التجارية بالصين ، فسر فيه لوزارة الخارجية ما ينطوى عليه ادعاء التجار من سخف . فبعد أن أوضح كم يبدو غريباً أنه بعد انقضاء عشر سنوات على إزالة القيود لم تستطع الصين أن تستهلك نصف ما تستهلكه هولندة ، عاد ففسر ذلك بقوله : « عندما فتحنا أبواب المقاطعات المطلة على البحر بهذه البلاد فى وجه التجارة البريطانية منذ عشر سنوات ، كون بعضهم آراء من أسخف ما يكون حول الطلب الذى سينبثق منها لا على مصنوعاتنا . فإن أصدقاءنا بمانشستر وشركاءهم النازلين بهذه البلاد . . . يلوح أنهم قد أصابهم جميعاً مس من الجنون إزاء فكرة التجارة الحرة مع بلد يحوى : « ثلاثمائة أو أربعمائة مليون من الكائنات البشرية » .

وكتب أحد القناصل بعد خبرة دامت عشر سنوات تقريراً جاء فيه : « فيما عدا خدمنا لم أر قط صينياً ممن يحصلون على خبزهم اليومى بعملهم اليومى يرتدى ثوباً من قماش القطن الطويل المقاطع الذى نصنعه » . لم يفت بعض الموظفين القنصليين الآخرين أن يحذروا وزارة الخارجية البريطانية باستمرار من « مراودة أى أمل فى استئصال ميل الصينيين الشديد إلى الاقتصاد فى حياتهم المنزلية » ، على أن تجار معاهدات الموانى كانوا يرون خلاف ذلك ؛ إذ أنهم كانوا مقتنعين كل الاقتناع بأن الصينيين كان يمنعهم الماندرين من الإقبال بحرية على الشراء ، وأنهم — أى التجار — او أطلقت يدهم فى العمل ، فإن ولاية واحدة من ولايات الصين تستطيع أن تستنفد كل ما تنتجه لانكشير وزيادة .

ومع أن وزارة الخارجية اقتنعت أخيراً بصحة الرأى الذى كان يبعث به إليها موظفو قنصلياتها ، إلا أن ضغط رأى التجار كان من القوة فى كل آن بحيث جعل من الضرورى اللجوء إلى التراخى والتفاهم . مثال ذلك أن « وايد » استخدم الفرصة التى أتاحتها حادثة مارجارى لإجبار الحكومات الصينية على فتح أبواب عدة مدن أخرى على اليانج تسى فى وجه التجارة الأجنبية. بيد أن إخفاق الحلم

التجارى ظل غمامة كريهة حتى بداية عهد السكك الحديدية، يوم أصبح غرض المصالح البريطانية الاستثمار المالى لا التجارة .

وهناك نتيجة غير متوقعة لبسط رقعة الأعمال المالية لأجنبية نحو الداخل هى نمو طبقة تجارية صينية قوية، ففى ١٨٦٩ استلفت السير رذرفورد ألكوك النظر إلى أن توزيع التجارة فى داخلية البلاد قد انتقل إلى أيدى التجار الصينيين . وكان تحول التجارة الأجنبية فى اموى إلى أيدى التجار الصينيين موضع ملاحظة القنصل، كما أنه حدث فى فوتشو أن قدم تقرير يقول : « إنه نظراً لتفوق الصينيين فى المعرفة باللغة والأسواق وقلة ما ينفقونه من نفقات عامة ، فإن الصينيين يكادون يحتكرون عملية التوزيع » . ولعل القارئ يذكر أن موقفاً مماثلا لهذا كان موجوداً بالهند منذ البداية نفسها ، وبعد أن استقر سلطان البريطانيين كان الذى يتولى توزيع البضائع البريطانية هو التاجر الهندى . وكان نمو هاته الطبقة التجارية القوية ، لا فى المناطق الساحلية فحسب ، بل وفى وادى نهر اليانج تسى بأجمعه : كان انقلاباً اجتماعياً ذا أهمية عظمى ، كما سنشهد ذلك فيما بعد .

وهناك ناحية أخرى لهذه المسألة لابد لنا من ذكرها قبل أن ننتقل من تاريخ هذه المدة ، وهى إنشاء إدارة الجمارك البحرية الصينية . ذلك أن نظم التجارة الملحقة بمعاهدة تيان تسن قد أوضحت أنه فى الموانى المفتوحة ينبغى أن تفرض الرسوم الجمركية على أساس موحد ، وأنه ينبغى أن يعين الأجانب حسب رغبة الصينيين للمساعدة فى تلك الإدارة . وفى ١٨٦٠ وبمقتضى ميثاق پيكين ، عندما اتفق على أن تتقاضى البلاد الأجنبية تعويضاتها من إيراد الجمارك أصبح للممثلين الأجانب مصلحة مباشرة؛ إذ كانت مصلحة الجمارك هى الرهن الذى يمثل هذه التعويضات . وفى ١٨٦٣ عين روبرت هارت، وهو أرلندى ، بوظيفة المفتش العام لمصلحة الجمارك البحرية ، وهى مصلحة تتبع الحكومة الصينية بالاسم فقط ، ولكن كان يديرها بصورة شاملة كل الشمول أجانب ينتمون إلى كل جنسية بالغرب ، فأما وصف الخدمة بها بالنزاهة والكفاية فأمر معترف به ، ولكن الأمر الذى كثيراً ما يهمل وينسى هو أنها كانت تحد من سلطان الصين .

ومع ذلك ، فإن من المهم أن نلحظ أن جالية التجار البريطانيين كانت

تنظر إلى هذه المصلحة التى يديرها أجانب كأنها عائق ضخم فى سبيل نمو تجارتهم. وهناك مراسلات عديدة نتبين منها أن أعمال سلطات الجمارك فى تنفيذ القوانين كانت تعد أعمالا منافية للوطنية ، معادية للأوروبيين كما تعد على وجه الجملة شيئاً ينبغى أن يعترض عليه . وبلغ الأمر بتجار شنغهاى وهنج كنج أن أعلنوا أنهم لا يرون التهريب جريمة منافية للقوانين الصينية، بل منافية فقط للمعاهدة، وأنه بناء على هذا لا تستطيع سلطات الجمارك الصينية أن تتصرف فى مثل تلك المخالفات دون موافقة القناصل .

وموقف الأوروبيين بوجه عام من الصين والصينيين يمكن الحكم عليه باستقراء تطور ما يسمى باسم « تجارة الخنازير » « أى تجارة العمال » . لأن الخنازير اسم أطلقه الأوربيون على عمال الصين . فمنذ ١٨٤٧ كان العمال الصينيون ينقلون على ظهور السفن نقلا مخالفاً للقانون ، بالرغم من احتجاجات الحكومة الإمبراطورية ، إلى نواحى المناجم والمزارع والزراعات الكبرى بالمستعمرات ليحلوا محل الأرقاء . وقد بلغ عدد العمال الذين نقلوا إلى سان فرنسسكو وحدها قبل عام ١٨٦٣ واحدا وسبعين وأربعمائة وثمانية وستين ومائة ألف . وكانت أهم المناطق التى تستقبلهم الممتلكات الإسبانية والبرتغالية فضلا عن أستراليا وكاليفورنيا . وكان جمع هؤلاء العمال يتم عن طريق مقاولين يتناولون جعلا على كل رأس يحضرونها إلى المستودع . فما يكاد العمال التعساء يصبحون داخل حظيرة المستودع حتى يصبح إنقاذهم شيئاً لا سبيل إليه. فكانوا ينقلون فى سفن تعرف باسم « الجحيم العائم ». وكانت نسبة الوفيات بين ركابها تصل أحياناً فى ارتفاعها إلى ٤٥ فى المائة . وقد أدى هذا النظام فى التجارة إلى عدد لا حصر له من الفضائح، وهى تجارة كانت أشبه ما تكون بتجارة الرقيق، وكان جمع العمال فيها قائماً على الإغواء والخطف، وقد أعدم نائب الملك بكانتون فى ١٨٥٩ ثمانية من مختطفى العمال أدينوا بتلك التهمة . وعندما أصرت السلطات الصينية على ضرورة تطبيق ضرب من التنظيم كشرط لإلغاء القانون الذى يحرم الهجرة ، نقلت التجارة إلى مكاؤ ، ومن هذه المستعمرة الميكروسكوبية الضئيلة أرسل إلى كوبا فى سنة واحدة ٥٢٠٧ من العمال الصينيين الذى اختطفوا من الصين، كما أرسلت جماعة عدتها ٨٤١٧ إلى بيرو .

وفى أثناء تلك المدة أيضاً قررت الصين نهائياً تعيين بعثات دبلوماسية تمثلها فى الخارج ، وكانت أول خطوة خطتها فى هذا الاتجاه إرسالها بعثة برلنجهام العجيبة . فإن أنسون برلنجهام الذى كان سفيراً لأمريكا فى بيكين عين عند تقاعده سفيراً متجولا يمثل الصين ؛ وحمل أوراق اعتماد لدى جميع البلاطات الملكية الغربية . ووصل برلنجهام إلى أمريكا تحف به حاشية ضخمة ، واستقبل استقبالا حسناً ، وهناك تفاوض مع الحكومة فى معاهدة تقوم على أساس المساواة . وكانت تحتوى أيضاً على فقرات تؤيد مبدأ تكامل أرض الصين وتنص على الحقوق المتبادلة من حيث التجارة والإقامة . وكان برلنجهام بوصفه سفيراً سابقاً لأمريكا أدرى الناس بأساليب السياسة الغربية نحو الصين ، لذا فإنه يوم بلغ لندن طالب بأن يعطى التأكيدات بأن الحكومة لن تمارس ضغطاً لا لزوم له للحصول على حقوق تمس سيادة الصين . ومن سوء الحظ أن برلنجهام توفى فى بطرسبرج قبل أن يتمكن من إتمام مهمته . وكانت بعثته هامة من ناحيتين . فمن ناحية أولى تمكن من الحصول على تأكيدات من كل من أمريكا وإنجلترا بأنهما لن تتعاملا إلا مع الحكومة المركزية فى پيكين ، وبذلك جنب الصين شر الخطر الذى وجد فى يوم من الأيام من حيث إقدام الدول على التقاضى مباشرة مع نواب الإمبراطور وإحداثهم بذلك تفكيكاً للسلطة المركزية كانت السلطات التجارية البريطانية تصر عليه . وكان لحن تجار شنغهاى الذى لا ينون عن ترديده هو : « متى تدرك وزارة الخارجية أن الصين إنما هى دولة اتحاد مفكك ومكون من عدة دول ؟ » ومن الناحية الثانية ، أدركت الحكومة الصينية ضرورة إنشاء بعثات دبلوماسية دائمة بالخارج ؛ فلم ينقض على ذلك إلا بضع سنين حتى صممت حكومة پيكين نهائياً على إنشاء مفوضيات لها فى العواصم الغربية .

وبذلك ظلت الإمبراطورية قائمة ، وإن تحطمت سلطتها المعنوية وضعفت قبضتها على أبناء شعبها ، وعلى الرغم من أن جهازها الدبلوماسى فى الخارج لم يكن وطيداً . وفى هذه الظروف بدأت علاقتها مع الغرب فصلا جديداً نتيجة للصراع الصينى اليابانى .

وبحث العلاقات بين الصين واليابان يخرج بنا عن هدفنا الذى رسمناه لأنفسنا ، اللهم إلا من حيث مدى تأثيرها فى علاقات كل منهما بأوروبا .

وكانت كوريا دولة فرضت عليها الصين ضرباً عاماً من السيادة ، وظل إمبراطور كوريا يتقبل راضياً مدة تربى على ثلاثمائة من السنين حماية إمبراطور الصين له ، ويدفع إليه جزيته السنوية . وحاولت أمم أوروبية مختلفة التدخل فى شئون كوريا ، وبلغ الأمر فى ذلك أن القائم الفرنسى بالأعمال فى أحد الأوقات (١٨٦٦) أخطر وزارة الخارجية الصينية بعزم حكومته ضم تلك المملكة إليها . بل لقد قام الفرنسيون فعلا بغزو تلك البلاد ، ثم اضطرت فرنسا بعد حملة غير حاسمة إلى التخلى عن خططها . ومنذ تلك اللحظة قاوم الكوريون كل محاولة تبذلها أية دولة لفتح علاقات ودية بالقوة بين الطرفين . وكان الجهد الوحيد الجاد هو الذى قام به الأمريكيون فى مايو ١٨٧١ ، يوم أقدم أمير بحرى أمريكى حين لم يتلق أى رد على رسالته ، على فتح النار والاستيلاء على التحصينات الساحلية وقتل بضع نفر من الكوريين ؛ على أنه لم يلبث أن انسحب يائساً حين وجد أن ذلك العمل لم يحدث الأثر الذى رجاه من ورائه . وكان الأثر الوحيد الذى أحدثه العمل الأمريكى هو أن الحكومة الكورية طلبت رسمياً من إمبراطور الصين أن يقوم بحمايتها حماية أفضل .

وفى الوقت نفسه دلفت اليابان إلى المسرح ، وكانت لها أيضاً بعض مدعيات فى كوريا ، ذلك لأنه جرت عادة عياهل كوريا أن يرسلوا البعثات السياسية فى المناسبات الرسمية تحمل الجزية إلى إمبراطور اليابان . ولقيت بعثة أرسلتها اليابان فى ١٨٦٠ شيئاً من المعاملة الخالية إلى حدما من المجاملة ؛ ثم عوملت بعثة أخرى نفس المعاملة بعد سنتين . وأدى ذلك إلى قيام صيحة باليابان تنادى بضرورة إرسال حملة تأديبية على كوريا ، ولكن الإمبراطور أبى إلا أن يؤثر السلام وإن كان الشعور الوطنى دافقاً قوياً . ومع ذلك فإن اليابان تمكنت فى ١٨٧٦ من إرغام كوريا على توقيع معاهدة نصت على أن كوريا مستقلة استقلالا تاماً ومطلقاً ، وبذلك فتحت باب الهجوم اليابانى على مصراعيه فيما بعد .

على أن الكوريين ظلوا مع ذلك يعدون الصين الدولة صاحبة السيادة عليهم ، وتمت المفاوضات التى مهدت لعقد المعاهدة الأمريكية مع كوريا فى بيكين على يد لى هنج تشانج ، ونصت على أن المفاوضات تمت على يد الصين ، وذلك نظراً لأن كوريا كانت دولة تابعة ، وأن المعاهدة قد وقعت بموافقة الصين ! وبعد ذلك بفترة

قصيرة دخلت دول أخرى فى علاقات قائمة على المعاهدات مع سيول . وكان تأسيس المفوضيات الأجنبية ،وبخاصة الادعاء الذى ادعته اليابان ، موضع استياء الأهالى وغضبهم ، فثاروا على حكومتهم وهاجموا الملكة الوصية على العرش آنذاك، كما هاجموا المفوضية اليابانية وقتلوا العديد من موظفيها (١٨٨٤) .

وهكذا أتيحت لليابان الفرصة التى طال انتظارها : فرصة إرسال قوة إلى كوريا. وقابلت الصين الحركة بإرسال قوة من قبلها ، ولم يتم تجنب الحرب إلا بشق النفس ؛ إذ يلوح أن اليابان لم تكن تواقة إلى الحرب فى ذلك الأوان ، بل لقد اقترحت أن يعترف الطرفان بحياد كوريا . وكانت رغبتها المباشرة أن تسبق الدول الغربية التى تزايد جلاء رغبتها الأكيدة فى ضم كوريا إليها أثناء السنوات العشر الأخيرة . ولم تتحقق تلك الخطة ، وذلك لأن الدول لعدم معرفتها بقوة اليابان كانت لا تزال ترمق بأنظارها المملكة المنعزلة . وفى تلك اللحظة قررت الصين أن تبدأ بعمل من الأعمال ، وكخطوة أولى أصدر لى هنج تشانج مجموعة من التنظيمات لشئون التجارة تطبق أيضاً على كوريا ، حيث أعلن الصينيون أن كوريا كانت دولة تابعة للصين ، فلم يكن هناك مجال لذكرها مع الدول الأكثر تفضيلا فيما بينها وبين الصين من علاقات تجارية . وتمسكت اليابان بمعاهدتها مع كوريا ، وأصرت على تلقى نفس المعاملة التى تتلقاها الصين . وكان لى هنج تشانج يرتاب فى نوايا اليابان ، فاتخذ خطوة أخرى هى أنه أرسل إلى كوريا مندوباً سامياً اسمه يوان شيه كان فى نفس الوقت محسوباً على لى هانج تشانج وكاتماً لأسراره ،وهو شخص صار الصراع مع اليابانيين فى سيول بعد ذلك مدار تاريخ حياته إلى حد كبير ، وعين فى هيئة الجمارك الصينية رجلا ألمانياً ليكون مستشاراً للتجارة والجمارك .

هناك بدأ فى العاصمة الكورية صراع ديبلوماسى حاولت فيه المفوضية اليابانية بمساعدة طائفة من الشباب الكورى أن تحل المسألة بالقوة بإحداث ثورة فى القصر ، بيد أن السكان المدنيين أيدوا الصينيين ،وتأجلت الحرب للمرة الثانية . وتمت اتفاقية مؤقتة بين لى هنج تشانج والكونت إيتو هدأت قليلا من نار الخصومة فى الشئون الكورية ، ولكن الصينيين تمكنوا بفضل عناية يوان شيه كاى فى معالجة الموقف من إبراز سلطانهم أكثر فأكثر ، وبخاصة فى مصلحة الجمارك الكورية التى أعيد

تنظيمها ،وقام على إدارتها موظفون منتدبون من الصين . وبذلك تغلبت الصين على اليابان هناك . وفى ١٨٩٠ استقبل البلاط الكورى مبعوثى الصين بالمراسم العريقة الكريمة التى تؤكد تبعيته لها. ولكن اليابانيين كانوا يعدون العدة للبت فى الموضوع بالقوة إذا لزم الأمر . وجاءت الفرصة المواتية حين نشبت فورة أحدثتها جمعية معادية للأجانب كان يلوح أنها موجهة بوجه خاص ضد اليابان . ومع ذلك فسرعان ما تحولت الفورة إلى عصيان لم تستطع الحكومة الكورية إخماده . وعندئذ طلبت وزارة سيول العون من الصين بوصفها الدولة الحامية . واستجاب الصينيون للطلب بإرسال قوة صغيرة ،وأرسل اليابانيون أيضاً أسطولهم الحربى . وبعد مدة قصيرة من المفاوضات المبدئية أعلنت اليابان عزمها على « إصلاح كوريا » . أما الحكومة الكورية التى كانت بدورها تواقة إلى المحافظة على حقها فى تلقى حماية الصين فلم يناسبها ذلك الإصلاح القسرى ، وعندئذ هاجم اليابانيون القصر وقبضوا على أعضاء الأسرة المالكة واعتقلوهم فى المفوضية اليابانية .

وكانت الحرب التى عقبت ذلك سريعة قصيرة فهزم الصينيون هزيمة فاصلة فى كل من البر والبحر ،وبعد أن أنزل اليابانيون الهزيمة بالقوات البرية فى كوريا ، عبر اليابانيون نهر يالو وغزوا منشوريا ، على حين تحرك الأسطول ودخل دايرين وأحاط ببورت آرثر . وعندئذ عرض الصينيون المفاوضة ، ولكن اليابانيين رفضوا تدخل الدول لرغبتهم فى تسوية بعض المسائل الأخرى . وسد الأسطول اليابانى الطريق على الأسطول الصينى ،وحبسه فى واى هاى واى فسلم . وعندئذ غزيت أرض الصين الرئيسية نفسها . حتى إذا أدركت حكومة الصين أن التدخل الأجنبى لن يجديها نفعاً تقدمت طالبة الصلح ،وعين لى هنج تشانج سفيراً خاصاً وأرسل ليتفاوض فى شروط الصلح . وكانت نتيجة تلك المفاوضات هى معاهدة شيمونسيكى التى اعترفت بمقتضاها الصين باستقلال كوريا ، وتنازلت عن فرموزا وبيسكادورس وشبه جزيرة لياوتونج فى منشوريا ،فضلا عن موافقتها على دفع تعويض قدره ٢٠٠ ألف تايل . وأصرت اليابان كذلك على الحصول على جميع الامتيازات ، بما فى ذلك تمتع رعاياها بحق التقاضى فى محاكمها ، وهو الحق الذى كانت تستمتع به الدول الأوروبية .ويلوح أن لى هنج تشانج كان قبل رحيله للقيام بمفاوضات

الصلح على اتصال فعلى بالسفير الروسى ، كما تلقى منه شيئاً من التأكيد بالتدخل فى حالة مطالبة اليابان منحها شيئاً من أرض الصين * . وكان تلقى قبل توقيعه على المعاهدة تأكيدات من ديترنج وكيله فى باريس بأن الروسيا أقنعت وزارة الخارجية ببرلين بتأييدها فى كل ما ستعمله . ومهما يكن من أمر فقد حدث بعد توقيع المعاهدة بثلاثة أيام ، أن قدمت الروسيا وفرنسا وألمانيا طلباً مشتركاً بضرورة رد شبه جزيرة لياوتونج إلى الصين ، وهو طلب خضعت له اليابان مكرهة .

وكانت معاهدة شيمونسيكى نقطة تحول فى تاريخ علاقات الصين بالغرب ، ولم تكن خسارة الصين من الأراضى فادحة . أجل إن سيادتها على كوريا كانت هامة دون أدنى ريب ، ولكن الصينيين لم يعلقوا عليها قبل ذلك أهمية كبيرة . وكان فى إمكانهم التجاوز عن ضياع فرموزة وپيسكادورس ، ولكن الشئ الذى فاق كل حد فى خطورته هو أن الصين قد أصيبت بضرر بليغ لم يكن هناك سبيل إلى إصلاحه ، فقد حاق بمركزها الدولى ضعف لم تفق منه إلا بعد ذلك بنصف قرن من الزمان . وكان جلياً لدى الجميع أن الفساد قد دب فى أوصالها (والواقع أن الأسطول لم يكن لديه قدر كاف من الذخيرة ، ولم يكن من أجل ذلك يستطيع أن يشتبك فى قتال كما أن السفن الحربية كانت تستخدم فى نقل الجنود) ؛ وأن الإدارة فيها قد فقدت كفايتها فقداناً تاماً ؛ وأن البلاط المنغمس فى ملذاته والذى يسيطر عليه خصيان جهلة قد انحطت أخلاقهم ، لم يكن يستطيع أن يقدم للبلاد أية قيادة رشيدة ؛ وأن الطبقات القديمة فقدت الشىء الكثير من كرامتها وسلطتها نتيجة للاقتصاد التجارى المسيطر على الموانى ؛ وأخيراً كانت الصين عاجزة عجزاً تاماً إزاء أى نوع من أنواع العدوان الأجنبى . كانت فى حال أسوأ من حال أى قطر ذى حجم متوسط وموارد وحضارة متوسطة — كانت فى حال أسوأ بكثير جداً من حال الترك فى حكم عبد الحميد (حيث كان الجيش التركى قادراً على الدوام على القتال) بل فى مركز أسوأ من مركز فارس عند مستهل القرن .

وبدأت المعاهدة مع اليابانيين عهداً جديداً من النزاع كان السبب فى تفكك البلاد ، إذ لم يكن بد من دفع تعويض هائل . وذلك فضلا عن أن الخزانة كانت

* انظر كتاب « Li Hung-Chang » تأليف ج . ا . ب بلاند لندن ١٩١٧ ص ص ١٧٩—١٨٠

خاوية لتبذير البلاط والإسراف فى نفقات الحرب . وعندئذ جرت مفاوضات للحصول على قرض وافقت فيها المصارف الفرنسية والروسية على تقديم المال اللازم بضمانة الحكومة القيصرية. وعندئذ احتجت الدول الأخرى وبخاصة إنجلترا وألمانيا، وأصرت على تقديم قرض للصين ، كان الغرض الأسمى منه هو إعادة تعمير البلاد أيضاً . وأضيفت هذه القروض إلى حساب الجمارك ، كما رهنت إيرادات الملح لتغطية نفقات الدين فضلا عن الضرائب المحلية بين كل ولاية صينية وأخرى بحوض نهر اليانجتسى وكان يطلق عليها (اللايكن[1]) . وبذلك دخلت الصين فى فترة التحكم فيها عن طريق القروض .

على أن من العسير علينا أن نرسم بالتفصيل خط سير الأحداث التى عقبت ذلك ، وإن كان من اليسير وصفها وصفاً إجمالياً ملخصاً . أخذت الدول الأوروبية جميعاً صغيرها وكبيرها تضغط على بيكين مطالبة بمنح من الأرض، وكان أول مشروع اتجهت إليه الدول هو إنشاء السكك الحديدية . وقد سبق أن شهدنا حلم التوسع التجارى الذى تحطم . وعندئذ لاحت للقوم مع احتمال الحصول على امتياز السكك الحديدية وسيلة أسهل للكسب يصحبها على الأقل قدر محدود من الهيمنة السياسية . وذلك أن أسواق الصين لم يتجل بها حتى فى العقد الأخير من القرن أى تحسن ملحوظ . مثال ذلك أن ما استهلكته الصين فى ١٨٩٤ من بضائع لانكشير كان أقل من ٢٠ فى المائة مما استهلكته الهند، ومن أجل ذلك كانت مصالح دور الأعمال الكبرى التى كانت تتزعمها هيئة بنوك هنج كنج وشنغهاى تتحول بوجهتها إلى تصدير رأس المال، لأن ذلك كان أشد أنواع الأعمال ربحاً ببلاد الصين . وكان الفرنسيون فى الجنوب (يونان والمقاطعات الجنوبية الثلاث) ، والبلجيكيون (بيكين وهانكاو) ، والأمريكيون (هانكاو وكانتون) ، والروس (منشوريا) ، والبريطانيون (فى وادى اليانجتسى وتحت ستار شركة إنجليزية إيطالية فى شانسى) . كان كل هؤلاء يعملون فى أثناء السنوات الحاسمة الثلاث ١٨٩٦ — ١٨٩٩ ، على توزيع الأراضى الصينية لتصبح تحت هيمنة مختلف الدول الأوروبية . وشعرت ألمانيا التى

---

(١) لايكن : هى ضرائب محلية صينية كانت تجبى من كل ولاية . وعلى الرغم من أنها كانت ضد القانون إلا أنها ظلت حتى ١٩٢٨ حين ألغتها قرارات تلك السنة . (المترجم)

كانت آنئذاك أقوى دولة فى أوروبا أن القطار قد فاتها ، وأنها لم تصب شيئاً من كل هذه الغنيمة التى تخطفها غيرها ،وصممت على أن تقتطع لنفسها فى جسم الصين إمبراطورية . وراحت تلتمس الذريعة المأثورة البالية فى مقتل اثنين من المبشرين (١٨٩٢) على يد قطاع الطرق ، وأنزل الألمان جنودهم على شاطئ الصين وطردوا الحامية الصينية من تسنجتاو واحتلوا الميناء . ثم تقدم الوزير الألمانى بعد ذلك بمطالب حكومته التى تتلخص فضلا عن التعويض وعقوبة الموظفين وإنشاء ألواح يبين عليها هذه الحقوق إلى غير ذلك من أنغام الأسطوانة الغربية المألوفة ،– فى المطالبة بأن يكون لها وحدها الحق فى إنشاء السكك الحديدية ،وفتح المناجم فى شانتنج وفى تأجير مدينة كياتشاو لتكون محطة بحرية ،وحلت الرهبة فى قلوب الدول الأوروبية من مظهر الحزم القوى الذى بدت به ألمانيا ، واستطاع القيصر أن يفاخر بأن : « ميخائيل الألمانى قد ثبت درعه إلى جوار النسر الألمانى على أرض الصين ، لكى يمنح بصورة نهائية حمايته لكل من يطلبها . » أما مدى الغرور الذى كانت تنطوى عليه تلك المفاخرة فأمر أثبتته الأيام بعد أقل من عشرين عاماً من ساعة صدوره .

وما لبثت دول أخرى أن حذت حذو ألمانيا وطالبت بمطالب مماثلة. وفكرت فرنسا مليا ثم أصدرت ما يمكن أن يوصف بأنه « مبدأ الالحام . » . وكانت الفكرة بسيطة فى حد ذاتها ؛ ذلك أنه لما كانت الهند الصينية ممتلكة تابعة لفرنسا ،فإن فرنسا طالبت بأن تلحم بها جميع المناطق المتاخمة لها ، كما طالبت بأن يصل خط حديدى بين مقاطعة يونان العظيمة وبين تونج كنج . وفى ١٨٩٩ وضعت فرنسا يدها على خليج كوانج تشاو بكل توابعه واتخذت منه قاعدة بحرية ،وكان المطلوب أن تلحق بالهند الصينية كل من كوانجسى ويونان وكوى تشاو وزتشوان ، والواقع أن ما يتجاوز ربع المساحة الكلية للصين ذاتها كان مطلوباً أن يلحق بالهند الصينية . ورأى الفرنسيون بعين خيالهم أن لديهم تحت الصنع إمبراطورية أعظم من الإمبراطورية البريطانية بالهند ، ومن الطبيعى أن ينزعج البريطانيون من ذلك . وأعلنت جمعية الصين فى خطاب أرسلته إلى اللورد سالسبورى : « أن الجمعية إذ تعبر عن اقتناعها بأن هذه السكك الحديدية العديدة إنما هى أسافين سياسية كثيرة تدفع فى مناطق

سيبذل بعد ذلك فى أحد الأيام القادمة جهد لإحاطتها بسور حاجز — فإنها أى الجمعية لاحظت مع الأسف العظيم دخول المصالح الفرنسية فى ولاية تعد دون ريب المنطقة الداخلية الداعمة لهونج كنج» . وكان التجار البريطانيون ينظرون إلى جنوب الصين بوصفه منطقة امتياز يبسطون فيه نفوذهم السياسى وتجارتها ، أى مجرد منطقة داخلية بالنسبة لهونج كنج .

وكانت بريطانيا قد اعترفت رسمياً بمبدأ « مناطق النفوذ » فى ١٨٩٩ ، وكانت هى نفسها تدعى أن لها سلطة واسعة وشاملة فى حوض اليانج تسى بأجمعه . ويتجلى مدى جرأة بريطانيا فى الأخذ بهذا الادعاء من الإجراء العسكرى الذى اتخذته فى مسألة امتيازات خط سكة حديد پيكين هانكاو . وكانت الحكومة الصينية وافقت على السماح لشركة بلجيكية بإنشاء ذلك الخط . فلما علم السفير البريطانى بذلك طالب بأن تتلقى حكومته فوراً « الامتيازات التى طلبتها على أسس مماثلة لتلك التى كانت موجودة فى اتفاقية پيكين هانكاو » . وأضاف السفير مهدداً بقوله : « وإلا فإننا سنعد ذلك من الحكومة الصينية مظهراً للعداء المتعمد ضد بلادى ، كما أننا سنتصرف إزاء ذلك بما نراه » .

وهكذا بدأت سلسلة من المداورات كان الهدف منها هو تقديم المدعيات توقعاً للمستقبل ، ثم الوصول إلى ذلك عن طريق ما وصف بأنه تصريح عدم إدخال الغرباء . وعندئذ عاد الفرنسيون إلى قذف الكرة فى الميدان بمطالبتهم الصين بأن تعلن أنها لن تنزل عن جزيرة هاينان لأية دولة أخرى ، وطالبت بريطانيا بتأكيد مماثل لذاك حول حوض نهر اليانج تسى ، وطالبت اليابان بساحل فوكين المقابل لفرموزا. واحتلت الروسيا بورت آرثر وقابلتها بريطانيا فى ذلك باحتلال واى هاى واى. وقدمت أيضاً الطلبات التى تطلب حقوقاً قومية مستديمة فيما يتعلق برياسة مصلحة الجمارك ومصلحة الملح . وشعرت إيطاليا أنها تخلفت عن ركب التخاطف ، فطالبت بمحطة بحرية بخليج شامن فى تشيكيانج ، ولكن الصين رفضت الطلب هذه المرة ، وأعلنت أنها ستقاوم بعد ذلك بالقوة كل عدوان على أراضيها .

وهكذا لم تكد تنقضى ثلاث سنوات بعد معاهدتها التى عقدتها مع اليابان ، حتى تقاسمت الدول الصين فعلا ؛ التماساً لبذل النشاط الاقتصادى بها والحصول على

النفوذ السياسى فيها ومد السكاك الحديدية — وموجز القول أن فرنسا قد ادعت أن يونان والمناطق المتاخمة للهند الصينية منطقة نفوذ فرنسى . وأن كانتون ووادى نهر اليانج تسى ومناطق مترامية محصورة بينها قد ادعتها لنفسها بريطانيا ؛ ورسخت قدم الروسيا بمنشوريا ، وهيمنت ألمانيا على شان تونج ، كما شخصت اليابان ببصرها إلى فوكين . وكانت السكاك الحديدية التى يهيمن عليها الأجانب تشق البلاد طولا وعرضاً . وفى المياه الساحلية والداخلية كانت السفن الأجنبية تقوم بعملها بكامل الحرية . وكما لاحظ المستر هدسون : « لقد تم فوق أرض الصين إحكام نظام من الحقوق الشبيهة بحقوق السيادة وهى ذات صفة استعمارية فى جوهرها ، وكانت تلك الحقوق تتناول أشد مناطق الصين خصباً وأثمنها قدراً ، ففرنسا فى الجنوب الغربى وبريطانيا فى حوض نهر اليانج تسى وألمانيا فى كياوتشاو وشان تنج واليابان فى منشوريا » .

وخلاصة الموقف أن الصين فى ١٨٩٩ لم تكن عاجزة خائفة فحسب ، بل كانت أراضيها الوطنية التليدة أيضاً مقتسمة اقتساماً رسمياً بين الدول .

وهكذا تحققت أخيراً مناطق النفوذ التى ظل التجار البريطانيون يلحون فى طلبها طويلا . وظهر أيضاً مبدأ آخر يتعلق « بتوازن النفوذ » كان المقصود منه أنه إذا حصلت إحدى الدول على امتياز إضافى وجب أن يمنح الآخرون شيئاً معادلا له لكى يوازنه . ومن سوء حظ الغرب أن برنامج تمزيق الصين ذاك اصطدم بعقبة كؤود عندما أعلنت الولايات المتحدة المبدأ الذى سمى فيما بعد باسم سياسة « الباب المفتوح » . فمنذ استولت الولايات المتحدة على جزر الفلبين صارت دولة عظمى بالمحيط الهادى ، وعندما بلغ التخاطف على الامتيازات أقصى ذروته ، طالب وزير الخارجية الأمريكى بالحصول على تأكيدات رسمية من جميع الدول المعنية بأن ادعاء مناطق النفوذ لن يؤثر فى الحقوق التى تنص عليها المعاهدات الخاصة بالشعوب الأخرى . وأن يتم جمع الرسوم الجمركية بكل مكان على يد السلطات الصينية ، وأنه لا يجوز أن ينال رعايا أى دولة رسوم موان تفضيلية ، ولا أجوراً خاصة بالسكاك الحديدية «تميزهم عن غيرهم » . وكانت هذه سياسة صريحة لا لبس فيما ترمى إليه من وقاية المصالح التجارية الأمريكية بمناطق كانت

تتحول سريعاً إلى دائرة النفوذ المطلق لدول أخرى . على أنها ساعدت من ناحية أخرى غير مباشرة على وحدة الصين ، وبخاصة اشتراطها أن يكون جمع الرسوم الجمركية بكل مكان على يد الصينيين . ولم تدرك على الفور العواقب البعيدة المدى لهذا التصريح ، وذلك أن أحداً فى ١٨٩٩ لم يتنبأ بالدور الذى قدر لأمريكا أن تلعبه فى الشرق الأقصى إبان الخمسين سنة التالية .

وكان خطر التقسيم ظاهراً لكل ذى عينين ، بل إن البلاط نفسه استيقظ وفتح عينيه عليه مذعوراً . وصدرت التعليمات ذات الأهمية الخاصة إلى نواب الملك بالأقاليم أن يكونوا دائماً على أهبة الاستعداد لرد كل عدوان ؛ ذلك أن وجود الطرادات الإيطالية بالمياه الصينية وإنشاء الألمان لقوة عسكرية كبيرة فى كياو شاو قد أزعج السلطات أيما إزعاج . وأظهرت بيكين شجاعة تامة طوال عام ١٨٩٩ حتى لاح أن الأرملة العجوز الوصية قد استردت قوتها ؛ ذلك أنه لما فشلت حركة الإصلاح التى نادى بها كانج هو أحدثت الإمبراطورة انقلاباً حكومياً استولت به علناً على مقاليد السلطة الكاملة التى كانت قد تنازلت عنها بالاسم فقط ، وتجمعت حولها جميع القوى الرجعية فى البلاد . على أن الدول كانت تعلم علم اليقين أن البلاط عاجز كل العجز ، وأن فى الإمكان الضغط على الإدارة وتشكيل سياستها بحيث تتناسب وسياسة الدول الأجنبية ، ولكن الشئ الذى لم يقدره السادة الأجانب حق قدره كان وطنية الشعب الصينى ومزاجه ، فقد اشتعل الريف غضباً وظهرت فى الولايات « حركة القبضات المتآلفة » أى البوكسر فكأنما اندلع هذا الغضب من عقول الصينيين التى كانت تتقد وطنية ، على الرغم من أن الدول كانت قد حسبت أنها عقول مظلمة لا تؤمن إلا بالخرافات ، وكانت غضبة الأهالى موجهة قبل كل شئ إلى المبشرين الذين يملئون فجاج المناطق الريفية ، فضلا عن أتباعهم المتنصرين من أهل الصين . وكان الناس ينظرون إلى المبشرين نظرتهم إلى وكلاء الاستعمار التوسعى الإمبراطورى وطليعته ويعدون الصينيين المتنصرين طابوراً خامساً .

ذلك بأن تاريخ عشرين سنة حافلة والعدوان الفرنسى الذى عقب أحداث تيان تسن ومحاولات البريطانيين اغتصاب الامتيازات بعد حادثة مارجارى والضغط المتواصل على البلاط البيكينى للحصول على امتيازات من جميع الأنواع .

وفوق كل ذلك افتراض الدول بمنتهى السهولة بأن الصين إنما وجدت هناك لتقتسم بينهم ، كل ذلك أثار ثائرة وطنية الرجل العادى .

وظهرت الحركة لأول مرة فى شان تنج . وكان مبدأ حزب البوكسر هو : « اعتزوا بأسرتكم المالكة وأبيدوا الأجنبى » . وهى نفس السياسة التى نادت بها طائفة الشنتو النقية الطاهرة فى اليابان فى الفترة التى سبقت عودة السلطة إلى قبضة أسرة بيجى * . ووجدت الحركة ، التى كانت من حيث الجوهر تقوم على الشعور الشعبى ، تأييداً من بعض كبار الموظفين الذين لم يكن لهم اتصال مباشر بالأجانب ، وبخاصة يوهسن حاكم شان تنج ، كما لقيت الرعاية من أميرى المانشو تشنج وتوان . وما لبثت الإمبراطورة فى النهاية أن حولت سفينة سياستها إلى جانبهم ؛ ولذا لم يحل يناير ١٩٠٠ حتى أصبح لحركة البوكسر قوة شعبية هائلة ، بل وحظيت فوق ذلك بمناصرة الإمبراطورة نفسها .

ولا شك أن حركة البوكسر كانت فى جوهرها حركة قومية وطنية ، وإن كان الأجانب رأوا فيها حركة كراهية للأجانب ماؤها التعصب الأعمى . وحتى چنج لو نفسه ، الذى كان مقتنعاً بما تنطوى عليه من حماقة ، يعترف فى خطاب كتبه بأن رجال البوكسر فى الشمال لم تكن حركتهم شهوة إلى النهب ، بل كانت غضبة دينية صادقة . وإن نائب الملك لى هنج تشانج ليكتب فى بيانه إلى صاحب العرش محتجاً على التشجيع الذى يلقاه البوكسر ، ولكنه يقول : « مجنون ذلك الرجل الذى لا يبحث عن تحسين وسائل دفاعنا ، وصفيق وقح ذلك الذى لا يشتاق إلى يوم يصفى فيه الحساب . . . ولا حاجة بى إلى أن أذكركم أسعد وأهنأ لو كان من الممكن للصين أن تخوض غمار حرب تكلل بالمجد والنصر * » . وإن المفكرة اليومية لسعادة تشانج شان ، وهى سجل يومى دقيق كتبه عالم ممتاز وموظف سامى المنصب ، أورد فيه الأحداث وآثارها ، لتوضح بأجلى بيان بأن أهل الرأى الكريم بين الصينيين كانوا ينظرون إلى الحركة نظرة العطف بوصفها انفجاراً وطنياً أصيلا .

وأزعجت قوة هذه الحركة الدول التى بلغ من أمرها آنئذاك أن طالبت بالقضاء

---

* عند ما اعتلى الإمبراطور موتسو هيتو (١٨٥٢ — ١٩١٢) عرش بلاده فى ١٨٦٧ سمى نفسه ميجى تنبو أى السلام المستنير . (المترجم)

* أنظر بلاند « Li Hung-Chang » ص ٣٠٦ .

على البوكسر ، واقترحت أن يصدر مرسوم إمبراطورى ينص صراحة على : « أن الانتماء إلى أية جمعية من تلك الجمعيات أو إيواء أى فرد من أعضائها يعد جناية فى نظر قوانين الصين » . وبلغ الأمر ببعضهم أن حاول حمل الحكومة على أن تعد مقاومة الشعب للعدوان الأجنبى ولأعمال المبشرين جريمة — ولكن هذه الحركة المشئومة بدلا من أن تضعف البوكسر لم يكن منها إلا أن زادتهم يقيناً بأن الدول الأجنبية مصممة على القضاء على الصين . وواجه القصر معارضة أجمعت عليها جميع الدول الأجنبية فأصدر أوامره إلى نائب الملك فى شيهلى ومحافظ شان تونج بقمع الحركة . وفعلا أصدر نائب الملك فى شيهلى تصريحاً بهذا المعنى ، ولكن المبعوثين الأوروبيين لم يقتنعوا بهذا التصريح . فأمروا بإقامة مظاهرة بحرية فى خليج شيهلى لإرهاب البلاط ، ولكنهم لم يكونوا هنا يتعاملون مع البلاط ، بل مع شعب ثائر حانق .

وفى مايو شرع رجال البوكسر يتناولون الأمور بأيديهم وأخذوا يزحفون زرافات إلى بيكين ، وكانوا يركزون التفاتهم قبل كل شىء على المتنصرين الصينيين أو « الطبقة الثانية من البرابرة » كما كانوا يسمونهم . وعندئذ أرسلت البعثات الدبلوماسية الأجنبية فى طلب الحرس والقوات العسكرية . وأنزل البريطانيون إلى البر قوة بحرية عند تيان تسن . وأخذ الموقف يتدهور تدهوراً متواصلا بكل من بيكين وتيان تسن . على أن نشاط البوكسر كان موجهاً قبل كل شىء نحو المبشرين ؛ أولئك الضيوف المرذولين . وشعر ممثلو الدول أنه قد حان لهم أن يتخذوا الإجراءات الحربية ، وهاجم أمراء البحر فى تيان تسن تحصينات تاكو واحتلوها — وبعد ذلك الإجراء بدأت بعض أعمال العدوان العشوائية فى تيان تسن وتاكو ، وحوصرت السفارات الأجنبية فى بيكين . ودافعت الجالية الأجنبية عن نفسها ببطولة من وراء متاريس أقيمت على عجل ، ولكن كانت تجبى مكوس فادحة خارج حى السفارات ، وبخاصة من المبشرين والمسيحيين . وفى داخل البلاد أيضاً فيما عدا المناطق التى أظهر فيها نواب الملك قوة أخضعوا بها الحركة ، — نهبت مبانى المبشرين وذبح من يعملون بها من عمال .

ولئن أظهر البوكسر الصينيون الجهلة شيئاً من القسوة فى معاملتهم للمبشرين وأنصارهم من الصينيين ، وارتكبوا المنكرات والفظائع ؛ فإن سلوك الدول الأوروبية فى

لحظة انتصارها قد اتسم بما لا يقل عن ذلك من مظاهر الرغبة المفرطة فى الانتقام . وتقول التقارير المؤيدة بالأسناد فى ذلك الزمن : إن جند الدول المتحالفة تحولت فى تيان تسن إلى النهب المطلق من كل قيد . يقول أحد مدونى التاريخ : « إن القوات العسكرية أرسلت فى جميع الاتجاهات كما أن من المحقق أن أخطر ثلاث من الوصايا العشر ظلت تحصى على الدوام على مدى واسع » . وكان الحال فى بيكين أسوأ وأنكى ؛ فإن جند الدول الأجنبية بعاصمة الصين كشفوا القناع عن وجوههم وظهروا بمظهرهم الحقيقى ، مجردين من كل ما له صلة بالحضارة ولو كانت غشاوة رقيقة . وبلغ من فظاعة الأعمال التى جرت أن رجلا مثل دانيالى ڤارى ؛ وهو سفير إيطالى سابق ونصير قوى للاستعمار ، قد اضطر أن يعترف بأن « ماقاساه سكان بيكين من الأهوال على يد الأجانب لا يقل كثيراً عما كان يحدث لهم لو أن ثوار التايبنج * كانوا هم الذين نهبوها » .

وكان المفاوض فى هذه المرة أيضاً هو لى هنج تشانج . وحتمت الدول على الصين دفع تعويضات باهظة ، وفرضت على الصين شروط صلح قاسية مهينة تسمى بروتوكول البوكسر . وفضلا عن إنزال النكال بالمجرمين ، وإقامة نصب تذكارى للمبشر الألمانى الأحمق ، فقد اتخذوا المفاوضات وسيلة قصد بها منح فرصة الحصول على الوظائف للمسيحيين والشباب الذين تلقوا العلم على المبشرين ؛ وحظر استيراد الأسلحة والذخائر لمدة سنتين ؛ وأن تدفع الصين تعويضاً قدره ٤٥٠ مليون تايل ، وهو ما يقارب مئة مليون من الجنيهات على أقساط سنوية تنتهى عام ١٩٤٠ ؛ والاحتفاظ للأجانب بحى السفارات دون غيرهم ، وذلك معناه طرد الصينيين منها ، وإلقاء عبء الدفاع عنه على السفارات نفسها مع الاحتفاظ لها بحق وضع الجند فى بيكين نفسها ؛ وهدم تحصينات تاكو . وتقرر أن تضمن دفع التعويضات إيرادات الجمارك البحرية وضريبة الملح والجمارك الوطنية ؛ وظنت الدول أنها مستطيعة بهذه الوسيلة ضمان الهيمنة بوساطة الأجانب على هذه الناحية الكبرى من نواحى الإدارة . فأما الفقرات المهينة لكرامة الصين مثل إقامة اللوحات وإقامة النصب التى تحمل آيات

---

* انظر كتاب «The Last of the Empresses» تأليف دانيالى ڤارى : نشرة چون موراى طبعة ألبمارل ص ٢٠٥ .

التكفير عن الآثام فى المقابر ، فكانت شيئاً المقصود منه زيادة هيبة الأجنبى .

وشهدت التسوية بالصفة المزدوجة التى اتسمت بها ثورة البوكسر وهى : الشعور المضاد للمبشرين وامتعاض الأهالى من الدول من جراء الإهانات التى أنزلت بالصين وصانت التسوية المبشرين وحقوقهم بما فيه الكفاية . فقد تقرر أن ينالوا نصيباً من التعويض ، كما أن الامتحانات الإمبراطورية التى طال أن اشتكوا من أنها العائق الرئيسى الذى يحول دون تسلطهم الفكرى على البلاد قد ألغيت مدة خمس سنوات . واستطاعت الدول أن تحول شطراً من مدينة بيكين إلى معسكر مسلح ، وهناك فى قلب العاصمة ومن منطقة تطل على المدينة المحرمة تمكن هؤلاء الأجانب من التسلط على الصين . ولكن قل منهم من تنبأ بأن هذه الشروط المتطرفة إنما كانت تحمل بين طياتها بذور تدميرها هى نفسها ؛ ذلك أن بروتوكول البوكسر هو الذى نستطيع أن ننسب إليه المرارة المفرطة التى كانت تتصف بها علاقة الصينيين بالغرب أثناء السنوات الخمسين التالية .

أما الإمبراطورة الأرملة التى عمدت يوم أحدق الخطر بمدينة بيكين إلى فرار غير كريم إلى سيان فى تنكر وخفية ، فقد عادت الآن أدراجها على مراحل بطيئة للإقامة مرة ثانية بالمدينة المحرمة . وقد صممت فى هذه المرة ألا تدخل مع الأجانب فى نزاع بقية أيامها . وكانت وهى الحاكمة المطلقة فى الصين مستعدة لتقديم الملق لنساء الدبلوماسيين ، بل حتى أن تستقبل السيدات المبشرات ، وأن تكون على المجاملة لطيفة مع كل إنسان وأن تدعى أن شيئاً يعكر العلاقات الودية لم يحدث قط . والواقع أن السنوات الأخيرة العديدة أضفت على حكمها الطويل وهجاً يؤذن بالمغيب . مع أن الإمبراطورية لم يبق لها سوى صورة السيادة ومظهرها فضلا عما يجثم على صدرها من دين باهظ ، فإنها استردت عافيتها بدرجة كانت تكفى لإضفاء ظل من اليسار على أرضها . وفضلا عن ذلك فسرعان ما أصبح الشرق الأقصى مسرحاً لكفاح عظيم — هو الحرب الروسية اليابانية التى منحت الصين مهلة تتخلص فيها مؤقتاً من الالتفات الكريه الذى توليه لها الدول الكبرى — وماتت الإمبراطورة فى ١٩٠٨ وخلفها فى العرش بوبى متلقباً باللقب الملكى هسيان تنج ، ولكن الأسرة وإن بقيت فى الحكم مدة ثلاث سنوات أخرى قبل أن تعم الثورة بلاد الصين ،

فإنه لم يعد لها بعد ذلك أى أثر .

والسنوات العشر التى مضت بين تسوية البوكسر وسقوط أسرة المانشو تكون العصر الذهبى لسلطان الأوروبيين ببلاد الصين . فإن المبشرين أوشكوا أن يهيمنوا على التعليم هيمنة الاحتكار . وأصبحت المناطق الساحلية التى غلب عليها نفوذ الأجانب مركزاً لحياة جديدة . وصارت كانتون وشنغهاى وتيان تسن قصبات للقوة المالية والاقتصادية ، التى كانت فى جل أمرها بأيدى الأوروبيين ، وكانت زوارق المدفعية الأجنبية تتولى أعمال الشرطة فى اليانج تسى . وشعرت القنصليات الأجنبية ، وهى آنئذاك صاحبة السيادة لا فى مناطقها الخاصة فحسب بل وفى أراض أكبر من الدول الأوروبية ، بحميا الرضا والاغتباط تسرى فى عروقها ؛ لأنها تمكنت بفضل عزتها وهيبتها من تقديم الحماية لكل من التمسها . ولكن من دون ذلك كله كان يلم بالصين تغير عميق . فإن طبقات جديدة من الصينيين ترتبط برأس المال الأوروبى وتنظر بعين الحسد إلى الفرص التى يستمتع بها الأجنبى فى بلادها ، قد أصبحت عاملا له أهميته فى الحياة الاقتصادية للامتيازات . وكان نمو الرأسمالية الصينية عجيباً رائعاً . فقد تأسست فى ١٨٦٥ ترسانة السفن فى كيانجنان . وفى ١٨٧٢ نظمت شركة الملاحة التجارية لتجار الصين لكى تنافس الاحتكار الذى كان الأجانب يحاولون تأسيسه فى المياه الساحلية والنهرية . وبدأت مصانع غزل الحرير ومصانع القطن والكبريت ومطاحن القمح تنشأ فى شنغهاى وغيرها من المدن الساحلية . وكان هؤلاء الزعماء التجار وإن مثلوا اقتصاد الوسطاء من الصينيين (الكومبرادور) * يكرهون الامتيازات التى يستمتع بها رجال الأعمال الأوروبيون، ولذا كانوا ميالين إلى مناصرة مطالب الوطنيين.

واستفادت الطوائف الثورية من الحرية السياسية التى تظلل المستقرات ؛ فإن حركة قومية قوية لا علاقة لها بالقصر الإمبراطورى الرجعى ، بل هى فى الواقع معادية له ، قد بدت عليها علائم النمو القوى بتلك المناطق ، كما أنها انتشرت من هناك نحو الداخل . وبدأ القوم يستخدمون المقاطعة سلاحاً قوياً فى المسائل السياسية . فى

---

* يستعمل الأجانب فى الصين كلمة Comprador بمعنى الموظف الصينى الذى كانت تستخدمه البنوك الأوروبية أو بيوت الأعمال . (المترجم)

١٩٠٥ بدأ الصينيون فى كانتون حركة واسعة النطاق لمقاطعة أمريكا احتجاجاً على معاملة الصينيين بالولايات المتحدة . وفى ١٩٠٨ نفذت ضد اليابانيين مقاطعة أقوى من الأولى أو تكاد ، وكان ينبغى أن تفتح أعين الدول الاستعمارية على قوة وطنية الصين الجديدة . هذا إلى أن جماعات من شباب الصين شرعوا يذهبون إلى الخارج للدراسة ، كما أن انتصار اليابان على قوة الروسيا القيصرية قد قصم بصورة نهائية وحاسمة كل سلطان للأوروبى بآسيا . وهكذا عندما بدأت الثورة فى صورة تمرد فى هانكاو وتشانج فى ١٠ أكتوبر ١٩١١ ،وسقطت أسرة المانشو دون أن تمتد يدها بضربة واحدة ، قل من الأوروبيين من أدرك أن ما سقط بتلك الطريقة المهينة لم يكن فقط نظاماً ملكياً ، نخر فيه حتى صميم باطنه سوس الفساد ، بل لقد تقوض أيضاً ذلك البنيان المحكم الذى أنشأوه بالقوة والغش والمداجاة فى مدة تربى على سبعين عاماً . أجل إن ضعف تأثير الثورة أثناء السنوات القليلة وقلة ما عادت به من جدوى أخفى آثارها إلى حين ، ولكن لم تكد تنقضى عشر سنوات حتى أخذ النظام الأوروبى فى الصين يتقوض هو أيضاً بنفس الطريقة التى تقوضت بها ملكية أسرة المانشو ، دون مقاومة ولا قتال .

مذكرة بالمراجع

إن المراجع التى تدور حول الصين فى تلك المدة كثيرة ولكنها من ناحية واحدة فقط ، والكتب التالية تمثل إلى حدما وجهة النظر الغربية :

Ballero, E. : Overture de la Chine a l'influence française ancours des XIX et XXe siècle.

Brine, L. : The Taiping Rebellion in China.

Gros, Baron : Negociations entre la France et la Chine en 1860.

Hail, W. J. : Tseng Kuo-fan and the Taiping Rebellion. New Haven 1927.

Parliamentary Papers : The Taiping Rebellion.

Colquhoun, A. R. : English Policy in the Far East.

Documents Diplomatiques : Affairs en Chine, Paris 1885.

Jenkins, E. : The Coolie, His Rights and Wrongs. London 1871.

Letters regarding the Tientsin Massacre. Shanghai, 1870.

Wheeler : The Foreigner in China, Chicago, 1881.

Williams : Anson Burlinghame and the first Chinese Mission to the Foreign Powers. N. Y. 1912.

Japan, 1853-64. Translated Satow. Tokyo, 1905.

Satow, E. M. : Japan. Cambridge Modern History.

Vladimir, F. J. : China-Japan War. London, 1896.

For the history of the taipings See Hail: Tseng kuo-fan and the Taiping Rebellion.

Lindlay, A. F. : The history of the Taiping Revolution.

Vizetelly, H. : The Chinese Revolution, 1853.

Li Hake (Egmont) : Events in the Taiping Rebellion.

Bland, J. O. P. : Li Hung-Chang. London, 1917.

Douglas, D. K. : Li Hung-Chang. London, 1895.

The Boxer Rebellion is the subject of numerous books but there is no work which presents the Chinese View. The nearest approach to it is the diary of His Excellency Ching Chan included in :

Bland and Buckhouse : China under Empress Dowager.

Beresford : Lord, C. The Break-up of China. London 1899.

Clements, P. N. : The Boxer Rebellion - A Political and Diplomatic Review. N. Y, 1915.

d'Herrison: Loot of the Imperial Palace. Smithsonian annual. Institute Report, 1900.

Hart, R. : The Peking Legation. Shanghai, 1900.

Hewlett : The Diary of the séige of Peking Legations.

Weale, Putnam, Indiscreet Letters from Peking.

The following books are also interesting about special aspects of China's relations with the West at this time .

Bau, M. J. : Open Door Doctrine in Relation to China.

Barry, A. J. : Railway Expansion in China, London, 1912.

Bland, J. O. P. : Recent Events and Present Policies in China, London 1912.

Liu, S. S. : Extraterritoriality : Its Rise and Decline. N. Y., 1925.

Reinsch : World Politics at the end of the Nineteenth Century as Influenced by the oriental situation, London, 1900.

Stiger. China and the occident. New Haven, 1927.

Wellington Koo : Statues of Aliens in China.

الفصل الثالث

اليابان

سبق أن رأينا ما بذلته الروسيا وبريطانيا والدول الأخرى من جهود للدخول فى علاقات تجارية مع اليابان ، ورأينا تكلل جهود الشوجنية بالنجاح فى سبيل درء خطر هذه المحاولات . وأدى فتح كاليفورنيا فى ١٨٤٤م إلى إدخال الولايات المتحدة إلى شاطئ الپاسيفيكى ، وهناك تقرير للجنة الشئون البحرية بالكونجرس يحتوى على ما نصه : « إن ضم كاليفورنيا يتيح تسهيلات للتجارة مع الصين لا يجوز إهمالها » وعند منتصف القرن رأت السلطات الأمريكية أنه قد آن الأوان لفتح الباب قسراً ، ذلك الباب الذى ظل زمناً طويلا جداً مغلقاً فى وجه الغربيين . وكانت اليابان دون غيرها من الدول الشرقية أعلم بنوايا الدول الغربية ، كما كانت أصح تقديراً لقوى تلك الدول . فكما رأينا كان يوجد بها عدد مطرد الزيادة من الناس الذين كانوا يهتمون بالمعارف الغربية والذين كانوا يطبقون على مسائل الدفاع القومى تلك المعارف التى حصلوا عليها ، على الرغم من أن ذلك قد اقتضى المثابرة والتغلب على الصعاب . وكانت هزيمة الصين أمام بريطانيا حافزاً عظيماً فتح أعينهم بوجه خاص على ذلك الخطر ، فقاموا فى المدة التى عقبت معاهدة نانكين (١٨٤٢م) بنشاط شديد جداً باليابان لتقوية دفاع الجزر وضمان سلامة الاستقلال القومى . وكان اليابانيون يعرفون أنه لابد أن يأتى يوم تبذل فيه الجهود لفتح باب العلاقات معهم . والواقع أن ملك هولندة لم يأل جهداً فى رسائل عديدة شخصية بعث بها إلى الشوجن ، يحاول أن يقنعه فيها بصواب فتح أبواب البلاد للتجارة الأجنبية .

وفى ٨ يوليو ١٨٥٣م وصل القومودور پرى إلى ميناء يوارجا* على رأس أربع بوارج حربية — وكان القومودور يحمل معه خطاباً من الرئيس فيلمور . وكانت الرسالة موجهة إلى الشوجن وتحمل فى أطوائها كل تعبير عن النيات الودية ، ولكنها

---

* يمكنك أن تجد أمتع بيان كتب عن حملة القومودور پرى فى كتاب « Black Ships of Japan » تأليف أرثر والورث ١٩٤٦ .

تحمل تهديداً مقنعاً بأن القومودور سيعود فى العام القابل مع قوة أعظم متوقعاً أن يحصل على رد مُرض . وقد قال فى رسالته منذراً بالشر : « إن كثيراً من السفن الحربية المقرر لها أن تزور اليابان لم تصل بعد إلى تلك البحار ، وإن كان يُتوقع وصولها بين ساعة وأخرى ؛ كما أن صاحب الرسالة رغبة منه فى إظهار نواياه الودية لم يحضر إلا أربع سفن من الطراز الأصغر معتزماً إذا استلزم الأمر أن يعود إلى يدو فى الربيع القابل ومعه قوة أعظم كثيراً . » وبذلك توقر فى الأذهان أنه لابد من فتح اليابان بالقوة . وكان للتهديد أثر قوى جداً ، ذلك لأن اليابانيين كانوا يعرفون ضعفهم ، كما أنهم تعلموا أيضاً درس الحرب الصينية . وقد كتب لى كامون نوكامى أشد مستشارى الشوجنية فى ذلك الزمان بعد نظر ، فى إحدى مذكراته المقدمة للعرض على الشوجن بياناً عن المتبربر الغربى ، واقترح الإذعان والموافقة حتى تتمكن اليابان بتعلمها أسرار الغرب من التصرف معهم على قدم المساواة . ولذا فإن پرى عندما عاد كما وعد بقوة أعظم ، حصل على الرد الموافق الذى توقعه ، وعقدت معاهدة فى ٣١ مارس فتحت بمقتضاها ميناءان أبوابهما أمام التجارة الأمريكية كما صرح فيها أيضاً بقيام التمثيل القنصلى . وسارعت بريطانيا العظمى والروسيا وهولندة إلى تعقب خطوات أمريكا على عجل ووقعت معاهدات مماثلة وحصلت على امتيازات مماثلة .

ولكن الشوجن أضعف مركزه بهذه الاتفاقية . ذلك أن النبلاء والساموراى كانوا على بكرة أبيهم يعارضون فى فتح أبواب البلاد للأجنبى ، وكان بلاط الإمبراطور معارضاً فيها أيضاً . وفى ذلك الوقت الحرج مات الشوجن الذى تمت مفاوضات المعاهدات باسمه واسم سلطته دون أن يعقب وريثاً ذكراً مباشراً . ولكن قبل أن يتم حل الورطة التى سببتها وفاة الشوجن ، وصل المبعوث الأمريكى الأول إلى اليابان وطالب بتوسيع المعاهدة التى عقدها پرى . ولم تكن الشوجنية فى مركز يسمح لها بالمقاومة ، ولذا فإن المعاهدة التى عقدت فى نجازاكى احتوت شروط التعهد بإسكان الأمريكيين بميناءى المعاهدة وقبول المبدأ الخبيث الشرير مبدأ تقاضى الأمريكيين أمام محاكمهم . لقد لفت السلسلة حول عنق اليابانيين كما لفت قبل ذلك على عنق الصينيين . وينبغى أن يضاف إلى هذا أن اليابانيين لم يوافقوا على هذه الشروط

إلا عندما هدد تاونسند هاريس اليابانيين بالعواقب الوخيمة التى تنتظرهم ، ولفت أنظارهم إلى المحنة التى يتخبط فيها الصينيون فى كانتون . ووصل البريطانيون والفرنسيون إلى المسرح فور ذلك وطالبوا بعقد معاهدات مماثلة لتلك حصلت بها هاتان الدولتان والدول الأخرى التى حذت حذوهما على الحق فى إنشاء التمثيل الديبلوماسى والقنصلى فضلا عن حق التقاضى أمام المحاكم الأجنبية .

وعند ذلك اتجه المحافظون وغيرهم ممن شهدوا استقلال بلادهم يداس بالأقدام بهذا الشكل — اتجهوا إلى العرش آملين أن يوقف الموافقة على هذه المعاهدة المهينة الماسة بالكرامة . وعند ذلك وضعت الشوجنية فى مركز حرج جداً ، وذلك أن الشعور ضد الأجانب وضد الشوجن كان يزداد شدة فى عاصمة البلاد ، وأظهر الإمبراطور عناداً غير متوقع فى الامتناع عن الموافقة . وترددت فى كل أرجاء اليابان صيحة «توقير العرش وطرد الأجنبى» ولم يوافق الإمبراطور على التصديق على المعاهدات إلا وقد صار مفهوماً لدى الجميع أن الأجانب لن يلبثوا حتى يطردوا من البلاد خلال بضع سنين . وبلغ التهيج بالرأى العام بين ١٨٥٧م—١٨٦٣م أن كثر الاعتداء على الأجانب — ولما كانت الشوجنية قد وافقت على تحديد موعد لطرد الأجانب — هو يوم ٢٤ يونية ١٨٦٣م — فإنها وجدت نفسها واقعة بين المطرقة والسندان أو بين البحر والشيطان ، ذلك لأن الدايميونات بالأقاليم أخذوا ذلك التاريخ المحدد لطرد الأجانب مأخذ الجد ، فشرعوا يهاجمون السفن الأجنبية ، على حين كانت حكومة الشوجن تسكن ثائرة الممثلين الأجانب . على أن المسئولين من أهل الرأى الذين كانوا متأثرين إلى حدما بآراء من عادوا من بعثاتهم من البلاد الأجنبية مثل إيتوهيرو بومى — الذى أصبح فيما بعد الأمير إيتو — قد أخذوا يدركون أن الأفكار القديمة القائلة بضرورة إغلاق أبواب البلاد فى وجه الأجانب لم تعد صالحة ، ولذا أصبح من الضرورى إحداث تغيير فى السياسة إن كانت اليابان تريد أن تعالج أمر تهديد السيطرة الأجنبية . وانقسمت البلاد إلى طائفتين على هذه المسألة الهامة ، وعندئذ انهار النظام الشوجنى بعد محاولة غير ذات أثر لتثبيت أركانه تاركاً الطريق مفتوحاً أمام إعادة السلطة للعرش فى حقبة الميجى (١٨٦٨م) . ويجيد سانسوم تلخيص الموقف فى ذلك الزمان بهذه الكلمات :

« إن تاريخ اليابان — فيما يرى الدارسون الأجانب — فى السنوات المنصرمة بين وصول پرى وزحمة الملكية فى ١٨٦٨ م يدور بصفة رئيسية حول كفاح الدول الغربية لحمل اليابان على الخروج من عزلتها . ولا مناص من أن يذكر الكاتب الأجنبى الحيل الخادعة التى كانت الحكومة اليابانية تتخذها والجو العام المشبع بكراهية الأجانب الذى كان يسود اليابان فى تلك الأيام — على أن هذه النواحى لو بحثت من وجهة نظر أخرى مخالفة لتجلى أن أهميتها عارضة وليست أولية ولا أساسية . ولا تبرز الأهمية الحقة للأحداث المرتبطة بهذا الأمر إلا عندما تدرس تلك الأحداث كدليل على الطريقة التى يمكن بها لمجتمع أن ينحل ثم يجدد نفسه دون أن يغير جوهره . ولاشك أن وصول أجانب إلى البلاد يطلبون الدخول إليها قد كشف للعيان بل أذاب وحلل طائفة معينة من المنازعات الكامنة فى صميم الحياة اليابانية السياسية ، وكان أثر الغرب فى هذه الناحية واضحاً وحاسماً * . »

وكان المقصود من استرجاع السلطة فى حقبة الميجى إقامة سد فاصل دون نظام الشوجنية وسياستها ، ومع ذلك فإن مما له دلالته أن الشوجنية أرسلت إلى الخارج فى أواخر أيامها نخبة ممتازة من الشباب للدراسة ، وعندما عاد هؤلاء إلى وطنهم كانوا النواة الصلبة لطبقة دعاة الإصلاح . ومن ناحية أخرى كان البلاط العائد إلى سلطانه مضطرًّا أن يعتمد اعتماداً كبيراً على موظفى الباكوفو . والواقع أن ما حدث كان أقرب شىء إلى انقلاب سياسى استطاع بإعادته السلطان للإمبراطور ، أن يمنح القوى الجديدة قدراً أكبر من حرية العمل ومصدرًا للسلطة لا سبيل إلى مهاجمته يمكن من ورائه لمن كانوا يخططون خطة اليابان الجديدة أن يتصرفوا تصرفاً حاسم الأثر . وكان زعماء العشائر التى حلت محل الشوجن يتصفون بتلك المزايا . ومما يشرفهم أنهم استطاعوا باتخاذ خطوات رائدها الحذر والتخطيط المقترن بالعناية أن يحطموا السلاسل التى وضعت فى عنق اليابان .

ولم يكن الموقف باليابان مختلفاً من الناحية النظرية عن نظيره بالصين بعد معاهدة نانكين . فقد أسست المستقرات الأجنبية بالمدن ، كما عينت بعض الموانى بحكم المعاهدات لتكون مفتوحة للتجارة الأجنبية ، كما أنه حدث فى نجازاكى أن

* انظر سانسوم فى « The Western World and Japan » ص ٣٢٥ .

البريطانيين استخدموا القوة أو كادوا للحصول على تسهيلات ضرورية للملاحة وإدخال السفن أحواض الإصلاح فى الداخل . وتدل سجلات القنصلية البريطانية التى نشرها پاكسى سمث على أن الموظفين الأجانب شرعوا يتخذون موقفاً عدوانياً تجاه السلطات المحلية ، كما أنهم شرعوا فى هدوء يسربون إلى البلاد خفية حرسهم العسكرى الخاص . وأقيمت تنظيمات للبلديات على غرار أمثالها بمدن المعاهدات الصينية ، كما أن الجاليات الأجنبية أخذت تمنى النفس بأن الحرب الأهلية التى كانت متأججة الأوار آنذاك باليابان وأن انهيار قوة الشوجن وتدليها فى مهاوى الاضمحلال يوماً بعد يوم لابد أن توقع بلاد اليابان فى نفس الشرك ونفس النموذج العام الذى آلت إليه الدول الآسيوية .

إن عودة سلطان الإمبراطور والسياسات التى أتبعها زعماء اليابان فى السنوات الخمس والعشرين من ١٨٦٨م — ١٨٩٣م أثمرت مع ذلك نتيجة غير متوقعة هى تحطيم أغلال اليابان تحطيما تاماً ؛ ووضعها فى موقف راسخ من الاستقلال التام عن الأمم الغربية . وسنعالج صحوة اليابان فى موضع آخر على حدة ، ومعها حركات صحوة آسيا عامة . وسنقتصر هنا على معالجة التغيرات السياسية وغيرها التى أحدثها زعماؤها لإزالة القيود التى فرضت على سيادتها .

وبعد استرداد الإمبراطور سلطانه بفترة قصيرة أصدر مرسوماً (٢٦ مارس ١٨٦٨م) أعلن فيه لشعبه أنه قد تقرر إنشاء العلاقات مع الدول الأجنبية ، وأن البلاط الإمبراطورى سيتولى توجيه تلك العلاقات ، وسيتم المعاهدة وفق ما يقضى به القانون الدولى . لذلك « أصدرنا أمرنا بأن يطيع الشعب كله إرادة جلالته و يتصرف متمشياً معها تماماً . » وحذر الإمبراطور الناس أيضاً من أن « كل من أقدم مستقبلا على قتل الأجانب أو ارتكاب أى عمل من أعمال العنف معهم لن يكون مضاداً فى تصرفه لأوامر جلالته الخاصة فحسب بل يكون سبباً فى جلب الويلات القومية ، وسيكون أيضاً مرتكباً لجرم ذريع ، هو إنزال الأذى بالكرامة القومية والاستقامة القومية فى نظر دول المعاهدات التى صرح جلالته بأنه مرتبط بها بروابط الصداقة . »

وواضح أن اليابان تعمدت قصداً أن تخطو خطوة المحافظة على العلاقات الودية مع الأجانب ، وأنها كانت منذ البداية مشغولة الخاطر قلقا على الكرامة القومية .

وقد لاحظ كثير من المراقبين الأجانب حتى فى ذلك الزمان الفرق بين طريقة تصرف الصين إزاء الغرب وتصرف اليابان . كتب اللورد إياجن يقول : « لا شك أن هناك نتيجة واحدة للفرق بين عادات الصينيين وطرائق إحساسهم وبين ما لليابانيين من عادات وطرائق هى أنه بينما الصينيون يتأخرون باطراد وسيظلون فى أغلب الظن يفعلون ذلك حتى تتمزق إمبراطوريتهم إرباً ، فإن اليابانيين إذا لم يكونوا فعلا فى حالة تقدم مطرد ، فهم فى حال تسمح لهم بالاستفادة من فيض الضياء الذى أوشك أن ينصب عليهم انصباباً وأن يحسنوا الاستفادة من تلك التحسينات والاختراعات التى ينظر إليها الصينيون نظرة الاحتقار والسخرية ، والتى سيتمكن بها اليابانيون عندما يعرفوننا معرفة أحسن أن يقتبسوا من هذه التحسينات ويستخدموها * » .

وليس ثمة شك فى أن اليابانيين كانوا يقظين كل اليقظة كما كانوا أكثر دراية بأحوال أوربا من الصينيين مدة طويلة من الزمان . وكانوا يقدرون ضعفهم السياسى والعسكرى حق قدره . كما أنهم حللوا منذ زمن مبكر أسباب ذلك الضعف ، ونسبوه إلى التأخر فى المهارة العلمية والفنية وضعف تأثير التنظيم السياسى . فنصبوا أنفسهم لإصلاح هذين العيبين ، ولهذه العناية رحبوا بالمساعدة الغربية ، وأقبلوا بكل أفئدتهم مكرسين أنفسهم لإحراز المعلومات والتطبيقات الفنية الغربية ، بل لتفهم الأساس العلمى الضرورى للتقدم المادى أيضاً — وبغض النظر عن هذا الهدف المرموق ، فإن من الأخطاء التى زل فيها الكتاب الغربيون ، وبخاصة فى الفترة السابقة على ١٩٣٠م ، زعمهم بأن اليابان راعتها حضارة الغرب ، أو كانت تسلم بتفوقها المعنوى . بل الواقع كما سنرى ذلك فى فصل تال أنه بينما كان زعماء اليابان يقتبسون من الغرب بجد وحمية شديدة جميع التنظيمات البحرية وغيرها وينشئون دولة على أسس عصرية بحتة ، فإنهم كانوا فى الحين نفسه يتخذون كل احتياط للتحقق من عدم تغلغل الأفكار الغربية ببلاد اليابان . والحق أنهم كانوا يكونون نظرية لجنسهم ويصوغون فى نفس الحين أيديولوجية سياسية وشعوراً خلقياً قومياً قائماً على إنكار المبادئ الأساسية فى حياة الغرب .

---

* اقتبسه المستر پاكسى سمث فى كتابه « Western Barbarians and Japan. » .
(ج . ل . تومبسون وشركاه كوبى ١٩٣٠ ص ١٤٠)

ومع ذلك فإن اليابان عندما اعتزمت نهائياً أن ترتبط إمبراطوريتها بالدول الأخرى ، فإنها ارتضت لنفسها إلى حين القيود والحدود المفروضة على سيادتها وبدأت سيرة جديدة من الإصلاح ، هدفها — فى المقام الأول — إقناع الدول أن اليابانيين لا يقلون جودة معدن عن الغربيين ، وأنهم أصبحوا متمدينين ولم يعودوا قوماً من الأهالى المتأخرين ؛ كما أقبلوا من الناحية الثانية على تكوين قوة الجيش المسلحة بحيث تستطيع عند أول فرصة إظهار قوتها . واهتم بالأمر الأول مصاحبو حقبة الميجى الذين كانوا يعملون مسترشدين بنصح المراقبين الأذكياء الذين أرسلوهم إلى بلاد الغرب . ومعلوم أن الذى عرف خطورة الناحية الثانية هم الشواجن أنفسهم ، الذين شرعوا بمشورة الأمريكيين والهولنديين أن يعيدوا تنظيم بحريتهم ، وشرعوا بمشورة الفرنسيين أن يعيدوا تنظيم جيشهم . وهكذا حدث فى ١٨ أبريل ١٨٦٨م ، أى بعد عودة سلطة الملكية ببضعة أشهر ، أن الإمبراطور ميجى استطاع أن يستعرض البحرية اليابانية التى كانت تتكون آنذاك من ست سفن يقودها الأميرال سجيون نوميا . ولعله مما يسترعى الاهتمام أن نلحظ أنه فضلا عن سفينة القيادة أتنويو ماريو وأخرى أطلق عليها اسم يابانى ، فإن السفن الباقية كانت لها أسماء جنبية — هى الكوزه وبوليت وجيرار وكوكت إلى غير ذلك * .

وكانت باليابان رغبة أصيلة حقة فى الحصول على معارف الغرب وعلومه وخاصة من الناحيتين العلمية والنفعية . وإن الجهود الخاصة التى بذلتها جمعية الرنجا كوشا — وهى جماعة من العلماء الذين درسوا فى هولندة ظلوا محافظين بمثابرة فائقة وجد خارق على الاهتمام بالعلوم الغربية — والمجموعة الضخمة من المعاودات التى جمعوها ونشروها على الناس ، لتظهر بأجلى بيان أنه كان بين الفئة الذكية العالمة من اليابانيين شطر على الأقل لا يحمل فى نفسه على عكس الصينيين — أى ضغن أو تحزب ضد العلم الأوروبى ، كما أنهم انتهوا منذ زمن مبكر إلى الإيمان بأن الحرص على حياتهم القومية كان يستلزم استثمار العلوم الأوروبية . وقد جمع س . و . بوكسر فى كتابه « چان كومبانى فى اليابان Jan Compagnie in Japan » ** شواهد مقنعة تظهر أن

---

* انظر « Western Barbarians & Japan » تأليف باكسى سميث ص ص ٢٨٠ — ٢٨١ .

** « The Hague. Mariinius Nijhoff, 1936 » .

جمعية الرنجاكوشا استطاعت فى ميادين رسم الخرائط والجغرافيا والفنون العسكرية والطب وعلم النبات والفلك ، أن تجمع وتشيع بين الناس طائفة جمة من المعلومات . لذا فإن الإمبراطور عندما أمر رعاياه فى مرسوم القسم أن يطلبوا المعرفة من كل مكان ، تدفقت فى البلاد حماسة لتحصيل المعارف الغربية كانت جديرة بالإعجاب حقاً .

وكان مرسوم القسم فى ١٨٦٨م بداية تغيير عظيم . وهو وثيقة قصيرة من خمس فقرات نصها كما يلى :

(١) يجتمع مجلس على أساس واسع ويكون ذلك مؤكداً لأهمية الرأى العام

(٢) تقوم كل طبقات الشعب من حكام ومحكومين ببذل جهود دائمة لصالح الأمة كلها .

(٣) سيبذل كل الأفراد وكذلك الموظفون المدنيون والعسكريون وغيرهم من الناس قصارى جهدهم ولن يكلوا فى الوصول إلى غايتهم المشروعة .

(٤) ينبغى التخلى عن كل عرف أو عادة سخيفة ، وستنظم كل الأعمال وفقاً للعدالة والاستقامة .

(٥) ستطلب المعرفة من كل صقع من أصقاع العالم وبذلك يتقوى أساس نظام دولتنا الإمبراطورية .

وغنى عن البيان أن العبارة الختامية « تقوية أساس النظام الإمبراطورى » تقدم إلينا مفتاح جميع هذا التطور التاريخى البارز . ونصب رجال حقبة الميجى أنفسهم لأداء تلك المهمة بحكمة وحذر وقوة تسترعى الإعجاب حقاً . فدعى الخبراء الفنيون من كل نوع ووضعوا موضع الإكرام والترحاب . ودعى الممتازون من الرجال فى ميادين كثيرة للعلم ليعملوا مستشارين أو معلمين أو موظفين بالمصالح والإدارات . وكان بالحكومة أكثر من خمسة آلاف موظف أجنبى فى حين كان بينهم ما لا يقل عن ألف وثلاثمائة يشغلون مناصب عالية — والشيء الذى كانت اليابان تحاول جادة أن تتعلمه من هؤلاء الخبراء ذوى الجنسيات المختلفة هو كيف تصبح أمة قوية قادرة على أن تدعى لنفسها المساواة مع أقوى الأمم فى العالم . لذا فإن الأصول التربوية والتنظيمات الاجتماعية لم تكن تقل بحال عن الفنون العسكرية

ولا التطبيقات الفنية فى العلوم . ثم إن الإنتاج الصناعى وتحسين وسائل الزراعة والأسس الآلية التى تقوم عليها التجارة الدولية والمواصلات وصناعة السفن العصرية ــ لا شك أن هذه كلها كانت فى أقصى غاية الأهمية والضرورة المستعجلة الملحة ؛ على أن اليابانيين أدركوا أيضاً أنه لابد لهم من قوانين عصرية ومحاكم حديثة ونظام سياسى يتمشى مع الظروف العصرية .

فجردوا أنفسهم لخلق ذلك كله ، ولم ينقض جيل واحد حتى اصطبغت اليابان بالطابع العصرى فى ظاهرها . وكان الغرض الأول هو إقناع الدول الغربية أن اليابان تقترب من مستوياتهم ، وأن اليابانيين أصبحوا أوروبيين فى كل شىء عدا لون البشرة . فإذا لزم فى سبيل إقناع الأوروبيين بتلك الحقيقة أن يكفوا عن عقص شعورهم إلى أعلى ويتخذوا طريقة الأوروبيين فى الحلاقة وأن يتخذوا الملابس الأوروبية فى مراسم البلاط والحفلات الرسمية (١٨٧٢م) أو أن يعلن الإمبراطور نفسه على الملأ أن الثياب ذات الطراز القديم لم تعد لائقة للزمان ، فإن زعماء اليابان لم يكن لديهم أى اعتراض على ذلك بل الواقع أنه حدثت أشياء غريبة جداً أثناء فترة الانتشاء بحمياّ تلك الكأس. وكان الغرض من ذلك كله الإصرار على « تأكيد عصرية » طابع اليابان وعلى اصطباغها الفعال بالصبغة الغربية . ويقول سانسوم الذى يبحث تلك النزعات : « ليس من المبالغة فى شىء القول بأن مشكلة الحصول على معاهدات جديدة على أساس المساواة التامة مع الدول الأخرى ، قد غطت كل التغطية على جميع مشكلات القوم ، ولم تكن تؤثر فقط فى السياسة الخارجية بل أيضاً فى الداخلية طوال تلك المدة . ولا مراء أن موقف السلطات فى تبنى النظم والأعراف الغربية كان العامل الأكبر فى تكوينه حرص تلك السلطات على أن تظهر للغربيين أن الشعب اليابانى قد تمثل قدراً من الثقافة الغربية يبرر مطالبتهم بأن يعاملوا كأعضاء فى دولة عصرية ممدنة * . »

وللحصول على تعديل المعاهدات كان اليابانيون مستعدين فى قرارة أنفسهم أن يكابدوا الشىء الكثير ، ولو بلغ ذلك أن يتقبلوا على ملأ من العالم أجمع الاعتراف بتفوق الحضارة الغربية . وبلغ بهم الأمر أن صاغوا دستوراً يحاول أن يوفق بين

* « The Western World & Japan » تأليف سانسوم ص ٤٠١ .

الإمبراطور المقدس الذى لا يمكن المساس به وبين نظام برلمانى ، حتى إذا أعلن الدستور فى ١٨٨٩م شعروا بأنه قد صار لهم الحق فى أن يعدوا فى مصاف الأمم التقدمية . وكانت لا تزال بهم بعض الشكوك حيال النصرانية ، ولكن إذا كان ثمن تعديل المعاهدة — كما قرر ذلك المراقبون اليابانيون المرسلون إلى الخارج — هو إباحة الحرية لنشاط البعثات التبشيرية المسيحية ، فإن الإمبراطورية كان يسرها أن تدخل فى صلب الدستور فقرة تنص على أن قانون اليابان يسمح بالتسامح الدينى التام .

وكانت الصعوبة الرئيسية التى واجهها اليابانيون فى جهودهم فى سبيل تعديل المعاهدات غير المتكافئة الأطراف هى تماسك الممثلين الديبلوماسيين فى عواصم الشرق الأقصى . وكان من المبادئ المقررة فى ذلك الزمان ، وإن كانت الروسيا هى الدولة الوحيدة التى لم تقرها تماماً أن تناصر الدول بعضها بعضاً فى معاملتها مع البلاطات الملكية الأسيوية وأنه ينبغى ألا يتخذ بأى حال سياسة لا تتفق وحقوقها العامة . وهكذا حدث أنه عندما تفاوضت اليابان فى ١٨٧٣م فى معاهدة مع إيطاليا تسمح بمقتضاها للرعايا الإيطاليين بالسفر فى داخل اليابان ، ووافقت إيطانيا من جانبها على تعديل الامتيازات القضائية ، احتجت الدول الأخرى وحالت دون التصديق على المعاهدة ، ثم إن الحكومة الأمريكية التى كانت تنظر فى ذلك الحين بعين العطف إلى جهود اليابان فى سبيل صوغ نفسها الصياغة العصرية ، قد وقعت معها ميثاقاً اعترفت فيه بمساواة اليابان لها ، فأثارت بذلك قدراً كبيراً من الاستياء بين الدول الأخرى . ومع ذلك فالواقع أن الروسيا هى التى ساعدت اليابان فى كفاحها للحصول على حالة المساواة ومعاملة الند . ذلك أن جزيرة سخالين ظلت حيناً من الدهر موضع نزاع بين الإمبراطوريتين . ولكنها تركت بمعاهدة ١٨٥٥م لتكون موضع البحث فى تسوية تالية ، وطالت المفاوضات دون أن تسفر عن نتيجة . وأخيراً سويت المسألة فى ١٨٧٥م بمعاهدة تنازلت فيها اليابان عن مطالبها حول سخالين مقابل الاعتراف بحقوقها فى جزائر كوريل . وعقدت المعاهدة كما تعقد المعاهدات بين ندّين من الدول ، وكان أول اتفاق دولى وضع اليابان فى مصف دولة تقف على قدم المساواة مع دول العالم الكبرى .

ثم إن النظام السياسى لليابان بدأ هو أيضاً يتخذ شكلا مغايراً ، ساعد الحكومة

الإمبراطورية فى سبيل الاعتراف بحالتها . ذلك أن القضاء على ثورة ساتسوما (١٨٧٧م) قد أزال من الوجود نهائيًّا حكومة العشائر الإقطاعية ، كما اتخذت أولى الخطوات فى سبيل النظم التمثيلية . ففى ١٨٨١م أصدر الإمبراطور مرسوماً يعد بتأسيس برلمان على الغرار الغربى من شأنه أن يكون حجر الأساس فى النظام الجديد . فبعد أن درس إيتو هيرو بومى النظم السياسية فى أهم الأقطار دراسة مقارنة ، اقترح الخطوات التى يمكن بها على مراحل تدريجية تأسيس جهاز الحكومة البرلمانية فى ظل الملكية باليابان . وكانت أولى الخطوات فى هذا الاتجاه فى ١٨٨٥م يوم أوجدت وزارة لتتولى إدارة الحكم فى البلاد . وعقب ذلك إنشاء مجلس للبلاط مكون من الشخصيات الممتازة والسياسيين ذوى الخبرة قائم على غرار المجلس البريطانى يحمل نفس الاسم. وأخيراً أعلن دستور فى ١٨٨٩م وسط مظاهر الاحتفال اللائقة ، وهو يعلن للعالم أن اليابان قد اتخذت مقعدها بين جماعة الأمم المتحضرة .

ولم يتخذ ذلك الدستور وهو وليد الأمير إيتو من أى دستور آخر معين نموذجاً له ، وإن كان تأثير إنجلترا وألمانيا ظاهراً فى كثير من مواده . ولكن هناك اعتبارين تسلطا على إيتو ومستشاريه وكان لهما وزنهما فيهم . وكان أول هذين الاعتبارين الاحتفاظ بسلطة العرش سليمة غير منقوصة ؛ وكان الثانى هو غرضهم المباشر الذى يرمون من ورائه إلى إقناع العالم بأن على رأس اليابان حكومة عصرية متحررة ودستورية حقة . ولم تكن الديمقراطية مسألة ذات أهمية حيوية فى ١٨٨٩م . وكانت أقوى دول أوروبا فى ذلك الزمن الإمبراطورية الألمانية برئاسة بسمارك ، وهى دولة لم تدع قط أن لها دستوراً ديمقراطياً ، كما أنها كانت تقوم قبل كل شىء على الحكم الاستبدادى لملك بروسيا . وكان إمبراطور النمسا وقيصر الروسيا أيضاً عاهلين مستبدين أوتوقراطيين ، بل كان حق التصويت مقيداً فى إنجلترا نفسها وهى موطن الديمقراطية المتحررة . فالشىء الذى كان يلزم اليابان آنذاك كان بناء دستور لا تخف موازينه عند مقارنته بدساتير الدول الملكية الكبرى بأوروبا .

على أن التوفيق بين مركز الإمبراطور وبين نظام الحكم البرلمانى كان أمراً أصعب ؛ ولكن إيتو ومن عملوا معه لم يجدوا فى ذلك الوضع تناقضاً . وكانت أولى

مواد الدستور تنص على أن :

« الإمبراطورية يليها ويحكمها سلسلة من الأباطرة لا تنقطع إلى أبد الآبدين » .

وتنص المادة الثانية على « أن الإمبراطور مقدس ولا يجوز المساس به . » وعلق إيتو نفسه على تلك الفقرات بما نصه :

« إن العرش المقدس تأسس يوم فتق الله السموات عن الأرض . والإمبراطور سليل السموات ، وهو إلهي ومقدس . وهو يسمو ويتصدر فوق كل رعاياه » .

وبديهي أن إمبراطوراً إلهيًّا لايلي ويحكم فقط بل لا يمكن أن تقوم إلى جواره مسئولية برلمانية . ولذا وجب أن تكون الوزارة مسئولة أمام العرش ، وكان المقصود من الدايت أن يمكن الإمبراطور من تحقيق رغبات شعبه ليس إلا . أما من حيث تشكيل الدايت ، فإن إيتو اتبع النظام البريطانى فكون مجلساً للوردات ومجلساً للعموم .

واستخدمت الحكومة الإمبراطورية المهابة والمكانة المتزايدة التى تمخضت عنها تلك الأعمال فى تذكية غرضها المباشر؛وهو الحصول على تنقيح المعاهدات غير المتساوية الأطراف . وجاءت المعارضة الرئيسية لذلك الأمر من بريطانيا، وتعمد اليابانيون تجنيدأنفسهم لاسترضاء تلك الدولة وتملقها. لذا انتشرت فى تلك الأيام بدعة جديدة هى أن يشير اليابانيون إلى أنفسهم بأنهم بريطانيو الشرق . وشجعت دراسة اللغة الإنجليزية تشجيعاً خاصاً؛ بل قد بذلت فى الواقع كل محاولة لحمل الدنيا على الانطباع بفكرة أن اليابانيين أكبر المعجبين بالبريطانيين وأشد الناس توقاً أن يعدوا تلاميذهم .

من أجل ذلك فإنه وإن جرت مفاوضات لا تنقطع على يد وزراء خارجية متعاقبين ، وبخاصة على يد الكونت إينوى (١٨٧٩م — ١٨٨٧م) ، فإن تلك المفاوضات لم تتمخض عن شيء ذى بال . ولكن ما قام به اليابانيون فى بريطانيا من دعاية تجمع بين تملق البريطانيين تملقاً خفيًّا وبين عرض وجهة النظر اليابانية فى أبهج الألوان ، كان له النتيجة المرغوبة . فإن اللورد جرانفيل أعرب فى شيء من الحذر عن موافقته على مطالب اليابان . وفى ١٨٨٦م افتتح فى طوكيو مؤتمر لتعديل المعاهدات . وقبل أن ينعقد ذلك المؤتمر تمكنت اليابان باستخدامها الوسائل

الدبلوماسية المصطبغة بالعناية والحرص فى العواصم الغربية أن تحصل على تأييد كل من أمريكا وبريطانيا وألمانيا . وأسفرت المفاوضات عن تسوية تم بمقتضاها عقد شروط منها شرط ينص على أن المحاكم اليابانية التى تحاكم الأجانب ينبغى أن يشترك فيها قضاة من الأجانب . وفوق هذا ، فإن المقترحات المتعلقة بالتعريفة الجمركية لم تسلم لليابان بحريتها التامة . فلما عرفت هذه الأمور تعالت فى البلاد صيحة مدوية ، وظهر أن اليابان لم تكن تقنع بأنصاف الحلول . وعبر عن روح البلاد صك كتبه الجنرال الفيكونت تانى ، وهو وثيقة ذات أهمية ضخمة ، جرحت فيها سياسة الملق والتبعية وهوجمت بمنطق قوى مجرد من الرحمة : « اطّراح مبدأ التبعية وتحسين أحوال حكومتنا الداخلية وجعل بلادنا حصينة أمينة بالاستعداد العسكرى . وانتظار الوقت الذى تشمل فيه الفوضى أوروبا وهو آت فى النهاية دون ريب » . ونتيجة لهذا الاضطراب طرحت مقترحات إينوى جانباً .

وبعد أن أعلن الدستور واجتمع الدايت ، لم يعد من سبيل لمقاومة حركة تعديل المعاهدات . ذلك أن الدايت لم يكن ليتساهل قط فى مطالبه ، ونبذت اليابان سياسة المفاوضات الجماعية وعزمت على تركيز اهتمامها على إنجلترا . وفى ١٨٩٤م وقعت مع بريطانيا معاهدة اشترط فيها على إلغاء الامتيازات القضائية فى مدى خمس سنوات ، وإعادة استقلال اليابان وحريتها فى التصرف فى التعريفة الجمركية . وحذت دول أخرى حذو بريطانيا ، حتى إذا انتصرت اليابان فى الحرب فى كوريا وخرجت منها دولة عسكرية ، لم يعد هناك أى أساس لمعاملتها كدولة ثانوية أدنى مرتبة ولا كدولة يمكن أن تدعى فيها أية امتيازات . وقد حطمت اليابان ما يغلها من سلاسل ، إذ عقدت المحالفة اليابانية الإنجليزية فى ١٩٠٢م فخطت على ظهر المسرح الدولى كدولة لها بعض الشأن .

الفصل الرابع

جنوب شرق آسيا

سبق أن لحظنا محاولات فرنسا إبان مدة طولها مائةعام من١٧٤٧م – ١٨٥٠م السيطرة على شبه الجزيرة الواقعة فى الجنوب الشرق من آسيا بثلاثة وسائل هى التبشير والخداع والقوة . على أن مركز فرنسا لم يبد عليه أدنى تحسن بأية حال بعد الجهود الرومانسية التى بذلها الكاردينال الحربى پنيو دى بيهين . ذلك أن خلفاء جيالونج الذين أعادهم الأسقف إلى العرش كانوا أشد عداء للسيطرة الفرنسية من سابقيهم . حتى إذا أخفقت فرنسا فى كل جهودها صممت فى عهد نابليون الثالث أن تستخدم وسائل عنيفة وفعالة وأن تقيم لنفسها إمبراطورية فى آسيا . وكان عذرها فى ذلك هو الحجة المألوفة وهى حماية الكنيسة . فقد أعلن لويس نابليون فى بلاغ نشر فى صحيفة المونيتور يونيڤرسال الصادرة بتاريخ ١٤ نوفبر ١٨٥٨ « أن الاضطهادات القاسية التى وقعت على رأس بعثاتنا التبشيرية قد اضطرت سفننا الحربية فى أكثر من مناسبة إلى الدلوف إلى ساحل المملكة الأنامية ، ولكن ما بذلته من جهود فى سبيل إيجاد علاقات بينها وبين الحكومة ذهبت أدراج الرياح . وإن حكومة جلالة الإمبراطور لا تستطيع أن تسمح لجهودها تلك بأن توضع موضع الامتهان ؛ من أجل ذلك رسمت خطة القيام بحملة حربية . » وتعاونت معهم السلطات الأسبانية بالفلبين ، حيث أكد قائدها العام ضرورة « الانتقام لغسل الإهانات التى وقعت على ديانتنا المقدسة وبعثاتنا التبشيرية الورعة . »

ولكن الحملة لم تكن من السهولة كما تصور الفرنسيون . إذ لم يستطع المسيحيون المحليون أن يقدموا إليها أى عون . ولم يستطع الفرنسيون إلا بعد خمسة أشهر أن يقتحموا مصب النهر ويستولوا عنوة على حصن تامان الذى كان يمنع شبه الجزيرة . وفى فبراير ١٨٥٩م هاجموا سايجون واستولوا عليها ، ولكن الأناميين ما لبثوا بقيادة قائد مقتدر اسمه نيجويين ترى فونج أن حاصروا المدينة وجعلوا مركز الحامية الفرنسية

قلقاً وحرجاً جداً . غير أن الحصار رفع عنها عندما وصلت نجدات جديدة بعد انتهاء حملة الصين بقيادة الأميرال شارنيه . وعمد الأميرال بعد رفع الحصار عن المدينة إلى التقرب إلى ملك كمبوديا الذى أظهر موقفاً وديًّا أكثر . وعقد مع كمبوديا معاهدة فى ١١ أغسطس ١٨٦٣م تحولت بها تلك الدولة إلى محمية ، تضع كل شئونها الخارجية تحت تصرف فرنسا التام . وكانت الشروط الأخرى من المعاهدة كالتالى : تعيين مقيم فرنسى ليتولى الإشراف على شئون المملكة ؛ وحرية السفر ؛ وحق بعثات التبشير الفرنسية فى القيام بنشاطها الدينى ؛ وحق فرنسا فى استغلال الغابات . وفى هذه الترتيبات يتجلى للعيان أثر النظام الهندى القائم على حكم البلاد عن طريق الملوك المحليين ، ذلك النظام الذى أعيد تأكيده بعد الفتنة الكبرى . ولا يختلف الوضع هنا إلا من حيث الشروط المتعلقة بهيئات التبشير التى اقتضتها الحجة المتخذة ذريعة للعدوان بشبه الجزيرة . ثم عقدت بعد ذلك معاهدة مع سيام فى (١٦ يوليو ١٨٦٧م) خولت لفرنسا الحق فى الملاحة فى نهرى ميكونج وتونلى ساب فى المناطق التى يتاخمان فيها تلك المملكة . وبمقتضى ميثاق آخر عقد فى (١٥ يناير ١٨٦٠م) انتقلت منطقة نهر ميكونج بأكملها إلى حوزة الفرنسيين ، وبذلك قصرت مملكة أنام على الشقة الساحلية وحدها .

ولم تدخل مملكة أنام بعد فى المجموعة الفرنسية . وكان الإمبراطور توك لوك فى ١٨٦٢م قد أبرم معاهدة لم تعط فرنسا إلا الجزء الشرقى من كوتشين صين السفلى. وتواصل العدوان الفرنسى والمقاومة الأنامية مدة خمسة عشر عاماً أخرى . وفى ١٨٧٣م دخلت الجيوش الفرنسية هانوى كما فتحت كذلك جميع المنطقة الواقعة فى دلتا النهر الأحمر . وعندئذ لجأ توك لوك إلى مولاه فى بيكين . ومع أن الحكومة الصينية كانت تدرك كل الإدراك عجزها عن إسداء أية مساعدة له تلقاء ذلك العدوان الفرنسى ، إلا أنها أمرت جنودها سرًّا بالذهاب لمساعدة تابعها . ولقى الفرنسيون فى هانوى هزيمة ولكن تلك العملية الحربية أدت إلى عمل تسوية نهائية اعترفت فيها فرنسا بسيادة إمبراطور أنام ووعدته بالمساعدة ضد أى عدو أجنبى . ووافق توك لوك من جانبه على أن تتولى فرنسا إرشاده فى كل ما يتعلق بالسياسة الخارجية وأن يتنازل عن كوتشين صين لفرنسا ويفتح النهر الأحمر للتجارة الفرنسية . وتمخضت معاهدة ١٥ مارس

١٨٧٤م عن خلق البنيان السياسي المسمى بالهند الصينية بما حوت من أجزاء منفصلة هي كوتشين صين وإمبراطورية أنام ومملكة كمبوديا وإمارة لاوس .

ومع أن المعاهدات نظمت موقف الفرنسيين بشبه الجزيرة ، إلا أنها لم تسوّ المسألة على الفور . ذلك أن الصينيين الذين لم تكن سيادتهم هنا موضع بحث فى أى يوم لم يكونوا على استعداد بأى حال لتقبل ذلك الموقف . فأخذت عصابات محلية من الوطنيين بالهند الصينية نفسها تقوم بمساعدة القراصنة الصينيين (الرايات السوداء) بتنفيذ سياسة محكمة من الإزعاج المنظم . وأخيراً بناء على طلب الساطات الأنامية أرسلت ساطات بيكين جيشها لتهدئة المنطقة . وكانت تلك فرصة لتسوية مسألة سيادة الصين على تلك البلاد .

واتخذ المركيز تسنج ابن نائب الملك العظيم الذى كان مبعوثاً سياسيًّا بباريس موقف المناجز المعادى . غير أن الفرنسيين لم يأبهوا به وبدأوا سلسلة واسعة من العمليات الحربية فى ١٨٨٢م . فلما احتجت وزارة الخارجية الصينية على ذلك كانت إجابة الفرنسيين على ذلك قولهم بأنه ليس للصين أى مركز قانونى يخول لها التدخل فى الموضوع . وصرح دى فريسينيه وزير الخارجية الفرنسية بقوله : « لقد أصدرنا تعليماتنا إلى حكومة الهند الصينية بأن تطبق معاهدة ١٨٧٤م بحذافيرها التى لا تهم إلا الدولتان الموقعتان عليها فقط . وليس لدينا أى تفسيرات للأمر نقدمها إلى الحكومة الصينية . » وتفاوض لى هنج تشانج فى عقد معاهدة مع الوزير الفرنسى بوريه ، قسمت بمقتضاها تونكين إلى منطقتى نفوذ ، ووافق الفرنسيون فوق ذلك على احترام سيادة أنام . ولكن تلك المعاهدة قد رفضتها الكاى دورساى (وزارة الخارجية الفرنسية .) وحدثت إثر ذلك أعمال عدائية استطاعت فيها جماعة القرصان (الراية السوداء) أن يحاصروا قوات القومندان ريفيير ويقطعوا عليها خط الرجعة فى ١٩ مايو ١٨٨٣م ، وهو أمر أجبر الفرنسيين على تنظيم حملة كبرى تحت قيادة الجنرال بوويه والأميرال كوربيه . ولم يحدث مع الصين أى مساس بالعلاقات ، كما أن الأعمال العدوانية تواصلت بطريقة عشوائية حيناً من الدهر . وحاول لى هنج تشانج إقفال باب المسألة بطريق المفاوضات ، ولكن آراءه سفهت وبدأ الجيش الصيني زحفه على تونكين . وفشل الفرنسيون فى إيقاف التقدم ، حيث لقى الكولونيل

دوجن" الهزيمة فى باكل فى ٢٣ يونيو .

وعندئذ أدرك الفرنسيون أن الموقف أصبح خطيراً ، فاندفعوا يتصرفون تصرفات متطرفة . فنشبت الحرب النظامية بين الطرفين ، وعمد الأميرال كوربيه بعد تدمير الأسطول الصينى إلى محاصرة نهر اليانجتسى بحريًّا . وعند ذلك دخل معهم الصينيون فى مفاوضات عن طريق دنكان كامبل . وتنازلت الصين فى التسوية النهائية عن سلطانها على تونكين وعن سيادتها على أنام (٢٥ إبريل ١٨٨٦م) .

وفى الفترة من١٨٦١م — ١٨٧٦م وهى التى يمكن أن يطلق عليها اسم فترة الفتح راح الفرنسيون يعقدون لواء القيادة* لمجموعة متعاقبة من أمراء البحر الذين كانوا يميلون إلى الأخذ بسياسة القوة . فأما فى باريس فكانت مقاليد السلطان بتلك المنطقة تناط أحياناً بوزارة البحرية وأحياناً أخرى بوزارة التجارة ؛ ففشلت هاتان الهيئتان فى الوصول إلى أى فهم لمسألة الحكم والحكومة لقلة ما لديهما من خبرة بالشئون الإدارية المحلية لتلك المناطق . واتبعت طائفة الماندرين ومعها صغار الموظفين بالهند الصينية سياسة عدم التعاون مع الفرنسيين منذ البداية ، وكانت نتيجة ذلك أنه منذ ١٨٦٢م إلى ١٨٨٢م كان المفتش الفرنسى للشئون الوطنية هو الذى يدير المناطق المحلية بصورة مباشرة . وانهار النظام الاجتماعى بأكمله تحت ضغط سلطان الأجانب. فأما النظام القانونى والسياسى بالهند الصينية ، وهو نظام متقدم عالى التطور ومعقد لكنه مألوف مفهوم لدى الأهالى ، فقد اطرح جانباً . وحاولت السلطات الاستعمارية الفرنسية بإصرار أن تحل محله سياسة التمثل أى أن تستخدم بالقوة النظام القائم فى الدولة الحاكمة . وكانت نتيجة ذلك هى انهيار السلطة الاجتماعية فى البلاد ، الأمر الذى لابد أن يتوقعه أى فرد أوتى حظًّا ولو ضئيلا من قوة التصور . وقد تمكن أول حاكم مدنى للبلاد وهو لوميردى فيليه Le More de Vilers من تحليل الموقف أصوب تحليل حين قال : « لقد دمرنا الماضى ولم يحل محله شىء . ونحن على شفا ثورة اجتماعية بدأت أثناء الفتح » .

وفضلا عن ذلك ، فإن الفرنسيين عمدوا إلى فكرة التفوق العنصرى فتعلقوا بها لاهتمامهم بالمحافظة على هيبتهم التى تعلموا من أصدقائهم البر يطانيين أنها الركن

* انظر « Des Institutions Civiles de la Cochin Chine » باريس ، ١٩٠٨ .

الذى يعتمد عليه سلطان الأوروبيين فى الشرق . وقد أصدر فان تسو ترنة نشرة وصف فيها ذلك الاتجاه أبرع وصف. فبعد أن أشار الكاتب إلى ما يظهره الفرنسيون بالمستعمرة من احتقار لأهالى الهند الصينية لا يجدون حرجاً فى إظهاره عاد فقال :

« إننا فى أعينكم قوم متوحشون وعجماوات بُكم غير قادرة على تمييز الخبيث من الطيب . وأنتم لا تقتصرون على مجرد رفض معاملتنا كأنداد لكم ، بل إنكم لتخافون أن تقتربوا منا كأنما نحن مخلوقات قذرة . . . ومن ثم يملأ قلوبنا الحزن والخجل كلما خلونا إلى أنفسنا مساء للتأمل عندما نستعرض ما قاسيناه منكم فى يومنا من إذلال وإهانة . وليس عجيباً أن نهبط إلى درك العجز والتضور وكاهلنا يثقله نير يستنفد كل طاقاتنا . ذلك هو التفسير لما يلاحظ فى أن أحداً لا يجرؤ على إظهار نفسه فى مكاتب الفرنسيين عدا المتسولين وحدهم * » .

وواصل الفرنسيون المضى بإدارتهم لشئون البلاد وبإنشاء الطرق والسدود والتلغرافات والتليفونات والسكك الحديدية. ولكن الشعب كان غاضباً على السلطات الفرنسية . ولذا فكثيراً ما نشبت التمردات والفتن المحلية فى أنام وتونكين وكمبوديا . واستطاع أهل كمبوديا بقيادة زعيم ذى اقتدار ومركز ممتاز ، هو الأمير سى ڤالتا ، أن يواصلوها حرباً مدمرة شعواء أمد ثمانية عشر شهراً . على حين أن عصيان ديثام استغرق إخماده خمسة أعوام ، وأن نائب الملك نفسه بتونكين شق عصا الطاعة فى ١٨٨٤م ، فأفضى ذلك إلى إعمال الذبح فى الأهالى المسيحيين الموالين للفرنسيين فقد اتضح الآن صراحة أن سياسة التهدئة لم تنجح ؛ ذلك بأن أهالى الهند الصينية وهم ورثة حضارة كريمة متعالية — لم يكونوا مستعدين أن تتمثلهم فرنسا . وما لبثت سياسة الإدماج أن أخذ يداخلها شىء من التخفيف بانتهاج سياسة المشاركة والترابط . وإنك لتجد بدايات سياسة المشاركة والترابط فى إنشاء مجلس الأعيان الذى أسسه برت فى ١٨٨٦م . وراح شايلى الذى جعل ديدنه إطراء نهج البريطانيين بالهند وإظهار الإعجاب به ، يثنى على هذه الخطة ويعدها الخطوة الأولى فى سبيل اجتذاب قلوب الوطنيين نحو الحكم الفرنسى . ولاشك أن بول برت كان رجلا بعيد النظر واسع الخيال وكان يرى ضرورة الحد من

---

* انظر « De peche Coloniale » أغسطس ١٩٠٩ مقتبسة عند إينيس فى « French Policy in Indo China » ص ٦١ .

سلطة الفرنسيين وترك الإدارة المحلية لأهالى أنام . وكانت سياسته تحاكى فى بعض النواحى سياسة اللورد ريپون بالهند . وبوصفه القيم العام بأنام وتونكين أعلن السياسة الجديدة التى راح يفسرها فى خطب عديدة ألقاها . فأعلن على ملأ من جمعية من أعيان تونكين ووجهائها :

« ستعرفون أنه ليس لفرنسا إلا رغبة واحدة هى أن تمنح الشعب الرضا تحت إشرافها المعنوى . ولسنا نريد أن نتحمل عبء الإدارة المباشرة التى أجبرتنا الأحداث على تحملها فى الهند الصينية السفلى . وستظل طبقة العلماء القوية المكانة فى البلاد لأنها ليست مغلقة دون أحد ، ستظل محتفظة بالسلطة فى أيديها ما دامت على ولائها لنا ، وستظل مركزاً للسلطة فى البلاد والمصدر الذى ينتقى منه الموظفون جميعاً. وإنى لواثق فى شعوب الشرق هذه التى نشير أمامها إلى الطريق الذى يؤدى بها إلى غد أكثر إشراقاً وإنى لأتكهن بالمستقبل الباهر الذى يتمخض عنه هذا الاجتماع الذى يجمع بين الأوروبيين والآسيويين * » .

وبعد وفاة برت كان المعتمد الوحيد الذى حاول مواصلة سياسة المشاركة والارتباط محاولة جدية هو دى لانيسان ، على أنه ما لبث أن استدعى سريعاً بزعم أنه يسير بسياسته أسرع مما ينبغى . وعندئذ استيقظت الفوضى والارتباك ثانية — ورفعا رأسيهما . ومع ذلك فإن الهند الصينية نعمت فى عهد بول دو مير — أنجح من استعملت فرنسا من نواب القناصل بالشرق ، بفترة من الأدوار الحازمة السليمة . على أن دوميركان كمعاصره لورد كيرزون بالهند يفكر فى ناحية المجد الإمبراطورى . فإن دومير صرح فى ثنايا تقدير نطق به حول أعماله وجهوده فتحدث بلغة كان من الممكن أن يتحدث بها كيرزون قال : « إن التنظيم القوى الذى شيدت عليه الهند الصينية وصروحها المالية والاقتصادية وقوتها العظيمة ، إنما تستخدم لأجل الهيبة الفرنسية . ولم تنقض خمس سنوات حتى تضاعفت التجارة ضعفين أو أكثر . وليس للمشروعات العامة التى نفذت من ضريب بآسيا . . . فإنها مهدت السبيل لمستقبل كان ينبغى أن يجعل فرنسا دولة أسيوية عظمى * » .

* اقتبسه ماجيه ص ١٥٠ .

* عن وصف للأعمال الإدارية التى قام بها دومير انظر ما سطره هو نفسه فى « الهند الصينية الفرنسية L'Indo-Chine Française » .

ولكن دومير شأن كرزون لم يزد الأناميين إلا كرهاً لفرنسا يوم جعلها دولة أسيو ية عظمى بإقامته الإدارة على النظام المركزى ومحاولته بث قدر أعظم من الكفاية فى حكومة الهند الصينية . فإن الأناميين وجدوا فرنسا تزداد كل يوم إمعاناً فى حكمهم حسب مفاهيم الحكم والإدارة لديها ، وأفضت المرارة التى تولدت فى نفوس السكان رويداً رويداً إلى نمو قوة الأحزاب الوطنية المسلحة بوسائل التهييج والدعاية العصرية . وكان لنهوض اليابان والنصر الذى أحرزته كدولة أسيوية على إحدى دول الغرب العظمى براً وبحراً ، أثر هائل فى الهند الصينية . فبدأت المنظمات تتشكل فى اليابان وقد أخذ يؤمها كثير من الشبان طلباً للعلم . وبدأت كتابات الدعاية تتسرب إلى الكتل والجماهير . وتصرح إحدى هذه الكتابات بما يلى : « قد اكتشفت أنا خادمكم المتواضع والطالب المغمور حين أتيحت لى دراسة كتب جديدة والاطلاع على مبادئ جديدة ، قد اكتشفت فى سفر جديد عن تاريخ اليابان كيف تمكنوا من قهر أولئك الأوربيين العجزة . من أجل ذلك كوّنا منظمة . . . فانتخبنا من الشباب الأناميين أشدهم نشاطاً وأكثرهم إقداماً وأخذنا نبعث بهم إلى اليابان ليتلقوا العلم . . . وانقضت عدة سنوات دون أن يتنبه الفرنسيون إلى الحركة . . وليس لنا من غرض إلا أن نهيئ الأهالى للمستقبل * » .

ومما يدعو إلى الاهتمام أن نلحظ نمو القومية المتطرفة فى الشرق الأقصى فى المدة التى اعقبت انتصار اليابانيين . واتخذت الوطنية فى الهند بزعامة تيلاك ولاچبات راى وغيرهما مظهراً عدوانياً قوياً . فإن طائفة عسكرية النزعة نشرت فى البلاد عهداً من الإرهاب وأصبحت الحركة على الجملة ثورية النظرة والمرامى . ولوحظ نفس ذلك الميل بالهند الصينية أيضاً . فإن الطلبة الذين دربوا فى اليابان أخذوا يتزعمون الاضطرابات التى تدعو علناً إلى طرد الفرنسيين من الهند الصينية . وبلغ من شدة انتشار الحركة ، أن فرنسا لم تستطع المحافظة على سلطتها إلا بالإكثار من اعتقال الزعماء إلى أقصى حد والاعتماد على جنودها .

ومع ذلك فمن الضرورى أن نذكر القارئ بأن فرنسا كانت هى والدول الغربية الأخرى فى أثناء العقد الأول من القرن الجديد مطمئنة تماماً إلى دوام السيطرة

---

* اقتبسه إينيس فى « السياسة الفرنسية بالصين French Policy in China » ص ١٧٨ .

الأوروبية على آسيا . وإن أحدا حتى ولا بين المفكرين الذين كانوا يعدون فى ذلك الأوان من التقدميين مثل اللورد مورلى لم يدرك أن الزمن الذى سيكف فيه الأوروبيون عن ممارسة أى سلطان سياسى على آسيا مقبل على عجل . فلا أولئك الأوربيون الذين خبروا السياسة الأوروبية فى الصين ، ولا الإنجليز الذين لوحت وجوههم شمس الهند ، ولا المستعمرون الفرنسيون ، ولا من كان وراءهم من خبراء السياسة فى لندن وباريس ولاهاى ، كان يخامرهم الشك فى أن سلطان الأوروبيين سوف يستمر إلى الأبد ما داموا يتابعون سياسة قوامها الحزم الذى يلازمه بعض التسامح . فأقاموا سياستهم الإدارية والسياسية والاقتصادية على هذا الأساس وكان ألبرت ساروا الذى خلف كلوبوكوفسكى نصيراً شهيراً لتلك السياسة بالهند الصينية . وقد راح ذلك الرجل أثناء فترتين قضاهما حاكماً عاماً تتخللهما فترة قضاها وزيراً للمستعمرات يعمل جاهداً على تنفيذ إصلاحات واسعة المدى ، فإنه أعاد تنظيم الخدمات الصحية والطبية ووسع مجالهما وحسن ميناءى سيجون وهايفونج وأصلح نظام الإدارات . وقام خلفاؤه أيضاً بمشروعات عامة كبرى . والواقع أنه فى أثناء السنوات الثلاثين الأولى من القرن ، كانت الإدارة الفرنسية للهند الصينية تدار إدارة حسنة وتنظم تنظيماً مقترناً بالكفاية على حال لا يقل عن خير الحكومات الاستعمارية ، كما أنها أنشأت شبكة ضخمة من الطرق والسكك الحديدية وغير ذلك من وسائل تسهيل المواصلات ، كما أمدت الجمهور بأكمل صورة لجهاز الحكومة العصرية واتخذت من الإجراءات الاقتصادية ما قصدت به مصلحة الجماهير الحاشدة من الناس . كما أنها أظهرت اهتماماً عظيماً بتاريخ الهند الصينية وثقافتها ، حيث احتفظت بعناية تامة بآثار الماضى وأنشأت معهداً شهيراً للدراسات الشرقية .

ومن سوء الحظ أن كل هذا النشاط الذى قصد به صالح الهند الصينية وانبعث عن رغبة خالصة ، لم يكن له فى أنفس أهل الهند الصينية أثر يزيد كثيراً على الأوضاع السابقة القائمة على القوة والعسف . ذلك لأن الشعور المعادى للفرنسيين ظل ينمو ويزداد . وبدأت فرنسا تحس كارهة أن الحكم الجيد لا يمكن أن يكون بديلا للحكم الذاتى ، وأن الحضارة فى إزار أجنبى لا يمكن أن تستهوى إليها من

يرسفون فى قيود الذل والخضوع * . وجربت خططاً متنوعة للإصلاح . وحاول موريس لونج تلميذ ساروه وخليفته أن يهدئ من شماس « شباب الأناميين » بإنشاء مجالس إدارية محلية مكونة عن طريق الانتخاب . وزيد عدد الأعضاء الذين يمثلون الهند الصينية فى مجلس مستعمرة كوتشين صين (١٩٢٢) . ولكن ذلك بأجمعه لم يكن إلا ضرباً من المداعبة لمسألة الحقوق الوطنية . وإنك لتلمح هذه الحقيقة فى الخطاب الذى ألقاه الحاكم العام الاشتراكى اسكندر ڤارن فى ٢١ ديسمبر ١٩٢٥ فى ذلك المجلس :

« إن الناس والأفكار بل آسيا نفسها يلم بهم التغير جميعاً . فالشرق اليوم يقف عند أول الطريق المؤدى به إلى الأشكال العليا للحضارة العصرية . ولا يمكن أن تنجو الهند الصينية من هذه الحركة المتجهة نحو التحرير . ذلك أن دروسنا قد حملت إليها . وأخذت الهند الصينية تقلب الفكر فى هذه الدروس وإنها لتسائل المستقبل وتختبره وتحاول أن تقرر مصيرها . فماذا يخبئه لها المستقبل ؟ فإذا صين لنا السلام وإذا تمكنت الهند الصينية من التطور بحرية ، وجب أن تطمح إلى حياة أسمى وأكثر استقلالا وأن تصبح شعباً عظيماً فى يوم من الأيام » .

ولا شك أن هذه كلمات عظيمة وإن اضطر ڤارن فيما بعد بضغط الرأى العام فى بلاده أن يعدل من أفكاره . وأدرك بيير باسكييه الذى تولى منصب الحاكم العام من ١٩٢٧م — ١٩٣٤م أنه لكى تستطيع فرنسا أن تحتفظ بمركزها فى الهند الصينية ، يجب عليها أن ترضى الرأى الوطنى العام . ذلك أن الحرب العظمى قد هزت المركز المعنوى لأوروبا فى تلك البلاد كما أن الأحداث فى كل من الصين والهند كانت تسير سيراً سريعاً . وكانت الإصلاحات الجزئية التى تمت فى الهند فى ١٩١٩ قد غيرت بنيان الحكومة ؛ فقد أدخلوا فى حكومات المقاطعات حكم الهنود إلى حد محدود . ولكن هذه التغييرات بدلا من إرضائها للجمهور لم يكن لها إلا ثمرة واحدة هى اضطرابات عدم التعاون فى ١٩٢٠م التى لم تلبث بعد عشرين سنة من الكفاح ، أن دفعت بالبلاد إلى الأزمة التى لم يكن منها مفر . أزمة « ارحلوا من الهند » .

وأهم من الحركة الهندية نفسها فى تأثيرها على شئون الهند الصينية ظهور جمعية

---

* مقتبس فى : « آسيا الفرنسية » « L'Asia Française » مارس ١٩٢٦ ص ص ١٠٨–١١٣ .

الكيومنتانج بالصين وتطور سياستها الثورية فى ١٩٢٤م – ١٩٢٧م. وسنبحث فى الموضع المناسب أثر هذه العوامل فى نمو القومية فى ڤيتنام . إذ لا يهمنا هنا إلا أن نحصل على صورة كلية لمحاولات الإصلاح التى حاولها پيير پاسكييه . فإنه أعاد تنظيم مجلس الأعيان فضلا عن مجلس نعتوه باسم مجلس نواب الشعب . وتتجلى طريقة تكوين المجلسين اللذين تناولهما الإصلاح فى تكوين الهيئة الانتخابية نفسها التى كانت تتكون من رؤساء الكانتونات ومساعديهم والموظفين المحالين على المعاش ، والمتقاعدين فى صف ضباط الجيش والبحرية والمليشيا والموظفين والأعيان الذين يعينهم الرئيس المقيم إلى غير هؤلاء . وفضلا عن ذلك كان التعبير عن الآراء السياسية محظورا فى هذين المجلسين .

والخلاصة أن الفرنسيين حاولوا الجمع بين سياستين : سياسة تقديم الرشوة لمن استطاعوا رشوتهم وهم الأعيان ، مع سياسة اتخاذ ستار من التمثيل البرلمانى يسترون به الحكم الاستعمارى . وكانت أبرز ظاهرة فى السياسة الفرنسية حتى فى أشد عصورها أخذاً بالتقدم عدم ثقتها فى الديمقراطية ورفضها إشراك الأهالى لها فى السلطة .

وكان أقصى ما يستطيع عمله الفرنسيون هو أن يشركوا طبقة الماندرين فى إدارتهم ، وذهبوا فى ذلك إلى الوهم الباطل الذى ذهب إليه غيرهم من حكام المستعمرات حين ظنوا أن إشراك رجال من ذوى المكانة فى الإدارة سيجعل للحكومة المستعمرة من النفوذ ما يعدل بالعامة عن المطالبة بحقوقهم القومية التى لم يكونوا قد تبينوها بعد . ولم يكن لهؤلاء الماندرين ولا لأولئك المتقاعدين المرتزقة فى دور النيابة من أثر فى مناهضة الحكم الأجنبى إلا مثل ما كان لذوى الألقاب والرياوات فى بلاد الهند أيام الحكم الإنجليزى .

وذهبت التقديرات الفرنسية بدداً حتى قبل غزو اليابانيين للهند الصينية ١٩٤١م ولقد كانوا يدفعون بأن زيادة المشاركة بين الجانبين ستقضى على الحركة القومية وستخلق محلها سياسة مسالمة لفرنسا وتحلها محل معارضة المتطرفين الجرداء . ذلك أن الحركات القومية داخل البلاد قد نظمت على أساس استرداد الاستقلال التام وطرد السلطة الفرنسية مهما يكن شكلها أو صورتها . وفى مراكز تقع خارج الهند الصينية : فى باريس وبانكوك وهنج كنج وكانتون وطوكيو ، كانت الحركة تلقى توجيهاً فعالا

يمنحها وحدة فى الهدف وقوة فى التنظيم أو ضحت كل الوضوح أنه لابد لفرنسا أن تواجه مسألة الاستقلال القومى للهند الصينية .

ولا حاجة بنا أن نشغل أنفسنا بالتطور الذى حدث بالهند الصينية بعد الحرب العظمى والقتال بين ڤييت منه والقوات الفرنسية . وسواء أفاز هوتشى منه أم وطدت قدم باوداى بفضل مساعدة الأمريكيين والفرنسيين ، فإن إبعاد فرنسا من دائرة السلطان السياسى ذى الأثر الفعال فى الشرق الأقصى ، قد أصبح حقيقة واقعة . وغنى عن البيان أن الدول المرابطة : ڤييتنام ، وكمبوديا ، ولاوس ، وإن كانت واقعة داخل الاتحاد الفرنسى ومرتبطة بفرنسا إلى حدما بمعاهدات اقتصادية وغيرها ، إلا أن قدمها أخذت تسير فى درب لا يؤدى بها إلا إلى نهاية واحدة — هى استعادة الاستقلال القومى التام وطرد فرنسا من البلاد . وذلك لأن كلا من باوداى وهوتشى منه يتفقان فى الرأى تماماً فى هذه المسألة .

الفصل الخامس

سيام

كانت علاقة سيام بالأمم الغربية مرضية فى جميع النواحى حتى هزمت القوات الصينية واستقرت السيطرة الأوروبية. وكانت المعاهدة التى عقدها الكابتن بيرنى فى ١٨٢٦م تنص بوجه خاص على أن الرعايا الإنجليز الذين يزورون « قطرا سياميا ينبغى أن يكون مسلكهم وفق قوانين البلاد السيامية فى كل جزء من جزئياته ، بمعنى أن الرعايا البريطانيين يكونون عرضة للحكم عليهم بالإعدام إن هم قتلوا أحداً من الناس ، وبالضرب بالسياط أو بالغرامة أو الحبس على جرائم أخرى يرتكبونها ، وبالطرد المباشر من البلاد إن هم استعملوا لغة لا تنم عن الاحترام فى خطابهم لأى موظف سيامى . » ثم عقدت معاهدة مماثلة لهذه مع الأمريكيين فى ١٨٣٣م . على أن هذا الموقف ألمّ به التغيير نتيجة لتغير الموقف بالصين . فإن السير چون باورنج الذى تفاوض فى معاهدة ١٨٥٥ تمكن من الحصول على مبدأ الامتيازات القضائية للرعايا البريطانيين ، وعلى الإذن ببناء الكنائس وإعفاء جميع واردات الأفيون من الرسوم الجمركية . ثم إنّ ضم بريطانيا لجزء من بورما أغضب الحكومة السيامية وجعلها تشفق من وجود ذلك الأخطبوط البحرى الماثل على حدودها .

وسرعان ما ظهر خطر آخر يهدد حدودها الشمالية . وقد سبق أن قصصنا عليك نبأ العدوان الفرنسى على سيام فى القرن السابع عشر . وبعد أن فشلت تلك التجربة العقيمة ، لم تعد فرنسا إلى مضايقة سيام وإن ظل البلاط الملكى فى بانكوك يراقب نشاط عملائها ومبشريها مراقبة دقيقة . ولكن المسألة أصبحت ذات أهمية مباشرة لدى سيام بعد تدخل نابليون الثالث فى ١٨٥٨م واستقرار سلطان الفرنسيين فى كمبوديا بمقتضى معاهدة أغسطس ١٨٦٣م . وكانت سيام تدعى لنفسها ضرباً من السيادة المبهمة على كمبوديا . فلما أن شرع الفرنسيون يضغطون على الملك الكمبودى ، حول وجهه نحو ملك بانكوك ملتمساً المساعدة ، ووقع معاهدة مع سيام فى أول

ديسمبر ١٨٦٣م . وحدث بعد ذلك عراك ديبلوماسى انتهى بعقد اتفاقية بين فرنسا وسيام تنازلت فيها سيام عن مدعياتها فى كمبوديا مقابل مقاطعتى أنجكور وباتام بانج . وحصلت فرنسا أيضاً على الحق فى الملاحة فى نهر الميكونج .

وكان هذا التنازل الأخير موضوع منازعات فيما بعد . فمنذ بداية القرن على الأقل كانت لسيام شقة من الأرض على الضفة الغربية من نهر ميكنج ، تمتد إلى تخوم أنام الجبلية . وكانت فرنسا تسر فى نفسها الاستيلاء على تلك الشقة من الأرض توطئة لفتح باب العدوان على سيام فى موعد تال يكون أنسب لها . ولم تكد المعاهدة توقع حتى جهزت حملة عسكرية بقيادة دُوَار دى لاجريا * وفرانسوا جارنيار ثم عكفت فرنسا على الفور على تقديم الادعاءات حول مقاطعتى انجكور وباتام بانج ، اللتين اعترفت فى معاهدة ١٨٦٣ بتبعيتهما لسيام ، كما تبعث الإدعاءات حول مناطق أخرى تابعة لسيام . ولكن فرنسا لم تستطع أن تحدث شيئاً له أثر ذو بال بسبب متاعبها بالهند الصينية وخلافاتها مع بلاط بيكين حول تونكين ، وإن واصلت فرنسا ممارسة ألوان الضغط الديبلوماسى وغيره فى بانكوك . واقترحت فرنسا فى ١٨٨٥م أن تعتبر سيام منطقة حياد ، ولكن الاقتراح فشل بسبب معارضة بريطانيا ، التى لم تحقق بعد أطماعها فى التوسع فى تخوم سيام من ناحية شان والملايو . حتى إذا تم لفرنسا تهدئة الحال فى الهند الصينية فى العقد الأخير من القرن التاسع عشر ، أصبحت مطلقة اليد فى توجيه التفاتها نحو سيام . ولم تلبث أن وجدت الذريعة التى تتعلل بها فى حادث على حدود سيام فى ١٨٩٣م ، يوم قتل بعض الفرنسيين فى حادثة من نفس النوع الذى كانت الأمم الاستعمارية تتخذه فى الماضى ذريعة لها أثناء تعاملها مع دول أضعف منها . فهددت فرنسا بإطلاق نار مدافعها على بانكوك ما لم تسلم إليها جميع الأراضى الواقعة إلى الشرق من نهر ميكونج ، فضلا عن الجزائر الواقعة فى مجرى النهر مع انسحاب رجال الشرطة والقوات العسكرية على الضفة الغربية إلى مسافة اثنى عشر ميلا ودفع تعويض باهظ .

---

* انظر دُوَاردى لاجريا : « ارتيادات وبعثات Explorations et missions » باريس ١٨٢٣
انظر أيضاً جارنيار : «رحلة الارتياد بالهند الصينية Voyage de l'exploration en Indo-chine» باريس ١٨٢٣ .

ولم تكتف فرنسا بذلك ، بل حتمت أن تمنح الحق فى أن تفتح حيث تشاء قنصليات تستمتع بالامتيازات الأجنبية .

وبمقتضى ترتيبات هذه المعاهدة (١٨٩٣م) سقيت سيام من نفس الكأس التى شربتها أنام ، وخاصة وأن الفرنسيين اشتطوا فى تفسير الامتيازات القضائية الأجنبية ، وأبدلوا اسمها باسم عجيب آخر * لم يقصروها على الفرنسيين وحدهم ، بل طبقوها بالمثل على الرعايا الفرنسيين الآسيويين ، بل حتى على الصينيين الذين يسجلون أسماءهم فى القنصليات الفرنسية . ويقال إن عدد من حصلوا على هذا الحق فى الحماية الفرنسية قفز فى ثلاث سنوات من مائتين إلى ثلاثين ألفاً . ولكن الذى أنجى سيام من المخاطر التى هددتها عاملان : أولهما عزم بريطانيا على ألا يكون لها مع فرنسا حدود مشتركة . ذلك أن السياسة البريطانية فى آسيا كانت تستلزم وجود « دول حاجزة بينها وبين جيرانها . » ولذا وجب أن تحتفظ سيام بهذا المركز . وكان العامل الثانى هو حكمة الملك تشولا لنكورن الذى استطاع بحكمته ولباقته ومقدرته أن يسير دفة السفينة بعيداً عن لجة المنازعات والخلافات . وأفضى تدخل بريطانيا لمناهضة السياسة التوسعية الفرنسية فى سيام ، ذلك التدخل الذى كان يقصد منه قبل كل شىء منع فرنسا من الوصول إلى تخوم بورما ، إلى إبرام الميثاق الإنجليزى الفرنسى المعقود فى ١٥ يناير ١٨٩٥م . وبمقتضى هذا الميثاق جعلت سيام الوسطى منطقة حياد ، ولكن موقف المنطقتين الشرقية والجنوبية من البلاد ترك مبهماً . وكانت بريطانيا تأمل أن تعتدى على منطقتى الملايو وشان ، وعلى ما تدعيه فرنسا بمنطقة تخوم مستعمرتها . وأتاح هذا الميثاق للملك تشولا لنكورن المهلة الزمنية التى كان يحتاج إليها . وكان لا جرم ملكاً جديراً بالإعجاب . كان واسع الأسفار ، وقد زار الدول الغربية وأدرك بعينه البصيرة مصادر قوتها . فأدخل فى البلاد مجموعة من الإصلاحات منها إلغاء الرق . ثم أعيد تنظيم حكومة الدولة أيضاً . وفى ١٨٩٥م أنشئت جمعية تشريعية ومجلس وزراء وظهر بالبلاد جهاز الحكومة العصرية ، بل الواقع أن الملك تشولا لنكورن فعل الشىء الكثير أثناء السنوات العشر التالية لطبع دولته بالطابع العصرى بإنشاء السكك الحديدية والتلغرافات والتليفونات وإصلاح

* أطلق الفرنسيون على هذه الامتيازات الجديدة الشاملة اسم Ressertissants .

نظام العملة وإنشاء نظام عصرى للبريد إلى غير ذلك . ثم وضع مشروع قانون جديد للعقوبات ، ومع أنه لم ينفذ إلا فى ١٩٠٨م، إلا أن تطبيق القوانين بلغ من التحسن أن تفاوضت الحكومة السيامية مع البريطانيين فى ١٨٩٩م فى معاهدة تحدد الاختصاصات التى تتمتع بها فى نظم الامتيازات القضائية للأجانب.

ولم تكن هذه التغييرات موضع ترحاب فرنسا بحال ، ذلك لأن الأطماع التى كانت تضمرها الحكومة الفرنسية كانت تنطوى على إدخال سيام بأكملها تحت حمايتها ، فإن لم يتيسر ذلك فلا أقل من الحصول على أكبر ما يمكن اقتطاعه من أراضى سيام . ولكن معارضة بريطانيا جعلت تنفيذ تلك السياسة عسيرة ، ثم كان أن تدهور الموقف فى أوروبا فاضطر البريطانيون والفرنسيون إلى تسوية ما بينهما من منافسات . وهو أمر أتاح لفرنسا قدراً محدوداً من حرية التصرف فى سيام ، وانتهزت الحكومة الفرنسية الفرصة كاملة لإجبار بلاط بانكوك على التنازل عن أراضيه ومنحها امتيازات أخرى جديدة . وهكذا حدث فى ١٩٠٤ أن بسطت فرنسا سلطانها على شقة فسيحة من الأرض وأنشأت « منطقة محايدة » . وبمقتضى تعديل آخر للمعاهدة فى ١٩٠٧م، أجبرت سيام على التنازل عن المنطقة المحايدة ، وكانت الرعاية الوحيدة التى حصلت عليها ، هى أن الامتيازات القضائية التى يستمتع بها الرعايا الفرنسيون الذين هم من أصل آسيوى ستلغى فى مدى عشر سنوات.

ووافقت بريطانيا على هذا الضم نظراً لأنها هى نفسها كانت تدبر خططها حول المنطقة الواقعة إلى الجنوب . وكانت ولايات كيلانتان وترنجانيو وبرليس وكداه ، هى الجزء الذى حصلت عليه إنجلترة مقابل ما ضمته فرنسا فى الشمال . لقد اقتطع هذان الشعبان فى سيام قطعة من الأرض مساحتها ٢٥ ألف ميل مربع اقتسماها بينهما دون تقديم أية معاذير عن تصرفهما . ولكن سيام دفعت بذلك ثمن بقائها ، لا لأن الذئاب المستعمرين صارت حملاناً وديعة ، بل لأنه حدث — قبل أن تستطيع الدولتان هضم المناطق الجديدة وقبل أن تدبرا خطة مرحلة جديدة من مراحل العدوان — أن حل الانتقام بالأمم الغربية أثناء الحرب العظمى سنة ١٩١٤م — ١٩١٨م . واستطاعت سيام فى عهد الملك راما السادس أن تستخدم تلك المهلة الزمنية فى زيادة قوتها . وبلغ بها الأمر حين أدركت تغيير الموقف الدولى ، أن أعلنت الحرب على ألمانيا فى ١٩١٧م، وبذلك ضمنت مركزها فى مؤتمر ڤرساى .

القسم الرابع

الروسيا والشرق الأقصى



الفصل الأول

قبل الثورة

من الضروري ونحن ندرس علاقة الروسيا (سواء في عهد القيصرية أو البلشفية) بالصين ، أن نتذكر أن كليهما كانت تحت حكم المغول العظام[1] . وكان تحريرهما من النير الأجنبي بعد طرد أسرة يوان في الصين وانهيار الرهط الذهبي بالروسيا ، يتم في نفس الوقت تقريباً . وكانت نتيجة ذلك أن أصبحت المنطقة الممتدة من جبال أورال إلى منغوليا منطقة فراغ سياسي في القرن الخامس عشر يوم كانت أسرة منج توطد سلطانها بالصين ويوم كان الأمير العظيم إيفان الثالث (١٤٦٢م — ١٥٠٥م) يعلن نفسه أميراً على الروسيا بأكملها . ولم يرفض إيفان دفع الجزية لخان الرهط الذهبي إلا في ١٤٨٠م ؛ ومنذ ١٤٨٣م نرى الروسيين ينتشرون في بلاد سيبيريا وفي ١٥٥٥م وقعت أراضي خان سيبير التي كانت تابعة في الأصل لإقطاعية أوجوتاي — في قبضة سلطات موسكو ، ومن ثم بدأ الفيض يتجه شرقاً . ولم تلبث المناطق المتاخمة لجبال الأورال أن أخذت تعمر رويداً رويداً وأن شرع الفراغ يملأ بطريقة منظمة . واستخدم الموسكوف أحواض الأنهار الكبرى بسيبيريا ، فتيسر لهم بذلك التحكم في السهوب الهائلة المترامية التي تصد الناس عن ارتيادها ، ولم تنقض مائة عام على سقوط خانية سيبير حتى وضعت موسكو يدها على ميراث الخان الأعظم ووصلت إلى المحيط الهادي .

وبينما كانت المنطقة الشمالية يحتلها الروسيون على الشاكلة التي رأيت ، كان الصينيون في الجنوب يتبعون طريقة مماثلة لهذه . فإن الموطن الأصلي لجنكيز والقبائل التي فتحت العالم فيما مضى انتقل بسلام وهدوء إلى قبضة الاحتلال الصيني . فلما أن حلت روح التوسع الوثاب لدى أسرة المانشو محل أسرة المنج الواهنة المتداعية ، كانت حكومة بيكين قد أدخلت في طاعتها قبائل اليولاث Eulath والقلخا وغيرهما من القبائل التي أمكنها الوصول إليها . وقد انتقلت منطقة نهر

عامور فعلا إلى سلطان الصينيين . وهكذا اقتسمت موسكو وبيكين ميراث الخانات العظام ؛ فالتابعان العظيمان سابقاً قد انتقل إليهما سلطان مليكهما صاحب الولاية .

وأدى اقتسام إمبراطورية الخان الأعظم بين إمبراطوريتي موسكو وبيكين إلى وضع قيصر روما الثالثة[1] وجهاً لوجه أمام ابن السماء . وكان كل من الدولتين البريتين العظيمتين تدعى لنفسها احتلال مناطق ضخمة من أراض متنازع عليها ، لم تكن من الناحية التاريخية تتبع الصين ولا الروسيا . فالذى توسع أصلا على امتداد نهر عامور أسرة المانشو وليس الصينيين . فإن المانشو عبروا نهر عامور فى ١٦١٦م وبلغوا بحر أوختسك فى ١٦٣٦م . وكانوا يدعون امتلاك المنطقة الممتدة إلى نرتشينسك غرباً . وبلغ الروسيون أيضاً نهر عامور فى نفس ذلك الوقت ، فعبرت النهر جماعة من الرجال ١٦٣٦م . وفى الحين نفسه تحول نشاط المانشو نحو فتح الصين نفسها . وحال ذلك بينهم وبين مواصلة التوسع شمالا ، ولكن ظهر عامل جديد آنذاك عزز مدعيات المانشو ، هو زيادة هيبة الإمبراطورية الصينية . فوضع ذلك حداً للتوسع الروسى .

وبينما كان المانشو يحكمون عرى سلطانهم جنوب السور العظيم ، كان الروس وخاصة فى عهد رياسة ياركاياڤلوف خاباروف يدخلون القبائل الضاربة على نهر عامور فى طاعتهم بطريقة منظمة وبإرسال الحملات المتعاقبة عليهم . وكانت طريقة الروس هى السماح لأفراد مغامرين بالقيام بهذا العمل بتجهيز « حملات خاصة » . حتى إذا استقرت قدم أسرة تشنج تماماً فى بيكين ، تهيأ لها أن توجه التفاتها إلى التغيرات التى تحدث فى الشمال . وفى عهد شنج تشيه فى ١٦٥٢م سيرت أول حملة لردع أولئك المغامرين الروسيين المتطفلين ، على أن الصينيين لم يقدروا قوة الروس بتلك المنطقة حق قدرها . ثم تلاقت القوات للمرة الثانية فى ١٦٥٣م . فبعد حملة مهوشة مفككة هزم أونوفرايا ستيبانوف الذى كان يقود « الحملة الروسية » هو وفئته الصغيرة من الجند ، وذبحت غالبيتهم فى ميدان القتال . وتقص

---

(١) يشير المؤلف بذلك إلى ادعاء قياصرة الروس أنهم ورثة أباطرة القسطنطينية (أى روما الجديدة) التى ورثت بدورها روما القديمة الإيطالية . (المترجم)

السجلات الصينية هذه الأحداث على النحو التالى :

« فى السنة الثانية عشرة (الملكية) تقدم الجنرال منج بقواته من بيكين . فهاجمهم (يعنى روس اللوتشا) قرب كيومار وأماكن أخرى محرزاً شيئاً من النجاح ، ولكنه سرعان ما تقهقر لقلة ما لديه من المؤن . وفى السنة الرابعة عشرة (١٦٥٧م) هزمهم سارجودا قوميسير الدفاع . ثم عاد فى السنة التالية فهزمهم أيضاً . . . وفى السنة السابعة عشرة أحرز باهاى بن سارجودا نصراً ساحقا عليهم . » ومع ذلك فإن السجلات الصينية أردفت ذلك بقولها : « إن جنودنا وإن أحرزوا النصر فى المعارك إلا أنهم انسحبوا دون إخضاع اللوتشا الذين لم ينقطعوا قط عن الظهور بين آونة وأخرى . * »

على أن صفحة جديدة فتحت بتولى الإمبراطور العظيم كانج هسى العرش . فأنشأ كانج هسى نظاماً من نقط الحدود بقيادة قائد أعلى . وأدرك الروس أيضاً بعد أن انسحبوا انسحاباً مؤقتاً أنهم حيال قوة عسكرية ، ولذا انتهت فترة الحملات غير الرسمية ، وبدأوا عملهم بإنشاء مدينتين هما نرتشينسك وألبازين ، وهما مدينتان قدر لهما أن يلعبا دوراً بارزاً فيما عقب ذلك من أحداث التاريخ . وقد بنيت مدينة نرتشينسك عند مصب نهر نرتشا ، فكانت فى ١٦٥٦م قلعة أوتيت شيئاً من المنعة . وتناول كانج هسى الأمر جدياً ، وبعد اتخاذ الاستعدادات الكافية بما فيها إنشاء المزارع العسكرية والمواصلات البريدية وإنشاء وسائل النقل البرى وبناء ترسانة للسفن فى كيرين ، شرع كانج هسى فى القيام بحملته العسكرية لمعاقبة الأجانب المتطفلين . فاستولى على ألبازين ١٦٧٥م ودمر قلعتها . وعندئذ تنبهت الحكومة الروسية للموقف ، وتذرعت بالحكمة حيث اعتبرت الأمر كله حادثاً من حوادث الحدود نشأت عن حماقة بعض المغامرين الخصوصيين ، ثم عينت مندوبين من قبلها لمباحثة الصين فى مسألة حدود نهر عامور وتسويتها مع الحكومة فى بيكين .

ومع ذلك فلعل من الممتع أن نذكر أن الجانبين الروسى والصينى على السواء كان يجهل كل منهما عن الآخر قوته وموارده . فإن القيصر الذى لم يكن لديه إلا فكرة غامضة عن ماهية الإمبراطورية الصينية ، دعا ابن السماء إلى تقبل سيادته

---

* انظر شوؤفنج پاى شنج فى « المقدمة Introduction » ص ٥ .

عليه . فأما كانج هسى فإنه وقد اعتبر هؤلاء البرابرة الشماليين مجرد قبيلة أخرى مثل اليولاث أو القلخا وإن كانت أقوى منهما ، فإنه توقع أن يرسل حاكم موسكو الجزية لبيكين . بل لقد ادعى أنه حدث فيما مضى (١٦٥٥م) أن القيصر أرسل بعثة تحمل الجزية إلى شن تشيه . وقد وصلت هذه البعثة التى يرأسها تيودور بايكوف فعلا إلى بيكين ، ولكن لم يتوصل الطرفان إلى أى اتفاق بينهما على الإجراءات ، ورفض السفير أن ينطرح على الأرض ساجداً أمام الإمبراطور أو أن يقدم أوراق اعتماده إلى أى شخص عدا الإمبراطور نفسه . وفشلت البعثة فى مهمتها وعادت إلى موسكو دون أن تدخل فى أية مفاوضات ولا حتى أن تقدم أوراق اعتمادها . والظاهر أن الإمبراطور استقبل السفير الذى جاء بعده وهو إيڤان بوليلييف ، ويقول بادلى إن التقارير الروسية تقول إن الصينيين أجابوا بالتالى : « إن الجزية التى أرسلتها قد تسلمناها ونرسل إليك فى مقابلها هدايانا وألطافنا السنية * » .

وإذن فمن العجيب بعد كل هذا أن يطلب القيصر من إمبراطور الصين فى خطابه الذى أرسله إليه فى ١٦٧٠م أن يصبح إمبراطور الصين تابعاً خاضعاً له . وإليكم نص ترجمة تلك الرسالة .

« هناك قياصرة وملوك يدينون بالولاء والطاعة للمولى الأعظم الأمير الأكبر ألكساى ميخائيلوفتش الحاكم المطلق على الروسيا بجميع مقاطعاتها : الروسيا العظيمة والصغيرة والبيضاء ، وإن المولى الأعظم ليتنازل أن يبسط عليهم هباته الملكية وفضله .

« لذا ينبغى لقيصر بوجدوى (إمبراطور الصين) أن يلتمس بالمثل هدايا الأمير الأكبر ألكساى ميخائيلوفتش الحاكم المطلق للروسيا بجميع مناطقها : الروسيا العظيمة والصغيرة والبيضاء ، وأن يضع نفسه تحت حماية جلالته القيصرية .

« وإن الأمير الأكبر ألكساى ميخائيلوفتش الحاكم المطلق للروسيا بجميع مناطقها : الروسيا العظيمة والصغيرة والبيضاء وممالك كثير من الممالك ، يرسل

* انظر بادلى فى : « الروسيا ومنغوليا والصين Russia, Mongolia and China » (ماكميلان ١٩١٩ لندن) بعثة بوليلييف وأبو ص ص ١٦٧ — ١٦٨ .

فى تلك الحالة إلى خان بوجدوى الهدايا والعطايا ويضعه تحت رعايته السامية ويحميه من أعدائه . وفى الحين نفسه يدخل خان البوجدوى تحت ظلال اليد السامية لجلالته القيصرية إلى الأبد دون أى قصور أو تخلف ويقدم إليه — وهو المولى الأعظم — الجزية ويسمح لشعب المولى الأعظم ولشعبه هو بتبادل التجارة بحرية من الجانبين .

« وعلى خان البوجدوى أن يبلغ ما يقرره إلى جلالته القيصرية بواسطة هؤلاء المبعوثين أنفسهم* » .

والظاهر أن فحوى هذا الخطاب لم يبلغ ، ذلك أن مبعوث جلالته القيصرية والمولى الأعظم خر هو نفسه ساجداً أمام ابن السماء وتلقى التحذير الكافى على الاضطرابات التى وقعت على الحدود . وعادت البعثة دون أن تنجز شيئاً . وكان على رأس البعثة التالية (١٥ مايو ١٦٧٥م) نيقولاى سبارثارى ، وكان من بين ماقدمت من مطالب تسوية مسألة طرق الخطاب بين الإمبراطورين وإرسال بعض بناة القناطر الصينيين إلى الروسيا .

وهناك أيضاً فشلت المفاوضات وهى فى أدوارها التمهيدية ، ذلك لأن المسألة التى تهم الصينيين ، وهى نزاع نهر عامور لم تدرج بين مواد البحث ، ولأن السفير عدا ذلك « لم يكن مطيعاً ، حيث رفضت أن تتقبل العطايا المرسلة إلى مليكك راكعاً على قدميك » .

وأصابت مدعيات القيصر صدمة هزتها بعد تدمير قلعة ألبازين . فلما أن أدرك البلاط الروسى أن الإمبراطورية الصينية لا يمكن أن تعامل بنفس الطريقة التى تعامل بها الدول الأخرى التى اتصلت بها حتى الآن ، قرر أن يرسل بعثة مناسبة وأن يسوى المسائل بطريق المفاوضات إذا أمكن ذلك . وفى أغسطس ١٦٨٩ وصل إلى سيليزينسك تيودور اليكسيفتش جولوفن السفير الذى اختاره بطرس الأكبر كما وصلت إليها فى نفس الوقت تقريباً البعثة الصينية التى يرأسها الأمير سونجوتو وغيره

* انظرجون «جيون» فى « Historical sketch of the ecclesiastical, political and commercial relations of Russia with China-Drawn chiefly from original sources. Peking, 1872 »

من الموظفين ذوى المكانة العالية ومعهم الراهبان اليسوعيان جربيليون وپيريرا اللذان يعملان كمترجمين . وطالت مدة المؤتمر ، حيث كان كل فريق يقدم مطالب يعدها الطرف الآخر غير مقبولة ، ثم عقدت معاهدة (٢٧ أغسطس ١٦٨٩) بعد أن أظهر الصينيون عزمهم وقوتهم * . وبمقتضى شروط تلك المعاهدة ثبت خط الحدود بين الإمبراطوريتين على امتداد مجرى النهر ، من منبع الأرجون باتجاه شمالى حتى نهر عامور إلى جبال خنجان الخارجية ، إلى منبع نهر يودى . وأعلن أن وادى نهر يودى الذى يمر بين جبال خنجان الداخلية والخارجية سيكون منطقة محايدة . ودمرت القلعة الروسية عند ألبازين .

وقد دامت هذه المعاهدة الهامة ، وهى أولى المعاهدات التى وقعتها الصين مع دولة أوروبية مدة مائة وخمسين عاماً وقيدت توسع الروس جنوباً ** . ومع ذلك فإن الروسيين حاولوا فى ذلك الوقت بحذر فتح باب العلاقات التجارية مع اليابان وأسس الروس لأنفسهم قاعدة فى أوختسك (١٦٤٩م) ثم شرعوا يرتادون المنطقة ، وفى ١٧٠٠م أبلغ ألتاسوف حكومته بنبأ وجود جزائر كوريل بالقرب من اليابان . وتقدم الروس لزيارة ذلك الأرخبيل فى ١٧١٣م — ١٧١٤م ، ثم ما لبثوا أن أنزلوا جندهم بجزيرة سخالين فى ١٧١٤م .

ولقد كانت المغامرة المدهشة التى قام بها الكونت بنيوفسكى *** مشهداً ممتعاً ،

---

* يرجع الشىء الكثير من الفضل فى نجاح هذه المفاوضات إلى جربيليون دون أدنى ريب ، فإنه نصب نفسه ناصحاً ومشيراً للأمير سونجوتو كبير البعثة الصينية .

** بعد عقد معاهدة نرتشنسك كثر تبادل البعثات السياسية والسفارات بين القياصر والروس وبين أباطرة أسرة مانشو . وأهم تلك السفارات هى : سفارة أسبراند إيديس (١٦٩٣م) ، وسفارة لانجى (١٧١٧م وأهمها جميعاً سفارة ليون اسماعيلوف (١٧٢٠م) . وقد دخل اسماعيلوف بيكين دخولا مهيباً ، فاستقبله الإمبراطور بشخصه فأعطاه فى يده رسالة القيصر بطرس الأكبر ، وهى مكتوبة بالروسية واللاتينية والمغولية .

*** كان بنيوفسكى نبيلا بولنديا أسره الروس أثناء الحرب فى أوروبا وسجنوه فى كمتشتكا ، ولكنه فر إلى اليابان وقد أخذ معه ابنة الحاكم المحلى . والظاهر أنه كان على علاقة ودية تماماً مع اليابانيين ولكن روحه القلقة دفعته إلى التحول إلى تاى وان أو فرموزا حيث حاول أن يوطد قدمه عليها كحاكم لها . فلما فشلت محاولته أقلع منها إلى مدغشقر حيث تمكن من حمل الناس على انتخابه ملكاً . ثم زار الولايات المتحدة وهو متقلد منصبه الملكى وعرض أن يدخل مع الجمهورية الجديدة فى علاقات تقوم على عقد معاهدة ثم عاد إلى مملكته حيث قتل بعد ذلك بزمن يسير ، وهو يقاتل الفرنسيين (١٧٨٦م) . والظاهر أن سيرته لقيت فى أوروبا اهتماماً عظيماً ؛ ذلك لأن كولتيز بيو كتب عنها تمثيلية باللغة الألمانية ترجمها إلى اللغة الإنجليزية القس و . رندر (١٧٩٨) .

ولكن لها شيئاً من الأهمية ؛ لأن ذلك البولندى حذر اليابانيين من سياسات الروسيا التوسعية . وفى ١٨٩٢م أرسل زابيريا الحاكم الروسى بعثة لم تؤت هى الأخرى نجاحاً ولكن هذه المحاولات المتقطعة نبهت اليابان إلى خطورة مسألة الدفاع الساحلى ، وظل الشوجن وحكومته فى يقظة تامة إزاء الحركات التى تصدر من الجانب السيبيرى .

وبعد عقد معاهدة نرتشينسك ظلت العلاقات بين الصين وروسيا ودية على وجه الإجمال ، وإن أثيرت بين حين وآخر مسألة حق الروسيا فى الملاحة فى نهر عامور . وهكذا فيما تقول السجلات الصينية فى ١٧٥٧م « التمست الروسيا الحصول على امتياز نقل مؤنها فى نهر عامور . ورأى الإمبراطور (تشين لنج) فى ذلك خرقاً للمعاهدات ورفض إعطاء ذلك الإذن » .

وفى ١٨٠٥م أرسل القيصر إسكندر الأول الذى سيطر على السياسة الأوروبية بعد سقوط نابليون ، جولوفكين بقصد فتح الحدود أمام التجارة والحصول على حق الملاحة فى نهر عامور ، فضلا عن الحصول على السفن والتسهيلات التجارية فى كانتون . وكان الإمبراطور حريصاً على الترحيب به ، ولكن البعثة أرغمت على العودة ، وذلك لأن جولوفكين رفض أن ينطرح على الأرض ساجداً أمام العرش الخالى فى أرجا . وبعد فشل هذه البعثة أخذت فكرة إرسال حملة عسكرية على حوض نهر عامور تنتشر وتلقى رواجاً فى بطرسبرج . ومن ثم أخذ سيل متواصل من رجال المساحة والخبراء أشهرهم ا . ث . فون ميدندورف — يزورون المنطقة ويقدمون التقارير التى تستصوب غزوها وتحرض عليه . وكان القيصر نيقولا الأول يهتم بالأمر اهتماماً شخصياً ، بل لقد بلغ به الأمر أن أرسل البعوث وحصل على التقارير بغير علم حكومته . ومع ذلك فإن الخطوة الحاسمة فى سياسة الشرق الأقصى لم تتخذ إلا فى عهد القيصر نيقولا ، حيث أصدر أمراً فى ١٨٤٧ بتعيين نيقولافتش موراڤييف وعمره ثمانية وثلاثون عاماً ، حاكماً عاماً على سيبيريا الشرقية . وكان مورافييف يضم بين جنبيه مطامع ولسلى وقدرة دالهوسى ، وربما أمكن اعتباره أكثر من نائبى القنصل هذين من بناة التاريخ الآسيوى . وكان هدفه الأول إقرار سلطان الروسيا على نهر عامور . فأرسل — وهذا الهدف نصب عينيه — ضابطاً اسمه ڤاجانوف يجوس خلال المجرى الأدنى لنهر عامور ، على أنه ذهب ولم يسمع عنه أحد شيئاً بعد ذلك . ولما كانت نظرات مورافييف بصيرة ، فإنه قد صمم فى الحين

نفسه على إنشاء قاعدة بحرية فى بتروبافلوفسك ، وكان يرى أن نهر عامور ضرورى جدا لسلامتها. فقام بالتضامن مع الأميرال نيفيلسكى الذى كلف بارتياد سخالين والمضايق المحيطة بها وأراضى القارة القريبة منها ، باتخاذ قرار بالاستيلاء على مصب نهر عامور . ولم توافق السلطات فى موسكو على هذا التصرف ، ولكن نيفيلسكى تجاهل التعليمات الواردة إليه وغرس الراية الروسية عند مصب نهر عامور فى ١٣ يناير ١٨٥٠م — وغضب نسلرود رئيس وزراء الروسيا لهذا التحدى وطلب توقيع عقوبة عليه ، ولكن القيصر وقد كان لا يشاطر رئيس وزرائه آراءه ، ناصر مورافييف ونيفيلسكى . ذلك أن ادعاءات الصين فى مصب نهر عامور كانت على كل حال مبهمة . فإن كل ما عملته وهى فى أوج قوتها أيام كانج هسى أن اقتصرت على الحد من سلطان الروسيا دون أن تبسط هيمنتها الفعالة بتلك المنطقة . والواقع أن البلاط الصينى ظل فترة من الزمن فى جهل تام بما قام به الروسيون هناك . وكانت الحكومة الروسية هى التى قامت فى مايو ١٨٥١م بإخطار الصينيين بما حدث .

وبعد ذلك شرعت الروسيا بصورة فعالة توثق عرى مركزها وتوطده فى المنطقة الواقعة وراء بحيرة بايكال . ولم تكن حكومة بيكين فى تلك الآونة تواجه فتنة التايبنج وحسب ، بل لقد أعجزها أيضاً وأقعدها عن كل عمل ضغط إنجلترا وفرنسا . من أجل ذلك عجزت كل العجز عن تأكيد مدعياتها الإمبراطورية التوسعية ، بينما كانت أرض بلادها نفسها تهاجم. وفى ١٨٤٥م كان مورافييف قد شق طريقه أدنى نهر عامور ، ولكنه حرص على أن يطلب الإذن من السلطات الصينية بالمرور خلال ما كان قطعاً من الأراضى الصينية الخالصة . وكانت الحملة تستصحب معها عدداً من جلة العلماء . والتقى مورافييف بحاميات صينية ، ولكنه عاملها بتأدب . ولما كان العاهل الصينى على ذكر من مركزه الدقيق ، فإنه أصدر تعليماته إلى السلطات كالآتى : « إذا لم تحدث سفن الروسيين أثناء مرورهم فى نهر عامور أى اضطرابات وإزعاج أو يقدموا على أية طلبات ، فالأمر لا يستحق فيما يبدو أن تقام أمامهم العراقيل » . وكان موراڤييڤ من ناحيته لبقاً مريحاً أبلغ حكومة بيكين « أن جميع الاستعدادات والضرورات العسكرية قد زودنا أنفسنا بها دون أن نسبب

الصين أدنى أنواع الإضرار* » . وقد يسترعى الاهتمام أيضاً أن نذكر أن مورافييف أكد للصين المزايا التى تعود عليها من وجود الدفاع الروسى الفعال عن أراضيها السيبيرية .

وكانت نوايا مورافييف فى تقوية قبضته على نهر عامور بالنظر إلى تصرفات البريطانيين فى المحيط الهادى أثناء الحرب البريطانية الروسية موضع الانشغال الخطير من حكومة بيكين ، ذلك لأنها كانت تؤثر على الموطن الأصلى للمانشو . وفتحت المفاوضات لتحديد الحدود . وفى الحين نفسه ظل مورافييف ينشىء المحطات الجديدة ، التى تتيح للروسيين التحكم فى الشاطئ الشمالى للنهر . ومع ذلك فإن نسلرود احتفظ بعلاقات الود مع الصين وظل يظهر استهجانه علناً لهذه المغامرات التوسعية ، ولكن مورافييف كان يعتمد على التأييد الشخصى للقيصر إسكندر الثانى وأنشئت ولاية بريمور سكايا على العامور الأدنى ومنطقة كيرين البحرية بأمر إمبراطورى صدر فى ١٢ نوفمبر ١٨٥٦م ، وبذلك أضفى صفة الموافقة الرسمية على السياسة المتبعة هناك . وبعد مفاوضات طويلة تنازل الصينيون فى النهاية عن حقهم القانونى فى المنطقة بمعاهدة آيجون . وعمل لهذه ملحق هو معاهدة تيان تسن ، التى نصت على تعيين وزير مفوض ، وعلى السماح للروسيا بحقوق التجارة البحرية بالموانى المفتوحة للدول الأخرى .

ووصل إلى بيكين فى ١٨٥٩م مندوب جديد اسمه بييرى بيروفسكى . والآن وقد أصبح الروسيون يهتمون بنشر تجارتهم البرية ، فإنهم طالبوا بالحصول على حقوق الإتجار بالقوافل مع قشغر وقلجان ومناطق أخرى ، ولكن ذلك الطلب لم يعد بأية ثمرة نظراً لاعتراض الصينيين عليه . وبعد بعثة بيروفسكى وفدت بعثة إيجناتييف ، الذى وصل إلى الصين فى نفس الوقت الذى كان الحلفاء الإنجليز والفرنسيون يشقون طريقهم قتالا فى تاكو . وكان مظهر البربرية الغربية الذى تجلى فى إحراق القصر الصينى ونهبه فرصة طيبة انتهزها السفير الروسى فأكد صداقة الروسيا للصين وبُعد بلاده عن كل علاقة بأعمال الحلفاء المتبربرين . وكانت تلك

* انظر بى ووشيه مومج ٨ ص ٤٦ ، فى اقتباس فى « Eclipse of Manchuria » تأليف فانج تشه تشن .

الفعلة أول حلقة فى سلسلة طويلة من الأعمال التى أظهرت بها الروسيا أنها تقدر آثار تصرفاتها فى نفسية الصينيين أكثر مما يقدرها الحلفاء الغربيون . وعرض السفير الروسى وساطته ، والظاهر أنه استفاد بدور الوساطة هذه فى تسوية النزاع على الحدود ، وبذلك منحت الروسيا إقليم اليوسورى حتى حدود كوريا (معاهدة بيكين الإضافية ١٨٦٠) .

ومن الضرورى الآن أن نمسك خيط العلاقات الروسية مع اليابان ، ذلك لأن تلك الاتفاقية أدخلتها فى منطقة لم يكن بد من أن تصطدم مصالحها فيها بمصالح الإمبراطورية اليابانية . وفى ١٧٣٢م زارت سفينة روسية نميرو وطلبت أن يسمح لها بامتيازات تجارية . وفى مايو ١٧٣٩م ظهرت السفن الروسية قرب شاطئ منطقة آوا على بعد مائة ميل من يدو . وفى ١٧٨٥م أصبح معروفاً أن الروس قد أنشأوا لهم مراكز بجزائر كوريل . وفى أكتوبر ١٨٠٤م دخلت ميناء نجازاكى سفينة حربية اسمها نادايازادا تقل ريزانوف ، وهو مبعوث يحمل أوراق اعتماد من القيصر . وحاول ريزانوف أن يفتح باب المفاوضات مع حكومة الشوجن دون أن يوفق إلى أى نجاح . وفى ١٨٠٧م ألقى القبض على القبطان جولوسيين وهو يرتاد جزائر كوريل ، ثم زج به فى السجن ، ولكن سمح له فيما بعد بأن يعود إلى سفينته الحربية ديانا . ثم لم يحدث شيء لمدة أربعين عاماً بعد ذلك ، حتى نصح مورافييف نيسلرود بأن يبدأ بأن يبدأ عهد علاقات ودية مع اليابان ، ولهذه الغاية أرسل القيصر نيقولا فى ١٨٥٢م بعثة سياسية برئاسة الأميرال بوتياتين . ووصل الأميرال بوتياتين إلى اليابان على ظهر البارجة ديانا . وحدث زلزال أعقبته موجة من البحر دمرت السفينة وقضت عليها . ولما لم تكن أمام الأميرال من وسيلة للعودة إلى سيبيريا إلا اللجوء إلى بناة السفن اليابانيين ، فإنه عهد إليهم فى إنشاء سفينتين شراعيتين وبذلك أنشئت باليابان أول ترسانة بحرية عصرية . وهذه الإقامة الجبرية مكنت بوتياتين وقد كون علاقات ودية مع اليابانيين ، أن يتفاوض فى شروط معاهدة سويت فيها مسألة حدود جزائر كوريل فضلا عن إنشاء علاقات سياسية بين الطرفين ، ولكن مشكلة سخالين تركت لتسوى فى موعد تال . ومن المؤكد أنه فى ذلك الوقت — وحتى يوم أفضى ضعف الصين إلى تخاطف منشوريا ، لم

تكن تتعارض سياسة الروسيا تعارضاً خطيراً مع مصالح اليابان . أما مسألة سخالين نفسها فقد تناولتها مفاوضات عقدت فى ١٨٧٥م ، ومن المهم أن نلحظ أن المعاهدة التى وقعت فى تلك السنة بسان بطرسبرج والتى تفصل فى تلك المسألة أبرمت على أساس المساواة بين الدولتين . والحق أن الروسيا أظهرت منذ البداية أنها لم تكن تشارك الأوروبيين شعورهم بالاستعلاء فى علاقاتها مع الشعوب الآسيوية .

وبعد معاهدة آيجون والمعاهدات التكميلية ، تطورت العلاقات بين الروس والصينيين تطوراً سوياً دون حدوث أية حادثة خطيرة . وحدث أثناء ثورة يعقوب بك فى التركستان الصينية أن الروسيا احتلت مؤقتاً إيلى ، وكان مفهوماً كل الفهم أنه عندما يعود النظام ترد المنطقة إلى الحكومة الصينية ، ومع أن الصين لم تكن فى موضع يمكنها من تنفيذ طلبها بالقوة ، ينبغى أن يذكر بالفضل لحكومة القيصر أنها بعد شىء قليل من التردد أعادت المنطقة للصين عندما دفعت النفقات التى جرها الاحتلال .

وكان الأمر الذى أعاد إلى الروسيا مكانتها البارزة فى الشئون الصينية هو مسألة كوريا ومطامع اليابان الواضحة فى تلك المملكة ، وهو أمر بحثناه فيما تقدم . وبعد معاهدة ١٨٧٦م أخذت اليابان تعامل أرض « هدوء الصباح » كأنما هى قطر مستقل لها فيه حقوق خاصة . وقد بدأت السلطات الصينية أيضاً فى التحرك ، وكان لى هنج تشانج قد ندب فون مولندورف لإعادة تنظيم نظامها الإدارى كما أرسل يوان شيه كاى فى منصب المندوب السامى لدى سيول . واقترح مولندورف على الروسيين أن يرسلوا ضباطاً لإعادة تنظيم الجيش ، فاستجابت الحكومة القيصرية لذلك معاجلة ، وحصلت على سبيل المكافأة على حق استخدام بورت لازاريف على الساحل الشرقى لكوريا . ووجد اليابانيون أن خططهم فى كوريا لم تحبط فحسب ، بل إن مصالحهم أصبحت مهددة باحتلال الروسيين لميناء لا يتجمد ماؤه شتاء . فشعروا بأنه قد آن لهم أن يعملوا . ولم تكن الروسيا قد داخلها حتى ذلك الحين أى اهتمام فيما يتعلق بكوريا ، وهو أمر لو وجد لحتم عليها أن تنكر على الصين إدعاءها السيادة على تلك البلاد . على أنهم لم يهتموا بعد ذلك بها ؛ ولكن اليابان التى أخذ زعماؤها يظهرون حساسية متزايدة نحو الظروف السائدة فى كوريا ، شرعوا يتخذون السياسة التى اضطرت الصين إلى الاختيار بين أمرين :

فإما أن تنكر حقوقها ومصالحها بتلك المملكة وإما أن تدعمها بقوة السلاح . وكانت نتيجة ذلك ، هى الحرب الصينية اليابانية التى بحثناها فيما سلف .

وقد عالجنا تطورات تلك الحرب ونتائجها بموضع آخر من الكتاب . ولكن الأحداث التى عقبت هزيمة الصين كانت ذات أثر هائل فى تطور العلاقات الصينية الروسية . فإنبريطانيا وأمريكا أبتا أن تتوسطا كمارأينا وأن تنهيا القتال نهاية مرضية ، على الرغم من إلحاح الصين عليهما فى هذا الصدد . لذا اضطر بلاط بيكين بمقتضى معاهدة شيمونوسيكى إلى التنازل عن شبه جزيرة لياوتونج على عظيم حيويتها لسلامتها . وأحست الحكومة الصينية أن أصدقاءها قد تخلوا عنها فى ساعة العسرة .

ومن العجيب هذه المرة أيضاً أن الروسيا هى التى تقدمت للاحتجاج وطالبت بإرجاع تلك المنطقة إلى الصين . ومنذ ١٨٩٥م يبدأ فصل جديد فى العلاقات الصينية الروسية ، لم يكن العامل الفاصل فيه هو الصين نفسها ، بل مطامع اليابان المعروفة فى التسلط على كوريا . ذلك أن موقف الروسيا من مسألة إعادة لياوتونج قد حول لى هنج تشانج الذى كان حتى الآن من دعاة العمل مع المملكة المتحدة وأمريكا إلى صديق للروسيا يدعو إلى التعاون بينها وبين الصين . وفى ١٨٩٦م ذهب لى هنج تشانج إلى الروسيا ليمثل إمبراطوره فى حفلات تتويج القيصر . وهناك عقد معاهدة سرية قضت بضرورة تبادل المعاونة بحراً وبراً فى حالة عدوان اليابانيين . وقضت المادة الرابعة من المعاهدة بأن يكون للروسيا الحق فى مد خط سكة حديد سيبيريا عبر منشوريا الشمالية إلى فلاديفوستك . وتقرر أن ينشأ بنك روسى صينى مشترك لمد الخط الحديدى الصينى الشرقى والقيام على إدارته . ومما له دلالته أن اتفاقية السكة الحديدية كانت تحتفظ للصين بحق استرداد الخطوط (وذلك بطبيعة الحالة فيما عدا خط سيبيريا) فى مدى ست وثلاثين سنة ، وأنه مهما تكن الحال ينبغى أن ترد إلى الصين فى مدى ثمانين عاماً . وفى ١٩٠٤م—قبل شبوب الحرب اليابانية الروسية—بلغ طول الخطوط الحديدية فى منشوريا ١٥٩٦ ميلا ، فإذا كان مصدر الخطر على الصين هو اليابان كما قدر لى هنج تشانج والكونت ويتى ، لما أمكن أن يقال عن المعاهدة بأى حال إن فيها عدواناً على الصين . والواقع أن لى هنج تشانج كان على يقين من أن سلامة الصين وأمنها ينحصران فى إقامة الروسيا لهذه الخطوط الحديدية

وأن اليابان لم يكن فى المستطاع مقاومتها إلا بمساعدة الروس . ولكن الروسيا سيطر على سياستها منذ ١٨٩٧م اتجاه جديد جاء بصفة رئيسية نتيجة لتأثير غليوم الثانى إمبراطور ألمانيا ، حيث تجلت سياسته فى خطابه الذى ألقاه بهامبرج والذى أعلن فيه بلغة ملؤها الغرور والطنطنة أن « الملاك ميخائيل الألمانى قد وضع بحزم وقوة (!!! ...) درعه وعليه شعار النسر الألمانى على أرض الصين . فلو حاول أى إنسان أن ينقص قلامة ظفر من حقوقنا المشروعة أو يوجه إلينا أدنى أذى ، فستهبون إليه وستنقضون عليه بقبضتكم الحديدية . » وكانت الروسيا مطلعة على خبيئة الخطط الألمانية ، كما أضمرت أن يكون نصيبها من الغنيمة تأجير مينائى بورت آرثر ودالنى . ولكن مما له دلالته للمرة الثانية أن ميثاقى بيكين (٢٧ مارس) وسان بطرسبرج (٧ مايو) ١٨٩٨م ، بهما نصوص صريحة تنص على صيانة حقوق الصين . وقد تقرر أن تغلق بورت آرثر — التى جعلت قاعدة بحرية — فى وجه جميع الدول عدا سفن الروسيا والصين ، كما تقرر أن تكون دالنى (أو دايرين) ميناء تجارياً . وحصلت الروسيا أيضاً على الحق فى وصل المينائين بخربين .

وفى أثناء هذه السنوات السبع من ١٨٩٧م — ١٩٠٤م التى وقعت فيها الروسيا تحت تأثير غليوم الثانى السيئ ، أصبحت تلك الدولة مشتركة اشتراكاً فعلياً فى سياسة الأمم الغربية القاضية بانتهاز ضعف الصين فرصة لاغتنام أكبر قدر من الفائدة . فادعت أن لها الحق فى الاشتراك فى اتفاقيات القروض وادعت لنفسها حقوقا خاصة فى إنشاء السكك الحديدية ، وكانت على استعداد للانضمام إلى غيرها من الدول فى توجيهها الضغط على الصين . وبدأت تبسط سلطانها على سكك حديد منشوريا ، وعلى حين أنها لم تقدم أية مدعيات تتعلق بملكية منشوريا نفسها ، فقد ظهر فى الأفق ميل ملحوظ إلى اعتبار هذه المنطقة داخل دائرة النفوذ الروسى ، ولعلها نظراً لقرب حدودها كانت ترغب فى إبعاد النفوذ البريطانى الذى ظلت الروسيا تخشاه منذ اليوم الذى وقعت فيه المحاولات الفاشلة التى قامت بها السلطات البحرية البريطانية فى شمال المحيط الهادى أثناء حرب القرم .

وكان حلم الروسيا فى الحصول على قاعدة بحرية بميناء لا تتجمد مياهه شتاء ومنفذ إلى بحر خال من النفوذ البريطانى قد لاح فى الأفق أنهما تحققا أخيراً ،

ولكنها تحدت بهذا العمل الدول البحرية وبرزت وجهاً لوجه أمام مطامع اليابان ، كما أنها نفرت منها الصين . وكانت نتيجة ذلك الحرب الروسية اليابانية التى لقيت فيها اليابان التأييد الأدبى من بريطانيا ؛ وبمقتضى معاهدة بورتسموث أخرجت الروسيا من منشوريا ونقلت حقوقها بتلك المنطقة إلى المنتصر . وبعد ذلك الوقت ظلت الحكومة القيصرية ساكنة لا تعمل شيئاً فى الشئون الصينية . وقبل أن تسترد مركزها فى الشرق ، شبت الحرب العالمية جالبة معها الثورة العظمى . وسنبحث من فورنا بشئ من التفصيل أثر تلك الثورة فى شعوب آسيا . وبحسبنا أن نقول هنا أنه فى يوليو ١٩١٩م ، أعلن قره خان المندوب المساعد على العالم كافة أن الحكومة السوفيتية تخلت باختيارها عن جميع حقوقها فى الامتيازات القضائية وأنها مستعدة أن تعيد إلى الصين جميع الحقوق الجائرة التى حصلت عليها الحكومة القيصرية .

ولنقف قليلا لنتأمل المظاهر الخاصة للتوسع القيصرى بآسيا والفوارق الملحوظة بين سياسة الروسيا وسياسة الدول البحرية وبخاصة إنجلترا وفرنسا . وكان موقف أمريكا مخالفاً فى جميع الأوقات لموقف الدول الأوروبية الغربية ، إلا من ناحية واحدة هى ناحية العدوان الدينى والنشاط التعليمى . ومع أن ألمانيا وإيطاليا كانتا تواقتين للقيام بدور كما كانت الأولى منهما تتحرق شوقاً إلى القيام بدور القيادة ، إلا أنهما لم تنزلا حومة الشرق الأقصى إلا متأخرتين ولم تمنحا الوقت الكافى لتنفيذ سياسة متواصلة . أجل إن ألمانيا احتلت كياوشاو وحصلت على حقوق واسعة ، ولكن كان المقصود من ذلك إعطاءها مركزاً تحت الشمس مع الدول العظمى الأخرى ونصيباً فى الغنائم والأسلاب . وكان النموذج المحتذى لسياسة الدول الأوربية هو النموذج الذى صاغته لها بريطانيا وفرنسا . على أن السياسة الروسية كانت تختلف عن ذلك النموذج من النواحى التالية :

كانت الروسيا — دون سائر الدول الأوروبية الأخرى جميعاً — الدولة الوحيدة التى لم تلجأ إلى القوة أثناء تعاملها مع الصينيين مدة تربى على ثلاثة قرون — فبينما كانت كل من إنجلترا وفرنسا وألمانيا تتذرع بالأفيون تارة وبالمبشرين أخرى لتواصل معها الحرب أو عمليات شبيهة بالحرب ، فإن الروسيا ظلت بمعزل ظاهر عن ذلك كله .

فهى لم تلجأ قط إلى الإجراءات العنيفة للحصول على الحقوق .

والأمر الثانى كما أوضحنا ذلك آنفاً أن توسعها ظل (حتى تطورت المسألة المنشورية) محصوراً فى المنطقة المتنازع عليها التى كان الصينيون أنفسهم يحاولون التوسع فيها . وذلك على حين أن بريطانيا عمدت بعد الحرب الصينية الأولى إلى احتلال هنج كنج كما عمدت فرنسا بعد ذلك إلى ضم تونكين ، وكلاهما ظل متكاملا مع الدولة الصينية على مر التاريخ ، أجل إن بسط الروسيا حدودها إلى الساحل واحتلالها الشاطئ الشمالى لنهر عامور كان استيلاء على أراضى لا شك أن الصينيين كانوا يدعون أنها تحت حمايتهم ولكنهم لا يحتلونها بجيوشهم . ولا أدل على ذلك من أنه حتى اللحظة التى أخطرت فيها الروسيا بيكين رسمياً ، لم تكن السلطات الصينية تعلم شيئاً عن أعمال مورافييف وزملائه . وكان موقف الصينيين من هذين النوعين من الاستيلاء مختلفاً اختلافاً جوهرياً . ففى حالة الأراضى التى كان يحتلها جنس الهان ، كان يشعر الصينيون كأنما اقتطع جزء من جسم الصين نفسها ؛ أما فى حالة الأراضى عبر نهر العامور ، فقد كان الوضع يختلف عن ذلك مما جعل ادعاءهم فى تلك الأجزاء ادعاء واهناً غير محدد ، إذ كانت هذه الأراضى لا تقع فى أرض الصين الأصلية ولا تمسها أى مساس .

وحتى فيما يتعلق بمنشوريا حيث كانت الروسيا تقوم دون أدنى ريب بتنفيذ سياسة عدوانية ، فإن حكومة القيصر حرصت كل الحرص على ألا تجرح شعور الصينيين كما عنيت من ناحية الشكل على الأقل بضمان سيادة بيكين .

وأهم من هذين الاعتبارين أن الروسيا لم تشغل نفسها فى أى وقت من الأوقات بالسياستين اللتين استاءت منهما الصين شعباً وحكومة واللتين جلبتا عليها ما لا سبيل إلى وصفه من المذلة والعار : وهما إجبار الصين على شراء الأفيون والاتجار فى الأجساد البشرية . فأما تجارة الأفيون فقد كانت تسبب ما لا حد له من الانحطاط والشقاء والشعور بالحقارة لدى الصينيين وكانت السبب المباشر فى هزائمها العسكرية ، — وقد كان الجانى الأكبر فيها هو بريطانيا العظمى . أما تجارة « الخنازير » — أى نقل العمال الصينيين بالقوة إلى المزارع الضخمة والمناجم فقد كان يمارسها الأجانب فى تحد ظاهر لأوامر الحكومة ومشاعر الأهالى — ولم تكن إلا تجارة رقيق جديدة

يموت فيها أربعون فى المئة من العمال وهم ينقلون فى الطريق ، وكانت جميع الدول الغربية بما فيها أمريكا غائصة للأذقان فيها. أما الروسيا فلم تشترك فيها. ومهما يكن من شيء ، فهذان الأمران : « تجارة السموم » و « تجارة العمال » هما اللذان أججا نار الحقد فى قلوب الصينيين وزرعا البغضاء المريرة التى أظهروها للأجانب .

وكذلك لم يكن للروسيا أى دور بارز ولا نصيب فى محاولة غزو الصين دينياً . وسنحاول فى فصل تال بحث الآثار التى أدت إلى شبوب نار تلك الحماسة الخاطئة التوجيه التى دعت الأمم الغربية ، وبخاصة أمريكا وبريطانيا وفرنسا إلى غزو الصين روحياً ، وتقويض تقاليدها الاجتماعية والخلقية الموروثة ، وأن تحاول أن تفرض بسلطانها الإمبراطورى الاستعمارى وبقوة الامتيازات القضائية عقيدة كان الصينيون على بكرة أبيهم ينبذونها نبذاً لا لبس فيه ولا إبهام . ولم يكن للروسيا أى نشاط تبشيرى منظم حتى فى عهد القياصرة أنفسهم ، وكانت نتيجة ذلك أن الروسيين جميعاً أفلتوا من تلك البغضاء المريرة التى كان الصينيون يحسونها حيال الغرب الذى يريد ضمهم إلى عقيدته . ولا كان للروسيا نصيب فى تلك المحاولة التى قام الأمريكيون بمعظم أعبائها : محاولة صبغ الصينيين بالأصباغ الغربية عن طريق التعليم . والواقع أن الروسيين ظلوا طوال جميع قرون اتصالهم بالصين يعاملون الصينيين كأنداد لهم من كل النواحى ، ولم يتخذوا شعور الاستعلاء الذى لم يكن الغربيون يحسونه حيالهم فقط بل يظهرونه أيضاً فى كل أعمالهم وتصرفاتهم .

وأخيراً ينبغى لنا أن نؤكد أن الروس كانوا ينفضون أيديهم نفضاً ظاهراً من تلك الأعمال الفجة الهمجية ، مثل إحراق القصر الصينى ونهبه فى ١٨٦٠م ؛ بل لقد حدث أثناء حادثة البوكسر يوم كان الحلفاء الغربيون ينفذون السياسة التى أعلنتها ألمانيا والتى لا تسمح بمنح الصين أدنى ذرة من الهوادة والتسامح ، أن انسحب المندوب الروسى والجند الروس من بيكين . ولما أن أرسلت الحملات العسكرية فى أبريل ١٩٠١ ، لم يسهم الروس فيها . ومع أن ممثل الروسيا تعاون مع الدول الأخرى بعد فترة من التردد فى تخليص دور السفارات فى بيكين وفى فرض التعويضات على الصين ، فإن مما هو جدير بالذكر أن الروسيا اتخذت لنفسها موقفاً مستقلا . وفى الحق لقد كان من دواعى الشكوى فى ذلك الأوان أن الروسيين سحبوا جندهم

قبل توقيع المعاهدة ؛ وكان معلوماً أثناء مفاوضات بروتوكول الصلح أن ممثل الروسيا كانت له علاقات مباشرة مع المفاوض الصيني لى هنج تشانج الذى كان منزله موضوعاً تحت حراسة القوزاق . وكان الغربيون يرون أن موقف الروس فى ذلك كان غير كريم . والظاهر أن الوزير الروسى قلب الأرض والسماء لكى يحمل القوم على قبول لى « مفاوضاً مفوضاً » ، على الرغم من معارضة المندوب البريطانى . والواقع أن المندوب الروسى أصبح صديقاً للمفاوض الصينى ومستشاراً له * . وحدث أيضاً بعد انتهاء مفاوضات الصلح ، أنه بينما الأطراف الأخرى تنشد الانتقام وتلح مطالبة بإنزال العقوبات ، بذل البارون دى جيرز باسم الروسيا كل ما فى وسعه للمساعدة على التخلص من « مرسوم العقوبات » ويمنح عدداً جماً من الصينيين حماية رسمية . وكذلك أيضاً ينبغى ألا يغيب عن بالنا أن الكونت لامسدورف وزير خارجية الروسيا ، أبلغ السفير البريطانى فى سان بطرسبرج أن حكومته « لا مصلحة لها فى الأعمال التبشيرية » ولذا فإنها لا تشترك مع الدول الأخرى فى المطالبة بإنزال العقوبات على من هاجموا المبشرين * . وهذا أمر ينبغى مقارنته وإظهار الفرق الواضح بينه وبين الإلحاح الذى طالبت به الدول الغربية بتنفيذ حكم الإعدام فيمن وجهوا إليهم تهم مهاجمة المبشرين . فليس عجيباً أن لم يكابد الروس إلا أقل عداء من جانب الصينيين على الرغم مما وصفنا لك من ظروف جعلت عداء الصين للأوروبيين عداء مريراً ، فإن كثيراً من زعماء الصينيين كانوا قد تلقوا تعليماً غربياً ، وكان لانجلترة وأمريكا نفوذ مع الحكومات الصينية المتعاقبة ، ولكن موجة من العداء لهما كانت تجتاح الصين من حين لآخر . أما بالنسبة للروسيا فقد كان الحال على العكس من ذلك ، وحين قام قره خان بإنكار الحقوق التى كانت الروسيا قد اتخذتها لنفسها تحت حكم القيصر وبخاصة حقوق الامتيازات القضائية ، وحينما قامت الثورة الروسية بإعلان المبادئ التى كانت تتلاءم مع العواطف القومية الصينية ، فإن كل ذلك وجد أذناً صاغية لدى الصينيين ،

---

* انظر دانيلى فارى فى « The Last of the Empresses » جون مورای ص ٢٠٨ .

* انظر بلاند فى « Life of Li Hung-Chang » ص ص ٢٠٥ — ٢٠٩ .

وكان لهم من تاريخهم ما جعلهم يعتقدون أن هذه المبادئ كانت تصدر عن إخلاص بالرغم من أن دول الغرب كانت تشير إلى غير ذلك . لقد كان فى مستطاع الروسيا أن تشير إلى تاريخ طوله قرنان ونصف وتقول بحق إن سياستها حتى أيام القيصر كانت تختلف عن سياسة الدول الغربية .

الفصل الثانى

آسيا والثورة الروسية

ومع أن آثار ثورة أكتوبر فى شعوب آسيا تخرج بنا عن مجال هذا البحث ، فإن من الضرورى أن نوجز لك تحليلا للقوى التى أحدثها ذلك الحدث التاريخى العظيم لكى نحصل على تقدير صائب للعلاقات بين أوروبا وآسيا فى تلك المدة الحيوية بين ١٩١٨ ، ١٩٤٨ . وتسجل هذه الفترة نهاية سلطان الغرب على القارة الآسيوية . ولما كانت الحركات القومية بأقطار آسيا التى حصلت نهائياً على حريتها قد تأثرت ، بل ألهمت فى بعض الأحيان بوجود دولة السوفييت ونمو قوة السوفييت ، فإن من المهم أن نفهم الطريقة التى كانت تعمل بها تلك التأثيرات . فليس لنا إلا أن نبحث الآن الأثر الذى أحدثته ثورة أكتوبر والأفكار التى تولدت عنها فى علاقات آسيا وأوربا .

وقبل أن نمضى فى طريقنا لنبحث من وجهة عامة أثر السوفييت فى آسيا — ينبغى لنا أن نصف فى إيجاز وضع الإمبراطورية الروسية القديمة بآسيا . إن حركات الروس إلى آسيا الوسطى ، كما يوضح ذلك المستر ونت فى بحثه القيم* ، « لم تزد إلا قليلا عن قبول انتقال طاعة الأمراء المسلمين فى الإمبراطورية المغولية إلى الإمبراطورية الروسية ». وكان أهم الضاربين على الطريق المؤدى إلى آسيا الوسطى وهم القازاخ وينقسمون إلى عشيرتين طلبت إحداهما الحماية الروسية عن طواعية ؛ ولم تلبث المنطقة المترامية الواقعة بين سيبيريا ونهر سيحون أن انتقلت إلى حكم القيصر رويداً رويداً دون أى عمليات عسكرية خطيرة . وكانت الدولة الوحيدة الجيدة التنظيم بآسيا الوسطى هى إمارات (خانات) خيوه ، وبخارى ، وخوقند ، الشهيرة فى التاريخ الإسلامى بأنها مركز إمبراطورية تيمور ، وأنها مقر للعلوم والثقافة . وقد ضمت خوقند فى الوقت المناسب ، ولكن خيوه وبخارى احتفظتا باستقلال شكلى تحت خانيهما . وهكذا وصلت الإمبراطورية الروسية إلى حدود بلاد الأفغان وفارس بل

---

* انظر كتاب : « British in Asia » ص ١٣٧ .

لقد امتدت قبل ذلك إلى ساحل المحيط الهادى .

ويصف لاتيمور الإمبراطورية القيصرية ويفرق بينها وبين إمبراطورية بريطانيا فيقول : « بنيت الإمبراطورية الروسية بطريقة إدماج تختلف عن طريقة التجمع التى اتبعتها بريطانيا . فقد كان يقع جميع ما تملك داخل متسع مترام متصل الأجزاء من الأرض . . . وكانت الشعوب تدمج فيها هى والأراضى سواء بسواء . وكان الروسى العادى هو نفسه رعية لا مواطناً . وكانت الشعوب غير الروسية ترفع إلى مرتبة الروسيين أنفسهم . . . وكان شطر من الطبقة الحاكمة فى كل شعب يتمثل فى الطبقة الحاكمة الروسية . . . وانقضت قرون من الاختلاط والتداخل بين هؤلاء وبين الشعوب المرتحلة على حدود السهوب بالروسيا الأوروبية فأفضت إلى جعل حرب الطبقات وسياسة الطبقات شيئاً مألوفاً تماماً كالحرب والسياسة القومية لدى كل من الروس وغير الروس . وعندما كانت لخانات (أمراء) المترحلين السلطة العليا ، أصبح بعض نبلاء الروس تابعين إقطاعيين لهم واستمروا طبقة حاكمة . . . ثم حدث عندما فتح الروس بدورهم مناطق السهوب وسيبيريا ، أنهم أدخلوا فى خدمتهم شطراً من نبلاء السهوب ومشايخ القبائل ، وسمحوا لهم بمواصلة بعض أعمالهم ولم ينكروا عليهم التزوج منهم . بل لقد ازداد الزواج المختلط بين الروس وغير الروس * » .

وازداد هذا الفرق وضوحاً مع نهوض الحركات القومية . فقد كان مما ساعد على سرعة نمو القومية فى الإمبراطورية البريطانية وغيرها من الإمبراطوريات التابعة للأمم الغربية وجود التباعد والانعزال العنصرى واستياء الطبقات الحاكمة السابقة أو التى يرجى أن تكون حاكمة . فأما الروسيا القيصرية فهى من الناحية الأخرى كما يؤكد لاتيمور : « كان لابد أن يؤثر أى شكل من أشكال الثورة بما فى ذلك الثورة القومية فى كل من الروسيين وغير الروسيين الذين كانوا يعيشون معاً أو يختلطون بعضهم ببعض ** » . ومن الطبيعى إذن أن الطبقات الحاكمة فى الروسيا القيصرية كانت متحدة ومتحالفة بعضها مع بعض سواء أكانت روسية أم غير روسية .

* انظر أوين لاتيمور فى : « Situation in Asia » ص ١٦ .

** انظر المرجع السابق ص ١٧ .

من أجل ذلك توهم الناس فى البداية عندما شبت الثورة أن ما حدث يشبه ما حدث يوم حاول أنور باشا أن يحدث ثورة إسلامية فى آسيا الوسطى ، أى أنهم توقعوا أن تنفصل الأقاليم الآسيوية عن الروسيا بمجرد زوال شبح الملكية . ولكن العامل الذى فصل فى نتيجة ذلك موقف زعامة الجناح الأيسر ، وكانت تؤمن بالثورة على الطبقة الحاكمة عليها من بنى جلدتها إيمانها بالثورة على الدولة الروسية . وكان فى داخل الأراضى الآسيوية التابعة للروسيا مصالح مشتركة تجمع بين الوطنيين فى الجناح اليسارى وبين البلاشفة ، الذين كانوا مصممين على تدمير كل من الدولة القيصرية والمجتمع الذى كان يؤيدها ؛ فى حين أنه كان فى بلد مثل الهند بريطانيون عمال ورؤساء عمل وجنود من طبقات الجيش الدنيا وجميعهم لم يكن لهم حظ من التعليم فى المدارس الخاصة فلم يكن لهم ما كان لخريجى المدارس من لهجات الكلام ولا التمسك بالزمالة . ولكنهم على الرغم من ذلك كانوا يحاولون التمثل بالطبقات الحاكمة حين يعاملون أبناء الهند .

فعلى ضوء هذه الاعتبارات ينبغى أن نفهم تأثير الثورة الروسية فى آسيا .

ففى المقام الأول وفيما يختص بالروسيا الآسيوية بصفة خاصة ، كانت الثورة بوجه رئيسى من عمل الشعب الآسيوى نفسه . فإن كثيراً من الولايات السوفيتية فى الجمهوريات الجديدة بآسيا الصغرى لم تكن تحوى مجتمعات روسية كبيرة . ومع أن الثورة بدأت فى بتروغراد وكانت موسكو مركز توجيهها ، إلا أن مظاهرها فى مختلف مناطق آسيا كانت محلية بصفة رئيسية . وكذلك ينبغى ألا يفوتنا أن الثورة كانت لها سياسة قومية واضحة المعالم جعلتها تلقى قبولا لا سبيل إلى مقاومته لدى كل مناضلة مكافحة من الولايات التابعة والمستعمرات والبلاد شبه المستعمرة بآسيا . وقد أُعلن إعلان حقوق شعوب الروسيا الصادر بإمضاء كل من لينين وستالين : — المساواة والسيادة لجميع شعوب الروسيا وحق شعوب الروسيا فى حرية تطوير الأقليات القومية . والحق أن دوى ذلك البيان كان هائلا سمعته بأمل جديد جميع أمم آسيا المكافحة من أجل الحرية . وهذا التأكيد على تقرير المصير القومى وعلى فصل الأقليات على أساس من سلالتها وعنصرها ، كان له أثر هائل فى تكوين رأى الناس بآسيا أثناء ربع القرن التالى .

وقد أعلن السوفييت أيضاً منذ البداية مناصرتهم لكفاح الهند والصين وأندونيسيا والهند الصينية فى سبيل استقلالها ليس فقط بوصف كون ذلك شعاراً ، بل على أساس أن التوسع الاستعمارى (الأمبريالية) إنما هو فى حد ذاته النهاية القصوى للرأسمالية ، كما أن القضاء عليه بجهود الحركات القومية البرجوازية إنما هى مرحلة تقدمية متواصلة التطور . فهى من أجل ذلك تستحق العون . وليس ثمة شك فى أن الحركات القومية بجميع الأقطار الآسيوية قد كسبت قوة معنوية بمجرد وجود روسيا الثورية . والأقاليم التى ظلت الحركات القومية موجودة فيها أمداً طويلا مثل الهند لم تجد النظرية الشيوعية فيها إلا قدراً ضئيلا من التأييد ؛ فأما فى أندونيسيا والهند الصينية التى لم يتحقق للحركات الاستقلالية فيها أى أثر إلا فى المدة التى عقبت الثورة الروسية ، فإن الشيوعيين أصبحوا عاملا كبيراً فى القوى التى تعمل فى سبيل التحرير . ففى كل واحدة من هذه الأقطار ظهرت الأحزاب الشيوعية إلى عالم الوجود فى المدة بين ١٩٢٠م — ١٩٢٣م . وتمكنت تلك الأحزاب من الحصول على نفوذ جسيم لها حوالى ١٩٢٦م ، يوم أحست السلطات أن لهم ضلعاً فى تلك الاضطرابات الواسعة الانتشار التى شبت على الهولنديين فى جاوة أثناء تلك السنة . وانتشرت النظريات الشيوعية أيضاً بسرعة كبيرة بين الجماعات القومية بالهند الصينية .

وأسس الحزب الشيوعى بالصين فى شنغهاى فى ١٩٢١ . ولكن الجماعات الصغيرة التى أسست الحزب لم تكن دليلا على التأثير القوى الذى تحظى به الثورة على الزعماء القوميين التقدميين فى ذلك الأوان . وفى الإمكان الحكم على ذلك من أن صن يات سن أبا الثورة والخطيب الناطق بلسان القومية الصينية ذكر صراحة بعد أن أصبح على علم تام باتجاه الدول الغربية وأمريكا حيال قيام دولة صينية قوية مجددة التأهيل للحياة : « نحن لم نعد ننظر إلى الغرب . بل أخذت أبصارنا تتجه نحو الروسيا . » وشرع زعماء السوفييت يدركون بدورهم أن التيار الرئيسى لليقظة القومية بالصين لم يكن يمثله آنذاك إلا صن يات سن وحزبه ، وبناء على تقرير كتبه هـ . مارنج ، الذى زار الصين لدراسة المشكلة عن كثب أرسلت الحكومة السوفييتية أدولف چوف لينشئ علاقات مع صن يات سن . وتمخضت المباحثات

بين الزعيمين التي تمت في ظلال الأمان الذى تتفيأه المستعمرة الدولية بشنغهاى عن بيان مشترك حول التعاون الصينى السوفييتى . وفى هذه الوثيقة الذائعة الصيت عبر الممثل السوفييتى عن رأيه فى أن : « مشكلة الصين العليا والعاجلة هى الحصول على وحدتها القومية وإدراك استقلالها القومى كاملا . » وبذلك أصبح تأييد الروسيا الثورية للقوميين الآسيويين علنياً* .

وأهم من تلك القوة المضاعفة التى تلقتها الحركات القومية ، ذلك التغيير الذى ألم بالفكرة القومية فى حد ذاتها ، وهو تغيير ينبغى أن ينسب قبل كل شىء لمبادئ الثورة . فقبل ثورة أكتوبر ، كانت حركات التحرير فى الهند والصين حركات تحررية كما كانت سياسية بحتة . وكانت المسألة المتنازع عليها مجرد خلاف على التحرر من قبضة السيطرة الأجنبية . وكان مثل ذلك المحتوى السياسى الذى كانت الحركات القومية تنطوى عليه قائماً على التحرر البرلمانى وعلى نظام الحكم التمثيلى . فلم يكن لتلك الحركات أى هدف اجتماعى ولا اقتصادى محدد ، وكانت من حيث هذا المعنى غامضة مبهمة ويوتوبية خيالية . على أن الثورة الروسية غيرت من ذلك كله ، وكان ميثاق سان من تيشو الأول ، وهو مبادئ الشعب الثلاث ، وإن بدا مضطرباً مبلبلا ، يصوغ مبدأ اقتصادياً ، الفكرة الأساسية فيه هى أن الأرض لحارثها . ووضع حزب المؤتمر الهندى على رأس برنامجه مبدأ « إلغاء النجاسة** » وهو فى حد ذاته إجراء ثورى له أهمية هائلة . ثم إن الحركات القومية كانت أيضاً تجعل « التخطيط » أساساً لتفكيرها . ولاشك أن ما أحرزته برامج الخمس السنوات المتعاقبة كان يمنح جميع الأقطار الآسيوية قوة دافعة تبعثها على تنظيم اقتصادها من أجل الإنتاج إبتغاء إخراجها من نطاق الأنظمة الاستعمارية التى جعلتها ضعيفة مضطربة النظام ومعتمدة على الغير . وكانت نقطة مهاجمة الغرب هى النقطة التى تمسه أكثر من غيرها — وهى دائرة الحياة الاقتصادية . ذلك أن الدول

---

* عندما وصل يورين المبعوث السوفييتى إلى بيكين للتفاوض بالنيابة عن هذه الجمهورية القصية الشرقية واستئناف العلاقات الاقتصادية معها ، وعقب ذلك أن الحكومة الصينية سحبت اعترافها بالدبلوماسيين القيصريين ، بعث الرئيس ولسون بتحذير شديد للصين وأشار إلى أن ذلك العمل ربما أفقدها صداقة دول أخرى .

** هى نجاسة طبقة المنبوذين ببلاد الهند . (المترجم)

الآسيوية لم تعد تقنع بأى حال أن تكون أسواقاً للصناعات الأوروبية ؛ والطريقة التى تمكنت بها بلاد متأخرة كالروسيا فى مدى بضع سنوات من الإنتاج المخطط من التحول إلى قطر قائد وزعيم فى الميدان ، ملأت شعوب آسيا أملا فى أن تبعث صناعياً وأن تستقل اقتصادياً .

ثم إن السيطرة الفكرية التى ظل الغرب ينعم بها أمداً طويلا قد قوضت هى الأخرى تقويضاً فعالا بفضل الثورة الروسية . فقد حدث أثناء العقدين الأولين من القرن العشرين أن كان الأدب والفكر الإنجليزى يحظيان بنفوذ هائل قوى على الحياة الفكرية بالهند والصين وأقاليم الجنوب الشرقى من آسيا . ولقد كان صوغ العقل الآسيوى إبان النصف الثانى من القرن التاسع عشر والعشرين السنة الأولى من القرن العشرين أمراً انفردت به أوروبا وأمريكا انفراداً تاماً أو يكاد . فالكتب التى كانت تقرأ والأفكار التى كانت تجد لها صدى فى العقول الآسيوية والمثل التى كانت تلهمها كان منشؤها الأصلى هو الغرب . وكان أوسع الكتاب انتشاراً وأحظاهم بإقبال القراء فلاسفة من أمثال ديوى وبرتراند رسل وبرجسون وكروس ، ومفكرون سياسيون من أمثال لاسكى وكول ، وقادة فكر أمثال شو ودانونزيو وأناتول فرانس وبيراندللو . حتى إذا انتهت العشرونات ، إذا بحركات جديدة قد بدأت فى التطور بآسيا عاكسة الاتجاهات الثورية التى كان مصدرها الروسيا . ولم تعد الكتابات التقدمية مجرد (موضة جديدة) فحسب ، بل وأيضاً حركة — وبظهور لوهسون فى الصين وبريم تشاند بالهند يمكن أن يقال إن سلطان الآداب الغربية الذى دام قرناً كاملا يريم على الشرق قد خفق نجمه وانتهى — فلم يعد كتاب العقدين الأخيرين مثل ماوتونج (شن ينج بنج) وكيو موجو وغيرهما بالصين ، وچوش ماليا تشادى وكريشان تشاندر وغيرهما بالهند واقعين تحت تأثير الغرب السحرى ، على حين أن معظم الكتاب والشعراء ممن هم دون الأربعين ، كانوا متصلين فى بعض أزمان من حياتهم اتصالا وثيقاً بالكتابات التقدمية .

فأما أن الثورة الروسية عجلت من نبضات الشعوب الآسيوية فأمر لا ينكره أحد . وأما أنها ساعدت أيضاً على إيقاظ الجماهير وعلى خلق الشكوك فى عقول

المفكرين من الناس حول صحة أشياء كثيرة كانوا يتقبلونها من الغرب دون أى تشكك ولا تساؤل ، فأمر أيضاً لا سبيل إلى الشك فيه . ولا سبيل بالمثل إلى إنكار أن تأثيرها العام كان إضعاف قبضة الغرب على شعوب آسيا . على أن هناك نقطة هامة تتجاوز بنا هذه المجالات جميعاً : هى أن تأثيرها فى الناس كان متفاوتاً . فبلاد مثل الهند تمت فيها إلى حد ما إعادة التنظيم الاجتماعى وتحطمت فيها التقاليد القديمة الموروثة نتيجة لمائة سنة من الإصلاح ، لم تكن لرسالة الثورة الروسية نفس قوتها فى الصين والهند الصينية ، حيث حدث نتيجة للعوامل التاريخية التى سبق تحليلها ، أن الغرب لم يفعل شيئاً إلا أن قوض المجتمع القديم دون أن يساعد على ابتناء شىء ما يسد مسده . وقد تمخض عدوان الحركة التبشيرية الذى سلط على الصين عن فوضى اجتماعية ، كانت نتيجتها أن ضعفت القيم الموروثة فى العقيدة الكونفشيوسية ، فضلا عن سلطان الديانة البوذية . ولم يكن للتعليم الذى تقدمه المدارس الأجنبية من أثر إلا زيادة الحال سوءاً ، ولم تقم فى المجتمع الصينى أية حركة إصلاحية مناهضة للإصلاح كالتى ظهرت فى الهند . من أجل ذلك كانت الفوضى الاجتماعية والأخلاقية التى نجمت عن ذلك تربة صالحة تزكو فيها مبادئ الثورة الروسية ويتكون لها فيها سلطان قوى أخفقت دون الحصول على مثله بالهند . أما أقطار كبلاد إيران والأفغان تماسك فيها البناء الاجتماعى مهما يكن رجعياً ولم يتعرض لنفس المؤثرات القوية التى تعرض لها بالصين والهند ، فإن سلطان تلك المبادئ الشيوعية كان أقل أو يكاد . وهكذا نجد بين أيدينا ظاهرة هامة هى أن الشيوعية تتقدم لتملأ فراغاً بالصين وأنام ، على حين أن الهند التى ملئ الفراغ بها أصلا بفضل إعادة تكييف المجتمع جزئياً وإصلاح الدين ، لم يكن الفكر الشيوعى فى جل شأنه بها ، إلا مظهراً لتطور فكرى ساعد على إبعاد قبضة الغرب على البلاد . وأخيراً كان الذى حدث فى الأقطار المستقلة مثل إيران وأفغانستان وسيام التى لم يسلط على نظمها أى عدوان اجتماعى ولا دينى ، أن الفكر الشيوعى لم يفلح فى جملة أمره فى أن يلقى أى قبول من الناس .

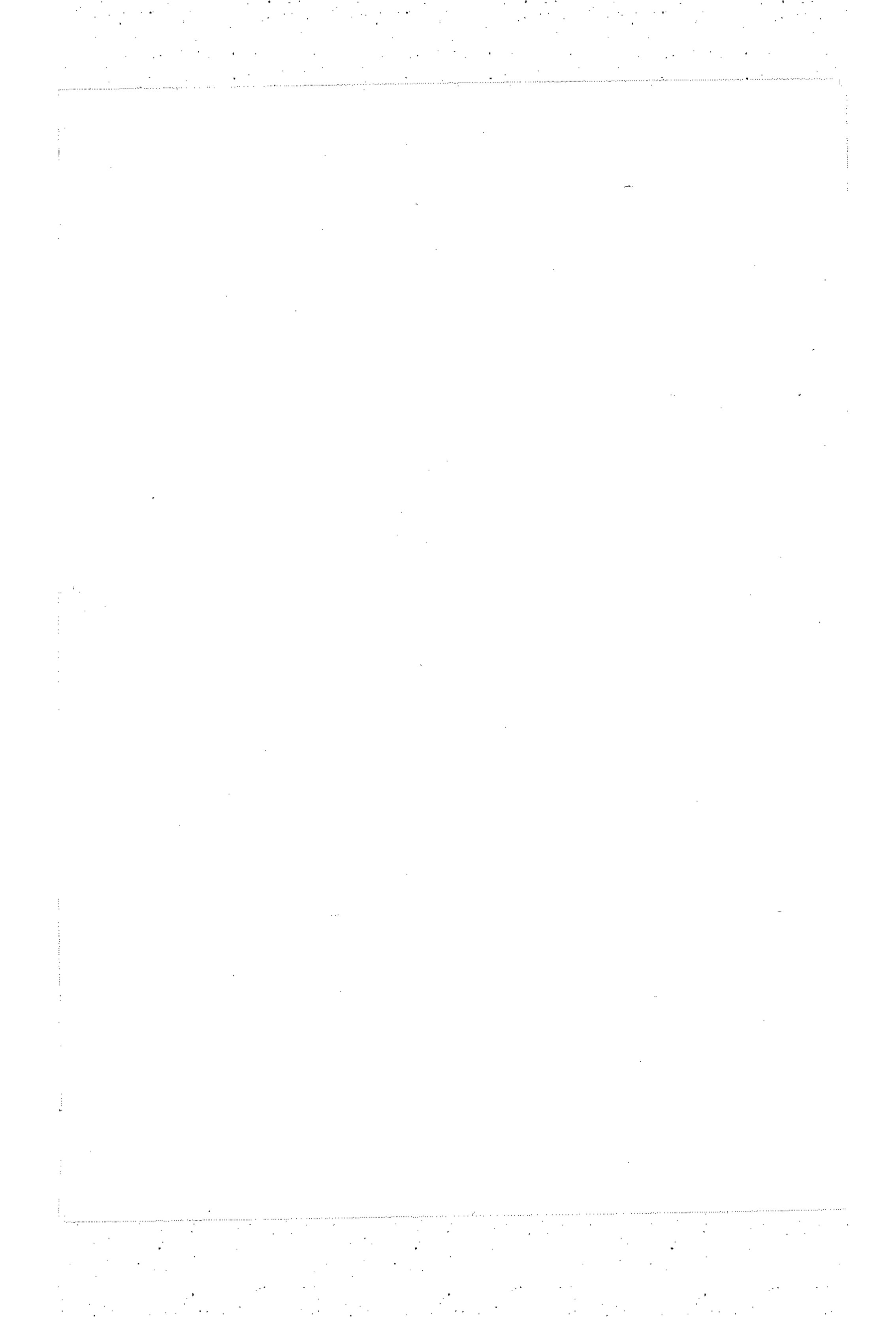
أما اليابان فتقف موقفاً مختلفاً تماماً : ذلك أن ثورة أكتوبر أحدثت فى اليابان أعظم الجزع بدل أن تخلق فيها بوادر الرجاء . فلقد انضمت اليابان إلى مصاف

« المعتدين » ، وكان من الطبيعى أن تتركز مصلحتها فى أن أية ثورة تحدث بآسيا على الغرب ينبغى أن تنحصر فى حدود المطالبة بالاستقلال القومى ، لا أن يكون الهدف منها إحداث تغييرات جذرية فى صميم المجتمع . من أجل ذلك كانت الثورة الروسية بما قامت عليه من محبة البروليتارية وبما تضمنته من تشجيع فعال للطبقات المستغلة تهديداً لليابان بقدر ما هى تهديد للأمم الغربية . ولذلك كانت من أعلى الناس صوتاً فى المطالبة بالتدخل فى الروسيا ، وحاولت بغير نجاح أن تفصل سيبيريا الشرقية عن ممتلكات السوفييت . وعلى حين أن الأقطار الأسيوية الأخرى حتى أشدها محافظة ، كانت تأمل أن تجد فى الروسيا حليفاً قد يكون عوناً لها فى كفاحها مع الغرب ، فإن اليابان كانت ترى فيها أخطر عدو لعظمتها القومية . فهذا الشعور بالإضافة إلى إحساسها بالظلم الذى لحقها على يد بريطانيا وأمريكا ، هما اللذان أجبراها أن تنضم إلى ألمانيا وإيطاليا فى الحلف المناهض للشيوعية الدولية .

القسم الخامس

أوربا تتراجع

١٩١٨ – ١٩٣٩



الفصل الأول

الحرب الأهلية الأوربية وآثارها

كانت الحرب العظمى ١٩١٤ – ١٩١٨ تعد فى رأى آسيا حرباً أهلية نشبت بين العناصر المكونة للمجتمع الأوربى . وكانت مشاركة الأقطار الأسيوية فيها مشاركة مباشرة أثناء بعض مراحل ذلك الصراع ، نتيجة للدعوة والتشجيع اللذين صدرا عن فريق من المشتبكين فى تلك الحرب وهم دول الاتفاق الودى ، كما أنها كانت موضع الاستياء الشديد من الألمان . ومن الضرورى أن نؤكد اتصاف الصراع الأوربى بهذه الصفة الداخلية ، ليتسنى لنا إدراك أهميته التامة فى تطور الأحداث بآسيا .

وقد سبق أن أشرنا إلى أن الأمم الأوربية كانت عند مستهل القرن العشرين . تنعم فى حلل من الرخاء والهيبة السياسية لم يسبق لها مثيل وتعيش مقتنعة اقتناعاً لا سبيل إلى زلزلته بأنها قد ورثت الأرض ، وأن سيادتها فى آسيا سرمدية ، بل إنها شىء يقارب فى نفاذه أمر الله المقدور منذ الأزل . كان ذلك العصر عصر كپلنج وعصر عبء « الرجل الأبيض » ، عصر لاح فيه بجلاء أن المقادير قد خطت للرجل الأبيض أن يضرع الشرق جاثياً أمامه . ومع أن البناء كان يبدو منيعاً لا سبيل إلى ثلمه ، فقد ظهر به بالفعل عيبان أو ثغرتان . وكان أول هذين العيبين مطامع غليوم الثانى إمبراطور ألمانيا فى الحصول على مركز له تحت الشمس الأسيوية . وظهرت بين الدول الاستعمارية خلافات ومنافسات لم توجد قط من قبل – يوم كان سلطان بريطانيا فى الشرق لا يكاد ينازعه منازع . وكان الهدف الأعظم الذى لاح أن قطوفه دانية وتحقيقه موشك أن يقع ، هو اقتسام الصين أو على الأقل تقسيمها إلى مناطق نفوذ لولا أن قيض الله لها فسحة طيبة بل حاسمة من وقت تسترد بها عافيتها يوم أن اصطكت المنافسات بين التوسعيين سواء منهم الطامع فى الأرض أم غير الطامع . وكانت أمريكا تمثل التوسع الاستعمارى غير الطامع فى الأرض وكانت تنكر فى ذلك الحين كل مصلحة توسعية أرضية ولا تشغل نفسها إلا بسياسة اكتساب أعظم الغنم من الامتيازات الممنوحة للآخرين ، كما كان من

المتعذر التوفيق بين مدعياتها ومطالبها وبين اقتسام الصين بين الدول . لذلك كان النظام كله يحس بعنت شديد من الضربة المزدوجة التى يوجهها الاستعماريون الوافدون حديثاً وهما ألمانيا واليابان ، اللتان كانتا ترغبان فى وضع أيديهما على مناطق من الأرض ، وتكيلها أمريكا التى كانت ترغب فى أن تظل جميع أجزاء الصين مفتحة الأبواب أمامها على السواء .

وكانت الثلمة الثانية فى السيادة الأوربية نمو قوة اليابان وظهورها كدولة عظمى فى الشرق الأقصى . وقد أعلنت اليابان منذ ١٨٩٥ أنها تريد أن تكون فى مصاف الدول الأوربية ، أى أنها ستتبع فى الواقع سياساتهن نفسها وتتوقع أن تعامل نفس المعاملة التى تعامل بها تلك الدول . ومع أن اليابان تكون قد انضمت شكلا بذلك إلى القوى المتكتلة على الصين ، إلا أنه لم يكن خافياً منذ البداية أنها إنما كانت تستخدم جهاز التكتل الدولى الأوربى على الصين بقصد تكبير شأنها رامية بذلك إلى إبعاد النفوذ الأوربى كلما أمكن ذلك عن الشرق الأقصى .

وكانت النتيجة المباشرة للحرب الأوربية إحداث صدع لا سبيل إلى رأيه فى تماسك الغربيين بآسيا . وغنى عن البيان ، أن مسرح الأحداث الأكبر فى ذلك الأمر كان بلاد الصين . ومع أن الصين طالبت فى ٣ أغسطس سنة ١٩١٤ منذ مستهل الأمر باحترام حيادها ولا تقوم أية حرب على الأراضى الصينية المؤجرة للأجانب ، إلا أن استهانة الدول أبت عليها إلا أن تهمل ذلك الطلب ، وإلا أن ترفض احترام سلامة أرضها . فنزلت على الأراضى الصينية قوة يابانية تعاونها سرية بريطانية ، فهاجمت تسنجتاو وأخضعتها واستولت على شبه جزيرة كياوتشاو . وسنبحث فى موضع آخر المسلك الشاذ الذى سلكته السلطات اليابانية والمطالب الإحدى والعشرين التى طلبتها من الصين ، بيد أن النقطة التى نرى من الضرورى أن نؤكدها هنا هى أن دولة أسيوية استطاعت بذلك العمل لأول مرة فى التاريخ أن تطرد دولة أوربية عظمى وأن تبعدها إبعاداً نهائياً عن كل نفوذ فى الشئون الأسيوية ، وتم ذلك بمساعدة فعالة من بريطانيا ، التى كان قائدها يحارب تحت رياسة قائد عام يابانى هو الجنرال كاميو .

ومن ناحية ثانية ، حدث بمضى الزمن وزيادة الموقف الحربى حرجاً على حرج ،

أن حرضت بريطانيا وفرنسا الصين بذريعة أوأخرى تذرعتا بها — وقد أعماهما الغضب الشديد على ألمانيا — فقامت حكومة الصين متكرهة بالاستيلاء على الممتلكات الألمانية والقضاء نهائياً على النفوذ الألمانى ببلاد الصين . وكانت بريطانيا بوجه خاص شديدة الاهتمام بالاستيلاء على السفن الألمانية المحجوزة بالموانى الصينية . وتحت ضغط الفرنسيين أوقفت جميع الصناعات الألمانية بالصين وأغلقت جميع المصارف والبيوت التجارية والمشروعات الألمانية . فسحبت الصين جميع ما منحت من أرض وامتياز ، كما ألغت كل ما للألمان من امتيازات قضائية . وبذلك تأسست للصين سابقة كانت لها قيمة كبرى فى المستقبل . وأخيراً شجعت الصين على إعلان الحرب على دول الوسط .

وفى ١٩١٤ يوم وصل المغيرون الألمان إلى نهر المارن ، دفعت فيالق من الجيش الهندى تحت قيادة بريطانية إلى فرنسا على عجل وساعدت فى اللحظة الحرجة على إيقاف زحف السيل الألمانى . ثم استخدمت تلك القوات بوفرة فيما بعد ؛ فى الدفاع عن قناة السويس والشرق الأوسط وفى حملات أخرى جُردت بمواطن أخرى فى إفريقيا . وفى ١٩١٧ أعلنت سيام الحرب على ألمانيا . وجمعت حشود هائلة من عمال الهند الصينية وأخذت للعمل على الأراضى الفرنسية . وفى ١٤ أغسطس ١٩١٧ انضمت الصين أيضاً إلى الحلفاء . وبذلك أدخلت جميع شعوب آسيا فى حومة الحرب الأهلية الأوربية . ومع ذلك فإن الرأى العام بالهند والصين بل حتى اليابان كان فى ذلك الحين أميل إلى الألمان منه إلى الحلفاء . بل الواقع أن الهند كافة عدا الحكام من أمرائها لم يكن يداخلها أى شعور بالعطف على بريطانيا ، كما أن الرأى العام كله كان يغتبط لكل بلاغ يسجل للألمان نصراً ويبتئس كلما كسب الحلفاء . ولم تعلن الصين الحرب إلا مع أعظم التكره وإلا ابتغاء غرض خاص محدد هو القضاء على خطط اليابانيين العدوانية . وفى اليابان نفسها كان الشعور ضد الحلفاء بعد حملة شانتونج بارزاً أشد البروز ، وسلطت على بريطانيا حملة صحفية شعواء فى نهاية ١٩١٦ . إذ الواقع أن الأقطار الأسيوية وإن قاتلت فى صف الحلفاء ، إلا أن الرأى العام ببلاد الشرق كان يعتبر ذلك الصراع حرباً أهلية لم يكن لأحد الطرفين المتنازعين فيها حق فى صداقة شعوب آسيا ، وإذا كان فى إمكان

أى طرف منهما أن ينشد العطف من الأسيويين ، فذلك الطرف هو الجانب الألمانى وحلفاؤه ، وهو الذى لم يكن له أية سوابق قديمة ولا تقاليد فى فتح آسيا ، كما أنه كان متحالفاً مع الدولة الإسلامية الكبرى : تركيا .

ولكن كانت لمساهمة الشعوب الأسيوية فى الحرب عواقب بعيدة المدى . وقد قرر اسكندر ڤارنّ الحاكم العام الاشتراكى للهند الصينية آثار هذه المشاركة على النحو التالى فى خطاب له إلى الشعب الأنامى ، قال : « إن الحرب التى ضرجت وجه أوربا بالدماء قد أثبتت أن لشعوب الدنيا آمالا أخرى تتجاوز سلامة البدن وعافيته. أجل ، لأن الحرب قد أيقظت فى أراض سحيقة البعد عنا وفى مناطق بعيدة عن منازعاتنا السياسية ، شعوراً قوياً بالاستقلال . وقد دخل هذا الشعور حدود العالم القديم . أجل ! ذلك لأن الشرق الذى ظل زماناً طويلا مغلق الأبواب دون الغرب ، ذلك الشرق الذى استكشفه المستكشفون الأوربيون وعبروا البحار ليلقوا عليه نظرة متفرّسة ، هذا الشرق قد عبر الآن البحار لينظر إلينا ويغوص فى أسرار أوربا مستجلياً . . . أجل ، لأن كل شىء قد تغير فى السنوات القليلة الأخيرة . لقد تغير الناس والأفكار بل أسيا نفسها تغيراً تاماً » .

ولا شك أن هذا صدق صراح . فالجندى الهندى الذى قاتل فى معركة المارن كان يعود إلى الهند بفكرة عن الصاحب تختلف عما لقنه أثناء أجيال متعاقبة من الدعاية الرسمية . وعادت قوة عمال الهند الصينية إلى بلادها من جنوب فرنسا تحمل أفكاراً عن الديمقراطية والمبادئ الجمهورية لم يكونوا يعتنقونها من قبل. ومن الصينيين الذين ذهبوا إلى فرنسا فى ذلك الوقت شاب اسمه تشو إن لاى ، فأقام بها طويلا واعتنق المذهب الشيوعى حتى اضطرت الحكومة إلى إبعاده للنشاط الذى مارسه بين أعضاء فيلق العمال الصينيين .

وأهم من هذه المؤثرات جميعاً أن الإدارة الفرنسية والبريطانية بآسيا اضطرت أن تلجأ إلى رعاياها التماساً لتأييدهم الأدبى . وذلك أن دعوة الهنود والصينيين إلى الاشتراك فى قروض الحرب للدفاع عن الديمقراطية وللحيلولة دون وقوع العالم تحت براثن « الثقافة ! ! » الألمانية ، كان يعد سخرية عجيبة وصفيقة إذا لم تصحبه وعود بمنحهم الديمقراطية وإباحة الحرية لثقافاتهم . وعندما حدث فضلا عن المساهمة فى

* مقتبس فى « آسيا الفرنسية L'Asie Française » ص ص ١٠٨ — ١١٣ .

قروض الحرب ، أن دعى أهل الهند والهند الصينية بإلحاح وضغط إلى الإنخراط فى سلك الجندية لإنقاذ الديمقراطية ، كان التضارب فى الموقف شديد الوضوح حتى لدى أرباب الإدارة من المستعمرين . وأعلن زعماء الحركة الوطنية بالهند صراحاً أن الاتفاق مقدماً على المسائل السياسية كان ضروريا قبل أن تعد المعاونة فى الحرب بنداً من بنود المنهج القومى .

ومن الناحية السياسية حل بمركز الاستعمار والتوسع الإمبراطورى ضعف آخر عندما أعلن الرئيس ولسن نقاطه الأربعة عشر . فإن مبدأ « تقرير المصير » كان له فى ١٩١٧ دوى كأنما هو وحى جديد أنزل من السماء . ومهما تكن آثاره على القوميات المكبوتة بأوربا ، فقد هلل له الناس بآسيا بوصفه مبدأ للتحرر والخلاص. ولما كانت كل دولة من دول الحلفاء قد سارعت إلى التعبير عن إيمانها بمبادئ ولسن الجديدة (التى لم تلبث أن رُفعت إلى منزلة « هدف الحرب » المعترف به من الجميع أثناء حملة الدعاية الموجهة ضد الألمان) ، وجدت الدول الاستعمارية أن من العسير عليها أن تعارض جهاراً أو تقاوم علناً مدعيات الشعوب الأسيوية المؤسسة على هذه المبادئ . وصار من الصعب إعلان حق تقرير المصير كمثل أعلى عظيم القدر ينبغى على الشعوب الأسيوية أن تعمل على تأسيسه ببذل تعاونها مع الأوربيين والقتال فى صفهم وفقدان الحياة فى ميادين قصية للقتال ، ولكنها مهما يكن من حسنها مبادئ لا يمكن تطبيقها عليهم . وبذلك استدعى الموقف أن يقبل الأوربيون مبدأ الحكم الذاتى للأقطار المستعمرة ، ولم يعد من الممكن تجاهل المطالبة به بحجة سبقه للأوان المناسب أو وصمه بتهمة الغواية والتغرير .

وكان لمبدأ تقرير المصير ببلاد الصين حقل فسيح جاهز دانى القطوف لتطبيق الناجز . ذلك أنه فضلا عما أنزل بها من عجز نتيجة للمعاهدات غير المتكافئة ، كانت هناك مناطق يمارس فيها الأجانب التشريع . وكان احتفاظ اليابان بكياوتشاو ، خرقاً واضحاً لمبدأ تقرير المصير . وكانت القيود والحدود المضروبة على الجمارك ومناطق الامتياز العديدة بالموانى ، والاحتفاظ بالقوات الأجنبية على الأراضى الصينية أموراً تتنافى وتقرير مصير الصينيين .

وبغض النظر عن هذه الاعتبارات السياسية ، كانت بعض العوامل الاقتصادية التى أنتجتها الحرب تعمل أيضاً عملها فى تقويض سيادة الغرب . واستخدمت اليابان

فرصة السنوات الأربع للحرب لتنفيذ خطتها فى توسعة تجارتها فى الشرق ، خاصة وقد أزيلت المنافسة الألمانية . وذلك على حين أن اشتغال بريطانيا وفرنسا فى كفاح طاحن استلزم الحال فيه توجيه مواردهما بأجمعها نحو إحراز النصر ، قد ترك الميدان مفتوحاً إلى حد ما . وفازت الهند بأول بداية عظمى لها فى طريق الصناعة ، كما أن رأس المال الهندى القومى أوتى فرصة لاكتساب شىء من الغنم بسبب إرهاق الاقتصاد البريطانى أثناء الحرب . والواقع أن النتائج الكاملة لإضعاف رأس المال الأوربى لم تتضح تماماً إلا بعد أن وضعت الحرب أوزارها ، يوم تحدت أمريكا عزة لندن وسؤددها ، وعندما شرع رأس المال البريطانى وإن لم يبرح صلباً قوياً ، يتخذ خطة الدفاع ببلاد الهند . ولا شك أن نمو جهود الرأسماليين بالهند وتطور الصناعات وزيادة إسهام رأس المال الهندى فى ميادين كانت حتى آنذاك حكرا فى أيدى البريطانيين ، كصناعة الجوت مثلا ، قد نتجت كلها بصفة مباشرة عن ضعف المركز الاقتصادى لبريطانيا .

وثمة نتيجتان عامتان أخريان يمكن الإشارة إليهما . وأولى هاتين النتيجتين هى نمو حركة قوية لليساريين بأقطار أوربا الغربية كان لها أثر مباشر فى صوغ الظروف فى الإمبراطوريات القائمة فى الشرق . وقد كان حزب العمال البريطانى فى أثناء فترة نموه على اتصال وثيق بالحركة القومية بالهند . بل الواقع أن رامساى ماكدونلد زعيم الحزب الاشتراكى بعد الحرب ، كان من نصرائها منذ الساعة الأولى . وبالمثل عملت القومية الأنامية يداً بيد مع أحزاب اليسار بفرنسا . ففى الفترة التى عقبت الحرب مباشرة أصبح لتلك الأحزاب نفوذ ضخم فى الشئون القومية ، كما أنها كانت عارمة الأثر فى تنفيذ سياسات عادت بالتفكك على الروابط القديمة للسيطرة السياسية كما سنرى فيما بعد .

وكان العامل الثانى بطبيعة الحال هو الثورة الروسية التى سبق أن عالجناها فى فى موضع آخر . وحسبنا هنا أن نقول إن ثورة اكتوبر كنتيجة من نتائج الحرب العظمى ، قد أفرغت محتوى جديداً فى المبادئ التى قبلها الحلفاء جميعاً أهدافاً لهم . فقد أصبح للتوسع الإمبراطورى معنى جديد مختلف تمام الاختلاف بعد أن أعلن لينين أنه المرحلة النهائية الأخيرة للرأسمالية ، وبعد إصراره على أن تحرير الشعوب

المحكومة من براثن السيطرة الاستعمارية إنما هو جزء من الكفاح ضد الرأسمالية .
ولا تنس أيضاً أن دعوة الروسيا إلى المساواة العنصرية بل وممارستها لها ، وإلغاءها الامتيازات التى كانت روسيا القيصرية قد حصلت عليها فى إيران والصين ، وتقبلها بالرضا فى ثنايا الفورة الأولى للحماسة الثورية استقلال الأقطار التى كانت ملحقة قبل ذلك بروسيا ، قد جعل من العسير على الشعوب الغربية التى طال ادعاؤها مناصرة الحرية والتقدم ، أن تنكر على الشعوب الشرقية مطالبها .

وختام القول ، إن الحرب قد نشطت من سرعة الحركات فى كل صقع من أصقاع الدنيا . مثال ذلك ما حدث بالهند ، حيث تحولت الحركة التى كانت مقصورة فى ١٩١٤ على الطبقة الذكية المفكرة إلى حركة جماهير حاشدة هائلة النسب والقوى فى ١٩١٩ . وكان الحال واحداً فى كل مكان . فإن سرعة الحوادث قد اكتسبت قوة دفع لم يتوقعها إلا قلة ضئيلة ولم يتنبأ بها أحد مطلقاً فى ١٩١٨ . وكانت الحرب فى حد ذاتها بذلك المعيار العالمى الهائل الذى دارت عليه رحاها فى ١٩١٤ — ١٩١٨ ثورة عالمية عظمى ، كما أن هوة سحيقة لا سبيل إلى اجتيازها قد فغرت فاها بين الأيام السابقة على أغسطس ١٩١٤ والأيام التى عقبت ١١ نوفمبر ١٩١٨ .

وهناك حقيقة تبرز بمفردها جلية ناصعة وتوضح تلك الهوة التى حدثت فى الفكر ، وهى إنعدام الإيمان بالمثل العليا للتوسع الإمبراطورى أثناء الفترة التى عقبت الحرب . وفيما عدا تشرشل وحده دون غيره ، لم يكن هناك شخصية بارزة واحدة فى أى حزب من الأحزاب البريطانية تعتقد برسالة الرجل الأبيض فى الحكم . وجاء على الهند عدة نواب ملك متعاقبين . منهم من كان من الأحرار ، ومنهم من كان من المحافظين ، ومنهم من لم يكن ينتمى إلى حزب من الأحزاب ، ولكنهم كانوا جميعاً يعلنون على الملأ تمسكهم بمناصرة قضية الحرية فى الهند . وكان وزراء متعاقبون ابتداء من أدوين مونتاجو (١٩١٧ — ١٩٢٢) إلى پثيك لورانس وفيهم نخبة من عتاة المحافظين مثل السير صامويل هور (اللورد تمبلوود) ، يدعون أنهم يعملون من أجل حرية الشعب الهندى لا من أجل استمرار الحكم البريطانى . وكان الفرنسيون دون أدنى ريب أشجع فيما قالوا من كلم ، ولكن الثقة ولت منهم أيضاً .

ولم يتجل ذلك أشد وضوحاً كما تجلى فى معاملة الصين . فإن أحداثاً كانت فيما سلف تعالج بعنف وشدة ، وكانت تفرض من أجلها التعويضات وتستقطع الأراضى ، لم تكن تقابل الآن إلا باحتجاج فاتر . واحتلت جيوش تشيانج كاى شاك مناطق الامتياز المحتلة بهانكاو ، كما تعرضت هونج كونج عدة شهور لمقاطعة تجارية شديدة ؛ ولم تكن هذه الأحداث لتقابل قديماً إلا بالمبادرة بإجراء مظاهرة بحرية عاتية . وكانت بريطانيا فى ١٩٢٦ من طول الصبر بحيث تهيأت للمفاوضة. وحتى « قدامى من عملوا بالصين » ، الذين كانوا يرقبون بعين الأسف أفول النفوذ الأوربى على حين بغتة ، كانوا وإن صعروا خدهم صلفاً داخل أنديتهم — لايشعرون جدياً بحال أن هناك أملا فى إمكان إعادة إقرار سلطان الغربيين بالصين باستعمال زوارق المدفعية. لم يعد هناك من يعتقد فى قرارة نفسه بتفوق الأوربى ولابنفاذ بصيرته .

الفصل الثانى

الهند

إن الفخامة ومراسم الأبهة التى أقامها الديوان الإمبراطورى العظيم بمدينة دلهى التاريخية فى أثناء الاحتفال بتتويج الملك چورچ الخامس تسجل الذروة القصوى لسلطان البريطانيين بالهند . عقد الحفل فى قاعة الاستقبال العظمى لشاه جيهان بين ملابسات تهادى فيها أبهة الهند وفخامتها ، وتلقى الملك جورج بوصفه إمبراطوراً ولاء كبار الأمراء والأقيال وخضوعهم . ووقف أحفاد البيوتات الشهيرة قطيناً وحشما للملك والملكة . وكان الحكام الهنود يحسون فخاراً ما بعده من فخار أن يكونوا أركان حرب لجلالته . وكانت كل الدلائل تشهد باستحسان الجمهور ، فلم يسمع صوت واحد ارتفع بالاحتجاج . والحق إن تلك المناسبة كانت مظاهرة كبرى لقوة الإمبراطورية البريطانية وهيبتها . ومع ذلك فإن التصريحات التى أعلنت فى ذلك الديوان كانت تشتمل على مادة تدل على أن المسئولين قد خضعوا للشعب. فقد ألغى فيه تقسيم البنغال ، وكان أروع عمل نتج عن سياسة اللورد كيرزون ، هو التقسيم الذى قام ضده الأهلون باضطرابات لا تنقطع . وقل من الناس الذين شهدوا ذلك الحفل الجليل من أدرك ، أن شمس السلطان البريطانى قد نزلت عن أوجها فى ذلك اليوم ، وأنه لن تنقضى خمسة وثلاثون عاماً حتى تنزل راية بريطانيا عن تلك القلعة .

على أن ظهور شىء يذكر الناس جميعاً بتغير الأحوال لم يتأخر طويلا . فلم تنقض بضعة شهور ، عندما نقل نائب الملك اللورد هاردنج مقر الحكومة من كلكتا إلى دلهى ودخل المدينة فى موكب رسمى فخيم ، حتى ألقيت عليه قنبلة قذفها ثورى بنغالى هو راش بهارى بوز ، ثم فر ولجأ إلى اليابان بعد ذلك وعاش بها وانضم إلى « حكومة الهند الحرة » المؤقتة التى أنشأتها اليابان أثناء الحرب العالمية الثانية . وعندما نشبت الحرب فى أغسطس ١٩١٤ ، كانت الهند هادئة نسبيًّا . ولكن عندما تطورت الحرب وأصبحت آثارها المحتملة أكثر وضوحاً للأعين ،

اشتد الحاح الشعب على المطالبة « بالحكم الذاتى » السريع كما كان يسمى . وبلغ الأمر فى ذلك ، أن وزير الهند المحافظ اوستن تشمبراين نفسه ، اضطر أن يعترف بموافقته بأنه قد آن الأوان لإجراء تقدم سياسى ضخم فى البلاد . وألم بالفكر السياسى الإنجليزى حول الهند هو أيضاً تغيير ضخم فى ذلك الوقت . فقد ذهب ليونيل كيرتس فى وثيقة سياسية خطيرة جعل عنوانها « خطابات إلى الشعب الهندى فى الحكومة ذات المسئولية » ، إلى أن الديمقراطية البرلمانية ذات الحكومة المسئولة كانت سبيل التطور الوحيد للهند ، ومن ثم وجب أن تكون الخطوة التالية إدخال المسئولية لدى ذلك الشعب فى أمور بعينها محددة أدق التحديد داخل الولايات . وأصدرت الحكومة البريطانية فى ١٩١٧ تصريحاً وضع أسس السياسة المتعلقة بالهند « فوصفها بأنها التطور التدريجى لنظم الحكم الذاتى الذى يرمى إلى تحقيق تدريجى للحكومة المسئولة بالهند بوصفها جزءاً لا يتجزأ من الإمبراطورية البريطانية .

وكانت فكرة الحكومة المسئولة نقطة ارتحال جديدة ، ولكن ينبغى للقارئ أن يلاحظ أنها لم تكن إلا هدفاً بعيداً ، وأن العمل المقترح القريب التنفيذ لم يكن يتجاوز تطوير نظم الحكم الذاتى ، على شريطة أن ذلك أيضاً يكون تدريجياً . ولم يرض أحد بالهند بذلك الإعلان المعوق غير المتحرر كما أن الإصلاح المسمى باسم مقترحيه : « إصلاح مونتاجو وشلمسفورد » ، لم يلق إلا تأييدا شعبياً ضئيلا ، بعد أن أقره البرلمان ونفذته السلطات . ومع ذلك ففضلا عن الخصومة التى دارت حول الدستور كانت هناك ميادين أخرى تقدمت فيها الهند أشواطاً جديرة بالإعجاب فى ذلك الأوان . فضم وزيران هنديان إلى عضوية وزارة الحرب التى أنشأها لويد جورج بلندن. ودعيت الهند أيضاً إلى حضور جلسات المؤتمرات الإمبراطورية ، التى كانت عضويتها حتى ذلك الحين مقصورة على أعضاء رابطة الدول البريطانية الكومنولث ممن يستمتعون بالحكم الذاتى . وقد بلغ من ارتفاع شأوها دولياً ما أتاح لها أن تطالب لنفسها بمقعد فى مؤتمر الصلح وأن تجعل صوتها مسموعاً بقدر ما فى المسائل المتعلقة بمصالحها المباشرة .

وما أن وضعت الحرب أوزارها وكان الجمهور عامة غير راض عن مقدار الإصلاحات ، وكان المسلمون مستائين أشد الاستياء لقسوة شروط الصلح المقدمة

إلى الأتراك فى معاهدة الصلح ، اهتاج الجميع اهتياجاً قوياً فى الرأى مما أخاف السلطات فى إقليم البنجاب . فأعلنت حكومة الإقليم الأحكام العرفية واتخذت إجراءات شديدة جداً لإخماد ما اعتبر عصياناً وثورة . على أن شدة الإجراءات وخاصة مذبحة چاليان والاباغ ، لم تزد الشعب الهندى إلا غضباً وحولت الهياج إلى حركة قومية عظمى . وانزعج ضمير الشعب بإنجلترة نفسها لهذه القسوة المقترنة بالاستهانة . وفى تلك اللحظة بالذات والشعب الهندى يحس بمرارة المذلة فى مذبحة چاليان والاباغ تولى المهاتما غاندى قيادة البلاد وبدأ حركة عدم التعاون التى دعا إليها.

وكانت مُثل المهاتما غاندى بسيطة . فقد كان يدفع بأنه لما كان سلطان البريطانيين بالهند يقوم على تعاون جميع أهلها بمختلف طبقاتهم ، فإن سحب ذلك التعاون لا بد أن يفضى بالضرورة إلى انهيار تلك الحكومة . وقد أدرك المستر غاندى أن إقليماً يبلغ تعداده ٤٠٠ مليون من الأنفس يكون معنى الامتناع عن التعاون فيه أنه ينبغى أولا إيقاظ الشعب ؛ وثانياً أنه ينبغى لهم أن يحسوا باضطرار خلقى إلى العمل ؛ وثالثاً أنه ينبغى للحركة أن تنتظم تنظيماً قوياً وأن يحكم ضبطها وتؤسس على مبدأ يفهمه الجميع . وقد ادعى غاندى أنه اكتشف ذلك المبدأ فى سياسة المقاطعة * وألم الاضطراب الخطير آنذاك بالرأى العام الإسلامى لما بدا من جانب الحكومة البريطانية من اتجاه مثير إلى تقسيم الأراضى الأصلية للدولة التركية بين الحلفاء الغربيين ؛ كما أن الاضطرابات التى حدثت ابتغاء إعادة الخلافة إلى نصابها ، وهى الحركة التى كانت تناصرها العناصر المسلمة بالهند ، قد تقبلها المستر غاندى جزءاً من الحركة القومية .

ومرت حركة عدم التعاون بزعامة المستر غاندى فى مراحل ثلاث — الأولى عندما استحدث الحركة بالتحالف مع زعماء حركة الخلافة وجعل من الحركة اضطراباً شعبياً ذا قوة عارمة . وتم ذلك بين ١٩٢٠ — ١٩٢٤ . وبدأت الفترة الثانية بزحف الداندى وحركة مقاطعة الملح (١٩٢٩ — ١٩٣٢) . وكانت الحركة الثالثة حركة المطالبة أى حركة « غادروا الهند » فى ١٩٤٢ . وقد شهدت الحركة الغاندية نصرها النهائى فى ١٩٤٧ ، يوم غادرت بريطانيا الهند بمقتضى الاتفاقية

* المقاطعة Satyagraha

وختمت الفصل التاريخى الذى بدأ بمعركة بلاسى ١٧٥٧ .

وشهدت الفترة التى عقبت ١٩١٩ أيضاً تطور الحكومة الدستورية والبرلمانية ببلاد الهند . وجاءت إصلاحات مونتاجوشلمسفورد التى سلفت الإشارة إليها فأدخلت إلى البلاد الحكم البرلمانى مع قدر جزئى من المسئولية فى ولايات الهند . وهذا النظام المعروف باسم نظام الحكم المزدوج ، وضع فى أيدى الوزراء الشعبيين المسئولين أمام الهيئة التشريعية سلطة على مجال فسيح من الأشياء ، على حين أن « القانون والنظام » والمالية ظلت فى أيدى موظفين يعينهم البريطانيون . وقد رفض الرأى العام الهندى تلك الخطة ، بيد أنها نفذت فى كثير من المقاطعات على أيدى العناصر الموالية لبريطانيا . وبقيت البلاد تحت نظام الحكومة الثنائية حتى ١٩٣٦ ، ومع أنه لم يؤت نجاحاً سياسياً ملحوظاً بسبب معارضة المؤتمر وقلة حماسة الشعب ، فإن الفترة سجلت تقهقراً آخر عن موقف الإمبراطورية التوسعية * .

وفى الإمكان الإشارة بإيجاز إلى أهم مراحل هذا التراجع . وكانت أولى تلك المراحل الاتفاق على استقلال المالية الذى تعهدت الحكومة البريطانية فى لندن بموجبه بألا تتدخل فى المسائل المتعلقة بالأمور المالية بالهند متى كانت الهيئة التشريعية المركزية بالهند والحكومة المركزية على جانب الاتفاق . والتفسير المادى لهذا هو أنه لم يعد يسمح للمصالح البريطانية بأن تغلب المصالح الهندية فى البت فى سياسات الحكومة بالهند . وثم تقدم ثان أصابته المطالب القومية الهندية وتقهقر مقابل له للمصالح البريطانية هو قبول تطبيق مبدأ سياسة الحماية الجمركية والتمييز على أرباب الصناعة من الهنود . وقد اضطرت إنجلترة نفسها أن تتخلى كارهة عن سياسة التجارة الحرة وتبنت سياسة حماية خاصة بها . من أجل ذلك لم تكن تستطيع منطقياً أن تعتمد على حكومة الهند التى شرعت تعمل بسياسة ملؤها الحذر بغية حماية صناعاتها الناشئة . واستفادت صناعات الصلب والسكر والأسمنت والحرير بل حتى القطن بسياسة التعريفة الجمركية ، التى منحت الهند لأول مرة فرصة للتطور صناعياً . ومع ذلك فإن مصالح بريطانيا المكتسبة كانت من القوة

---

* انظر كتاب : « Working of Dyrachy in India » تأليف كيرالا بوترا (ك . م . بانيكار) بومباى ١٩٢٨ .

بحيث منعت فرض أى حماية على صناعة السفن .

وكانت أولى خطوات تخليص الروبية من هيمنة سوق لندن إنشاء المصرف الاحتياطى الهندى . ولاشك أن نمو التأمين الهندى وعمليات المصارف الهندية أثناء تلك المدة من الدلائل أيضاً على زيادة قوة رأس المال الهندى . وكانت مقاطعة البضائع الأجنبية التى دعت إليها حركة عدم التعاون واستخدمتها سلاحاً سياسياً نذيراً نبه تجار الأجانب الأوربيين إلى أن أيامهم بالهند أصبحت معدودة . وكانت نتيجة ذلك أن أبدى كل من رأس المال الهندى والبريطانى ميلا إلى التعاون فى نواح معينة محدودة . واضطرت حكومة الهند تحت ضغط الرأى العام أيضاً أن تبدأ سياسة تأميم السكك الحديدية . ولم تنقض عشرون سنة حتى آلت إلى الدولة جميع خطوط الهند التى تملكها الشركات البريطانية . وكان إبعاد رأس المال البريطانى من هذا المجال الضخم وإدارة الحكومة للخطوط تطورات ذات أهمية جسيمة لاشك فيها .

وفى ميدان الهيمنة التنفيذية أيضاً تقدمت الوطنية تقدماً متواصلا . فإن الجيش الهندى الذى كان ضباطه قبل الحرب العظمى من الإنجليز دون غيرهم قد أخذ يخضع ببطء للضغط وبدأ بعد الحرب سياسة منح رتب الضباط الملكية لطلبة المدرسة الحربية بعد فترة تدريب يقضونها بساندهرست . وكان « تهنيد » الجيش أحد مطالب الأحزاب المعتدلة جميعا ، ولذا نفذت خطة جعل الضباط جميعاً من الهنود فى عدد معين من الفرق كنتيجة لضغط البرلمان . فهذه المجموعة التى منحت براءات الضباط بعد الحرب العظمى الأولى هى التى تولت قيادة الجيش الهندى فى عهد استقلال الهند ، وأنشئت بحرية ملكية هندية فى ١٩٢٤ ، وشرع فى البدء بإنشاء قوة جوية منحت الهند فى كل منهما بضعة براءات ضباط . ومع أن القوات العسكرية كان العنصر البريطانى لايزال غالباً عليها غلبة تامة ، فإن الاحتكار الذى كان يقوم عليه السلطان البريطانى بالهند قد مزقته هذه الإجراءات تمزيقاً فعلياً .

وفى ميدان الإدارة المدنية ، تمكن الهنود ، بالضغط السياسى من الحصول على خمسين فى المائة من عدد الوظائف فى المناصب الكبرى . وقديماً طوّر البريطانيون جهازهم الإدارى على أساس بيروقراطية هندية ضخمة يقودها ويهيمن عليها ما

كان يسمى باسم الخدمات الرئيسية العليا : وهى الهيئة المدنية الهندية وهيئة البوليس الهندى الخ . على أن هذه الوظائف الرئيسية العليا التى كانت تنتقى عن طريق امتحان مسابقة يجرى بإنجلترة ، قد تمكن من الولوج إليها عدد من الهنود حتى فى العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر . بيد أن نسبتهم كانت ضئيلة . ولكن الذى حدث بعد الحرب هو أن امتحانات الخدمة العامة أصبحت تعقد هى أيضاً بالهند ، كما أن زيادة النسبة المئوية للمعينين فى الوظائف أنتجت فى صفة الحكومة تغييراً بطيئاً ولكنه هام .

وفى الحكومة المركزية كان من يمثلون الهند فيها بعد الحرب تصل نسبتهم بوجه عام إلى خمسين فى المائة ، وإن كانت الوظائف الكبرى فى وزارة الداخلية والمالية قد احتفظ بها للأوربيين . فأما فى الأقاليم فكانت النسب أعلى من ذلك أو تكاد بل لقد كانت وزارات المالية هناك أحياناً تسند إلى الهنود وهكذا ترى أنه فى الميدان الإدارى ، فضلا عن الميادين السياسية والاقتصادية ، تراجعت السلطة الإمبراطورية كل التراجع من مركز إلى مركز ، يوم عُملت محاولة جديدة أتمها قانون حكومة الهند لسنة ١٩٣٥ ، وكان الهدف منها التوفيق بين مدعيات القومية الهندية وبين صورة معدلة للسلطان الإمبراطورى .

وكما سبق أن ألمعنا ، فشلت اصلاحات ١٩١٩ فى إرضاء أى قسم من أقسام الرأى العام الهندى ، وبناء على ذلك عينت حكومة المحافظين برئاسة بلدوين فى ١٩٢٨ لجنة لتبحث المسألة كلها وتقدم عنها تقريراً . بيد أن هذا التقرير ، وإن اعترف بضرورة القيام بتقدم آخر عظيم ، إلا أنه لم يقترح إلا ضرباً محدوداً من الحكم الذاتى مع شيء من الاستقلال للمقاطعات ومجلس اتحاد فيدرالى لمركز الدولة . وكانت تلك الاقتراحات بطبيعة الحال أقل كثيراً مما كان الهنود يتوقعون ، لذا كان طبيعياً أنها أفضت إلى اشتداد حركة الاضطراب لدى جميع الأحزاب. وفى الحين نفسه تولت مقاليد السلطان بإنجلترة حكومة عمال برئاسة رامساى مكدونلد، وعُملت محاولة جديدة للتوفيق بدعوة عدة مؤتمرات مائدة مستديرة متتالية — ١٩٣٠— ١٩٣٣ مُثل فيها جميع أرباب المصالح الهندية والأوربية . وأفضت المناقشات التى دارت فى هذه المؤتمرات التى لم يشترك فيها حزب المؤتمر الهندى برئاسة غاندى إلا فى

دور انعقاد واحد ، إلى وضع صيغة لإنشاء خطة اتحادية فيدرالية للحكومة تقوم على مقاطعات تستمتع بالحكم الذاتى ودول إمارات . ومع أن الدستور كان يمثل من حيث المبدأ تقدماً جوهرياً على ما كان يقترح فى الماضى ، إلا أن قانون حكومة الهند لسنة ١٩٣٥ ، عندما خرج من البرلمان كان محاولة لخلق حكومة جديدة للهند تتكون من أمراء إقطاع يتولون الحكم ومن أحزاب رجعية تقيم نفسها على أساس الدين . وفوق هذا كان الدستور يحدّ من سلطة الحكومة المركزية بنصه على ضمانات خاصة لصيانة مصالح أرباب الأعمال ورؤوس الأموال البريطانيين ، وبالنص على مواد فى الدستور قصد بها حماية حقوق الأمراء الحاكمين والطبقات الخاصة الأخرى وتأييد تلك الحقوق إلى أبد الآبدين . ورفض حزب المؤتمر الإصلاحات الجديدة ، ولكنه استولى على مقاليد السلطة فى ١٩٣٦ ، واستطاع بذلك أن يقضى على مختلف الحدود التى حاول القانون أن يفرضها . وشبت نار الحرب العالمية الثانية وحكومات المؤتمر تتربع فى دست الحكم فى الأقاليم محرزة مقادير متفاوتة من النجاح ، وعندئذ صُرف النظر عن التجربة الدستورية .

أسلفنا عليك أن الفترة بين الحربين كانت السلطات البريطانية فيها فى تقهقر مستمر وتام ببلاد الهند . وقد زال من الوجود بعد الحرب الأولى كل أثر لفكرة السيطرة الإمبراطورية ، واتجهت جميع المناورات السياسية فى المدة بين ١٩٢٠ — ١٩٢٩ إلى العمل على طريقة التعويق التى تقوم بها مؤخرة الجيوش . وكانت السلطات البريطانية ترجو أن تتمكن بواسطة تفوقها فى المعارف والخبرة السياسية أن تعدل وتحد من الاستقلال الذى كانوا يعلمون علم اليقين أن الهند ستحصل عليه فى النهاية : فحاولوا أن يصلوا إلى بغيتهم بإنشاء طبقات وأرباب ومصالح يؤيدون مركزهم . وكانت الخطة الأصلية هى تقويض وحدة الهند بتفرقة دول الإمارات ، التى كانت تضم خمسى مساحة الهند ، وجعلها تحت حكم التاج مباشرة . ففى عهد يرجع إلى ١٩١٧ ، يوم كانت اصلاحات مونتاجو شلمسفورد يدور حولها البحث ، اتخذت خطوات لتأسيس مجلس للأمراء ، ولكن لما كانت مسألة استقلال الهند تبدو خارج نطاق السياسة العملية ، فإن أحداً لم يشجع قط مطالبة الأمراء بالتحرر من هيمنة الحكومة المركزية عليهم ، ومع نمو فكرة عدم التعاون وشدة

إقبال الناس على الديمقراطية الجديدة ، تشكلت بسهولة تامة محالفة بين الحكام الطامعين للدويلات الكبرى وبين الرجعيين البريطانيين ، وظهرت النظرية القائلة بأن الولاية على الأمراء كانت من حقوق التاج ، ومن ثم تكون علاقة الحكام الهنود متجهة إلى إنجلترة لا إلى الهند . وهذه المحاولة لربط المطامع الشخصية الأسرية للحكام المستبدين بالمصالح الإمبراطورية لبريطانيا فشلت مع ذلك بسبب معارضة بعض الحكام الأكثر استنارة الذين أدركوا فى شىء من الإبهام أن مقاومة المطالب الوطنية سيعدها رعاياهم انحرافاً عن جادة الوطنية ، وأن جهدا قصير النظر يبذلونه لتمزيق وحدة الهند سيكون على مر الأيام مصدر خطر عليهم . من هنا نشأت فكرة إنشاء حكومة اتحاد فيدرالى مركزية باتحاد المقاطعات والإمارات ، وهنا أيضاً حاولت المصالح البريطانية صيانة نفسها بخلق مركز تكون فيه الغالبية العظمى الدائمة لممثلى الأمراء هم والطوائف الدينية الرجعية .

وقضت معارضة الوطنيين العنيدة ومطالبة المسلمين بإنشاء دولة منفصلة لهم تكون مستقلة استقلالا تاماً ، على قانون ١٩٣٥ وجعلته هشيما تذروه الرياح ، حتى إذا أدركت الحكومة البريطانية فشل مسعاها تقدمت بواسطة مندوبها السير ستافورد كربس تعرض على الهنود مركز الدومنيون المستقل تماماً مقيداً ببعض قيود مؤقتة لفترة الحرب ، ولكن الخطة أخفقت بسبب تدخل السلطات المدنية وبسبب الحاكم العام آنذاك اللورد لنلثجو . وأخيراً فى ١٩٤٧ حصلت الهند على استقلالها بعد أن فصلت عنها المناطق الحاوية لغالبية من السكان المسلمين لتكون دولة باكستان الجديدة . وتوقفت سلطات الحكومة البريطانية بالهند فى الخامس عشر من أغسطس ١٩٤٧ ، يوم نزل ملك إنجلترة عن لقب إمبراطور الهند .

الفصل الثالث

الصين

إن الظروف التى عقبت سقوط إمبراطورية المانشو بالصين شديدة الشبه بتلك التى عقبت أفول نجم السلطة المغولية ببلاد الهند . وكان كل من أسرة المانشو والمغولى من الأجانب الذين أسسوا ملكية وطنية فى الأقطار التى فتحوها ، كما أنهم استولوا على مقاليد السلطان الفعلى فى دول بقارة آسيا فى مدة ذرعها مائتا سنة ، وهم يردون عنها كل عدوان يقوم به واغل أجنبى ، ويحدون من سلطات الشعوب البحرية فى التجارة المنقولة بحراً . وقد سقط كلاهما ، كما رأينا لسبب رئيسى هو الضغط الموجه إليهما من السواحل ، ذلك الضغط الذى أضعف مصادر قوتهما ، وقوض اقتصادهما الداخلى ، وأخيراً أزال الثقة منهما فى أعين شعبيهما . وتجلت فى النتائج المباشرة بكل من الصين والهند نقاط مشابهة عجيبة أيضاً . فقد حدث فى الصين مثلما حدث بالهند أن بقيت بمركز الدولة سلطة اسمية تكفى لتمكين كل ظافر من القوات من الحصول على ألقاب شرعية تسوغ سلطانهم ولإضفاء شيء من الستر على عدوانهم على الآخرين . مثال ذلك أن حزب الأنفو بالصين كان له فى استخدامه سلطة بيكين نظير ومقابل هو الجنرال ماهداجى سكنديا قائد الماراثا الذى كان يدعى أنه ينفذ سلطات المغولى الأعظم ويحتفظ بحقوقه . وكما كان الحال بالهند ، كان نواب الملك بالولايات فى الصين ينصبون أنفسهم قواداً أعلين ، ويجمعون الضرائب وينشئون العلاقات بينهم وبين الدول الأجنبية . وكان تشانج تسولن بمنشوريا من نفس طراز نظام الملك فى الدكن وأليڤردهى خان فى البنغال ، هذا إلى العدد الكبير من السادة والقواد الذين كانوا يقيمون لأنفسهم الإدارات المحلية يوم تضعف قوة بيكين هم المعادل الصينى لأمير خان بندارا وچاسوانت راو هولكار ودوست محمد صاحب بهوپال .

ومع ذلك فقد كان هناك فارق بين الحالين . فبينما حدث بالهند أن ظهور قادة الحرب بعد انهيار الحكومة المركزية أدى بشركة الهند الشرقية إلى التغلب عليهم

رويداً رويداً واحداً بعد الآخر ، أو وضعهم تحت حمايتها حتى تأسس بهذه الطريقة سلطان البريطانيين بالهند ، فإن ظروف الفترة التى عقبت الحرب العظمى حالت هى وما استعر بين الدول من منافسات ، دون وقوع الصين فى نفس المصير . بيد أن من الضرورى أن نؤكد أن سياسة اليابان فى التوسع الأرضى بأرض القارة الأسيوية نفسها ، بإنشاء نظم حكم تابعة لها بمنشوريا وحكومات إقليمية تحت حمايتها فى الشمال ، وهى أمور سنبحثها فى موضعها المناسب ، كانت تتخذ من الفتح البريطانى للهند نموذجاً لها .

وسندلى إلى القراء على سبيل التمهيد بكلمة موجزة عن الأحداث السياسية ببلاد الصين بعد سقوط أسرة المانشو. فبعد سقوط أسرة المانشو فى ١٢ فبراير ١٩١٢ ، انتخب صن يات سن للرياسة المؤقتة ، إذ اجتمعت جمعية وطنية ثورية أنشئت على عجل فى نانكين وانتخبت صن يات سن رئيساً مؤقتاً للدولة ، ولكنه تقاعد تاركاً مقاليد الحكم ليوان شيه كاى ، الذى كان الحزب الإمبراطورى يعده حتى ذلك الحين مناط آماله المرجوة . وأعلن فى العاشر من مارس إنشاء دستور مؤقت له رئيس ونائب رئيس ومجلس قومى استشارى وبرلمان مشكل من مجلسين على الطريقة المألوفة المتبعة . وانعقد البرلمان بعد سنة ، ولكن نشأ بين الثوريين الذين كانوا الأغلبية بالمجلس وبين الرئيس الذى كانت له سلطات فعالة ، صراع ما زال يشتد حتى جعل إدارة دفة الأمور فى الدولة من المحال . ولجأ يوان شيه كاى وقد نضب ما فى خزانة الدولة من مال ، وغلب العناد على رأس برلمانه ، إلى سلوك طريق سهل هو المفاوضة فى عقد قرض أجنبى على أمل أن يصيب بسهمه هذا أمرين : التغلب على ما يواجهه من مصاعب داخلية والحصول على المعاونة الدولية لإدارته . وكانت تلك هى الفرصة التى كانت الدول التوسعية الإمبراطورية تنتظرها . فإن الدول العظمى : بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة وألمانيا والروسيا واليابان ، أعلنت عن استعدادها لتكليف اتحاد من البنوك بتقديم القروض الضرورية على شريطة أن تعترف الصين اعترافاً صريحاً بأن لهن الحق دون سواهن فى تقديم جميع القروض . وضماناً للقرض ، طالبوا برهن ضرائب الملح التى رأوا أن يكلوا إدارتها إلى الجمارك البحرية التى كان يشرف عليها بالفعل موظفون من الأجانب . غير أن الولايات

المتحدة عادت فسحبت تأييدها لذلك الترتيب ، وذلك لأن الرئيس ولسن ، الذى كان حديث العهد بالانتخاب برياسة البيت الأبيض شعر بأن « شروط القرض تبدو لدينا شيئاً يكاد يمس الاستقلال الإدارى للصين ذاتها . » ومع ذلك فإن قرض التنظيم البالغ قدره ٢٥ مليوناً من الجنيهات ، قد طرح مع ذلك فى عواصم الدول الخمس الأخرى وبفضل ذلك المال تمكن يوان من إخماد ثورة عسكرية شبت بعد ذلك بشهرين . وأمدت الثورة يوان بحجة يستطيع بها محاكمة المبرزين من أعضاء الحزب الثورى . وبعد ذلك أصبح الطريق ممهداً أمام يوان شيه كاى . وصدرت الأوامر بإجراء الانتخابات ، وانتخبه البرلمان الذى اجتمع نتيجة لها بأغلبية ضخمة رئيساً للدولة . وعندئذ لم يعد للدول سبب آخر يحملها على منع اعترافها .

وليس من الضرورى الخوض فى تفاصيل مناورات يوان ، لتخليص نفسه من البرلمان أولا ولإجلاس نفسه على العرش فيما بعد . وقد بلغ من اشتداد الشعور الديمقراطى بالبلاد أثناء السنوات الأربع التى انقضت ، أنه وإن انتخب إمبراطوراً وتسمى بالاسم الملكى هنج هسيان أو الدستورية الفاخرة ، فإن ثورة شبت بالبلاد فاستلزمت ارجاء اعتلائه العرش فعلا . على أن يوان نفسه توفى بعد بضعة أشهر فى يونيه ١٩١٦ . وبموته استولى قادة الحرب على مختلف الولايات ، وظلت الصين إحدى عشرة سنة بغير حكومة مركزية قوية إلى يوم استطاع تشيانج كاى شاك إعادة تأسيس السلطة القومية بالبلاد بعد حملته الشمالية . وكانت هناك حكومة إسمية فى پيكين تعيش على فائض إيرادات مصلحة الجمارك وضريبة الملح ، وهما تحت هيمنة الموظفين الأجانب . وليس من الغلو فى شىء أن يقال إن وحدة الصين لم يصنها فى ذلك الوقت الحرج إلا الهيئات الصينية المشتركة التى كانت تدير الجمارك والملح والمواصلات البريدية .

ولم يضع حداً لهذه الحال سوى الزحف المظفر الذى قام به الكومنتانج ، وهى منظمة أنشأها صن يات سن بعد انسحابه من پيكين . ذلك أن صن انسحب إلى طوكيو وأخذ يؤسس حزباً جديداً بعد أن خاب أمله وجرحت نفسه لما لقيه خصمه يوان من الأمم الأجنبية من تأييد ، وبخاصة تشجيعهم إياه فى شأن القرض على يد اتحاد المصرفيين . وفى تلك السنوات كان المثل الأعلى لديه هو اليابان ، التى كان

يتلقى شيئاً من العون من رجال السياسة فيها . ولم تكن آراء صن عن اليابان فى ذلك الحين مشوبة بأقل شائبة من عدم المودة . قال « إن اليابان من أقوى دول العالم . وقد أقلع شعبها عما كان لها من انحيازات وهوى ، فقد تعلموا دروس الغرب وأصلحوا نظامهم الإدارى ، وأنشأ جيشاً وأسطولا ، ونظموا ماليتهم ، وفعلوا ذلك كله فى مدى خمسين عاماً » * . ومع هذا فإن ذلك كان قبل أن يقع تحت مؤثر الثورة الروسية . وفى ١٩١٧ كان صن قد أنشأ « حكومة » مستقرة فى الجنوب . ولكنه لم يحصل على التأييد الكافى ، فالتجأ إلى المأمن الحريز وهو المستعمرة الدولية بشنغهاى . وقد أعلن صن يات سن فى تصريحه إلى الشعب الصينى المؤرخ فى ٢٥ يوليو ١٩١٩ عن يقينه بأن الشعب الروسى سيكون « الحليف والأخ الوحيد » للصينيين فى كفاحهم من أجل الحرية . وسرعان ما أنشئت العلاقات وبدئ فى الاتصال بلينين ، وفى ١٩٢٢ وفد أدولف جوف إلى الصين ممثلا للحكومة السوفيتية والتقى بصن فى شنغهاى فى يناير ١٩٢٣ . وصدر إعلان مشترك نتيجة لمحادثاتهما ينطوى على تعهد بمعاونة السوفيت للصين . وبعد هذا الاتفاق عاد صن إلى كانتون وكان أول خطوة فعالة اتخذها ، أن أرسل تشيانج كاى شاك إلى موسكو ليدرس تدريب الجيش الأحمر وتنظيمه العسكرى .

ثم أسست الأكاديمية العسكرية فى وهامبوا برئاسة تشيانج بعد عودته من موسكو ، وكانت لها ميزة الحصول من الروسيا على المعلمين والمستشارين والأسلحة . وكان المقصود من الجيش الجديد الذى أنشئ أن يكون وسيلتهم إلى التوحيد القومى . وألحقت به أيضاً هيئة للدعاية السياسية . وفى ١٩٢٤ عقد فى كانتون أول مؤتمر وطنى للكومنتانج . وكان من بين القرارات التى اتخذها قرارا بالسماح بانضمام الشيوعيين إلى الحزب . وقبل أن يبدأ الجيش الجديد زحفه للفتح توفى صن يات سن فى ١٩٢٥ . ولم تنقض ١٩٢٦ حتى كان حلف الكومنتانج والشيوعيين قد طهر الصين كلها ، جنوب نهر اليانجتسى ، من جميع قادة الحرب وهزم ووپاى فو واستولى على هاتكاو ، وأصبح وجهاً لوجه أمام قوات المارشال صن تشوانج فانج ، الذى كان يهيمن على النطاق

---

* انظر كتاب : «Memoirs of a Chinese Revo lutionary» تأليف صن يات سن ص ١١٤ .

الساحلى العظيم . وأدرك المارشال صن خطر الحركة الجديدة على العسكريين ، فدعا لنصرته قوات جميع زملائه من أمراء الحرب ، ولكن فيض الحركة الوطنية اشتد وربا حتى التقمه هو وجيشه الوافر . وبذلك أصبح تشيانج كاى شك على أبواب شنغهاى رمز السلطان الأوربى فى منطقة المحيط الهادى .

لقد سبقنا الحوادث بهذا البيان الموجز رغبة منا فى رسم صورة لعلاقات الأمم الأوربية بالصين أثناء هذه الفترة ذات الأهمية الحيوية . وهناك من الناحية الأساسية حقيقتان لا مندوحة من تذكرهما ، الأولى : انقطاع كل أثر للحكومة المركزية القوية لمدة تزيد قليلا عن عشر سنوات أى من يوم وفاة يوان شيه كاى حتى تأسيس حكومة الكومنتانج فى نانكين فى ١٩٢٧ ؛ والثانية : القوة الهائلة وغير المتوقعة التى بدت فيها الحركة الشعبية ، التى استطاعت رغم ما اكتنفها من قلة النظام ورداءة القيادة والحرمان من كل برنامج فعال ذى أثر ، أن تبنى ما لدى الشعب من مدخرات القوى التى مكنت الكومنتانج من أن تزيل دولة أمراء الحرب كأنهم بيادق فى رقعة الشطرنج .

وقد نجح يوان شيه كاى وإن كان ذلك على حساب مكانته السياسية ، فى المفاوضات التى استطاع بها الحصول على خمسة وعشرين مليوناً من الجنيهات ، ولكن الزمن لم يمهله فرصة ينضج بها خططه السياسية ، إذ اندلعت نار الحرب الأوربية فى ١٩١٤ . وأدت شدة انشغال بريطانيا العظمى وفرنسا وألمانيا والروسيا فى ذلك المعترك الرهيب ، إلى تركه وجهاً لوجه أمام اليابان . وكان طبيعياً أن يعد رجال السياسة اليابانيين تلك الحرب فرصة ذهبية أرسلتها العناية الإلهية لاستئصال النفوذ الأوربى من الصين ، ولتقف فى القارة الأسيوية بوصفها أعظم الدول قوة ومهابة . وكان بين يدى اليابان حجة قريبة المنال تستطيع التذرع بها . ففى يوم ٧ أغسطس طلب السفير البريطانى مساعدة اليابان فى تدمير السفن الألمانية فى المياه الصينية . ولم يُطلب إلى اليابان أن تقوم بإعلان كامل للحرب على ألمانيا ، ولكن اليابان نظرت إلى التزاماتها المنصوص عليها فى المعاهدة الإنجليزية اليابانية نظرة أسخى وأكرم ، فأعلنت الحرب على ألمانيا بعد إصدار إنذار نهائى كانت عباراته تذكر الناس بما فعلته ألمانيا بعد الحرب الكورية . وكانت المنطقة المباشرة للأعمال اليابانية

هى الصين ، ومن ثم أقدمت اليابان دون أدنى مراعاة لحقوق الصين وبإغضاء من السلطات البريطانية على إنزال جندها على الأراضى الصينية حيث أدارت رحى حملة حربية قاسية لا هوادة فيها على منطقة كياوتشاو الألمانية . وبعد احتلال المنطقة الألمانية وبعد أن اختبرت اليابان مدى استعداد الحلفاء الغربيين للتدخل إزاء سياسة اليابان ببلاد الصين ، وجهت السلطات اليابانية التفاتها إلى الصين نفسها . وكان مستشارو الميكادو على قتناع تام أن فرصة أخرى لحل المسألة الصينية « لن تسنح مرة ثانية فى مدة عدة مئات أخرى من السنين . » وأوضح المستشارون أيضاً أن« الظروف الحاضرة ببلاد الصين تساعدعلى تنفيذ تلك الخطة ». وظهرت الخطط التى عول عليها زعماء اليابان عند أول فرصة مناسبة .

وركزت الخطة فى واحد وعشرين مطلباً (قدمت إلى الرئيس يوان شيه كاى فى ١٨ يناير ١٩١٥) ، بعد أن فكرت فيها اليابان تفكيراً عميقاً ورمت من ورائها إلى تأكيد سبق المصالح اليابانية فى الصين على طول الزمان ، وإلى الاحتفاظ بمناطق معينة مثل شانتونج وفوكين الواقعة قبالة فرموزا كمناطق خاصة للنفوذ اليابانى، وإلى وضع منشوريا ومنغوليا الشرقية الداخلية تحت حماية اليابان الخاصة ، ولضمان الهيمنة على الإدارة البوليسية بالمناطق الهامة عن طريق الإدارة المشتركة ، إلى غير ذلك . ومن البلادةالمملة سرد هذه القائمة العجيبة على مسامع القراء . وهى التى كانت تتضمن أيضاً إرسال مبشرين بوذيين إلى الصين ، إلا أن يكون الهدف من سردها تأكيد أن اليابان كانت مخطئة فى اعتقادها أن الظروف الداخلية بالصين بما كان ينوش مركز يوان من التحدى من كل جانب وبسبب حرمان الصين من كل حكومة مركزية ، كان يضعها تحت رحمة اليابان تماماً ، خاصة وأن بريطانيا وإن لم توافق على تصرف اليابان لم تكن فى مركز يسمح لها بالتدخل كما أن أمريكا لم تكن إلا لتحتج دون أن تتدخل . فلما أن تسربت طبيعة المطالب إلى صحافة العالم وشاع خبرها وذاع على الرغم من السرية التامة التى أصرت اليابان على إحاطتها بها ، تجلى فى عواصم الحلفاء شعور بالقلق . ولكن الصين أبدت عزماً وثباتاً غير متوقعين . وكانت ليوان شيه كاى نظرة صافية مستشفة لسياسة اليابان منذ كان يشغل وظيفة المندوب السامى فى كوريا ولكنه كان يعرف أنه لا يستطيع أن يعتمد

على التأييد الفعال للدول . ورغم ذلك فقد أظهر فى إدارة دفة المفاوضات براعة فاق بها اليابانيين . وعندئذ عرفت طوكيو حكمة دفع الرأى العام البريطانى والأمريكى إلى التزام الحياد . ذلك أن المصالح البريطانية بالصين ظلت أجلا طويلا ممسكة بزمام قصب السبق والتفوق ، ولذا لم تأل وزارة الخارجية بلندن والسفير البريطانى فى طوكيو جهداً فى تقديم المذكرات للحفاظ على المصالح البريطانية ، إن لم يكن للمحافظة على استقلال الصين . ولكن أخيراً نصح السير إدوارد جراى فى ٧ مايو للحكومة الصينية رسمياً بقبول طلبات اليابان . ولم يكن موقف أمريكا من الأمر كله يقل غرابة . ففى وقت مبكر يرجع إلى ١٣ مارس ١٩١٥ ، وافق وليم جننجس بريان وزير خارجية الرئيس ولسن ، بعد إبدائه تحفظات شكلية منوعة حول مطالب اليابان فى شانتونج ومنشوريا ، على أن « الولايات المتحدة تعترف بأن التجاور الإقليمى يولد علاقات خاصة بين اليابان وتلك الأصقاع » . وربما أمكن القول بأن هذه التأكيدات تسجل نهاية سلطان الأوربيين المعنوى بالصين ، وذلك لأن بريطانيا وأمريكا لم تستردا بعد ذلك مطلقاً المركز الذى كانتا تتبوآنه بعد أن وافقتا بغير احتياط على مطالب اليابان ، حيث بلغ الأمر بالأولى أن نصحت للصين أن تقبل شروط اليابان ، وحيث اعترفت الثانية بالعلاقات الخاصة التى تربط اليابان بشمال الصين .

بذلك تقوى مركز اليابان الدبلوماسى تماماً . فأحست بأنه قد آن لها أن تفرض على الرئيس يوان التسوية التى ترتضيها . ففى ٧ مايو وجهت اليابان إلى الصين إنذارا نهائياً تطلب به منها إجابة قاطعة عن مجموعة الطلبات بأكملها . ولم تر حكومة پكين بدا من الموافقة . ففى ٢٥ مايو وقعت حكومة الرئيس يوان معاهدتين وثلاثة عشر مذكرة متبادلة ، كان من شأنها – على الورق على الأقل – أن تنزل الصين منزلة المحمية اليابانية . وأحس وزير الخارجية الأمريكية أنه قد استغفل ، فأبلغ كلا من الحكومتين أن أمريكا لا تستطيع الاعتراف بأى اتفاقية تضر بالحقوق التى ضمنتها المعاهدات أو تمس سلامة أراضى جمهورية الصين . بيد أن اليابان تجاهلت هذا التحفظ .

وصدق على المعاهدتين كل من إمبراطور اليابان ورئيس الصين ، ولكن لما

كان الدستور الصينى ينص على ضرورة تصديق البرلمان على المعاهدة ، فقد أجمعت الصين بجميع هيئاتها على اعتبار هذه المعاهدة باطلة وغير ملزمة للحكومة الصينية. وتاريخ العلاقات الصينية اليابانية من ١٩١٥ حتى إعلان الحرب بين الدولتين بعد ذلك بإحدى وعشرين سنه لا يخرج عن تعليق مستديم على هذه المطالب ، وعن محاولة قامت بها اليابان لتنفيذ الأسبقية والتفوق الذى كانت تدعى أن المعاهدات والاتفاقيات تخوله لها ، ولا يخرج عن جهد للصين لا يقل قوة عزم عن جهد خصمها لمقاومة كل طلب بكل وسيلة أوتيتها . وكان إخفاق السياسة اليابانية النهائى والحاسم ، ذلك الإخفاق الذى أفضى إلى تسليم قواتها بالصين وتخليها عن أرصدتها الرأسمالية بالصين فضلا عن طردها من منشوريا ، يرجع قبل كل شيء إلى نمو القوى الديمقراطية التى مكنت الصين من شن حرب دفاعية أمد ثمان سنوات. ولم تكن الغلطة التى اقترفتها اليابان أنها أساءت تقدير معارضة الشعوب الأوربية التى أحست إحساساً صادقاً أنها لن تحارب من أجل المحافظة على استقلال الصين ، بل إنها لم يمكنها أن تتنبأ أن الثورة كانت لها قوات طليقة ذات بأس لا سبيل إلى تقديره ، وأن ضعف الصين الذى يمثله يوان وأمراء الحرب الذين خلفوه ليس الدليل الحق على الموقف الذى أخذ يتطور داخل البلاد .

وفوق ذلك يمكن أن يذكر هنا أن سياسة اليابان بآسيا كانت مصابة بتناقض جوهرى . فقد كان همها الأول إبعاد السلطان الأوربى عن آسيا إبعاداً كانت تحظى فيه بكل تأييد وعطف من الشعوب الأسيوية . وإلى جوار تلك السياسة كانت الصين أيضاً تلميذاً نجيباً للدول العظمى فى سياستهم التوسعية ، كما أن نشر « الطريق الإمبراطورى » على البلاد كان يلوح لديها رسالة مقدسة . وقامت اليابان بدراسة طرائق البريطانيين ببلاد الهند ، فأوحت إليها بالتسلط على موارد الصين الهائلة ، بواسطة القوة الحربية والحكم غير المباشر — ونسيت اليابان أن الظروف قد تغيرت فى القرن العشرين — وعولت على الاستفادة من الموقف الدولى لكى تنفذ خطة تخلق بها شبيهاً جديداً بالهند تقيمه ببلاد الصين الشمالية على الأرض . ودفعت بها نزوة التسلط الإمبراطورى إلى طريق الهلكة ، وهو أمر ترامى بعد ثلاثين عاماً ضاعت عبثاً فى جهد جبار يفوق كل طاقة بشرية ، إلى إفقادها المركز الذى

تذرعت بأجمل الصبر فى تشييده وانتهى الأمر بأن وضع شعبها المتكبر تحت لواء الاحتلال الأجنبى .

وأعلنت الصين الحرب على دول وسط أوروبا مخالفة بذلك رغبة اليابان ، التى دعتها اعتبارات « مصالحها العليا السياسية والاقتصادية بالصين » إلى رفض أن تشترك فى المذكرة التى قدمها الحلفاء إلى الصين لقطع علاقاتها مع ألمانيا ، وأدى موقف اليابان ذاك إلى تبادل الرأى مع الحكومة الأمريكية تبادلا تمخض عن عقد اتفاقية لانسنج إيشى ، التى أعادت بها الولايات المتحدة حق اليابان فى أن تكون لها « علاقات خاصة بالنظر إلى الجوار الإقليمى » — و « مصالحها الخاصة بالصين » ، على حين أن اليابان وافقت من جانبها على أن تؤيد السيادة الإقليمية لجارتها سليمة غير ممسوسة . ومع ذلك كانت مشاركة الصين فى الحرب نجاحاً سياسياً لبيكين له شىء من الأهمية ، وذلك لأن تلك المشاركة أتاحت أن يكون لها صوت فى تسوية الصلح .

وفى مؤتمر فرساى مثل الصين أولا وانج تشنج تنج (ت. ت. وانج) ثم ولنجتون كوو وألفريد سزى . ومع أن كلمة البلاد كانت متفرقة ، فإن المتكلمين بلسان الصين بالمؤتمر كانوا يعبرون عن وجهة نظر واحدة ، هدفها استرداد استقلال الصين التام . وكانت الصين فى مركز عسير وذلك لأن بريطانيا وفرنسا وإيطاليا وافقت بالفعل على احتفاظ اليابان بحقوق ألمانيا فى شانتونج . ولكن أمريكا وقفت فى هذه النقطة موقف المتشدد العنيد لأن نظريتها فى الاستعمار المجرد من المطامع الإقليمية كانت ترى فى احتياز الأراضى خروجاً عن جادة الخلق الكريم — وعندئذ عادت الديبلوماسية اليابانية فأحرزت نصراً سريعاً زواله ، وذلك لأن مؤتمر الصلح نقل إلى اليابان جميع حقوق ألمانيا بشانتونج مقابل مجرد وعود شفوية من جانبها — وعندئذ رفض مندوبو الصين التوقيع على معاهدة فرساى .

وأثارت معاهدة فرساى اضطراباً عاماً فى الشعب من نوع لم تشهده الصين من قبل . وتزعم الحركة طلبة بيكين الذين قاموا فى ٤ مايو ١٩١٩ بمظاهرة عظمى وحاصروا منزل وزير يميل إلى اليابان . وانقضى أكثر من أسبوع والعاصمة فى حالة من الهياج العنيف الذى لم يخل من الحوادث الدامية بين المتظاهرين والسلطات ،

وهى حالة شبهها رئيس جامعة پيكين « بالكفاح بين الطوفان والوحش » . وكان عطف الشعب على الطلاب من شدة الوضوح بحيث أدركت الحكومة أن قوة جديدة قد قامت فى البلاد ، فلم تتردد فى طرد الوزير المثير لحنق الناس طرداً علنياً . وتعالت فى البلاد من أقصاها إلى أقصاها صيحة تنادى بمقاطعة البضائع اليابانية . والحق إن المعارضة لليابان انتقلت من الحكومة إلى الأهالى .

وفى تلك الأثناء عقد مؤتمر واشنطون لتحديد السلاح البحرى بالمحيط الهادى . ومع أن الصينيين لم يكن لهم إلا مصلحة مباشرة صغيرة فى مسألة الأسلحة البحرية ، إلا أن موضوع شانتونج كان من المسائل الكبرى التى تؤثر فى المحيط الباسيفيكى ، وكانت موضوع معاهدة خاصة خارج المؤتمر — وبفضل ضغط أمريكا ونتيجة لإصرار المفاوض الصينى ، عقدت تسوية ردت بمقتضاها إلى الصين الأراضى التى كانت ممنوحة لألمانيا مقابل دفع تعويض محدد . وفى ١٧ ديسمبر ١٩٢٢ غادر جنود اليابان شانتونج ونقلت ملكية خط سكة حديد كياو تشاو تسينان ، وكان ذلك أول نصر ديبلوماسى أحرزته الصين ، كان أول تراجع صُك به أرباب الامتياز وأول تقهقر على أصيب به العدوان اليابانى — وقد أحرزته الصين وهى بعد منقسمة على نفسها وحكومتها المركزية فى حالة من العجز التام لا تحسد عليها .

وفضلا عن هذه النتيجة المحددة ، أثار الوفد الصينى برياسة الفريد سزى أمام المؤتمر ، وفى صورة عشر مبادئ عامة مطالبة الصين بإعادة سيادتها تامة غير منقوصة بإلغاء كل قيد يحد من سلطتها القضائية واستقلالها فى تعريفتها الجمركية ، وإلغاء كل امتياز خاص تدعيه الدول لنفسها — والحق إن مؤتمر واشنطون كان أول منبر دولى تقدمت فيه الصين ببسالة وإقدام ووقفت موقف المتهم لدول التوسع الإمبراطورى وأوقفت الدول العظمى موقف الدفاع . ومن عجب أن أحداً لم يتقدم للدفاع عن تلك « الحقوق » . بل إن اليابان نفسها أنكرت بلسان مندوبها البارون كاتو ، أن لها أية رغبة فى التوسع الإقليمى ، على حين لم تستطع فرنسا أن تنبس إلا بملحوظة واحدة ، وقد خامرت لبها بعض المخاوف حول تونكين ، ملحوظة أرسلتها حول ما للصين من تخوم غير محدودة . ورد ولنجتون كوو على هذا الرأى العجيب مؤكداً أن : « حدود الجمهورية الصينية موضحة فى دستورها » وأن وفده

لن يبحث هذه المسألة .

ووافق المؤتمر أيضاً على معاهدة بين الدول التسع جميعاً تتعلق بالمبادئ والسياسات التى ينبغى اتخاذها حيال الصين . وبمقتضى المادة الأولى من هذه المعاهدة ، التى أسست على ما كان يعرف باسم قرار روت ، نسبة إلى إيليهو روت الذى وضع مشروعه ، وافقت الدول المختصة على صيانة سيادة الصين واستقلالها وسلامة أراضيها وإدارتها ؛ وعلى مساعدة الصين على المحافظة على حكومتها قوية وثابتة والتطور بها ؛ وعلى استخدام نفوذهن جميعاً فى سبيل نصرة مبدأ تكافؤ الفرص أمام صناعة الدول كلها وتجارتها ، وعلى التعهد بعدم التماس أية حقوق خاصة ولا امتيازات تؤدى إلى الاقتضاب من حقوق الدول الأخرى .

وينبغى أن يذكر القارئ أن المقصود من هذه الاشتراطات لم يكن مصلحة الصين بقدر ما كان صيانة الحقوق التجارية والاقتصادية للشعوب الأجنبية من أن تغتالها اليابان ، وأن الفقرة التى تدور حول السيادة والاستقلال الإدارى كان المقصود منها الحيلولة دون تنفيذ سياسة المطالب الإحدى والعشرين . وأحكمت المعاهدة تفصيل حظر الحقوق الخاصة ودوائر النفوذ ، كما حاولت أن تحصل للدول فرصة للتجارة غير المحددة . كانت محاولة من الدول الغربية مجتمعة لكى تصون مصالحها . وعلى الرغم من أن الدافع الأساسى لذلك كان دافعاً أنانياً ، إلا أن الصين قد خرجت من ذلك بمكسبين جوهريين . أولهما أنها قضت على المطالب الإحدى والعشرين ووارتها التراب . وثانيهما ، أنه حتى مع مراعاة مدعيات الأمم الغربية ، كان واضحاً أن المعاهدة لم تكن إلا عملا دفاعياً ، يحاول أن يصون ما يمكن صيانته ، ولم تكن عدواناً جديداً على حقوق الصين .

ونجحت الصين أيضاً فى أن تعرض فى المؤتمر المسائل المتعلقة باستقلالها فى تعريفتها الجمركية ، ومكاتب البريد الأجنبى وتشريع الامتيازات الأجنبية — وما من شىء هو أدل على تغير مركز الدول الغربية نتيجة للحرب العظمى ، من موقف الدول إزاء تلكم المطالب التى قدمها ممثلو دولة لم يكن لها فى ذلك الزمن حتى مجرد حكومة مركزية فعالة . ولم تعترض دولة واحدة على مطالبة ولنجتون كوو باستقلال بلاده وحرية تصرفها فى التعريفة الجمركية . وإن استقلال الصين وحرية تصرفها فى

تعريفتها الجمركية وإن لم يشر إليها أحد ، إلا أن الدول وافقت على دعوة مؤتمر يلتئم بشنغهاى لبحث المسألة من أولها لآخرها . وكان القرار الخاص بالوكالات البريدية بالصين يعترف بعدالة الرغبة التى عبرت عنها الحكومة الصينية ابتغاء إلغاء الوكالات البريدية الأجنبية ، ووافقت الدول المختصة بشروط معينة على التخلى عن ذلك الامتياز فى موعد لا يتجاوز أول يناير ١٩٢٣ .

وفوق هذا ، أثارت الصين عدداً آخر من المسائل ، كان بينها مركز المناطق المؤجرة والمركز الخاص لليابان بسكك حديد منشوريا إلخ ، لا لأن أملا جدياً فى تسويتها قد خامرها بل بقصد طرحها على بساط البحث . ومع أن المؤتمرين لم يتخذوا فى تلك المسائل قراراً موائماً للصين ، فإن نفس إثارة هذه المسائل وبحثها فى مؤتمر دولى وضع الدول التى تستمتع فى الصين بحقوق خاصة فى موضع الدفاع ، ومهد السبيل لنجاح حكومة الكومنتانج فى المطالبة بتلك الحقوق قبل انقضاء عدة سنوات — بل حتى الحصول عليها إلى حد كبير .

من أجل ذلك كان مؤتمر واشنطون أول مسرح خطير تراجعت فيه الأمم الأوروبية ، ولذا ينبغى أن لا تفوتنا أهميته فى تطور الأحداث التالية . أجل إن مسألة واحدة من المسائل المتعلقة بسيادة الصين لم تلق فيها إرضاءاً مباشراً ؛ ففى حالة اليابان أصر مندوبو تلك الدولة بصورة أوشكت أن تصبح علنية على مركزهم فيما يتعلق بمنشوريا وبمنغوليا الشرقية الداخلية . ولكن كان من الواضح إلى حد كاف أن مركز الصين الدبلوماسى قد تحسن تحسناً عظيماً ، وأن مقاومة مطالبها ستنقص بنفس نسبة نمو سلطتها فى شئونها الداخلية . وزاد مركز الصين تحسناً لما تم بعد مؤتمر واشنطون من إلغاء المعاهدة البريطانية اليابانية ، التى مكنت اليابان فى الماضى من حراسة جناحها الدبلوماسى فى عدوانها الأول . وكان لما أظهرته الولايات المتحدة على الملأ من عدم ثقة فى السياسة اليابانية بعد الحرب ، الفضل أيضاً فى استرداد الصين لمركز استطاعت منه أن تبرز حقوقها . . .

وبعد ذلك لم يكن يخشى على الصين من أن تتمزق أو أن تتفرق كلمتها ، فإن قوة الحركة القومية النامية أصبحت ملموسة بجلاء ، حتى بينما لم يبرح أمراء الحرب المتنافسون يؤججون فيما بينهم ضرام حروب متقطعة . وكان التطور الهام التالى الذى

نالته الصين هي الصداقة التي كان الاتحاد السوفييتي يظهرها نحوها . ففي نوفمبر ١٩٢٢ ظهرت جمهورية الشرق الأقصى بالاتحاد السوفييتي ، وعادت إلى أراضي السوفييت سلامتها وتكاملها الإقليمي . وكما سبق أن ذكرنا أظهرت الحكومة البلشفية عطفاً ملحوظاً على الصينيين منذ البداية ، ومنذ ١٩٢٣ ، أي بعد عودة مركزها بسيبيريا إلى سابق عهده ، شرعت تهتم اهتماماً ناشطاً بشئون الصين . وقد سبق أن وصفنا لك بعثة أدولف جوف إلى الصين واتفاقه مع صن يات سن . ولم تكن الأمم الغربية تعلق على صن يات والكومنتانج إلا قدراً قليلا من الأهمية ، بل كانوا يعتقدون أن قواد الصين الأبرز منه هم الذين يمارسون السلطة الحقة ببلاد الصين . ولكن السوفييت كانوا أعلم منهم بحقيقة الأمر . كانوا يعلمون أن لن يكون للجنرالات وزن عندما تبرز القومية المنظمة نفسها ، وبناء على ذلك بينما كان السوفييت يواصلون المفاوضات من الناحية الفنية الرسمية مع سلطان پيكين ، كانوا ينمون أيضاً علاقاتهم السياسية مع الكومنتانج . وبمقتضى الاتفاقات التي توصل إليها قره خان مع وزارة الخارجية في پيكين ، تخلت الحكومة الروسية عن مناطق الامتياز وتنازلت عن الامتيازات الأجنبية القضائية ، وبذلك قويت مركز الصينيين فيما يتعلق بتلك المسائل المتشاحن عليها مع الدول الغربية .

وقد تجلت قوة الصين النامية تجلياً مدهشاً أثناء الاضطرابات التي عقبت حادثة ٣٠ مايو ١٩٢٥ بشنغهاي ، يوم أطلق بوليس منطقة الامتياز تلك ، النار على بعض الطلبة المتظاهرين . وانتقل الاضطراب إلى مدن المواني جميعاً ، وخاصة إلى كانتون حيث أطلق الجند البريطانيون النار على المتظاهرين الصينيين ، وانتقم الصينيون لأنفسهم بضربهم حصاراً قوى الأثر على هونج كونج وبمقاطعتهم للبضائع البريطانية . ذلك أن منظمة النقابات عند الصينيين كانت في جميع الأحوال تستطيع أن تجعل أية مقاطعة فعالة الأثر ، فإذا نفخت عليها حماسة القومية بأنفاسها الحارة صارت سلاحاً مشحوذاً قوياً . وفيما يتعلق بحصار هونج كونج ، فإن موقعها وغلبة العنصر الصيني على سكانها واعتمادها آنذاك على أرض أمها الصين حتى فيما يتعلق باللوازم الضرورية ، جعلها هدفاً مثالياً لهذا النوع من الضغط — وفرض على المستعمرة مدة تربي على سنة كاملة حصاراً لا نظير له في قوة المفعول .

والشيء الذى كانت له دلالته آنذاك إلى أقصى حد ، هو أنه على الرغم من ذلك الحصار الذى ضرب حول هونج كونج ، ومن مقاطعة البضائع البريطانية ومن الدعاية الشديدة ضد بريطانيا ، لم يوجه أحد إلى الصينيين أى انتقام فعال . فقبل ١٩١٤ كانت مثل هذه المظاهرات تقابل بزوارق المدفعية ؛ وكانت تقابل قبل الثورة بتهديد البلاط الإمبراطورى بأشد أنواع العقوبات — ولكن فى ١٩٢٥ ، يوم كانت هذه الأعمال العلنية العداء لبريطانيا تحدث اشتركت بريطانيا فى المؤتمر المنعقد فى بيكين للوصول إلى وسائل تساعد على إعادة استقلال الصين فى تعريفتها الجمركية إلى نصابه . لقد تحول التقهقر إلى تشتت . واجتمعت بشنغهاى لجنة مراجعة التعريفة ، لإعادة النظر فى جدول الرسوم الجمركية لكى تعد تعريفة قوية رسمها خمسة فى المئة التماساً لمصلحة الإيراد الصينى . ومع ذلك ، فإن مؤتمر ١٩٢٥ قد التأم شمله بقصد إرجاع سلطان الصين فى هذه الناحية . واجتمع المؤتمر بكامل هيئته فى بيكين فى أكتوبر ١٩٢٥ . وكان مطلب ت. ت. وانج كبير المندوبين الصينيين بسيطاً جداً : وهو إزالة جميع القيود المفروضة على التعريفة فى موعد غايته يناير ١٩٢٩ . واتفقت الدول على ذلك المطلب « من حيث المبدأ » ، ثم عادت فيما بعد فقبلته «قراراً ملزماً » . واتخذأيضاً قرارتم فيه الاتفاق على أن نسبة الرسوم المتفق عليها فى واشنطون ينبغى تنفيذها دون إبطاء .

واجتمعت لجنة فى بيكين لبحث مسألة الامتيازات القضائية تمشياً مع قرار مؤتمر واشنطون . على أن الوطنيين بكانتون كانوا يرون أن هذه مسألة لا يجوز التباحث فيها ، وأن الدول بمحاولاتها البحث فى طريقة عمل المحاكم بالصين ، إنما تنكر بذلك على الصين سيادتها . وأعدت لجنة الامتيازات القضائية تقريراً عن موضوعها . وليس كمثل ذلك التقرير (الذى صدر فى ١٩٢٧) دليل على حماقة من سطروا تلك الوثيقة من جماعة الخبراء المدعين العلم بالصين . كان صحيحاً فى كل شيء عدا شيئاً واحداً — هو الحقائق الجوهرية الناهضة فى موقف الصين . وقد عرض الامتيازات القضائية عرضاً تاريخياً ، وبحث فيه نظم الصين القانونية بحثاً مفرغاً فى قالب الحكمة والعلم الغزير ، ولكنها لجنة لم تحس حتى وهى فى ١٩٢٧ أن ثورة قد شبت بالصين . من أجل ذلك راحت اللجنة فى جو من الرعاية الأبوية

والتعالى ، تنصح بعمل سلسلة من الإصلاحات . فإذا نفذت تلك الإصلاحات : « اطمأنت الدول المختلفة إلى التخلى عن حقوقها فى الامتيازات القضائية . »

وفى الحين نفسه ظهرت فى الصين حكومة قومية لم تكن مستعدة بأى حال لتقبل المركز الخاص الذى كان للأجانب بالصين . واصطدمت القوات الوطنية بالنزلاء الأجانب فى نانكين وغيرها من مناطق نهر اليانجتسى ، وأظهر موقف الوطنيين بأجمعه إصراراً وعزماً أكيداً على القضاء على تلك المسائل بالقوة فوراً ؛ ولكن بعد الشقاق الذى حدث بين تشيانج كاى شك وعناصر الجناح اليسارى وبعد تحول الثورة إلى دولة قومية متحررة (١٩٢٧ – ١٩٣٦) ، داخل تصرفاتها شيء من الحذر . وينبغى ألا يدفعنا سجل أعمال الكومنتانج فيما بعد أن ننسى أعماله العظيمة فى السنوات العشر الأولى من توليته الحكم ، وبخاصة فى فلك استرداد الصين . ولما كانت هذه المسائل تمس التاريخ العصرى ، فكل ما نستطيعه هنا هو أن نلخصها دون الدخول فى أية مناقشة لها .

وقد أثر نقل العاصمة إلى نانكين نفسها أثراً بليغاً فى مركز الدول . إذ لم يكن بتلك المدينة « حى للسفارات » بما له من ترتيبات خاصة تتعلق بحاميته وشرطته والدفاع عنه . وقد اختفت عن الأنظار بين عشية وضحاها بهذه الفعلة الوحيدة الحدائق والقصور الهائلة وكل ما للهيبة والمكانة من مظاهر خلابة . وفى ١٩٢٨ اعترفت جميع الدول عدا اليابان بحرية التصرف للصين واستقلالها فى تعريفتها الجمركية متخذة إزاءها فقط – الشرط المعتاد شرط المعاملة التى لا تمييز فيها والدولة الأفضل ، لكل دولة منها . ووافقت بعض الدول وأخصها بالذكر إيطاليا وأسبانيا والبرتغال – من حيث المبدأ – على أن يدفع رعاياها الضرائب . ثم طرحت على بساط البحث أيضاً مسألة إعادة النظر فى المعاهدة مع اليابان . واعترفت اليابان فى آخر لحظة بالتعريفات الجمركية المعدلة ، ولكنها عقدت مع الصين معاهدة منفصلة فى ٦ مايو ١٩٣٠ ، وهى معاهدة ضمنت مصالحها التجارية لمدة ثلاث سنوات بمقتضى ميثاق متبادل .

ثم تناولت الحكومة الوطنية أيضاً فى الوقت نفسه المسألة الأكثر صعوبة ، وهى

مسألة الامتيازات القضائية . وفى ٢٧ أبريل ١٩٢٩ ، وجهت الحكومة الصينية مذكرات متماثلة إلى الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا تطالب فيها « بإزالة جميع القيود المفروضة على سيادة الصين فى أقرب وقت ممكن . » وعندئذ اتخذت الدول الثلاث رسمياً قراراً بالمطالبة بضرورة العمل بما نصحت به لجنة ١٩٢٦ ، التى لم تشترك فيها الحكومة الوطنية ، — لكى يتيسر لتلك الدول النزول عن حقوقها. ولم تكتف الحكومة الصينية بالمنازعة فى هذا الوضع ، بل قدمته إلى عصبة الأمم بناء على الفقرة التى تنص على أن لتلك الهيئة الحق أن تقدم النصح فى المعاهدات التى لم تعد قابلة للتطبيق . وفى ٢٨ ديسمبر ١٩٢٩ ، أصدرت الحكومة أمراً ينص على تطبيق قوانينها على جميع رعايا الأمم الأجنبية المقيمين بأرض الصين ابتداء من أول يناير ١٩٣٠ ، مبدية فى نفس الحين استعدادها للتباحث مع الدول فى أية مذكرة قد ترغب فى تقديمها إليها . وكان جواب الدول أنها ترغب « فى أن يعد أول يناير ١٩٣٠ التاريخ الذى تبدأ فيه من حيث المبدأ عملية الإلغاء التدريجى للامتيازات القضائية » .

وفى أثناء هذه المدة أيضاً تمكنت حكومة نانكين من استرداد مناطق الامتياز الأجنبى بها نكاو وكوكيانج وتشنكيانج وأمُوى . واستردت أيضاً واى هاى واى . وفيما عدا مناطق الامتياز الدولية بشنغهاى وتيان تسن والحكم الخاص المقام فى منطقة السفارات ببيكين ، تكون الصين قد حصلت على انسحاب السلطات الغربية من أرضها القارية . ولكن حال الموقف المنذر بالخطر الذى أخذ يتطور بينها وبين اليابان فى الشمال دون تناول المسألتين الكبيرتين الباقيتين لديها : وهما استخدام السفن الأجنبية للطرق المائية الصينية ، بما فى ذلك مرور السفن الحربية بنهر اليانجتسى ، ومناطق الامتياز الدولية والوطنية ، والمسألة الثانية ، هى إلغاء الامتيازات القضائية إلغاء تاماً . وعلاقات اليابان مع الصين لا تدخل بالضبط داخل مجال هذه الدراسة ، إلا من حيث تأثيرها فى علاقة كل منهما بالغرب . وموجز القول أن تدخل اليابان فى منشوريا فى ١٩٣١ ، جعل تشيانج يلتمس العون من دول الغرب ، ومن ثم فقد اضطر إلى حين أن يلين من موقف العداء الذى اتخذه الكومنتانج بغير هوادة منذ ١٩٢٤ وأن يبدأ سياسة من التعاون مع أوربا .

وفى الفترة بين ١٩٢٧ و ١٩٣٠ ، يوم كانت حكومة نانكين القومية تتفاوض فى شأن المعاهدات مع الحكومات الأجنبية ، كانت وحدة الهيمنة التى كانت تدعيها لنفسها على الصين اسمية أكثر منها واقعية . وكان تشانج تسولن هو المهيمن المتصرف فعلا فى منشوريا حتى وفاته فى ١٩٢٨ ، واتبع ولده الماريشال الصغير فترة من الزمن سياسة تميل لليابان وتناهض الروسيا . وكان فنج يوهسيانج « الجنرال المسيحى » وين هسى شان أمير الحرب فى شانسى ، قد رفضا الخضوع لسلطان نانكين ، واستطاعا بمساعدة أمراء حرب صغار كانوا يرون مقاليد سلطاتهم تفلت من أيديهم ، أن يكونا حكومة فى الشمال . وتمكن تشيانج بعد حملة دامت ستة أشهر من تشتيت شمل جيوش العصاة ، وساعده فى ذلك مساعدة رئيسية حاسمة انضمام تشانج هسويه ليانج « الماريشال الصغير » إلى جانب الوطنيين . ولم يقم الماريشال الصغير فقط بإنقاذ نانكين ، بل يظهر أنه أدرك أن مداومة التمسك بسياسة استقلال منشوريا لم تعد بعد ذلك من الأمور الممكنة ، ولذا فقد أملت عليه الوطنية والحكمة أن يضع تلك المنطقة الحيوية الأهمية تحت سلطان الحكومة المركزية . وكان دخول تشانج هسويه ليانج فى حزب الكومنتانج فى ٩ أكتوبر ١٩٣٠ ، وهو أسطع برهان على توحيد الصين وتقبله لسلطان حكومة نانكين عليه وعلى المنطق التاريخية القديمة ، حدثاً لا تستطيع اليابان تجاهله ولا السكوت عليه . وكان ردها على ذلك هو غزو منشوريا .

الفصل الرابع

اليابان

فى ١٩١٢ توفى وهو فى أوج مجده وعنفوان جلائل أعماله ، إمبراطور الميجى الذى شهد خروج اليابان من العزلة الإقطاعية إلى مركز من السلطان والقوة لم يسبق له مثيل . وكان المركز الدولى لليابان فى ذلك الحين قد بلغ أسمى منازل المهيبة والكرامة ، كما أن الدول الغربية لم تكن تبدى آنذاك أى ارتياب واضح أو عدم ثقة ظاهرة فى سياستها . بل الواقع أنها كانت قوية الاقتناع بمنعة مركزها بحيث رحبت بدخول اليابان حظيرة الديبلوماسية الدولية كند لها ودولة عظمى ، ولم تمتعض من ذلك مطلقاً . وراحت بريطانيا فى شىء من المودة والتقدير يخالطهما شعور بالتكرم والتنازل ، تشجع حليفتها فى الشرق على ابتناء مركزها ، وكان الأصل فى ذلك أن توازن قوة الروسيا بها ، كما أنها وافقت على ما ضمت من كوريا إليها واستيلاء اليابان على حقوق الروسيا بمنشوريا . ومع أن خطوات التفاهم التى تمت فى ١٩٠٧ قد أضعفت الغرض الأصلى المقصود من المحالفة ، إلا أن انهيار الموقف الدولى الذى عقب ارتفاع شأو القوة البحرية الألمانية ، قد زاد ولم ينقص من قيمة المحالفة الأنجلو يابانية لدى بريطانيا . وكانت ألمانيا أسست لنفسها مركزاً ذا قوة جسيمة فى كياو تشاو ؛ وكانت لها أيضاً مجاميع من الجزر فى المحيط الهادى وقطعة ضخمة من الأرض فى پاپوا . فلو حدثت حرب أوربية عظمى ، فربما أصبح الموقف فى المحيط الهادى منذراً بالخطر . فمن أجل الدفاع عن مصالح بريطانيا فى الشرق الأقصى فى حالة شبوب نار حرب أوربية ، صار للمعاهدة الأنجلو يابانية أهمية خاصة .

وعندما نشبت الحرب أدركت اليابان بسرعة خاطفة الفرصة السانحة لها التى أتاحتها لها شروط المعاهدة فى أن تقف موقف المؤيد للسلام وأن تأخذ على عاتقها قيادة جميع الشئون فى الشرق الأقصى . ثم أعلنت الحرب على ألمانيا برضا من بريطانيا يشوبه التكره ، ولكن سلطات لندن لم تشعر بأى سرور حول مجال الأعمال

اليابانية ومداها . ولم تكن بريطانيا فى أثناء تلك المرحلة ترغب إلا فى شىء واحد: أن تزيل اليابان من الطريق كل قوة بحرية أو عسكرية لألمانيا ببلاد الصين ، وأن لا تمد عملياتها الحربية جنوباً بحجة شن الحرب على ألمانيا . ورغبة فى تهدئة الروع الذى أحست به الدول الأخرى أصدرت وزارة الخارجية البريطانية بياناً صرحت فيه بأن : « من المفهوم أن تصرف اليابان لن يمتد إلى المحيط الباسيفيكى وراء بحار الصين ، إلا بقدر ما هو ضرورى لوقاية خطوط الملاحة اليابانية فى المحيط الهادى ، ولا فى أية أرض عدا الأرض الواقعة تحت الاحتلال الألمانى على قارة آسيا الشرقية . » بيد أن اليابانيين لم يعدوا ذلك التصريح الصادر من جانب واحد ملزماً لهم ، ومن ثم ظهرت عمارة بحرية يابانية أمام مجاميع الجزر الألمانية فى المحيط الباسيفيكى الجنوبى ، مدعية أنها تطارد الأسطول الألمانى فى الشرق الأقصى بقيادة الأميرال مكسميليان فون اسبى .

وبعد حملة شانتونج التى أدت إلى الاستيلاء على تسنج تاو وإزالة كل أثر للنفوذ الألمانى ببلاد الصين ، ركزت اليابان جهودها كلها – كما رأينا – على الحصول على مركز سيادة ممتاز لنفسها فى الصين . وسرعان ما أدركت أن الدول الأوربية وإن اشتبكت فى صراع قتال فى الغرب ، إلا أنها متحدة جميعاً فى معارضتها لعملها ، وأنه حتى حليفتها نفسها لم تكن تنظر إليها بملء الارتياح ؛ وإن لم تكن بريطانيا بأى حال فى موقف يسمح لها بأن تعترض على سياسة اليابان . ومن ثم شرعت اليابان تقوم بحملة ديبلوماسية محمومة فى كل العواصم الأوربية لتحصل من الدول فرادى على الموافقة على سياستها فى الصين ، أى تحصل على تأييد الدول لأطماعها واحدة بعد أخرى . وزاد الموقف فى الحرب سوءاً على سوء ، فلم تقتصر بريطانيا على الموافقة على المركز الخاص لليابان فى الشرق ، بل بلغت حد تقديم النصح للصين بقبول المطالب الإحدى والعشرين ، فكأنها نطقت بذلك بالحكم بالقضاء على مصالحها بالصين . ووافقت كل من فرنسا وإيطاليا أيضاً ؛ فأما الروسيا ، فإن اليابان عقدت معها آنفاً ميثاقاً (٣ يوليو ١٩١٦) ، وفى ٥ مارس ١٩١٧ وافقت الروسيا على مناصرة مدعيات اليابان فى شانتونج . حتى إذا بلغت اليابان أربها من الاتفاق مع الدول حولت وجهتها نحو الولايات المتحدة . فأرسلت إليها بعثة خاصة برياسة الفيكونت إيشى ، واستطاعت البعثة تحقيق اتفاق تم بمقتضاه إعادة تأكيد تمسك كل من

الجانبين بسياسة الباب المفتوح ومعارضتهما لاحتياز الحقوق أو الامتيازات الخاصة التى تؤثر فى استقلال الصين أو سلامة أراضيها ، واعترف أيضاً بأن « الجوار الإقليمى يخلق علاقات خاصة بين الأقطار ، وبناء عليه تعترف حكومة الولايات المتحدة أن لليابان مصالح خاصة بالصين ، وبخاصة فى ذلك الجزء الذى تجاوره ممتلكاتها » . ولا شك أن المفارقات التى ينطوى عليها هذا الاتفاق كانت تحتوى على بذور العداوة الشديدة التى نشأت وترعرعت بين أمريكا واليابان فى السنوات التى عقبت الحرب العظمى . وفهمت اليابان أن الولايات المتحدة اعترفت — بهذه المعاهدة — بمصالحها الخاصة فى منشوريا ومنغوليا الداخلية . وكانت الولايات المتحدة تعتبر أن اليابان قد وافقت دون مواربة على عدم المطالبة بحقوق أو امتيازات تؤثر فى استقلال الصين . وكانت اليابان ترى أن سيادتها العليا فى شمال الصين على الأقل ، قد تم الاعتراف بها بمقتضى شروط هذه المعاهدة . أما الولايات المتحدة فلم تكن ترى إلا أنها قد اعترفت فقط بالمصالح التى لا تضار بها سيادة الصين ولا تؤثر فى مبدأ الباب المفتوح الذى كانت أمريكا نصيرته والآخذة بيده .

حتى إذا رضيت اليابان عن نفسها لاقتناعها بأنها حصلت على موافقة الدول المختصة فيما يتعلق بالحقوق التى كانت تدعيها بمقتضى الاتفاقات التى عقدتها مع يوان شيه كاى ، أصبحت مستعدة للقيام بدور رئيسى فى الحرب . وكان البريطانيون والفرنسيون يلحون فى طلب المعونة البحرية فى البحر المتوسط للعمل على القضاء على حملة الغواصات الخطرة التى بدأها الألمان بعد فبراير ١٩١٧ ، ولما كانت بريطانيا العظمى قد أظهرت عند بداية الحرب شيئاً من التمنع فى إظهار موافقتها على أعمال اليابان العسكرية خارج الصين ، بل لقد ألقت فى روع العالم فعلا أن اليابان قد وافقت على هذا القيد ، فقد كان محرجاً لها أن تطلب منها أن ترسل قواتها إلى البحر المتوسط نفسه . ومع ذلك ، فإن اليابان وافقت على إتيان ذلك بشرط : هو أن تؤيد بريطانيا وفرنسا مطالبها الخاصة بالجزر الألمانية جنوبى خط الاستواء . فلما صدرت هذه الموافقة دخل البحر المتوسط أسطول يابانى بقيادة الأميرال ساتو متخذاً علم القيادة على الطراد أكاشى ومعه ثلاث فصائل من المدمرات — وهو فى الواقع حدث تاريخى عظيم ينبغى لنا أن نطيل الحديث قليلا فى أهميته .

وعلى حين كانت السفن الحربية الأوربية تسيطر على البحار الأسيوية منذ بداية القرن السادس عشر ، لم تدخل سفن حربية قط من آسيا مياه أوربا . ذلك أن البحرية التركية العظيمة التى كانت تتسلط بقيادة خيرالدين بربروسا على البحر المتوسط حيناً من الدهر ، كانت فى الحقيقة عمارة من الشرق الأدنى وليست عمارة أسيوية . فالتفوق البحرى للغرب فى المحيطين الهندى والهادى ، وهو التفوق الذى بدأ بظهور أفونسو ألبوكرك فى ١٥١٠ ، قد وجد اليوم لأول مرة من يتحداه تحدياً فعال الأثر فى معركة مضيق تسوشيما . وكانت الخطوة التالية هى مطاردة أسطول الألمان فى المحيط الهادى ، والآن حدث بعد سنتين أن أسطولا أسيوياً قد سافر إلى سويداء المياه الأوربية ليقوم بالعمليات البحرية .

فلما وضعت الحرب أوزارها ، جلست اليابان بوصفها إحدى الدول العظمى المشتركة فى النصر ، مجلس الند من أمريكا وبريطانيا وفرنسا وإيطاليا بمؤتمر فرساى . بيد أن أوهام اليابان وآمالها ذهبت فى ذلك المؤتمر بدداً . فقد أظهر الرئيس ولسون الذى كان متسلطاً على المؤتمر عداء لا تلين قناته إزاء مطالب اليابان . ومع أن بريطانيا وفرنسا قد تهيأتا لتجرع الغصص كما أيدتا مطالبها تأييد المتكره ، فإن الرئيس الأمريكى أوضح بجلاء أنه يعد مطالب اليابان خاطئة خلقياً وجائرة سياسياً . واستطاعت اليابان بمساعدة حليفتيها أن تحصل على مطالبها اسمياً ، ولكن رفضت الصين بتشجيع من أمريكا التوقيع على المعاهدة ، وكان جلياً أن الرواية لم تتم فصولا ، وأن أمريكا ستثير المسألة فى أقرب فرصة ممكنة .

وتمت الخطوة التالية فى واشنطون . وكانت الحرب أنتجت أول حركة انتقال للأهمية السياسية من أوربا إلى أمريكا . فبعد الحرب أخذ أهل الرأى بأمريكا يوجهون يوماً فى إثر يوم سهام النقد إلى المحالفة الأنجلو يابانية ، وذلك لأن واشنطون شرعت تتنبأ بحدوث صراع فى المحيط الهادى . فلما عمدت اليابان إلى بسط سلطانها على مجاميع الجزر الواقعة إلى الجنوب من خط الاستواء زاد ذلك من الشك وعدم الثقة فى السياسة اليابانية اللذين شرعت بوادرهما تدب فى صدر أمريكا منذ سنى الحرب . وشعرت أمريكا أن المحالفة الأنجلو يابانية هى التى كانت تحرس الجناح الديبلوماسى لاعتداءات اليابان بشمال الصين ، كما أنها هى العامل الذى أحبط

محاولاتها فى الحد من مصالح اليابان . وكان آخر أجل لانتهاء المعاهدة التى أبرمت فى ١٩١١ هو ١٩٢١ . وقد بدأ يتحرك فى صدر بريطانيا نفسها شعور بأنه ما دام التهديد الألمانى قد زال فلا معنى للاستمرار فى تحالف مع دولة أسيوية تحد من حرية بريطانيا فى التصرف ببلاد الشرق . وفوق هذا ، كانت كندا تعارض أشد المعارضة فى تجديد المحالفة ، وكانت تعكس بذلك مشاعر واشنطون إلى حدما . وأظهر آرثر ميغن رئيس الوزارة الكندية إصراراً شديداً على إلغاء المحالفة الأنجلو يابانية ، وتمكن فى المؤتمر الإمبراطورى من الحصول على قدر كبير من التأييد لآرائه ، برغم معارضة لويد جورج وتشرشل وغيرهما ، ممن كانوا يخافون مغبة إثارة حقد اليابان وعداوتها على المصالح البريطانية فى الشرق . وكان القصد الظاهرى من المؤتمر هو تحديد السلاح فى الباسيفيكى . وكان جلياً من توسع اليابان جنوباً أنها مقدمة على زيادة بحريتها حتى تستطيع صيانة مصالحها القاصية . ولم يكن فى المستطاع فى تلك الظروف تجنب التنافس فى بناء القوة البحرية إلا بعقد المحالفات الدورية .

من أجل ذلك دعا الرئيس هاردنج الدول ذات الاختصاص المباشر فى ذلك الأمر إلى عقد مؤتمر لبحث مشاكل الباسيفيكى . وأدركت اليابان أن هذا كان محاولة لعزلها ، ومحاولة لعرض مسألة علاقتها بالصين بحذافيرها على بساط البحث ، وخاصة تسوية شانتونج ، ومحاولة أيضاً للحد من نشاطها . لذلك لم تقبل دعوة أمريكا إلا بعد أن أوضحت كل الإيضاح أن المسائل التى تهم دولا معينة أو أن الأمور التى يجب أن تعتبر من الحقائق المقررة والأمور الواقعة ينبغى ألا تثار فى المؤتمر . وبهذه الصيغة حاولت أن تصون حقوقها فى شانتونج ، تلك الحقوق التى أصبحت تستند الآن إلى معاهدة ڤرساى ، وأن تحافظ على مركزها فى منشوريا الذى كان يتدرج تحت شرط الأمور التى تهم بصفة خاصة دولا معينة .

وقد أوضحت أمريكا أهدافها بطريقة صريحة أو تكاد على لسان هيوز وزير خارجيتها فى جلسة المؤتمر الافتتاحية . ولم يعد الاستمرار فى مهاجمة المحالفة الأنجلو يابانية ضرورياً ، وذلك لأن حماسة بريطانيا لها قد فترت ووجدت فى اقتراح عمل معاهدة رباعية حجة تتذرع بها للتخلى عن تجديد المحالفة . و بمقتضى المعاهدة

الرباعية وافقت كل من بريطانيا والولايات المتحدة وفرنسا واليابان على احترام حقوق بعضها البعض ومركزها بمنطقة المحيط الهادى وأن تسوى خلافاتها عن طريق المفاوضات . وعلى أساس هذه المعاهدة تنتهى المحالفة الأنجلو يابانية . وأقرت معاهدة الدول الخمس البحرية نسبة عالمية هى ٥ إلى ٥ إلى ٣ لبريطانيا وأمريكا واليابان على التعاقب ، كما نصت على ألا يقوم أحد بإنشاء التحصينات البحرية بعد ذلك فى المحيط الهادى عدا منطقة قناة بنما وجزائر هواى وألاسكا .

وقد عالجنا من قبل المسائل الصينية التى أثيرت فى المؤتمر . وكان مؤتمر واشنطون بالنسبة للصين نقطة تحول . ومع أن الهيكل الأساسى للمعاهدات التى كانت تربط الصين بالأغلال والسلاسل لم يزل قائما ، إلا أن ذلك الهيكل قد فك قيده عنها فكاً جزئياً ، وبغض النظر عن تسوية شانتونج ، فتحت من جديد المسألتان الرئيسيتان ، مسألة حرية العمل والاستقلال فى التعريفة الجمركية والامتيازات والحقوق القضائية وهاتان مسألتان كانتا تعدان من الأمور المقدسة التى لا يجوز المساس بها ، وقد مزق عنهما الستر ووضعتا فى جدول الأعمال لتبحثا فى أقرب فرصة مستطاعة — وكانت تلك المعاهدة نقطة تحول بالنسبة لليابان أيضاً . فأدركت أن الأمم الأوربية بما فى ذلك بريطانيا التى كانت حليفتها لعهد قريب جداً ، قد كونت ضدها « كتلة » وأنها قد أصبحت معزولة دبلوماسياً ، وأن معاهدة الدول الأربع والاتفاق البحرى وإن صانت حقوقها إلى حين ، فإن زعامة أمريكا فى المحيط الهادى قد تأسست على أقوى الأسس وأثبتها ، وأنها ينبغى لها أن توطن نفسها فى المستقبل لملاقاة الغرب مجتمعاً فى جبهة معارضة لها . أما ألمانيا فلم تعد دولة بالشرق الأقصى ، كما أن الروسيا التى كانت تستطيع تغيير اتجاه الميزان ، قد أصبحت تحت حكم السوفييت معادية لها هى أيضا من ناحية ما أظهرته اليابان من سياسة التدخل .

وفى هاته الظروف العسيرة عولت اليابان على اتباع السياسة الوحيدة التى كانت تستطيع أن تنتهجها ؛ وهى أن تطور قوتها الداخلية بطريقة تمكنها من صيانة مركزها ، حتى يحدث تحول جديد فى الموقف الدولى يجلب لها حلفاء جدداً . فبذلت كل جهد فى مقدورها لتصبح دولة صناعية عظمى ، ولتنهض بقواتها الجوية

والبحرية دون اعتماد على الغير ، ولتزيد من انتاجها فى الأغذية ، ولترفع من حجم تجارتها . ولجأت الحكومة إلى خطة الاقتصاد المخطط ، الذى يهدف إلى تقوية الشعب من جميع نواحيه ، فنفذتها بنجاح تام . وكلما انقضى يوم ، اتضح أمام أعين زعماء اليابان أنه ما لم تكن لديها موارد كافية من الحديد والفحم ، وما لم يصبح لديها مورد للطعام مضمون الاستمرار ، فإن مركزها سيظل ضعيفاً غير منيع . ولم يكن الحصول على هذه الأمور بمتيسر إلا فى منشوريا ، وهى إقليم ضخم رسخت اليابان فيه من قبل قدميها وادعت لنفسها فيه مركزاً خاصاً . ومن ثم اتجهت بجماعها إلى منشوريا ، وقد صممت على أن تتخذ منها مخزناً ودار صناعة — أى ترسانة .

وفى أثناء الفترة التى أعقبت الثورة ، كانت المنطقة المترامية الواقعة إلى الشمال من السور العظيم فى الصين تحت هيمنة الماريشال تشانج تسو لن ، وكان ذلك الجنرال يدرك منذ البداية أن مركزه المستقل فى مكدن كان يتوقف على تأييد السلطات اليابانية له وعلى جيش كوانتونج . وطالما كان الجنرال تشانج تسولن وزيراً للحربية بمنشوريا ، لم تكن اليابان ترى أن التدخل ضرورى لتنفيذ خطط نيپون الاستراتيجية والاقتصادية . ولم يحدث فى الوضع أى مشكل خطير حتى ظهر الكومنتانج . وقد تحولت منشوريا ومنغوليا الداخلية فعلا إلى محميات يابانية . حتى إذا تأسست الحكومة المركزية فى نانكين ، وحاولت الحكومة أن تدخل فى نطاقها تشانج هسويه ليانج ، وهو ابن تشانج تسولن وخليفته ، نشأ موقف جديد أوشك أن يزعزع من أساسه الصرح الذى رفعته اليابان فى ربع القرن الذى عقب معاهدة بورتسموث . وقد بدأ الصينيون منذ ١٩٢٩ فى إنشاء ثلاثة خطوط حديدية مونها من الموارد الصينية البحتة ، وافتتحت ميناءين جديدين ، هما ينكاو وهولوتاؤ بقصد منافسة ميناء دايرن فى الاتصال بالداخل ، وبذلك قلت قيمة الخط الحديدى الذى تحت هيمنة اليابان . وأخيراً أدركت اليابان عندما ضم تشانج هسويه ليانج فى ١٩٣٠ مقدراته إلى مصائر تشيانج كاى شك والكومنتانج ، أنها مخيرة بين أمرين فإما أن تتخلى عن مركزها صاغرة أو تحارب دفاعاً عن حقوقها .

فعزمت على القتال . وحدث انفجار فى الطريق الحديدى الجنوبى بمنشوريا فأمدها بالذريعة التى تتخذها تكأة لذلك . وفى مساء ١٨ سبتمبر ١٩٣١ احتل

اليابانيون مكدن . ولم تنقض بضعة أيام حتى احتلت جميع المراكز الاستراتيجية بمنشوريا . والتجأت الصين بشكواها إلى عصبة الأمم ، وعندئذ عادت العلاقات الصينية اليابانية فاحتلت مكان الصدارة الدولية . وكان رد اليابان على ذلك أن المسألة مسألة محلية بحتة وفى الإمكان تماماً تسويتها بالمفاوضات المباشرة . وتواصل الكفاح الديبلوماسى فى عصبة الأمم دون أن يبلغ أية نتيجة . وكانت الثمرة الهامة الوحيدة فى المرحلة الأولى للمناقشات هو اشتداد إقبال الولايات المتحدة على الاشتراك فى مباحثات العصبة ، وإن لم تكن عضواً فيها ، وبهذا أكدت مرة أخرى تماسك الأمم الغربية جميعاً ضد اليابان .

ولا تهمنا العلاقات بين الصين واليابان إلا فيما يتعلق بمدى تأثيرها فى العلاقات بين أوربا وبين كل منهما . ومع ذلك فإننا سنقتصر على ذكر الحقائق المجردة حتى تكون الأساس اللازم لتفهم الموضوع . ولم تكد السنة تنتهى حتى كانت اليابان قد احتلت معظم منشوريا وشرعت تنظم جماعات من الصينيين لمناصرتها . وفى ٢٨ يناير ١٩٣٢ ادعت اليابان الرغبة فى حماية الوطنيين اليابانيين النازلين بشنغهاى ، وادعت كذلك أنها سترد على المقاطعة التى كانت الحكومة الصينية توعز بها ، فنزل البحارة اليابانيون بشنغهاى وهاجموا الجند الصينيين النازلين فى تشاپاى . وأدى ذلك بطبيعة الحال إلى تدهور العلاقات مع الدول الغربية ، التى أحست أن اليابان قد وجهت هجومها إلى نقطة كانوا منذ زمن بعيد يعدونها ملكاً خالصاً لهم . وعلى الرغم من احتجاجات الدول ، اشتبكت قوات اليابان البرية والجوية فى الصراع . وعندئذ طلب ستمسون وزير الخارجية الأمريكية أن تدعى رسمياً هيئة حلف الدول التسع للعمل ضد اليابان .

والواقع أن السياسة الأمريكية تحولت فعلا تحولا جديداً . أما فيما يتعلق بمنشوريا ، فإن ستمسون أثار فيها مبدأ عدم الاعتراف ، وبذلك وضع أمام الأعين فكرة أن الولايات المتحدة لم تكن لتستطيع أن تقبل اسباغ الصبغة القانونية على أى موقف بحكم الأمر الواقع ، ولا هى كانت تنوى أن تعترف « بأية معاهدة أو اتفاق تضعه تلك الحكومات أو وكلاؤها ويتم به الاعتداء على الحقوق التى نصت عليها المعاهدة بالنسبة للولايات المتحدة ومواطنيها ورعاياها ببلاد الصين ، بما فى ذلك كل

ما يتصل بسبب إلى سيادة الجمهورية الصينية أو استقلالها أو سلامة أراضيها أو اقتصادها » وأنها « لا تنوى الاعتراف بأى موقف ولا معاهدة ولا اتفاق يمكن الوصول إليه بوسائل مناقضة لميثاق حلف باريس والتزاماته » . وما أن بدئ بالعملية بشنغهاى ، حتى بادرت الحكومة الأمريكية بإرسال سفينة القيادة البحرية هوستون ومعها المدمرات وفرقة من الجند المشاة «كإجراء تحفظى » . ولما أن فشلت محاولة استثارة أعضاء معاهدة الدول التسع ، تجمع الأسطول الأمريكى فى هواى تجمعاً ينذر بالثبور .

وتزايد عداء ستمسون لليابان شدة ، فأدى به إلى الشطط حيث حاول تعبئة الرأى العام بالطريقة الأمريكية المألوفة وهى إصدار التصريحات العلنية . وقد أوضح ستمسون فى خطاب وجهه إلى السناتور بوراه فى ٢٣ فبراير ١٩٣٢ ، أن اقتراحه المتعلق بإصدار الدول جميعاً بياناً فى وقت واحد ، ذلك الاقتراح الذى رفضه السير جون سيمون كان « إشارة إلى الدول أنه يمكنها القيام بعمل مشترك فى المستقبل » وستجتمع فى الجمعية العامة لعصبة الأمم ، كما كان المقصود منه أن يكون « تشجيعاً للصين وتهديداً لليابان » . وبتشجيع أمريكا شرعت عصبةالأمم تتخذ موقفاً يزداد فى عدائه لليابان يوماً بعد يوم ، وأقرت قراراً يتضمن قبول مبدأ عدم الاعتراف بما حدث ، وعينت لجنة لتقدم تقريرها عن إيقاف العمليات الحربية بشنغهاى ، « واقتراح أية إجراءات سريعة قد تراها ضرورية » .

لقد حققت أمريكا للمرة الثانية تماسكاً قوياً ورائعاً بين الدول الغربية على اليابان . ولما كان موقف اليابان من مسألة شنغهاى هو أنها عمل دفاعى ولا ينطوى على إحداث أى تغيير فى السياسة ، فإنها سحبت قواتها فى ٤ مارس بعد أن تم بصورة مرضية توقيع جميع شروط الهدنة وتنفيذها . ولكن موقفها من منشوريا كان مختلفاً ، فإنها بعد أن احتلت البلاد راحت تعمل جاهدة على تنظيم حركة تطالب باستقلال منشوريا . وقد كانت اليابان تعتقد أن موقفها من منشوريا مشروع وأن لها من الأسناد القانونية ما يؤيد حقوقها ؛ إذ لم تكن منشوريا فى الأصل جزءاً من الإمبراطورية الصينية إلا بمقدار ما كانت نورمنديا قسماً من إنجلترة . ذلك أن أسرة المانشو هى التى فتحت الصين لا العكس — وبناء على ذلك فإنه لما انقطعت من إمبراطورية المانشو أسباب الحياة ، لم يكن هناك أى « أساس قانونى » للادعاء

بوحدة منشوريا مع سائر الصين ، كما أن الواقع أن حكومة نائب الملك بمنشوريا ظلت منذ الثورة حتى ١٩٣١ مستقلة إلى حدما عن بيكين . وكانت سياسة اليابان هى إحياء مطالبة المانشو بالمنطقة ، وهى دعوى المطالبة والاحتفاظ بالمصلحة الشرعية القائمة على الحق الوراثى للإمبراطور بوبى ، الذى احتفظ بلقب إمبراطور المانشو حتى عند تنازله عن عرش الصين . وفى ١٨ فبراير ١٩٣٢ ، أعلن إنشاء دولة مانشوكيو وتنصيب بوبى وصياً على العرش بها أولا ثم إمبراطورا فيما بعد .

على أن مشروعية مركز إمبراطور المانشو لم تغير ديمغرافية[1] منشوريا فى شىء ، وقد أصبحت أثناء القرن العشرين قطراً يغلب على سكانه العنصر الصينى . فقد غمر شعب المانشو سيل عظيم من هجرة الصينيين نحو الشمال . وفضلا عن ذلك ، فمهما يكن من أمر الموقف القانونى ، فإن العالم بمجموعه وسكان الصين قاطبة وغالبية السكان فى منشوريا كانوا ينظرون إلى ذلك القطر بوصفه جزءاً من الصين .

ولما كانت منشوريا قد سترت بذلك فى أردان قانونية مبرأة من كل عيب وأصبحت تملك دستوراً يحوى أحدث المبادئ كقانون الحقوق المدنية مثلا ؛ فإن اليابان كانت تأمل أن تتجاوز الدول عن ظروف أصلها ومنشئها وتعترف بالدولة الجديدة مثلما سارعت هى إلى الاعتراف بها . وفى نفس الحين تقدمت لجنة ليتون بتقريرها إلى عصبة الأمم بعد أن درست الموقف فى منشوريا ، وكان التقرير — وإن جاء فى صورة تسوية على أساس التراضى — يصر على مبدأ سيادة الصين على منشوريا ، كما أنه زاد من نفور الرأى العام اليابانى الذى كان مقتنعاً فى ذلك الحين أن الرأى العام العالمى كان يعبأ ضد اليابان فى تلك الأيام بزعامة الولايات المتحدة .

وكان وزير الخارجية ستمسون عدو اليابان اللدود يدعو عصبة الأمم إلى اتخاذ عمل قوى ضد اليابان ، ولم تكن دولته عضواً بتلك المؤسسة ، ولكنه كان يرجو بذلك أن يؤلب على « ذلك الشعب المفرد » كل قوة الرأى العام . وكان الرأى العام البريطانى أكثر أخذاً بالحيطة ، كما أن الحكومة القومية التى يغلب عليها آنذاك عنصر المحافظين ، كانت ترى أن قضية اليابان بمنشوريا قوية . وبينما رحى المناقشات

---

(١) الديمغرافية Demography : علم الشعوب من حيث الإحصاء (المترجم)

تدور فى جنيف اقتحمت القوات اليابانية ممر شانهايكوان ، وبذلك هددت ولاية جيهول ومناطق أخرى داخل السور الأعظم . لقد أصبحت اليابان هى وعصبة الأمم عند مفترق الطرق . وأصدرت العصبة قراراً تطالب فيه اليابان بالانسحاب إلى منطقة السكة الحديد وإلى فتح باب المفاوضة لتسوية الخلافات بينها وبين الصين تحت رعاية لجنة تندبها العصبة ؛ فطلبت من الصين أن تقيم دولة منشورية ذات استقلال ذاتى تحت سيادة الصين ، ثم أوصت بعد ذلك بألا يعترف أعضاء العصبة بمنشوكو . وقد ظفرت السياسة الأمريكية بنصر عظيم نجحت به فى عزل اليابان . فأجابت اليابان على ذلك بأنها تنوى الانسحاب من العصبة ولا تعد نفسها ملزمة بقراراتها .

لقد انفصلت اليابان عن أوربا وأصبحت آنذاك مصرة على الوصول بالأمر إلى نتيجة حاسمة فى الصين نفسها . فأخذت تتحرك صوب الجنوب ببطء وعلى مراحل ، ومع أن تصرفات اليابان لم تجد إلا قدراً ضئيلا من المعارضة الرسمية من الدولة الصينية نظراً لاشتباك أيدى الكومنتانج فى ذلك الحين فى صراع حزبى مرير ، فإن الشعور الوطنى فى الصين كان يواصل تكوين جبهة متحدة على المعتدى . ولكن اليابان شرعت تقيم فى قاعدتها فى جيهول علاقات ود وصداقة مع أمراء المغول وأن تخترق مناطق التخوم . وظهرت بين المغول حركة تدعو إلى الاستقلال . وفى بيكين نفسها ، وفى أثناء هذه الفترة من النشاط الديبلوماسى يوم كان تشيانج كاى شك لا يزال متردداً بين إقدام وإحجام ، أقيم ضرب مخفف من السيادة اليابانية تطبيقاً لما كان يسمى باسم اتفاقات هو يومى تسو التى ينبغى بمقتضاها أن يطرد من ولاية هوپاى (التى تقع فيها پيكين) كل موظف تعترض السلطات اليابانية عليه ، وأن تجلو عن تلك الولاية جند الكومنتانج جميعاً وكالات الحكومة المركزية . وبذلك أصبح الجزء الشمالى من الصين يعامل معاملة منطقة مستقلة ، وأقيمت فى شرق هوپاى تحت رعاية اليابانيين حكومة مضادة للشيوعية — بل إن تشيانج وحكومة نانكين نفسها وافقت على إنشاء مجلس تشاهار السياسى فى هوپاى .

وعندئذ لاحت اليابان كأنما هى تطأ بنجاح نفس السبيل الذى مهدته بريطانيا

فى الهند ، وهو طريق تم لها فيه على مراحل إقامة ملوك ودول اعترفت هى بهم وأصبحوا ألاعيب بين يديها . ولكن الوطنية الصينية هبت شاكية السلاح . وتمكن انقلاب سيان من إرغام تشيانج كاى شك على الموافقة على إقامة جبهة موحدة ضد اليابان . وبعد ذلك القرار وبعد الاتفاق مع زعماء الشيوعيين ، أجمعت الصين رأيها على السياسة المقاومة لليابان . بينما قررت اليابان أيضاً توجيه ضربتها قبل أن تتم الوحدة الوطنية وتجمع القوة ، التى تمت إقامتها بعد تصريح سيان . وكانت نتيجة ذلك « حادثة » كوبرى ماركوبولو (٨ يوليو ١٩٣٧) ، وهى حادثة بدأت دوراً من المقاومة الصينية ترامت فى النهاية إلى اشتعال نار الحرب بين اليابان والصين ، وهى الحرب التى اندمجت بعد ١٩٤١ فى أحداث الحرب العالمية الثانية .

أصبحت اليابان كما لاحظنا آنفاً منعزلة عزلة ديبلوماسية بعد معاهدات واشنطون . وكان طبيعياً أن يكون موقفها عدائياً من الأمم الغربية الحرة . فعندما صارت ألمانيا بقيادة هتلر فى ١٩٣٣ دولة عظمى بأوربا للمرة الثانية ، أدركت الديبلوماسية اليابانية أن الموقف المتطور فى الغرب يمكن تحويله لمصلحتها . وبدت أوربا فى ذلك الحين متفرقة الكلمة بصورة تبعث على الأسى . وقد ظهر محور روما برلين بعد حرب الحبشة ، ولاح للدكتاتورين اللذين كانت تعاونهما أسبانيا الفلانجية ، أن من الواضح أن دول أوربا الغربية أصبحت مضطرة أن تلتزم الحياد فعلا ، تاركة لليابان حرية التصرف المطلق فى الشرق لا ينازعها هنالك إلا غضب أمريكا المقترن بالعجز التام .

وتفاوضت (فى ٢٥ نوفمبر ١٩٣٦) ألمانيا وإيطاليا وأسبانيا فى شروط الحلف المضاد للكومنترن ، وهو وضع أتاح لإمبراطورية الشرق الأقصى مخالفة لها قيمتها فى تعاملها مع معارضة إنجلترة وفرنسا . وظنت اليابان مخطئة كما أظهرت الأيام بعد ذلك أنها قد استطاعت فى النهاية أن تحطم الحصار الديبلوماسى وأنها أصبحت بمركز يمكنها من معالجة شئون الصين على ما تهوى .

غير أن ذلك لم يكن السبب الوحيد الذى من أجله اختارت اليابان أن تتحدى العالم كله فى ١٩٣٧ . فقد أدركت أنه ينبغى عليها أن تقوم بعمل حاسم إذا هى أرادت أن تسوى كل ما بينها وبين الصين من مشاكل ؛ وإذا هى أرادت أن تتجنب قيام

دولة صينية منظمة متأثرة بالنفوذ الغربى — أو قل النفوذ الأمريكى فى هذه الحالة . وكانت على تنبه تام إلى ما ألم بأحوال الصين من تغير ، وإلى نمو قوتها السياسية والصناعية وإلى استيقاظ شعورها القومى من غفوته — وربما كان نظام الحكم الذى قام فى پيكين فى ١٩٣٥ ضعيفاً نسبياً ، تعجزه المنافسات والخصومات السياسية فى عضده قلة الكفاية الإدارية . على أن إدارة تشيانج لدفة الأمور لو قورنت بالحكومات المختلفة التى سبقته لكانت أقوى منهن جميعاً بصورة لا نهائية ولا سبيل معها إلى موازنة . كانت إدارة وطنية : يؤيدها جيش وسلطانها مطاع على نطاق أوسع كثيراً من سلطان أى نظام إدارى آخر قام بعد الثورة الأولى . فإذا تواصلت عملية التقوية وإعادة التنظيم هذه دون أن يعوقها عائق لبضع سنوات أخرى ، فستذهب بدداً كل أحلام اليابان فى العظمة والسؤدد بشرقى اسيا . ولا أدل على تنبه اليابان التام إلى تلك الاحتمالات من أن الكونت إيشى صرح فى ١٩١٥ رداً على الطلب الذى قدمه سفراء بريطانيا وفرنسا والروسيا راغبين به تأييد اليابان لفكرة الاقتراح الذى قدمته حكوماتهم إلى الرئيس يوان شيه كاى بغية دخول الصين الحرب ، قائلا : « إن اليابان لا تستطيع أن تنظر بهدوء إلى تنظيم جيش صينى يتصف بالكفاية اللازمة للمشاركة الفعالة فى الحرب ، كما أن اليابان لا يفوتها أن تنظر بعين القلق إلى تحرير النشاط الاقتصادى لشعب عدته أربعمئة مليون من الأنفس » . وقد شرعت الأخطار التى تنبأ بها السياسيون اليابانيون فى ١٩١٥ تقترب من التحقق فى ١٩٣١ . ذلك أن جيش الكومنتانج الذى دربه أصلا مستشارون من السوفييت ، كان قد أصبح فى ذلك الحين قوة محاربة متحدة الكلمة .

ومهما يكن من أمر فقد ظهر إلى الوجود جيش وطنى قد سلح ودرب على الطريقة العصرية . وكانت للبلاد أيضاً حكومة واحدة أيضاً تقيم بمنأة مما تتعرض له پيكين من ضغط ، وقد درست على أتم وجه طرائق الديبلوماسية العصرية ، كما أنها كانت قادرة تماماً على استخدام الفرص التى أتاحتها عصبة الأمم فى صد تصرفات اليابان وأعمالها . « وثمة شىء آخر كانت تخشاه اليابان أخذ يصبح حقيقة واقعة هو : « تحرير النشاط الاقتصادى لشعب عدته أربعمئة مليون من الأنفس » . وقد شرعت حكومة الكومنتانج — متلقية المساعدة الفعالة من الولايات المتحدة — فى

انتهاج سياسة اقتصادية وطنية ؛ وحتى إنشاء الطرق الحديدية الذى ظل طويلا موضع المنافسة الشديدة بين الدول قد تناولته الآن بالعمل والتمويل المباشر الحكومة الوطنية . فكأن الأمر كان بالنسبة لليابان سباقاً مع الزمن . وإذن فقد وجب عليها أن تجرح الأفعوان وتقعده عن الحركة قبل أن يسترد عافيته ويقضى القضاء المبرم على سياستها التى وضعتها بأتم عناية .

ويبدو أن اليابان لم تخامرها فى وقت من الأوقات فكرة فتح الصين بنفس القوة التى خامرتها بها آنئذ ، وقد صيغ نموذج عظمتها فى منشوكو . وكان إنشاء مجلس تشاهار فى هوپاى تطبيقاً لنفس المبدأ ، كما أن العروض الكثيرة التى قدمت إلى تشيانج كاى شك قبل أن تنشب الأعمال العسكرية الفسيحة المجال كانت تقوم هى أيضاً على فكرة بسط هيمنتها غير المباشرة على الحكومة الصينية وعلى زيادة المشاركة فى التطوير الاقتصادى . وكان ذلك هو التنفيذ العملى لكتلة ين وخطة النجاح المشترك .

وبعد مؤتمر واشنطون ونجاح سياسة الولايات المتحدة فى عزل اليابان ، اتجه الرأى السياسى بتلك البلاد بشدة نحو الرأى القائل بأن السياسات المتحررة قد فشلت ، ولم يعد من المستطاع أن تصل اليابان إلى تحقيق أهدافها القومية . وعندئذ حاول الجنرو الذى كانت له الكلمة النافذة فى المسائل السياسية أن يتبع سياسة حذرة ، واحتفظ بشكل الحكومة الحزبية التى تعتمد بشكل رئيسى على سايوكاى ، الذى أمسك بزمام الأمور أثناء مدة الحرب تحت زعامة سياسى عظيم الاقتدار هو هارا ، الذى ظهر للوطنيين مع ذلك أنه شديد الاعتدال وأنه ميال للغرب ، فاغتيل لهذا السبب فى نوفمبر ١٩٢١ . ومنذ ذلك الحين حتى ١٩٣٦ نجد فى اليابان حكومة برلمانية تخفف من غلوائها أحداث الاغتيال ، وفى إبانها كان الحزب الوطنى الميال إلى العدوان ينظر إلى جميع الزعماء السياسيين نظرة الاسترابة والاتهام بإمكان الخيانة للبلاد . وانقضت فترة تولت الحكم أثناءها « حكومات أمراء البحر » ؛ وكان التمثيل الحزبى مسألة عارضة ، ثم عاد الجنرو فدعا إلى الحكم حزب سايوكاى أى الحزب الدستورى الذى تسيطر عليه مصالح الرأسماليين . ثم حدث تغيير ذو بال فى السياسة اليابانية منذ ١٩٢٤ ، وكان الأصل فى ذلك التغيير زيادة سلطان

المؤسسات الصناعية والتجارية الكبيرة فى الأحزاب القائمة ، وزيادة سلطانها فى الحكومة عن طريق تلك الأحزاب . وكانت سياسة التوسع الاقتصادى فى كوريا ومنشوريا وشمال الصين وزيادة حجم تجارتها فى جنوب شرق آسيا قد رفعتا مركز اليابان حتى أصبحت بلداً صناعياً عظيماً . ذلك أن القوات المسلحة أدركت أهمية المالية الرفيعة والصناعات الكبيرة الحجم والصناعة الثقيلة لخطتها التى رسمتها ، وعندئذ بدأت تتجلى فى الأفق بوادر محالفة تجريبية بين الاثنين منذ ١٩٢٦. وكانت الفترة بين ١٩٢٤ و ١٩٣١ فى ظاهرها فترة سيادة طبقة البورجوازيين ، ولكن الواقع أن الجيش كان يقبض بيده على زمام الأمر بكل من منشوريا وشمال الصين . ولكن حتى فى هذه المدة تلقى الحكم البرلمانى صدمة قوية عندما أطلق أحد الوطنيين النار على هاماجوتشى رئيس الوزراء ، لأن وزارته اشتركت فى مؤتمر لندن البحرى ووقعت المعاهدة البحرية — بل الواقع أنه منذ ١٩٣١ أوضح رؤساء القوات بجلاء تام أنهم لن يطيقوا بعد ذلك أى هراء يصدر عن أحد . وبدأت الأعمال العسكرية فى منشوريا بعد حادثة مكدن فى ١٩٣١ ، دون علم الوزارة اليابانية ؛ وترك رئيس الوزراء ووزير الخارجية يعالجان البحث عن أى مبرر يستطيعان إيجاده ليسوغا به سياسة القوة العسكرية القوية التى قرر جيش كوانتنج اتباعها .

من أجل ذلك لم تعد الوزارات منذ ١٩٣١ تشكل إلا من السياسيين الذين ترضى عنهم القوات المسلحة ، وكان أول من نصبوه فى دست الحكم إينوكاى تاكوشى ، الذى كان يحظى بتأييد كل من أرباب المصالح المالية المسماة متسوبى والجيش . وأحس الجنرال أراكى نصير الأخذ بسياسة الديمقراطية العسكرية ، أن القوات المسلحة هى الديمقراطية الحقة فى البلاد ، وظهرت مدرسة فكرية أخذت تنظر إلى التحرر والنظم النيابية بوصفها تقليدات منقولة عن الغرب ومحاكاة له تبتعد عن أمجاد تقاليد نيبون . وأدى ذلك إلى شبوب ثورة مايو ١٩٣٢ ، عندما اغتالت الجمعيات الإرهابية المكونة من صغار الضباط وطلاب المدرسة العسكرية وطائفة من الطلبة — رئيس الوزراء إينوكاى ، وألقت القنابل على دار الكونت ماكينو وعلى رئاسة الشرطة فى طوكيو وعلى مكاتب حزب سايوكاى وذلك كله لدوافع وطنية بحتة ، هى شعورهم بأن الحكومة والأحزاب إنما تديرها المصالح

الاستثمارية وأنها ليست على قوة كافية تمكنها من مقاومة الأمم الغربية واستئصال شأفة العناصر الهدامة .

وأخذ يستولى على الناس شعور متزايد بأن إرجاع السلطان للإمبراطور لم يأت بالثمرات المرجوة منه ، وذلك لأن أرباب المصالح المكتسبة وفسدة السياسيين والأحزاب صاروا يحكمون اليوم باسم الإمبراطور . وادعى بعضهم أن سلطات الإمبراطور الذى كان يمثل الشعب قد اغتصبها رجال السياسة والرأسماليون وأنه لابد من استرداد للسلطة يقترن باسم « شوا » (وهو الاسم الملكى للإمبراطور آنذاك) حتى يتسنى للبلاد التخلص من رجال الأعمال والسياسيين الذين لا يقوم تفكيرهم على أساس المصالح القومية . ولم يكن ذلك بأى حال انعكاساً لمبادئ الفاشية أو النازية ، التى ذاع طرازها آنذاك بأوربا ، بل كان ابتعاثاً للمذهب اليابانى الصرف الذى كان قوياً على الدوام ببلاد الشمس المشرقة ، والذى خبا ضياؤه مؤقتاً إبان فترة ارتفاع هيبة أوربا بالبلاد . فلما أن انكشف عن أعين اليابانيين قناع الانخداع بالغرب بعد معاهدة واشنطون والاضطرابات الاجتماعية والاقتصادية التى تولدت عن تحول المجتمع إلى مجتمع صناعى ، وبعد الكساد الذى نزل بطبقة الفلاحين التى كانت تجند القوات المسلحة من بين صفوفها ، ابتعثت مذاهب الشنتو وأخذت شكلا جديداً . وكانت فى جوهرها نفس الصيحة الداعية إلى « توقير الإمبراطور وطرد الأجنبى » ، بما فى ذلك بطبيعة الحال اليابانى الشبيه بالأجنبى الذى يتحدث عن الحكومة البرلمانية وسياسة الوزارات .

وبلغت الحركة ذروتها فى ١٩٣٦ ، يوم قام بعض ضباط وجنود الفرقة الثالثة مشاة من الفيلق الأول بثورة انتهت بالإخفاق وهم يومئذ فى طريقهم إلى منشوكو تنفيذاً للأوامر . وكان غرضهم « إرجاع السلطان للإمبراطور » . وقد زحفوا إلى نقاط مختلفة بالعاصمة ثم حاصروا منزل رئيس الوزارة ، وقتلوا بصورة منظمة عدداً من كبار الشخصيات السياسية الزعيمة بل لقد أودوا بحياة بعض القواد التقدميين . وطلب القوم الأمير ساينوجى آخر من بقى على قيد الحياة من طائفة الجنرو ، ولكنهم لم يعثروا له على أثر . واحتل الثائرون رئاسة الشرطة ووزارة الحرب ومبانى الدايت الجديد ، وظلوا ثلاثة أيام يقاومون كل محاولة لإرجاعهم إلى جادة

الصواب . ولم يردهم إلى التزام الطاعة إلا أمر إمبراطورى . فكأن الثورة التى كانوا يرمون إليها قد تحولت إلى تمرد بسيط .

وبذلك أحبطت إلى حين حكمة الأمير سايونچى واعتداله مساعى الوطنيين المتطرفين الذين كانت تلك الفئة تمثلهم ، ولكنهم قد بلغوا بالفعل غايتهم . فلم تعد البلاد إلى حكومات الأحزاب . وبعد التمرد بستة أشهر قبل الجميع كبرنامج لليابان الجديدة « القواعد الأساسية للسياسة القومية » ، التى قدمها وزيرا الجيش والبحرية. وسجلت هذه الوثيقة أفول نجم حركة التحرير باليابان وصبغها بالصباغ الغربى . وهى تنص كما يوضح ذلك الاقتباس المقتبس فى الحكم الذى صدر عن المحكمة العسكرية الدولية بالشرق الأقصى على التالى :

١ — إن اليابان ينبغى عليها أن تصحح السياسات العدوانية التى تتبعها الدول العظمى وأن تحقق روح السبيل الإمبراطورى بإتباع سياسة متصلة الحلقات من التوسع الإمبراطورى .

٢ — ينبغى على اليابان أن تستكمل دفاعها القومى وتسليحها لتثبت مركز الإمبراطورية بوصفها الدولة التى تثبت الأوضاع بشرق آسيا .

٣ — تتوقع اليابان لمنشوكو التطور السليم ولذا فهى تأمل أن يثبت الدفاع القومى المشترك بين اليابان ومنشوكو : ورغبة فى النهوض بالتطور الاقتصادى ، تنوى اليابان التخلص من خطر اتحاد الروسيا السوڤييتية : وعمل الاستعدادات الحربية درءاً لعدوان بريطانيا والولايات المتحدة وإنشاء التعاون الوثيق بين اليابان ومنشوكو والصين : وفى أثناء تنفيذ هذه السياسة المستديمة ينبغى على اليابان أن توجه عنايتها إلى العلاقات الودية نحو الدول الأخرى .

٤ — وتنوى اليابان أن تنهض بتطورها العنصرى والاقتصادى رعاية منها لأبنائها فى البحر الجنوبى ، وستحاول دون أن تستثير الدول الأخرى ، أن تزيد فى قوتها بالوسائل المعتدلة والسلمية . وهكذا يجوز لليابان أن تأمل أنها بعد استقرار الأمور فى منشوكو ستبلغ بمواردها الطبيعية حد التطور الكامل

فضلا عن تطور دفاعها القومى .

تلك هى سياسة التباعد عن الغرب ، كما أنها كانت النتيجة المنطقية لا لسياستها العدوانية فقط ، بل للسياسة التى اتبعتها أمريكا بعد الحرب الكبرى الأولى ، تلك السياسة الهادفة إلى إجبار اليابان إلى التزام جانب العزلة الديبلوماسية .

الفصل الخامس

المناطق الأخرى من آسيا

إن السلطان الأوربى لم يبدأ فى التراجع ببلاد الهند والصين فقط بعد الحرب الكبرى الأولى . فإن الوضع قد تغير فى كل من أفغانستان وسيام والهند الصينية وأندونيسيا . لقد ألم به تغيير ملحوظ لا شك فيه يرجع بدرجة ما إلى الوضع الذى تغير فى كل من الهند والصين . فإن الملك أمان الله خان الأفغانى رفض أن يرتبط بالقيود التى فرضتها بريطانيا على سيادة أبيه ، وانتهز فرصة سآمة البريطانيين من الحرب ، فأقدم على فتح باب القتال على حدود الهند البريطانية . واعترفت المعاهدة التى عقبت الحرب بأفغانستان دولة مستقلة ذات سيادة . وسارعت الحكومة السوفييتية على الفور بتقديم اعترافها بها ولم تلبث أفغانستان حتى دخلت سريعاً فى علاقات سياسية مع الدول العظمى جميعاً وحتى ضمت لعضوية عصبة الأمم .

وكان الموقف فى نيبال يختلف عن ذلك نوعاً ما . وبعد حرب ١٩١٤ — ١٩١٨ طالبت مملكة الجوركا أيضاً باعتراف الدول بها دولة ذات سيادة . وفتحت مفوضية لنيبال بلندن ووضعت العلاقات بين الحكومة الهندية والبلاط النيبالى على أساس دولى . بيد أن نيبال لم تكن تواقة إلى تجاوز هذا الوضع الشكلى لأسباب خاصة بها وبوضعها — ذلك أن أهل الرأى فيها رأوا أن فتح باب العلاقات الديبلوماسية مع الدول الأخرى لابد أن يثير بعض المشاكل فيما يتعلق بوضع ملك نيبال الذى كان كإمبراطور اليابان قبل الاسترداد الميجى لسلطاته محروماً من كل نفوذ أو سلطة وموضوعاً فى خلفية الوضع السياسى . وكانت السياسة التقليدية التى انتهجتها الحكومة البريطانية بالهند هى مناصرة سلطان أسرة الرانا التى كانت بيدها مقاليد وراثة رئاسة الوزارة ، وفى مقابل ذلك كانت أسرة رانا تؤيد الحكم البريطانى بالهند تأييدا غير مقيد بأى شرط . بل الواقع ، أنه فى أثناء الحرب الكبرى الأولى ، يوم كان الجيش الهندى يقاتل فى معارك الإمبراطورية بمختلف القارات ، كان جيش الجوركا فى نيبال هو الذى يعمر حاميات الهند . وكانت أسرة رانا فى نيبال على

ذكر تام أن سلطانهم فى نيبال كان يعتمد على مساندة الحكومة البريطانية لهم . وكانوا يدركون أن إنشاء العلاقات الدبلوماسية مع الدول الأخرى سيفتح عليهم ، كما فعل ببلاد اليابان أبواب المشكلة الدستورية المتعلقة بمركز الملك . من أجل ذلك قنعت نيبال بأن يُعترف « فنيا » بمركزها دولة مستقلة استقلالا دولياً. ومع ذلك فقد حدث بعد ذلك أن الحكومة النيبالية اتخذت خطوة أخرى ، هى جعل مبعوثها بلندن مفوضاً عنها بكل من باريس وروما ، ولكن لم يفتح باب المفاوضة فى موضوع تبادل البعثات الدبلوماسية مع الأقطار الأخرى إلا بعد الحرب العالمية الكبرى الثانية .

وقد سبق أن ذكرنا الخطوات التى اتخذها الملك راما السادس بسيام لتحقيق استرداد سيادة سيام غير المقيدة بأى قيد . ومع ذلك فإن اليابان لم تشرع فى سياسة إبعاد الأوربيين عن استغلال ثرواتها ومواردها القومية إلا بعد ثورة ١٩٣٢ . وكان كل من لوانج پرادت والماريشال سونجرام زعيمى الحزبين المتنازعين فى الحياة العامة للبلاد ، يتبعان سياسة واحدة فيما يتعلق بهذه المسألة ، واستطاعت سيام أثناء السنوات العشر للحكومة البرلمانية بها ، قبل اندلاع الحرب بين اليابان والدول الغربية ، أن تتبع سياسة اقتصادية قومية ، كانت إلى حد ما القسيم الاقتصادى لاستردادها لسيادتها السياسية فى حكم الملك راما السادس .

وفى أندونيسيا والهند الصينية أيضاً ، أدركت السلطات الاستعمارية أن التوسع الإمبراطورى كان فى تراجع ونكوص . وكان تاريخ تلك الفترة على نحو ما حدث فى الهند حافلا بالمنازعات والثورات القومية العظيمة المدى ، والقمع الوحشى الذى تبديه الحكومات الاستعمارية والمحاولات غير المخلصة لإيجاد طريق وسط يوفق بين آمال الوطنيين وبين المصالح الاقتصادية والسياسية للدول الكبرى . غير أن كلا من الفرنسيين (على الرغم من العناد الذى كان يبديه زعماؤهم السياسيون فى تصريحاتهم التى كانت تؤكد إصرارهم على القيام برسالة فرنسا الحضارية)، والهولنديين ، برغم إدراكهم التام أن مركز هولندة فى العالم إنما يعتمد تماماً على استغلالها لثروة جزائر الهند الشرقية ، كانوا يدركون أن أيام استعمارهم معدودة ، ولم يكن يقفهم على أقدامهم إلا الأمل فى أن يجدوا وسيلة تمكنهم من إطالة أمد قبضتهم على زمام الأمور لمدة

أطول — بل إن الفرنسيين والهولنديين أنفسهم أصبحوا لا يعتقدون أن سلطانهم سيدوم أبداً . ولم يكونوا يقاتلون إلا قتال مؤخرة جيش متقهقر ، يوم تدخلت قوة اليابان العسكرية ، فأظهرت مدى ضعف حكمهم الاستعمارى بالإضافة إلى إفلاس نظمهم السياسية .

وهكذا شهدت الفترة بين الحربين انهيار نظام السلطان الإمبراطورى ، وجاء ذلك أولا نتيجة لإضعاف النظام الرأسمالى فى دول الاستعمار بغرب أوربا عقب الحرب العظمى . وجاء ثانياً نتيجة لازدياد قوة القوى الوطنية التى فلك وثاقها ظروف الصراع الذى دعيت الأمم الأسيوية للاشتراك فيه ، كما جاء بفضل تدخل أمريكا وبفضل قوة ثورة أكتوبر . ولم تعمل الحرب العالمية الثانية شيئاً إلا أن وجهت الضربة القاضية إلى نظام قد تحطم آنفاً ولم يعد يقوم بعمله بصورة قوية الأثر .

القسم السادس

آسيا تستفيق



الفصل الأول

نظرة عامة

كانت المجتمعات القديمة بالهند والصين واليابان ومن ورائهن دول آسيا الأقل شأناً ، تخضع لنفس النوع الواحد من الضغط وتواجه نفس الخطر ، فلا عجب أنها كانت تعمل على خطوط متماثلة ومتوازية بوجه الإجمال . ولنهضة آسيا بعض الخصائص الإجمالية العامة . فهي — في المقام الأول — محاولة تكللت بالنجاح إلى حد ما لإعادة تنظيم المجتمع بصورة يقصد بها قبل كل شيء التوفيق بين العلاقات التي صارت مهجورة بالية مثل نظام الطوائف بالهند والنظام الإقطاعي باليابان وتجمد الحياة الاجتماعية بالصين . وكان الغرض المقصود من إعادة تنظيم المجتمع ذاك ، هو مقاومة الضغط . لذلك بدىء بتنظيمه من القمة . ولم يحدث في أي مكان أن كان التنظيم حركة تبدأ من القاعدة ، ولو كان انتفاضة من الاحتجاج الاجتماعي الذي نجم عما تقاسية الكتل الحاشدة من آلام أو ما ألم بضميرها من يقظة . وكانت قوة ذلك التنظيم تكمن بالضرورة وراء رغبة كل أمة في الاحتفاظ بما تملك ، وكان المصدر الأصلي للزعامة فيها هو الطبقات التي كانت تنزع إلى المحافظة بحكم تقاليدها الفكرية ، كما سنوضح ذلك بعد ، ولم يكن الأصل في البعث الأسيوي الرغبة في التقدم أو التحسن . وإنما هو العزم على مقاومة الأجنبي الذي كان يوجه هجماته في جميع الاتجاهات السياسي منها والاجتماعي والاقتصادي والديني . ولم يكن الدافع الرئيسي إلى التغييرات في المجتمعات الأسيوية هو الرغبة في التغييرات الثورية بل الرغبة في القوة القومية . كانت المسألة مسألة مجتمعات قديمة أخذت تستنهض قواها النائمة وتعبؤها لملاقاة عدوان واقع . ولم تكن الحاجة إلى إعادة تنظيم المجتمع تعتبر ماسة وملحة ويتقبلها الناس جميعاً حتى أرباب المصالح الاستعمارية دون احتجاج جدى ، إلا لأن القوم شعروا أنه ما لم يتهيأ لهم تعديل العلاقات الاجتماعية ، فلن تجتمع لديهم القوة اللازمة لمقاومة أوربا . ومن الضروري لنا أن نتذكر ذلك الأمر عند ما نشهد البراهمة في ثنايا قصتنا يبشرون بإلغاء مذهب

النجس ، ونرى ابن السماء يأمر بإجراء الإصلاحات ونشهد الدايميونات اليابانيين يتنازلون عن سلطتهم دون الإقدام على القتال دونها .

وثانياً : أدرك القوم منذ البداية أن التعديلات الاجتماعية الجوهرية لا يمكن أن تتم دون إصلاح الدين . وكان المقصود بالحركة من ناحية أخرى مقاومة العدوان . وكانت حركة الإصلاح تتخذ هيئات مختلفة اختلافاً بالغاً تبعاً لاختلاف تمسك الناس بالدين ومدى ضعفه الظاهرى فى مختلف أقطار آسيا . وكانت تحتاج فى الهند إلى إعادة نظر شاملة فى المعتقدات الجوهرية ، أى تحتاج إلى تأويل جديد للمعتقدات القديمة حتى تعالج علاجاً يجعلها تتسق ومستلزمات الناس الحديثة وتكوين فلسفة عامة فى حدود تقاليد الفكر الدينى الهندى ، ولكنها قادرة على ملاقاة فلسفات الغرب المنافسة لها ، وأخيراً خلق إحساس دينى أصيل وابتعاث للعقيدة من جديد يمكنها من الصمود أمام هجمة أوربا عليها محتشدة عن طريق هيئاتها التبشيرية . فأما بورما وسيام القطران البوذيان ، فكانت المسألة فيهما أبسط وأقل تعقيداً . أما الصين ، فكان الوضع فيها مختلفاً ، إذ كانت المبادىء الخلقية التى يدعو إليها النظام الكونفوشيوسى معرضة لهجمات كل من القوى الخارجية والتطورات الداخلية دون تسلحها بقوة العقيدة الدينية ، ولذا فإن ناحية النهضة هذه ، أصبحت كما سنحاول أن نريك ، نزعة عقلية وتحريرية . وكانت من ثم قاصرة على الدوائر الفكرية. وفى اليابان ، كان تنظيم المذهب الشنتوى ورفعه إلى مرتبة عقيدة قومية من الأمور التى تمت تحت رعاية الحكومة والتى كانت تكون شطراً جوهرياً فى نهضة اليابان القومية .

وكانت الناحية الثالثة للنهضة الأسيوية محاولة تمثل علوم الغرب وفكره . وهنا أيضاً كانت المعالجة تقوم على دافع البقاء القومى والقوة الوطنية . وسرعان ما تحققت الأمم الأسيوية أنها ما لم تقبل العلوم الحديثة وتتلقاها عن الغرب وتتمثلها وتستخدم لمصلحتها القوة التى تتيحها تلك المعرفة ، فلن تتاح لها إلا أضأل الفرص فى البقاء فضلا عن استرجاع المجد والقوة . هذا وإن الرغبة الجارفة فى الإلمام بالمعرفة الغربية ، وهى الخاصية التى تميزت بها الحياة الفكرية بالهند والصين واليابان أثناء ثلاثة الأرباع الأخيرة من القرن ، لم تكن فى الحقيقة كما يشاء كثير من أهل أوربا أن يعتقدوا

معاندين ، قبولا عن طيب خاطر لتفوق الغرب على حضارة الشرق ، بل كانت رغبة فى تفهم القوى التى تحرك قوة أوربا وتولدها ، واستخدامها فى صالح أسيا والأسيويين . أجل إن أسيا تبنت فى ثنايا بحثها عن تلك المعرفة قدراً عظيما من الفكر الإنسانى المتحرر لدى الغربيين . وأنها كيفت نظمها وأشكالها الاجتماعية والسياسية وفق أدب أوربا وفنها كما أنها تأثرت عميقاً بهما . ومع ذلك فمن المبالغة القول بأن آسيا قد تأثرت بدرجة كبيرة بمؤثرات أوربا فى النواحى الأدبية والفنية أو فى حقل الفكر الفلسفى . أجل إن أدب كل من الهند والصين واليابان قد استعار أشكال الأدب الأوربى بل حتى صيغه أحياناً ، بيد أن مصدر الإلهام لديهم كان تقاليدهم الحية الضخمة ، وذلك باستثناء فترة السنوات الأخيرة ، يوم أصبح انسحاب أوربا أمراً واقعاً أو يكاد . وصار تطور الخلق والابتكار الفنى فى نفس الدرب . فتبنى القوم أصولا فنية جديدة بل جربوا استخدام أشكال جديدة ، ولكن لم يكن هناك من الغرب أى إلهام يمكن ذكره . حقاً لقد أثرت دراسة العلوم الجديدة فكانت خميرة فكرية ساعدت على النهضة الأدبية والفنية بأسيا لكن هذه النهضة كانت قومية فى أساسها .

وثمة خصيصة رابعة وأخيرة هى التأكيد التام على النزعة الوطنية . ذلك أن نمو الشعور الوطنى كان النتيجة المباشرة لرد الفعل تجاه العدوان الغربى . وهناك نقطة سنعاود الحديث فيها فيما بعد ، هى أنه ينبغى ألا يغرب عن بالنا ، أن حاسة الوطنية الاعتزالية ليست شيئاً عظيم القدم لا فى أوربا ولا فى أسيا . ففى أوربا لم تكن العصور الوسطى تضم فكرات القومية الفردية . بل إن نموها حدث فى آن واحد مع فترة التوسع الأوربى ، كما أنها لم تصبح عقيدة مقررة مقبولة بأوربا إلا بعد عصر نابليون . على أن الذى حدث فى أسيا ، هو أنه بينما اليابان قد طورت بسبب موقعها الجزرى إحساساً معيناً بالوطنية — وإن وجب علينا أن نؤكد أنه إحساس قيدته حاسة شديدة من الإقطاع — فإن ما كان يوجد بالصين كان لاجرم إحساساً بالعظمة الإمبراطورية يماثل إحساس الإمبراطورية الرومانية ، كما أن ما حفظ الهند حية وسليمة إنما هو بعض تقاليد التواصل والاستمرار التى جرت مجراها على يد الهندوكية . وكان تحويل هذه المشاعر إلى « حاسة أمة » ناحية جوهرية فى النهضة الأسيوية .

وإذا نظرنا إلى المسألة فى داخل إطار الخصائص العامة ، وجدناها تختلف فى تعقيدها اختلافاً بيناً . وكان تنظيم الحياة الهندية من جديد أصعب كثيراً ، وذلك لأن الهند كانت تفتقد حاسة الوحدة السياسية التى كانت موجودة بالصين ، بل لقد كانت موجودة باليابان بدرجة أعظم ، وكان لابد هنا من خلقها ابتداءً . هذا إلى أن الديانة الهندوكية بما لها من فروع عديدة تمس كل ناحية من نواحى الحياة ، وبما لها من نظام للطوائف وما لها من عرف وقوانين ، تشكل أمام المصلحين مشكلة شديدة التعقيد . وفوق هذا فإن الحاجة إلى الإصلاح كانت بالهندوكية أمسّ منها بالهيئات الاجتماعية الأخرى فى أسيا . ثم إن الأحوال السياسية التى لم يكن بد من أن تتم الإصلاحات بظلها كانت تختلف أيضاً اختلافاً جذرياً عميقاً . وقد تمكنت اليابان وسيام بقيادة ملكياتهما القومية أن توجها العملية وجهتها وأن تحدثا التكييفات اللازمة فى حدود أضيق الاضطرابات الاجتماعية . وإذا انتقلت إلى الهند وجدت أن قيام حكومة واحدة فى البلاد من أقصاها إلى أقصاها حكومة تسهر على القانون والنظام وتزود القوم بتعليم متسق متماثل بكل أرجاء البلاد ، جعل فى إمكان القوى التى تولدت من أثر الصدمة بأوربا أن تنمو وتتكامل دون أن يعترض طريقها معترض . فاما الصين فإن ما حدث بها من انهيار الحكم المركزى والحدود التى فرضتها على سيادة الإمبراطور المعاهدات غير المتكافئة ، وبخاصة معاهدات الامتيازات القضائية ، فضلا عما كانت تبديه هيئات التبشير التابعة لملل وعقائد مسيحية متنوعة من ألوان النشاط غير المقيد ، وأخيراً منافسات الدول العظمى ومؤامراتها بما امتلأت به من تلهف على إنشاء مناطق النفوذ ، وما مارست به سلطاتها غير مقيدة بأى شعور بالمسئولية ، — أفضت مجتمعة إلى انهيار كل من الكيانين السياسى والاجتماعى بالبلاد ، وهو أمر أفضى بها إلى ثورة ١٩١١—١٩١٢ . وسنعالج فيما بعد الأهمية الهائلة لهذا الفرق الذى أدى إلى حرمان الصين من كل نظام اجتماعى قوى ثابت الأركان وغادر نهضتها ناقصة بتراء يوم بدأت الفكرات الجديدة عن الثورة الروسية فى الانتشار . وبحسبنا الآن أن نلحظ أنه بينما الحركة الهادفة إلى إعادة التنظيم كانت عامة تشمل أسيا بأكملها ، وكان الدافع إليها متشابها فى كل مكان ، فإن نتائجها كانت غير متساوية ، حيث تتوقف إلى حد كبير على الظروف السياسية لكل قطر وقوة الضغط المفروض عليه .

الفصل الثانى

الهند*

إن حركة الإصلاح الدينى الهندوكى فى القرن التاسع عشر من أعظم حركات العصر ، وهى حركة تتبوأ بما أوتيت من ضخامة وأهمية بعيدة المدى ، مكانها بين مصاف أعظم تطورات التاريخ الحديث حيوية . ولما كان ذلك الإصلاح عملية بطيئة حدثت تحت جناح النفوذ البريطانى ولم تكن ظاهرة على الدوام لعين الأجانب ، فإن الناس لم ينتبهوا إليه حتى هذه الساعة . وهناك سبب آخر لعدم إدراك الناس له على الرغم من أهميته الهائلة ، هو أنه بحكم طبيعته حركة داخلية لا مساس لها ولا تأثير على الأحداث الخارجية . على أن استقلال الهند وانبثاقها إلى جو العالم العصرى ما كان ليتم لولا التكيفات البطيئة الأساسية أيضاً التى حدثت بين طيات الهندوكية فى مدى مئة من السنين .

ولكى يتهيأ لنا تقدير تلك الحركة حق قدرها يتحتم علينا أن نفهم طبيعة مركز الهندوكية عند بداية القرن التاسع عشر . كان قد انقضى سبعمئة عام على بسط الإسلام سلطانه على سهول الكنج من دلهى إلى كلكتا وقد أثر ذلك فى الملة الهندوكية فجعلها فى حال التضعضع والتدلى . كانت ديانة شعب محكوم ينظر إليها المسلمون باحتقار كعبادة أوثان . ولم يكن لها أية كرامة وانقضت عدة قرون لا يسمح لممارسيها بأداء شعائرها فى كثير من الأماكن إلا فى ظروف من شديد العنت والتضييق . ولم تكن لها هيئة مركزية توجهها ، ولا تنظيم كما لم تكد تقوم لها زعامة . فلما أن قبض البريطانيون على زمام الحكم بشمال الهند ، وقفت الهندوكية لأول مرة بعد سبعمئة عام على قدم المساواة مع الإسلام . غير أنه ظهر على مسرح الحوادث نذير سوء جديد يكاد يكون أخطر من الإسلام . ذلك أن البعثات التبشيرية أحست بأن بين يديها هنا حقلا بكراً أو يكاد ، فى مجتمع قد بدت عليه بوادر

* يلخص هذا الفصل قسما من كتاب « The Indian Revolution » للمؤلف بومباى ١٩٥١ .

الانحلال ، فأقبلت على عملية التبشير والتنصير . ومع أن الإسلام كان يقوم بعملية تبشير متقطعة غير متصلة الحلقات ، فإنه لم يكن لديه جهاز مخصص لحمل رسالته إلى الشعب . ولكن بعثات التبشير المسيحية كانت على غير ذلك الحال . فإنهم لم يكونوا يستخدمون القوة ، التى لم يكن الإسلام يتردد فى استخدامها بين حين وآخر وفى مناطق محدودة . ولكن تلك البعثات كانت تجئ مسلحة بجميع وسائل الدعاية . وقد سبق أن عالجنا فى شئ من التفصيل تاريخ تلك الحركة التبشيرية بالهند ، وحللنا للقارئ أسباب فشل جهودها فى كل من مجالى التبشير الصريح وحقل التربية والتعليم . وسنقتصر هنا على تبيان الآثار التى خلفتها فى ثنايا الهندوكية ذاتها ؛ وكانت أولى نتائج مهاجمة المسيحية للهندوكية نشوء حركة بين المتعلمين من الهندوس تدعو إلى القيام بإصلاح اجتماعى فى الدين . وكان زعيم تلك الحركة رام موهان رُوى (١٧٧٢ — ١٨٣٣) ، وهو الشخص الذى يمكننا أن نسميه أبا الإصلاح الهندوكى . ولد فى عائلة برهمانية ، ونشىء على شديد التمسك بعقيدته ، ولكنه تعلم بين أحضان الثقافة الإسلامية ككل هندوكى يرجو أن ينتظم فى سلك الوظائف العامة . وعندما دخل فى خدمة شركة الهند الشرقية ، كان عميق العلم باللغتين العربية والفارسية ، وأبلى فى خدمة الشركة بلاء حسناً وأصبح بين المبرزين من رجالها إلى حد ما . وانقلب فى تلك المدة إلى الإنجليزية يدرسها ، فتفتحت أمامه آفاق الفكر الأوربى المتحرر — وكان هذا هو العصر الذى بلغ فيه التنور الأوربى ذروته فأضفى على حياة أوربا الفكرية غلالة من السكون المدهش وإحساساً من الثقة بالنفس . ولم يكن قد خبا بعد ضياء دى هولباخ وكوندورسيه وديدروه والموسوعيين العظام ، كما كان لم يتنفس بعد فجر حركة مفكرى القرن التاسع عشر العظام ولا سيما بنثام والفلاسفة النفعيين بانجلترة ، وهى الحركة التى قدر لها أعظم الأثر والسلطان فى تطور الفكر ببلاد الهند .

ونظر رام موهان حوله فإذا آثار الخراب والدمار تريم على كل شىء . وقد ولت منذ هنيهة أيام الحكم الإسلامى مخلفة وراءها الفوضى والاضطراب فى كل سبيل من سبل الحياة . وفى البنغال التى كانت فى أحد الأيام مركزاً لعقيدة فشناويه تعبدية ذات حيوية كبيرة ، هبطت الهندوكية إلى مستوى خفيض جداً من

الخزعبلات والغلو والفسوق . ولما كان رام موهان رجلا ينشد الصدق والحق ، فإنه انقلب إلى الدين الجديد الذى كان المبشرون يبشرون به — ولكى يجيد فهم المسيحية أكب على دراسة العبرية واليونانية . بيد أن دراساته كانت تنقله فى الوقت ذاته إلى معين الأفكار الأوربية المتحررة. والواقع أن رام موهان روى كان آخر الموسوعيين وهكذا انتهى به المطاف إلى نبذ المسيح والمسيحية ، على حين اقتنع بالنزعات الإنسانية الرحيبة للفكر الأوربى ، وسر بنواحيه الخلقية وطريقته العامة فى معالجة شئون الحياة . وإن كتابه : « سنن عيسى : الهادى إلى السلام والسعادة » ، إنما هو تفسير للمسيحية تحت إشعاع هذا النور الجديد ، كما أنه رد على المبشرين أكثر منه دعوة إلى الهنود .

على هذا النحو نبذ رام موهان روى مدعيات المسيحيين ، وقد أدرك أن الهندوكية لابد لها من مفسر جديد يعيد تفسيرها للناس ، فأنشأ طائفة إصلاحية جديدة من الهندوكية أسماها طائفة البراهموساماج محاولا أن يبث بواسطتها تفسيره الجديد . ولم تكن الساماج من حيث الجوهر مظهراً خداعاً للمسيحية فى ثوب هندوكى ، وهى الفكرة التى كثر ترديد الناس لها ، بل كانت تجميعاً يؤلف بين مبادىء الاستنارة الأوربية ، وبين الآراء الفلسفية لجماعة يوپانيشاد . وكانت البراهمو ساماج كعقيدة ، مؤسسة أقوى تأسيس على ڤيدانتا التقاليد الهندوكية الأصيلة . ولكن نظرتها إلى الحياة لم تكن مسيحية ولا هندوكية ، بل أوربية ، تستمد إلهامها من الحركات الفكرية فى القرن الثامن عشر .

وهكذا يمكن أن يقال إن الهند بدأت منذ سنة ١٨٢٠ تنخرط فى سلك التيار المباشر للفكر الأوربى ، وشرعت تساهم فى ثمرات الاستطلاع الفكرى الأوربى . وكانت طائفة البراهمو ساماج تعيش مستهدية بهدى هذا المثل الأعلى . وكانت رسالتها الاجتماعية تقوم على طبع البلاد بطابع غربى وعلى تطهير الهندوكية من صنوف العرف والخرافات التى تراكمت عليها ، وعلى رفع وضع النساء فى المجتمع ، وعلى سد الثغرة التى تفصل بين نوعى الهندوكية السامى والخفيض ، وعلى شن القتال دون هوادة على الطائفية والتابوهات الاجتماعية وتعدد الزوجات إلى غير ذلك من الممارسات السيئة العميقة التغلغل فى نفوس القوم . وكانت طائفة البراهمو ساماج

تشير بيديها موضحة معالم طريق الهداية والإرشاد أمام الهندوسى المتعلم الذى كان يحس قلقاً عقلياً بسبب ما يشنه المبشرون من هجمات على عقيدته .

وإن التقاليد البراهمو ساماجية قد تغلغلت الآن فى صميم طريقة العيش الهندية حتى صارت فيها جزءاً لا يتجزأ ، بدرجة تجنح بنا إلى إغفال أثرها وفضلها . ولا تنحصر أهميتها ابتداء فى أنها مكنت الهندوكية من الصمود أمام حملات المبشرين بل فى أنها أتاحت للناس الطريقة العصرية فى معالجة المشاكل الهندية . وقد بدأت الهند مغامرتها الطويلة فى سبيل تشييد حضارة جديدة كعملية تجميع تؤلف بين الشرق والغرب فى عشرينات القرن التاسع عشر ، وبهذا المعنى يكون رام موهان رائد الهند الجديدة . وقد سبق أن أكدنا أنه « يجسد الروح الجديدة وحرية البحث فيها وتعطشها إلى العلم وعواطفها الإنسانية الكبيرة وأخلاقياتها النقية المصفاة مجتمعة كلها مع إكبارها للماضى الحافل بالتوقير له والمقترن بنقده أيضاً ، فضلا عما يتسم به من حصافة فى عدم ميله إلى التمرد والعصيان » .

وكانت روح الإصلاح تتدسس إلى الهندوكية من مصادر أخرى . ففى ١٨٣٥ أعلنت حكومة الهند أن : « الهدف الأعظم الذى يشخص إليه الحكم البريطانى ينبغى أن يكون هو رفع شأن الآداب والعلوم الأوربية بين سكان الهند » ، ومن ثم شرعت فى الأخذ بسياسة نشر التعليم الغربى ، الذى سنبحث آثاره فى موضع آخر . وكان اللورد ماكولى يرجو مخلصاً ، وهو أكبر نصير لتلك الخطة ولكثير غيرها ، أن يؤدى انتشار النوع الجديد من التعليم بين الطبقات العليا إلى انحلال الهندوكية واتساع الإقبال على اعتناق المسيحية . وكان المبشرون أيضاً يرون ذلك الرأى ، فنزلوا من ثم حومة الميدان التعليمى تحدوهم الحماسة ، وأقاموا المدارس والكليات بكثير من أجزاء الهند ، التى كان تعلم الكتاب المقدس المسيحى فيها إجبارياً على الطلبة الهندوك . وتقبلت الطبقات الوسطى التعليم الغربى بغبطة وتلهف وقبلت عن طيب خاطر دراسة الكتب المنزلة المسيحية ، ولكن لم تبد أى بادرة تبشر بتحقيق أى غرض من الغرضين المنشودين ، فلم يتم انحلال المجتمع الهندوكى الذى كان تنبأ به القوم ورجوا حدوثه بحرارة ولا تحقق رجاؤهم فى اعتناق المفكرين للمسيحية . وفضلا عن ذلك تمثلت الهندوكية العلوم الحديثة ، وسرعان ما تجلت

آثار ذلك واضحة فى كل أرجاء الهند فى نهضة جديدة لعقيدة عممت بين الناس جميعاً وأقيمت على الڤيدانتا .

ومن الضرورى أن نتذكر أنه وإن كانت الديانة الهندوكية لها ما لا حصر له من النحل والطوائف ، فإن الأساس الفلسفى لهن جميعاً — بما فى ذلك البوذية — هو الڤيدانتا . ومبادىء الڤيدانتا وسننها تضمها ثلاثة أسفار معتمدة، ليست من الكتب المنزلة ، وهى البراهماسوتراس واليوبانيشاد والجيتا . وكل طائفة سليمة العقيدة بالهند تستمد إسنادها وسلطتها من هاته الكتب ، كما أن أنصار كل طائفة دينية جديدة يحاولون كما أسلفنا فى الفصل السابق ، أن يظهروا أن تعاليمهم الدينية تستقى مباشرة من هذه المصادر الثلاثة . وهكذا حدث أن سانكارا مصلح الهندوكية فى القرن الثامن ، قد اضطر أن يكتب تعليقه على الثلاثة جميعاً . وإلى مبادىء الڤيدانتا ، كما يصورها سفر اليوبانيشاد ، أكب رام موهان روى عند ما أحس هو أيضاً بالحاجة إلى تفسير دينى جديد .

ولم تكن الهند الجديدة تطالب بقيام طائفة جديدة — بل بدين عام يستطيع الهندوك جميعاً أن يقبلوه . وكانت المحاولة الأولى لإعداد ذلك الأساس ، هى محاولة داياناندا ساراسواتى الذى رأى أن أسفار الڤيدا هى كلمة الله الموحاة ، وأحس أنه لما كانت أسفار الڤيدا موضع القبول من كل من ادعى أنه هندوكى ، فلا بد أن تحظى الديانة المؤسسة على الڤيدا بالقبول من الهند عامة . وللمسلمين كتابهم المنزل وهو القرآن الكريم . وللمسيحيين كتابهم المقدس ، ولذا شعر سوامى دايانا ندا أن ما فطرت عليه طبيعة الهندوكية من انعدام الشكل والتحديد انعداماً عرضها للكثير من الضعف والوهن ؛ يمكن معالجته بإمداد الهندوك أيضاً بكتاب منزل . وزاد فى يقينه بصحة ذلك النهج علمه بأن أسفار الڤيدا لا تحتوى على أى نص يؤيد العرف والخرافات التى دأب الناس بالهند على قبولها واعتناقها باعتبارها الهندوكية . ولم يكن بالڤيدا أى نص يبيح نظام الطوائف ، ولا أى نص يمنع زواج الأرامل ولا على النجس وعلى محظورات (تابوهات) الطعام إلى غير ذلك من خصائص الهندوكية التى تلمسها المبشرون فى حملاتهم الدينية والتى نبذها أهل الرأى والفكر من الهندوك .

وكتب سوامى دايانائدا كتابه ساتيارثا پراكساه أو ضياء المعنى الحق ، وهو محاولة جريئة وماهرة ، حاول بها أن يكتشف فى أسفار الڤيدا كل ما يدعى المسلمون والمسيحيون أنه أساس لعقيدتيهما ، وأعنى بذلك الأخوة الشاملة بين الناس جميعاً والاتصال بالله اتصالا مباشراً غير غيبى (غير ميتافزيقى) .

وظهرت طائفته المسماة « آريا ساماچ » ، ومهما يكن مدى نجاحها كمنظمة عدوانية يقصد بها حماية الهندوكية من هجمات الإسلام والمسيحية عليها ، فإنها لم ترق البتة فى أعين الهندوك خارج إقليم البنچاب . وأسباب ذلك بسيطة جداً. فإن محاولة الرجوع إلى أسفار الڤيدا كانت تنطوى على إنكار الثقافة الهندوكية التى قامت إبان السنوات الثلاثة الآلاف الأخيرة ، كما تنطوى على رفض الاعتراف بوجود أى خير فى الدين البورانى[1] ، ونبذ للتقاليد المنوعة التى ملأت الفكر الهندوكى ثروة جذلة فى العصور الوسطى ، وكلها أمور رفضتها جماعة « الآريا ساماچ » دون أدنى تردد ، ولم تتوان عن مهاجمتها دون تحفظ ، ومن جهة أخرى انقطعت منذ أمد بعيد كل صلة بين دين الڤيدا وبين طقوس الهندوك الدينية . وقد صب سفر الجيتاجام سخريته على ما تنص عليه الڤيدا من قرابين ، وجعل فريق الڤيدا فاداراتا ، (وهم من يبتهجون بالجدل على أساس أسفار الڤيدا) هدفاً للاحتقار. ومما كان يناقض كذلك تقاليد الهندوكية شدة ميل طائفة الآريا ساماچ إلى اعتزال غيرها من الطوائف بدرجة تصل إلى عدم التسامح إزاء الطقوك والممارسات الدينية الأخرى ، وإن لم يكن ذلك الاعتزال إلا عكساً للقتال المديد مع العقائد التى تستميل إليها الأنصار ،قتالا هو بالضرورة وقاء دفاعى ، وذلك بينما الهندوكية تستمسك بشدة بالمبدأ الذى كانت سفر الجيتا يبشر به وهو : « إن الناس يعبدوننى بطرائق شتى ، وإنى لأمنحهم الثمرات التى تتناسب وعبادتهم » .

والهندوكى لا ينكر على أية ديانة صدقها ، ولا هو ينبذ جانباً ما يتصل بخبرة الغير الدينية من صدق . ولكن أتباع « الآريا ساماچ » كانوا شديدى الاعتزال لغيرهم من الطوائف ، وذلك على الأقل أيام معتركهم الجدلى . من أجل ذلك لم تنتشر

---

(١) البورانى : نسبة إلى البورانا ، وهو أحد الأسفار السنسكريتية المقدسة التى تعالج خلق العالم وتاريخ الآلهة . (المترجم)

الحركة إلى أجزاء أخرى من الهند ، ولم يتجاوز انتشار سلطانها إقليمى دلهى والبنجاب . وبفضل نشاط جماعة الثيوصوفيين ، التى أسسها آلكولونيل آلكووت الأمريكى والسيدة بلاڤاتسكى الروسية تحقق إلى حين ما الدافع الذى كان يدعو المتعلمين من الهندوك إلى البحث عن اسم مشترك يطلق على طوائفهم المختلفة ، وهو الوضع الذى لم تستطع أن تحققه أية واحدة من هاته الحركات . وشخص الهندوك المتعلمون فى كل أرجاء البلاد بأبصارهم إلى الجمعية الثيوصوفية ، التى أدخلت إلى الهند جهاز النشاط الدينى الأوربى ووسائل دعايتها . ولكن تفسير تلك الجمعية للديانة الهندوكية اتبع السنة السلفية الدقيقة ، كما أن كثيراً من زعمائها الهنود مثل الدكتور بها جوان داز من بنارس والسير س . سوبرا مانيا آيار من مدراس ، كانوا أيضاً من زعماء العقيدة الهندوكية الصحيحة . ومع ذلك ، فإن مبادئها الاجتماعية كانت تقدمية وأعظم أهمية ، واخترقت آراؤها الخطوط الطائفية للجهاز الدينى الهندى .

وكانت الحركة الهندوكية الثيوصوفية حركة تدعو إلى وحدة الهند كما أنها أثرت أعظم الأثر فى رأى الجيل الجديد . وعندما تولت رئاسة الجمعية السيدة آنى بيزانت ، وهى سيدة ذات مواهب عالية وقدرة على الإقناع وشخصية محركة دافعة ، زاد وضوح دعايتها فى سبيل إصلاح العقيدة الهندوكية وجعلها دينا عاماً ، وظلت تعمل بلا توقف ولا هوادة عن طريق المدارس والكليات وإنتاج هائل من المؤلفات والمطبوعات . وانغمست السيدة بيزانت فى الثقافة الهندية أيما انغماس ، كما أنها اتجهت إلى الڤيدانتا بصورة حبيبة إلى الشعب كما تشهد بذلك ترجمتها لسفر الجيتا .

وكان الإصلاح الڤيدانتى قد أخذت تباشيره تبدو فى الجو ، وكان سوامى ڤيڤيكاناندا صاحب أقرب تفاسيره إلى قلوب الناس . وهو رجل بنغالى تعلم ببلاد الغرب ، ووقع تحت تأثير راما كرشنا ، وهو متصوف دينى خلفت شخصيته أثراً عميقاً فى المجتمع البنغالى فى عصره ، وكانت تشتعل بنفس ڤيڤيكاناندا رغبة متأججة شوقاً إلى انبعاث الهندوكية وتنقية تعاليمها الدينية والاجتماعية . دخل عضواً بمرتبة سانياسى ، وأخذ يجول فى الهند من أقصاها إلى أقصاها وهو ينشر بين الناس إنجيل الڤيدانتا . وأدت جولة له بأمريكا وزيارة لانجلترة إلى إشعال لهيب

الوطنية فى نفسه ، وأججت رغبته فى إعادة حيوية الشباب إلى المجتمع الهندوكى وإلى بث هدف اجتماعى فى العقيدة الهندوكية . وإن فى تصريحه الحار بأنه « لا يؤمن بدين لا يمسح العبرات من عيون الأرامل ولا يضع مضغة من خبز فى فم اليتيم » ، ليوضح بأجلى بيان تغير مزاج الهندوكية . وقد وصف رسالته بين الناس بالتالى . فأجاب على سائل سأله : « ما هى فى رأيك وظيفة حركتكم فيما يتعلق بالهند ؟ » قال : « إن هدفنا هو أن نجد الأسس العامة للهندوكية ونوقظ الشعور القومى ونبهه إليها » . وقد اكتشف ذلك الأساس العام فى سفر الڤيدانتا الذى فسره بعبارة يتقبلها الشعب وراح يبشر به فى كل أرجاء الهند دون كلل ولا ملل .

« وكل فيلسوف هندى يتمسك بعقيدة السلف ينبغى له أن يعترف بالڤيدانتا مرجعاً له وسلطاناً كما أن جميع أدياننا فى العصر الحاضر ، مهما يكن ما يظهر فيه بعضها من البساطة الساذجة ، ومهما يبد فى بعض أغراضها من التعقيد وعسر التفسير ، فإن من يفهمها ويدرسها يستطيع أن يتعقبها خطوة خطوة حتى يصل بها إلى ما تضمه اليوپانيشاد من أفكار. ولقد تغلغلت هذه اليوپانيشاد تغلغلا عميقاً فى أرواح جنسنا بحيث أن من درس منكم رمزيات أشد أديان الهندوك سذاجة سيدهشهم أن يجدوا بها أحياناً تعبيرات مجازية مقتبسة من تراتيل اليوبانيشاد . وثم خطرات روحية وفلسفية عظيمة فى تراتيل اليوپانيشاد تدرج اليوم معنا وقد تحولت إلى عبادة منزلية اتخذت شكل الرموز. وهكذا نرى أن الرموز المختلفة التى نستخدمها الآن ، قد انحدرت كلها من الڤيدانتا ، وذلك لأنها قد ذكرت فى الفيدانتا على سبيل المجاز » .

ثم قال : « بذلك تغلغلت الڤيدانتا سواء عن علم أو عن غير علم فى جميع طوائف الهند ، كما أن ما نسميه باسم الهندوكية ، تلك الشجرة البانيانية العاتية ، بكل فروعها الهائلة التى لا يكاد يحصيها عد ، قد فسرت جملة وتفصيلا بتأثير الڤيدانتا ، وإنا لنفكر بالڤيدانتا ونعيش فى الڤيدانتا ونتنفس الڤيدانتا كما أننا نموت فى الڤيدانتا وكل هندوكى منا يفعل ذلك ، سواء شعرنا بذلك أم لم نشعر . »

ولم يقف عند حد التبشير بهذا الإنجيل وحسب ، بل درب هيئة من المبشرين رجالا ربوا أحسن تربية وعاشوا أنقى حياة وامتلأوا بالحمية الدينية ، ليحملوا تلك

الرسالة إلى القرى .

وكان هناك العديد الذى لا يحصى من السانياسية والعلماء الذين كانوا يبشرون بين الناس فى كل ارجاء الهند بالمبادىء نفسها ، وإن لم ينتسبوا إلى أية طائفة بمفردها . والواقع آن نهضة احياء الڤيدانتا فى الفكر الهندوكى فى نهاية القرن التاسع عشر تكون حركة دينية لها أهمية قومية . وفى نهاية هذه الفترة عينها أظهر أوربيندو ما نستطيع أن نسميه بالشرح المثالى لمبادئ الڤيدانتا فجمع تلك الشروح فى كتابه الموسوم : « مقالات عن الجيتا »، ثم فى كتابه الآخر : « الحياة الإلهية » . وبذلك الجهد يمكن أن يقال إن الڤيدانتا أرجعت إلى مكانها الأصلى بوصفها الدعامة العامة لجميع ما بالهند من فكر دينى .

وكان المذهب الذى يجمع الشتات هو الڤيدانتا ، بيد أن المفاهيم التجريدية لتلك المعالجة الفلسفية لم تكن لتتجلى إلا للخاصة المختارة . وبقيت الهندوكية الشعبية على نهجها القديم طائفية تبتلية تقوم على الشعائر اليومية. بيد أنها قد ألم بها أيضاً تغيرات خارقة . فأما الفروع الملتوية الكثيرة العقد فى هذه الشجرة العتيقة فقد سقطت من تلقاء نفسها أو بترت بحكم التدابير التشريعية التى وضعها المصلحون . وأحدث الشعب من الشعب ما ألغى قانون زواج الأطفال الذى كانت تعده كثير من المجتمعات الهندوكية جزءاً ضروريا من دينها . وأبيح زواج الأرامل . ولم تلبث القيود والأغلال المعوقة التى يفرضها نظام الطوائف أن توارت من تلقاء نفسها ، كما حل الضعف بأساس المجتمعات الطائفية القائم على الحرف . وفتحت أبواب المعابد للنجساء والمنبوذين ، وتم فى مدراس أشد الولايات تمسكاً بالعقيدة الصحيحة ، وضع الهبات الدينية الهندوكية تحت رقابة هيئات عامة . واتخذت الحركة الهادفة إلى تجديد تنشئة الطبقات المهيضة شكل حركة قومية ، وبذا أصبحت مشاركتهم فى الحياة الاجتماعية السياسية عنصرا ضخماً فى آخر أيام الحكم البريطانى . وكان للهندوكية الشعبية حياة أقوى كثيراً من حياتها فى أى يوم من أيام العصر الحديث . بيد أنها لم تلبث فى مدى مئة سنة حتى غيرت من طبعها ومزاجها وإن احتفظت بالشيء الكثير من شكلها .

والصعوبة العظمى التى واجهتها الهندوكية والتى جلعتها أشبه الأشياء بخلية

طبيعية كثيفة من العادات والممارسات والخرافات ، هى حرمانها من جهاز للإصلاح والتوحيد . وإن نظم الهندوكية التى صارت إلى حد كبير شيئاً واحداً هى والدين نفسه ، كانت نتيجة عوامل تاريخية معينة . وهى نظم يدعمها القانون دون الدين . وقد أحسن ڤيڤيكا ناندا شرح تلك النقطة عند ما كتب يقول : « إن كل إنسان ابتداء من بوذا إلى رام موهان روى قد وقع فى الخطأ حيث اعتبر نظام الطوائف من النظم الدينية . . . ولكن نظام الطوائف على الرغم من كل هذيان الكهنة ليس إلا نظاماً اجتماعيا مبلورا ، لم يلبث بعد أن أدى مهمته أن ملأ جو الهند نتنا وعفناً » .

إن نظام الطوائف والعائلة الضخمة المتفرعة وحقوق الميراث والعلاقات المترتبة عليها التى هى فى الواقع الأكبر المظاهر الخاصة للمجتمع الهندوكى ، إنما هى مسائل قانونية بأجمعها وليست دينية بأى حال . وكلها أنظمة من صنع يد الإنسان : أنظمة لا تدعى لنفسها أصلا مقدساً ولا شأن لها بالإجازة الدينية ، وتعتمد على على قوانين من صنع الإنسان ، لا على أية كنيسة ولا أى نظام كهنوتى . ولا نجاوز الحق إن قلنا إن تشريع اليوم يواجه حاجات الأمس الاجتماعية ، كما أنه لا مفر للقانون كقوة حافظة من أن يتخلف خطوة واحدة وراء الحاجات الاجتماعية . ولما أن نشأت المجاميع العظيمة للقانون الهندوكى ، فلا شك أنها كانت تمثل القوى الاجتماعية فى ذلك الزمان ، ولكن سرعان ما أصبحت قديمة . ولو ألقيت نظرة على مجموعة متعاقبة من التعقيبات الثقة لتجلى لك أن الدافع إلى التعديل كان شيئاً يحس به الناس جميعاً ، وأنه فى حالة عدم وجود السلطة التشريعية ، كانت الوسيلة الوحيدة الميسرة أمام المفكرين الهندوكيين هى طريقة التفسير المطرد التجدد فى كل جيل جديد .

وإن ما تتصف به القوانين والعادات الهندية من البقاء على حال واحدة لم يكن قط مبدأ من المبادىء التى بحثها واضعو القوانين الكبرى ولا المعقبون عليها . والواقع أن المجلدات الجليلة التى تضم بين دفتيها كتاب « تاريخ دهارما ساسترا » تأليف الدكتور كانى توضح بأجلى بيان أن المفكرين الاجتماعيين يحاولون فى كل عصر تكييف النظم الهندوكية وفق متطلبات العصر . فإذا كانت القوانين قابلة للتغيير ، فإن النظم التى تقام على هذه القوانين تكون بالمثل قابلة للتغيير . ولم تكن نقطة الضعف الكبرى فى المجتمع الهندوكى هى أن القوانين ظلت ثابتة لا تتبدل ، بل فى أن التبديلات التى كانت تدخل كانت تحدث بغير انتظام ، كما كانت محلية

وتعتمد إلى حد كبير على مهارة الشراح والمعقبين الأفراد . ولم تكن بأى حال تجديداً متواصلا للمبادئ القانونية ، ولا عملية تقريب قانونية للظروف المتغيرة .

ولا شك أن السبب فيما ترى من قلة التوجيه فى الأفكار الاجتماعية والعجز عن الحيلولة دون ظهور عادات ضارة بالمجتمع هو عدم وجود القوة السياسية بالبلاد . فإن الهند فى مجموعها لم تكن فقط محرومة دائماً من ولاية سلطة حاكمة واحدة ، وهى الوحدة التى ظلت قائمة مع بعض التقطعات بين حين وآخر — منذ عهد مورياس (٣٢٠ ق . م) إلى عهد هارشا (٦٣٧ م) ، قد مزقتها الظروف السياسية التى قامت فى القرن الثامن . ثم أطاح بها — فترة تربى على سبعمئة سنة — الغزو الإسلامى الذى حدث فى القرن الثانى عشر . وكانت نتيجة ذلك أن المجتمع ظل يحكم بواسطة أنظمة تشكلها قوانين شنت قبل ذلك بأكثر من ألفى عام وكانت غير مطابقة لمقتضى الزمان حتى يوم سنها .

ولم يكن للدولة الإسلامية جهاز تشريعى ، وعند ما وجدت الهند لأول مرة تحت ظل البريطانيين ، وأصبح المجتمع الهندوكى بأجمعه يعيش تحت نظام إدارى موحد ، بذلت سلطات الهند الشرقية جهداً واحداً فى سبيل الإصلاح الاجتماعى ، ثم عادت فانسحبت منكمشة بحجة الحياد الدينى ، وامتنعت بذلك عن كل نشاط فى ذلك السبيل زعماً منها أنه يثير الغوغاء والعامة . وربما كان ذلك التصرف خطوة حكيمة ، وذلك لأن القوة المحركة فى الإصلاحات الاجتماعية الضخمة المعيار لابد أن تجىء من الشعب نفسه . كما أن التشريع لا يستطيع إلا أن يضفى صورة إقرار الوضع الواقع على المبادئ التى تقبلها الناس من قبل جميعاً . من أجل ذلك كان إصلاح الديانة الهندوكية عملا لابد منه قبل الشروع فى وضع التشريعات الاجتماعية .

ولم تنشأ النظم التشريعية للدولة ببلاد الهند إلا بعد الحرب العالمية الأولى . فبمقتضى خطة الحكم الذاتى الجزئ التى وضعت فى ١٩٢١ ، تأسست سلطة تشريعية مركزية ، الغالبية فيها من الهنود المنتخبين غير الموظفين ، وكان فى مكنتها أن تعدل وتغير قوانين الجماعة الهندوكية فضلا عن أن تلزم الناس طاعة تلك القوانين بالهند من أقصاها إلى أقصاها . فأما فى الولايات ، فإن تدبير أمور الحكم انتقل بدرجة كبيرة إلى هيئات تشريعية منتخبة . وكانت الأعمال التشريعية الضخمة التى قامت بها الحكومة المركزية والحكومات الإقليمية فى حقل الإصلاح الاجتماعى جوهرية

وعظيمة ، وإن لم تبلغ فى أى اتجاه مبلغ ما كان يطلبه الجمهور . ومن أهم الآثار التشريعية التى قررتها الجمعية التشريعية المركزية للهند قانون الزواج المدنى وقانون قبول الزوجية (الذى يرفع سن الزواج للبنت إلى ١٤ سنة) . وقانون الزواج المدنى يعترف بصحة عقود الزواج بين رجال ونساء ينتمون إلى طوائف مختلفة بين الهندوك . وهو عملية تدك مفهوم الطوائف لدى البرهمانية السلفية وتهدمه من أساسه ، وتلغى قوانين مانو ومجموعات القوانين السلفية القديمة فى العقيدة الهندوكية ، وبفضل هذه القطعة المفردة من التشريع كف « القانون الثابت » الذى يحرم القارناسامكارا أو الخلط بين الطوائف ، عن العمل فى الهند من أقصاها إلى أقصاها . وكان قانون سن قبول الزوجية عملا ثورياً هو الآخر . ذلك أنه جرت عادة شطر كبير من سكان الهند أمد مدة لا تقل عن ألفى سنة أن يزوجوا بناتهم قبل سن البلوغ . فلم تكن تقوم وراء تلك العادة تقاليد بعيدة الأجل فحسب ، بل كانت تعد إجبارية لدى البراهمة على الأقل استناداً إلى بعض النصوص الثقة . بيد أن التشريع الهندى عد تلك العادة غير قانونية ، وإن اعتمدت على أسانيد دينية قوية ، وأصبح الإقدام على تلك الزيجات جريمة تقع تحت طائلة قانون العقوبات .

وهكذا حدث عند نهاية العقد الثالث من القرن العشرين ، أن الإصلاح لهندوكى بلغ من التقدم شأوا جعل فى إمكان الجماعة الجديدة أن توجه قواها الاجتماعية نحو التحسن العام .

وقد عالجنا إصلاح الديانة الهندوكية فى شىء من التفصيل ، لأن جهود التربية الغربية وأثرها فى المجتمع الهندى لن تتضح الوضوح الكافى دون عمل تقييم لنتائجها . وكانت أول الجهود التربوية التى بذلتها شركة الهند الشرقية تتجه نحو النهوض بالدراسات السنسكريتية والعربية . وظلت دراسة الإنجليزية تتم اختياراً حيناً من الدهر ، كما أن عدداً قليلا من جامعات المبشرين وأخص بالذكر منها جامعة سيرامبور ، ساعدت على تقريب المعرفة الغربية إلى الناس . ولكن الحكومة لم تقرر رفع شأن التعليم الإنجليزى بالهند وجعله بنداً من بنود برنامج سياسة الحكومة إلا فى ١٨٣٥ وبإيحاء من اللورد ماكولى . ووضع ماكولى بضع مقترحات كان يعدها من البديهيات الأولية . كان يعتقد أنه : « ينبغى لنا أن نستخدمها (يعنى الأرصدة) فى تعليم

الناس أخلق الأشياء بالعلم بها ، وأن الإنجليزية أجدر بالعلم من السنسكريتية أو العربية ؛ وأن فى الإمكان جعل أبناء هذه البلاد علماء متمكنين من الإنجليزية تمكناً تاماً ، وأن جهودنا ينبغى أن تتجه نحو تلك الغاية ». وقبلت حكومة الهند هذا الرأى وجعلت أساس خطتها أن هدف الحكم البريطانى إنما هو رفع شأن الأدب والعلم الأوربى بين أبناء الهند . وهذا أمر طالما طالب به التقدميون من مفكرى الهند ، ومن الضرورى لنا الآن أن نؤكد حقيقة طالما غابت عن الأذهان فيما صدر فى العهد القريب من نقد ، وهو أن مصدر المطالبة بالتربية الغربية كان زعماء الهند أنفسهم قبل كل إنسان .

وبعد صدور قرار الحكومة ، بدأت المدارس والكليات تنشأ فى عواصم الأقاليم ، ولكن لم ينشأ نظام منسق يشمل الهند كلها إلا فى ١٨٥٤ . وقد عبرت رسالة جديرة بالتخليد عن الهدف الإجمالى لهذه السياسة قالت : « ليس هدفنا ولا رغبتنا أن نحل اللغة الإنجليزية محل اللهجات القومية للبلاد . . . من أجل ذلك فلا غنى لأى نظام عام للتعليم عن بذل العناية الشديدة بها ، كما أن كل معرفة بالمزيد من المعارف الأوربية التى ستقدم إلى الكتلة الضخمة من الناس لا يمكن أن تنقل إليهم إلا عن طريق إحدى هاته اللغات » . وبعد ذلك بدأ إنشاء الجامعات فى العواصم الكبرى للولايات الهندية : كلكتا ومدراس وبومباى والله أباد » ، وانفتح ميدان هائل أمام المبشرين يعملون فيه ويبذلون الجهود .

وانقضت مئة عام استمر أثناءها العمل بهذا النظام الماكولى الذى قامت بمقتضاه حكومة قوية ببذل جهد منتظم فى سبيل القيام بتعليم الطبقات العليا فى قطر هائل بلغة أجنبية . ولم تقدم الهند حتى بعد أن نالت استقلالها على إدخال تغييرات جوهرية فى ذلك النظام . ذلك أن دراسة الإنجليزية لا تزال مستمرة فى معظم الجامعات والكليات كوسيلة للتعليم . وقد درست هذا النظام وكتبت التقارير المسهبة المفصلة عنه لجان ملكية عديدة مكونة من رجال من المبرزين فى ميادين التربية مثل هربرت فيشر و فيليب هارتج وميخائيل سادلر من الجانب الإنجليزى ، وجورو داس بانرجى وأشوتوش موخرچى وغيرهما من الجانب الهندى . وبعد إعلان استقلال الهند ، قامت لجنة من النواب برياسة المستر س . رادهاك رشنان بدرس الموضوع من جديد . وهكذا حدث أنه فضلا عن المدة الطويلة غير المألوفة الطول التى عمل أثناءها بذلك النظام ، نجد بين أيدينا أيضاً آراء كل الخبراء الأوربيين والهنود وتقاريرهم

عن الطريقة التى عمل بها والآثار التى أنتجها فى العقل الهندى .

ونقاط الضعف فى ذلك النظام كثيرة العدد ، وفى الإمكان تلخيصها بغاية السهولة . فإنه أوجد هوة سحيقة لا سبيل إلى لمها بين الطبقات المتعلمة تعليما إنجليزياً وغيرها من الطبقات . بما فى ذلك أولئك الذين تلقوا تربيتهم بالطريقة التقليدية . وكانت الجهود المبددة فى محاولة التمكن من ناحية لغة أجنبية فضلا عن دراسة جميع المواد الدراسية بها ، جهوداً هائلة حقاً . واهتم الدارسون بالدراسات الأدبية اهتماماً لا يتناسب بأى حال مع قدرها . هذا إلى أن محاولة إحلال ثقافة أجنبية تماماً محل الثقافة الأصلية على أرض الهند أمر لم يتأقلم بالبلاد إلا بعد عدة عشرات من السنين ، وتجلى فى الجيلين الأولين على الأقل ميل واضح تماماً إلى خلق جيل من الرجال ، لاشك فى تمكنهم من اللغة الإنجليزية ، ولكن القيم لديهم مهتزة مرتجة ، والفكر عندهم عقيم قاحل والنفس فيهم غير متكيفة وفق ما حولها من بيئة . وبعد التعبير عن هذه النقائص وأكثر منها والاعتراف بما يحتويه النقد هنا من عنصر الصدق ووضع الأمر كله فى الميزان ، فإن كفة ميزات هذه التجربة الفريدة فى بابها ترجح رجوحاً جوهرياً ورائعاً .

ففى المقام الأول : إن النظام الذى جعل التعليم باللغة الإنجليزية ، قد زود الهند بطبقة أرضعت لبان العواطف والأهداف الاجتماعية ، وكانت شيئاً غريباً عن الفكر الهندى . وإن مواصلة الدأب على المضى نحو تلك الأهداف هو الذى أوصل الهند إلى الثورة الاجتماعية الدينية التى تقوم عليها الهند الحديثة . وبينما لم تفعل الإدارة البريطانية إلا الشىء القليل أو الذى لا يكاد يذكر فى سبيل خلاص الأرواح والقضاء على التحيزات واستئصال شأفة جميع الأضرار الوبيلة التى ترجع إلى العادات الهندية والخرافات المؤذية ، وتشجيع الفكر واستثارته ، فإن العلم الجديد الذى وصل إلى الهند عن طريق إلمامها باللغة الإنجليزية على معيار ضخم هو الأمة كلها ، لاشك أنه فعل ذلك كله. أجل إن فى الإمكان الدفع بأن نقطة التناقض الوحيدة فى الحكم البريطانى بالهند إنما تنحصر فى أن الحكومة القائمة كانت تحرص على قيمة هذه العادات . وكانت تسن القوانين التى تنكر مبادئ العدالة الاجتماعية وترفض أن تسن التشريعات التى يدعو إليها المجتمع بإلحاح ، وترقب

بعين الارتياب حركة الأفكار التحررية ، وذلك على حين أن النظام التربوى الذى تشرف عليه الدولة وتنفق عليه الأموال كان يقوّض كل شيء حاولت الحكومة إقامته وتأييده . وكانت المدارس والكليات تعلم الشباب أفكار الحرية ، بينما تحاول الحكومة القضاء عليها بكل ما أوتيت من قوة . وخلقت الحكومة لنفسها حول نظام التعليم معارضة قوية دأبت بجهالتها على إذكائها واستمرارها فى مستوى لم يكن لطرائقها فيه أى نتيجة ولا أثر .

وكان نسف حصن العادات والعرف الهندوكى البالى القديم فوزاً عظيما ، ذلك لأنه كانت منتشرة انتشاراً متسقاً بكل أرجاء الهند . ولو أن التربية الجديدة تمت عن طريق اللغات الهندية لاختلف أثر الحركة ووقعها بين ولاية وأخرى ، تبعاً لمدى تطور اللغة المستخدمة ومرونتها وصفتها . ولاشك أن إصلاح الهندوكية كان آتياً لاريب فيه ، ولكن مجاله لم يكن ليشمل الهند قاطبة . وما كان يمكن أن تقوم هناك « خطة رئيسية » للتغير ، وبدلا من أنه كان يتم توحيد المجتمع الهندوكى فقد كان يتمزق إلى عدد من الوحدات المختلفة يعادل ما بالهند من لغات ، وما كان إلا ليكرر ما حدث بأوربا بما فيها من خليط كبير من الوحدات المتعادية داخل نطاق المجتمع المسيحى نفسه . وقد نجت الهند من الانزلاق نحو هذا النوع من التطور بفضل وسيط التربية العام الذى أدخله بها اللورد ماكولى .

وفى المقام الثانى ، كان من النقاط ذات الأهمية العظمى بالهند كشعب واحد ، أن هذا النظام من التعليم المتسق بكل أرجاء الهند بفضل تلك اللغة الوحيدة ، أنتج بين مختلف العقليات تماثلا فكرياً كان من الممكن التشييد فوقه . وعندى أن منحه للهند لغة عامة مشتركة للتفكير والعمل السياسى إنما هو شيء أقل أهمية من إيجاد ذلك التماثل الفكرى ، أى ذلك التشارك فى الفكر والشعور والرأى الذى خلق القومية الهندية خلقاً . فالعقل الهندى قد وحدته الديانة الهندوكية من ناحية الروح ، ووحدته القوة الرابطة المتمثلة فى التقاليد العظيمة التى تحتويها السنسكريتية ، وهى لا تزال حتى اليوم عاملا حياً قوياً يتبدى من خلال اللغات الهندية التى لاتبرح تحمل تلك التقاليد وتعكسها ، ووحدته كذلك هذه المشاركة الفكرية والاتجاهات الجديدة التى أشاعتها التربية الإنجليزية فى الطبقات صاحبة النفوذ بالبلاد. والعامل الأخير

بين هذه العوامل الثلاثة : هو العامل الذى يوحد الهند سياسياً ويجعل فى إمكان الهنود أن يتصرفوا تصرف شعب واحد ويشيدوا مجتمعاً جديداً . فأما العاملان الأولان فهما الأساس الدائم للحضارة الهندوكية . وما كان فى إمكانهما ولا كان حتما عليهما أن يخلقا بمفردهما شعباً موحداً دون وجود القوة الرابطة قوة التماثل الفكرى فى الشئون السياسية . مثل وحدة الحياة الهندية والتقاليد المشتركة الموروثة عن ثقافة سنسكريتية كمثل الديانة المسيحية والتقاليد اللاتينية فى أوربا الغربية ، ومع ذلك فإن تطور أوربا تم عن طريق تفتت وحدتها ، وذلك بتشديدها التأكيد على ما بها من اللغات الإقليمية وانعدام عامل الترابط والتشاد فى الحياة العلمانية . فلولا وجود فترة مئة سنة من التربية المتسقة المنتظمة بوساطة اللغة الإنجليزية ، لحل بالهند ما حل بأوربا .

وفوق ذلك ، فإن ذلك التعليم عن طريق اللغة الإنجليزية مكن الهند من المشاركة فى نتائج الحركة العظمى للاستنارة بأوربا بصورة مباشرة لا تقوم على النقل والمحاكاة ولا تقع فى المرتبة الثانوية . وإن ما أنتج مفكرو القرن الثامن عشر من عمل جليل القدر فاخر حقاً ، قد أصبح بعد فترة من الثورة والاضطراب وعدم الاستقرار مادة الفكر الحى للقرن التاسع عشر . لقد كان ذلك الإنتاج يسلك آلافاً من السبل يخصب من خلالها حياة أوربا فى نفس الحين الذى كانت فيه التربية الإنجليزية آخذة بأسباب الانتشار بالهند . وتحولت الشعارات التفجرية الثورية « الحرية والإخاء والمساواة » ، إلى عقيدة « التحرر » الموقرة المحترمة . وكان القانون فى كل مكان حتى إنجلترا نفسها الشديدة التمسك بالتقاليد تلم به إصلاحات كتب لها أن تؤثر بسرعة فى الهند أيضاً . وقد أصبحت عبارة « أعظم خير ممكن لأعظم عدد ممكن » من المبادىء المقبولة لدى الناس كافة فى بلاد تمكنت فيها حكومة أوليجركية بحتة من المحافظين (Whigs) أن تمنح البلاد النجح والرخاء والأمانة وإمبراطورية ضخمة تنتشر بأركان العالم الأربعة . وأصبحت الهند الوريث المتبنى لهذا الفكر ، ومع أن رجال الإدارة من الإنجليز كانوا يتحدثون بلهجة الاحتقار عن الأهالى الذين يتحدثون بلغة أسيادهم ويقلدون كالقردة الآداب بل حتى الطرائق الخاصة لمن هم خير منهم دون أن يدركوا المعنى الداخلى الذى تنطوى

عليه الكلمات التي يسبون بها ويلعنون » فما لا سبيل إلى نكرانه أنه مع مضى الوقت ، وقيام جيل بعد جيل ينشأ متشبعاً بتلك المبادىء ، فإن التناقض الظاهرى الذى يبدو عند ما يتحدث برهمانى عن المساواة والإخاء يزول من الوجود تماماً . وقد تأقلمت الطبقات الهندوكية الوسطى طبق الفكر الأوربى بطريقة لم يتوقعها إلا القليل من الناس .

وكما هو مألوف فى مثل هاته الحالات كان الناس بين أمرين متوازيين لا ثالث لهما ، أولهما ، قطع كل صلة لهم بالماضى وتقبل الغرب جملة وتفصيلا بكل ما له من زخرف ، وثانيهما ، سبيل مواصلة القديم وتكييفه وفق الجديد ، سبيل التوسيع والإصلاح وبسط الطابع العصرى ، وربما جاز أن يقال إن « البراهمو ساماج » كانت فى عهدها الأول تمثل الرأى الأول . وأدى موقف المتنصرين الهنود من المسيحية إلى المحافظة على ذلك التقليد مدة طويلة جدا .

ولكن أكبر آية على قوة الثقافة الهندية وعلى قابلية العقل الهندى للتكيف ، أن العملية التى تم بها تمثيل الأفكار الثورية الأوربية فى الفكر الهندى ، كانت من عمليات التكييف والتعديل الحادثة التى لم تكد تدرك . وإن عدم استقامة نظام الطوائف مع الديمقراطية وعدم استقامة الفكر العلمانى مع طريق للحياة تتسلط عليه الطقوس الدينية وعدم تمشى فكرة المساواة بين الجنسين وعزل النساء عن المجتمع وبسط القيود القانونية والاجتماعية عليهن ، أمور بدت فى وقت من الأوقات كأنما تقف دائماً حجر عثرة فى سبيل بث الطابع الغربى ، بيد أنها انهارت تلقاء الضغط الفكرى دون نشوب أية حركة ثورية .

وقد أصبحت الهند بفضل ثورة سلمية مجتمعاً عصرياً لسبب رئيسى ، هو أن تغلغل الأفكار العصرية التدريجى تم عن طريق التربية التى نشرت بين فئة غير قليلة كانت تمثل الأمة . وكثيراً ما يدفع بعضهم بأن نظام التعليم الهندى قد أخفق دون أن يندس إلى جمهرة الشعب . ولو فحصنا هذا النقد بدقة لم نجد له ما يبرره . أجل إن واضعى الخطة كانوا يرون أن المجتمع الهندوكى كان فى طريقه إلى الانحلال وكانوا يرجون أن يزول من الوجود نتيجة لنشر هذه الأفكار الجديدة بين العامة فينجو سكان الهند جميعاً ويسلموا أنفسهم للمسيح . تلك هى الخطة العظمى التى

جعلت المبشرين يتحمسون فى الدفاع عنها . ولكن ذلك الرجاء لم يتحقق . بل الواقع أنه بدلا من أن يؤدى تقدم التعليم بالإنجليزية إلى اعتناق الهند للنصرانية ، فإنه لم يؤد إلا إلى إصلاح شامل للهندوكية كما رأينا — وإلى عمل تفسير لمذاهبها الاعتقادية . وأدى إلى تقوية قبضة الهندوكية على جمهرة الشعب تقوية عجيبة بل إلى خروجها من ذلك كله وهى أحد الأديان العالمية الأولى . وبهذا المعنى تكون نظرية التغلغل الفكرى إلى الطبقات الدنيا من الشعب قد انتهت إلى النقيض التام لما تصوره ماكولى وأصدقاؤه وهم رافلون فى خيالات السرور والانشراح ، فلا موضع للدهشة إذن من أن يرى رجال التعليم المبشرون أن الشىء الذى قضوا فى طلبه ذلك القدر الضخم من الأموال والطاقة قد باء بالفشل .

فإلى أى حد بلغ نجاح نظرية تغلغل الأفكار الجديدة بين طبقات الشعب ؟ ذلك أمر يمكن تقديره على خير وجه إذا لحظنا النمو الخارق الذى أصابته اللغات الوطنية بالهند أثناء نصف القرن الأخير . وقل من العلماء الأوربيين من حاول أن يفهم النشاط الأدبى الذى حول هذه اللغات إلى وسائل عظيمة وحية لحمل الفكر وللإبداع الفنى وغيرهما من المؤهلات التى تؤهل معظمها أن تتبوأ منزلة الشرف بين آداب العالم العصرى . وإن لغات كالهندية Hindi التى يتحدث بها أكثر من مئة مليون من الأنفس ، والبنغالية التى هى لغة سبعين مليوناً ؛ والجوجراتية والماراثية والتلوجونية والتاملية والكاناريسية والملايالامية — وأصغرها شأناً ينطق بها سكان عددهم يزيد على خمسة عشر مليوناً ، قد شهدت جميعاً إبان نصف القرن الأخير قدراً كبيراً من النشاط الأدبى ، لم تصل أصداؤه إلى الغرب إلا على فترات متباعدة جداً . ولا سبيل إلى نكران أن هذا النشاط الذى هو الصورة الأصيلة للنزعة الإنسانية الجديدة التى أنتجتها الهند ، إنما هو نتيجة لتسرب الآراء الأوروبية والفكر الغربى . وقد أمكن للناس حتى الآن الحكم على الجهود الأدبية للهند بما ظهر فى الإنجليزية من أعمال الكتاب الهنود . وبين حدود قلة العدد وعدم الأصالة التامة وضآلة الحظ من الصفة المميزة ، لا يستطيع شعراء الأدب الانجلو هندى كما يسمونه — وكتاب المقالات والأدباء فيه أن يدعوا أنهم يمثلون العقل الهندى العصرى ، ولا أن يعتبروا أمثلة على قدرة الهند الابتداعية الخلاقة . والنتائج الأصيلة للتعليم الإنجليزى بالهند ، أى استجابة العقل

الهندى للحركات الأساسية فى الثقافة الأوربية التى دخلت إلى البلاد عن طريق الانجليزية ، يجب البحث عنها فى عمل طاغور وإقبال وبوذا ديفا بوز وسارات تشندراتشاترچى وپرم تشاند وك . م . منشى وڤلاڤول وسانكارا كوروپ وعدد آخر من كبار الكتاب الذين أضافوا الشىء الكثير إلى ثروة الأدب فى اللغات الهندية العصرية . وقد وصلت إلى الغرب فكرة عن نوع عملهم الأدبى بسبب شغف الناس فى أوربا بترجمات عمل طاغور ؛ ولكن الأدب الهندى كان على الجملة كتاباً مغلقاً دون العلماء الأوربيين .

وهناك ثلاث مراحل يمكن ملاحظتها فى تطور تلك اللغات ، فعند بداية القرن الثامن عشر كانت كل واحدة من هذه اللغات تستطيع أن تفاخر بأنها تملك أدباً يضم بين دفتيه بعض الدرر اليتيمة من الإلهام الشاعرى . فكانت الهندية تباهى بالأعمال العظيمة التى ألفها تولسيداس وسرداس وكيساڤاداس ؛ وكانت فى البنغالية أعمال ڤيدياباتى وتشانديداس وكيرتيداس . وظهر فى التاملية أدب كلاسيكى يدعى لنفسه القدرة على الوقوف جنباً إلى جنب مع أمجاد السنسكريتية ، ولم يكن حال الماراثية والجوچراتية وغيرهما مختلفاً عن ذلك . وظهر فى تلك اللغات أدب شعرى لا سبيل إلى الشك فى علو قدره وفائق امتيازه ، وكان الناس يحبونه ويعتزون به كثيراً ؛ ومع ذلك فإنها كلها كانت فى لهجات وطنية ، ذلك أن التعليم كان يتم عن طريق الآداب الكلاسيكية السنسكريتية منها والفارسية . ولم يكن للعلم والأستاذية علاقة إلا باللغات الكلاسيكية . من أجل ذلك لم يكن من الكذب فى شأن تلك اللغات آن يقال إنها لم تكن تحتوى على كتب يمكن استخدامها ككتب نصوص ودراسة فى الخطة التربوية الجديدة .

وشهدت تلك الفترة أيضاً طبع الأدب القومى بالطابع العلمانى . فكما سبق أن ألمعنا ، كان تطور الأدب فى تلك اللغات قاصراً أو يكاد على المضمار الشعرى كما أن موضوعات ذلك القصيد كانت فى أغلب الأمر دينية . وكانت جميع الأسماء العظمى فى الآداب الوطنية المختلفة قبل القرن التاسع عشر مثل — تولسيداس وسرداس وكبير وميرا وڤيديا باتى وتشانديداس وتوكارام — أسماء لرجال يرتبطون بالعبادة الدينية . والواقع أن نهضة الدين فى العصور الوسطى ونمو الآداب

المكتوبة باللغة القومية كانا من الناحية التاريخية ظاهرتين لحركة تطور واحدة . وبفضل جهود شعراء اللغات القومية حُبب إلى الشعب أن يتثقف بالأدب الذى انحدر من تحلتى راما وكريشنا . وكان هذا الأدب ظاهرة عظيمة الأهمية فى حياة الهند فى القرون الوسطى . ونتيجة لذلك بدأت فى القرن التاسع عشر اللغات التى صارت فيما بعد اللغات العصرية الهندية ، وقد اكتست بكساء ثقيل سميك من التقاليد الدينية. وكانت التقاليد العلمانية فى هذه الآداب قاصرة على الشعر الغزلى .

وتم نقل الأدب إلى المضمار العلمانى فى النصف الأول من القرن التاسع عشر ، وكان ذلك بصفة خاصة رئيسية نتيجة لتسرب الأفكار الإنجليزية إلى العقول . وتمهيداً لهذا التطور تم إلى حد كبير اعداد العمل الضرورى له كإنتاج المعاجم والأجروميات الثقة المعتمدة ، على أيدى المبشرين وغيرهم من الأجانب الحاصلين على تدريب علمى فى لغات أخرى . مثال ذلك أن المبشر الألمانى جندرت هو الذى وضع فى أوليات القرن التاسع عشر معجماً جديراً بالثقة للغة الملايالامية . وكان كتاب « النحو المقارن للغات الدراڤيدية » للأسقف كولدويل ، هو الأساس الذى قامت عليه الدراسات اللغوية فى الجنوب . وما يتردد أحد اليوم فى الاعتراف بأعمال المبشرين فى سيرامبور وجهودهم فى وضع أسس التطورات الحديثة العصرية فى البنغال .

حتى إذا أرسيت الأسس قوية مكينة ، صار فى الإمكان استخدام اللغات الوطنية بالمدارس . وكانت أولى الخطوات والمراحل إنتاج الكتب الدراسية التى غالباً ما كانت تكتب بأمر مصلحة التعليم ، إذ لم يكن من المحتمل أن يتقدم عالم عتيق العقلية والطراز متطوعاً للقيام بهذا العمل . وقد أدت هذه الفترة التى يمكن تسميتها فترة إنتاج الكتب الدراسية إلى تكوين نماذج للكتابة النثرية لأول مرة فى التاريخ بعد أن ظلت هملا لا يوجه إليها أحد أى التفات جادّ . ولم يظهر فى تلك المدة قدر كبير من الإنتاج الذى يمكن إجازته بوصفه أدباً ، ولكن تطور فى اللغات أسلوب نثرى فصيح ، زاد فى قوته كثيراً نمو الصحافة الوطنية بالبلاد . وبديهى أن لغة الصحافة كانت لغة مصطنعة شأنها فى كل مكان آخر فى العالم ، بيد أنها ساعدت على نمو الفكرات الجديدة كما ساعدت على مرونة التعبير ، وربطت بينه وبين مسائل

الساعة السياسية والاجتماعية والاقتصادية .

وكانت المرحلة الثانية فترة محاكاة وتقليد عند ما أخذت تتجلى المواهب الأدبية لدى الطبقات المتعلمة تعلما غربياً ، بترجمة الأدب الكلاسيكى الانجليزى أولا ثم بالأعمال الأصيلة التى أنشئت بإلهام كبار الأساتذة الغربيين . وتلك هى الفترة التى كتب فيها « بانكم تشاندرا تشاترچى » الروايات على غرار السير ولترسكوت ، وكتب مادهو سودان دت بأسلوب ملتون ، كما دبج دوى چندرالا روى المسرحيات التاريخية مستخدماً أصول الصنعة الأوربية . وتجلت نزعات مماثلة لهذه فى لغات أخرى بعد ذلك بقليل ، وذلك لأن زعامة البنغال فى ذلك الأمر كانت شيئاً يعترف به الناس كافة فى ذلك الزمان .

ولم يقنع الجيل الجديد بهذا القدر ، ثم وجد فى رابندرا نات طاغور الأستاذ العظيم الذى كان يرجوه . وبظهور طاغور كمؤثر جبار فى الأدب الهندى ، يمكن أن يقال إنه قد تم نهائياً تحول اللغات الوطنية إلى لغات عصرية عظيمة . وكافح الجيل الجديد الذى كان طاغور نابغته الذى يمثله وحامل لواء النبوة العليا فيه ، محاولا أن يكون لسان تعبير لاتجاهات حياة الهند الجديدة . وفى نفس الحين انتشرت الحركات بين اللغات جميعاً . ومما له دلالته أن الحركة سجلت أيضاً نمو القومية المتكاملة التى أعقبت تقسيم البنغال ، واضطرابات سواديشى وظهور الحركات الأدبية التى يقودها تيلاك وأوروبيندو . ويتجلى قدر عظيم من الحمية الوطنية فى شعر تلك المدة بين ١٩٠٣ — ١٩١٠ ، وهى فترة چانا جانامانا ، أى تقديس كل ما هو هندى وقومى فى الدراما والرواية والشعر .

وطبعت عبقرية طاغور تلك الحركة بميسم الطابع العصرى ، لا فى البنغال فحسب ، بل فى كل أرجاء الهند . ثم إنه بث فى اللغة ذاتها عنصرى الحيوية والمرونة حيث زودها بالأساليب والصيغ التى ألانها لعقول العامة والتى خرجت عن قيد التقاليد القديمة ، كما أنه أضفى على الأدب البنغالى وشاح الدولية وأسس له مركزه المستقل فى العالم . على أن طاغور وإن كان نسيج وحده فى عبقريته ، إلا أنه لم يكن فريداً فى عصره . فكان ثمة عدد كبير من نوابه الشعراء والكتاب فى لغات أخرى ، الذين كانوا متأثرين هم أيضاً بنفس الحمية الوطنية ونفس الرغبة فى

تمزيق كل أغلال فترة المحاكاة السابقة . وهناك اثنان جديران بالذكر بوجه خاص ، وهما سابرامانيا بهاراتى الشاعر التاميلى ومحمد إقبال ، الذى كان عمله الأول يترنم بوجه خاص بنغمة القومية والثورة .

وشهدت فترة ما بين الحربين « احتجاج الأطفال على آبائهم » . وتجلى فى كل مكان لكل ذى عينين : البحث عن الأشكال الأدبية والتجريب فى طرائق جديدة للتعبير ، والرغبة فى الابتعاد عن الانفعالات الجامدة الثابتة . وبدأ التقلقل الاجتماعى يجد له صدى فى الأدب الذى وجد فى المذهب الواقعى المثل الأعلى الذى كان يلتمس . وحل محل الحماسات القديمة كل من إبسن ودوستويفسكى وتشيخوف . وكانت حركة غاندى التى تضع يدها على مسرح السياسة ، ترسل الشباب إلى القرى وتؤسس من جديد علاقة الناس الأولية بالتربة . ولعل أشد كتاب الروايات تمثيلا فى ذلك العصر مانشى ويرم تشاند وسارات تشاندرا تشاترجى . وصارت روايات بانكيم تشاندرا ومن ماثله من كتاب الرومانس تذكر كثيراً من زعماء الجيل بأيام التلمذة والمدرسة .

الفصل الثالث

اليابان

اختلفت النهضة اليابانية عن النهضتين الهندية والصينية من ناحيتين جوهريتين . فمن الناحية الأولى : كانت النهضة فى كل من الصين واليابان ترجع إلى رغبة فى تحرير المجتمع ، نظراً لأن ذلك كان يعد مصدر القوة الديمقراطية . ونجمت هاتان الحركتان عن انهيار هذين المجتمعين ، انهياراً أوقف زعماءهما تلقاء انحلال ألم بالحضارة القومية فيهما . ولم يكن بدلهما من أن يجدا أساساً مذهبياً جديداً لمجتمعيهما أو يهلكا . ولكن القوة المحركة فى اليابان ، كما سنحاول أن نريك ، لم تكن التحرر بل الرجعية . فلم يكن ما واجه زعماء اليابان انهياراً لبنيانهم الاجتماعى ، بل تحققاً بأنهم ضعفاء من الناحية العسكرية بالمقارنة إلى الأمم الغربية . ولم يكن ما تنشده اليابان مجتمعاً يستمد قوته من التحرر ، بل تمثلا سريعاً للمعرفة والصنعة الفنية الغربية يجعلها أقوى بأساً .

ومن الناحية الثانية : كانت الحركات فى كل من الهند والصين تلقائية ، فهما لذلك كانتا محرومتين من التوجيه المخطط . وقد أظهرت نفسها فى البداية فى صورة اتجاهات وتساؤل فكرى ، حتى إذا حشدت قوتها بمضى الزمن ، إذا هى تكتسب طابعاً قومياً أضفاه عليها دافع الطبقات الضخمة ونشاطها ، وهى طبقات لم تكن تحركها على الجملة اعتبارات السياسة ، بل الرغبة فى النهوض بالأحوال الخلقية والاجتماعية كتمهيد للعظمة القومية . فأما اليابان ، فإنها ما كادت تدرك الارتباط بين الأمن القومى والعلوم والنظم الغربية ، حتى وضعت خطة النهضة وقامت على تنفيذها الحكومة ، التى لم يغب عن عينها قط الضرورة العليا القاضية بالمحافظة على التماسك القومى وتعزيز مصادر القوة العسكرية .

وكانت للحركتين الصينية واليابانية ناحية مشتركة تناقض حركة الصين ، فكانت الظاهرة الجوهرية فى نهضة اليابان إعادة تنظيم الشنتو وتقويتها ، كنحلة للدولة ودين يعتنق ، وكذلك الشأن فى الهند كما ذكرنا آنفاً ، حيث كان أساس النهضة إصلاح

العقيدة الهندوكية . بيد أن كلا من البلدين كان يدرك أن الوحدة الروحية كانت ضرورية للشعوب إن هى شاءت أن تصون شخصيتها وتشيد قوتها . ولكن الذى حدث فى الصين ، هو أن المبشرين لم يفلحوا تماماً إلا فى بث فوضى روحية فى البلاد ، وكانت نتيجة ذلك أن التيار الصينى الجديد كان فى صميمه عدواً للأديان كما كان يعيش مفترضاً أن الأديان خرافة نبذتها الأمم فى كل مكان ولم يعد لها من عمل هام تقوم به فى الحياة العصرية . وكان هذا الوضع يناسب الصينى الرفيع المدارك الذى زالت عن عينه غشاوة الأوهام والخرافات ، والذى كانت آراؤه الأخلاقية التى صيغت فى قوالب التفكير الكونفوشيوسى تنزع دائماً كما رأينا آنفاً إلى الحط من قدر الحياة الدينية .

وقد حدث فى اليابان حتى بعد أن فرض عليها هايديوشى سياسة العزل ، أن البلاد ظلت بها فئة قليلة من الناس تجد متعة فى معارف الغرب . وكانوا فى الغالب على صلة بالهولانديين ، الذين سمح لهم بإنشاء مصنع فى ديشيما . وبعد أن حرمت اليابان من تحقيق مطامعها فى فتح الفيليبين بسبب استقرار الأسبان بتلك الجزر ، أخذت ترمق بعين الريبة والاهتمام ، كما أسلفنا عليك آنفاً ، حركات الأمم الأوربية فى بحار الصين ، وبينما كانت الهيئات الرسمية تتخذ خطة التشكك والتخوف ، فإن الجماعة التى كانت تلذها المعارف الغربية ، ظلت تعمل عن طريق الهولانديين على جمع المعلومات ومواصلة الدأب فى طلب العلوم الغربية . وكانوا يستطيعون بين حين وآخر الحصول على شىء من المساعدة من الأجانب ، وبخاصة من ألمانى اسمه كايمفر كان يعيش فى اليابان فى ١٦٩٠ — ١٦٩٢ ، ثم من ثانبرج وسايبولد فى فترة لاحقة .

وكانت بعض الدوائر المفكرة شديدة الاهتمام بعلوم « هولندة » ، وإن لم يكن ذلك الاهتمام واسع الانتشار ، ويقال إن الزيارة السنوية التى كان يقوم بها رئيس المصنع الهولاندى لجزيرة يدو ، كانت فرصة ينتهزها العلماء اليابانيون لاستجلاء بعض المعلومات حول الموضوعات العلمية . ومهما تكن الحال ، فإن من الجلى أن جمعية تسمى الرانجاكوشا أو « العلماء الهولانديين » قد ظهرت عند منتصف القرن الثامن عشر ، وهى جمعية أظهرت دأباً شديداً على الاستطلاع فى المعارف

الغربية . وكانت نتيجة أعمال تلك الجماعة ، أن ترجمت المؤلفات الأوربية المعتمدة فى مواد الفلك والرياضة والطب والنبات ، ونشرت أو ذاع استخدامها بين الإخصائيين .

ومما له دلالته أن اهتمام اليابان كان منصباً دائماً على الموضوعات العلمية . ولم تكن هذه الدراسات تحتوى أدنى بارقة بالاهتمام بالشعر أو الأدب أو الفلسفة أو العلوم الاجتماعية ، وهى المواد التى كانت تخطو خطوات واسعة جداً فى فترة الاستنارة تلك . وبينما كان رام موهان روى يتراسل مع كوندورسيه ، كان علماء اليابان يكبون كادحين فى ترجمة كتب الرياضة الدراسية . والحق الذى لا مراء فيه ، أن اليابانيين لم يظهروا أدنى اهتمام بالعلوم الإنسانية الغربية ولا بتحرير الفكر ، بل صرفوا كل عنايتهم فى النفاذ إلى سر قوة الغرب . ويتضح ذلك بجلاء تام من سيرة رجال من أمثال تاكاشيما وساكوما شوزان وواتانابى نوبورو وتاكونو وغيرهم من زعماء مدرسة الكهول القدامى فقد أصبحت هذه المدرسة فى النصف الأول من القرن التاسع عشر مركزاً لكل من يهتم بالمعرفة الغربية . وسيرة حياة تاكاشيما ممتعة تسترعى الأبصار بوجه خاص . فإنه تنبه فى فترة مبكرة من حياته أن النظم العسكرية اليابانية ، وبخاصة ما يتعلق منها بالدفاع عن الموانى ، كانت قديمة بالية عديمة الجدوى . لذلك أكب بكل ما لديه من قوة على دراسة العلوم العسكرية الغربية معتمداً على المؤلفات الهولندية التى استطاع الوصول إليها ، وأنفق ثروة ضخمة كانت له فى الحصول على المعرفة بالعمليات الفنية لصنع الذخيرة . وتم ذلك كله قبل خمسة عشر عاماً من وصول القومودور پرى بمراكبه ليرغم اليابان على فتح أبوابها للغرب . وكذلك أيضاً كان شأن ساكوما شوزان ، فقد كان كل همه منصباً على الدفاع القومى . فإن الحرب الصينية البريطانية ١٨٣٩ — ١٨٤٢ فتحت أعين ساكوما وجماعته على ما لهذه المسألة من مسيس الأهمية . وحتى ذلك الحين كانت اليابان تجنح إلى الاعتقاد بأن الصين بما لها من تاريخ طويل وموارد هائلة وهيبة ضخمة كانت المثل الأعلى فى قوة الدولة الإمبراطورية . وروعت اليابان سهولة هزيمة الصين أمام البريطانيين وأخذ أولو الحل والربط فى البلاد يدرسون أسباب هذه النتيجة المدهشة غير المنتظرة . وكان الرد الواضح موجوداً فى جعبة الطائفة المتشبهة بالغرب . فقد وردت الفقرة التالية ذات المغزى العميق فى رسالة بعث بها ساكوما إلى سيده وراعيه : « فكيف حدث أن الأمم الغربية تمكنت بفضل إخلاصها للعلم أن تزيد

من قوتها بدرجة جعلت بلد كونفوشيوس نفسها تقع صريعة أمام هجماتهم ؟ إن مردّ ذلك أن العلم الأوربى علم عقلى ، والعلم الصينى ليس كذلك » .

ومنذ تلك اللحظة عظم تقدم الدراسات الأجنبية — ولم يبرح مواظباً على المسائل ذات الصلة المباشرة بالدفاع ، وأقبل رجال من أمثال واتانابى نوبورو ، وتاكانو ناجاهايد وأولهما موظف على شيء من النفوذ وشاعر ومصور وعالم ، وثانيهما مؤلف توسع فى الكتابة فى موضوعات شتى ، منها علم الفلزات والتاريخ والتكتيك العسكرى — على أن يقربوا إلى الشعب أفكار هذه الجماعة ، التى كانت تحس أن الأمن القومى للبلاد يتوقف آنذاك على « ألا يفوقها أى مبدأ قديم » ، وأن الوطنية تستلزم تقبل فكرة القوة واعتناقها نقلا عن الغرب . وامتد تفكيرها على جميع الموضوعات الهامة المتعلقة بالاقتصاد القومى ، وصناعة السفن والصناعة عامة وإصلاح العملة ونظام التجنيد إلى غير ذلك . وكان يوكوى شونان ، وهو أحد كبار أعضاء هذه الجماعة وطنياً متوقد الغيرة يدعو صراحة إلى زعامة اليابان العالمية ، كما كان توسعياً لقيت آراؤه رواجاً شعبياً عظيما أثناء الفترة التى حاولت اليابان فيها أن تلعب دوراً قيادياً فى أسيا . وبفضل مساعدة هؤلاء المدافعين الأقوياء ، انتشرت إلى حد ما « العلوم الغربية » وخاصة منها المعرفة التكنيكية ، حتى أنه عند ما قدم القومودور پرى إلى الإمبراطور بعض الآلات الميكانيكية كجهاز التلغراف وكقطار مصغر إلى غير ذلك ، مؤملا بذلك أن يبعث الروعة فى قلوب اليابانيين ، كان بالبلاط رجال كثيرون على علم تام باستخدامها ، ويستطيعون تشغيلها دون أدنى صعوبة .

وكانت المحالفة بين « طائفة أنصار الغرب » وجماعة إنهاض اليابان التى كان يمثلها يوكوى شونان محالفة ذات أهمية خاصة . وقد ظهرت إلى جوار نمو حركة الاهتمام بالعلوم الغربية وفى إبانها ذاته ، حركة أخرى تدعو إلى الوطنية الرجعية مرتبطة بنهضة ودعوة إلى عقيدة الشنتو النقية . فنشأت طوائف مختلفة تدعو إلى « الرجوع إلى القديم » — أو العلوم القديمة ، وكان لها أثر كبير فى إضعاف قبضة الكونفوشيانية ، التى كان يناصرها زعماء شوجنية توكو جاوا . وأبرز الشخصيات المتصلين بتلك الحركة كامو نو مابوتشى (١٦٩٧ — ١٧٦٩) وموتورى نوريناجا (١٧٣٠ — ١٨٠١) وهيراتا اتسيوتانى (١٧٧٦ — ١٨٤٣) .

وكانت الفكرة الرئيسية التي دعا إليها مابوتشي أن انتشار الأفكار الكونفو شيانية وأفول نجم عقيدة الشنتو كانت الأسباب الحقيقية « لانتقال السلطة إلى يد الخدم وإلى وضع الإمبرطور موضع الكم المهمل » . وينبغي لنا أن نؤكد أن الأفكار الأساسية فى عقيدة الشنتو هي التقمص الحادث بين الشخصية القومية اليابانية وبين الإمبراطور ، والاعتقاد بأن الأمبراطور سليل ربة الشمس . وتجيد كتابات موتورى نوريناجا توضيح هذه النقطة ، وهو كاتب يعترف الجميع بأنه من أعظم علماء اليابان . وعندى أن خير وسيلة لإيضاح مذهب نوريناجا هو اقتباس فقرة مما دبجه بقلمه :

« سيظل كل ميكادو إلى آخر الزمان ابنا للآله . فعقله فى انسجام فكرى ووجدانى تام مع عقلها — وهو لا يلتمس مستحدثات جديدة بل يحكم وفق السوابق التى ترجع إلى عصر الآلهة . . . والميكادو هو صاحب السلطان الذى عينه إيزاناجا وإيزانامى ، وهما الإلهان اللذان خلقا هذا البلد . ولم تقل ربة الشمس لنا قط « أن اعصوا الميكادو إن كان سيئاً » ولذا فسواء أكان طيباً أم خبيثاً ، فلن يحاول أحد أن يحرمه من سلطته . فهو الحاكم الثابت السرمدى الذى ينبغى أن يحكم إلى آخر الزمان ، ما تعاور على الدنيا للشمس والقمر ضياء . . . وعصيان أمر الإمبراطور يمكن نسبته إلى تأثير العلوم الصينية » .

« وكان شعار العقيدة القومية الذى كانت مدرسة « نقاء الشنتو » تشجعه : أن « وقروا الإمبراطور واطردوا الأجنبى » . وكانت تجمعهم مع مؤيدى « العلوم الغربية » أسباب مشتركة تدعوهم إلى مهاجمة الكونفو شيانية ، وذلك أن « العلوم الصينية قد كفت عن أن تكون عقلية وأصبحت من ثم مصدر خطر » كما أوضح ساكوما فى مذكرته التى اقتطفنا منها الاقتباس السالف . هذا إلى أن بعض الجريئين من أعضاء جماعة أنصار الغرب قد أدركوا أن الاحتمال الوحيد الذى يركن إليه فى ظروف اليابان المتغيرة هو قيام حكومة مركزية قوية تحت رياسة الإمبراطور . وأضحت نتائج هذه المحالفة العجيبة بين أنصار العلوم الغربية وأشياع نقاء الشنتو واضحة للعيان فى صفة عصر النهضة اليابانية الذى عقب « الاسترداد الميجى » .

وقد عالجنا من قبل فى شيء من التفصيل التاريخ السياسى لعصر الميجى

والخطوات التى اتخذها زعماء اليابان الحديثة لتمثل المعرفة الغربية وتحويل الإمبراطورية إلى مجتمع سياسى عصرى ، وكانت جهود رجال السياسة فى عصر الميچى ناجحة نجاحاً بارزاً فى كل ميدان ضربوا فيه بسهم . فوفقوا إلى تأسيس حكومة مركزية وأنشأوا جهازاً عسكرياً عصرياً ، ونظموا من الشعب مجتمعاً وطنياً غيوراً ، وصنعوا البلاد وطوروا قوتها الاقتصادية وزودوها بنظام قومى للتعليم ، أدخل إلى صميم الحياة اليابانية صنعة الغرب ومعرفته الفنية ، وأوجدوا الكيان المادى لشعب عصرى ، وقصارى القول أنهم حولوا اليابان إلى دولة عظمى . كان منهجاً محكم الخطة لطبع البلاد بالطابع الغربى وكان نظاماً أحكم التفكير فيه وأجيد ضبطه . وكانت الغاية منه هى القوة القومية . وأقبل القوم على الأشياء يدرسونها فما كان منها نافعاً لتلك الغاية أو كان صالحاً لخدمة ذلك الغرض قبلوه ، وما كان غير صالح نبذوه بلا هوادة وقد صرح إمبراطور الميچى نفسه فى أحد قصائده بقوله :

« أواه كم أتمنى أن أجعل هذا البلد عظيما لا يقل عن أى بلد آخر »
وأتمنى له ما صلح وأطرح عنه ما طلح » . *

وقد بحثنا فى موضع آخر الطريقة التى تم بها الوصول إلى ذلك الغرض . وما بنا من حاجة إلا تأكيد قيام التقمص والتطابق التام بين حياة المجتمع بأوسع معانيها وبين الشنتو دين الدولة واستخدام نظام الطقوس المركزة حول السلالة الجنسية لخلق التماسك القومى . والإيمان بمستقبل اليابان ونبذ كل فكر يناقض الأفكار الأساسية للدول اليابانية . وقد صرح المرسوم الإمبراطوى الذى صدر فى السنة الأولى للميچى :

« بأن عبادة الآلهة ورعاية الطقوس (الشنتو) هى الخواص العظمى للإمبراطورية كما أنها المبادىء الجوهرية للسياسة والتربية القومية . . . ولمناسبة هذا الاسترداد (للحكم الإمبراطورى) جعلت طوكيو العاصمة الجديدة للبلاد وسيتولى الإمبراطور الحكم بشخصه . وسنعمد قبل كل شىء إلى إيجاد الطقوس وسنعمل على استتباب

* مقتبس فى كتاب « صوت الديمقراطية اليابانية Voice of Japanese Democracy » تأليف يوكيو أوساكيس . يوكوهاما ١٩١٨ ص ١٠٨ .

القانون والنظام . وهكذا يبعث من جديد نهج الوحدة بين الدين والحكومة (ساى سى إيتشى . »

وإن مذهب الساى سى إيتشى (Sai sei itchi) أو وحدة « الشعائر» والسياسة لمبدأ جوهرى فى مسألة النهضة القومية اليابانية بحذافيرها ، كما يصرح بذلك المرسوم الإمبراطورى نفسه . ويعلن ذلك المرسوم نفسه الأصل فى تلك الوحدة بين الدين والدولة . وأهم من ذلك كثيراً الإعلان الجاد الرصين الذى أصدره الإمبراطور فى ذلك اليوم نفسه ، وهذا نصه : « نعلن بكل وقار » : أن الآلهة السماوية والجدة السلف العظيمة (ابنة رب الشمس اماتيراسو أومى كامى قد أسست العرش وأمنت وراثته فتولته سلسلة من الأباطرة متصلة الحلقات وأسلمه السلف منهم للخلف . فالطقوس الدينية والحكومة شىء واحد لا يتجزأ ، كما أن الرعايا الذين لا يحصيهم عد قد اتحدوا . وطريق الحكم والتعليم كان واضحاً لأصحاب المنزلة العليا ، على حين أنه فى المنزلة الدنيا تتصف آداب الشعب وعاداته بالجمال . ومع ذلك فلو بدأنا بحثنا بالقرون الوسطى وجدنا اليابان تتعاور عليها مواسم للاضمحلال ومواسم أخرى للتقدم والرخاء وكانت الطريق فى بعض الأحايين واضحة ميسرة ، وكانت فى الأحايين الأخرى معماة مغشاة : ومضى علينا أمد طويل أخفقت فيه الحكومة والتعليم دون الإزدهار .

« والآن صار كل شىء جديداً فى دورة القدر . فينبغى أن توضح السياسة والتعليم للشعب كما ينبغى أن تنشر الدعوة للطريق العظيم لطاعة الآلهة . لذلك عينا حديثاً جماعة من الدعاة ليعلنوا هذا كله للأمة . فهل تحفظون يا رعايانا هذه الوصية فى عقولكم ؟ »

تلك هى الفكرة الأساسية : وهى وحدة الشنتو والتعليم والسياسة ، ويقرر التصريح الرسمى الخاص بالسياسة التعليمية الذى نشرته مصلحة التعليم فى ١٩٣٧ ، والذى جعلوا عنوانه كوكوتاى نو هونجى (المبادئ الجوهرية للبنيان القومى) أن : « التعليم يرتبط فى نواحيه الجوهرية بالطقوس الدينية وبالحكومة . وأعنى بذلك ، أن الطقوس الدينية وطرائق الحكم وأصول التعليم يقوم لكل منها عملياته المنفصلة ؛ إلا أنه يتبين بعد التحليل النهائى أنها شىء واحد » . وينبغى لنا أن نتذكر ، أنه تبعاً لما

جرت به عادة الدول العصرية ، حرمت اليابان (بمقتضى الأمر رقم ١٢ فى ٢ أغسطس ١٨٩٩ التعليم الدينى بالمدارس الخاصة والعامة ، بيد أن « شنتو الدولة » التى أعلنوا قبل ذلك أنها ليست دينا بل تدريباً على المسئولية المدنية ، جعلت إجبارية بالمدارس جميعاً . وهكذا ترى أنه بينما حذفت جميع التعاليم الدينية الأخرى — وكان أثر ذلك يعود على المبشرين أكثر من أى هيئة أخرى — كانت الشنتو مادة إجبارية تعلق عليها أهمية عظمى .

إن التوحيد الثلاثى بين « الشعائر الدينية » والسياسة والتربية ، الذى هو أساس نهضة اليابان قد ساعد ، وإن بعد عن المذهب التحررى واختصم حرية الفكر ، على خروج البلاد بسلام من مرحلة الانتقال يوم كانت اليابان تقف مشدوهة مأخوذة بجلائل أعمال الحضارة الغربية ومضت عشرون سنة بعد هذه الرجعة أصيبت أثناءها اليابان بشغف جنونى خارق بكل ما هو أوربى ، حيث استولت على الطبقات ساكنة المدن نوبة إعجاب بالغرب صريحة لا حد لها . ويصف سانسوم هذه المرحلة من مراحل التطور اليابانى بهذه الكلمات : « الآن أصبح ارتداء الثياب ذات الطراز الأجنبى والأحذية الجلدية يعد صوابا لا غبار عليه . . . وبطبيعة الحال قل بين اليابانيين فى ١٨٧٥ أو ما يقاربها ، من كان يستطيع القيام بنفقة صوان للملابس الأوربية ، ولكن أصبح من المألوف أن يرتدى الناس قطعة أو قطعتين من الثياب الأجنبية . وبذلك ظهر نوع مسل من الخلط بين طرازى الملابس كارتداء الكيمونو فوق البنطلون ، أو جاكتة فراك للسهرة وجونلة حريرية مشطورة مع سيفين فى نطاق السيف (القايش) . . . ومن سوء الحظ أن المظلات الأجنبية حلت محل المظلات الخيزرانية المزركشة ، كما أن الثياب الورق كانت تملأ الشوارع الممطرة بالألوان الزاهية . وأخذ الزجاج الرخيص يحل محل الخزف واللاكيه وأصبحت علب الصفيح تجد تقديرا أعظم من تقدير الآنية التى يصنعها مهرة الصناع . . . وأصبح تناول لحم البقر من البدع الحديثة ، واستخدمت السلطات المحلية الإعلانات التى تحض الجمهور على تناول ذلك الغذاء المناقض للدين على أساس أنه يخلق فى الأفراد الطاقة اللازمة لأداء الواجبات التى يحتاج إليها الوطن وتقوى أبدان أفراد الشعب.

« ومما كان يقف فى مصف لحم البقر والمظلات والساعات كرموز للتقدم الفكرى ، استخدام مصابيح زيت البترول وارتداء الثياب الداخلية المحبوكة (التريكوه)

والبطانيات والبرقيات وعربات الحنطور . . . وخير ما يوضح هذه الحال أنشودة ألفت للأطفال فى ١٨٧٨ . وهى تسمى أغنية كرة الحضارة وكان المقصود منها التأثير فى العقول الصغيرة وإيضاح مزايا الثقافة الغربية أمام نواظرها . وكان على الطفل أن يعد نطات الكرة بسرد أسماء عشرة أشياء كان المعتقد أنها شديدة الجدارة بأن تقتبس ، وأخص بالذكر منها مصابيح الغاز والآلات البخارية إلى غير ذلك* » ونجا اليابانيون من براثن هذا الهوس الجنونى بفضل حركة التقليديين التى أكدتها تعاليم الشنتو . والأمر كما عبر يونى نوجيوتشى الشاعر فى حديث ألقاه بأمريكا : « إن الحضارة الغربية على وجه الجملة أسكرت عقولنا اليابانية كالخمر القوية ، وكانت نتيجة ذلك الحتمية أننا كثيراً ما كنا نجد أنفسنا عند ما نستيقظ من أثر ذلك السكر فريسة لأحزان أشد بل نحس ميلا إلى احتقار أنفسنا » .

على أن الحركة الدينية اليابانية نحو التكامل وما كانت تتسم به من مناهضة للتحرر ومن روح المحافظة ينبغى ألا تصرف أذهاننا عن الأعمال العظيمة التى أسدتها النهضة اليابانية فى مضمار العلم والتضلع فى المعارف والادب والفنون بوجه عام . وبقوة طاغية تدفقت الروح الجديدة لليابان الناهضة فى دروب بناءة ، وحدث إبان القرن العشرين نهضة ملحوظة فى كل ميادين النشاط الفكرى ومجالاته . وأقبلت الجامعات على تشجيع التضلع الدقيق فى العلوم والمعارف والبحث العلمى المستفيض وتجلت فى البوذية اليابانية آيات النهوض القومى القوى . ولكن ألوان التناقض الكامنة فى النظام وقفت حجر عثرة فى طريق التفكير السياسى المستقل ، ولكن يظهر أن قدراً عظيماً من الدراسات وجه إلى التوفيق بين أشكال الديمقراطية الغربية ونظام الحكم البرلمانى وحق الاقتراع للبالغين والنظام الوزارى وبين روح النظام اليابانى .

* انظر سانسوم في : « العالم الغربي واليابان Western World & Japan » ص ٣٩٩ – ٤٠٠

الفصل الرابع

الصين

تأخر وصول نهضة الصين ، تلك النهضة التحررية والتعقلية والإنسانية ، ومع أن آثارها كانت واضحة لن يفوتنا أن نلحظها ، الا أن ظروفاً سياسية حالت دون نموها الطبيعى ، فانحسر المد الجديد بنفس السرعة التى أقبل بها . وغنى عن البيان أن فشل حركة النهضة ، بما اتعقد عليها من رجاء هائل وما تم لها فى بواكيرها من فوز كريم خلف الصين فى حالة شاملة من الفوضى الثقافية والفكرية ، فاتحاً الطريق أمام المبادىء الماركسية الثورية لتتغلغل فى البلاد .

وقد كانت الصين تظهر على الدوام وبدرجة أكبر مما تظهره الهند روح النقد الحر . ذلك أن النمو الفكرى للصين فى مدى ٢٥٠٠ سنة قد أتاح لها عدداً كبيراً من الفترات الجديرة بالذكر التى كان العلماء فيها والمفكرون يتحدّون المبادىء الاعتقادية المعترف بها من الناس جميعاً ويولدون حركات جديدة . وقد راح فلاسفة تقدميون وراديكاليون أمثال وانج ينج منج (١٤٧٢ –١٥٢٨) يناقشون النظام السائد فى عصر أسرة منج – الحساب . وبعد الفتح المانشوى ، شرع العلماء الصينيون فى دراسة أسباب ضعف البلاد القومى ، وتمخضت المؤلفات التى صدرت حاوية لهذا النقد الذاتى عن مفكرين بارزين هما كوين وو (١٦١٣ – ١٦٨١) وين يوان (١٦٣٥ – ١٦٩٤) . وكانت وجهة نظرهم الرئيسية هى أن اضمحلال الصين فى عهد أسرة منج إنما ترجع إلى شدة انشغال الطبقات المفكرة بالكتب والنظريات ، ورفضهم الاشتغال بالأعمال النظرية . وممن كان يرتبط بتلك الطائفة جماعة « هان هسيويه » التى يمكن بحق أن تسمى بطليعة الحركات الإصلاحية . وكانت جماعة « هان هسيويه » ، أو جماعة علوم هان ، حركة نبذت تفسير المتأخرين من العلماء وأصرت على وجوب دراسة ما سطر فى عهد أسرة هان من تعقيبات (٢٢١ ق . م – ٣٢٠ م) . ولم يخش علماء هذه المدرسة أن يستخدموا وسائل اختبار قاسية للتحقق من أصالة الكتب التى طال عهد تقبل

الناس لأصالتها . وقد كشف ين چو تشو وياوتشى لنج كثيراً من النصوص القديمة (بينها كتب التاريخ المعتمدة) ، وأظهرا أنها كتب مدسوسة مزيفة . وراح عضو آخر فى تلك المدرسة هو تسوى شو يمتحن بشجاعة مدى صدق الناحية التاريخية لكثير من الشخصيات العظيمة فى السجلات الصينية القديمة . وكان وارث روح النقد المباشر هو كانج يو واى ، الذى كان كما سبق أن ألمعنا ، مصدر الإلهام الذى أوحى إلى الإمبراطور كوانج هسو فى أيام إصلاحه المئة الفاجعة .

وكان كانج يو واى المولود فى كانتون سنة ١٨٥٨ رجلا له شىء من النفوذ على طائفة من الموظفين ، معظمهم من أهل الجنوب ، وعلى رأسهم السكرتير الأعظم ونج تنج هو ، وقد لاحظ عن كثب الخطة التى انتهجتها اليابان فى نهضتها نحو القوة ، وشعر أن ما كان يعوق الصين عن النهوض والتقدم إن هوالا رفضها أن تتعلم علم الغرب . وعند ما رؤى إعادة تنظيم المناصب الحكومية عند وفاة الأمير كنج فى ١٨٩٨ ، أوصى ونج تنج هو الإمبراطور خيراً بكانج يو واى وذكر له أنه شخص ذو مواهب ممتازة وقدرة فائقة . وتأثر الامبراطور تأثراً عظيما بما أدلى إليه كانج من أفكار ، وأخذ ينمو لديه الاعتقاد بأن الصين لن تستطيع أن تواجه العواصف دون محاولة قوية لتنظيم إدارتها الداخلية . وكان أول مرسوم أصدره الإمبراطور بالإصلاح تعبيراً عن ذلك الاقتناع وهو من ثم جدير بأن يقتبس هنا برمته :

« ولما كان كثير من وزرائنا قد دعوا فى المدة الأخيرة إلى سياسة إصلاح ، وأصدرنا بناء على ذلك المراسيم التى تقضى بإنشاء امتحانات خاصة فى الاقتصاد السياسى ، وإلغاء القوات التى لا فائدة منها والطريقة القديمة فى امتحانات الرتب العسكرية فضلا عن إنشاء الجامعات . ولم نتخذ أى قرار فى تلك المسائل دون أن نوليه كامل عنايتنا ، على أن البلاد لا تزال يعوزها الاستنارة ، كما أن الآراء تختلف حول السبيل الذى يجب أن ينتهجه الإصلاح . فالذين يدعون أنهم وطنيون محافظون يعتقدون بوجوب إقامة عمود الأعراف القديمة ونبذ جميع الأفكار الجديدة دون هوادة ولا تساهل . ومثل هذه الآراء الداعية إلى الخلاف والنزاع لا قيمة لها . فلنتأمل متطلبات الزمن وضعف امبراطوريتنا ! فإذا نحن واصلنا المضى فى طريقنا

وجيشنا غير مدرب ومواردنا غير منظمة وعلماؤنا جهلة وصناعنا مجردون من كل تدريب فنى ، فكيف يمكن أن نرجو أن نقف على أقدامنا بين الشعوب ؟ وأنى لنا أن نعبر الجون الذى يفرق بين الضعيف والقوى ؟ فى اعتقادنا أن حالة من القلق توجد عدم احترام السلطة وتولد الاحتكاك ، الذى يؤدى بدوره إلى خلق الأحزاب فى الدولة ، على حال من التنازع والعداء كعداء النار والماء . فنى مثل هاته الظروف ستجد حكومتنا نفسها وجهاً لوجه أمام عيوب أسرتى صُنج ومنج وأخطائهما . وفى ذلك ما فيه من خطر داهم علينا . ولم يكن حكام الماضى السحيق الورعون المتمسكون بأهداب الكمال والفضيلة يتعلقون بعناد وإصرار بالحاجات الراهنة ؛ بل كانوا على استعداد لتقبل التغييرات بنفس الطريقة التى يلبس بها الناس الثياب المصنوعة من العشب صيفاً والفراء شتاء .

« ونحن نصدر الآن هذا المرسوم الخاص ، حتى يكرس رعايانا جميعاً — من الأسرة الإمبراطورية فمن دونها — كل جهودهم للإصلاح ، وستظل أسس التعليم قائمة على الأصول التى وضعها الحكماء ، ولكن ينبغى فى الحين نفسه أن تدور أبحاث دقيقة فى كل فرع من فروع العلوم الأوربية المناسبة للحاجات الراهنة ، بحيث يوضع حد للمغالطات الجوفاء وبحيث يمكن بالاعتماد على الحمية والغيرة الوصول إلى الكفاية . والتشدق الببغاوى بما هو ملك الغير من النظريات الضحلة شىء ينبغى تجنبه ، كما يجب تنكب الأقوال المأثورة . فكل ما نرغب الوصول إليه هو إزالة ما لا نفع له من الأشياء وتقدم العلوم التى ينبغى رغم تأسيسها على المبادىء القديمة ، أن تتحرك قدماً فى انسجام مع الزمان ، وينبغى أن تجعل جامعة بيكين نموذجاً تحتذيه الإمبراطورية ، كما أنه سيخول لجميع الموظفين من رتبة سكرتير مجلس وضباط الحرس الإمبراطورى والذين يتوقع ترقيتهم قضاة وأبناء كبار الموظفين والمانشويين ذوى المكانة الوراثية ، الدخول فى سلك الدراسات الجامعية حتى يمكن تدريب مواهبهم لتواجه حاجات هذه الأوقات العصيبة . ولن نتسامح فى أى تهاون أو محسوبية ، ولا أى إهمال لهذه النصائح التى هى نصائح العرش » .

وهذه المحاولة الخارقة التى كان مصدر الإلهام لها نجاح حركة الصباغ الغربى فى اليابان تستحق شيئاً من الملاحظة ، وإن كان تأثيرها مؤقتاً ، فألغى نظام الامتحانات

القديم . وأدخلت فى مناهج الدراسة مواد مثل الاقتصاد السياسى ، وتقرر أن تفتح كليات ومدارس ذات أسس عصرية . واقترح إنشاء كلية للبحرية ، وأسست فى بيكين مكاتب للسكك الحديدية والتعدين ، وأنشىء قلم للترجمة برياسة ليانج تشى تشاو . وألغى عدد من الوظائف الشرفية التى يتقاضى شاغلوها أجوراً دون عمل يعملونه . وانزعج الموظفون المحافظون من ترادف المراسيم سراعاً ، فالتمسوا من الإمبراطورة الأرملة أن تستولى على السلطان مرة ثانية . وكان كوانج هو على علم بتلك المؤامرة ، فقرر أن يكون البادىء بالضربة . فاستدعى يوان شيه كاى إلى القصر ، وجعله موضع ثقته وكلفه تكليفاً خاصاً بإصلاح الجيش — ثم وكل إليه أمر اعتقال الإمبراطورة الأرملة ووضعها فى السجن . ولكن يوان المخادع المذبذب ذهب من توه إلى جنج لو وخان ثقة الإمبراطور فيه . ولم تتردد البوذا العجوز هنيهة بعد تلقيها تقرير حظيها عن خطط الإمبراطور . فاستدعت المجلس الأعلى وحصلت منه على التماس بعودتها إلى منصة الحكم . ولم يلبث الإمبراطور المصلح حتى خُلع وشيكاً ووضع فى السجن تحت حراسة دقيقة . وبذلك انتهت تلك الفترة العجيبة وقضى على محاولة إمبراطور حسن النية شاء أن يصلح الدولة ببرنامج غايته طبعها بالطابع الغربى .

وكان كانج يو واى — كمصلح — شخصية أعظم من كثير من النواحى من عدد كبير من زعماء الثورات الذين جاءوا بعده ، كما كان مفكراً واضح البصيرة أدرك أن الصين لن تتقدم إلا بعد طبع أنظمتها بالطابع العصرى . ومن الراديكاليين أيضاً الأشد إمعاناً فى تلك النزعة من كانج ، المستر ليانج تشى تشاو ، الذى كان وثيق الصلة بكانج أثناء فترة الإصلاح التى دامت مئة يوم .

ولما أن أخفق مسعى تلك الأيام المئة العقيمة ، فركانج إلى هونج كونج ثم انتقل منها إلى أمريكا ، كما فر ليانج تشى تشاو إلى اليابان حيث أسس صحيفة « هسن من پاو » ، وأخذ يحمل الحملات الشعواء مطالباً بالمبادىء الجديدة والإصلاح السياسى . وكان ليانج نفسه من هونان ، ولم يعدم أن يناصره جماعة آخرون من مفكرى تلك المقاطعة وبخاصة تان سسوتنج ، الذى رفض أن يفر مع بقية زملائه بعد الانقلاب الذى أحدثته الإمبراطورة ، ولقى مصرعه شهيداً ، فكان أول

صينى استشهد فى العصور الحديثة لمطالبته بالإصلاح .

وأخذ ليانج تشى تشاو يذيع على الناس من منفاه انجيل « الشعب الجديد » ، وهو الفكرة القائلة بأن الصين تحتاج فى الظروف التى تجد فيها نفسها إلى تجديد تام مطلق فى المبادىء والمثل ؛ وملخصه أن الصينيين ينبغى أن يخرجوا مما هم فيه « شعباً جديداً » . « ومع أنكم تقومون بتغيير صغير هنا وآخر صغير هناك وتضعون قليلا من الطلاء هنا وتنظفون قليلا هناك ، فإن ذلك لن يغنى فتيلا . والمطلوب هو إيجاد روح جديدة جدة تامة . وظهور عالم وكاتب ذى قدرة فائقة ، نبذ عنه نزعته الملكية القديمة وانضم إلى الجمهوريين وكان لليانج تأثير قوى فى تكوين الجيل الأحدث ، كما أن « هوشيه » فى ترجمته الذاتية يعبر عن مدى الأثر العظيم الذى أحدثته فيه وفى إخوانه أفكار ليانج وكتاباته .

وكانت قوى أخرى تعمل عملها أيضاً فى إصلاح المجتمع الصينى من الداخل . فحاول « لن تسى هسو » المندوب السامى الذائع الصيت فى شئون الأفيون أن يجعل نفسه ملماً بالشئون المتعلقة بالأجانب . وكان شأن اليابانيين الذين أقبلوا على على دراسة شئون الغرب ، أكثر اهتماماً بالأمن القومى منه بالإصلاح وسرعان ما شرع يدعو إلى صناعة المدافع والسفن على غرار ما يفعل الأجانب . وقد أهدى لن جميع المواد التى جمعها فى هذا الصدد إلى « واى يوان » ، وهو عضو فى السكرتارية العليا ، فطبعها ونشرها تحت عنوان « هاى كيوتوتشيه » . وذكر أن الغرض من نشرها هو التالى :

« لكى تعالجوا شئون البرابرة ينبغى لكم أن تعرفوا عواطف البرابرة ، ولكى تعرفوا عواطف البرابرة ينبغى لكم أن تعرفوا أحوال البرابرة » . كان « واى» مصلحاً ذا إصالة مكينة ، وكان يساعده فى عمله عالم آخر ذائع الصيت هو كنج تزوتشن — وكانت وجهة نظرهما أن العصر عصر المعرفة العملية وأن العلماء ينبغى لهم أن يكرسوا أنفسهم لإحراز تلك المعرفة . وصار ذلك الرأى يُعرف بعد ذلك باسم « تعاليم كنج وواى» . وأسس لن وكنج وواى فيما بينهم نادى هسو أنان . ويقول مؤرخ صينى عن تلك الحلقة : « من بين الأشخاص الذين أسسوا ذلك النادى ، كان هوانج تشويه تسو هو البادىء بالحملة المناهضة للأفيون ، وكان كنج وواى

البادئين بالإصلاح ، على حين أن لن هو الذى أصبح زعيمهم » . فهؤلاء هم مؤسسو فكرة دراسة العلوم الغربية بالصين .

وكان هناك آخرون يتوقون أن تكيف الصين نفسها للعلوم الغربية ، مثل نائب الملك تشانج تشيه تنج ، الذى صدر تحت رعايته كتاب اسمه « تعلّم » ، كان يعالج نواحى الحياة الأوربية . وكان تشانج يدعوبقوة إلى إرسال الطلبة إلى اليابان. وكان ينج منج (المتخرج فى ييل ١٨٥٤) من طراز آخر . فإنه وقد أتم دراسته بالولايات المتحدة ، حمل الحكومة على إرسال مئة طالب للدراسة بتلك البلاد . ويصف ينج منج خطته بهذه الكلمات : «كانت الخطة تقوم على تعليم مئة وعشرين طالباً مقسمين إلى أربعة أقسام ، كل منها ثلاثون طالباً ، فيرسل قسم منهم كل سنة إلى الخارج . ويقضون خمسة عشر عاماً لإتمام دراستهم ، على أن يكون متوسط أعمارهم بين الثانية عشرة والرابعة عشرة ، فإن ظهر نجاح الدفعة الأولى ، واصلت الحكومة تنفيذ الخطة إلى ما لا نهاية . ولابد للحكومة من السهر على مواصلة المعلمين الصينيين على معرفتهم بالصينية أثناء مدة مكثهم بالولايات المتحدة . وتعين للمشروع بأجمعه لجنتان » .

ووضع نائب الملك تسنج كيوفان المشروع تحت رعايته ، وسافرت إلى أمريكا أول مجموعة من ثلاثين طالباً فى ١٨٧٢ . وتمت صفقة المئة والعشرين طالباً فى ١٨٧٥ ، وقبل أن يتمكن القوم من اختبار الفكرة بالدرجة الكافية ، استدعيت البعثة بأكملها نتيجة لموجة جديدة من الرجعية فى ١٨٨١ . ومن الشائق أن يلحظ المرء أن عدداً كبيراً من أعضاء هذه النخبة الأولى من هؤلاء « الطلاب العائدين » قد أعانت الصين فى مسيرها فى طريق التطبع بالطابع العصرى .

وساعد على طبع البلاد بالطابع الغربى عاملان آخران كانا يعملان فى صمت : أولهما زيادة عدد الصينيين أبناء موانى المعاهدات ، وثانيهما زيادة عدد أفراد المستوطنات الصينية فى الخارج . فقد نمت بهونج كونج وبموانى المعاهدات ، وبوجه أخص بالمدن العظيمة شنغهاى وتيان تسن ، مجتمعات صينية كبيرة تحت حماية الدول العظمى . وكانوا يعيشون فى مستعمرة هونج كونج كرعايا بريطانيين لا شك فيهم ، بيد أن تأثيرهم فى ولاية كوانج تنج المجاورة كان ضخماً جسيما . وقد أصبحت

طبقة الكومبرادور فى المدينة التجارية العامرة شنغهاى، طبقة قوية اجتماعيًّا واقتصاديًّا. ومع أن هذه المجتمعات الحضرية لم يكن لها وزن من الناحية السياسية ولا الاجتماعية فى عصر الإمبراطورة الأرملة ، يوم اجتمع النفوذ فى قبضة الخصيان ونبلاء القصر دون غيرهم، وفى طبقة الماندرين، ولا فى البلاد بعامة ، حيث كان « أدباء » المدرسة القديمة يحتفظون بنفوذهم ومكانتهم ، إلا أنهم كانوا مع ذلك طبقة نامية متزايدة، قد أخذت أفكارها تتمشى فى عقول أذكى الأفراد وذوى النفوس المتطلعة إلى الأمام من الموظفين . وكانت الكليات العظيمة للدراسات والعلوم الأوربية التى أنشئت تحت رعاية المبشرين المسيحيين ، تنتج كذلك رجالا ذوى تربية عصرية ؛ ومع أنهم كانوا يحرمون كل نفوذ سياسى ، لأن المناصب العليا فى خدمة الحكومة لم يكن يحظى بها حتى ١٩٠١ إلا من جازوا الامتحانات الإمبراطورية ، إلا أنهم كانوا يشكلون حياة الطبقة الوسطى شكلا جديداً وبخاصة بمناطق الحضر . وحدث أيضاً عند نهاية القرن أن كثيراً من شبان المدن أخذوا يفدون على اليابان والدول الغربية طلباً للتعليم العالى ، حيث كانوا يكوّنون مراكز لحياة جديدة ، بحيث أن « الطلبة العائدين » أصبحوا عاملا كبير الأهمية فى التغيرات الاجتماعية، وذلك حتى قبل سقوط الإمبراطورية .

وثم عامل آخر هام فى الحركة الهادفة إلى طبع البلاد بالطابع الغربى ، هو وجود مجتمعات ضخمة وناجحة من « الصينيين سكان وراء البحار » بالملايو وأندونيسيا وجزر الفلبين وهواى والولايات المتحدة الأمريكية وغيرها من الأقطار . وكانت ترحيلات العمال الكولى أى (تجارة الخنازير وهى الإسم الرشيق الذى أطلق عليها فى العقد السابع من القرن) هى المسئولة بصفة رئيسية عن نمو هاته المجتمعات، وذلك فيما عدا الملايو وجاوة إلى حد ما . بيد أن أبناء هؤلاء الذين خرجوا من ديارهم متعاقدين على العمل فى الخارج أظهروا أنهم يتصفون بجميع صفات جنسهم الصينى ، وأصبحوا من العوامل الاقتصادية ذات الشأن فى الأماكن التى استوطنوها . ومع أنهم لم يفقدوا قط صفتهم كصينيين وكانوا شديدى النزعة الوطنية ، فإن الظروف والملابسات والتربية المختلفة التى نشأوا عليها واحتكاكهم المستمر مع حضارات أخرى جعل كثيراً منهم على وعى تام بضعف الجماعة الصينية وعيوبها وبضرورة إجراء التغيير فى الوطن الأم . ووجد دعاة حركة الطابع العصرى من هذه المجتمعات وراء البحار تأييداً حماسيًّا .

ولم تؤت حركة الطابع العصرى إلا الشيء القليل من التقدم ما عاشت الإمبراطورية ورغم الأشياء التى تظاهر فيها القصر بالتساهل إزاء عواطف الأجانب ، وهو الموقف الذى اضطر إليه بعد ثورة البوكسرز ، فإن البوذا العجوز ومستشاريها تمكنوا من الحفاظ على نظامهم الرجعى فى المسائل الداخلية . ولكن ما كادت الإمبراطورية تسقط ، وتنهار معها دعامات المجتمع القديم وأركانه ، حتى شرعت تبرز القوى التى كانت تتجمع أثناء نصف القرن الأخير . وقد انتهت غاية الثورة نفسها إلى العقم كما أسلفنا لك ، ولكنها أوتيت من القوة الشعبية ما حال دون الرجعى إلى النظام القديم . فقد كان مما له دلالته التاريخية الهامة فشل يوان شى كاى فى تتويج نفسه وإعادة النظام الملكى إلى البلاد ، وذلك لأنه أبان بجلاء أن الثورة وإن لم ترزق قوه الدفع الكافية أو التأييد الشعبى الكافى لإحداث إصلاح اجتماعى جذرى بالصين ، فمن المقطوع به أنها مزقت الصلة بالماضى وخلقت فجوة فاصلة . فالآن انكسرت كسرة نهائية لا سبيل إلى رجعها ، التقاليد الإمبراطورية التى أسسها تشن شيه هوانج تى مكينة راسخة ، والتى دامت ما يربى على الفين من السنين .

ووقعت الصين فى البداية فريسة للفوضى السياسية والاقتصادية . وكانت لذلك أسباب كثيرة منها المنافسة بين الدول التى كانت تمارس على الصين نفوذا وسلطاناً غير مرئى ولكنه فعال . ومنها إخفاق هيئة الماندرين وقلة جدوى الطبقات الجديدة ، لأن معظم أفرادها من ناشئة السواحل الذين كانوا لذلك مجردين من أية منزلة أو سلطان على الشعب . ومنها تفرق كلمة الجيش تحت رياسة أمراء حرب مختلفين . فى هذه الظروف فاض « المد الجديد » أو الحركة الصينية الكبرى نحو الحرية الفكرية ، ووجد وسيلة للتعبير عن نفسه .

وكان مركز هذه الحركة الجديدة هو جامعة بيكين الأهلية برياسة عميدها العظيم تساى يوان باى . وكان أبرز قادتها المعترف لهما بالزعامة تشن توهسيو وهوشيه . أسست الجامعة رسمياً فى ١٨٩٨ وجعل صن تشياناى عميداً لها ، وعُين مبشر إنجليزى هو مارتن رئيساً . ومن عجب أن الإمبراطورة لم تمس الجامعة بسوء حتى بعد الانقلاب الذى قامت به . ولم تلعب الجامعة أى دور جدير بالذكر

فى ظل النظام القديم . حتى إذا تعين عميداً لها تساى يوان پاى فى يناير ١٩١٧ ، صار فى الإمكان القول بأن حقبة جديده قد بدأت .

وكان تساى عالما ممتازاً تلقى العلم فى لا يبزج . وكان من كبار دعاة الحرية ، كما أنه كان ممن يؤمنون أن أول الواجبات المقدسة للجامعة تزكية المعرفة ومعاضدتها وأن نشاطها لا ينبغى أن يقصر على منحى واحد . واستدعى تساى إليه تشن توهسيو محرر صحيفة « الشبيبة » وهو الرجل الذى يعترف الجميع بزعامته للنهضة ، وعينه عميدا لكلية الآداب بالجامعة . وقد كتبت المقادير لهذا الزعيم تشن توهسيو أن يسجل اسمه بين الخالدين فى التاريخ الصينى فى عدد من مختلف النواحى . وفضلا عن عمله العظيم الأخير حيث أسس الحزب الشيوعى وتزعمه وإضافته إلى أدب تلك الحركة الموسومة باسمه بما ألف تبياناً واستطراداً، فإن السنوات الخمس التى قضاها كزعيم للثقافة الجديدة تخوله مكاناً علياًّ فى تاريخ آسيا العصرى . وظهرت أولى نسخ صحيفة « الشبيبة » فى سبتمبر ١٩١٥ ، بمقال رئيسى كتبه تشن بعنوان : « رجائى الحار إلى الشباب » . وكانت الدعوة إلى الشباب أن يحمل على منكبيه عبء الكفاح لإعادة تأسيس عظمة الصين . وكان الرجاء موجهاً إلى وطنية شباب الصين وإلى رغبته فى الحياة الفكرية الحرة . . وكان أثر المقال كالبرق الخاطف ، فأعيد طبع العدد الأول عدة مرات ، وبيع منه ما يربى على مئتى ألف نسخة . والواقع أن البداية الحقيقية للثورة لم تكن الرصاصة الأولى التى أطلقت فى ووتشانج ، بل كانت تلك المقالة .

وكان تشن توهسيو يفهم الموقف حق الفهم حتى فى تلك الفترة الباكرة . وقد حلل مسألة قلة أثر الصين وجدواها بعد الثورة قائلا : «إنها ترجع إلى موقف الشعب الحيادى الذى يقف كأنما يرقب الأمور من شاطئ مقابل » . وإلى قلة يقظتهم ورفضهم اطراح قديم الأفكار وموقف العجز الذى يقفونه إزاء التغيرات التى تفرض عليهم فرضاً . وقد صرح بناء على ذلك ، أن على شباب الشعب أن يتقدموا الصفوف وأن البرنامج الذى وضعه كان يتكون من نقاط ست يتضمنها . الرجاء الحار فى أن يجعلوا رائدهم « الاستقلال لا العبودية » ، والتقدم لا روح المحافظة والعدوان لا الجبن ، والنظرة العقلية العالمية لا الوطنية الضيقة ، والاتجاه العملى

لا المراسم الشكلية ، والمعالجة العلمية لا التأمل النظرى » .

ثم عاد فأعلن بعد سنة : « أن الشباب ينبغى أن ينطلق ليفتح لا أن ينهزم ويُقهر ؛ وأنهم من الناحية الثانية ينبغى أن يحترموا شخصيتهم المستقلة وألا يكونوا ذيلا لغيرهم من الشعوب ، وأنهم من الناحية الثالثة يجب عليهم أن يشتغلوا بحركة شعبية لا فى حركات حزبية ضيقة » .

ثم أسفر تشن أيضاً عن هجومه الصريح على قلة غناء الثقافة الصينية القديمة وبذلك وضع الأساس النظرى للنهضة الصينية . وقد صرح بأن « الطرائق » الصينية والطرائق الغربية يقفان على طرفى نقيض سواء أكان ذلك فى السياسة أم فى العلوم والأخلاق أو الأدب ، ولا يمكن التوفيق بينهما بأى حال . وليس هنا موضع البحث فى أيهما الأفضل وأيهما الأسوأ ، إذ أن ذلك موضوع آخر . ولكن ينبغى لنا أولا أن نقرر فى شأن السياسة القومية رأياً ، فهل ينبغى لناأن نواصل العمل بالطريقة الصينية القديمة أو أن نتخذ الطريقة الغربية الجديدة لنا سبيلا . فإن عولنا على روح المحافظة ، وجب علينا أن نستخدم الطرق الصينية القديمة دائماً أبداً ، وأن لا نضيع أموالنا فى إرسال الطلبة إلى الخارج ولا أن نفتح أية مدرسة جديدة لدراسة العلوم الغربية ، ولكن إذا قررنا انتهاج نهج الإصلاح ، وجب علينا إذن أن نستخدم الطريقة الغربية الحديثة فى كل شىء ولا نقيد الموضوع بسفسف من القول « كالتراث الوطنى » مثلا أو « الظروف الخاصة » .

فكم تختلف هذه اللغة عن لغة قادة اليابان ، الذين كانوا يبشرون بوحدة « المناسك » الدينية والسياسة والتعليم ، والذين حاولوا أن يضعوا التفكير العصرى فى القوالب الجامدة للاهوت الشنتو . وقد اجتمع هنا بصراحة النزاع بين كل من هيئة الماندرين المحافظة ودعاة العلم الحديث ،وأقدم تشن توهسيو بمنطقه القوى الجبار على حمل الهجوم رأساً إلى حصن الفكر الصينى : أى إلى كونفوشيوس نفسه . لقد كان يرى أن كونفوشيوس هو الخصم . وقد وصف هذا النزاع فى صيغة مؤثرة جذابة حيث قال : « لقد اقترفنا الجرائم المزعومة من أجل سيدين جليلين هما السيد المذهب الديمقراطى والسيد العلم . ونحن مضطرون لكى نناصر المذهب

الديمقراطى أن نعارض المذهب الكونفوشيوسى وقانون المناسك الدينية والعفة والأخلاق التقليدية والسياسة القديمة ؛ ونحن مضطرون لكى نناصر العلم أن نقف موقف المعارضة من الفنون التقليدية والدين التقليدى » . فى عدد من أوائل أعداد صحيفة « الشبيبة » ، أصدر « إى پاى شا » نقداً مدمراً لكونفوشيوس يبين بما لا يدع مجالا للشك أنه حتى عهد الإمبراطور ووتى من أباطرة أسرة هان فى القرن الثانى ق.م. لم تكن الكونفوشيوسية إلا مدرسة فكرية صغرى ، وأن أباطرة أسرة هان هم الذين قضوا على الطوائف الأخرى عندما أدركوا مدى نفع اتخاذ مذهب العلاقات الخمس أساساً مذهبيًّا لخدمة الاستبداد ، كما « اتخذوا من الكونفوشيانية ألعوبة إمبراطورية لاحتكار الفكر فى العالم وللتضييق على حريته » . وواصل تشن نفسه تلك الغارة حتى أبلغها مرماها بسلسلة من المقالات فى نفس الصحيفة الشهرية ، كان عنوان إحداها « الكونفوشيانية وعلاقتها بالتطور الدستورى » . وظهر هجوم أعظم أهمية بمقال عنوانه : « طريقة كونفوشيوس والحياة فى العصور الحديثة» . وكانت نقطة الهجوم الرئيسى لدى تشن هى أن الكونفوشيوسية إنكار مطلق للحقوق الإنسانية على ما تقوم على الوجبات الأساسية الثلاث : واجب الولاء المطلق للإمبراطور ، والتقوى البنوية والخضوع المطلق من الزوجة لزوجها . والآن وقد صيغ الأمر على هذا النحو فقد تجلى أن إجراء أى تعديل فى المذهب الكونفوشيوسى حتى يتناسب والأحوال الجديدة كان من المستحيل وذلك هو ما بشرت به جماعة الفيض الجديد . وكان شعارهم الذى يأخذن به أنفسهم « لتسقط الكونفوشيوسية » .

ولا يخفى أن رفع مثل هذا المفكر الراديكالى الذى يتزعم حركة التمرد الصريح بالصين على التقاليد المعترف بها من الجميع ، إلى منصب عميد كلية الآداب فى جامعة العاصمة الكبرى نفسها ، كان أشبه الأشياء بمنح ذلك التمرد سلطاناً رسميًّا . وكان تشن توهسيو يلقى مناصرة قوية لآرائه من الجيل الجديد من العلماء ، الذين كان أبرزهم هو شيه . وكان هوشيه عالماً موسوعى المعارف كما كان فيلسوفاً تام التدرب على أساليب النقد فى الفكر الغربى ومتضلعاً فى العلم بتقاليد هان هسيو يه ، ينهل فيها من مصادرها الأصيلة لا من التعليقات عليها ، كما كان فوق كل شىء

أصيلا في نزعته الإنسانية قوى الاعتقاد بقيمة العقل فى العلاقات الإنسانية . وكان أول نصيب أسهم به فى الحركة الجديدة دعوته العظمى لإحداث ثورة أدبية . وقد سبقه فى الأصل إلى تلك الأفكار تشاو يوان چن وهوشيه اللذان وضعاها (١٩١٦) فى صورة محاولة تجريبية نشراها بمجلة الطلبة الصينيين الشهرية التى تصدر بأمريكا . وكان بين هذين الرجلين اختلاف هام : فكان تشاو يرغب فى العدول عن طريقة الكتابة بالصور وإدخال أبجدية فى اللغة الصينية ، بينما لم يكن هوشيه يرى ذلك الرأى. وكان هوشيه يعتقد أن الواجب الأهم هو حمل الأدباء والشعب على استخدام لغة واحدة بحيث لا يظل الفكر احتكاراً لجماعة . وكان يحاج بأن ما يسمى باللغة الأدبية الصينية إن هو إلا لغة ميتة : ميتة لأن أحداً من الشعب لم يعد يستخدمها « إنها أشبه الأشياء باللاتينية فى أوربا إبان العصور الوسطى : بل هى فى الواقع أشد إمعاناً فى الموت (إن كان فى الموت أفعل تفضيل) من اللاتينية ، وذلك لأن اللاتينية لاتزال تُتكلم وتفهم ، بينما الصينية الأدبية لم تعد تُفهم من الناحية الصوتية حتى بين الأدباء أنفسهم ، إلا حين تكون العبارات مألوفة أو عندما تكون لدى السامع فكرة عما ينوى المتحدث قوله » . ولمواجهة هذه الصعوبة وتزويد الناس بمركب ذلول للفكر يصل إليهم فرداً فرداً ، اقترح هوشيه بجرأة استخدام لغة الحديث.

ولم يقنع هوشيه بنشر آرائه بمجلة شهرية للطلبة تنشر بأرض أجنبية ، لذا وجه خطاباً إلى تشن توهسيو لينشر فى « الشبيبة » اقترح فيه عمل برنامج للإصلاح الأدبى ، ثم عاد فوسعه فيما بعد وجعله مقالا مستفيضاً. وكانت مقترحاته متواضعة فقد قال : « لنتجنب الإشارات الكلاسيكية ؛ ولننبذ التركيب المشابه للجمل ؛ ولننبذ العبارات الأدبية القديمة البالية ولنتبع أساليب الحديث العادية . ولنوجه عنايتنا إلى التراكيب النحوية ؛ ولنبتعد عن استخدام العبارات السقيمة حين لا يكون بنا سقام ؛ ولنمتنع عن تقليد القدامى . وخلاصة القول ، علينا أن نكتب كتابة طبيعية بلغة يمكن فهمها » . واتخذ هوشيه من تضلعه الهائل فى التاريخ وإلمامه الواسع بالتطورات الثقافية بالغرب مبرراً لهذا البرنامج ، وأوضح فى مقال علمى عميق عن « فكرة التطور التاريخى فى الأدب » أن لغة الصين الأدبية ماتت منذ ألفى سنة . بيد أن كل ما أوتيه من تبحر فى العلم وما رزقته حججه من معقول مقنع

ما كانت إلا لتؤدى إلى حركة تحررية لولا أن رفعها تشن توهسيو مكاناً علياً حتى جعلها عقيدة ثورية . ومساندة لآراء هوشيه وحججه صرح تشن مطالباً « بثورة فى الأدب الصينى » ، أو كما صرح بلغته الرائعة القوية « رفع راية جيش الثورة فى الأدب » .

وعند ما بدأت « الشبيبة » فى نشر المقالات بلغة الكلام وتبنت نقاط هوشيه الثمانية ، يمكن القول بأن الثورة الأدبية قد تمت عند ذلك وأن اللغة قد تحررت من عقال النزعة الكلاسيكية المصطنعة . وتولد عن هذه الحرية قدر هائل من الأدب وترجمات عن اللغات الأجنبية ومقالات فى النقد وأعمال أدبية خلاقة ذات أصالة ، وبذا يمكن القول بأنها نقطة البدء فى الأدب الصينى العصرى . وإن ناحية الاختمار والنشاط الفكرى فى تلك الفترة لتجليها على أحسن حال وتصورها أدق تصوير رواية « لحظة فى بيكين » التى ألفها لن يوتانج ، وهى قصة تغطى الفترة بأجمعها ، بادئة بثورة البوكسر ومنتهية بفترة ثورة الكومنتانج .

وليس معنى ذلك أن حركة التحرر الفكرى تلك وحركة تطبيع الحياة والفكر الصينيين بالطابع العصرى صارتا فى طريق ميسر ولم تلقيا معارضة قوية . ففضلا عن تصدى بعض الكونفوشيين الشديدى المحافظة مثل ليوشو للحركة حيث اتهم فى خطابه الشهير الذى وجهه إلى تساى يوان پاى ، اتهم دعاة الإصلاح بالتخلى عن « العلاقات الخمس » ، كان هناك آخرون مثل ليانج تشيه تشاو وليانج سومنج اللذين دعيا بكل قوة إلى تقدير تراث الصين القومى تقديراً أحسن وإلى إيجاد حل وسط يؤلف بين الشرق والغرب . وراح ليانج تشيه تشاو يعمل جاهداً وبخاصة فى سلسلة من المقالات جعل عنوانها « تأملات فى الرحلة الأوربية » ، فناقش الحساب كثيراً من الفروض الأساسية للحضارة الأوربية ، التى كانت تقاسى آنذاك من آثار ويلات الحرب العالمية الأولى . وأخذ يطالب بمعالجة الموقف معالجة أكثر دقة ونقداً . وكان يرى أن أوربا على ما أوتيت من تقدم وقوة مادية ، كانت غير ثابتة من الناحية السياسية كما كانت تنطوى على متناقضات لا سبيل إلى التوفيق بينها . وكان يرى أن الصين حين تتقبل الأصول الفنية الغربية ومنهج النقد وطرق المعالجة العلمية للأمور ، ينبغى لها أيضاً أن تحاول أن تبنى فكرها الخاص دون

التطبع بالطابع الغربى . وتقدم ليانج سومنج فى الأمر خطوة أخرى حيث أوضح فى كتاب جعل عنوانه « الحضارتان الشرقية والغربية وفلسفاتهما » (وهو كتاب لقى رواجاً وأثراً عظيما فى يوم من الأيام) ، وعالج مشكلة الفروق بين الحضارة واستمرارها بواسطة التكييف الدائم . غير أن قادة حركة « المد الجديد » غلبتهم الحماسة للغرب فلم يعيروا هذه الحجج جميعاً إلا أذناً صماء غير واعية ، وجرف الإيمان الراسخ الذى ملأ قلب هوشيه فى تلك الفترة بالفضائل القاهرة للحضارة الغربية ، فحمله على الطعن حتى فى مبدأ « اختيار ما هو صالح منها والأخذ به » فصرح بأن طريق الخلاص إنما يقوم فى تبنى الحضارة جملة وتفصيلا .

وإذن فقد شرعت القوة التفجيرية للثورة الروسية تعمل فى بيئة صالحة ، شرعت تعمل على أنقاض مجتمع ضاعت إلى حد كبير ثقته بقيمه ، وفى فترة فوضى اجتماعية تولدت عن انهيار الدين والأخلاق ، والطبقات المفكرة تتحسس طريقها فى عماية تامة التماساً لحياة جديدة . لقد أحرز « المد الجديد » نتائج جديرة بالإعجاب ، وبخاصة فى ناحية ثلبه للكونفوشيوسية وفى ثورته الأدبية ؛ ولكنه كان مقصوراً على المفكرين دون غيرهم ولم يساعد على تكوين تكامل للمجتمع على أساس جديد . بل هو على العكس من ذلك يمكن أن يقال إنه قد زاد فى الارتباك بما أدخل بدوره من أفكار جديدة ، وإن كان دون ريب خطوة جديدة فى سبيل إعادة التكامل على أساس تحررى وتعقلى . بيد أن الفرصة لم تتح له قط . وبينما كان تساى يوان پاى وهوشيه يدعوان إلى قبول المبادئ التحررية الغربية ، كانت مبادئ الثورة العظمى المضادة للتحرير تعلن فى موسكو ويدرسها بحماسة الشباب الأشد راديكالية بجميع أقطار الأرض . ومن أهم الأمور التى ينبغى التنبه لها أثناء دراسة مسألة بث الطابع العصرى بالصين ، أن نتذكر أن المؤسس الأصلى للحزب الشيوعى بالصين لم يكن إلا تشن توهسيو ، نصير المد الجديد وزعيمه ومحرر الصحيفة الناطقة باسمه . وقد قام تشن منذ تاريخ مبكر جداً هو أبريل ١٩١٧ يكتب مقالا فى « الشبيبة » يحلل به العلاقة بين الثورة الروسية وصحوة الشعب الصينى . وراحت « الشبيبة » بسلسلة من المقالات تقول إن الثورة البلشفية إنما هى وانتصار العامة شىء واحد ، ونشرت عدداً خاصًّا عن ماركس ، حرره لى تى تشاو ، وهو أستاذ آخر

بجامعة بيكين . وفى يوليه ١٩٢٠ تأسس الحزب الشيوعى بالصين بزعامة تشن . وكان تشن ولى وكثير غيرهما من قادة النهضة الصينية يرون أن الثورة الروسية إن هى إلا بداية لفيض فكر جديد أشد قوة وجوهرية .

وكان هذا التصدع هو ناقوس الموت للنهضة التحررية التى يتزعمها تساى يوان باى وهوشيه. وقد أضحى برنامجهما الإيجابى القائم على الثورة الأدبية والتمرد على الكونفوشيوسية واتخاذ النقد ديدناً للعلماء، ـ التقليد العام للصين الجديدة ، وأدى نجاحهما نفسه إلى انعدام القوة الديناميكية المتحركة من جهودهما. فلم يعد أحد يتقبل آراءهما ، كما أن أهل التفكير الأكثر راديكالية انصرفوا عنهما وعن المذهب التحررى الغربى . وانقضت عشرون سنة أخرى ، حظى فيها المذهب الفكرى التحررى ، وقد ضاقت حلقته واقتصر بوجه رئيسى على الجامعات والدوائر الأكاديمية ، بشىء من النفوذ على حياة الصين الفكرية ، ولكنه لم يلبث أن فقد أهميته كحركة رويداً رويداً نظراً لعدم قدرته على مسايرة نزعة الشعب الراديكالية ، وعجزه عن وضع نظرياته موضع التنفيذ والممارسة العملية عن طريق النظم . وراحت حركة الكومنتانج اليمينية بما بذلت من محاولات لإنعاش النيو كونفوشيانيه ، بواسطة فرض الرقابة على الجامعات والنظم ، تنكر على التحرريين كل نفوذ كان لهم ، ومنذ ١٩٣٦ فما تلاها يمكن أن يقال إن الحركة الداعية إلى الاصلاح والاستنارة قد فقدت كل تأثير لها على عقل الصين .

فلماذا فشلت هذه الحركة العظيمة التى كانت تبشر بالخير المعمم فى بدايتها وتمتاز بالأصالة فيما ترنو إليه من آمال ، وتعمل عن ثقة بعناصرها الأولى؟ لماذا فشلت بعد سنوات من النشاط الفياض (١٩١٦ — ١٩٢٢) ، وبخاصة أن قادتها كانوا رجالا اتصفوا بالنزاهة العظيمة والمكانة العلمية البارزة والنظرة الصافية الثاقبة؟ يبدو أن أسباب ذلك بسيطة . فأولها أنها جاءت متأخرة جداً حيث ظهرت فى وقت قوضت فيه الحرب العظمى مهابة حضارة الغرب التحررية ، ثم جاءت الثورة الروسية فمزقتها إرباً. فقبل أن تطبق على النظام الاجتماعى نظريات « المد الجديد » فجأته بالصين المبادئ المنافسة التى نادت بها الثورة السوفيتية بما شددت من تأكيد على القومية فى كل مكان من الأقطار المستعمرة وغير المستقلة . وثانيها ، أن الفوضى

الاجتماعية التى تمخضت عنها جهود المبشرين المستظلة بالرعاية والحماية أمد سبعين من الأعوام ، جعلت من المحال على « المد الجديد » أن ينظم المجتمع على أساس تحررى فى مثل ذلك الوقت القصير الذى أتيح له . وثالثها ، أن مبادئ الثورة وإن كانت ثورية الأثر ، فإن زعماءها كانوا من المفكرين المنعزلين بالفطرة عن الشعب والذين لا يستطيعون حمل رسالتهم إلى الجمهور . لذلك لم يكن أمامهم بد من الاعتماد على تسرب الأفكار إليها . ورابعها ، أن الزعامة أخفقت إخفاقاً لاشك فيه عند ما قامت الأزمة ، فوقع الأحرار بين نارين وأظهروا عدم القدرة على شيء فى معالجة الرجعية الرسمية بزعامة "لى فو" وفى إيقاف التيار الفكرى الذى كان ينهمر بقوة إلى الغرب . وكانت الهند قد أدركت قدراً من التكامل الاجتماعى قبل اضطرارها إلى مجابهة ثورة أكتوبر . وكانت اليابان قد نظمت مجتمعها بالتوحيد بين الشعائر الدينية والسياسية والتعليم . فأما الصين فكان المجتمع فيها كتلة غير متخالقة زالت منها القوة الرابطة نتيجة لفشل الدين وللهجمات المستمرة على المذاهب الكونفوشيوسية . من أجل ذلك كانت مبادئ المد الجديد لا تستطيع إلا أن تظل عقيدة لطبقة فكرية ، منعزلة عن الناس وعاجزة عن إرسائها فى وعى الشعب .

ومؤلفات المدة التى عقبت ١٩٢٠ توضح ذلك بجلاء . وظهرت هيئتان — أولاهما جماعة دراسة الأدب (١٩٢٠) والجمعية الخلاقة (١٩٢٢) — فكانتا فترة فاصلة عقبت التقاليد التحررية . وكان رئيس الجماعة الأولى لوهسون ، وهو الرجل الذى أصبح أباً للأدب العصرى الصينى* بروايته « آه . ق Ah, Q » ؛ وشن ين بنج المشهور باسم القلم

* لا شك أن أهمية لوهسون فى تطور الأدب العصرى تحتاج إلى شيء من التأكيد والتوضيح . وكان أول كتاب واسع النفوذ أصدره « يوميات مجنون » ، وقد نشر فى « الشبيبة » فى ١٩١٨ . وكان هجوماً عنيفاً على شراهة المجتمع الإنسانى وأنانيته . وكان من حيث المبنى والمعنى من الغرابة بحيث روع العالم الصينى . ومع ذلك فإن خير كتبه وأذيعها صيتاً هو « آه . ق » وقد نشر فى الأصل كملحق خاص بمجلة تشن پاو . وكان « آه . ق » بطل القصة وهو متشرد لا عمل له ، شخصيته مدهشة تخصصت فى تبرير ضعفه ، كما أنه يجد حججاً ويريح بها نفسه فيما يصيبه من ألوان الفشل . ويقال إن الأسلوب الذى كتب به الكتاب أسلوب مرح حافل بالنكتة . وكان الكتاب تعريضاً لا رحمة فيه بما فى المجتمع الصينى من ضعف ؛ وكان له أثر عظيم فى الأنفس . ثم أصدر مجلدين يحتويان قصصه القصيرة بعنوان « صيحات وتردد » وهما يصوران حياة القرية . ومع أن لوهسون لم يكن قط شيوعياً ، إلا أنه أبرز شخصية فى جماعة الكتاب الصينيين اليساريين ، كما أن عمله ترك أثراً دائماً فى الأدب العصرى الجديد .

ماوتنج الذى أطلقه على نفسه . وثلاثية ماوتنج المعنونة : « إماطة الخداع — والتردد — والبحث » ، أوضحت بجلاء ألوان الصراع العقلى الذى كانت الصين تمر به . فإن « إماطة الخداع » بعد التفاؤل الأول الذى نشأ عن فشل الكومنتانج والتقاليد التحررية ، هى الحقيقة الأساسية التى تريم على العقل الصينى . وكان رئيس « الجمعية الخلاقة » كو مو چو ، وهو مؤرخ وعالم وشاعر وكاتب قصة قصيرة ، تبوأ بعد ١٩٢٥ على الأقل مركزاً ثورياً فى الأدب . وأصبح كل من لوهسون وماوتنج من مؤيدى جماعة الكتاب اليساريين الصينيين ، وذلك أن اتجاه أهل الفكر كان يدلف باستمرار نحو اليسار .

إن النواحى المتناقضة فى حركة النهضة الصينية والأسباب التى أدت إلى فشلها ، توضحها بدرجة ما حياة « صن يات سن » أبى الثورة القومية الصينية . ولد صن بالمنطقة الساحلية الخاضعة للمؤثرات التجارية الأوربية ، ثم رحل إلى هاواى وهو بعد حدث فى مقتبل عمره ، وتربى هناك فى « مجتمع صينى وراء البحار » وتعلم بإحدى مدارس المبشرين ، وعمد فيها مسيحياً . ثم عاد إلى الصين وأخذ يعمل متأثراً بالمبشرين . وقام بنشاط ثورى لقى تأييداً من الطلبة باليابان وأمريكا كما لقى مساعدات مالية لجهوده من المجتمعات الصينية التى تعيش بالبلاد الأجنبية . وكان فى إبان محاولاته العديدة لإثارة الأعمال الثورية ، يعيش مستظلا بالأمان الذى تيسره الامتيازات الأجنبية ، جامعاً أتباعه من بين صفوف الطبقات الجديدة التى حرمت كل نفوذ وسلطان فى شئون الصين . وفى فترة الثورة وفى السنوات التى عقبتها مباشرة ، كانت آراء "صن يات سن" حول الصين شديدة القرب من آراء أنصار « المد الجديد » . وكان مثلهم عدوا للكنونفوشيوسية وكل ما يؤيده مذهبها من آراء وأفكار : فكان يدعو إلى تقبل آراء الغرب جملة واحدة وكانت له ثقة عظيمة بالتقاليد المتحررة لدى الأمم الأوربية . ثم عاد فى المرحلة الثانية وقد زالت غشاوة الخداع عن بصيرته « بما أصاب الغرب من فشل » ، فشخص ببصره نحو موسكو . وقد صرح صن فى إعلانه الذى أصدره إلى الشعب الصينى فى ٢٥ يوليه ١٩١٩ بأنه : « إذا شاء شعب الصين أن يتحرر كما تحرر الشعب الروسى ، وأن ينجو من النصيب الكدر الذى أعده له الحلفاء فى ڤرساى . . . فليكن مفهوماً

لديه آن حليفه وأخاه الوحيد فى كفاحه من أجل حريته القومية هو العمال والفلاحون الروس الذين يكونون الجيش الأحمر » . ولم يزد مضى الزمن اعتقاده ذلك إلا نمواً ؛ ذلك لأن آخر رسالة أرسلها كانت موجهة إلى المجلس التنفيذى المركزى لجمهوريات الاتحاد السوفييتى ، وكانت تنص على التالى « إنكم على رأس اتحاد جمهوريات حرة : هى التراث الذى تركه لينين الخالد لشعوب العالم المضطهدة . فبمساعدة ذلك التراث سيتمكن ضحايا التوسع الإمبراطورى دون أدنى ريب من الحصول على الخلاص والتحرر . . . وإنى لأستأذنكم أيها الرفاق الأعزاء فى أن أعبر عن رجائى فى أن يجىء اليوم الذى يرحب فيه اتحاد الجمهوريات السوفييتية بالصين القوية الحرة صديقاً وحليفاً له ، وأن يسير الحليفان جميعاً جنباً لجنب نحو النصر المحقق فى الصراع العظيم لتحرير شعوب العالم المضطهدة » .

وغنى عن البيان أن ما ترى من تحول "صن يات سن" الذى كان فى الأصل نصيراً للطابع الغربى ، والذى هو ثمرة تربية مدرسة المبشرين ، من مذهب التحرر إلى المساندة الصريحة لمذهب لينين يحتوى فى حد ذاته على تاريخ صحوة الصين الجديدة وفشل نهضتها التحررية .

الفصل الخامس

الأقطار الصغرى وآسيا

سنعالج هنا بإيجاز الحركات التى قامت بالأقطار الصغرى بآسيا . فأما بورما فظلت منذ يوم فتحها حتى ١٩٣٧ تدار كجزء من الهند ، كما أن حركة النهضة القومية كانت شديدة التأثر بالتطورات التى تمت ببلاد الهند . وكان هناك مع ذلك فارقان لهما أهميتهما . فإن استغلال بورما الاقتصادى على يد الرأسماليين ورجال الأعمال الهنود وهجرة الهنود العظيمة إلى بورما ، أسبغت على القومية البورمية صفة مزدوجة مضادة لكل من الاستعمار والهنود على السواء . وكانت الحركة الوطنية الهندية تشجعهم على التألب على الاستعمار ، على حين كان البريطانيون أنفسهم يشجعون الانعزالية العنصرية البورمية . ومن الناحية الأخرى ، كفت العقيدة البوذية عن أن تكون الديانة الرسمية للبلاد منذ ألحقت بالهند ، إلا أن تأثيرها على الأنفس لم يتأثر بذلك تأثراً خطيراً . ولذا فإنه بينما كان زعماء الرأى العام بالصين يفاخرون بأنهم لا يؤمنون بدين ، فإن زعماء الحركة الوطنية فى بورما كانوا مضطرين للاعتراف بأنهم بوذيون مخلصون ليحصلوا على التأييد الشعبى ، وآية ذلك قصة الدكتور بوءو الذى عمد فى حداثته مسيحياً ، حتى إذا أصبح زعيما وطنياً بارزاً ، أعلن أنه قد عاد إلى حظيرة الكنيسة البوذية الأم . ومن ناحية أخرى بلغ من قوة رد الجمهور على أى هجوم يوجه إلى الدين ورجاله أن "ثاين بى" مؤلف إحدى الروايات الشهيرة وهى « الراهب العصرى » ، اضطر أن يعتذر علناً عن مهاجمته لرجال الدين فى ١٩٤٥ .

وإن مجلس المنظمات البوذية الذى أسس بعد الحرب العظمى (١٩١٤ — ١٩١٨) ، أول شاهد على تماسك البوذية فى ظل الظروف السياسية المتغيرة وعلى استعداد البورميين لإقامة حركتهم الوطنية على وحدة دينهم . وهكذا ظلت الحركة البورمية قومية فى جل شأنها ، دون أن توجه أى تهديد للتكامل الاجتماعى للبلاد أو أى خطر قريب يؤذن بثورة اجتماعية . ولم يتأثر بنيانها الاجتماعى ولا عقيدتها الدينية تأثراً خطيراً ، ولم يتيسر للمبشرين القيام بأى نشاط واسع النطاق إلا بين شعب « الكارن » .

وكانت نتيجة ذلك أن بورما ظلت من الناحية الثقافية على الرغم من القتال الاقتصادى الذى شنته على الهنود فى البلاد ، مقيمة داخل الفلك نفسه نظراً لأن عوامل التعلم والوطنية وغيرهما ، التى تعمل فى القطرين ، كانت متماثلة إلى حد كبير .

وعاشت سيام فى ظل ملكية وطنية — أظهرت بعد عهد الملك تشولا لانكورن حكمة فى قيادتها لشئون البلاد ، حيث اتجهت فى حذر وحيطة إلى تطبيع البلاد بالطابع الغربى . وكان ملوك سيام وناصحوهم يعلمون الحدود التى اضطروا إلى العمل فى ظلها ، فاتجهت سياستهم من ثم إلى المحافظة على الاستقلال القومى وإلى التقدم المطرد لا إلى محاولة الحصول على مركز مرموق وأهمية بارزة مثل التى رغبت فيها اليابان منذ البداية نفسها . وأدرك الملك تشولا لانكورن أن أمن مملكته يقوم فى المنافسة بين فرنسا وإنجلترة ، فظل حيناً من الدهر قانعاً بأن يشغل مركز الدولة الفاصلة وهو وضع مكنه باستخدامه سياسة الانتقاء الدقيق والحذر فيما يتبنى من أشياء ، أن يستحدث دولته دون أن يزلزل أركانها الاجتماعية أكثر مما ينبغى ، ودون أن يحدث أثراً سيئاً فى الهيكل السياسى لبلاده . وأدركت الأسرة المالكة منذ عهد مبكر أن هناك ضرورة قاهرة تدعو إلى تكييف نفسها وفق المعرفة الغربية . وهناك كتاب يتحدث عن مربية انجليزية استخدمت فى القصر واسمه « أنّا وملك سيام » ، وهو يعطينا بياناً ممتعاً عن البدايات والمحاولات التجريبية لهذه السياسة فى عهد الملك منكوت . ومع ذلك فسرعان ما اتضح أن تجديد الحكومة كان يحتاج إلى هيئة مدربة من الموظفين يكونون على علم بأحوال الغرب ؛ ومن ثم بدأت بمعاونة الحكومة سياسة إرسال بعوث الطلبة إلى أوربا لتلقى العلم . ومع أن الطلبة المنتخبين لتلك الدراسة كان معظمهم من الأرستقراطيين ، فإن تلك الفكرة أمدت سيام بهيئة من الشباب ينتمون عامة إلى أصحاب التقاليد المحافظة الذين ارتضعوا علوم الغرب وأصبحوا مستعدين لابتكار سياسة تجديد البلاد وتنفيذها . وكان زعيم هذه الحركة الملك راما السادس وقد تعلم هو نفسه بكلية كرايست تشرتش بأكسفورد — فأسس جامعة تشولا لانكورن وقرب الأدب الغربى من أذهان الشعب ، بل ترجم هو نفسه شكسبير وأدخل الألعاب ، وعلى الجملة عمل جاهداً على دفع سيام إلى مصف الشعوب العصرية . ومن أعماله العظيمة الكثيرة إنشاؤه لمنظمة للشباب

اسمها جماعة « النمور الضارية » ، تهدف إلى نشر المثل العليا للمسئولية الفردية والخدمة بين الشباب . وأدخل نظام الزواج المدنى ، وبذل الملك جهوداً جبارة لرفع مستوى الأعمال المدنية . وكان راما السادس أيضاً صحفيًّا ذا مقدرة ضخمة ، وكان يكتب تحت اسم مستعار هو أسواباهو أو بيجاسوس ، ويبسط لشعبه نواحى السياسة القومية .

ونتيجة لقوة الكنيسة البوذية وشدة حيويتها ، لم يكن لنشاط المبشرين فى سيام وبورما إلا أضأل الأثر . وهنا أيضاً تزعم الملك راما حركة إنهاض البوذية . فحررت تحت رعايته التريبيتاكا ونشرت ، وبذلت محاولات لرفع المستوى العلمى للقساوسة البوذيين . واتخذ عواهل سيام لقب « حامى العقيدة البوذية » تقليداً للقب الملك البريطانى . وأدت هذه السياسة المحافظة والمستنيرة أيضاً التى اتبعتها الملكية أثناء الفترة الدقيقة بين ١٨٧٠ و ١٩٢٠ إلى خروج سيام من الفترة الحرجة دون صخب ولا ضجة عنيفة ودون أن يصاب نظام المجتمع فيها بأى سوء ، وبذلك استطاعت فى المدة التى عقبت الحرب الأولى أن تسترد استقلالها القومى كاملا ، بإلغائها بالتدريج بطريق المفاوضات ، حقوق الامتيازات القضائية التى كانت للدول الأجنبية ، وساعد على عودة البلاد إلى سابق عهدها بسلام شيوع نظام ملكية الفلاحين للأرض ، وقوة حيوية الكنيسة البوذية والقدرة التى عالجت بها الأسرة المالكة علاقاتها الأجنبية ، حيث منعت نمو العداء المرير للغرب كما حدث فى الصين .

والثورة التى شبت بسيام فى ١٩٣١ حركة قامت ضد الاستبداد الملكى ، وضد طريقة قصر الوظائف العليا على ذرية الملك تشولا لانكورن الوفيرة العدد إلى حد ما ؛ وهى طريقة كان لاشك فى ضرورتها إبان الأيام الأولى للتنافس الدولى . ودفعت هذه الثورة إلى الأمام دعوة « الاستحداث » وكانت فى أساسها وطنية . وفضلا عن تقييد حقوق الملك وإدخال نظام الحكم الديمقراطى ، كان زعماء الحركة الشعبية ينزعون إلى رسم سياسة اقتصادية قومية ، يستطيع بها الشعب السيامى أن يخلص نفسه من القبضة الخانقة التى طوق بها الأجانب عنق البلاد .

وفيما يتعلق بكل من بورما وسيام ، كان أهم عامل فيهما هو قوة حيوية البوذية الهينايانا وية . وهى تتناقض فى هذه الناحية مع مركز البوذية الماهايانا وية

بالصين . ومع أن الكتاب الأوربيين قد جرت عادتهم بالتقليل من شأن تمكن البوذية من قلوب الجماهير ، فإن الذى لاشك فيه أن رجال الكهنوت البوذيين والمنظمات الدينية بوجه عام ، لم يكن لها إلا نفوذ ضئيل على الشئون القومية بالصين . وكان المذهب الكونفوشيوسى الذى يعتنقه الماندرين يحول دون أى تكامل اجتماعى يقوم على البوذية ، اللهم إلا فى منغوليا وحدها . ومن الناحية الأخرى ، أظهرت الهينايانا قوة عجيبة فى تنظيمها الاجتماعى ، وكانت القوة الرابطة العظيمة التى مكنت كلا من المجتمعين البورمى والسيامى من المحافظة على كيانهما الداخلى ، وأن يقاوما — مكللين بالنجاح الباهر — القوة المدمرة الممزقة : نشاط المبشرين والمبادئ الغربية .

وتعقيد الموقف السياسى بالهند الصينية يجعل من العسير إيجاز الحديث فى الموقف هناك ، فأما كمبوديا ولاوس فكانت الهينايانا نفسها قوية فيهما ونظام الحكم ملكيًّا وإن كان تحت النفوذ الفرنسى ، وقد دام البناء الاجتماعى ، وإن كانت حركات الإصلاح ضعيفة ضيقة الرقعة . وفى إمبراطورية أنام ضعفت مبادئ القصر الكونفوشيوسية ضعفاً ظاهراً بسبب إخفاقها بالصين ، فضلا عن ضغط الفرنسيين المباشر ، وبذلك أصبحت تلك المبادئ عاجزة عن الدفاع عن نفسها تلقاء المبادئ الأكثر عدواناً ، وذلك على حين أن كوتشين صين الواقعة تحت الإدارة الفرنسية المباشرة والمعرضة للنشاط الشديد للبعثات التبشيرية الأجنبية فى كثير من مناطقها ، حدث بها انهيار فى النظام القديم أدى إلى نمو كثير من النحل الدينية العجيبة مثل « الكودية » . وقد كانت الأنظار متجهة على الدوام فيما يتعلق بالهند الصينية إلى الحركة الوطنية التى يقودها الشيوعيون . على أن الوطنية ليست مع ذلك شيئاً جديداً على الهند الصينية ، كما أظهرنا ذلك من قبل . ذلك أن أهالى الهند الصينية لم يتقبلوا قط النفوذ الفرنسى راضين ، كما أن كبرياءهم وثقافتهم القومية قد طالما قاوما مغريات سياسات الترابط والتمثل التى كانا ينتهجها الفرنسيون . ولكن لم تحدث بالبلاد إلى ما بعد الحرب العظمى الأولى أية حركة وطنية واسعة النطاق تقيم نفسها على خطة إعادة البناء الداخلى والإصلاح . وعندما بدأت تلك الحركة كانت الثورة الروسية أصبحت بالفعل عاملا ضخماً فى شرق آسيا ، ولذا فإن الحركة الوطنية

الجديدة بالهند الصينية اتسمت منذ البداية بطابع التحيز للمذهب الماركسى ، الذى ما لبث حتى تحول إلى زعامة شيوعية .

واتبع الهولنديون باندونيسيا سياسة المحافظة على الكيان التقليدى للمجتمع الأندونيسى . وقد ظل حكمهم السياسى غير مباشر فترة طويلة من الدهر ، ذلك لأن مصلحتهم كانت منحصرة فى استغلال موارد البلاد استغلالا علميًّا . فاستطاع الهولانديون أن يحولوا زمناً طويلا جدًّا بين الأندونيسيين وبين القيام بحركة وطنية . وكان ذلك بعدم تشجيعهم للتعليم العصرى بين الأهالى ، وإنشائهم نظاماً لتعليم بلدى أهلى يحجب جميع الأفكار الحديثة عن المدارس . لم يكونوا يرغبون حتى نهاية القرن التاسع عشر أن يمارسوا فى البلاد أى نفوذ ثقافى . وظلوا مئتى عام دون أن يقوموا بأى عمل يسجل لهم السعى لتمدين البلاد وبث الحضارة بين أرجائها . لم يكن يعنيهم من الأمر سوى ثروات إندونيسيا ، التى يقال إنها كانت تقدر بسدس الدخل القومى للهولانديين .

بيد أن هذا العزل الجبرى المفروض على إندونيسيا عن سائر أقطار العالم كان شيئاً لا يمكن مواصلته إلى ما لا نهاية . فقد كان من المحتم أن تتأثر إندونيسيا أيضاً بحركة الجامعة الإسلامية فى الشرق الأوسط وبالاختمار الفكرى الذى أخذ يعمل عمله فى العالم الإسلامى . وكان حجاج بيت الله بمكة والمدينة يعودون محملين بالأفكار التى كانت سرعان ما تنفذ بين كتل الجماهير الإندونيسية . وكانت دراسات العلماء الهولانديين فى الحقب القديمة للتاريخ الإندونيسى تفتح أمام أعين الشباب الإندونيسى نافذة يطلون منها على منظر جليل حافل بالمجد التليد . ولا تنس أيضاً أن الشبان الإندونيسيين شرعوا منذ مستهل القرن يفدون بوفرة إلى أوربا ، وبعد الحرب العالمية الأولى تضاعفت نسب الحركة تضاعفاً كبيراً . وإن حركة عدم التعاون التى دعا إليها المهاتما غاندى بالهند ، فضلا عن الكفاح المظفر الذى تكللت به حركة سعد زغلول والوفد بمصر ، خلقت فى البلاد نوعاً جديداً من الحماسة .

وقد بدأ « بودى أتومو » أى الحزب الوطنى جهاده أصلا بالإلحاح فى المطالبة بإصلاح التعليم ، ولم يكن له إلا ناحية سياسية محدودة جدًّا . ولكن حدث منذ ١٩٠٨ وهى الفترة التى ظهر فيها حزب تركيا الفتاة بتركيا وتأسست فيها العصبة الإسلامية بالهند ، أن حمل عصا القيادة حزب جديد يدعو إلى الوطنية الدينية هو حزب « ساريكات إسلام » . وقبل أن تستطيع الحركة أن تحرز أى نجاح ، هزت

الثورة الروسية العالم الشرقى من أساسه ، وتولد عنها إدخال أساس اقتصادى للأعمال السياسية بالبلاد ، وهو أمر طال تسلط الأفكار السياسية عليه . ولاشك أن الطابع الإسلامى القائم فى المجتمع الإندونيسى بغض النظر عن سياسة هولاندة الثابتة التى جعلتها لا تسمح بأى مساس بالظروف الاجتماعية بالبلاد عن طريق نشاط المبشرين — اللهم إلا فى ملكا ، — قد حالا حتى الآن دون نمو حركات إصلاحية عظيمة المجال بإندونيسيا . بيد أن الأحزاب الجديدة الواقعة تحت تأثير الفكر الماركسى كانت أكثر اقتناعاً بضرورة عمل تعديلات وتكييفات اجتماعية واقتصادية من الوطنيين الدينيين فى الفترة السابقة . وأهم حقيقة يمكن ملاحظتها فى إندونيسيا أن الحركة التى أدت إلى استرداد الاستقلال تستمد إلهامها من مصدرين : إحساس قوى بالوحدة الدينية وإدراك نام متزايد لأهمية التنظيم الاقتصادى والاجتماعى .

المراجع (الصين)

نورد هنا أسماء المؤلفات التى تتعلق بحركات الإصلاح الأولى . وذلك بغض النظر عن المؤلفات العامة المدونة بفصول أخرى .

Yung Ming : my life in China and America (1909).

La Fargue, T.E. : China's First Hundred.

Yung Shang-him : The Chinese Educational Mission and its Influence.

Hu Shih : The Chinese Renaissance (Commercial Press).

Hu Shih : A Literary Revolution in China (Chinain 1918, edited. by T.Z. Tyau).

Hu Shih : Civilizations of the East and the West, in Whither Mankind, edited by Charles A. Beard. New York, 1928.

Wang, Tsi C. : The Youth Movement in China.

Christian Education in China. Report of Burton Commission, 1922.

Chen, L.T. : History of Chinese Political Thought during the Early Tsin Period — adapted from the Chinese of Liang Chi-chao. London, 1934.

Hughes, E.R. : Invasion of China by the Western World. A. and C. Black, London, 1937.

Ah Q and the Selected Stories of Lu Hsun. Translated by Chi Chen-wang. N.Y., Columbia University Press, 1940.

Wen Han-Kiang : Chinese Student Movement. Kings Crown Press, N.Y., 1948.

اليابان : المراجع هنا أيضاً كثيرة جداً. وهناك دراسة قوية لمسألة الغرب كلها عند سانسوم « The Western World & Japan » لندن ١٩٥٠ . وعن الشنتو يوجد بعض النصوص الهامة فى « Shinto the Unconquered Enemy » . تأليف بلوان نيويورك ١٩٤٥. وانظر: « Modern Japan & Shinto Nationalism (Holtom) » جامعة شيكاغو ١٩٤٧ . (وهو يحتوى أيضاً ترجمات لنصوص هامة ولكنه متحيز بسبب ظروف الحرب) .

Embre, J.F. : The Japanese Nation. New York, 1945.

Kato ZENCHI : A Study of Shinto, the Religion of the Japanese Nation. Tokyo Meiyi Japan Society, 1926.

Boxer, C.R. : Jan Campagnie in Japañ, 1600-1817. Hague, 1936.

Mclean : Japanese Government Documents, 1867-89. Transactions of the Asiatic Society of Japan, Vol. XVII, Part I. Tokyo.

Norman, E.H. : Japan's Emergence as a Modern State. Instite of Pacific Relations, 1940. George Allen & UNWIN.

Sansom : Japan - A Short Cultural History.

Satow : The Revival of Pure Chintao I. Asiatic Society of Japan, Vol. III. p. I.

Yone Noguchi : Japan and America. N.Y.

القسم السابع

البعثات التبشيرية المسيحية

الفصل الأول

المسيحية فى مرحلتها الأولى

وجدت المسيحية منذ أقدم الأزمان بمناطق مختلفة من فارس والهند والصين . وتدعى كنيسة ملابار أنها رسولية الأصل وأن مؤسسها هو القديس توما ، ومهما يكن من أمر ، فإن جهات خارجية تشهد بوجودها منذ عام ١٨٢ . وكان للنساطرة مجتمع مزدهر فى فارس ، وتشهد لنا لوحة سيانفو التى اكتشفت فى ١٦٢٥ ، بأن المسيحية النسطورية وصلت إلى الصين فى القرن السابع الميلادى . واللوحة تتحدث عن أولو بن من إقليم سوريا الذى « يحمل الكتب المقدسة الحقيقية » فى ٦٣٥ م ، كما تتحدث عن الاستقبال الكريم الذى لقيه به الإمبراطور وعن تشييد الكنائس . وكانت تلك اللوحة موضع الشك أمداً طويلا ، ولكن أكد صحتها مخطوط اكتشفه بليوت بمدينة تنج هيوان ، وليس هناك الآن شك فى أن مجتمعاً من النساطرة ، ظل يعيش مزدهراً بمناطق التخوم الصينية الغربية عدة قرون . وهناك أيضاً من الدلائل ما يدل على أن قبيلتى اليويغار والكرايت ، وهما قبيلتان من البدو الرحل على تخوم الصين ، قد أوتيت المسيحية النسطورية بينهما شيئاً من النجاح . ويدعى وليم ربرك أنه زار مدينة الكرايت فى ١٢٥٤ وقام بالطقوس الدينية بكنيستها . وبطبيعة الحال كانت هناك كثير من المجتمعات المسيحية فى ممتلكات چنكيزخان المترامية ، ومن الطبيعى جداً أن نتوقع أن يحتوى بلاط الخان الأعظم ممثلين لطائفتى المسيحية الشرقية والغربية . وقد ازدهر عيش النساطرة فى أجزاء مختلفة من الإمبراطورية المغولية ، ويقال إن كويوك ابن چنكيزخان كان يرعاهم ويظال بحمايته كنائسهم .

بيد أن زيادة الاهتمام بشئون الشرق الأقصى ، ورسالة الهيئات التبشيرية المسيحية إلى الخان الأعظم ، لم يكن الدافع إليها هو الدين بل بعض دوافع أخرى . وقد أشاع ظهور الجيوش المغولية فى قلب أوربا الرعب فى جميع

* بيزلى فى : « Texts & Versions ..... of William de Rubriques » .

الأنفس، فلم يكن أحد يدرى الشيء الكثير عن هذا الشعب الوافد الجديد. وشاع بين الناس أنهم شياطين تحمل بين أكتافها رؤوس كلاب، وأنهم أشبه بالجراد فى القحط والدمار الذى يحدثونه والسرعة التى يوجهون بها ضربتهم. ودعا البابا مجلساً بمدينة ليون فى ١٢٤٥ ليبحث فى كيفية إنقاذ العالم المسيحى من شر هذه النازلة الداهمة. وأدلى الأساقفة الروس الذين فروا من بلادهم أمام تلك الجحافل بما لديهم من معلومات عن ذلك الشعب الرهيب. وقرر المجلس أن يرسل البعثات للتفاوض مع قادة المغول بالمناطق القريبة من أوربا ومع الخان الأعظم نفسه. واختير لهذه السفارة الكهنوتية راهب فرنسسكى، هو يوحنا دى بلانو كاربينى من أهالى بيروچيا ومن رفقاء القديس فرانسيس نفسه.

وكان بلانوكاربينى يؤمن كمعظم المسيحيين فى عصره، بأنه على المسيحيين أن يبسطوا للوثنى مبادئ المسيحية، وإذا هو فيهتدى بنور الصدق الذاتى الذى تشمله. من أجل ذلك بدأ عمله وهو معتقد أن الخان أصبح على وشك اعتناق المسيحية. ومن الممتع أن نذكر أن مثل هذا الاعتقاد ظل قائماً طوال تاريخ علاقات المسيحيين بحكام الشرق — فدار حول أكبر الذى كان المبشرون فى بلاطه يعتقدون أنه قاب قوسين أو أدنى من اعتناق المسيحية، وحول كانج هسى وتشين لنج إمبراطورى الصين، كما دار مؤخراً حول إمبراطور اليابان، الذى أعلنوا عنه والأمل يملأ نفوسهم أنه كان يمعن فى التفكير العميق فى أى المذاهب المسيحية يعتنق وأيها يكون اعتناقه أعود عليه بالنفع. ومهما يكن من أمر فإن كاربينى لم يترك طويلا فى بحران شكوكه، وذلك لأنه هو نفسه وصل إلى النتيجة المحزنة بأن الإمبراطور المنتخب قد «اختار أن يستظل براية التحدى لكنيسة الرب».

ولم تكن بعثة كاربينى دينية. بل كانت محاولة تستتر وراء ثوب الكهنوت الدينى لجمع المعلومات عن المغول، وعن قوتهم ومواردهم — فكأنها كانت فى الواقع بعثة تجسس. ولم تكن أوربا أو عالم المسيحية (كما كانت أوربا تؤثر أن تسمى نفسها) يخامرها أى شك خلقى فى استخدام الدين لأغراض سياسيه، ومع أن التمييز بين الدين والسياسة ربما لم يكن واضحاً تماماً أيام كاربينى، فقد تواصل على أشكال ودرجات مختلفة ذلك التقليد (الذى بدئ به آنذاك) تقليد إخضاع

الدين لصالح الدولة ولم يزل قائماً حتى يوم انهار نهائيًّا نشاط المبشرين المسيحيين بالشرق * .

وكان المبشر الهامّ الثانى الذى زار المغول هو وليم ربرك . وكان الأصل فى بعثته مسألة غريبة ؛ ذلك أن لويس التاسع الفرنسى ، الذى كان عند ذاك يقوم بحملة صليبية فى الشرق الأدنى ، أحس أن حربه المقدسة التى شنها على المسلمين باسم الدين تلقى فرصة أعظم للنجاح إذا أمكن إقناع المغول الأقوياء بالانضمام إليه فى الهجوم على الإسلام . من أجل ذلك الغرض قرر أن يرسل سفيراً إلى الخان الأعظم ، وكان المبعوث الذى اختير هو وليم ربرك ، وهو راهب فرنسسكى من خاصة مرافقيه . وبعد رحلة طويلة مضنية بلغ ربرك بلاط مانجوخان فى ديسمبر ١٢٥٣ . والظاهر أن مانجو قد أحسن معاملته ، ولكن عند ما شرع الراهب يحدث العاهل عن المسيحية قيـــل له بأدب : « إن الطرق الموصلة إلى الجنة مثل أصابع اليد الخمسة » — وهو شعور سنلتقى به كثيراً فى تاريخ جهود المسيحيين لتنصير الشرق .

ولم يكن هؤلاء المبشرون وغيرهم مثل أودوريك إلا شخصيات ضالة لم يكن لظهورها العابر على مسرح التاريخ الأجنبى إلا أثر ضئيل لايكاد يذكر وكان النصير التالى للمسيحية فى الشرق ، وهو يوحنا دى مونتى كورڤينو ، شخصية خلقت من طينة أخرى . ذلك أن مونتى كورڤينو كان حتى قبل رحيله إلى الصين شخصية ذات أهمية عظمى بأوربا . ولد فى أپوليا فى ١٢٤٦ ، واختاره يوحنا باليولوجوس إمبراطور الشرق ، وهو بعد فى السادسة والعشرين من عمره لم يتجاوزها ، ليكون مبعوثه إلى البابا نيقولاس الرابع ليتفاوض وإياه فى العلاقات بين القسطنطينية وروما . ثم نسمع عنه فيما بعد وهو يقوم بسفارة لدى الفرس ، حيث حمل رسالة مستحيلة التنفيذ ، هى نشر عقيدة المسيحية بين المسلمين . فلما أيس من نتائج جهوده فى فارس ، عاد إلى روما وأقنع البابا بأن يرسله إلى الخان الأعظم ، ثم رحل مونتى

* عن البعثات التبشيرية المسيحية عند المغول انظر بدج : « Monks of Kubilai Khan » تأليف بدج ؛ وانظر « Christians in China before 1550 » تأليف مول ؛ وانظر تأليف لاتوريت الفصل الخامس « A History of Christian Missions in China » .

الفصل الثانى

الهند : البدايات

وقد بدأت المرحلة التالية للنشاط التبشيرى المسيحى بوصول البرتغاليين إلى آسيا — وكان سلطان البرتغاليين فى الشرق قائماً على مراسيم كاليكسيتوس الثالث ونيقولاس الخامس والإسكندر السادس ، التى تقسم الأراضى « المكتشفة » حديثاً بين اسبانيا والبرتغال وتفرض على عاهلى هاتين المملكتين عبء نشر العقيدة المسيحية . وطبيعى أن الملك البرتغالى وموظفيه كانوا يظهرون نحو التنصير حدية يمكن فهم المراد منها .

فلقد كان التنصير عند البرتغاليين شأناً من شئون الدولة . وأحس الدوم مانويل بالشكر العظيم على ضم نصف العالم إليه ، فأخذ على عاتقه رعاية مصالح الكنيسة فى البلاد المكتشفة حديثاً . ودفع الملك كل نفقات تأسيس الكنائس والنظام الكنسى بالشرق ؛ ولذلك فإن التنصير فضلا عن التجارة والإدارة ، — كان من احتكارات التاج الخاصة ، وذلك فى البداية على الأقل . ومن ثم لم تتول البابوية بنفسها تنظيم المجمع المقدس لنشر العقيدة للهيمنة على الأعمال التبشيرية وتنسيقها ، إلا بعد مرور مئة وثلاثة وعشرين عاماً على وصول ڤاسكودا جاما إلى الهند . وقبل ذلك الزمان كان مبدأ الپادروواودو (أى رعاية الملك التى أنشأها المرسوم البابوى فى (٣ نوفمبر ١٥١٤) يخول السلطات فعلا فى يد التاج البرتغالى فى المناطق التى تدعى فيها البرتغال لنفسها الحقوق السياسية . ولعله مما يشوقنا أن نذكر أن آخر إثارة لمذهب الپادرو وادو ، وهى ادعاء الحق فى الموافقة على تعيين الأساقفة الكاثوليك بأجزاء معينة من الهند ، لم تتخل عنه البرتغال إلا فى ١٩٥٠ .

ولم تجد البرتغال إلا فرصة ضئيلة للقيام بأعمال التنصير الواسعة المجال بالهند ، ذلك أن رقعة ممتلكاتهم بالهند كانت صغيرة الحجم والأهمية ، ومن ثم حددت مواردهم حميتهم لتنصير الهنود ، ولم يكن مسموحاً لغير المسيحيين بالعيش فى ميناء كوتشين ، وهى رقعة صغيرة من الأرض محوطة بأسوار حصينة . وكانت الكنيسة

تدعى فى مدينة جوا حقوقاً أوسع مما للدولة . وقد استقر الرهبان الفرنسسكيون بها فى ١٥١٧ . وفى ١٥٣٤ جعلت جوا أسقفية تمتد سلطتها على الشرق الأقصى كله . وفى الحين نفسه بدأ الدوم يوحنا (جواو) الثالث يحس أن الوثنيين لا يعالج أمرهم بالشدة التى كان يشتهيها ، فأصدر تعليمات خاصة إلى نائبه يوحنا دى كاسترو ، بأن يتخذ أقسى أنواع الإجراءات لاستئصال شأفة الكفرة ، ومنح المتنصرون امتيازات خاصة ، وأوحى إلى موظفيه فهدمت جميع معابد الهندوك فى جوا وصودرت ممتلكاتهم ووزعت بين الطوائف الدينية فى ١٥٤٠ . واتخذت أعنف إجراءات الاضطهاد ، وإن كان يبدو أن الهيئة الإدارية لم تكن موافقة تماماً على هذه السياسة . وبدأت المحاكم الكنسية تدين الزنادقة ، حتى قبل إنشاء محاكم التفتيش رسمياًً فى (١٥٦٠) . وهذه الاجراءات دفعت كامونيس أعظم شعراء البرتغال أن يدمغهم بهذه الوصمة القاسية : « وأنتم يا من تغتصبون لأنفسكم لقب رسل الله ، هل تظنون أنكم تتبعون القديس توما ؟ » .

وفى ٧ أبريل ١٥٤١ أبحر من لشبونة إلى الهند فرانسيس زافيير أعظم شخصية فى تاريخ المسيحية بآسيا بعد القديس توما الرسول . وكان يوحنا الثالث كتب فى ١٥٣٩ إلى ممثله بروما يأمره أن يلتمس من البابا أن يقدم إليه قساوسة جبلوا على الغيرة والحمية والإخلاص والقدرة ليقوموا بالأعمال التبشيرية بالهند . ومن الذين أوصى بهم البابا خيراً شاب من ناڤار ، هو فرانسوا دى چاسو إى زاڤيير ، وهو فتى تلقى العلم بباريس ، وهناك وقع تحت تأثير أغناطيوس ليولا . ويمكن أن يقال إن زاڤيير قد تجمعت فيه روح النهضة الدينية العظيمة التى كانت تجرى حينذاك بالأقطار الكاثوليكية . كان زاڤيير صادق الإخلاص ، مدرباً كجندى للمسيح ، مستعداًً لتحمل أى عذاب يتعرض له ، يؤمن إيماناً أعمى جارفاً بأن رسالته إلهام ربانى من السماء ، وبهذه الروح انطلق ليفتح الشرق للمسيحية . وإن رقته وحبه للفقراء والوضعاء ، وثقته الفائقة الراسخة ، فى بر عمله وضرورته للناس ، لتمنح القوة اللازمة للجهد العظيم الذى بدأ به التنصير ، ذلك الجهد الذى انتشرت رقعته إبان حياته من جوا إلى اليابان . وصل زاڤيير إلى الهند منوطاً به شرف القيام بعمل اثنين : القاصد الرسولى للبابا والمفتش الملكى (البرتغالى) للبعثات التبشيرية ،

فأكب على تنظيم أعمال التبشير فى جوا . ويقال إنه عند ما نزل إلى البر ، لم يذهب رأساً إلى قصر رئيس الأساقفة محمولا على محفة ، بل سار حافى القدمين إلى مستشفى للمجذومين حيث أخذ من توه يغسل لهم قروحهم .وفى ١٥٤٢ أسس هناك جامعة القديس بولس العظيمة لتدريب المبشرين الموجهين لآسيا . ولما كان دخول المبشرين إلى الشرق الأقصى إبان القرن التالى لا يتم إلا عن طريق جوا وحدها ، فلا عجب إذن أن يلعب ذلك المعهد دوراً من أخطر الأدوار فى النشاط المسيحى بآسيا . وكان أبناء اليابان والصين وأنام وغيرها من البلاد الواقعة شرقاً يجلبون إلى ذلك المعهد يتلقوا التدريب . وحدث أيضاً ، كما سنشهد ذلك من فورنا أن معظم من عملوا من الأوربيين فى حقل التبشير بالشرق الأقصى كانوا يتلقون تدريباً أوليًّا فى جوا قبل أن يعينوا بمراكزهم .

على أن زافيير كان مع ذلك غير راض عن هذا النوع من العمل التنظيمى والإدارى . وكانت الرغبة التى تتأجج فى طوايا نفسه هى نشر رسالة المسيح ، وسرعان ما غادر جوا لينزل بين جماعات الصيادين النازلين على طول ساحل ملبار . فاستطاع بفضل ما تبدى فيه من دلائل الجد والتقوى والإخلاص أن يمس إلى حد ما قاوب هؤلاء الفقراء . وينبغى ألا يغيب عن بالنا أيضاً أن المسيحية لم تكن بالعقيدة المجهولة على ساحل ملبار ، وإن أقلع المسيحيون فى ملبار منذ أمد بعيد عن نشر الدعوة المسيحية . فاستجاب له الصيادون الذين كان ينشر دعوته بينهم ،وتم له نشر عقيدته بين بعضهم . ولم يقنع زاڤيير بمثل هذا القدر الضئيل من النجاح الذى استطاع أن يحققه ، لذلك غادر شواطئ الهند التماساً لأفق جديد لدعوته فى الشرق الأقصى ، وسنتعقب لك نشاطه هناك فيما بعد . وقد كتب إلى الملك يوحنا الثالث قبل مغادرته كوتشين يقول : « ينبغى أن تعلن لخدامك بأوضح عبارة . . . أن الوسيلة الوحيدة للنجاة من غضبك والوصول إلى مرضاتك وعطفك هى الحصول على أكبر عدد ممكن من المسيحيين فى الأقطار التى يتولون الحكم فيها » .

وراحت البعثات اليسوعية التى أسسها بالهند تؤدى عملها بحماسة ، غير أن النتائج كانت أقل كثيراً مما كان يتوقع ، حتى عين روبرتو دى نوبيلى رئيساً للبعثة

التبشيرية بمادورا . وكان الأب دى نوبيلى يرتبط بوشائج القربى بأعلى عائلات إيطاليا وأكرمها محتداً ، وكان رجلا ذا نشاط فكرى عظيم . ولبث فترة يرقب ما حوله ثم وصل إلى نتيجة أصبحت لديه عقيدة راسخة ، هى أن المسيحية لن تلقى إلا أضأل النجاح بالهند إن هى احتفظت بالثوب الغربى الذى تتشح به وأبت أن تتفهم عقلية أهل البلاد وتفكيرهم . وفى ١٦٠٦ حصل على موافقة جمعيته بالقيام بدراسة الهندوكية دراسة جدّ وتوفر ، ذاكراً أن الغرض من ذلك هو تعلم أفضل الطرق للجدل مع زعماء البراهمة وكشف النقاب عن نقط الضعف فى عقيدتهم . وكانت مادورا مناسبة لذلك الغرض من كثير من الأوجه . فقد ظلت مركزاً حيًّا للثقافة الهندوكية مدة تربى على ألف وخمسمئة عام ، وكانت قلعة حصينة للعقيدة السليمة كما كانت مثابة للعلم الغزير وابلاط نشيط ناهض ومعبد ذائع الصيت . واتشح نوبيلى بثوب طالب زاهد واتبع بدقة العادات الاجتماعية لدى البراهمة ، وبذلك تمكن من الحصول على مساعدة « البانديت» العلماء فى بحثه وراء مبادئ الفكر الدينى الهندوكى . وبعد أن قضى سنوات كثيرة فى جهد متواصل ، تمكن أثناءها من زمام السنسكريتية وهى اللغة الكلاسيكية التى تدون بها الكتابات الهندوكية المقدسة ، واطلع على مذاهب الهندوكية نفسها ، — أعلن عن استعداده أن يلتقى فى حلبة الجدل الدينى بعلماء العاصمة البرهمانيين. بل لقد نشر بالسنسكريتية كتاباً يحتوى على بيان سليم بالمعتقدات المسيحية — والطريق الذى انتهجه كان طريقاً ألفته الهند منذ زمن بعيد ، وهو طريق « سسترارثاڤادا » ، أى الجدل العلمى وفق القواعد التى لقيت من الناس حسن القبول ، وفى الإمكان تبين شدة عمق هذه العادة فى أذهان الناس من ذلك الوصف الذى يورده هسيووين تسانج لكثير من تلك المجادلات التى اشترك فيها فى القرن السابع عشر ، وقد أعلن نوبيلى أنه صاحب « ما رجا » أى طريقة جديدة ، كانت تجمع بين الصحة السلفية وبين التمشى الحق مع التطور الدينى الهندى ، وحاول أن يقيم أركان شعائر المسيحية على أساس الفكر اليوپانيشادى . وقد عاش بين البراهمة كأحدهم ، آخذاً نفسه بدقة برعاية محظورات (تابوهات) تلك الطائفة وممارساتهم . وقد استطاع نوبيلى تنصير بعض علية القوم ، ويقال إنه كان يحظى بالمحبة من

رجال البلاط ، فضلا عن احترام الدوائر البرهمانية السليمة . بيد أن نجاحه نفسه كان سبيل القضاء عليه . فإن رجال البعثات الأخرى كانوا يرقبون بعين الريبة وعدم التسامح محاولة نوبيلى عرض المسيحية فى أبراد هندوكية وتساهله إزاء العادات الاجتماعية الهندية ، ثم دبت الشحناء حادة بينهم وبين نوبيلى ، وكانت نتيجتها أن استدعى إلى روما حيث لم ينقذه من طائلة العقاب الدينى إلا صلاته الاجتماعية العالية .

أهملت تجربة نوبيلى ، وصار التعصب ضد كل شيء هندى هو الخاصة المميزة لحمية المبشرين بالهند . وتذكر قرارات مجمع دياميِر عدداً ضخماً جداً من ألوان التحذير من الممارسات الهندوكية التى تسللت إلى الحياة الاجتماعية لمسيحى ملبار ، وكانت البعثات الدينية شديدة الحرص فى ذلك العهد على تجنب كل مساهلة إزاء الحياة أو العقيدة الهندوكية . بل الواقع أن أكل لحم البقر كان يعد فى نظرهم عملا ضرورياً لكل مسيحى ضرورة التعميد نفسه ؛ وذلك لأن الطقوس الهندوكية الممارسة فى ذلك الزمان كانت تعد أكل لحم البقر جريرة تخرج آثمها من حظيرة الهندوكية كل الخروج .

وهناك مشهد إضافى عجيب فى مسرحية تاريخ المبشرين بالهند هو ظهور الآباء اليسوعيين فى البلاط المغولى . فقد تجلت فى الإمبراطور أكبر الذى تولى العرش بعد وفاة زاڤيير بفترة قصيرة ، بعض دلائل الاهتمام بالمناقشات الدينية الحرة ، وكان من أجل تلك الغاية يدعو إلى قصره أعظم ممثلى الديانات المعروفة جميعاً . وأبلغ إلى الإمبراطور نبأ وجود الآباء اليسوعيين المتضلعين فى العلوم بجوا ، فوجهت إليهم أيضاً الدعوة للحضور إلى القصر . وسافر المبشرون إلى أجرا ممتلئين بتفاؤلهم المعتاد ، وهم سعداء بشعورهم بأن سبيلا قد فتحت أمامهم للتبشير برسالتهم فى قلب الإمبراطور نفسه . واستقبلوا هناك بترحاب عظيم ، وأقبل عليهم أكبر ، بما جبل عليه من حب استطلاع لا سبيل إلى إروائه ، يسألهم الأسئلة الكثيرة عن عقيدتهم وأصغى بغاية الصبر لشروحهم . ولكن المجادلات التى دارت فى « عبادت خانة » أى دار العبادة ، التى كان أكبر يجمع بها زعماء العقائد المختلفة ليتجادلوا فى نقاط عقائدهم ، ساءت المبشرين إساءة عظيمة . ولم يرحب الإمبراطور

أيضاً بما أظهروا من تعصب إزاء الديانات الأخرى ومن تأكيدهم الجازم باحتكارهم للصدق الإلهى الذى كانوا يدعون ملكيته ، وموقف التعالى الذى كانوا يتخذونه إزاء أنصار العقائد الأخرى . وكانت المناقشات بين رجال الدين غير مجدية بطبيعة الحال ، وبعد أن تقلب المبشرون حيناً من الدهر بين الرجاء الحار واليأس الممض ، أقلعوا نهائيًّا عن محاولة تنصير المغولى . الأعظم .

وهناك مناسبة أخرى يمكن الإشارة إليها ، وقد حدثت يوم حصل احتكاك بين الأسرة المغولية وبين المبشرين التابعين للبرتغاليين واليسوعين . فى ١٦٣٢ شرع اليسوعيون يقومون بالقرب من محطة تجارية برتغالية بالبنغال ، بنشاط قوى فى التنصير . فقبض البرتغاليون على جاريتين للإمبراطورة ممتاز محل — التى بنى الإمبراطور فيما بعد التاج محل تكريماً لذكراها — والظاهر أنهما أجبرتا على اعتناق النصرانية . وعند ذلك قرر البلاط المغولى توقيع العقوبة على الأجانب . ولم تجد جيوش شاه جيهان أية صعوبة فى طرد البرتغاليين من مستقرهم . وفى تلك العملية قتل أو أسر أكثر من أربعة آلاف برتغالى . ومن بعدها لم تبذل أية محاولة جدية لنشر المسيحية داخل الإمبراطورية المغولية .

وبعد انحلال قوة البرتغال عند ١٦٦٠ ، تضاءل الاهتمام بالتبشير حتى فى جنوب الهند نفسها . وواصلت كاتدرائيات جوا وجامعاتها تبديد إيرادات المؤسسات البرتغالية . وفيما عدا رعاية البرتغال لمصالح المسيحيين اللاتينيين على الساحل ، فإنها لم تقم بأى عمل تبشيرى جدى . وينبغى لنا أن نؤكد أيضاً أن جوا كانت مثلا سيئاً قضى على نشاط المبشرين بالهند عامة . فقد شاع عنهم فى كل أرجاء الهند تدميرهم القاسى للمعابد والنظم الدينية الهندوكية وإبعادهم كل غير المسيحيين من المشاركة فى الحكم وعدم تسامح سلطاتهم بصفة عامة ، وهى أمور أثارت ضمائر الهندوك والمسلمين على السواء . والحق أن ضابطاً على حظ من الولاء والشجاعة هو سيمون بوتلهو حذر الملك بلشبونة بأن : « هناك من يريد أن يجبر الأهالى على اعتناق المسيحية وهم يضايقون الهندوك بصورة جعلت الناس يفرون من هذا البلده » (يعنى جوا) . وجاء إنشاء محاكم التفتيش فى ١٥٦١ ، وأشعلوا أول نار ألقوا فيها بالكفرة فيها فى سنة ١٥٦٣ ، فزادت الطين بلة ، حيث قضت على كل فرصة لحصول المبشرين

وجهودهم فى ظل البرتغاليين على أى عطف من بلاطات الأمراء الهندوك الذين كانوا يحكمون جنوب الهند فى ذلك الزمان .

ولم تكن الدول الأوربية التى سارت فى خطى البرتغاليين تهتم إلا بالتجارة وحدها ، ولما كان ممثلوها تنتظمهم هيئات تجارية ، فإن مسألة تنصير الوثنيين لم تكن لها أية أهمية لديهم . ولكن البرتغاليين كانوا ينظرون إلى نشر الدين المسيحى نظرة أخرى ويعدونه جزءاً جوهرياً من عملهم فى الشرق كما يعدونه رسالة وكلها إليهم الكرسى المقدس . ولم يكن نشاط الشركات التجارية التى حلت محل دولة البرتغال بالمياه الهندية ، ترعى بأى حال مصالح التبشير والمبشرين . وحدث أيضاً أن الهولنديين الذين جاءوا فى أعقاب البرتغاليين مباشرة والبريطانيين الذين حلوا فى النهاية محل الهولنديين فى نهاية القرن الثامن عشر ، كانوا من البروتستانت ولا يعطفون على نشاط الهيئات الكاثوليكية . ولم تكن الحمية للتبشير لدى البروتستانت قد نضجت آنذاك بعد ، ومن ثم فعند ما اختفت من المسرح دولة البرتغال عند منتصف القرن السابع عشر ، يمكن أن يقال إن الدور الأول من أدوار التنصير انتهى بالهند .

وقد أنجزت هيئات التبشير الكاثوليكية أعمالا عظيمة أثناء فترة زعامة البرتغاليين يمكن أن تنسب إليهم هنا مقرونة بالفضل . فإن قسيساً يسوعياً قديماً هو الأب إستاڤو (وهو رجل إنجليزى من ولتشير اسمه ستيڤنز) تضلع فى اللغات الهندية ودرس السنسكريتية ، وكتب ملحمة بلغة الماراثا عن حياة المسيح . وقد أسس قساوسة اليسوعيين فى جوا أول مطبعة بالهند . كما أسسوا أيضاً بعض المعاهد اللاهوتية التى يلوح أنها وإن كان المقصود منها تعليم القسوس ، قد وجهت بعض التفاتها لدراسة اللغات الهندية . وكانت كلية إمبالكاد بالقرب من كوتشين تعلم السنسكريتية والتاملية . ويقال أيضاً إن أخا اسبانيا علمانياً هو جونسالڤز خرط أول الحروف فى المطبعة التاملية . ويذهب بعضهم إلى الاعتقاد بأنه لولا تدخل الهولنديين ، لكان من الجائز أن نوجه هيئات التبشير الكاثوليكية — حين ضاقت أمامها سبل التنصير — ، نشاطها إلى النواحى الثقافية ، ولكن تلك الفرصة لم تتح لهم .

الفصل الثالث

الشرق الأدنى حتى ١٧٢٣

انتقل زاڤيير من حلبة انتصاراته بالهند ووصل إلى ملقا فى سبتمبر ١٥٤٥ . فوجد البرتغاليين هناك منغمسين فى الرذائل كشأنهم فى جوا تماماً . وبناء على البيانات الكاثوليكية التى اقتبسها المستر برو فى كتابه حياة زاڤيير : « كانوا يعيشون بملقا عيش الشهوة والفجور ، لا يرتبطون أدنى ارتباط بالأخلاق المسيحية » . وكان مثل ذلك الموقف شديد الإيلام لشخص له مزاج زاڤيير ، وبعد أن قضى فترة طويلة فى الصلوات وتعذيب النفس أقبل يؤدى واجبه المزدوج : واجب تقويم البرتغاليين وهداية الكفرة الضالين . ويبدو أنه لم يلاق فى الأمرين جميعاً إلا قدراً غير كبير من النجاح ، وكما يقول مترجمه المتحمس : « ظل أهل ملقا غير آبهين برسالة القديس ، على ما بذل بينهم من نشاط خارق » .

ثم أقلع زاڤيير من ملقا إلى الجزائر الأندونيسية . وكانت بعض العائلات قد تنصرت قبل ذلك بأمبوينا فى ١٥٣٧ . ويقال إن هؤلاء كانوا قوماً من الوطنيين الذين كانوا يقاومون ضغط الإسلام ، ولما أن وصل القديس إلى أمبوينا كان قد اختفى هؤلاء المسيحيون الأوائل ، بيد أنه أكب على العمل بين سكان الساحل الفقراء والوضعاء . وإليكم البيان الذى قرره سيمون سيرانو عن أعظم ما أنجز من أعمال التنصير : « حوصر رئيس إحدى الجزائر الصغرى وكان المحاصر له جاره . وأوشك الأعداء على بلوغ النصر بسبب قلة الماء ، وعندئذ أبلغ زاڤيير الرئيس المحصور أنه لو سمح له بأن يقيم صليباً ، فإن الله سيهبهم الماء . وتم ذلك فعلا ، وللفور بدأ المطر ينزل ، وقبل الرئيس وأتباعه التعميد » . وفضلا عن مثل هاته المعجزات ، فإن سيرة حياته فى الأرخبيل مثال ناصع على الجهد التبشيرى الصادق . ثم أخذ يتنقل فى أمبوينا بين أقوام انتابهم الوباء ، فأخذ يمرضهم ويعنى بهم . وكان يطعم ويكسو القوم الفقراء الذين تخلى عنهم كل إنسان ، وبفضل إحسانه ورقته وعذوبة شمائله ، أدرك ذلك الجندى الحق المخلص لله قدراً عظيماً من النجاح .

وقد التقى الرسول وهو فى ملقا فى طريق عودته بيابانى اسمه أنچيرو ، كان فاراً من العدالة فى بلاده . ولشدة شوق زاڤيير إلى اكتشاف ميادين جديدة يفتحها باسم المسيح ، أقبل على أنچيرو يستفسر منه عن الحالة الروحية لليابان ، وأعطاه أنچيرو بيانات مشرقة أوهمته أن سكان الإمبراطورية اليابانية على أتم استعداد لتلقى رسالة المسيح . وصحب أنچيرو زاڤيير إلى جوا ، فأدخله إلى كلية القديس بولس لتلقى الدراسات اللاهوتية . وفى ١٥٤٩ أقلع زاڤيير إلى اليابان يصحبه ذلك التلميذ وستة رفقاء آخرون . ووصل فى أغسطس إلى كاجوشيما فى إقطاع دايميو ساتسوما ، الذى تلقى زاڤيير بلطف وأدب . وفى هذه الإقطاعية شمر زاڤيير ورفاقه عن ساعد الجد وأخذوا يعملون فى التنصير بهمة. وقد أصاب حظاً ضئيلا من النجاح ، ذلك لأنه أوتى القدرة اللغوية ، فاستطاع فى مدة قصيرة أن يلتقط المبادئ الأولية من اليابانية. ولكنه سرعان ما اصطدم برجال الدين البوذيين ، وكانوا قوماً متمكنين كل التمكن من أصول عقيدتهم ، تمكناً أتاح لهم القدرة على مجادلة اليسوعى فى المسائل اللاهوتية . ولم يرض زاڤيير عن النجاح البطىء الذى كان يحصل عليه ، خاصة وأنه بدأ يواجه عداء الجمهور نتيجة للغة غير المعتدلة التى كان رجل الله يستنكر بها العادات الاجتماعية والعرف السائدين اليابانيين ؛ لذا فإنه خرج قاصداً العاصمة مياكو ، ليحاول أن يتوج أعماله التبشيرية بتنصير الإمبراطور نفسه . وسار ذلك القسيس البطل على قدميه بمفرده لا يلوى على شىء وقد انعقدت حوله هالة من سمو الإيمان والثقة بالنفس ، فوصل إلى العاصمة بعد رحلة طويلة متعبة . وهناك كانت خيبة الرجاء تنتظره ، ولكن ذلك لم يثن عزمه ولم يثبط همته ، فعاد أدراجه وشرع يعظ الناس مع القدر الضئيل من النجاح للمرة الثانية . وبعد زمن قصير عاد زافيير إلى جوا فى ١٥٥١ .

ولو اطلعت على مراسلات اليسوعيين باليابان لأخذك العجب . ففضلا عن إيمانهم الأعمى برسالتهم كانوا يرون يد الشيطان تمتد فى كل مكان لإحباط جهودهم الباسلة لإنقاذ أرواح الكفرة . وكان أكبر مظهر لتلك اليد الشيطانية هم الرهبان البوذيون ، الذين حطمت معارضتهم الآمال الحبيبة التى تعهدها زاڤيير بين جنبيه بالرعاية بناءً على ما أدلى إليه أنچيرو من بيانات متفائلة . وكان

جهل زاڤيير بالديانات الأسيوية حائلا دون أن يقدر بأس القوى التى كان عليه أن يتصارع وإياها . وكان البوذا فى نظره شيطاناً رجيماً ، وكان الشعب اليابانى يعيش فى رأيه فى أدران خطايا ذريعة وفى خطر شديد على أرواحهم . ومن أجل ذلك كانت معالجته للأمر تاوح فى عين اليابانيين أبعد الأشياء عن الصداقة والمودة ، وتبعاً لذلك صار عمله المؤسس كما ترون على الجهالة والتحزب والتعصب لا ينتج إلا نتائج لا وزن لها . ومع أن اليأس كان يملأ شعاب قلب زاڤيير ، فإنه لم يبد عليه شيء من آثاره . فقد كتب من ملقا إلى إغناطيوس ليولا يقول له : إن سكان اليابان كانوا ينتظرون وصول الإنجيل ، وطالب بالمزيد من الأيدى العاملة .

وسمع زاڤيير وهو باليابان عن إمبراطورية الصين وعظمتها . وهنا وجد ميداناً جديداً لنشاطه . وليس بمعقول أنه كان يجهل قصة مونتى كورفينو ؛ والتهبت جوانب نفسه بالطمع فى تنصير شعب ذائع الصيت كشعبها ، فانطلق إلى الصين . ولكن الأقدار لم تكتب له الوصول إليها . فإن ذلك الرجل الشيخ الذى لا يقهر استقر على جزيرة صخرية صغيرة قبالة ساحل كوانتانج ، ينتظر سفينة تنقله إلى أرض الصين نفسها . ولم تسعفه الأقدار بعون منها ، بل إنه حتى البرتغاليون أنفسهم ، وهم الذين كانوا يدعون أنهم ناشرو الدعوة الدينية المسيحية بالشرق ، أبوا عليه كل عون . وهناك فى ٢ ديسمبر ١٥٥٢ توفى فرانسيس زاڤيير ، وليس معه سوى خادمه الصينى ، الذى أسماه أنطونيو .

ويعد زاڤيير من الأبطال الذين عملوا فى سبيل المسيحية بالشرق . ومع أن جهوده انتهت إلى إخفاق ، ولم تحصل المسيحية على أى تقدم يعتد به أثناء السنوات الأربعمئة التى عقبت مدة نشاطه بكل من الهند واليابان ، فإنه يحلق فى السماء سامقاً شامخاً فوق كل من عقبه من المبشرين بسبب عطفه على الفقير والوضيع ، وبسبب نشاطه وقوة روحه ، وبسبب قوة بأسه وعدم ترقرق الخوف بأى حال إلى قلبه إزاء المخاطر وإيمانه الفائق برسالته . ولم يكن كبر ياؤه الصلف مسألة شخصية اختص بها ، وإن لم يكن ثمة شك فى أنه كان ذا كبرياء شديد الصلف ما تعلق الأمر بعقيدة غير مسيحية ؛ وكان مذهبه الاعتقادى الجازم وعدم تسامحه ثمرة لعقيدته العمياء ، بيد أن هذه الصفات التى طالما أثارت القدر الكبير من العداء له بحيث

أصبح يحس أنه يرى الشيطان فى كل مكان ، كان يصحبها تواضع فى الروح وحماسة صادقة بالصدقة والإحسان والأخوة مع التوحيد بين نفسه وبين الفقراء . من أجل ذلك صارت روح القديس فرانسيس زاڤيير منبع إلهام لأجيال متعاقبة من العاملين على نشر المسيحية بالهند والصين واليابان .

ومهما يكن من شىء فإن جهود المبشرين بالصين لم يتح لها أى تقدم ، بسبب المنع الدقيق الذى اتخذته السلطات الصينية ، بعد احتكاكها الأول بالبرتغاليين على نحو ما أسلفنا علياك . ومع ذلك فإن البرتغاليين استقروا بمكاءو ، وهى بقعة دقيقة ميكروسكوبية الرقعة ، ولكنها نمت حتى أصبحت مركزاً هاماً للتجارة . وهناك فى ١٥٦٥ شاد اليسوعيون لأنفسهم مسكناً . وسرعان ما نمت بعثتهم التبشيرية . وعند ما وصل إلى مكاءو فى ١٥٢٧ إسكندر ڤالينيانى الزائر اليسوعى لبلاد الهند الشرقية ، أدرك الفرصة العظمى التى تهيؤها تلك القاعدة للنشاط التبشيرى بالصين . وفى السنة التالية لحق به ميخائيل رجچيرى ، فقاما معا بوضع أساس تجربة عجيبة أفضت إلى افتتاح فصل من أعجب فصول الخصومات الكهنوتية . وبوصول ڤالينيا نى تبدأ المرحلة الثانية فى المحاولة العصرية لنشر المسيحية بين ربوع آسيا .

وكانت طريقة السلطات البرتغالية العلمانية منها والكهنوتية ، فضلا عن مبشرين مثل فرانسيس زاڤيير حتى عهد ڤالينيانى ، هى القضاء على تحصينات الوثنية بالهجوم الشديد . ذلك أنهم كانوا يرون أن الصدق المسيحى من شدة الوضوح وأن الحاجة إلى الخلاص من الضخامة ، بحيث خيل إليهم أن التسامح كان فى حد ذاته خطيئة بالغة . وكان مشروع التنصير بأمر الدولة الذى حاول البرتغاليون تنفيذه فى جوا وكوتشين ومراكزهم المحصنة الخاصة بهم ، يقوم على التنصير بالقوة كما أنه لم يكلل بالنجاح إلا بمناطق محدودة فقط . ومع أنه حتى تلك الأماكن نفسها قد استخدمت فيها محاكم التفتيش والتعذيب وألوان أخرى عجيبة من العقاب ، كإرغام غير المسيحيين على حضور العظات المسيحية الدينية الطويلة ، فإن محاولة التنصير لم تلق نجاحاً تاماً ، وذلك لأن غالبية الأهالى ظلوا غير مسيحيين فى جوا نفسها بعد ٤٣٠ سنة من الحكم البرتغالى ، وقد فشلت الجهود الخاصة

لنشر المسيحية فشلا يسترعى الأنظار بدرجة أشد ، كالذى حدث فى حالة رجل مثل فرانسيس زاڤيير . ومن الجلى أن خطة الهجوم المباشر كانت شيئاً لا بد من التخلى عنه ، ومن ثم نشأت خطة جديدة يمكن بها تبصير العين الآسيوية بنور الصدق . وكان ذلك هو ما حاول ڤالينيانى وريچچيرى آنذاك أن يفعلاه .

وكانت السياسة الجديدة تقوم على استرضاء كبار الموظفين والقيام بخدمات خاصة لهم بصورة تجعل المبشرين ذوى قدر كبير لدى من بيدهم السلطان . وكان لا بد للقيام بهذا الواجب من دراسة لغة البلاد وآدابها وعاداتها والتمشى مع حياة الدوائر التى يأملون العيش بينها فضلا عن آداب اللياقة فيها . ونصب ڤالينيانى وريچچيرى نفسيهما لأداء هذا العمل . ففى ١٥٨٢ التمسا من موظف فى كوانج تنج الإذن بالمقابلة ، فدعيا لمقابلته فى رئاسة الولاية . وتقدم ريچچيرى ومساعده پاسيو إلى كاوتشنج ،حيث خلعا ثيابهما وارتديا ثياب رهبان البوذية ،ثم لقيهما الماندرين بأدب وحفاوة — وتمكن ريچچيرى ورفيقه من الحصول على مرضاة الموظف بما أهديا إليه من ساعات وغيرها من مخترعات ، وحصلا مقابل ذلك على قطعة أرض ليشيدا عليها كنيسة كما منحا الإذن بالسفر داخل الولاية . وأكب ريچچيرى على دراسة اللغة دراسة اهتمام وجد وعلى ابتناء كنيسته . ومع ذلك فإن مما يجدر ذكره أنه فى أثناء تلك الفترة لم يذكر ريچچيرى ولا باسيو مسألة الدين ولا أشارا إلى رغبتهما فى التبشير بالإنجيل . ولما نقل ذلك الموظف اضطرا إلى العودة إلى مكاءو ، وإن سمح لهما فيما بعد بالإقامة فى تشاوتشو ، وهى مدينة بتلك الناحية .

ولكن الطريق قد فتح . غير أن دبيب الخلاف دب فى ذلك الحين بين مختلف نصراء المسيحية . فإن الإسبان الراسخى القدم بالفلبين كانوا يرون أن الصين هى دائرة نفوذهم المشروعة . ومن ثم بذل الرهبان الدومينيكيون الذين يقيمون فى مانيلا جهوداً منوعة للحصول على موطئ قدم لنشاطهم بأرض الصين . ولقى ذلك أشد المقاومة من البرتغاليين ، الذين كانوا يدعون بمقتضى النظام الپادرووادو الحق فى التفرد بنشر الإنجيل فى الشرق. من أجل ذلك لم تفز الجهود المبذولة من مانيلا بأى نجاح ، كما أنه لم يكن معقولا أن الاسبان بما لهم من ماض حافل بالتنصير القسرى بالمكسيك والفلبين ، يكونون ذوى نفع يساعد دعاة التنصير

بالصين . ومع ذلك فإن ذلك النزاع كان دليلا على وجود خلافات خطيرة ، حاول البابا أن يسويها تسوية مؤقتة بأن أصدر منشوراً مختصراً فى سنة ١٥٨٥ ينص على أنه لا يجوز لأى مبشر أن يدخل الصين إلا عن طريق جوا ، وقد قدر لهذه الفوارق أن تدوم مئة أخرى من السنين ، وكانت هى القاضية على حركة التبشير أثناء « حرب الشعائر » المريرة ، التى جعلت مسألة تنصير آسيا معضلة كبرى من معضلات الخلافات المسيحية .

وفى أثناء إقامة رججيرى فى تشاوتشنج ، انضم إليه شاب عجيب اسمه ماتيوركى وقد قدر لصيته فى الجدل الدينى أن يظل قويًّا فى العالم كله بعد ذلك بأكثر من قرن كامل . ولد ركى فى ٦ أكتوبر ١٥٥٢ بماكرتا ، وهى مدينة صغيرة فى الولايات البابوية .

وكان والداه يرغبان فى أن يدرس الحقوق ، فأرسلاه إلى روما لتلك الغاية ، ولكن يلوح أنه وقع فى تلك المدينة فريسة دافعين قويين تجاذباه هما : كلاڤيوس عالم الرياضة وزعماء جمعية يسوع . فدرس الرياضيات العليا والفلك على يد كلاڤيوس ، وأصبح فيهما عالماً له شيء من نباهة الذكر . ثم انضم إلى عقد اليسوعيين وأرسل إلى الشرق فى ١٥٧٧ ، ووصل ركى إلى جوا فى السنة التالية ، والتحق بجامعة القديس بولس ليتم بها دراسته اللاهوتية ، وفى قصبة الكثلكة تلك بالشرق ، أقام ثلاث سنوات ، وانتهى به المطاف إلى الالتحاق بڤالينيانى بمكاءو فى ١٥٨٢.

واسترعى ركى بما طبع عليه من جد فى العمل وتضلع فى العلم أنظار العلماء الصينيين فى تشاؤتشو ، التى نزلت بها بعثة المبشرين ، فأصبح شخصية على شيء من الأهمية فى الدوائر العلمية بالمدينة . وقد أقنعته اتصالاته بأدباء ذلك المكان أن النفوذ بالصين لا يمكن أن يشع ضياؤه إلا من بيكين . فعول على الذهاب إلى تلك المدينة مهما كلفه ذلك من ثمن . وهكذا أصبحت بيكين مطمح بصره ، وكان كل ما يطمع فيه الحصول على رضا الإمبراطور ، بحيث يستطيع أن يبشر الناس بالإنجيل متربعاً فى ذلك المركز الرفيع ، دون أن يخشى أن يعترضه أحد ، لا من الموظفين المحليين الذين كان فى الإمكان رشوتهم بطبيعة الحال ، بل من عداء الجماهير ، الذى قاسى منه كثيراً فى كل من تشاؤتشنج وتشاؤتشو .

وفى ١٥٩٥ خرج ركى قاصداً عاصمة الصين . وبعد أن أصيب أكثر من مرة بخيبة الأمل، وعطل فى الطريق تعطيلا كبيراً وصل إليها فى ١٥٩٨ . ولم يكن يحمل معه نسخاً كثيرة من الكتب الدينية ، بل تشكيلة من ساعات الجيب والحائط والآلات العلمية وغيرها من الأشياء النادرة التى كان يرجو بها أن يقنع البلاط بعلمه وشدة نفعه . ولكن خيبة الرجاء كانت تنتظره هناك أيضاً ، وذلك لأنه بعد أن مكث بالعاصمة شهرين اضطر إلى الفرار منها والعودة إلى نانكين . وهناك أقام ركى سنة أتقن أثناءها دراسته للصينية واكتسب صداقة موظفى عاصمة الجنوب وعلمائها . وينسب ركى نفسه محبة أدباء تلك المدينة له إلى شدة تطلعهم لرؤية أجنبي عالم ، وإلى الشهرة التى أحرزها بأنه يملك أسرار الصنعة (الكيمياء) وطلعته الوقورة والتحف الأجنبية النادرة والساعات والآلات والمهارة فى الرياضيات وحب الاستطلاع الذى تثيره نظرياته حول تدريب الذاكرة والاهتمام أخيراً بآرائه السياسية . وقد حرص أيضاً فى هذه المرة على إحضار هدايا أشد فخامة لتقديمها للإمبراطور . وبعد هذه الاستعدادات المحكمة خرج ركى للمرة الثانية قاصداً بيكين ؛ بيد أن حركاته فى الطريق أثارت حوله الشبهات فقبض عليه وألقى فى السجن . ولكن ما لبث أن سمح له بمواصلة السير .

وسمح لركى وزملائه بتقديم هداياهم إلى عرش الإمبراطور الخالى بعد أداء واجب السجود اللازم . ويلوح أن الإمبراطور لم يسر من شيء سروره بساعة الحائط الرنانة ، وسمح لركى بالإقامة بالعاصمة ومنح راتباً من خزانة الدولة لينفق منه . وأقام فى بيكين عشر سنوات ، وهو يتذلل للعظماء ويؤدى لهم مرسم الكاوتاو ، ويشرح بحذر مبادئ عقيدته ويمهد السبيل لتنصير أشد عدواناً يجيء فى وقت تال .

وتنحصر قوة ركى فى أنه أدرك منذ اللحظات الأولى من دراساته الصينية نشوب الخلاف بين البوذية والكونفوشيانية . وألهمته زكانته أن أعظم عائق يقف فى سبيل المسيحية هو عقيدة البوذا ، فانضم إلى أتباع كونفوشيوس قلباً وقالباً ، ولم يدخر وسعاً فى مهاجمة البوذية . وقد حاول فى كتابه الوحيد القيم « تيان تشوشيه ئى » ، أى

تعاليم رب السموات ، أن يقتبس من السنة الكونفوشيوسية اقتباسات تؤيد المبادئ المسيحية . وكان يرمى من وراء ذلك أن يثبت أن المبادئ الكونفوشيوسية لا تتعارض والمسيحية . حتى إذا ظهر بهذا المظهر من الانضمام للكونفوشيانية شرع يهاجم البوذية وأصبح غرضاً لهجماتها . وأضفت هذه الخطة عليه وعلى رفاقة محبة شعبية مؤقتة لدى الموظفين الكونفوشيوسيين بالبلاط الإمبراطورى .

وتوفى ركى فى ١٦١٠ ، تاركاً رئاسة البعثة لزميله لونجوباردى . ويقال إنه قال عند ما حانت منيته : « إنى أترككم أمام باب مفتوح » . ولا شك أن الباب كان مفتوحاً لساعات الحائط والرياضيات والفلك والخرائط ، ولكنه لم يكد يكون مفتوحاً للمسيحية على النحو الذى يبدو أن ركى كان يعتقده . وأصبح ذلك جلياً كل الجلاء عندما حدث فى السنة التالية مباشرة أن طرد من العاصمة الأب دى أورسيس ، الذى عهد إليه ركى رعاية الدار التى لهم فى بيكين . ومع ذلك فقد حدث بعد تسعة عشر عاماً أن مسألة إصلاح التقويم وضعت موضع البحث ، فتقدم شخص اسمه هسوكوانج تشى ، قيل إنه من المسيحيين ، ملتمساً من العرش أن يستخدم علماء أجانب لذلك الغرض . وفى سبتمبر ١٦٢٩ نيط ذلك العمل بهسو وباليسوعى آدم شال فون بل * . وعندئذ حانت الفرصة المناسبة للبدء جدياً فى محاولة تهريب المسيحية إلى الصين عن طريق الرياضة والفلك ، وهو العمل الذى حلم به ركى .

ولم يكن عمل المكتب الفلكى (الذى أسماه اليسوعيون بالفلكى من باب المجاز وبراعة التعبير) ، الذى وكل إلى شال ، عملا علمياً بالمعنى الدقيق . وكان الغرض الأساسى منه إنشاء تقويم رسمى للدولة ، يحتوى على التواريخ السعيدة لكل حدث له أهمية داخلية أو قومية . وقد نقل ذلك النظام أصلا عن الهند ، وهو ما يزال باقياً بها إلى اليوم ، وبمقتضاه أصبحت عقود الزواج والاحتفالات المنزلية ووضع أحجار أساس المنازل وإطلاق الأسماء على الأطفال تتقيد عند معظم العائلات الهندوكية بموضع النجوم من أبراجها . وقد حدث فى مملكة نيبال الهندوكية ، أن الإعلان الملكى للإصلاح فى ١٩٥١ تأخر يومين حتى يحدث التقاء بين النجوم

---

* ولد آدم فى كولونيا ١٥٩١ ، وتلقى تعليما ممتازاً ، وأحرز امتيازاً عظيما فى الرياضة والفلك . وخرج إلى بيكين فى ١٦٢٢ ، وبعد أن عمل فى سيانفو وهانجشا وعاد إلى بيكين ليتولى مهمة إصلاح التقويم .

السعيدة . وفى الصين أيضاً كانت أهمية الحسابات التنجيمية هائلة حتى حرم الشيوعيون إصدار التقاويم القديمة الطراز التى تذكر التواريخ السعيدة وأحلوا محلها التقويم الماركسى فى ١٩٥١ ، وقد كلف شال بالقيام بهذه المهمة .

ولم يكن تعيينه ، وإن أضفى عليه منصباً أوتى شيئاً من الأهمية فى العاصمة ، لينطوى على أى تسامح إزاء المسيحية . وفضلا عن ذلك فإنه وضع الجزويت فى موضع شديد الخطر ، كما أن هذه الحقيقة لم تفت منافسيهم وخصومهم بمانيلا وأوربا ، بل الحق إنهم كانوا موضع الشبهات من شطر من « الجمعية » نفسها . وممن احتجوا على هذا الاتصال العلنى بالتنجيم ماجهالنز ، (الذى فضح طرائق اليسوعيين فى نشرة قوية أذاعها) ، وفيتورى ركى الذى قدم التماساً إلى روما فى ذلك الموضوع . ومما يثبت أن شال لم يكن عديم الضمير وحسب بل خالياً من الأمانة فى استخدامه لمعرفته ، أنه لم يتردد فى تفسير البقع الشمسية بأنها تمثل التأثيرات السيئة المعادية التى للقساوسة البوذيين على الإمبراطور . وكان المظنون أن شال ورفاقه يرفعون من شأن عقيدتهم وما فيها من صدق بمثل هذا النوع من الخداع .

وحل الفلكيون اليسوعيون محل المسلمين ، واحتفظوا إزاءهم بمراكزهم ، وعين فى ذلك المكتب طائفة متعاقبة منهم دامت مئة سنة . ويميل المؤرخون المسيحيون إلى اعتبار ذلك تقدماً عظيماً لقضية عقيدتهم ، وتولد بين الناس اعتقاد بأن اليسوعيين كانوا يستمتعون فى بيكين بنفوذ ضخم عند ذوى السلطان بها ، وهى مدعيات ضئيلة الحظ جداً من الصدق . ذلك أن المناصب التى كانوا يشغلونها كانت منخفضة إلى حد ما فى مدرّجة المناصب الحكومية ، ومع أنها كانت وظائف تمنحهم عند الجمهور شيئاً من النفوذ ، فإنها لم تكن تحمل إليهم أى نفوذ سياسى عدا منحهم فرصة للتآمر . وتمكن شال ومن عقبه من الرجال بفضل سلطانهم على نصرائهم من الكبار ، أن يضمنوا للعاملين فى النواحى المختلفة من البلاد الأمان ، كما أنه لا شك أن علم الناس بأن بعثة المبشرين كان لها أصدقاؤها بالعاصمة كان شيئاً يعود عليهم بالنفع والعون . ومع ذلك فإن أهم ما قاموا به لم يتم فى مضمار الدين كما سنبين ذلك بعد ، بل فى تمكنهم من الاحتفاظ بالمناصب مدة تربى على مئة سنة ،

وهو أمر يشهد تماماً بحكمة الأباطرة الذين شاءوا الاستفادة من المعارف الرياضية لدى القساوسة ، بقدر ما يشهد لرؤساء بعثة بيكين المتعاقبين بالخلق الذليل المطواع .

وكانت خاتمة حكم أسرة منج تقترب سريعاً ، وفى ١٦٣٤ أسس تاى تسنج أسرة تشنج وبدأ فى التدخل فى بلاد الصين . وفى أثناء دوران الحوادث هذه الدورة المؤتسة انقلب إمبراطور المنج إلى منجميه الأوربيين ، الذين أذاع عنهم أتباعهم فى طول البلاد وعرضها نبأ مهارتهم فى العلوم ، وطلب إليهم أن يصنعوا له المدافع . وكان معنى اعترافهم بالمعجز « زوال كل مكانة لهم » ، فكما أن الفلكى تساهل مرة فى حق ضميره وتحول بوجهته نحو التنجيم ، فإن القسيس لم يجد أية صعوبة فى أن يصبح كبير صناع الأسلحة للإمبراطور . ولم يكن يبدو له أنه لا يليق أن يسمى المدفع الذى يصنعه باسم القديسين المسيحيين . وهناك حادثة غريبة تروى حول سقوط أسرة منج ، هى أنه حدث ـ كلعبة نهائية بعد فقدان العرش ـ أن أمة مسنة لوالد كويه وانج مدعى العرش اعتنقت المسيحية مع جماعة غيرها من سيدات الأسرة . وأطلق الأب كوفلر الذى عمد أسرة العاهل المخاوع اسم هيلين على الأمة الأرملة ومارى على أم الإمبراطور وآن على زوجة الإمبراطور . وعمد ابن مدعى العرش تحت اسم قسطنطين ، وذلك على أمل أنه عند ما يعود إلى عرش الأفعوان يفعل لآسيا ما فعله من قبل سميه لأوربا . وفى ١٦٤٧ أرسلت الإمبراطورة هيلين بعثة إلى أوربا على أمل أن تنهض الدول المسيحية لنصرتها ـ وهى حادثة قدر لها أن تكرر تكراراً عجيباً بعد ذلك بثلاثمئة عام بالضبط ، يوم هبت مدام شيانج كاى شك تستصرخ سادتها المبشرين بأمريكا أن يأتوا لنصرة زوجها ، ولم تلق بعثة الإمبراطورة إلا أضال حظ من النجاح ، غير أن مبعوثيها التقوا بالسفير الفرنسى بالبندقية المسيو دار چنسون . واستقبلهم أيضاً دوج البندقية . ووصلت البعثة إلى روما فى ١٦٥٣ وظلت بها حتى ١٦٦٣ . وسلم كذلك الخطاب المرسل إلى البابا ، بيد أن الكرسى المقدس كان أعلم بالموقف داخل الصين وبطبيعة الحال لم يعلق على الحادث أية أهمية سياسية *

* هناك وصف لهذه البعثة ونشاطها فى البندقية ، يجده القارئ فى مقال كتبه جيرار دى ريال فى مجلة « توانج باو » مج ١ ص ص ٩٩ ـ ١١٧ ، وقد أصدر دى ريال أيضاً مع مقالته « القطع المبررة » المتعلقة بالبعثة .

وقد تمسك شال بمنصبه وإن كان تلقى من أسرة منج قدراً عظيماً من التكريم . وكان بطبيعة الحال يرجو أن تبقيه أسرة المانشو فى منصبه . وفى ١٦٥٠ أنعم شن شيه إمبراطور المانشو على شال بلقب عملى وسمح لليسوعيين ببناء كنيسة . وجعل شال نفسه ذا منفعة للإمبراطور من نواح كثيرة ، وبخاصة كمترجم للبعثات السياسية الأجنبية ، وأخذ يعيش عيش أحد رجال البلاط . والظاهر أنه اجتذب إليه الإمبراطور الشاب ، ولما كان ذلك الإمبراطور بطبيعة الحال يستريب الصينيين الذين لم تستقر بينهم أركان حكم أسرة المانشو ، فإنه كان فى الراجح ياجأ إلى العالم الأجنبى طلباً لنصيحته . على أن الألقاب التى منحها شال تدل بجلاء على أن المنزلة التى اكتسبها فى البلاط لم يكن لها أدنى علاقة بدينه . أجل إن شال عين نائبا لرئيس موظفى القربان الإمبراطورى — ومن العجب أن يشغل قسيس مسيحى مثل هذا المنصب للإصطبل — كما أنه عين رئيساً للإصطبل الإمبراطورى ورئيس الشرف لحملة المآدب الإمبراطورية . ومن سوء الحظ أن الإمبراطور الذى جعل شال ساقياً فى مآدبه لم يعش طويلا حتى يتولى اليسوعى مهام وظيفته ، ولا أن يسعد ابن السماء بشرف خدمة قسيس يسوعى له على مائدته !

ولم يكن الإمبراطور الجديد سوى كانج هسى ، وهو من أعظم وأقوى الحكام الذين تربعوا على عرش الأفغوان . وعين شال نائب رئيس موظفى القربان الإمبراطورى مربياً للإمبراطور الصغير ، وأصبح بحكم منصبه قادراً على الدخول على تلميذه الإمبراطورى . وحدث حتى قبل تولى كانج هسى العرش ، أن عالماً صينياً اسمه يانج كوانج هسيان ، وجه سهام نقده القوى إلى المبشرين ومبادئهم واتهم المبادئ الجديدة بأنها معادية للدولة . وألقى اليسوعيون قناعهم فى ردهم عليه وأعلنوا : « أن حكمة الصين إن هى إلا نور معتم بالموازنة إلى ساطع ضياء المبادئ المسيحية » . لقد بدأت المعركة واضحة جلية ورد عليهم يانج بنشرة عنوانها : « لا أستطيع السكوت » . وبعد وفاة شن شيه ، وفى السنوات الأولى من عهد الوصاية على كانج هسى ، أقبل خصوم اليسوعيين يتهمونهم بشدة بتهمة الخيانة العظمى ، وبأن لهم ديناً زائفاً مناهضاً للمسيحية نفسها . وكان شال قد وقع فريسة للشلل منذ أبريل ١٦٦٤ ، وقد اتهم بوجه خاص فيما وجه إليه من تهم ، أنه ادعى أن الإمبراطور

اعتنق المسيحية . وأنه أعلن أن آدم هو أبو البشر فضلا عن اتهامه بارتكاب أخطاء لاهوتية منوعة ، وأن له علاقات مريبة بالبرتغاليين بمكاءو ، وبعد تحقيقات أولية زج شال وزملاؤه فى السجن ، وفى ٢٧ ديسمبر تبين للجنة التحقيق أنهم مذنبون . وأوقفت وزارة العدل الحكم ، ولكن لما كان تنفيذ الحكم يحتاج إلى موافقة الأوصياء على العرش ، فإن القضية امتد أمدها طويلا وظل حامل المآدب الشرفى وزملاؤه فى غياهب السجن . وأخيراً أطلق سراح شال فى مايو ١٦٦٦ ، ولكن آلامه كانت أعظم من احتماله فمات بعد ذلك بثلاثة أشهر .

وكان خليفة شال هو فرديناند ڤربيست ، وهو من سكان بلچيكا ، ولد فى ١٦٢٣ وتربى بجامعة لوڤان الكاثوليكية الشهيرة . وأتم دراسته فى روما وإسبانيا ، ثم رحل بعد ذلك إلى الصين فى ١٦٥٧م فبلغ مكاءو فى ١٦٥٩ . وضم إلى أحد المراكز الإقليمية لمدة سنة تقريباً ، ولكنه انضم إلى شال فى مايو ١٦٦٠ . فلما مات شال ، انتقل ثوبه الكهنوتى إلى ڤربيست ، وكان عالماً وفلكياً مقتدراً ، كما كان أليق الناس لمواصلة العمل فى المكتب الفلكى . ومع أن مكتب التبشير قد أقفل نتيجة للخصومة مع يانج ، وأرسل القساوسة إلى مكاءو ، إلا أن ڤربيست ومساعديه سمح لهم أن يواصلوا عملهم العلمى . وفى ١٦٧١ عندما تولى كانج هسى سلطاته الإمبراطورية بنفسه وانتهى عهد الوصاية عليه ، لمح العلماء أمامهم للمرة الثانية بصيصاً من الأمل .

وكان الإمبراطور الجديد صاحب عقل متفتح مستطلع ، كما كان شديد الاهتمام بالفلك ، وشئون الماء إلى غير ذلك من العلوم التى تضلع فيها ڤربيست . ومن ثم عين العالم اليسوعى للمرة الثانية مديراً للمكتب الفلكى ، بعد أن أظهر خطأ الحسابات الفلكية العربية ، ثم إن الإمبراطور عينه أيضاً رئيساً للمجلس الأعلى للقرابين الإمبراطورية ، وهو حال جعله على الأقل ذا صلة ببعض الممارسات الوثنية . ولكن تلهفه إلى القوة والسلطان الذى كان يأمل دون أدنى ريب أن يستخدمه يوماً لمصلحة عقيدته ، جعله يستمسك بذلك الشرف الذى كان يخلع عليه أيضاً رتبة ما ماندرين من الطبقة السادسة .

وأصدر كانج هسى أيضاً فى ١٦٧١ مرسوماً يقضى بإيقاف اضطهاد

المسيحيين داخل إمبراطوريته ، وكان المرسوم يسمح للمبشرين بأن يبشروا بعقيدتهم ، ولكنه يأمر الصينيين فى الحين نفسه بألا يعتنقوا دين الأجانب . وحذر المبشرين كذلك من تعليم الناس أى شيء يناقض مصالح الدولة أو واجبات الرعايا. وهكذا استمر الموقف على هذا النحو : ڤربيست ينتظر والرجاء يداعبه ، حتى اضطرت الضرورة الإمبراطورية أن تعالج شأن الثوار للمرة الثانية . واستلزم الحال صنع مدافع جديدة ، واستدعى القسيس مرة ثانية ليتولى مهام منصب مدير الأسلحة والمدفعية . وظل ڤربيست بضعة سنوات وشغله الرئيسى صنع المدافع . ولا أدل على مدى الوهاد الخفيضة التى كان هؤلاء الوعاظ مستعدين للتدلى إليها ، من أن ڤربيست كان يرش الماء المقدس على المدافع وهو فى ثوبه الكهنوتى ويسميها بأسماء القديسين المسيحيين ، ولم تنج هذه التصرفات المناقضة للمسيحية من نقد أعداء اليسوعيين بأوربا .

هذه وغيرها من الأعمال جعلت ڤربيست من المقربين ذوى الحظوة لدى العاهل ، ولكن منزلته لدى كانج هسى لا يبدو أنها ساعدت الكنيسة كثيراً ، فإن كانج هسى أبدى نحو الدين المسيحى عدم اهتمام مؤسى ، على الرغم من أن ڤربيست نفسه علمه الفلسفة . هذا إلى أن التنصير قد حرم على الناس تقريباً ، ومع أن الاضطهاد بالولايات قلت حالاته كثيراً ، فإن الأعمال التبشيرية لم تلق من أحد تشجيعاً . ولذا يمكن أن يقال إنه بينما كان القسيس ينتعش ويزدهر تحت شمس الابتسامات الإمبراطورية ، فإن الكنيسة لم تفز بالشىء الكثير . وفى ١٦٨٨ توفى ڤربيست وتبددت معه منزلة المعلم الفائق الممتاز التى احتفظ بها ركى وشال وڤربيست ، وهى المنزلة التى كانوا يحلمون بأنهم مستطيعون بعونها أن يثبتوا أركان المسيحية راسخة بالصين .

وقد التمس ڤربيست من فرنسا قبل وفاته أن تنزل حومة البعثات التبشيرية ببلاد الصين . ولكن « الملك الشمس » وقد اشتد ساعده بقوته العارمة التى أحرزها وشيكاً والحظوة الكريمة التى نالها بعقيدته الكاثوليكية ، لم يكن مستعداً للنظر بعين الاعتبار إلى حقوق البادروادو التى يدعيها ملوك البرتغال . وكانت فرنسا خطت قبل ذلك خطوة أولى فى ذلك الاتجاه بإنشائها فى باريس « مجمع البعثات التبشيرية

الأجنبية » ، ولم تكن تلك المؤسسة العجيبة التى قدر لها أن تلعب دوراً ضخماً جداً فى تاريخ الشرق الأقصى ، عقداً مثل عقد اليسوعيين ، بل هى « مجمع » ، أى أنها هيئة من القسس اتحدت لغاية مشتركة وليس نتيجة ليمين مشتركة ولا لنظام مشترك . وكان غرضها الذى أقره الكرسى المقدس ، هو التنصير . وتمكن الملك بفضل التماس ڤربيست أن يتناول الأمر بالدراسة ، وفى ١٦٨٥ غادر فرنسا إلى الشرق الأقصى ستة من القسس الفرنسيين . فبقى أحدهم فى سيام ، على حين وصل الباقون إلى بيكين بسلام . وظل اثنان منهم بالعاصمة وهما جربيـّون وبوفيه ، على حين أرسل الباقون إلى المقاطعات ليقوموا بالعمل التبشيرى بها .

وقد سبق أن أشرنا إلى الأعمال المجيدة التى قام بها جربيـّون ، وهو لغوى ذكى ومفاوض موهوب ، للحكومة الصينية أثناء المنازعات على الحدود الصينية الروسية التى أدت إلى معاهدة نرتشينسك (٧ سبتمبر ١٦٨٩) . وكان ذلك بعد قرابة السنة من وصول جربيـّون إلى بيكين ، كما أنه آية تنطق بأفصح بيان عن قدرته ولباقته . وكان رئيس الوفد الصينى فى ذلك المؤتمر هو الأمير ساسان ، فامتلأ قلبه بالشكر العميق للقسيس الشاب على خدماته ، وأصبح صديقاً حميماً للبعثة . واستطاع ساسان أن يقنع الإمبراطور بأن يصدر المرسوم الذى أصبح يسمى باسم مرسوم التسامح (٢٢ مارس ١٦٩٢) . وإليكم نص المذكرة المقدمة إلى الإمبراطور : « إن هؤلاء الأوربيين يناط بهم فى الوقت الحاضر العمل فى الفلك وديوان الرياضيات . وقد أكبوا على العمل بجد فى صنع المدافع والأسلحة الحربية التى استخدمت حديثاً فى الاضطرابات الداخلية ، وعندما أرسلوا إلى نيتشاو مع أحد السفراء لإعداد معاهدة الصلح مع الروس ، استطاعوا أن يوصلوا هذه المفاوضات إلى مراسى النجاح — فهم بذلك قد أسدوا للإمبراطورية خدمة عظمى . . . والمبادئ التى يعلمونها للناس ليست مبادئ شريرة ولا هى تستطيع أن تضل الناس ولا أن تسبب اضطرابات » .

من أجل ذلك أوصى المسئولون بأن تترك كنائس الإمبراطورية « على الحالة التى كانت عليها آنفاً » وأنه ينبغى أن يسمح لكل إنسان « أن يذهب إليها بملء حريته ليعبد الله ، دون أن يخشى أية مضايقة » .

ويلاحظ القارئ أن ذلك التصريح بغض النظر عن إشارته الممتلئة بالرعاية للمسيحية بأنها ليست مذهباً شريراً لا يتحدث مع ذلك عن إباحة حق التنصير ، ولا القيام بالدعاية الدينية ، كما أنه يقول بصراحة إنه تكريم يسدى للأوربيين لقاء خدماتهم كمنجمين وصناع مدافع ومفاوضين ! ! . . . ومع ذلك فقد حق لليسوعيين أن يعدوه نصراً كبيراً ، وذلك لأنه أضفى على عملهم الموافقة الإمبراطورية ، وأتاح لهم أن يتنقلوا فى المقاطعات بحرية .

حتى إذا استقر مركز اليسوعيين على النحو الذى رأيت ، شرعوا يدخلون الطب إلى دائرة عملهم متخذين منه وسيلة جديدة للحصول على المزيد من الزلفى . فبعد أن تم شفاء الإمبراطور نفسه ، سمح للأجانب بالإقامة داخل المدينة المحرمة حتى يكونوا على مقربة دانية من شخصه لأداء الخدمات له (١٦٩٣) . واستغل الآباء جهد مستطاعهم الفرصة التى سنحت والتمسوا منحهم قطعة أرض ليبنوا عليها كنيسة ، فأجيب سؤلهم ذاك أيضاً . وهكذا أقدم المهندس المعمارى الإيطالى جيرار دينى على تصميم كنيسة قرب أسوار القصر ترمز إلى الثقافة الأوربية فى قلب بيكين * . وشيدت الكنيسة ودشنت فى ٩ ديسمبر ١٧٠٣ . ويمكن أن يقال إن هذه الكنيسة هى الذروة العليا التى بلغتها جهود اليسوعيين فى سبيل تنصير الصين بالاستعانة بالفلك والمدافع والطب .

ولكن ذلك البناء الرائع ظاهرياً ، بناء نجاح اليسوعيين الذى شيد على أعمال وممارسات مريبة ، وعلى التسامح مع وازع الضمير ، كما حدث من مشاركتهم فى التنجيم وقبولهم المناصب فى مجلس الطقوس الدينية ومذلتهم ، — أخذ يتداعى فى لحظة انتصاره نفسها . ولا ينبغى لنا أن نفترض أن ساطات الكنيسة بأوربا وافقت راضية على تلك الممارسات والمبادئ التى كان اليسوعيون فى بيكين يأخذون بها أنفسهم بغاية الدأب . وطبيعى أن قيام رئيس البعثة اليسوعية بدور حامل الصحاف فى المأدبة الإمبراطورية أو بدور رئيس مجلس الطقوس الدينية ، لم يكن معقولا أن

* كانت الكنيسة تقوم فى الموضع الذى تشغله الآن مكاتب بلدية بيكين ، قبالة المكتبة الأهلية . وقد استولت عليها الإمبراطورة تزوتسى التى قدمت فى مقابلها موضع كاتدرائية باى تانج (أى الكتدرائية الشمالية) .

يلقى رضاء كبيراً فى روما ولا فى باريس ، فى يوم كان بوسويه يدافع فيه عن العقائد المسيحية الأصيلة رداً على قوم كان بينهم فنلون الجبار ، فضلا عما أخذته الدوائر البروتستنتية على تصرفهم من مآخذ ، حيث نسبت السلوك العجيب الذى اتخذه يسوعيو بيكين إلى ما ركبوا عليه من قلة الأمانة الفكرية ومن الالتواء فى الإفتاء . وكانت فى جمعية يسوع نفسها مدرسة من الأئمة الأقوياء النفوذ تستنكر هذا المسلك . وقد سبق أن أشرنا إلى احتجاجات ماجهالنز (١٦٤٩) وڤيتوريو ركى عندما ذاعت أخبار نشاط شال لأول مرة .

وفوق هذا فقد أظهر الدومينيكيون نشاطاً خاصًّا فى إظهار مَيْن اليسوعيين وخروج موقفهم عن جادة الصدق . وكان چان بابتست مورال رئيس عقد الرهبان الدومينيكيين بالصين ، رجلا عظيم اللوذعية والتقوى ، وقد تناول الأمر أولا ، حتى إذا أخفق فى الحصول على إجابات مقنعة أحال الأمر إلى الكرسى المقدس . وكان الموضوع الذى أشار إليه مورال لا يتصل إلا بما يسمى فنيًّا باسم مسألة «الطقوس» ، أى إلى أى حد يمكن التسامح إزاء التمشى الظاهرى والممارسات القومية دون تعريض تعاليم الكنيسة للخطر ؟ وكان الأمر على الصورة التى صوره عليها مورال ينطوى أيضاً على مسألة العبارات الدارجة فى اللغة الصينية مثل تيين يعنى السماء أو شانج تى يعنى الله — وهل يمكن استخدامها دون المساس بالمفهوم المسيحى عن الربوبية ؟ وهل كانت عبادة الأجداد حسبما تقضى به الطقوس الكونفوشيوسية تنطوى على الوثنية أم هى مجرد احترام يوجه نحو الأجداد ؟ وهل من الأمور المشروعة التماس إيجاد الصلات بين الديانة الصينية القديمة وبين المسيحية بقصد طبع أذهان الناس بفكرة أن العقيدة الجديدة لا تنطوى على أى شىء مخالف للقومية ؟

ولم يكن فى الإمكان الفرار من تلك الأسئلة على صورتها هذه التى صيغت بها ، ومن ثم صارت الخصومة مريرة بين المدرستين . وترددت روما فى الفصل بين الخطأ المذهبى وبين الإمكانيات التى تعرضها تقارير اليسوعيين المتفائلة التى تبشر بإحراز الكنيسة نصراً مؤزراً عندما يتم تنصير إمبراطورية من أعظم إمبراطوريات العالم وأكثرها سكاناً ، ومن ثم أخذ يداور ويتهرب من إعطاء جواب قاطع . وقد حدث فى البداية أن البابا إنوسنت العاشر أصدر قراراً معادياً لموقف اليسوعيين

(١٦٤٥) ، ولكن حيث إنه كان شيئاً لم يسمع به من قبل ، فإن اليسوعيين لم يأبهوا به ولم يزيدوا عن إرسال ممثل لهم إلى روما ليزيد مركزهم لدى الكرسى المقدس وضوحاً . وبعد سماع ذلك الممثل للجمعية عدل البابا التالى إسكندر السابع (١٦٥٦) الأمر السابق وجعله لصالحة اليسوعيين . ولكن حدث بعد ذلك بفترة وجيزة أن خصوم اليسوعيين أثاروا المسألة مرة ثانية ، وعاد الكرسى المقدس يداور مرة أخرى حيث أعلن أن المرسومين ينبغى أن يقرآ جنباً إلى جنب . وهكذا أطلقت أيدى الطرفين لمواصلة خصومتهم بأوربا ، على حين واصل اليسوعيون فى بيكين العمل فى التنجيم والسماح لأتباعهم الحديثى التنصير بالمساهمة فى الاحتفالات الكونفوشيوسية .

بيد أن الدومينيكيين لم يكونوا يميلون إلى ترك الأمر كما كان للدواعى العقيدة الدينية من ناحية وللشعور الطبيعى بالمنافسة من ناحية أخرى . ذلك أنهم أحسوا إحساساً صادقاً أن ما اجتمع للمسيحية من ألوان الصدق كان موضع التساهل وأن العقيدة كانت تهان بما يبديه اليسوعيون فى بلاط بيكين من موقف ذليل . ووجدوا فى دومنجو فرنانديز نفارتى نصيراً جديداً لهم ، فإنه أصدر بالأسبانية كتاباً جليلا جعل عنوانه : « رسالة تاريخية وسياسية وخلقية ودينية حول إمبراطورية الصين » ، وفيه بحث مركز اليسوعيين وكشفه للناس بصورة تامة شاملة . وظهر أمام هيئة الدعاية الدينية مسلحاً بمئة من المسائل التى تدور حول المعتقدات الدينية والأخلاق والآداب المرعية والنواميس المسيحية . وعندئذ اضطرت البابابوية إلى العمل . ففى ١٦٩٣ أرسل البابا شارل ما يجروه وعينه أسقفاً رسوليًّا على الصين . وكان ذلك فى الوقت الذى عاد فيه اليسوعيون إلى حظوتهم بعد معاهدة نرتشينسك وصدور « مرسوم التسامح » . وكانت مكانتهم آنذاك فى الأوج الأعلى ، وعندئذ وقعت الصاعقة على رأسهم عندما وجه إليهم الأسقف العام الجديد (٢٦ مارس ١٦٩٣) أمره الذى يستنكر فيه الممارسات التى أقبل عليها اليسوعيون حتى آنذاك عاملين .

وحاول اليسوعيون تحدى ذلك الأمر بدعوى عدم الاختصاص . ثم إنهم أحسوا أيضاً أنهم وقد اعتصموا فى بيكين تحت حماية الإمبراطور ورعايته ، يستطيعون أن يتحدوا سلطة الأسقف العام مدعين أن الأساقفة فى الصين يقعون تحت سلطة كبير أساقفة جوا ، بمقتضى نظام البادروادو ، الذى صدر بمصادقة البابا فى أوائل القرن السادس عشر .

وعادت الخصومة فامتدت من جديد إلى أوربا ، حيث قدمت هيئة البعثات الأجنبية القوية الجانب القضية المثارة ضد اليسوعيين فى بيكين رسمياً فى خطاب وجهته إلى البابا فى أبريل ١٧٠٠ جعلت عنوانه : « خطاب مقدم إلى البابا من هيئة البعثات الأجنبية حول الوثنيات والخرافات الصينية » . وكانت هذه الوثيقة هجوماً صريحاً على الانحرافات التى تجرى فى بيكين . وكان بوسويه نفسه يناصر تلك الرسالة . ولم تقف البعثات الأجنبية عند هذا الحد . بل رفعوا الأمر كله إلى جامعة السوربون باستنكارهم كتاباً نشره أحد الآباء اليسوعيين عند عودته من الصين . وكانت المحكمة التى أنشأتها الكلية برئاسة الأب بوالو الذائع الصيت . وبعد جدل وبحث ومناقشات طويلة وجدت المحكمة أن القضايا التى يعرض لها الكتاب (وكان يحتوى على قضية الطقوس بكامل مجالها) كانت قضايا زائفة وجريئة وفاضحة وضارة بالعقيدة المسيحية المقدسة .

وما كانت لتشغلنا هذه الخصومة غير المشرفة التى تتجلى فيها تماماً خصائص المنازعات الطائفية بأوربا لولا خطوة شعر اليسوعيون فى بيكين بضرورة القيام بها على أمل أن تسوى النزاع لصالحهم . فإنهم التمسوا من الإمبراطور أن يقوم بتفسير للطقوس الصينية يكون صادراً عن أعلى مصدر ممكن. وقد حرر الملتمس المقدم إلى كانج هسى بمهارة فائقة بقصد الحصول على رد واضح ينطوى على الإيجاب . والواقع أنه حرر بطريقة ما ، يسميها المحامون طريقة المسألة الرئيسية . وإليكم نصه الكامل :

« نحن رعاياكم المخلصين وإن كنا من سكان بلاد مختلفة ، نلتمس من جلالتكم بكل احترام أن تعطونا معلومات إيجابية على النقط التالية :

« قد علم العلماء بأوربا أن الصين تقام بها المراسم تكريماً لكونفوشيوس ؛ وأن القرابين تقدم بها للسموات ، وأن طقوساً خاصة تقدم للأسلاف . واقتناعاً بأن هذه المراسم ، وهذه القرابين وهذه الطقوس تقوم على العقل ، يلح علينا العلماء الأوربيون الذين يجهلون كل الجهل المعنى الحق لهذه الأمور فى رجائهم لنا أن ننورهم فيما يتعلق بها .

« وقد كنا نرى على الدوام أن كونفوشيوس إنما يكرم ببلاد الصين كمشرع ،

وأنه لهذه الغاية ولها وحدها تقام المراسم التى تقام تكريماً له . وإنا لنعتقد أن الطقوس التى تجرى للأجداد إنما يقوم بها الناس تعبيراً عن الحب الذى يكنونه لأجدادهم وليقدسوا ذكرى العمل الطيب الذى قاموا به فى حياتهم » .

« أما عن القرابين المقدمة إلى السماء (تيين) فإنا نعتقد أنها ليست مقدمة إلى السماوات المنظورة التى نراها من فوقنا ، بل إلى الحاكم الأعلى ، خالق السماوات والأرض وحافظها هى وكل ما تحتوى . ذلك هو المعنى الذى أعطيناه للمراسم الصينية . ولما لم يكن من الممكن أن يتوقع من الأجانب القدرة على الفتوى فى هذا الأمر الهام بنفس التأكد الذى يصدر عن الصينيين أنفسهم ، فإنا نجرؤ أن نلتمس من جلالتكم أن لا تضنوا علينا بالاستنارة التى نحن بحاجة إليها . ونحن ننتظر تنويركم إيانا مع خالص الاحترام والخضوع » .

وتفضل الامبراطور بالموافقة على الإجابة التى تحتويها الرسالة مقدماً . وأضاف إلى ذلك قوله : « ليس هناك كلمة تحتاج إلى تغيير » ، لقد كان فهم اليسوعيين للمفهومات الدينية لدى الصينيين دقيقاً بالغاً أقصى الكمال .

وكان البابا بطبيعة الحال يحس أن اليسوعيين كانوا فى مسألة تتعلق بالإيمان ومبادئ الدين يلجأون إلى سلطة خارج الكنيسة لكى يضغطوا عليه شخصيًّا . ومن أجل ذلك أرسل قاصداً رسوليًّا للبحث فى الأمر كله . وبذلك وقفت مدعيات أسقف المسيح وجهاً لوجه أمام سلطان ابن السماء . وكان العظيم الذى انتخب قاصداً رسوليًّا هو ما يارّ دى تورنون ، الذى كان وهو فى السادسة والثلاثين من عمره يحمل لقب الشرف بطريرك أنطاكية . وصل السفير الكنسى إلى كانتون بعد انقضاء أقل من سنتين على تدشين الكنيسة العظمى فى بيكين إعلاناً لنجاح اليسوعيين ، وقضى شيئاً من الوقت فى الجنوب ، وهو يدرس بنفسه الموقف غير متأثر بالمؤثرات الموجودة بالبلاد . حتى إذا أصبح مستعدًّا للقيام بالمهمة التى وكلت إليه ، أوضح له الإذن الإمبراطورى الصادر إليه بالقدوم إلى بيكين ، أنه لن يعتبر منوطاً بأى مهمة عدا جمع المعلومات .

وعندئذ أدرك القاصد الرسولى أن أعداء يعملون ضده آنفاً ، فلم يزده ذلك بالطبع تحيزاً معهم . وعندما وصل إلى بيكين استقبله الإمبراطور مع ذلك بالتكريم ؛

حتى إذا شرع يعمل أبحاثه لم يجد مساعدة من قبل أية جهة من الجهات ، وبخاصة من قبل اليسوعيين المتصلين ببعثة بيكين التبشيرية . ولكن المبعوث البابوى سرعان ما استطاع أن يفضح سوء أعمال اليسوعيين فى نواحى أخرى ، وقد تجلى من عدة شكاو قدمت إلى القاصد الرسولى أن المبشرين كانوا يتعاملون بالربا وكانوا يقرضون الناس النقود بفائدة متواضعة قدرها ٢٤ فى المئة فى السنة .

وبعد أن انتظر دى تورنون سنتين كاملتين ، عاد فأثار مسألة الطقوس . وهنا استطاع اليسوعيون أن يحرزوا شيئاً يشبه النصر ، حيث بلغ بهم الأمر أثناء اشتداد لهب الخصومة أن جعلوا يداورون حتى أوقعوا خصمهم فى موقف من يتحدى صراحاً حقوق الإمبراطور فى البت فى المسألة ، فضلا عن توجيه اللوم إليه على معتقداته . لذا فإنهم بلغوا فى البلاط ما اشتهوا . وبلغ الأمر أن رُفض طلب دى تورنون زيارة الولايات ، بل أمر بأدب أن يعود أدراجه . وأصدر القاصد الرسولى عند عودته من كانتون إعلاناً له سلطة القانون يحرم الممارسات التى حارب اليسوعيون بقوة من أجلها ذلك الزمن الطويل وبمثل هاته الوسائل المريبة . وقدم هذا الإعلان إلى الإمبراطور فى صورة التحدى لآرائه التى عبر عنها بوضوح تام . وبذلك يكون أسقف المسيح قد تحدى ابن السماء بواسطة قاصده الرسولى !! . . .

واعتقل دى تورنون وأخذ إلى كانتون وسلم إلى البرتغاليين ، الذين كانوا يرون فى بعثته خروجاً على القاعدة المرعية لتناقضها والحق الأبوى * الذى يستمتع به التاج البرتغالى . ومع ذلك ، فإن البابا رقاه إلى منصب كردينال ، ولكن السلطات البرتغالية استناداً إلى أمر صادر من نائب الإمبراطور ، احتفظت به سجيناً فى سجنه ، حيث مات ٨ يونية ١٧١٠ .

ولاشك أن مشهد هذه الخلافات الوبيلة بين القسس المسيحيين كان تسلية عظيمة لكانج هسى . وقد لخص الإمبراطور نفسه موقفه من أصدقائه الأجانب فى عبارة كلاسيكية . حيث قال : « إن السيد لا يسمح بقتل كلب عجوز خدمه بأمانة فى شبابه ** » . ولقد كان اليسوعيون الرياضيون والفلكيون وصناع

* Jus Patronatus

** اقتبسه روبوثام فى كتابه « المبشر والماندرين Missionary & Mandarin » ص ١٥١ .

المدافع هم كلبه القديم . وماذا عليه لو كانوا على خطأ أو صواب فى آرائهم اللاهوتية ؟ الواقع أنه استنكر صراحة فى منشوره الصادر فى ١٦٩١ : « المذاهب الغربية التى تعلم الناس عبادة رب السموات » ، أى الرب المسيحى واعتبرها مروقاً عن العقيدة أو زيفاً من الباطل . وأمر بألا يباح البقاء بالصين إلا للأجانب الذين يقبلون الطقوس ، وأن يرحل الآخرون على الفور . فالآن قد أدلى ابن السماء بإجابته .

وبذل البابا بعد ذلك جهداً آخر للمفاوضة مع الحكومة الصينية ، ولكن ذلك لم يتم إلا بعد إيقافه قرارات المحظورات التى أصدرها قبلا بمرسوم جديد يبدأ من تاريخ توقيعه ، لم تسمح ساطات بيكين بنشره ، سواء أكان ذلك بتحريض من اليسوعيين أم لم يكن ، وبناء على ذلك عين البابا قاصداً رسوليًّا جديداً رغبة منه فى الوصول إلى حل للمسألة . وكان القاصد الرسولى الجديد هو أمبروزى ميزّاباربا ، الذى يحمل لقب شرف بطريرك الإسكندرية . واستقبل الإمبراطور ميزاباربا فأوضح له بإيجاز غرضه ، وهو أن يحصل على موافقة الإمبراطور على المسيحيين الذين يسكنون الصين ، موافقة ترتضى القرارات البابوية المتعلقة « بالطقوس » وليلتمس من الإمبراطور أن يقبل بسط سلطة البابا الروحية على الصينيين الذين اعتنقوا المسيحية . ولقد كانت مدعيات بابا المسيح تتعارض فى هذه المسائل تعارضاً صريحاً ومدعيات الإمبراطور . ومن ثم لم تكن لبعثة ميزّاباربا أية فرصة للنجاح . وكان موقف كانج هسى يتلخص كما قرر سوليان دى موران فى هذه الكلمات : « كيف يجرؤ الأوربيون الجهلة المحتقرون على الكلام عن مبدأ الصينيين العظيم ؟ »

فلما أبلغت آراء روما إليه ، أجاب غاضباً بأنه لن يسمح لهؤلاء الأجانب أن يعلموا دينهم بالصين .

ولم يسع ميزّاباربا بعد ذلك إلا أن ينسحب . وقبل مغادرته مكاءو ، أصدر بضع تعديلات صغرى تعرف باسم « الأذون » ، ليمكن البعثات التبشيرية من مواصلة عملها . ومع ذلك فإن البابا ألغى تلك « الأذون » ، وقرر آنذاك أن يتصرف تصرفاً نهائياً وحاسماً . وكان استنكار البابا إنوسنت الثالث عشر قاصما لليسوعيين

حيث قضى على هـــذه الخصومة نهائيًّا . وتكررت تلك العملية فى مرسوم خاص فى سنة (١٧٤٢) * ، ويقضى بإرغام كل مسيحى يذهب إلى الصين بأن يقسم يميناً بأنه « سيطيع طاعة تامة السنة والأمر الرسولى المتعلق بطقوس الصين ومراسمها » . وهكذا انتهت مشكلة « الطقوس » والمنازعة التى دارت حولها .

وعند ١٧١١ لم تعد منزلة اليسوعيين لدى القصر واقياً فعالا يقيهم عداء الشعب . على حين لم يتحقق التنصير العظيم الذى انعقدت عليه آمال الكنيسة ، كما لم يبد كانج هسى نفسه أى اهتمام بالأمر ، فضلا عن محافظته بشدة عارمة على حقه الأوحد فى معالجة شئون دين شعبه وأخلاقه . وفى عهد ينج تشينج ، وقع اليسوعيون بالبلاط تحت شبهة التآمر ، وأعدم أحدهم واتخذت إجراءات قاسية نحو العائلات الصينية المرتبطة بالأجانب . وأصيب التبشير بضرر فادح ، وتقدم وفد يمثل القسس إلى ينج تشينج فأدلى إليهم بالإجابة التالية ،وهى إجابة تنم عن عقل حصيف :

« ماذا تقولون إذا أرسلت جماعة من القسس واللامات البوذيين إلى بلادكم ليدعوا الناس إلى دينهم . . . إن الأتباع الذين تنصرونهم يعرفونكم فى أوقات الشدة ، ولن يصغوا لأى صوت إلا لأصواتكم . وأنا أعرف أنه ليس هناك ما يخشى شره فى الوقت الحاضر ، ولكن إذا جاءت سفنكم بعد ذلك آلافاً فربما حدث اضطراب عظيم » ** .

وتدل هذه الإجابة الحكيمة الأريبة على أن ينج تشينج قد قدر الموقف تقديراً صحيحاً . بل لقد بلغ به الأمر أن قال : إن تنازل أبيه بالرضا عن القسس الأجانب ، كان يقابل بالاستكنار من الشعب ، كما أنه أكد من جديد مرسوم كانج هسى الذى يعلن أن المسيحية طائفة زائفة .

ووقعت الضربة القاضية فى ١٧٢٤ . فإن « مو آن پو » نائب الملك القوى فى فوكين ، وقد أتيحت له فرصة لملاحظة المسيحيين ، ذكر فى إعلان عام ، أنه بعد أن فحص التعاليم المسيحية فحصاً تامًّا وافياً ، قد استطاع أن يستنتج أنها « أشد الطوائف الزائفة ضرًّا وشرًّا » . وأكد مجلس الطقوس هذا الرأى ، وصدر قرار بحظر

---

* Ex. qus Singulari

** اقتبسه دى مايا فى « تاريخ الصين Histoire de la Chine » ف ١١ ص ٣٩٢ .

التبشير بالدين المسيحى فى ١١ يناير ١٧٢٤ . ورُحل المبشرون الأجانب إلى كانتون عدا العاملين منهم بالقصر ، وبذل اليسوعيون كل حيلة واتهم ليحصلوا على تعديل لذلك الأمر . وكما قال كاتب مسيحى : « لقد كانوا يمكثون الليل والنهار فى قاعات ذوى النفوذ من الأمراء . وكانوا يسجدون فى الأفنية للرجال الذين يستطيعون أن يصلوا إلى أذن ابن السماء ، ويضرعون جاثين على ركبهم أمام أصدقائهم من الرسميين طالبين منهم المساعدة * » . وذهب ذلك كله عبثاً . لقد فشل فشلا نهائياً لارجعة له كل ما بذل من جهد لتنصير الصين عن طريق الرضا الإمبراطورى ، الذى حصلوا عليه بإظهار تفوقهم فى المعرفة بالعلوم ، وبالتآمر فى البلاط ، وبالمذلة والنفع عامة ، وبمساعدة المنجمين وبصنع المدافع .

وواصل عدد قليل من اليسوعيين العيش فى بيكين أثناء السنوات الإحدى عشرة التالية من عهد ينج تشينج ، وفى عهد خليفته تشين لنج . ولكنهم لم يكونوا إلا موظفين لدى صاحب التاج ، يشرفهم الإمبراطور بعض الشيء لقاء الخدمات التى استطاعوا أن يؤدوها إليه . أما الكنيسة المسيحية فلم تلق أى تسامح . فكان المبشرون الذين يضبطون فى الأقاليم يلقون عقوبة شديدة . وكان تشين لنج يستخدم المبشرين الأوربيين فى نواحى عديدة منوعة ، فهم عنده صناع لعب ومصورون ومهندسون معماريون ، ولكنه لم يوجه أى عطف أو اهتمام إلى دينهم . وما لبث جهد التبشير أن انقطع بالتدريج ، كما أن عدد المسيحيين الذى لم يكن فى الحقيقة عظيماً فى أى يوم ، وإن قرر اليسوعيون بتفاؤل أنه بلغ يوماً ما ثلاثمئة ألف ، لم يلبث حتى تناقص ثم تضاءل كل التضاؤل عند نهاية حكم تشين لنج .

ولموقف هيئات التبشير الكاثوليكية فى الشرق ناحية تستحق التفاتاً خاصاً . فكما يلاحظ هدسون فى كتابه « أوربا والصين » (ص ٢٩٦) أنه « بينما كانت الهيئات التبشيرية الكاثوليكية تلتمس التسامح إزاء دعايتها بالصين ، كان « ألفا » يحاول أن يغرق البروتستنت فى الأراضى المنخفضة فى بحر من الدماء ، وكانت النار تلتهم الضحايا الذين أسلمهم ديوان البابوية المقدس إلى رجال الحكم متهمين بالمروق . ويوم حصل اليسوعيون الفرنسيون من الإمبراطور كانج هسى فى ١٦٩٢

* انظر روبوثام ص ١٩٧ .

على مرسوم يمنحهم حرية العبادة المسيحية ، كان ذلك ولم تنقض إلا بضع سنوات على طرد الهوجنوت من فرنسا بعد اضطهاد الدراجوناد الشائن . . . فعلى أى أساس إذن كانت تلك الهيئات التبشيرية تطالب بالتسامح معها ؟ ذلك أمر يعسر فهمه ، ولكن يبدو من كتاباتهم أنهم كانوا يرون أن كل محاولة تعترض سبيل نشرهم دعوتهم النصرانية تعتبر اعتداء صارخاً عليهم » .

وعلى الرغم مما ذكره المدافعون المتحمسون ، فإن نشاط اليسوعيين أثناء الفترة الأخيرة لعهد أسرة منج وأوائل أيام أسرة مانشو فى عهد ملوكها الثلاثة الأول ، لم يكن إلا مؤمرات دنيئة .

كان الأمر من وجهة النظر المسيحية أو قل الأوروبية أمراً لا ريب خيّراً ، إذ أن الغاية التى جعلوها نصب أعينهم لم تكن إلا غزو الصين غزواً دينيًّا . ولكن هذه الآمال الضخام كان مكتوباً لها الفشل منذ البداية ، ليس فقط لأن أباطرة الصين كانوا رجالا بعيدى النظر قادرين على استشفاف كنه مرامى القسس وخططهم ، بل لأن الأدباء الصينيين كانوا من التمكن من فلسفتهم ، بحيث لا يمكن التأثير عليهم بتعاليم حفنة من الأجانب ، كانوا يعتقدون اعتقاداً جازماً بتدليهم من الناحيتين الخلقية والفكرية تدليًّا يظهره سلوكهم بأوضح بيان .

وربما أمكننا أن نضيف فى هذه المرحلة ملحوظة أخرى . ذلك أنه ينبغى للقارئ ألا يخلط بين طريقة معالجة اليسوعيين لمسألة الطقوس بالصين ، وهى التى كانت تنطوى فعلا على بعض النواحى الهامة للمذهب الاعتقادى المسيحى ، فى محاولتهم التقريب بين ما كانوا يعتقدون — عن بلاهة منهم — بأنه الدين الأصلى للصين ، — وبين محاولة روبرتو دى نوبيلى تفسير المسيحية للهنود . ولا ريب أن نوبيلى كان ينصح بوجوب المطابقة الظاهرية بالممارسات الهندوكية ، ولكنه كان حازماً مستمسكاً بأصول المذهب الاعتقادى . وكان يفسرها بلغة يفهمها الغيبيون والمفكرون الهنود ؛ ولكنه لم يبذل أية محاولة لفعل ما حاول ركى نفسه فعله فى كتابه « تيين تشوسيه إ » ، حيث حاول أن يجعل لصلب المسيح — بوصفه المذهب الأساسى للكنيسة — أقل قدر مستطاع من الأهمية . كان نوبيلى مستمسكاً بالعقيدة الصحيحة فى كل إجراءاته — وفضلا عن ذلك فإنه لم يتسفل بتأثير أحابيل اليسوعيين

فى الصين للحصول على ما يريده من نجاح. وكان يجادل علماء البراهمة بكل ما اجتمع للعالم الفيلسوف المسيحى من قدرة مدربة ، وما تهيأ له من التضلع فى الغيبيات الهندوكية ، وهو وضع يختلف اختلافاً بيناً عن لعبة ركى الذى تظاهر بأنه يؤيد الكونفوشيوسية على تعاليم بوذا ، مؤملا بذلك أن يفوز بالزلفى لدى أصحاب السلطان .

الفصل الرابع

اليابان حتى ١٦٣٨

بعد عودة فرانسيس زاڤيير إلى الهند ، تواصلت أعمال البعثات التبشيرية بدرجة محدودة فى الجزء الغربى من اليابان بصفة رئيسية . وكان الحكام الإقطاعيون فى ذلك الجزء من اليابان يهتمون فى ذلك الحين باجتذاب السفائن البرتغالية إلى موانيهم ، وذلك بغرض رئيسى هو تقوية أنفسهم ضد غيرهم من الرؤساء الإقطاعيين . وقد أدركوا بغريزتهم العلاقة الوثيقة التى تربط بين الدول الأجنبية الواقعة وراء البحار وبين المبشرين الذين جاءوا للتبشير للدين الجديد . بل الواقع ، أنه بينما كان زاڤيير يشق طريقه إلى جوا ، فإن دايميون الولاية بلغ من تأثره من التوقير الشديد الذى أظهره قبطان الباخرة البرتغالية لمفتش ملك البرتغال على الهيئات التبشيرية ، أنه رغب فيما يقال فى الارتباط مع البرتغال بمعاهدة بفضل مساعى زاڤيير الحميدة ؛ وقد ظل بضع سنين يراوده ذلك الأمل ويشجع من ثم المسيحيين ويظللهم بحمايته . ومهما يكن من أمر ، فإن المبشرين جرت عادتهم بأن يبلغوا « أنه ليس ببلاد اليابان كلها ملك وثنى يحبوهم بعطفه إلى ذلك الحد » * .

ولم يكن العمل فى الولايات يرضى هؤلاء الرجال الطامحين الذين خرجوا من بلادهم يبتغون فتح اليابان للمسيح . وكانت عيونهم ترنو دائماً نحو مياكو العاصمة ، التى عاد منها زاڤيير بخيبة أمل عظيمة . واستقبل الشوجن بعده الأب ڤيليلا الذى زار المدينة بعد ذلك وسمح له بأن ينزل فى مياكو (١٥٥٩) . وقد وطد ڤيليلا قدمه بحذر وأحرز صداقة كثير من الشخصيات القوية النفوذ ، بما فيهم نوبيوناجا نفسه . ولما كان ذلك الرجل منهمكاً أشد الانهماك آنذاك فى فتوحه التى كان يعارضه فيها الأديرة البوذية القوية السلطان ، فإن اليسوعيين وجدوا عند ذلك فرصة يثيرون بها اهتمامه برسالتهم على حساب الكنيسة البوذية . . وشجعهم نوبيوناجا ، ففى ١٦٥٨ دعا البعثات التبشيرية الكاثوليكية إلى كيوتو ، بل لقد أعطاهم قطعة من الأرض

* نقلاً عن سانسوم ص ١٢٩ .



يشيدون عليها كنيسة . وفى ١٥٧١ استطاع ڤيليلا أن يبلغ رياسته أن قطيعه بلغ الثلاثين ألفا تقريباً ، كان منهم ١٥٠٠ بالعاصمة . ومع أننا لا نستطيع أن نولى هذه الأرقام التى كان القسس يبلغونها إلى بلادهم الشىء الكثير من التصديق ، فلا خفاء فى أن البعثات استطاعت فى ظل حماية نوبيوناجا القوية أن تحرز تقدماً غير منتظر .

ومن سوء حظ اليسوعيين أن نوبيوناجا مات وشيكاً وخلفه هيديوشى الذائع الصيت . وقد لاح فى البداية أن هيديوشى كان أكثر ميلا إلى الدين الجديد من سلفه نفسه . بل لقد كان فى جيشه قائد مسيحى أو قائدان . ولكن عداءه للأديرة البوذية لم يكن شديدا كعداء سلفه ، بل لقد بلغ به الأمر أن أعاد بناء بعض المعابد التى هدمها نوبيوناجا . بيد أنه أظهر هو أيضاً نحو المسيحيين شيئاً من العطف ، بل لقد أولم بقصره الولائم فى إحدى المناسبات لعدد كبير منهم ، كان فيهم نائب الرئيس الإقليمى لغرب اليابان ، ويقرر المبشرون بأنه تباحث معهم فى مدى إمكان إعداد عدد كبير من السفن لحمل جيشه إلى أرض القارة الأسيوية . بل لقد اعتلى ظهر إحدى السفن البرتغالية المساحة الصغيرة وفتشها . وعندئذ انتشت آمال اليسوعيين جذلا . فهنا فتحت البوابة الذهبية أمام المسيحيين أقوى يد فى البلاد . فسارعوا بتطيير الخبر السعيد إلى بلادهم ، وأخذوا ينتظرون تطور الأمور والضراعة ملء قلوبهم . ولكن آمالهم ما لبثت أن تحطمت قدداً مع الأسف الشديد . فبدلا من التكريمات المتوقعة تلقوا فى ٢٥ يوليو ١٥٨٧ ، أنباءً عن مرسوم يستنكر وجود المبشرين وتعاليمهم ونشاطهم ، ويأمر برحيلهم تواً من شواطئ نيبون (اليابان) .

وقد تضاربت الأقوال بغير جدوى فى أسباب ذلك الأمر ، وخاصة إذا راعينا التقارير المتفائلة حول موقف هيديوشى السابق * . ولكن هذه التقارير كما شهدنا

---

* ينسب كايمفر فى كتابه « تاريخ اليابان » تصرف هيديوشى إلى سلوك اليابانيين المسيحيين غير الطبيعى والملء بالكبرياء . وإن عمله ضد تاكاياما ، وهو داميون تنصر ثم أمر وهو بعد فى نشوة حماسته الجديدة بتدمير المعابد البوذية والشنتوية القائمة بإقطاعه وتأكيده بصفة خاصة فى المرسوم بأن : « التجار وغيرهم إن هم وفدوا من الأمم المسيحية سيسمح لهم بالإقامة فى اليابان على شريطة أن لا يتدخلوا فى شئون البوذية » لتشهد بأن تصرفات هيديوشى معهم كان الدافع إليها الإحساسات الدينية أيضاً .

انظر فى هذا الصدد كتاب : « التوسع اليابانى فى القارة الأسيوية Japanese Expansion on the Asiatic Continent » تأليف الأستاذ كنو مج ٢ ص ص ٥ — ١٥ .

فى حالتى الهند والصين ، كانت عديمة القيمة مليئة بالأخيلة والأمانى الحلوة ملونة بالإحساس الراسخ فى عقول المبشرين الذين توهموا أن الشرق إنما ينتظرهم ليتلقى منهم الصدق . وقد قدم هيديوشى نفسه مبررات مرسومة. فقد قال ببساطة : إن المبشرين قوم أجانب وإنهم يبشرون ضد آلهة اليابان . ومن الواضح أن الدعاية المسيحية كانت دعاية هدامة من وجهة النظر القومية ، وكان ذلك سبباً كافياً له . هذا إلى أنه كان على علم تام بعلاقة المبشرين بالبرتغاليين ، وبعدم الولاء الذى يكنه نبلاء الغرب ، الذين كانوا يتصلون بالدول الأجنبية عن طريق المبشرين . والواقع أن المبشرين هنا شأنهم فى كل مكان آخر ، أفرطوا فى العبث . فأصبحوا على صلة بالمسائل السياسية ، وكانوا يرجون أن يستخدموا لمصالحتهم الشعور المعادى للكنيسة البوذية ، وكانوا المحور الذى يدور عليه تدخل الأجانب فى السياسة الداخلية ساعة أدرك هيديوشى الأخطار التى تكمن وراء نشاط الأجانب .

ولم ينفذ المرسوم فى أول الأمر بشدة صارمة ، وإن لم يعد يسمح لهم بتعميد أحد ولا ببناء كنائس جديدة . وظل المبشرون فترة داعبهم فيها الرجاء بإمكان تعديل الأمر ، وبلغ من تفاؤلهم أنهم طلبوا فى ١٥٩٢ من جمعية يسوع أن ترسل عدداً آخر من القسس إلى اليابان . ولكن هذه التقديرات الحافلة بالرجاء قد كذبت هى الأخرى . وبدأ المبشرون الفرنسسكيون يخالفون أمر هيديوشى علناً ، ولما كانت علاقاتهم بالسلطات الأسبانية بالفليبين معروفة معرفة دقيقة ، فإن الدكتاتور أمر بتنفيذ المرسوم بدقة . وشعر حاكم الفليبين بأن واجبه يحتم عليه أن يحتج ، وكان رد هيديوشى عليه مماثلا للبيان الذى أصدره ينج تشينج ،وفيه قال : إنه لا يحق للأسبان أن يدخلوا عقيدتهم إلى اليابان إلا بمقدار ما يحق لليابانيين أن يبشروا بعقيدتهم فى الفلبين .

وقصة جهود المسيحيين الأجانب باليابان بعد تلك الفترة قصة يمكن أن تروى فى بضع عبارات . فإن الجماعة المسيحية المحلية كانت تعيش بصورة طائفة مجهولة صغيرة ، معرضة لأدوار متقطعة من الاضطهاد لسبب رئيسى هو صلاتها الوثيقة بالأجانب . ومع ذلك فقد حدث ١٦١٤ أن إيا سو شوجن توكاجاوا أوضح كل الوضوح أن الحكومة لن تسمح لأحد بعد ذلك بممارسة التعاليم المسيحية ، وصدر

مرسوم يحرم تلك الديانة فى تلك السنة . وبذلت جهود جادة لاستئصال شأفة العناصر المسيحية ، وعُرِّض المسيحيون اليابانيون لاضطهاد منظم . ويلوح أن موقف الحكومة من المسيحيين قد حمل المسيحيين اليابانيين على التآمر مع الأسبان ، الذين كانوا يكثرون آنذاك من الحديث عن غزو اليابان . وانتقم الشوجن بإصداره مرسوماً يطرد من البلاد جميع الأسبان العلمانيين والقسس على السواء ، ويحظر على اليابانيين مغادرة البلاد . وحاول المسيحيون فى ١٦٣٨ القيام بعصيان صغير ، وبذلك يمكن أن يقال : إن محاولة تنصير اليابان بواسطة المصالح السياسية ، قد انتهت إلى خاتمتها ؛ إذ لم يحدث بعد ذلك باليابان نشاط مسيحى رسمى حتى يوم فتحت البلاد أبوابها للغرب فى منتصف القرن التاسع عشر .

وكان النشاط المسيحى باليابان يختلف من بعض النواحى الهامة عنه فى الصين والهند . ففى الهند كان النشاط التبشيرى كما أسلفنا لك ، قاصراً أثناء تلك الفترة على الممتلكات البرتغالية ، أو بين أدنى الطبقات النازلة على امتداد مناطق الجنوب الساحلية . وفى الصين لم تتجه المحاولة إلى تنصير جمهور الشعب بوساطة أعمال التبشير بقدر ما اتجهت إلى إحراز السلطان فى البلاط وعند كبار الموظفين ، واستخدام المكانة التى تتم بهذه الوسيلة فى نشر الدين . وكان المصدر الرئيسى للتنصير هو اليتامى ومن لا عائل لهم من الأطفال . فأما فى اليابان ، فإن التقليد الذى أدخله زاڤيير من حيث التبشير برسالة المسيح للأهالى مباشرة ، كان تقليداً قوياً ، وبذلت هناك الجهود لإيصال تعاليم المسيحية إلى حشود الجماهير . وفوق هذا ، بينما كان المبشرون بالصين من رجاحة العقل بحيث لم يتدخلوا فى الشئون السياسية ، كما حرصوا كل الحرص على تجنيب أنفسهم مظنة أن يكونوا مبعوثين لدول أجنبية ، فإن الاستقلال الإقطاعى للبارونات العظام قبل تنظيم الشوجنية للحكومة المركزية ، جعل نفسه مطية ذلولا للائتمار السياسى ، كما أنه لا يبدو مستبعداً أن المبشرين المسيحيين كانوا يلقون فى روح هؤلاء البارونات ضخامة الإمكانيات المفتوحة أمامهم للحصول على التأييد الأجنبى . وقد ضرب زاڤيير نفسه مثلا لذلك حين أخذ معه « مبعوثاً » لهؤلاء الإقطاعيين ، وفى إبان نصف القرن الذى عقب ذلك ، وهو فترة الاضطرابات الداخلية ، سنحت مناسبات أخرى حاول فيها المبشرون القيام باللعبة السياسية . وكان للقسوس الكاثوليك بجزيرة كيوشو بوجه خاص قبل أن تم

لهيديوشى إخضاعها ، بعض السلطان السياسى عن طريق تسلطهم على الاوردات الحكام الإقطاعيين المسيحيين . وكان اليسوعيون يطمعون فى أن يحولوا كيوشو إلى « مملكة مسيحية » . وأدرك هيديوشى أثناء اشتغاله بإخضاع تلك الجزيرة مدى ما يكمن وراء النشاط التبشيرى من إمكانيات خطرة ، كما أنه تنبه إلى خضوع الحكام المتنصرين إلى قسوسهم الأجانب فضلا عن اضطهادهم للبوذية وعبادة الشنتو . وكان السبب الأكبر فى إخفاق المسيحية دون الحصول على موطئ قدم باليابان ، هو أن المبشرين جعلوا من الدين خطراً يهدد الاستقلال القومى ، ولم يكن حالها كذلك بالصين — وذلك فى القرن الثامن عشر على الأقل .

الفصل الخامس

الهند ١٦٦٠ — ١٨٥٧

كان من الطبيعى أن يؤثر اضمحلال قوة البرتغال فى هيئة التبشير الكاثوليكية التى كانت شيئاً واحداً هى والتاج البرتغالى بحكم الرعاية الملكية * . ومع ذلك كان للكنيسة منظمة هائلة فى الممتلكات الصغيرة التى كانت قوام دولة الهند البرتغالية ، وكانت تلك المنظمة تتكون من الجهاز الكامل لمحكمة التفتيش المقدسة ، فإن التنصير أصيب بنكسة عندما أدركت السلطات المدنية أن التدخل غير المناسب لمقتضى الضرورة مع العقيدة الهندوكية كان يعود على مصالحهم السياسية بأفدح الضرر . على أن نشاط البعثات التبشيرية تواصل فى بعض الولايات الصغيرة بجنوب الهند دون أن يحدث أية نتائج هامة .

وكان نشاط الأوربيين بمناطق الهند الساحلية محصوراً بيد البروتستنت بصفة رئيسية . ولم يحدث أى تطور للمستقرات التبشيرية البرتغالية حتى نهاية القرن الثامن عشر ، وكانت نتيجة ذلك أنه لم تبذل أية محاولة للتغلغل فى داخل الهند فى ذلك الحين . وحدث أيضاً أن شركة الهند الشرقية حرصت منذ البداية على معاكسة البعثات التبشيرية ، وذلك لأن التجارة كانت شغلها الشاغل ،كما أنها كانت تحس أن التدخل فى العادات الاجتماعية والمعتقدات والممارسات الدينية يكون عملا ضاراً بمصالح الشركة التجارية . ومنذ ١٧٥٧ — يوم أصبحت شركة الهند الشرقية قوة سياسية — أصبح عزمها على إبعاد كل دعاية تبشيرية من المناطق الواقعة تحت سلطانها أمراً قاطعاً ومحدداً أكثر . ومما ساعد الشركة على الاحتفاظ

* إن الجهود التى بذلتها السلطات البرتغالية على ساحل ملبار لتدخل فى أحضان الكاثوليكية الكنائس « السريانية » بتلك المنطقة ، لا تدخل فى نطاق بحثنا ، وذلك لأنها ليست محاولات قصد بها إلى تنصير الوثنيين ، بل إلى بسط سلطان روما على مجتمع مسيحى محلى . بيد أن مجمع ديامبر (١٥٩٩) الذى دعا إلى اجتماعه الكسيس دى منسيس كبير أساقفة جوا ، والقرارات التى أصدرها ذلك المجمع ، إنما تهمنا لما جمعته لنا من عدد ضخم من العادات والمعتقدات التى كانت منتشرة آنذاك بين النصارى السريان ، وهى الممارسات التى وجهت إليها تحذيرات شديدة . فمن كان يهتم بتلك المسألة يستطيع أن يجد بعض التفاصيل المتصلة بذلك المجمع فى كتابى الذى جعلت عنوانه « ملبار والبرتغاليين » .

بسياستها ، أن إنجلترة لم يكن بها فى ذلك الأوان أية هيئة تبشيرية بروتستنتية منظمة لها سلطان سياسى .

وانتشرت فى الكنائس البروتستنتية عند نهاية القرن روح التبشير . ففى ١٧٩٢ أنشأ المعمدانيون الإنجليز أول هيئة تبشيرية بروتستنتية . وكانت جمعية التبشير اللندنية التى تأسست فى ١٧٩٥ ، جمعية لا تنتمى إلى أى طائفة من طوائف المسيحية ، بيد أنها أصبحت فيما بعد منظمة « للجماعة الكونجريجيشن »الإنجليزية .

وتأسست جمعية التبشير للكنيسة فى ١٧٩٩ ، رغبة فى خدمة التنصير بالكنيسة الانجيلية . ثم جاءت الطوائف الأخرى فى أعقاب هاتين المنظمتين مباشرة ، على أن الشركة لم ترحب بالاهتمام الذى أظهرته الكنائس بانجلترة ، واتخذت بعثة التعميديين برياسة وليم كارى ، وهو إسكاف سابق ، مقامها من ثم فى سيرامبور ، وهى حلة دانماركية صغيرة تقع بالقرب من كلكتا ، وشرعت من تلك القاعدة المناسبة تقوم بهجومها على الهندوكية . وكان يعاونه فى مهمته بعض النابهين من الرجال ، منهم مارشمان ، الذى عاد فيما بعد فوضع أسس البعثات التبشيرية البروتستنتية إلى الصين . ويلوح أن عمل كارى قد أثمر ونجح فى البداية ؛ ذلك أن الهندوكية فى البنغال قد بلغت ذروة الأوج وبدت فى حالة من الانحلال . وبدأ القوم فى حملة دعاية عنيفة على الهندوكية على أمل أن تكون نفخة فى النفير الذى يدعو إلى دك جدران الهندوكية دكاً لا رجعة بعده . وفضلا عن ذلك ، فإن العطف الذى أظهره على تعاليم المسيحية « رام موهان روى» مفكر البنغال الأول ، دعا المبشرين أيضاً إلى الاعتقاد بأن الهندوك كانوا على استعداد للاستماع إلى الرسالة الجديدة . ولكن أفرط المبشرون فى التفاؤل هذه المرة أيضاً . فإن العقيدة السلفية السليمة ردت بقوة عارمة على تدخلهم ، واضطر اللورد منتو أن يحرم تبشير الدعاة بكلكتا . وأدى ذلك إلى شىء من الاحتجاج بانجلترة ، وإن رد منتو على رئيس مجلس المديرين جدير بأن يقتبس هنا : « إنى أرجوكم أن تقرأوا المادة التعسة الموجهة بوجه خاص إلى الجنتوس (الهندوك) ، فإن كاتبها لم يحاول أن يكتب كلمة واحدة لإقناع القارئ الوثنى ولا أن يسوق له دليلا واحداً على صدق حجته . لكنه ملأ صحائفه بنار الجحيم ثم بنار الجحيم ثم بما هو أشد سعيراً من نار الجحيم ، وطعن على جنس بأجمعه من البشر لأنهم يؤمنون بالدين الذى علمهم آباؤهم وأمهاتهم أن

يؤمنوا به إيماناً لا يدع لهم مجالا من الشك فى أنه هو الدين الحق . فهل هذا هو مبدأ عقيدتنا ؟ » .

ولا أدل على أن اعتبارات أخرى كانت تجول برأس منتو فضلا عن هاته العواطف الشريفة الجديرة بالإعجاب ، — من فقرة وردت بنفس الرسالة هذا نصها : « وقد كان لاقتراح محو علامات الطوائف من جبين الجند أثناء الاستعراض نصيبه من تبعة مذبحة أعملت فى المسيحيين » . ولا شك أن قوة الشركة ، ثم قوة البريطانيين بالهند بعد ذلك ، كانت تقوم على السيپاهية * ، وأن كل ما يمس عقيدة الجند ربما أدى إلى تقويض ولائهم والتأثير فى أمن بريطانيا ، وهى حقائق أظهرتها للشركة بوضوح ثورة الفيلورى . لقد كان ذلك الاعتبار المتسلط يجثم على عقول البريطانيين بالهند ، وكان من أسباب العصيان العظيم الذى شب فى ١٨٥٧ انتشار شائعة بأن شحم البقر كان يستخدم فى تشحيم الطلقات النارية . من أجل ذلك لم تكن شركة الهند الشرقية تستطيع أن تمنح الدعاية المسيحية أى تأييد من جانبها .

وليس معنى ذلك أن الشركة خلت من رجال كانوا يرون عكس هذا الرأى ، فإن كثيراً من القسس الملحقين بالإدارات من أقوى الشواهد على وجود سياسة عدوانية تتعلق بالتنصير . مثال ذلك أن كلوديوس بوكانان ، وهو رجل رفيع القدر جدير بالاحترام ، دعا إلى تعيين : « كبير أساقفة : شخصية مقدسة رفيعة يحيط به أساقفته ، ويكون له إيراد وافر ونفوذ عريض . . . شخصية تشبه الملوك وتجمع بين السلطة الروحية والسلطة الزمنية وتتطلع إليها الرعايا الأذلاء فى هذه الإمبراطورية الشرقية العظيمة . . . خذوا أى رأس وضعوا عليها قلنسوة الأسقف؛ ولا تخشوا ! فسيكون له أثر حسن بين الهندوك » . فيا للمسكين بوكانان ! ، إن الأساقفة والمطارنة موجودون بالهند منذ الساعة التى قدم فيها « يوحنا » كبير أساقفة الهند ، إلى مجلس نيقية . وكانت الحكومة البريطانية بدورها هى أيضاً مقتنعة بضرورة بسط سلطان هيئتها الكنسية على الهند ، مع إقامة مطران بكلكتا مع عدة أساقفة

* السيپاهى Sepoy لفظة فارسية وأردوية معناها الفارس ، وهى تدل فى الإنجليزية على الجندى الهندى الذى يعمل فى خدمة الأوربيين . (المترجم)

تتألق أسماؤهم بإضافة الأسماء الإقليمية إليها ، بيد أن الأثر لا يبدو أنه كان كبيراً في أعين الهندوك الأذلاء .

وبدأ دور جديد من النشاط التبشيرى البريطانى عند إلغاء احتكار الشركة فى ١٨١٣ ، فإن الأوربيين الذين ليسوا فى خدمة الشركة لم يعودوا عند ذلك من المتطفلين ، ومع أن سلطات الشركة كانت لا تبرح بعيدة عن الترحاب بنشاطهم ، إلا أنها لم يعد لها آنذاك أى حق قانونى فى إيقافهم . وكان أنجح جهد بذل فى ذلك الوقت ، جهد كلية اسكندردف الاسكتلندية للتبشير ، التى استطاعت غواية عدد من شباب الهندوك أبناء العائلات الكريمة وإيقاعهم فى حبائل المسيحية . ولكن للمرة الثانية عاد النجاح الذى بدا دانى القطوف فأفلت من قبضة المبشرين . فإن الهندوكية بدأت سيرة حياة الإصلاح فى البنغال بتأثير إلهام مهارشى دڤندرانات تاغور ، وعندئذ أغلق الباب الذى بدا مفتوحاً فتحاً جزئياً . ولم يبلغ العمل التبشيرى أية نتائج بارزة إلا فى الجنوب فى ولاية تراڤانكور ، ولا حصل على التأييد الفعال من الحكومة البريطانية . فإن مجتمعاً كان يقاسى من الاضطهاد الاجتماعى يسمى طائفة الشانارد ، أصبح موضع الالتفات الخاص من المبشرين ، وحاولت حكومة مهراجا أن تمنع الاضطرابات الاجتماعية ، فأثيرت المسألة فى البرلمان وهدد الحاكم نفسه بالعزل . غير أن هذا العمل أحدث نتائج غير متوقعة ، فإنه فتح أعين الأمراء الهنود الآخرين إلى أخطار نشاط المبشرين ؛ ولذا فإن عدداً من الولايات الهامة كانت لا تسمح بقيام أى نشاط للمبشرين من أى نوع كان بما فى ذلك المدارس * ، إلى آخر أيام الحكم البريطانى بالهند (١٩٤٧) .

ومع ذلك فإن الحكومة البريطانية بالهند كانت تمنح المبشرين مساعدات عظيمة ولكن بطريق غير مباشرة . فإن التشريعات كانت تحفظ حقوق المتنصرين فى نصيبهم فى العائلات الهندوكية المختلطة ، كما أن أحكام المحاكم العليا كانت تمكن المتنصرين من التشهير بزوجاتهم حتى تتبعنهم إلى أحضان دينهم الجديد .

---

* فى ولاية بيكانير التى ظل فيها كاتب هذا الكتاب رئيساً للوزراء لمدة أربع سنوات ، لم يكن يسمح بأى نشاط للمبشرين . وقد رفض المهراجا فى ١٩٤٥ طلباً قدم إليه بفتح مدرسة لدير راهبات . وكانت مقاطعة باتيالا أيضاً تحرم التبشير .

وكذلك كانت الحكومة تشجع المبشرين على العمل بين ظهرانى القبائل المتأخرة ، اقتناعاً منها بأن الرأى العام الهندوكى لن يسخط لذلك . وعلى الجملة يمكن أن يقال إن الموظفين البريطانيين ظلوا محتفظين بموقف الحياد ، وان الحكومة البريطانية الساهرة على الدوام على كل ما يؤثر فى القانون والنظام وولاء العناصر التى يعتمد عليها حكمها ، كانت لا تشجع كل وسيلة للدعاية تسخط مشاعر الهندوك .

وكان التعليم تحت هيمنة الدولة وإشرافها وتنظيمها ، وهى حقيقة أدت أيضاً إلى الحيلولة دون تكرار فوضى المعاهد التعليمية التى أصبحت ظاهرة بارزة فى الصين . وفوق كل شىء كان وجود السلطة البريطانية البحتة الشاملة وسيطرتها على شبه القارة الهندية بأكملها منقذاً للهند من أنواع النشاط المتنافسة التى تقوم بها دول مختلفة تتمنى كلها لو كانت السباقة فى شوط تنصير الوثنيين . وكان البريطانيون يهتمون أشد الاهتمام بالحيلولة دون هدم أركان المجتمع لأسباب تماثل الأسباب التى حركت من قبل يانج تشينج وكانج هسى وهيديوشى ؛ ولذا فإن البعثات التبشيرية المسيحية التى تسامحت الحكومة معها ولكنها لم تؤيدها ، أخفقت فى إحداث أى أثر جدّىّ فى الحياة الهندية .

الفصل السادس

الصين ١٧٢٣ - ١٩١١

بعد مرسوم الاعتزال الصادر فى ١٧٢٣ ؛ ولمدة تقارب القرن كان كل ما وجد بالصين من النشاط المسيحى سريا لا أهمية له . وواصل بعض المتعصبين من المسيحيين الدخول إلى الصين ومواصلة عملهم ، على أن السلطات الإقليمية كانت تعاملهم بشدة حين يقعون فى قبضتها . ولكن عند زيادة المصالح التجارية بالموانى ، بدأ المبشرون فى توطيد أقدامهم بهدوء حريصين كل الحرص على ألا يلفتوا الأنظار إليهم . وكان أهم هؤلاء هو روبرت موريسون ، وقد وصل إلى كانتون فى ١٨٠٧ . وبعد أن أمضى موريسون سنتين فى دراسة اللغة ، سجل اسمه مترجما فى شركة الهند الشرقية ليحتمى بتلك الهيئة . وربما أمكن أن يعد هذا الحادث رمزا إلى التحالف القائم بين أعمال البروتستنت التنصيرية وبين رأس المال وبين عدوان الرأسماليين بالصين. وكان أهم ما يشتغل به موريسون إعداد مؤلفاته فى المسيحية ، ولم يستطع أن يتمم تعميده الأول لأحد الأشخاص إلا فى ١٨١٤ « عند نبع بعيد عن أعين البشرية » . ويبدو أنه هو ورفاقه لم يستطيعوا أن ينصروا فى السنوات الخمس والعشرين الأولى إلا ستة عشر نفرا من الصينيين .

ولا شك أن رجالا من أبناء أقاليم أخرى ممن حاولوا أيضـًا أن يوطدوا أقدامهم ، لم يحرزوا نجاحـًا أعظم من ذاك .

ولكن الأحوال السياسية كانت تتغير تغيرا سريعا ؛ ذلك أن ضغط الأمم الأوربية الذى أسلفنا لك وصفه ، قد أرغم الصين على فتح موانيها للبريطانيين أولا ثم للشعوب الأخرى بعد ذلك . وكان المبشرون أحرارا فى الإقامة بالموانى المفتوحة للتجارة ، وكانت حريتهم تلك تحت ستار الامتيازات القضائية. وذهبت الحكومة الفرنسية خطوة أخرى ؛ فإنها حلت محل البرتغاليين وادعت أنها نصيرة المذهب الكاثوليكى . وحصل المبعوث الفرنسى على مرسوم إمبراطورى يسمح للصينيين بممارسة المذهب الكاثوليكى.

وهكذا كسر السور لأول مرة ، ومع أن أعمال المبشرين قد قصرت على موانى المعاهدات ، فقد كان من الجلى أن الحالة الراهنة لم تكن إلا بداية . وعندئذ بدأت أعمال تبشيرية قوية ، عندما أسس اليسوعيون مقر رئاستهم فى زيكاواى ، فى أرباض المكان الذى أصبح عما قليل أشد مدن الصين ازدهارا . وشرعت هيئات تبشيرية وافدة من جميع الأقطار : إنجلترة وأمريكا وألمانيا وغيرها ترسى قواعدها بالصين استعدادا لليوم الذى تصبح فيه الإمبراطورية السماوية مفتوحة الأبواب أمامهم .

ولم يطل بهم الانتظار . فانضم الفرنسيون إلى معترك حرب الصين الأولى بحجة ظلت منذ ذلك الحين ذريعة ثابتة بالصين لتغطية العدوان السياسى — هى أن تنفيذ حكم الإعدام فى مبشر اسمه أوجست شابدلين كان مسألة تستوجب إنزال العقوبة بالصين . وحصل المبشرون فى المعاهدات التى أبرمت مع الدول فى ١٨٥٨ على حق السفر بحرية بكل أرجاء الصين ، وعلى ضمان بالتسامح مع المسيحية والحماية للصينيين المسيحيين فى تصريحهم بعقيدتهم . وكانت المعاهدة الفرنسية تنص على أن « جميع أعضاء المجتمعات المسيحية لهم الحق فى الاستمتاع بالطمأنينة التامة فى أشخاصهم وأملاكهم وحرية ممارسة طقوسهم الدينية » . وهكذا لم تعد المسيحية فقط تتمشى مع أوربا جنبا إلى جنب ، بل أصبحت تعد مصلحة دبلوماسية هامة للدول الغربية فى عدوانها على الصين . وتدثر المبشرون بالامتيازات القضائية ومنحوا الحق فى اللجوء إلى قناصلهم وسفرائهم فى كل ما يتصل بالمصالح الدينية للصينيين المسيحيين . وقد أظهر التاريخ فيما بعد أن شيئا لم يكن أعود بالمضرة البالغة بمصالح كنيسة المسيح * .

ومما له دلالته أيضا أن التعويضات الجائرة التى كانت تفرض على الصين ، كانت تتلقى منها الكنائس نصيبا كبيرا . وهكذا بدأت البعثات التبشيرية سيرتها بالاستفادة من إذلال الصين و بالارتباط فى أعين الصينيين بالاعتداء المتكرر على وطنهم .

---

* إن رذرفورد ألكوك السفير البريطانى فى ذلك الوقت قد استنكر ببعد نظر وحكمة « قلة جدوى الجمع بين معاهدة تجارية وهيئة للتنصير » . ثم إنه تنبأ أيضاً أن ذلك سيكون فى يوم من الأيام « عنصراً من عناصر الإزعاج » .

ويلجأ مؤرخو التبشير إلى نوع خاص من المهارة ليبرروا هذه الجهود التى كانت ترمى بكل وضوح إلى إدخال المسيحية إلى البلاد على آثار العدوان الأجنبى . مثال ذلك أن «لاتورت» يبرر تلك السياسة على أساس أنها : «كانت تمنح المتنصرين قدرا معينا من الاطمئنان إلى الحماية كما أنها نشطت النمو العددى للكنائس » . ومع ذلك ، فحتى هو نفسه يعترف بأن الإجراء كان ينطوى على مضمونات أخرى وأنه « كان يتجه إلى فصل الصينيين المسيحيين عن السلطة القضائية لحكومتهم وإلى جعل المجتمعات المسيحية دولة داخل الدولة ،أى ممالك محصورة متناثرة تقوم تحت حماية الأجانب » . وهو يردف ذلك بقوله« والحق أن الدول الأجنبية لم تكن تتدخل إلا دفاعا عن العقيدة وحماية للمتنصرين من كل دعاية ، لم تكن تتدخل قانونا ، ولكن أية قضية يمكن أن يدفع فيها بأن الاضطهاد هو رائد خصم المسيحى ، وكان القنصل أو السفير يستطيعان متى شاءا أن يجدا المعاذير للتدخل . وأدرك كثير من الصينيين المزايا التى تعود عليهم من التأييد الأجنبى القوى ، فتظاهروا باعتناق النصرانية . وكم من مبشر وعد الصينيين بالتأييد من حكومته ليحملهم على الدخول فى كنيسته . وكان مساعدو المبشرين من الصينيين أيضا يعمدون دون علم المبشرين فى غالب الأحيان ، إلى استخدام رغبة الناس فى عون الأجنبى يتخذونها وسيلة لزيادة عدد المتنصرين وليظهروا أمام رؤسائهم بمظهر الناجح الموفق فى دعوته » .

والحق أن فقرات المعاهدة قد كتبت الحكم النهائى بالقضاء المبرم على النشاط المسيحى بالصين . ذلك أن من فرط الحماقة وقصر النظر ،أن يعتقد بعض الناس أن دينا ينمو تحت حماية الدول الأجنبية ، وبخاصة فى ظروف مذلة جاءت فى أعقاب الهزيمة ، يمكن أن يسمح الشعب بوجوده متى ما استرد سلطانه . وكانت حقيقة الموقف أن المبشرين كانوا كغيرهم من الأوربيين مقتنعين أتم الاقتناع إبان القرن التاسع عشر أن دوام تفوقهم السياسى أمر مفروغ منه ، ولم يتصوروا قط أن الصين ستسترد يوما ما مركزا يتيح لها أن تنفض الغبار عن تاريخ الماضى وتقيمه على المبشرين وأتباعهم . فالكنيسة كما أوضح لاتورت« قد أصبحت شريكا فى التوسع الإمبراطورى الغربى . وعندما أصبح ذلك التوسع الإمبراطورى غرضا للهجمات وقضى عليه فى نهاية الأمر ، لم تستطع الكنيسة النجاة من مصير راعيها وحليفها » .

ولكن السبيل كانت فى ذلك الحين ميسرة مفروشة بالورود للتنصير . ومن سوء الحظ أيضا أن أهل الرأى لم يستطيعوا أن يستخدموا إلى آخر الشوط النهزات التى هيأتها المعاهدات آخر الشوط نتيجة لعصيان تايبنج. وقد سبق أن عالجنا النواحى السياسية والاجتماعية فى هذا العصيان العظيم . ولا يزال باقيا علينا الآن أن نتعقب آثاره فى النشاط التبشيرى . ففى الوقت الذى عقدت فيه المعاهدات التى تمنح المسيحيين الحماية ، كان ثوار التايبنج قد بلغوا ذروة نجاحهم . وفى (١٨٦٠) استولوا على هانجشتاو واستولوا فى (١٨٦١) على ننجبوه . بل لقد هددوا شنغهاى فى السنة التالية . وتواصل اندلاع الثورة حتى استردت نانكين فى (١٨٦٤) . وأصبحت منطقة اليانجسى بأكملها خرابا يبابا بسبب الحملات التى شنت بها ، وعمت الفوضى معظم أجزاء الصين الخصبة. ولم يكن المبشرون يستطيعون التحرك داخل البلاد حتى يعود الهدوء سيرته الأولى .

وبغض النظر عن التقلقل الناشئ عن ذلك الجيشان الهائل المخرب ، كانت لعصيان التايبنج علاقة مباشرة بما شاع فى عقول الشعب الصينى بمجموعه من امتعاض مرير . ومع أن علاقة المسيحية بالتايبنج يغشاها الإبهام ، فمن الجلى أنه كان لها من أول الأمر على الأقل أساس مسيحى . إذ يبدو أن هنج هسو تشوان زعيم الثورة قد وقع فى فترة من حياته تحت المؤثرات المسيحية ، وأن إيساخارج روبرتس أحد المعمدانيين علمه المسيحية . وكانت لبعض خلطائه الأقربين مثل «فنج ين شان» اتصالات مسيحية أيضا. ولكن سرعان ما أصبح نبيا هو أيضا وادعى أنه ابن مريم البتول ، وأنه هبط عليه وحى جديد من السماء .

ولم يرض المبشرون المسيحيون عن المبالغات المفرطة التى ذهب إليها ابن الله ذاك ، بيد أنهم كانوا على الجملة ميالين أن يبحثوا فى الحركة عن فرصة ينتهزونها . فقد كتب بجيلسباى فى (١٨٥٤) مصرحا بأن : « ليس ثم أدنى شك فى أنه لو نجحت الحركة الجديدة ، لانفتحت الصين طولا وعرضا أمام جهود المبشرين البروتستنت » . وفى (١٨٦٠) التى بلغ فيها العصيان ذروته ، كتب جريفيث چونز فى تقريره الذى بعث به إلى جمعية التبشير اللندنية : « إن عصيان التايبنج قد أتاح للهيئات التبشيرية فرصة نادرة » . وادعى أنه حصل على إذن بالدخول فى منطقة العصاة حتى يواصل

نشاطه التبشيري ، مضيفا إلى ذلك فى تقوى نادرة : « إنى أعتقد تمام الاعتقاد أن الله يستأصل شأفة الوثنية فى هذه البلاد بفضل أولئك العصاة ، وأنه (تعالى) سيزرع بذرة المسيحية بدلا منها بواسطتهم وبمساعدة المبشرين المسيحيين » .

ولكن الذى حدث هنا أيضا ، هوأن تفاؤل المبشرين اليسير الهين انتهى بخيبة رجاء مريرة . ذلك أن شقيق المسيح وابن الله — وهى الصفة التى خلعها على نفسه هنج — لم يكن ليتسامح مع من يدعون أن لديهم رسالة يريدون تعليمه إياها . وقد استقبل زعيم التايبنج روبرت ما كلين المندوب الأمريكى بكلمات الترحاب التالية : « إن كنتم حقا تحترمون السماء وتعترفون بالمولى ، فإن عرشنا السماوى ، إذ يعد كل من أظلته السماء أسرة واحدة ويضم كل الشعوب فى هيئة واحدة ، سينظر بكل تأكيد بالرعاية لهدفكم المخلص ويسمح لكم بأن تقدموا الجزية سنة بعد سنة » . وقد أكد هنج للوزير البريطانى السير چورج بونهام أنه « ملك الأرض كلها تحت وصاية الله بالانتداب من الله » *. وكان جليا أن المبشرين القادمين من أقطار أخرى لن يجدوا لهم محلا فى دولة التايبنج .

حتى إذا قضى على الثورة واستعيد نوع ما من النظام ، بدأ المبشرون حوالى (١٨٦٥) يستفيدون الفائدة الكاملة من الامتيازات والحقوق التى يستحقونها بحكم المعاهدات . فانتشروا فى داخل البلاد كالسيل الجارف (وذلك بقصد أن يلقوا فى روع السكان المحليين أنهم إنما جاءوا ليبقوا) وشرعوا يمتلكون العقارات ويبتنون الكنائس ، ويلجأون فى تبشيرهم ووعظهم إلى وسائل وطرائق عدوانية خالية من كل تسامح . ولم يكن فى طوق المجتمع الصينى أن يرد عليهم الضربة بمثلها وينتصر لنفسه ، ولكنه امتلأ بالاستياء والغضب الصامت ، ولم يتم التنصير بالسرعة الكافية . واحتفظ الأدباء بما جبلوا عليه دائما من التعالى والتكبر ، وأحس الرجل العادى بضغط القيود الاجتماعية ، وداخله الولاء لعاداته الموروثة عن الأجداد ، كما شعر ، أكثر من شعوره بأى شئ بتمسكه بأصول الآداب والخلق والسلوك ونماذجها المرعية الموروثة على كر القرون ، والقوية القوة الكافية للوقوف فى وجه مداهنات المبشرين . لقد

---

* الولايات المتحدة : الوثائق التنفيذية ، الكونجرس الخامس والثلاثون ، الدورة الثانية ، مج ٢٢ ج ١ ص ٥٨ .

كانوا يعدون الرجل الصينى العادى بخلاص مشكوك فيه بعد الموت ، وكان ذلك الخلاص يبدو لعينه صفقة ضيزى بالقياس إلى ما يناله من فقدان الكرامة والاحترام بين أفراد أمته ، ومن إنكاره ما لأسلافه من حكمة وفضيلة ، ومن قبوله وارتضائه للتفوق الروحى والخلقى لشعب أجنبى ، لم يكن ليزيد دائما فى أعين الصينيين عن شعب همجى وافد من وراء البحار . من أجل ذلك اقتصرت عملية التنصير على الجهلة والجياع ، كما كانت تشتد إبان المجاعات ، وكانت نتيجة ذلك أن أصبح الشعب يطلق عليهم فى احتقار اسم « نصارى الأرز » . والحق انه حتى كتاب المبشرين أنفسهم قد شهدوا بأن بيانات النجاح العددى التى كان المبشرون يبلغونها إلى إداراتهم بأرض الوطن كانت تنطوى على نسبة مئوية كبيرة من المتنصرين المدعين الزائفين .

وليس ثم شك أن ذلك النجاح الذى كان المبشرون يحرزونه كان فى جل أمره ثمرة للوعود بالمنافع الدنيوية التى كانت تنطوى عليها حماية الأجانب الأقوياء ؛ ذلك أن كل متنصر كان يخرج تقريبا عن طائلة تشريع الحكومة الصينية . وكانت للمتنصر ميزة هائلة ينفرد بها دون خصمه فى كل ما يتعلق بالخلافات والمنازعات القضائية التى تنشب بينه وبين أبناء أمته . وكان التدخل فى المنازعات القضائية يعد أبلغ الطرق أثرا فى تأييد المسيحيين ، وبالتالى فى اجتذاب المتنصرين . وكان المبشر يفترض ابتداءً أن المنازعات القضائية التى يكون المتنصرون طرفا فيها إنما ترجع إلى الاضطهاد وذلك بالإضافة إلى أن المبشرين كانوا يميلون إلى التشكك فى عدالة الوثنيين . « وفى بعض الأحيان ، كانت مجرد إشارة من المبشر — كزيارة أو بطاقة — كافية لصدور الحكم فى صالح المتنصر ، وذلك لأن الموظف من هؤلاء لم يكن يرغب فى أن يدخل فى خلاف مع الأجانب الذين كانوا يستطيعون أن يسببوا له المتاعب مع رؤسائه بواسطة قناصلهم وسفرائهم » . فماذا كانت العدالة البحتة عندما كان الأمر يدور حول مصالح المبشرين بل حتى المتنصرين ؟ يقول لاتوريت : « فليس عجيبا إذن ، أن كان الأفراد والعائلات بل حتى العشائر والقرى بكامل أعدادها تعلن اعتناقها للمسيحية على أمل الحصول على المؤازرة ضد أحد الخصوم . وكذلك ليس من العجيب البتة أن المبشر ومساعديه غالبا ما كانوا يتجنبون التعمق فى تقصى دوافع

أولئك الذين كانوا يطلبون لأنفسهم معلمين ، وأنهم كانوا فى بعض الأحيان يتبنون قضية غير المسيحيين على شريطة أن يتقبلوا تعاليم المسيحية . والواقع أنه يبدو من المحقق إلى حد ما أنهم كان يبلغ بهم الأمر أن يعرضوا على الناس مساعدتهم فى القضايا لكى يحصلوا على الأنصار [١] . ويجد القارئ فى الكتب السنوية لنشر العقيدة كثيراً من أمثلة هذه الأعمال [٢] .

ونشأ بعد ذلك موقف عجيب . وإليكم ما يقوله لاتروت : « لقد أخذ المبشرون وبخاصة المبشرين الكاثوليك يباشرون تقريبا بمضى الوقت ساطات الموظفين المدنيين على المتنصرين [٣] » . ويقول الكتاب البروتستنت « إن الكاثوليك كانوا يميلون إلى اجتذاب الصينيين بما تبذله لهم الحماية الأجنبية من ميزات » . بيد أن هناك مجموعة ضخمة من الشواهد التى تبين أن البروتستنت كانوا أشد منهم عدوانا فى استخدامهم للرعاية السياسية . وخاصة أنه لم يكن من غير المألوف لدى الأمريكيين أن يعينوا المبشرين أو المبشرين السابقين قناصل وديبلوماسيين . مثال ذلك أن آشمور وهو مبشر عامل كان أيضا قنصلا لأمريكا فى سواتو . واستمر العمل بذلك النظام حتى النهاية نفسها ، وكان آخر سفير أمريكى بالصين قبل عهد الشيوعيين الدكتور ليتون ستيوارت ، وهو مبشر بارز قضى حياته كلها يعمل فى الصين . على أن الحكومة البريطانية ذات التقاليد القوية فى شئون الموظفين لم تتبع ذلك النظام ، ولكن المبشر

---

(١) لاتروت ص ١٣٠ .

(٢) إن موقف الصينيين من هذا التهديد لاستقلالهم وثقافتهم وحضارتهم ، يظهره أحسن إظهار حديث دار بين الإمبراطورة الأرملة وبين تسنج كيوفان أعظم رجال السياسة فى الصين فى عهدها وأشدهم استنارة :

الإمبراطورة : « إن من أحسن الأشياء أن نستطيع أن نحمى أنفسنا حماية صحيحة من الغزو . فإن الخلافات بين هيئات التبشير تحدث لنا متاعب دائمة .

تسنج : « هذا حق ، فإن هيئات التبشير تسبب لنا فى المدة الأخيرة متاعب فى كل مكان ، فإن المتنصرين من الأهالى يجنحون إلى مضايقة من لا يقبلون أن يعتنقوا المسيحية واضطهادهم كما أن المبشرين يحمون المتنصرين على الدوام ، على حين يحمى القناصل المبشرين . وفى العام المقبل عند ما يحين وقت تعديل المعاهدة الفرنسية ينبغى لنا أن نحرص حرصاً خاصاً على إعادة النظر بعناية تامة فى مسألة الدعاوة الدينية » .

(٣) لاتروت ص ٢٨٠ .

الإنجليزى كان لديه سند أقوى هو زورق المدفعية * فقد حدث فى حادثة تشنكيانج (١٨٨٥) ، التى كان مدارها مدعيات مالية لبعض المبشرين ، أن زورقين من زوارق المدفعية دخلا فى نهر اليانجتسى وتسببا فى حرمان الخصم الصينى من مدعياته وأقاما أمام أعين الجموع مظاهرة للقوة التى تقف من وراء المبشر . والواقع أن مما يشهد بوجود هذا النوع من العلاقات مصاحبة «مويرهد» للأسطول البريطانى فى مسيره فى اليانجتسى فى (١٨٥٨) ليؤسس مركزا للتبشير ، ومصاحبة هنرى بودچت الأمريكى لقوات الحلفاء إلى تيان تسن للقيام بمهمة مماثلة .

واستخدم المبشرون طرقا أخرى ربما كانت أقل إثارة للشكوك . فإنهم بدأوا منهجا تعليميا ضخما وأصدروا قدرا عظيما من الكتب ، وأنشأوا المستشفيات والبعثات الطبية ، وادعوا أنهم يحسون اهتماما إنسانيا نحو الصينيين . ولا مراء أن الكثيرين منهم كانوا ذوى نزعات إنسانية أصيلة ، وأن آلام الرجال والنساء كانت تمس أنفسهم فى الصميم ، كما أنه يمكن أن يقال إن البعثات الطبية بوجه خاص قد أدت أعمالا جليلة للناس . على أن النشاط التعليمى كان صورة معدلة لمشروع ركى ومذهبه الرامى إلى تهريب المسيحية عن طريق العلم الحديث . وفضلا عن ذلك ، فإن الوسائل التى استخدمت لم تكن سليمة كلها من الناحية الخلقية . مثال ذلك أن أن مبشرا تابعا لجمعية بال ، اسمه ج . ه . هاوسباخ كان يدفع الأموال لمدرسين لمدارس غير مسيحية لكى يدخلوا فى خطة الدراسة بعض المواد« المسيحية» . وفى (١٨٨٥) تقدم تيموثى ريتشارد ، وهو من أبرز الشخصيات فى تاريخ التبشير المسيحى وأحفلها نفسا بالعطف والمحبة ، باقتراح مفاده أنه قد آن الأوان للتأثير فى العقول المتفوقة عن طريق التعليم العالى ، واقترح إنشاء الكليات . وكانوا يعلمون النشء فى المدارس والكليات التى ينشئونها ما تتسم به المسيحية من صدق وتفوق وامتياز فضلا عما للأمم الغربية من عظمة قاهرة .

* ومما له دلالة أن المبشرين البروتستنت كانوا – شأن تجار موانى المعاهدات – يؤمنون أشد الإيمان بالضغط المحلى بواسطة القناصل . فإن أسقف فيكتوريا كتب فى رسالة له إلى اللورد كلارندن (ديسمبر ١٨٦٩) مصرحاً بأنه على الرغم من وجود بعض الظواهر السطحية التى تذهب إلى عكس ما يقول ، فإن الحكومة الصينية كانت حكومة غير متمدينة وغير قادرة على خلق العلاقات الوثيقة مع الأجانب ، ومن ثم فقد اقترح أن تزاد سلطات موظفى القنصليات رغبة فى أن تسوى محلياً بعض المسائل المتصلة بالمبشرين .

وفى أثناء تلك الفترة نشطت الهيئات التبشيرية الكاثوليكية نشاطا عظيما مخافة أن يفلت من يدها زمام السبق الذى أحرزته آنفا . وكانت فرنسا قد أصبحت فى عهد نابليون الثالث نصيرة للكاثوليكية فى الشرق واغتصبت الحقوق التى كان البرتغاليون يدعونها قبل ذلك لأنفسهم ، فأخذت تعاون علانية جميع القسس الكاثوليك مهما كانت جنسيتهم . ومن ثم نشطت بوجه خاص جماعات اليسوعيين والفرنسسكيين واللازاريين وجماعة البعثات الأجنبية، وغيرها من منظمات الدعاة ، وأخذت جميعا تستخدم إلى أقصى حد الامتيازات التى تتيحها المعاهدات مستعينة أيضا بنفوذ الدول الأجنبية ومهابتها . ومن ثم تغلغلوا فى الداخل وانبثوا فى منغوليا والمناطق الخارجية ، وأظهروا الشئ الكثير من الحمية والحماسة فى عملهم بين ظهرانى القبائل المتأخرة . ثم إنهم أسسوا أيضا الملاجئ ، ومع أن هذه المؤسسات كثيرا ما كانت تشترى الأطفال من آبائهم الصينيين لتربيهم على المسيحية كما كانت تقوم ببعض أعمال أخرى مريبة ، فليس هناك شك فى أنها أدخلت إلى دائرة الأطراف المهملة من المجتمع طرازا جديدا من الخدمة الإنسانية الكريمة .

ومع أن الكاثوليك واصلوا نشاطهم على هذا النحو ، فإن عمل البعثات التبشيرية البروتستنتية فى تلك المدة هو العمل المذهل حقا سواء من حيث نطاقه أو نوعه أو تنظيمه . ومع أن كل طائفة بروتستنتية كان لها ممثلوها فى المجال الصينى ، فإن بعثة الصين الداخلية هى التى يرجع إليها الفضل الحق فى هذه الانبجاسة المذهلة فى النشاط . تأسست تلك الجمعية فى (١٨٦٦) ودخلت الميدان الصينى فى وقت كان الباب فيه مفتوحا والفرص عظيمة لا حدّ لها . وتمكنت البعثة برئاسة رجل عظيم الغيرة جم الأمانة من أن تستغل استغلالا تاما شعور النجاح والتفاؤل والرضا بالنفس الذى كان الغرب ينعم به فى العصر الفيكتورى . كان جيمس هدسون تايلور * ، رجلا من يوركشير ظل يحلم بالصين منذ أيام شبابه الأولى ويحلم بمجد تنصير ملايينها الحاشدة ، وقد جاء إلى الصين أصلا فى (١٨٥٣) تحت رعاية جمعية الصين

* عن تايلور انظر كتابه : « بعد ثلاثين سنة After Thirty Years » ، لندن ١٨٩٦ ، وانظر كتاب الدكتور هـ تايلور والمسز تايلور : « هدسون تايلور وهيئة تبشير الصين الداخلية . لندن ١٩١٩ Hudson Tylor & The China Inland Mission » .

للتبشير الإنجيلي وقضى بضع سنوات فى أعمال تبشيرية أولية . وقد خطر على باله أن ظروف الصين المتغيرة تتيح فرصا طيبة لأعمال تبشيرية ذات ضخامة لم يسبق لها مثيل ولم ترد على خيال بشر . ثم عاد إلى إنجلترة وأسس جمعية الصين الداخلية قاصدا أن يغزو للمسيح قلوب الملايين التى لا حصر لها فى داخل الصين . وكانت جمعية الصين الداخلية لا تنتسب إلى أية طائفة مسيحية معينة ، ولكن تايلور نفسه كان ضيق الأفق غير متسامح ، وكانت اتجاهاته تميل إلى التمسك بالأصول الأولى للدين . وكان يصر فى بداية الأمر على الأقل ، على أن من يجندون لخدمة البعثة يجب أن يؤمنوا « بإلهام الكتاب المقدس بأجمعه وأن يقبلوه قاعدة وهاديا وحيدا للمسيحيين» . وكان يتأجج فى نفسه لهيب الاعتقاد اللاذع بأن من ماتوا على غير المسيحية سيحرقون فى نار جهنم ، ومن ثم اعتبرت جمعية الصين الداخلية أن واجبها الأول هو أن تعلن الأناجيل على الناس . وكان خلق تايلور الشخصى وإخلاصه الظاهر يجذب كثيرا من الناس إلى جمعيته ، حتى أصبحت فى النهاية أكبر هيئة تبشيرية ببلاد الصين ، وصار لها ٦٤١ مبشرا ، و ٤٦٢ مساعداً صينيا ، و ٢٦٢ مركزا داخليا أو خارجيا للتبشير . وعلى الرغم من كل هذا الجيش القائم على خدمة المسيح ، لم يكن للجمعية أكثر من بضعة آلاف قليلة من المراسايين . لقد نمت الهيئة وأصبحت رائعة حقا ، بيد أن النتائج ظلت مخيبة للآمال ، وهو أمر لم يكن هؤلاء الأتقياء ينسبونه إلا إلى انحراف عقول الوثنيين .

والدور الذى لعبته النساء فى الجهود التبشيرية البروتستنتية جدير هو أيضا بالذكر . مثال ذلك أن جمعية المبشرات الاتحادية بأمريكا التى تأسست فى (١٨٦٠) ، أرسلت فى (١٨٦٨) ثلاث مبشرات ليفتحن مدرسة داخلية للبنات . وفى (١٨٨٥) أنشأت الجمعية نفسها مستشفى للنساء والأطفال فى شنغهاى . ثم جاءت عقب ذلك الكنيسة الإنجليزية بجمعية زينانا التبشيرية . ثم دخلت الميدان أيضا جماعات نسائية أخرى ، وأقدمت على إتيان آيات النشاط الغيرى الصادق ، نساء عملن بوجه خاص فى فلك التعليم والخدمة الطبية . وبطبيعة الحال كانت الراهبات تعملن فى البعثات التبشيرية الكاثوليكية . وكانت لهؤلاء الراهبات فائدة خاصة كبيرة فى ملاجئ الأيتام والمستشفيات . وعلى الجملة يمكن أن

يقال إن النساء كن فى الأعمال التبشيرية لدى كل من الكاثوليك والبروتستنت يقمن بدور هام جدا .

وما كانت الحماسة الهائلة والحمية المثابرة الدائبة اللتان ترقرقتا فى هذا الاتساع العظيم الذى لم يسبق له نظير فى الجهود التبشيرية لتتوفرا إلا بسبب الثقة بالنفس التى اجتمعت للغرب فى رسالته وفى تقديره لذاته الذى لا حد له وفى اعتقاده اليقينى بتفوقه . وإن النجاح العظيم الذى تهيأ للناس فى منتصف العصر الفيكتورى والذى جعلهم يفكرون بخيال مرتبط بطل اللورد تنيسون الشاعر « بلوكسلى هول » ، — فى ذلك الزحف المتواصل نحو النجاح ، قد ساعد الجمهور فى كل دولة أو ربية على تأييد أعمال المبشرين فى الميادين البعيدة بما لا ينضب له معين من الرجال والأموال . وكان الناس يحسون بالتعاسة الخالصة ، كما يدعى هدسون تايلور أنه كان يحس ذلك الإحساس ، لمجرد تفكيرهم فى أن مثل هذه النسبة المئوية الضخمة من سكان العالم تقضى حياتها كلها دون أن تسمع عن الطريق الوحيد للخلاص ، الذى كان الغرب يؤمن إيمانا راسخا أن بيده احتكاره . ومن ثم كان ذو و الأنفس الوثابة المغامرة يختارون أصعب السبل وأعوص الأعباء ، حيث كانوا يتغلغلون فى المجاهل الداخلية غير المرتادة ويعيشون بعيدا عن كل وسائل الراحة ويحاولون بكل وسيلة مستطاعة أن يضعوا المعرفة بالمسيح أمام أعين الناس . وعلى حين أن عددا جما منهم لجأوا إلى الطريقة المريبة طريقة استخدام النفوذ السياسى ، والتدخل فى المنازعات القضائية والوعد بالمساعدة المادية ، فإن من الضرورى أن نسجل أن نسبة مئوية لها قدرها الذى لا بأس به من المبشرين كانت نفوسهم تمتلئ دون أدنى ريب بإيمان مضلل بأنهم كانوا يعملون من أجل الخلاص الروحى للكافر .

وربما جاز لنا أيضا أن نذكر هنا أنه بينما لم يكن فى مستطاع المبشرين القيام بأعمالهم إلا بفضل المعاونة التى كانوا يحصلون عليها من طبقات ضخمة من الناس فى مختلف أقطار أوربا وأمريكا الشمالية ، فإن من الخطأ الزعم بأن مثل ذلك التأييد كان شيئا عاما بين الناس جميعا أو أنه لم يتقدم أى إنسان بالمعارضة الواقعية لجهود المبشرين . مثال ذلك أن الكاتب الشهير داڤيد اركهارت ، كتب رسالتين مفتوحتين إلى أسقف أوكسفورد جعل عنوانهما : « الزندقة الجديدة : التنصر بدلا من البر

والتقوى » سخر فيهما ضاحكا من تقدم إنجلترة إلى الصين بالأفيون فى إحدى يديها وبالإنجيل فى اليد الأخرى ، كما أنه جادل بأنه ، قبل أن ترسل إنجلترة المبشرين إلى أقطار أخرى ينبغى لها أن تندم أولا وتعود هى نفسها إلى طريق الدين والهداية . وبديهى أن جميع العقليين والتقدميين على اختلاف أنواعهم كانوا على الدوام ضد نشاط المبشرين ، كما أن هيئات الموظفين على الجملة لم تكن تقدم إلا الشىء القليل من المعاونة . وربما جاز لنا أيضا أن نؤكد أن الديبلوماسيين البريطانيين بالصين بوجه عام ، على ما كان يملؤهم من اهتمام بالنهوض بالتجارة وزيادة النفوذ السياسى ، كانوا يعدون المبشر عنصر مضايقة ، وكانوا ميالين إلى تثبيط كل مغالاة فى الحماسة والغيرة الدينية . على أن فرنسا التى كانت تجارتها أقل ، فضلا عن أمريكا فى شعورها المتزايد بالهدى الخلقى ، كانتا تشعران بأن المساهمة فى تنصير الصين ضرب من النشاط الديبلوماسى .

ولكن ماذا كان الرجل الصينى العادى يرى فى كل هذا النشاط الخارق الرامى إلى إنقاذه من نفسه ؟ إن سجلات المبشرين الضخمة لا تدع لنا سبيلا إلى الشك فى هذا الأمر . فلم تكن هناك ولاية ولا منطقة واحدة أثناء ذلك الزمان كله — حتى أيام انحلال الصينيين الخلقى وامتلاء نفوسهم بالخوف — لا يدخر فيها الرجل العادى فضلا عن الماندرين وسعا فى إيضاح أن المبشر إنما هو فضولى مرذول ؛ ومن ثم فإن ما يسمونه كراهة الصينيين للأجانب لم يكن فى الواقع إلا صورة باهتة للمرارة التى كان يحسها الصينيون نحو المبشرين . وقد قام الأمير كنج ، وهو رجل أريب أوتى كثيرا من الحصافة والحكمة ، بتفسير هذه النقطة للسفير البريطانى بعبارة بسيطة حيث قال : « ارفعوا عنا أفيونكم ومبشريكم تجدوا منا كل ترحاب » * . وأخذت جماعة من دهماء المدينة تطارد مبشرا وهى تصيح بقولها : « لقد أحرقتم قصرنا ، وقتلتم إمبراطورنا ، وتبيعون السم لأبناء وطننا ، والآن تجيئون لتعلمونا الفضيلة ** » تلك كانت مشاعر العامة . فلا عجب إذن فى أنه لم تكن تنقضى سنة دون حدوث

---

* مورس : « العلاقات الدولية للإمبراطورية الصينية International Relation of the Chinese Empire » مج ١ ص ٢٢٠ .

** مذكرة المبشرين البروتستنت إلى ألكوك — أوراق برلمانية ١٨٧٠ مج ٦٩ . الصين ٩ ص ٤–١٢

مظاهرات عنيفة فى مدينة من المدن تثور احتجاجا على نشاط المبشرين . وإن السجل الحافل بأنباء الكنائس التى دمرت والمبشرين الذين طوردوا والكنائس الصغيرة التى هدّمت ومراكز المبشرين التى هوجمت لأكبر شاهد على الاحتجاج القومى المتقطع على الإهانة التى تلحق ثقافة الصين وحضارتها ، تلك الإهانة التى يمثلها موقف المبشرين نفسه ونشاطهم بطبيعة الحال . وكانت حكومة الصين عاجزة عن فعل أى شئ لحماية ثقافة الشعب أو الاحتفاظ بكرامة الأمة . بيد أن الخوف لم يداخل الشعب بهذه السهولة ، وظل يرسلها صريحة لا لبس فيها : « أن المبشر شخص غير مرغوب فيه ، وأنه لابد أن يجئ إن عاجلا وإن آجلا اليوم الذى يواجه فيه المبشر والمتنصر الذى يلصق به ويتعلق ، نار حنق الجماهير وغضبها » .

ولم يكن يمكن فهم ثورة البوكسرز إلا فى ضوء هذه الحقيقة . فلقد كان المبشر « والشيطان الثانوى » أعنى المتنصر ، هما الهدف الخاص لغضب حركة البوكسرز ، كما أنه فى جميع الولايات التى كانت تعمل فيها « الأيدى المتجانسة » ، كان المبشرون والمتنصرون يتعرضون لاضطهاد عظيم ففى بيكين ، هدمت جميع أماكن العبادة المسيحية وسويت بالأرض ، وفى منشوريا نهبت وأحرقت جميع الكنائس والمدارس والمعابد ودور التبشير ، كما أبيد المجتمع المسيحى إبادة منظمة بكثير من الأماكن . وفيما عدا منطقة شانتنج — التى كان نصير الاستعمار يوان شيه كاى صاحب السلطان الأكبر فيها — لقى المسيحيون فى كل مكان ما لقيه الهوجونوت فى مذبحة سانت بارثلوميو بباريس . ولم يكن عدد الأجانب الذين قتلوا عظيما جدا ؛ إذ لم يزد عن ٢٣٦ شخصا ، كان بينهم ١٨٦ من البروتستنت وحوالى ٥٠ من الكاثوليك (بينهم خمسة أساقفة وتسع راهبات) . بيد أن المسيحيين الصينيين ألزموا بدفع الثمن غاليا لأنهم « الشياطين الثانويون » ، يعنى معاونى الأجانب المعتدين . ذلك أن فقرات المعاهدة التى طالما استندوا إليها ذلك الاستناد القوى لم تعرهم أى عون عندما دخلت المسائل فى طور التأزم . لقد كان ذلك درسا تذكره الصينيون المسيحيون عندما شرع الشعور الوطنى يجد لنفسه من جديد وسيلة للتعبير عن نفسه .

الفصل السابع

اليابان فى القرن التاسع عشر

إن قرار المنع الذى طبق على المسيحية فى (١٦٣٨) أنقذ البلاد من التمزق وساعد على الاحتفاظ لها بسلامتها . حتى إذا تحطمت سياسة الانعزال ، شرع زعماء اليابان كما لحظنا من قبل فى سياسة لطبع البلاد بالطابع الغربى رائدها الحذر ، وأحس الناس أنه قد حانت من الناحية السياسيةساعة يتخذون فيها موقفا جديداً نحو الغربيين ودياناتهم يتجلى فيه التحرر . ولكن عرفان القوم بما كان يجرى فى الصين نتيجة لنشاط المبشرين ، جعلهم يمضون فى هذا الأمر بشئ من الحذر . أجل إن الإمبراطور طلب منهم فى قسم المرسوم (١٨٦٨) « أن يلتمسوا المعرفة بكل أرجاء العالم » ، ولكن ظهر فى اليوم نفسه تنبيه رسمى ينص على أن « طائفة المسيحية الشريرة ستظل محرمة كما كانت حتى اليوم » . وهكذا بينما كان الفيض المسيحى لا يزال يغمر الصين كانت أبواب اليابان لا تزال مغلقة . واحتج سفراء الدول الأجنبية ، ولكن اليابانيين ، الذين كانوا دارسين مهرة للديبلوماسية ، استطاعوا أن يواصلوا معارضتهم محتجين بأن الشعور العام المضاد للمسيحية لم يكن من المستطاع تعديله إلا ببطء ، وأن على الدول أن تعتمد على سنوح الموقف المتبدل حتى يمكن تنفيذ سياسة التسامح الدينى باليابان على أتم وجه . وفى الحين نفسه واصلت السلطات المضىّ بقوة ببرنامج إنهاض ديانة الشنتو ، متخذة من اعتناق تلك العقيدة القومية دليلا على الوطنية والولاء للعرش ومرادفا لهما .

ولما أن اطمأن زعماء اليابان إلى أن الموقف القومى كان من القوة بدرجة تكفى للسماح بممارسة المسيحية علانية ، أعلنوا على سبيل إدخال إصلاح جديد مبدأ التسامح الدينى (١٨٧٣) . وهناك سبب آخر دعاهم أن يتخذوا هذه الخطوة التى خطوها كارهين ، هو الرأى الذى كونه مبعوثوهم فى الخارج من أن مسألة المسائل لدى اليابان وهى تعديل المعاهدات — أى إلغاء نظام الامتيازات القضائية — لن تتاح له فرصة للنجاح ما لم يقتنع عالم الغرب أن اليابان تتيح الحرية للنشاط المسيحى . وهكذا

شرعت الحكومة تخفف منذ (١٨٧٣) من ضغط قبضة المراسيم التى تحرم رسميا قيام « الطائفة الشريرة » . ومن ناحية أخرى بلغ من شدة تهافت اليابانيين على الانخراط فى سلك الدول الغربية ، أن بعض ذوى الأحلام الطائشة وازنوا بين المسيحية وبين قوة الدول الغربية سياسيا واقتصاديا ، حتى لقد فكروا فى أن ينصحوا باتخاذها دينا رسميا للدولة . بيد أن الشعور المناهض للتسليم للغرب عقليا وروحيا ظل محتفظا بقوته ، كما أن المبشرين على الرغم من الحرية التى منحوها ، لم يجدوا من اليسير عليهم أداء مهمتهم .

وبدأت المؤلفات المناهضة للمسيحية فى الظهور وتهافت الشعب عليها تهافتا شديدا . ففى (١٨٧٥) أصدر ياسووى سوكين ، وهو عالم كونفوشيوسى مبرز كتابا عنوانه « فضح البهتان » ، انتقد فيه التعاليم المسيحية بقوة عظيمة الأثر . وكان الكتاب مصدرا بمقدمة كتبها زعيم من زعماء عشيرة ساتسوما القوية . وفى (١٨٨٣) نشر ميجاتا ساكاى كتابا آخر فى هذا النوع من الجدل الدينى جعل عنوانه : « الديانة الغربية وما فيها من مخالفة للمعقول » . وكانت نتيجة تلك الكتابات وأمثالها ، فضلا عن ارتباط المسيحية فى عقول الناس بالأجانب ، أن لم يحدث بطبيعة الحال أى نقص ملحوظ فى عداء الشعب للمسيحيين . بل الواقع أنه على الرغم من الاحتياطات العظيمة التى اتخذتها الحكومة خشية الوقوع فى منازعات مع الدول الأوروبية ، فقد كانت تحدث بالولايات بين الفينة والفينة حتى عام (١٨٨٥) اضطرابات ضد الأجانب . ومع ذلك ، فبمقتضى المادة ٢٨ من دستور (١٨٨٩) ، تحققت حرية العبادة لجميع اليابانيين ، ولم تعد المسيحية تعتبر من الناحية الرسمية « طائفة شريرة » داخل الإمبراطورية .

وقد أدرك المبشرون أنفسهم أن اليابان لم تتخذ هذه الخطوة إلا وقد قوت دين الشنتو ، وبذلك اطمأنت إلى أن الفرص أمام المسيحية فرص هزيلة لا تكاد تذكر . فإن سانسوم نقل أقوال أحد المبشرين البروتستنت المبرزين ، وقد استعرض الموقف بعد إعلان الدستور قال : « ليس أمام المسيحيين إلا الشيء القليل الذى يطلبونه ما دام الأمر يتعلق بالقوانين . ومع ذلك ، فإن حصولهم على تلك الحرية لم يخفف من شدة المحنة التى يتعرضون لها .

ربما أمكن أن يقال إن الاعتراف بحقوق المسيحيين شاهدٌ فى نفسه على أنه كانت قد اجتاحت البلاد موجة من عدم المبالاة بأمور الدين . وقد كان لذلك أثر سيئ عند أولئك الذين ظنوا أنهم كانوا سيجنون كثيرا لو أن المسيحيين لم يمنحوا هذه الحقوق . فتمتع المسيحيين بهذه الحقوق أضعف مركز المبشرين الذين كانوا يقدمون مغريات خصبة ولازمات أخرى تلازم مثل هذه الحالات . وقد أصبح المسيحيون سواء بسواء مع أصحاب الديانات الأخرى ولم يفتهم أن يتأثروا بكل حركة عامة تؤثر فى الأمة جميعها » .

والخلاصة أن المبشرين أخذوا يأسفون على أيام الاضطهاد ، وشعروا بأن الأرض تميد تحت أقدامهم ، وأنه قد تقطعت بهم الأسباب لأن السلطات قد رفضت أن تعتبر المسيحيين اليابانيين شيئا لا يزيد عن طائفة غير ضارة ، كما أنهم شعروا بالتعاسة لأنهم حرموا نعمة الوقوف موقف الشهيد الذى يقاتل فى سبيل إبلاغ الصدق العظيم القائم فى ديانته إلى شعب يتخبط فى دياجير الجهالة .

ولا شك أن موقف الإهمال المتعمد المدروس ، لم يكن فى مصلحة الكنيسة ، كما أن رأى هيئات التبشير المسيحية هو أن زعماء اليابان الحديثة كانوا لا يضمرون الصداقة لتقدم « المسيحية المنظمة » . وكانت هناك عند أهالى اليابان خاصةً مسحة من الامتعاض من موظفى الكنائس ، القومية والدولية على السواء ، حيث كانوا يتخذون لأنفسهم اختصاصات تشريعية محلية ويسمون أنفسهم أساقفة لهذا المكان أو ذاك من الإمبراطورية . وقد أباح اليابانيون لمن شاء كامل الحرية الدينية ، بيد أن المبشرين لم يكن لهم ما كان لإخوانهم بالصين من حقوق الحماية التى كانت تخولهم بالفعل حقوق الولاية على البلاد ، لذا شعروا بالعجز التام ، على حين أن مدعيات كبار رجال الدين وحقوقهم المفروضة كانت تجرح عواطف اليابانيين القومية . ثم إنه حدثت كذلك نهضة كبيرة فى البوذية ، وبخاصة عند طائفة الأميدا ، التى حاولت أن تثبت تفوق مبادئها على المبادئ التى يبشر بها المبشرون . وقد كانت للنهضة العامة للبوذية والديانات الشرقية بوجه الجملة عند نهاية القرن التاسع عشر آثارها فى اليابان أيضا .

وتأثر مستقبل المبشرين تأثرا خطيرا بسبب رقابة الحكومة على التعليم . ولعل

القارئ يذكر أن مضمار النشاط الرئيسى للمبشر فى الهند كان ميدان التعليم . وقد وجهت حمية الأمريكيين بصفة خاصة نحو نشر التعليم العالى ، وذلك على الأقل بعد أن أوضح تيموثى ريتشاردس أهمية ذلك النوع من التعليم كأداة للتأثير على الشباب الصينى فى (١٨٨٥) . ومع ذلك ، فالذى حدث فى اليابان هو أن التعليم كان تحت رقابة قومية ، كما أن موقف المدرسين المسيحيين فى المدارس القومية قد أثار الشبهات منذ (١٨٨٩) نفسها . وهذه النقطة تتضح كل الوضوح فى المقالات التى كتبها إينويووى تتسوچيرو حول « النزاع بين المسيحية والدولة » ، وفيها دخل ذلك الرجل وهو أشهر فيلسوف يابانى فى عصره حومة الخصومة والجدل ليكشف عن الأخطار التى يحتمل أن تنشأ للدولة من تعاليم المسيحية . وقد أدخل المرسوم الإمبراطورى الصادر بتنظيم التعليم ذلك الخطر فى حسبانه بما لا يدع مجالا للشك ،فشدد التأكيد على ضرورة الولاء للنظم القومية والتوقير للإمبراطور ، وأبرز النزاع أمام عين الجمهور بروزا قويا أضر بمصلحة المسيحيين . وقد نقل سانسوم اقتباسا عن أحد كبار المبشرين وهو يصف الموقف قائلا : « لقد بذلت جهود مضنية تكاد تعظم ما سبقها ، بقصد إظهار أن المسيحيين بحكم حقيقة دينهم المجردة إنما هم قوم يتصفون بالعقوق وعدم الولاء . وكان المدرسون بمدارس الحكومة يلزمون بالتخلى عن وظائفهم لعدم رغبتهم فى الانحناء أمام صورة الإمبراطور » . وإن المبدأ الرسمى للدين الشنتوى ليؤكد هذا النزاع . وقد أدت إعادة تنظيم البوذية وتطور حركة التضلع البوذى بالجامعات والكليات منذ (١٨٩٠) وأعمال معلمين كبار مثل إينويووى إينريو وسازوكى ، إلى نهضة تلك الديانة من كل من وجهتى النظر الفكرية والروحية ، وهو أمر أحدث مقاومة فعالة للدعاية المسيحية . وأخيرا انتهى الأمر بأن اختفت إلى الأبد كل إمكانيات تنصير اليابان ، وذلك عندما خرجت اليابان على العالم دولة قوية بعد انتصارها على الصين وإلغاء نظام الامتيازات القضائية .

الفصل الثامن

الهند الصينية وبورما وسيام وأندونيسيا

لقد سار تاريخ المسيحية فى أنام فى طريق يختلف قليلا . فقد حدث حول (١٥٥٠) أن وصل جاسبار دى لاكروا المبشر المسيحى إلى كامبوديا . ويقال أيضا إن بعض اليابانيين المسيحيين قد التجأوا إلى فايفو على امتداد الشاطئ . وقد نزل فيمن نزل من هذه الجماعة الأجنبية عند مستهل القرن السابع عشر إسكندر دى رود من جماعة اليسوعيين وشرع يعمل . بيد أنه عندما حاول أن يعلم الإنجيل للأناميين أظهرت له مقاومة الأهالى والبرتغاليين أن فرص النجاح أمامه ضئيلة جداً ما لم يكن له عون سياسى يعتمد عليه . وقد ظل يعمل فى كوتشين صين مدة ثلاث سنوات (١٦٢٤ — ١٦٢٧) ، بيد أنه يئس من النتائج الهزيلة التى حصل عليها بتبشيره فعاد إلى روما ، مؤملا أن يثير اهتمام الكرسى المقدس بالمغامرة . وأظهرت روما فتورا إزاء اقتراحه ، بيد أن اسكندر دى رود لقى تأييداً حارًّا فى فرنسا ، حيث أخذت « هيئة البعثات الأجنبية » الأمر على عاتقها بكل جد واهتمام . وضم الأب دى رود إليه رجلين ، فرانسوا پاللو ولامول لامبير ، وسرعان ما خرجا معه يحملان لقب الڤيكار الرسولى ويستمتعان بسلطات الأساقفة ، حيث توليا مهام واجباتهما فى تونكين وكوتشين صين . ولما كان كل منهما ڤيكارا رسوليا ، فإنهما كانا يعدان مستقلين عن القاصد الرسولى البرتغالى لبلاد الشرق المقيم فى جوا كما كانا يعملان تابعين للبابا مباشرة . ولم يكن كل من الأب پاللو والأسقف لامبير من رجال الكنيسة المخلصين فقط ، بل كانا أيضا من رجال السياسة المتحمسين . وكانا يريدان أيضا أن يخدما أمتهما فى ثنايا خدمتهما لله . وفى (١٦٦٥) أسس بعض رجال الأعمال فى روان (فرنسا) جمعية لاستخدام القسس لأداء غاية مزدوجة هى التجارة والدين . وبنت الشركة سفينة قامت فى رحلتها البكر بحمل الأسقف لامبير وقسيسين معه . وقد وجه إليهم الهولنديون التهم واستنكروا أعمالهم ، إذ رأوا فى تدخلهم هذا تهديدا لتجارتهم ، إلا أن ملك البلاد « ترنه ترانج » اقتنع بأن فوائد عظيمة ستعود عليه من التجارة مع الفرنسيين ، ومن ثم حصل الأسقف متنكرا فى ثياب التجار على حماية الملك له .



الأب م . ريكي



آدم شال

وتتجلى الأهداف الخفية لنشاط البعثة بوضوح تام من خطاب بعث به الأب باللو إلى كولبير وزير لويس الرابع عشر . وقد أشار باللو أن لامبير قد حصل من عاهل تونكين على إذن لاثنين من زملائه ، كانا متنكرين فى ثياب التجار بأن يمكثا هناك ويشيدا بيتا فى موقع مناسب . « إنى أرجوك يا عزيزى من أجل خير العقيدة ومن أجل شرف ومجد أشد الملوك مسيحية أن تقنع المديرين أن يعطونا كل ما يلزمنا من مال لإنشاء مصنع بهذه المملكة » . ومنذ تلك اللحظة صار الربط بين نشر المسيحية والتجارة مظهرا بارزا وفريدا لنشاط البعثات بالهند الصينية .

ولم يستطع الأب باللو نفسه الوصول إلى تونكين إلا فى (١٦٨٢) . على أن ملوك تونكين لم يظهروا أية رغبة فى الترحيب بنشاط المبشرين ، وإن أظهروا استعدادا لتشجيع التجارة مع فرنسا . ولكن النتيجة كانت فشل كل من التجارة والدين ، وكان فشل الأولى راجعا إلى عداء الهولنديين ، الذين دمروا المصنع الفرنسى فى تونكين وصادروا كل ما يملك ، وفشل الدين بسبب قلة اهتمام الأهالى المحليين . ومع أن المراكز التجارية قد دمرت ، فإن المبشرين وبخاصة التابعين منهم « لهيئة البعثات الأجنبية » وجمعية اليسوعيين واصلوا عملهم بالمنطقة . غير أن الإجراءات الشديدة التى ضربت على المتنصرين والتى نشرها ملوك أنام فى ذلك الحين نفسه ضيقت الخناق على نشاطهم . ومع ذلك فلم يلبث الارتباط بين الدين والتجارة أن عاد سيرته الأولى بعد فشل فرنسا فى محاولتها الأولى تأسيس إمبراطورية بأسيا ، عقب حرب السبع سنوات بأوربا . وهناك مذكرة قدمها شارل توماس دى سانت فاللو توضح أن : « التجارة ستكون ذات نفع عظيم للبعثة التى تتكون بالفعل من مئتين أو ثلاثمئة نفس . فالتجارة ستنقص بالتدريج من شدة المراسيم المضادة للدين ، التى تعوق عمليات التنصير بهذه المملكة . . . ومما هو فى الدرجة الأولى من الأهمية أن يتوخى عند الاستخدام توفر شرط الحصافة فى الأفراد الذين سيكونون على صلة دائمة بالأساقفة والفيكارين الرسوليين » . ونظرا لما كان يسود البلاط الفرنسى من منافسات ، لم يكن من الممكن التقدم بالمنهج المرسوم تقدما فعالا ، ولذا فإن مصلحة فرنسا الدينية والتجارية ظلت تقاسى المضرة حتى أخذ بنيودى بيهين أسقف أدران يوجه اهتماما إلى مسرح السياسة بالهند الصينية .

وقد عين بنيودى بيهين أسقفا لأدران وهو فى الثلاثين من عمره ، وأرسل إلى الهند الصينية وهو فى الثالثة والثلاثين بوظيفة ڤيكار رسولى . واستطاع الأسقف أن

يؤدى خدمات عظيمة للملك تونكين ، وهو يومئذ شريد لا مأوى له . ولكى يحسن بنيودى بيهين رعاية مصلحة المستجير به ، ذهب إلى فرنسا وتفاوض معها فى معاهدة بين الطرفين ، وعدت فرنسا فيها بمساعدة الملك . ولكن الوعد لم ينفذ، وسخط الأسقف لهذا الخداع ، فجهز حملة على نفقته الخاصة وساعد الملك على استرداد عرشه . ولكن هذا الأسقف المحارب قضى نحبه فى ساعة نصره . وكان يرجو أن يستطيع بنفوذه بعد إرجاع الملك ، أن يهيئ لبلاده مركزا قويا متسلطا فى تونكين . ولكن فرنسا كانت فى حالة غير مستقرة حيث بدأت مغامرات نابليون فى قارة أوربا ، ولذلك لم يقم أحد بأى عمل حتى عودة أسرة بوربون إلى العرش . وعندئذ اكتشف القوم أن منج مانج الإمبراطور الجديد لم يكن يعطف على النشاط المسيحى . ففى يناير (١٨٣٣) أصدر ذلك الملك مرسوما يقضى بعقوبات شديدة على المبشرين ثم حاول فى مرسوم آخر أن يقى شعبه من التنصير ، فكل قسيس يعثر عليه فى سفينة صينية أو وهو يحاول النزول إلى البلاد سرا يكون جزاؤه الإعدام ، وكذلك جعل الإعدام جزاءً لمن يمنحهم المأوى .

وقد أتاحت هذه الإجراءات لفرنسا التى تدعى لنفسها حق حماية العقيدة الكاثوليكية ، الذريعة الضرورية لإرسال الحملات التأديبية على البلاد . فقد اعتقل خمسة قاصدين رسوليين فى هويه ، وأرسل الفرنسيون سفينة مسلحة لتنفيذ مطلب إطلاق سراحهم بالقوة . وقد صرح الدوق حفيد مينج مانج تصريحا فى يوليه (١٨٤٨) أعلن فيه صراحا أن : « من الواضح البين أن دين يسوع الذى منعه من قبل الإمبراطوران منج مانج وثيين ترى إنما هو دين منحرف . . . وبناءً عليه سيرمى فى عرض البحر بأنصار هذا الدين من الأوربيين » .

وكانت هذه الاتهامات العدوانية ذريعة اتخذها نابليون الثالث للتدخل العسكرى. ومع أن البلاد أخضعت ، ولم تلبث حتى أنزلت رويدا رويدا منزلة المستعمرات وشجع المبشرون فى أعمالهم ، فإن التنصير لم يسر إلا ببطء شديد . ففى بداية القرن العشرين فيما يقول أحد الثقاة ، لم يكن لأعمال المبشرين أى أثر قوى ضخم بعد اثنين وأربعين عاما من استيلاء الفرنسيين على البلاد . وكانت هناك بأنام وكوتشين صين ثلاث كليات تابعة للكنيسة ، عدد طلابها ٢٢٧ طالبا . . . . وكان تأثير

المسيحية أضعف من هذا أو يكاد فى المناطق الأخرى * .

وكانت « لهيئة البعثات الأجنبية » مزارع ضخمة وامتيازات خاصة ، كما كان لها عدد كبير من المبشرين تتولى الإنفاق عليهم ، ولكن الذى حدث هنا كان هو الذى حدث فى كل مكان ، حيث فشلت المسيحية تحت رعاية التوسع الإمبراطورى فى اجتذاب العقل الأسيوى إليها .

وما يحتاج نشاط المبشرين فى سيام وبورما وأندونيسيا أية معالجة خاصة ، لأنها لم ترزق مطلقا نسبا عالية بتلك المناطق . فآباء « هيئة البعثات الأجنبية » الذين بلغوا سيام ، لم يجدوا إلا فرصا ضئيلة لنشر عقيدتهم ؛ وذلك لأن إيمان ملوك سيام المتين جعل من العسير التبشير علنا ضد عقيدة الدولة . ولم يختلف الموقف فى بورما كثيرا عن ذاك فى وقت إلحاقها بالهند . وفى كل من سيام وبورما أدت قوة الكنيسة البوذية إلى إضعاف الفرص أمام نشر الكفر نشرا متسع النطاق . وحدث أيضا فى بورما على سبيل الاستفادة بالخبرة التى مرت بالهند ، أن جنح المبشرون إلى تركيز نشاطهم بين القبائل المتأخرة . وقد لقوا بعض النجاح بين قبائل الكارن ، وبفضل الرعاية التى كانت تظلل المبشرين فى وقت من الأوقات ، كان يبدو فى بعض الأحايين أن خطر تحويل الشعب كله إلى المسيحية كاد يتحقق . ومع أن ذلك لم يحدث فى الوقت الذى جاءت فيه نهاية الحكم البريطانى ، فإن المبشرين أظهروا عطفا كبيرا على النزعة الانفصالية التى أبدتها قبيلة الكارن ، ومن ثم فإن قدرا غير قليل من المتاعب التى واجهتها بورما بعد استقلالها يمكن بحق أن ينسب إلى العطف الذى كانت تلقاه العناصر المسيحية من الكارن فى بلاد الغرب .

فأما أندونيسيا فقطر رفرفت عليه راية الإسلام ، ولذا فإن نشاط المبشرين كان شيئا لا وزن له بعد الجهود الأولى التى أنفقها البرتغاليون ، وبخاصة تلك التى قام بها فرانسيس زاقيير . وفى المدة الأولى التى كان الإسلام ذاته يحاول امتصاص القبائل الوثنية الضاربة فى داخلية البلاد ، تجلت عندئذ منافسة بين العقيدتين ملحوظة .

---

* اقتبسه توماس إ . إنس : « French Policy & Development in Indo-China » شيكاغو ، ١٩٣٦ ص ١٦٧ .

ولكن النصر كان فى هذا المعترك حليفا للإسلام دون أدنى ريب . وكما شهدنا من قبل كان أهم عامل فى تاريخ أندونيسيا إبان القرنين السابع عشر والثامن عشر هو عامل نمو الإسلام وتطوره .

الفصل التاسع

اضمحلال جهود التبشير بالهند

كانت الهندوكية قد أصبحت عند بداية القرن العشرين وبعد انتعاشها المدهش أثناء السنوات الخمسين السالفة ، فى حالة استعداد للهجوم . فلم يعد نشاط البعثات التبشيرية يخيف بعد ذلك زعماء الهندوكية ، كما أنهم كانوا إلى حد محدود على استعداد لحمل المعركة إلى داخل معسكر الأعداء . وبدأ زعماء الحركة الدينية الهندوكية يظهرون حتى فى أمريكا نفسها ، حيث أسست بعثة راماكرشنا بضع مراكز لها . فأما فى الهند نفسها ، فإن المبشرين أحسوا بالأرض تميد تحت أقدامهم ، ومع أنهم دأبوا بضع سنين على التزيد من نشاطهم التعليمى ، إلا أن شعور الوطنية النامى والقوة العارمة التى كانت الهندوكية تستجيب بها ، لم يتركا أمامهم إلا فرصة ضئيلة للنجاح .

ومما تجدر ملاحظته أن زعماء القومية الكاملة بالهند عند بداية القرن كانوا هم أنفسهم من أشد أنصار الهندوكية الجديدة قوة . وكان بال جانجلادهار تيلاك هو المعقب على كتاب الجيتا ، وكان من أعظم ما أسهم به للقومية الوطنية ، تفسيره لتعاليم ذلك الكتاب المقدس بلغة الحياة السياسية العصرية . وكان راجبات راى الشهير باسم أسد البنجاب ، أحد زعماء جماعة آرياساماج ، تلك الطائفة الهندوكية العسكرية المتطهرة التى ساعدت على تقوية المجتمع الهندوكى وإنعاشه بشمال الهند . وكان أوروبندو غوش وجماعته من الوطنيين العدوانيين بالبنغال من أشد الهندوك غيرة وحمية ، كما أن أوروبندو نفسه لم يزل حتى أصبح نبى نهضة دينية وفلسفية . وفى الجنوب نفسه ، وعلى الرغم من الدعاية المسيحية القوية نوعاً ما ومن عمليات التنصير الكثيرة إلى حد ما بين من كانوا يسمون بالأنجاس ، لم يستطع أحد أن يتحدى هناك الهندوكية السليمة تحديا جديا أبدا » .

ولما أن اندلعت الحرب العظمى الأولى زاد مركز المبشرين ضعفا . وبغض النظر عما ترتب على ذلك الصراع من زوال هيبة الغرب وزوال كرامة المسيحية معه من زمن بعيد، فإن نمو الروح الوطنية التى لم تعد بعد مجرد حركة مقصورة على الأذكياء

والمفكرين من الناس ، قد أثر فى مستقبل التبشير والمبشرين تأثيرا عكسيا . وبدأ زعماء المسيحيين بالهند أنفسهم يحسون أن شدة ارتباطهم بنصحائهم الغربيين وشدة ابتعادهم الواضح عن أبناء وطنهم ، لن يعود عليهم بعد ذلك بأى منفعة . وبدأت المسيحية تبدى اهتماما بالثقافة الهندية ، كما أن سلسلة الكتب القيمة التى ظهرت بعنوان « تراث الهند » ، تحت رعاية المجلس القومى المسيحى بالهند هى أول آية على ذلك الموقف المتغير . وقبل ذلك كانت النساء المسيحيات قد عمدن رغبة منهن فى إظهار انفصالهن عن مجتمعهن إلى نبذ ارتداء « السارى » ولبس لباس عجيب كان يجمع بين الشرق والغرب . وقد تخلين عن هذه العادة بهدوء ، وأصبحت من ثم الحركة المتجهة نحو التمشى مع العادات الهندية العامة ملحوظة إلى حد أن السيدات الهنديات كن يضعن فى المجتمعات علامات على الجبين كانت تعد من قبل من العادات الهندوكية . والحق إنه عند بداية العقد الثالث من القرن العشرين كان المجتمع المسيحى نبذ فى الغالب هيمنة المبشرين عليه .

وفضلا عن ذلك فإن الزعامة التى انعقدت للمهاتما غاندى أثناء تلك الفترة ، وتسلطه على العقل الهندوكى تسلطا لا يكاد يتحداه فيه أحد ، قد أدى أيضا إلى تقوية الهندوكية إزاء الهجوم المسيحى عليها . وبعد أن أدرك المبشرون أن مسعاهم لدى الطوائف المفكرة قد أخفق ، قنعوا بتركيز جهودهم على المجتمعات التى كانت تعرف آنئذ باسم الطبقات المهيضة . وكانوا يرجون أن يدفعوا عجلة التنصير بينهم بقوة جارفة . بيد أن حركة المستر غاندى قد أقفلت فعلا كل باب حتى ذلك الباب الوحيد يوم جعل النجاسة والأنجاس من الاتجاهات الرئيسية لنشاطه . ومع ذلك فكثيرا ما كانت آمال المبشرين تنتعش ، كما حدث مثلا عندما صرح الدكتور بهم راو أمبدكار زعيم طوائف الأنجاس ، وكان حينا طويلا من الدهر موضع التفات هؤلاء المبشرين — فى لحظة من لحظات الغضب الجامح — بأنه سيقود قطيعه نابذا الهندوكية . ولكن سرعان ما هوت تلك الآمال إلى الأرض وتحطمت . وكانت نتيجة ذلك أنه عندما حان إعلان استقلال الهند ، كان عمل المبشرين قد زالت عنه أهميته من وجهة النظر الدينية .

وربما جاز لنا أن نذكر مع ذلك أنه حدث أثناء فترة النهضة القومية العظيمة ،

أن لم يكن بالهند أى شعور معاد للمسيحية . بل الواقع أن كثيراً من أتقياء المسيحيين مثل القس س . ف. أندروز كانوا يشاركون المهاتما غاندى عمله . وكانت للمهاتما علاقات وثيقة بزعماء جمعية الأصدقاء وبكثير من المبشرين « التقدميين » مثل ستانلى چونز وچون موط وغيرهما . والواقع أن زعماء الهندوك فى القرن العشرين ، كانوا — مهما يبد ذلك فى نظر القارئ عجيبا — مقتنعين اقتناعا راسخا بتفوق معتقداتهم وسلامتها ، ولم يكونوا يحسون إزاء التعاليم المسيحية إلا بشيء من الاهتمام الخير المتسامح . وقد تعلم كاتب هذه السطور نفسه أولا بإحدى المدارس الثانوية التابعة لجمعية المبشرين المسيحية *، ثم تعلم بمدرسة سانت بول كما تعلم أيضا مدة قصيرة بكلية مدراس المسيحية ، ولكنه يؤكد هو وطلبة كليات المبشرين المسيحية ، فضلا عمن تعلموا من أبناء جلدته بالأقطار الأوربية ، أنهم لم يكونوا يحسون بأى اهتمام خاص نحو أخلاقيات المسيحية ولا غيبياتها ولا معتقداتها .

ومن أمتع الأمثلة على هذا الاهتمام المعتدل المتسامح بالمسيحية ما كتبه كثير من الهندوك الوطيدى العقيدة فى موضوعات دينية مسيحية . وقد كتب كاتب هندوكى تعليقاً على إنجيل يوحنا حاول أن يفسر به ذلك الإنجيل تفسيرا هندوكيا . وألف ڤاللاثول أمير شعراء مالايالام ، ومترجم الرامايانا ، قصيدة أيضا عن مريم المجدلية ، بسط فيها المبادئ المسيحية فى ضوء ثروة زاخرة من الأخيلة الهندوكية . وكتب كاتب هندوكى عملا دراميا عظيما عن آلام المسيح فلقى إعجابا عظيما وعد من خوالد القطع الأدبية . والواقع أنه حدث أثناء الثلاثين سنة الأخيرة أن الهندوكية وقد عرفت مناعة موقعها واستعصاءه على كل هجوم ، قد بسطت نحو التعاليم المسيحية جناح التسامح والتفاهم .

ثم بدأ من ينفقون أموالهم بسخاء فى أوربا وأمريكا على أعمال المبشرين يحسون رويدا رويدا ، أن نشاطهم لم يؤد إلى أية نتائج مرضية : وأنهم قد باءوا بالفشل من هجومهم على أديان الشرق . واجتمعت لجنة من العلمانيين أخذت تبحث تلك المسألة بالنيابة عن المجلس الأمريكى ، حتى وصلت إلى نتيجة محزنة ، هى أن احتمالات ضم الهندوك إلى المسيحية لم تكن مشجعة جدا . وكانت كنائس إنجلترة

* Christiain Missionary Schools (C.M.S.).

قد استيقظت منذ مدة على هذه الحقيقة الكريهة ، كما أنها نظمت وشجعت ببطء وبلا تظاهر الحركات الهادفة إلى إنشاء كنيسة وطنية بالهند . ثم عمدت الكنيسة الكاثوليكية التى كانت تقدر الموقف تقديرا أكبر ولم تضللها الدعاية ، إلى تكييف عملها بحيث اقتصر على العناية الروحية بالمسيحيين دون أن تشدد التأكيد على نواحيه التبشيرية — ولا يخفى أن الدستور الهندى قد منح جميع المواطنين الهنود حرية العبادة :

الفصل العاشر

اضمحلال التبشير بالصين

لئن حدث فى الهند أن المبشرين المسيحيين اكتشفوا فى العقد الثالث من القرن العشرين أن جهودهم المتقطعة التى دامت أربعة قرون لم تؤد إلى نتائج لها أى قدر ، فرضوا لأنفسهم من ثم ذلك المركز ، فلقد كان الحال فى الصين مختلفا عن ذلك جدا . ذلك أن الصين كانت لا تزال تبدو لأعينهم فى صورة الفراغ العظيم الذى يبدو فيه عمل كل شىء مناسبًا . فلم تكن هناك حكومة قوية كالتى تقوم فى اليابان ، ولا ديانة قوية منظمة مكينة القرار كالتى تقوم بالهند أو سيام أو بورما . وكانت الظروف السياسية هنا عونا للمبشرين ، كما أن الفوضى التعليمية كانت تفتح فى كل آن أمام جهود المبشرين دروبا جديدة . وقل من الناس من أدرك الأهمية الحقة لحادثة البوكسرز . والواقع أنه عندما أخمدت الثورة ، أزيل أيضا آخر عائق يحول دون تنصير الصين — وهو جعل التعيين فى الوظائف حكراً لمن ينجحون فى الامتحانات الإمبراطورية — فإن إحدى فقرات البروتوكول الذى سوّى مسألة البوكسرز كانت تنص على أن توقف لمدة خمس سنوات امتحانات الخدمة المدنية ، وهو وضع كان المقصود منه كما قال مؤرخ المبشرين الشهير « تمهيد السبيل لثورة تعليمية لابد أن تمنح البعثات التبشيرية فرصة من أعظم ما أتيح لها من الفرص * » . والواقع أن الصين قد جعلت مكانا آمنا للمبشرين بوجه خاص .

وبطبيعة الحال لم يستطع المبشرون أن يدركوا مشاعر الصينيين أنفسهم ، وكان الذى يراه الصينيون أن وعاظ الدين كانوا ينتهزون الفرصة للانتفاع بمذلة الصين ، كما كانوا يصيحون بأعلى أصواتهم مطالبين بالانتقام مناقضين بذلك كل النواميس المسيحية . ولم يكن مما يزيد من مكانة المسيحية بالصين علوا ، أن يظلل المبشرون بحمايتهم كل ناهب مسيحى ، بل أن يستخدموا هم أنفسهم بلا تورع ممتلكات منهوبة . فلئن حدث أثناء السنوات القليلة الباقية من دولة المانشو أن أقعد العجز الصينيين عن إظهار غضبهم وإشعار من حولهم بكراهيتهم لنظام التبشير ، فإن من الخطأ الظن بأن إحساسهم بذلك الضيم كان أقل مما يبدو أو لم يكن يغذو بلبانه

* لاتورت ص ٥٢١

السامة ما يعتلج فى قلوبهم من الأحقاد . ومن دلائل اتجاه الصينيين الذى نشير إليه عدد الشباب الذين كانوا يفضلون إتمام دراستهم فى اليابان على إتمامها بالأقطار الأوربية .

ولما أن سقطت أسرة المانشو ، انتعشت آمال المسيحيين كرّة أخرى . ألم يكن صن يات سن مسيحيا يعترف علانية باعتناقه لذلك الدين ؟ وهؤلاء المبشرون البروتستنت الذين كانوا يريدون أن يشيدوا بنيانهم على الشعور الوطنى الصاعد ويتخذوا منه رأس مال لهم ، ألم يظهروا اعتناقهم لمذهب التحرر ويناصروا زعماء الثورة ؟ على أن صن يات سن قد أظهر فى هذه المسألة أنه قصبة مهشمة . إذ أنه سرعان ما أظهر أنه أشد اهتماما بعظمة الصين ومصلحتها منه برفع شأن المسيحية . ولا تسل عن خيبة الرجاء التى أحسها صن إزاء موقف الدول المسيحية الغربية ، ولا عن التأثير الذى أحدثته فيه ثورة أكتوبر ، فإنهما أمران لم يزيداه إلا بعدا عن المبشرين الذين يبدو أنه كان يشخص إليهم فى إحدى اللحظات منتظرا منهم العون . وفضلا عن ذلك فإن الرأى العام بالصين كان يسير بسرعة عظيمة . ذلك أن الاضطرابات التى كانت تفور على المعاهدات غير المتكافئة وعلى التوسع الاستعمارى وعلى امتيازات الأوربيين وسلطاتهم ، قد كان لها هى الأخرى أثرها على مركز المبشرين . وكان المد المتصاعد للوطنية معاديا للمسيحية هو أيضا ، كما أن « المد الجديد » الذى كان يعبر عن روح الصين الفتاة ، كان يتسم أساسا بسمة مناهضة للأديان . لقد كان المبشر « عميلا وبيلا للتوسع الاستعمارى الأجنبى » ، كما أن زعماء الثورة الذين كانوا يعلنون صراحة أنهم من اللا أدريين كانوا ينظرون إلى المسيحية بوصفها « خرافة معوقة للعقل كان العلم يحرر من قبضتها أكثر رجال الغرب استنارة ، ويحسن بالصين أن تتجنبها » . ولقد كان جميع زعماء الفكر فى حركة ٤ مايو من المتشككة ولم تكن المسيحية لديهم إلا مظهرا آخر من مظاهر الخرافات ، تتزيا لهم هذه المرة فى زى أجنبى . وكانت جمعية الصين الفتاة التى تأسست فى بيكين عام (١٩٢٠) بزعامة رجال صاروا فيما بعد من المشاهير ، تقصر عضويتها على شبان يصرحون بكل تأكيد أنهم ليسوا على أى دين . ومن جهة أخرى لم يلبث الشعور العميق المضاد للمسيحية أن أظهر نفسه ، ولم يكن الزعماء

فى هذه المرة رجالا جهلة متحيزين قد أعماهم الهوى ، بل كانوا بوجه خاص من طلبة المعاهد المسيحية . وفى (١٩٢١) شهدت شنغهاى تأسيس اتحاد مضاد للمسيحية أكد فيما أكد من حجج ومجادلات ، مسألة كانت تعد لدى معظم الصينيين من المسائل البديهية : — وهى أن المسيحية حليفة الرأسمالية والتوسع الإمبراطورى وأنها أداة لاضطهاد الشعوب الضعيفة . وكان تأثير ثورة أكتوبر ظاهرا بوضوح فى هذا التصريح . وأسس طلبة الجامعة فى بيكين الاتحاد المناهض للأديان وجعلوا له فروعا فى كثير من المدن الإقليمية ، وهى بدورها موجهة بصفة رئيسية ضد المسيحية .

ونشرت تلك الهيئة قدرا عظيما من المؤلفات ، وظهرت مئات من النشرات تشرح من جديد، وبقوة عارمة ، قصة نمو أعمال المبشرين تحت حماية الامتيازات القضائية واتخاذها مطية لاستغلال الرأسماليين للصين ، ومطالبة الهيئات التبشيرية بالتعويضات وتدخلهم فى الشئون القضائية والسياسية . وأصبح من التهم الخطيرة الموجهة إلى المبشرين أنهم كانوا يستفيدون من ضعف الصين وكانوا فى كثير من الأحوال يعتمدون على حماية القناصل لهم . ومما زاد الدعاية الجديدة حدة وقوة ، أن المبشرين كانوا على الجملة مع بعض استثناءات جديرة بالذكر لا يولون الثقافة الصينية أى تقدير ، وأن المتنصرين كانوا بدورهم وقد ربوا على تقاليد أجنبية ، برابرة من الدرجة الثانية * .

ولم يلبث الصينيون أن أدركوا أن المبشرين كانوا يعلقون أهمية كبرى على المدارس بوصفها المصدر الذى يزودهم بالفرصة اللازمة لتقويض المجتمع الصينى من أساسه ؛ ذلك أن زعماء المسيحيين لم يكونوا يكتمون ذلك السر عن أحد مثلما لم يكتمه ماكولى ببلاد الهند . ولم يكن بد لأى حركة قومية من أن تتناول هذه المسألة . وسرعان ما أصبح مركز مدرسة المبشرين مصدراً للمتاعب . وقد وافق المؤتمر السنوى الخامس لجمعية الصين الفتاة فى (١٩٢٤) على قرار يصرح بأن المجتمعين « يعترضون بشدة على التعليم المسيحى الذى يدمر الروح الوطنية لشعبنا ويقوم ببرنامج

---

* تانج ليانج لى فى : « الصين فى ثورتها China in Revolt » .

ثقافى لكى يقوض الحضارة الصينية» * . وأخذت صيحة جميع الهيئات الوطنية تتعالى بالمطالبة بتسجيل جميع معاهد (المبشرين) الأجنبية — وأصبح « إرجاع الحقوق التعليمية » شعارا يماثل إلغاء المعاهدات غير المتكافئة . وخضعت حكومة بيكين للغليان القومى ، وفى ١٦ نوفبر ١٩٢٥ أصدرت تعليمات تنظم الرقابة على المعاهد التعليمية الأجنبية . وأصدرت حكومة كانتون تعليمات أشد من تلك .

ولم يحدث قط أن واجهت هيئات التبشير أزمة أخطر من هذه (ولا حتى أثناء فترة حرب البوكسر) إلا أثناء فترة الجيشان الوطنى بالبلاد — وهناك فارق هام بين الاضطهادات السابقة وبين الأزمة التى قامت فى ١٩٢٥ — ١٩٢٧ هو أن الصينيين المسيحيين أظهروا أشد الاهتمام أن لا يعتبروا كالعادة « برابرة ثانويين » — ولا « كلاب لاهثة » وتابعة للمبشرين ، ومن ثم انضموا على وجه الجملة للحركة . وهكذا يتجلى أنه بغض النظر عن ألوان العنف الفردى المتناثر هنا وهناك التى تعرض لها المبشرون ومعاهدهم ، نشأ موقف داخلى خطير رأى فيه المبشر الأجنبى أنه قد تخلى عنه أتباعه النصارى الصينيون . وكان المزاج القومى للبلاد يجعل من المحال على المسيحيين المتعلمين أن ينضموا إلى المبشر الذى كان أجنبيا ، وخاصة إذا كان ذلك الأجنبى يدعى لنفسه امتيازات خاصة بحكم قوانين الامتيازات القضائية ، وكان يعارض المطالب الصينية الوطنية بل كان يأبى على الصينيين تولى الرياسات فى كنيسة بلادهم الخاصة . لقد كان جلياً لكل ذى عينين أن أيام البعثات التبشيرية كانت معدودة .

لقد كانت هيئات التبشير المسيحية تنعم بصيف دافئ كصيف الهند أثناء مدة الحرب مع اليابان ، يوم كان تشيانج كاى شك وحكومته يعتمدون اعتمادا كبيرا جدا على العون الأمريكى والبريطانى . ولكن كان هناك إلى جوار الرعاية التى أضفاها الكومنتانج على الهيئات التبشيرية تطورات واختمارات تجرى فى الكونفوشيوسية بإرشاد تشن كيو فو وأخيه تشن لى فو الأذيع صيتا ، وهى الحركة المسماة بالكونفوشيوسية الجديدة التى وجدت لسانا يعبر عنها هو الكتاب الذى ألفه تشيانج نفسه

* وانظر كتاب « التعليم المسيحى الصينى Chinese Christian Education » . وانظر فيليب دى فارجاس فى « الكتاب السنوى للبعثة التبشيرية الصينية China Mission Year Book » ١٩٢٥ .

بعنوان « مصير الصين » . وفوق هذا ، فعلى الرغم من أن أحدا لم يتدخل فى شئون المبشرين ، كما أن كلياتهم وجامعاتهم كانت غاصة بالطلاب أكثر من أى يوم مضى ، فإن أحداث الرجوع عن النصرانية حتى بين من عمدوا بالمدارس أو من ولدوا من والدين مسيحيين كانت كثيرة ملحوظة إلى أقصى حد . وكف كثير من الذين تسموا بأسماء مسيحية وجميع مشاهير الزعماء فى الجيل الجديد ، وإن انطبعوا بالطابع الغربى فى كثير من نواحيهم ، كفوا ولو بصفة رسمية عن الدينونة بالمسيحية ، ولو كانوا عمدوا بالمدارس . والواقع أنه أصبح من الجلى تماما حتى إبان حكم تشيانج كاى شك « المسيحى » أن الصين كميدان عظيم لبعثات التبشير المسيحية كانت فى الواقع سرابا خادعا كالهند واليابان سواء بسواء . وكان الفارق الوحيد هو أن المقاومة الناجحة التى أبداها المجتمع الهندوكى للعدوان التبشيرى فى القرن التاسع عشر وأعمال اليابان التى منعتها منعا باتا ، قد ساعدت على صون تماسك التكوين العضوى لوطنيهما ؛ وذلك على حين أن ما حدث بالصين من تقويض منظم للروابط الاجتماعية على مدى خمسة وسبعين عاما من أعمال المبشرين تحت حماية الدول الاستعمارية ، قد أدى إلى ثورة ١٩٤٨ . وبهذا المعنى تقع بعض تبعة ما حدث بالصين بعد الحرب اليابانية الصينية على عاتق المبشرين ، لأنهم زعموا بجهالة أنهم لو زرعوا بذور الفوضى بالصين ، لاستطاعت المسيحية أن تستفيد من الموقف وتفتح للمسيح أعظم مجتمع فى العالم . وقد وفقوا فيما رموا إليه من أحداث الفوضى الاجتماعية ، ولكن غيرهم جنى الثمار .

الفصل الحادى عشر

إخفاق هيئات التبشير المسيحية

يحسن بنا أن نختم هذا الاستعراض ببضعة ملاحظات على أسباب فشل النشاط التبشيرى بآسيا . ولا يكاد يستطيع أحد أن ينكر أنه على الرغم من الجهد الهائل المتواصل الذى أنفقته الكنائس بمساعدة الجمهور العلمانى فى الأقطار الأوربية وأمريكا ، فإن محاولة فتح آسيا باسم المسيح قد فشلت فشلا قاطعا . وفى بلاد الصين ، حيث كان الجهد شديد التركيز والظروف تبدو فى وقت من الأوقات موائمة بوجه خاص ، كان الانهيار على أتم صوره ؛ ومع أن عددا صغيرا من الناس لا يزال يدعى أنه مسيحى ، فإن نشاط الأوربيين فى التبشير قد انقطع انقطاعا تاما . ولا تزال الكنيسة المسيحية موجوده بالهند إلى يومنا هذا ، كوجودها فى جميع الأوقات منذ أيام المسيح ، بيد أن أعمال التبشير قد أصبحت غير ذات وزن ، إلا فى ميدانى التعليم والخدمات الطبية . فأما فى الأقطار الأخرى كاليابان وسيام وبورما ، فلم يكن المستقبل يبشر المبشرين بأى رجاء حاو ، حتى إذا أبرزت العواطف القومية نفسها وانتعشت الديانات الشرقية ، أصبح المستقبل أشد حلوكة .

ومع أنه لم يكن هناك أدنى أمل إلا فى عقول المتعصبين الذين أعماهم التعصب — فى أن يتخلى الهندوك أو البوذيون عن عقائدهم ويتقبلوا العقيدة التى جلبها إليهم التاجر والفاتح الأوربى ، فإن نجاح البعثات لم يكن بحاجة أن يكون على تلك الضآلة الشديدة وقلة الشأن لولا عوامل معينة لعل من المناسب أن نبحثها هنا . ففى المقام الأول ، كان المبشر يحضر إلى البلاد وعليه سيماء التفوق الخلقى والاعتقاد بتقواه وبره وصلاحه التى ليس لأحد مثلها . وظلت هيئات التبشير تبشر حتى النهاية (مع افتراض حسن النية طبعا) بما قاله وليم ربرك لباطوخان : « ليكن معلوما لديكم أنكم بكل تحقيق لن تنالوا مسرات السماء حتى تصبحوا مسيحيين ، وذلك لأن الرب يقول « من آمن وعمد نجا ولكن من آمن لن يعذب » .

ومذهب احتكار الصدق والوحى مذهب غريب كل الغرابة على العقل الآسيوى . فالهندوكى الذى يؤمن أن جميع طرق الخير توصل إلى الله ، والبوذى الذى يعلم أن ممارسة الطريق النبيل « المثمن الجوانب » ستصل به إلى مرتبة الكمال ، يريان أن ادعاء أتباع أية طائفة بأنهم وحدهم يملكون الصدق ، وأن غيرهم — ممن لا يخضعون له — لابد أن يلقوا العذاب ، كان رأيا يبدو على الدوام سخيفا وغير معقول .

والواقع أن كل آسيوى متعلم حاول أن يدرس الأمر جديا ومستهديا بضميره لكى يفهم وجهة نظر المبشر ابتداء من الإمبراطور كانج هسى إلى المهاتما غاندى ، قد أكدوا جميعا هذه النقطة .

وثانيا : — كان ارتباط التبشير المسيحى بالتوسع الإمبراطورى فى المدة بين عهد البرتغاليين حتى نهاية الحرب العالمية الثانية سببا فى دخول معقدات السياسة ومنازعاتها فى حومة العمل المسيحى . ولعل القارئ لم ينس بعد ما حدث بالصين خاصة حيث جاء الجهد المسيحى فى أعقاب معاهدة تيان تسن ، فكان من ثم يستذرى بالامتيازات القضائية بل كان يعينه فى غالب الأحيان زورق المدفعية والضغط السياسى . فلم يكن للشعور الوطنى محيص من أن يعد نشاط المبشرين عملا عدائيا نحو مصلحة بلاده ويعتبر المسيحيين الوطنيين « برابرة ثانويين » .

وثالث هذه العوامل أن الإحساس بالتفوق المسيحى فضلا عن الأوربى ، ذلك الإحساس الذى كان المبشرون يكررونه — ولعلهم كانوا يكررونه عن غير وعى — كان له هو أيضا آثاره . وفى غضون القرن التاسع عشر كان من المعتقدات الواسعة الانتشار فى الغرب الاعتقاد بالتفوق العنصرى للأوربيين واعتباره عاملا مستديما فى تاريخ البشرية . وكان المبشر يعتقد هذا الاعتقاد بطبيعة الحال . لذا لم يكن يقتصر فقط على التبشير بأن التعاليم المسيحية هى الصدق الوحيد ، بل كان يدعى أيضا أن الثقافة الأوربية هى الثقافة الفذة الفريدة . ولم يكن فى الإمكان تجنب ذلك الحال ، خاصة وكان لابد لقدر كبير من نشاط المبشرين أن يتم فى حقل « التعليم الغربى » . فكانت كليات المبشرين تعلم الطلبة الأدب الأوربى ، والتاريخ الأوربى، وتعلن على الملأ أمجاد الفلسفات والثقافات الأوربية . والشىء العجيب الذى تجلى آنذاك بآسيا ، هو أنه حتى فى أيام التفوق الأوربى السياسى الذى لا يتحداه أحد ،

لم يكن شعب من الشعوب الآسيوية ليعترف مخطئا كان أم مصيبا بتفوق الغرب الثقافى . وبدلا من أن تساعد معاهد المبشرين الثقافية على تأييد قضية العقيدة المسيحية ، إذا هى لا تؤدى إلا إلى جعل التبشير المسيحى فى أذهان الناس مرادفا « للعدوان الثقافى الأوربى والأمريكى » .

وأخيرا ربما أمكننا أن نؤكد أيضا أن كثرة عدد الطوائف المسيحية ابتداءً من الكنيسة الكاثوليكية إلى الأدفنتست* السبتيين وكلها تحصى على الأخرى أخطاءها وخرافاتها وتعلنها على الناس قد عادت بطبيعة الحال على جهود المبشرين بالخبال . هذا إلى أن زيادة الإلحاد بأوربا فى القرن التاسع عشر والأزمة التى انعقدت فوق الحضارة الأوربية ، بعد الحرب العظمى ١٩١٤ — ١٩١٨ وثورة أكتوبر ، قد حطمت غشاوة السحر التى كانت للطوائف المسيحية المختلفة على عيون بعض طبقات الآسيويين .

وربما جاز أن تتجدد جهود المبشرين بآسيا بعد أن تنقشع الشبهات التى تريم على نشاط الأوربيين فى الشرق وتحل محلها فى الأوان المناسب موقف التعاون الودى . ولكن ليس محتملا أن الظروف المواتمة التى وافت التنصير فى القرن التاسع عشر ستتكرر مرة ثانية ، ذلك لأنها أقيمت على أساس تفوق أوربا تفوقاً لا سبيل إلى تحديه ، وهو أمر أصبح اليوم فى ذمة الماضى .

---

* الأدفنتست السبتيين طائفة مسيحية تؤمن بعودة المسيح إلى الأرض ثانية لهداية البشر فى الحقبة الذهبية السعيدة . (المترجم)

مذكرة بالمراجع

معظم الكتب والتقارير والدوريات التى تعالج نشاط البعثات التبشيرية بالشرق متحيزة فى آرائها ، وذلك لأن الذى كتبها هو المبشرون أنفسهم ، ولو نظرنا إلى الموضوع من ناحية العرض الواقعى لوجدنا أن كتاب لاتروت « A History of Christian Missions in China » سفر جليل حقاً .

وإن كان لاتروت إذ يكتب من وجهة نظر البروتستنت ، لم يحرم نصيبه من العدل إزاء الكاثوليك ، كما أنه فى معالجته لمسألة « الشعائر » يعتنق وجهة نظر معتدلة ومعقولة . وكتاب الأب هيو « Christianity in China » (لندن ١٨٥٨) نفيس كمرجع لتاريخ الجهود الكاثوليكية الأولى . والمراجع التاريخية الأشد تخصصاً مثل كتاب لوناى « Histoire Générale de La Société des Missions Etrangères » تعالج بالتفصيل بعض نواح محددة : وكتاب « Catholic Missions & Annals of the Propagation of the faith » يعرض الوضع من وجهة نظر المبشرين الكاثوليك ، كما أنه مفيد كمستودع يجمع كثيراً من الوثائق الأصلية . وهناك أيضاً تراجم للنابهين من المبشرين مثل ركى وفربيست وشال وهدسون تايلور وريتشاردس وغيرهم . وكتب بعثات دى تورنون وميزاباربا من المطبوعات التفصيلية الثقة . ثم إن وجهة النظر الأسيوية تعرض بصورة موجزة وفعالة فى كتاب راداكريشنان : « Eastern Religions & Western Thought » (اوكسفورد ط ٢ — ١٩٤٠) .

وفيما يلى قائمة بالكتب التى قد تلذ القارئ العام :

Bibliotheca Asiatica, Part II. Maggs Bross London, 1924.

Beazley, Raymond : Texts and Versions of John de Plano Carpini and William de Rubruques. London, 1903.

Brine, Lindesay : The Taiping Rebellion in China 1862.

Broomhall, Marshall : The Jubilee Story of the China Inland Mission. Shanghai, 1915.

Broomhall : Marshall : The Chinese Empire — General and Missionary Survey. N.Y. 1907.

Bou, A : St. François Xavier. Gabriel Beareschene. Paris, 1912.

The Catholic Encyclopaedia, 16 volumes. N.Y., 1907-13.

Cochrane, Thomas : Survey of Missionary Occupation of China. Shanghai, 1913.

Danton, George H. : Student Movement in China — School and Society May 28, 1921.

Davenport, Arthur : China From Within — A Study of Opium Fallacies and Missionary Mistakes. London, 1904.

De Groot : Sectarianism and Religious Persecution in China. Amsterdam, 1904.

Gillespie, W. : Land of Sinim-or China and the Chinese Mission. Edinburgh. 1854.

Guinness, Geraldine : Story of the China Inland Mission. London, 1893.

Jenkins, R.C. : Jesuits in China and the Legation of Cardinalde Tournam.

Kelly, M.T. : François Xavier. St. Louis, 1918.

Lewis, Robert : Educational Conquest of the Far East. New York, 1902.

Pratt, Edwin : Christianizing China. London, 1913.

Rowbotham : Missionary and Mandarin.

Richard, T. : Conversion of the Million in China. N.Y., 1925.

Ross, J. : Mission Methods in Manchuria. N.Y.

Sze Tsung-Yu : China and the Most Favoured National Clause. N.Y., 1925

Tan Liang-li : China in Revolt. London, 1927.

Taylor, Hudson : A Retrospect, Philadelphia.

Urquhart, David : The New Heresy, 1862.

Wang Tsi : Youth Movement in China., N.Y., 1927.

وعن الهند الصينية :

Grandiere, Admiral: Les Debuts de l'occupation française en Cochin Chine. Paris, 1871.

Lanessan, Joseph. : Les Missions et l'loisprotectoral. Paris, 1898.

Launay, Abbé : Histoire Religieuse de Missions Etrangeres. Paris, 1894.

Louvet, Abbé : La Cochin China Religieuse. Paris, 1885.

Roberts, S.H. : History of french Colonial Policy, 2 vols. London, 1931.

Ennis, Thomas E. : French Policy and Developments in Indo-China. Chicago, 1936.

القسم الثامن

المؤثرات الشرقية فى أوربا



الفصل الأول

المؤثرات الثقافية

قد عالجنا بإيجاز طبع آسيا بالطابع الغربى تدريجيا إبان القرن التاسع عشر وتجمع القوة الدافعة لتلك الحركة إبان النصف الأول من القرن العشرين . وأظهرنا أنه بدلا من أن تنبذ شعوب آسيا الغرب ، حرصت كل الحرص على تمثل ثقافة أوربا فى نواحيها الأرحب والاستفادة منها فى إعادة تنظيم مجتمعاتها . ومن الضرورى لنا الآن أن نتتبع مؤثرات آسيا فى حياة أوربا وأخلاقها وعرفها وثقافتها العامة أثناء الفترة التى يغطيها استعراضنا السياسى . ففى مدة سيطرة أوربا السياسية على آسيا من (١٨٦٠ — ١٩٤٨) ، كان كتاب الغرب على الجملة يغيب عنهم أن آسيا لم تقتصر فقط على النقل والاستعارة من أوربا بل أسهمت بسخاء فى نمو الحضارة الغربية .

ومع أن الاتصالات الفكرية بين أوربا وآسيا أثناء عصر داجاما لم تبدأ إلا فى أخريات القرن السابع عشر ، فإن تأثير آسيا فى الشعوب الغربية الأوربية التى كان اهتمامها المباشر منصبا على تجارة الشرق ، بدأ يتجلى مبكرا بصورة معقولة . وحتى قبل وصول أوائل السفن الأوربية إلى الهند والصين ، كان الحرير الموصلى (الموسلين) الهندى والقز والخزف (البورسلان) الصينى قد وصلت إلى أوربا . فلما أن تم الاتصال البحرى المباشر ، انتشر هذا التأثير الذى اقتصر فى البداية على النواحى المادية ، إلى أشياء أخرى كثيرة . ولم تكن صاحبة النصيب الأوفر من هذه المؤثرات هى الهند ، بل الصين ، وذلك فيما عدا ناحية التصميمات وطبع المنسوجات القطنية . وإن أنواع الحرائر وصنوف الوشى والبورسلان ودهان اللاك والأثاث وورق الجدران وإنشاء الحدائق وطراز الروكوكو الذى ساد فرنسا وانتقل عن طريق فرنسا إلى أوربا فملأها مدة تقارب نصف القرن ، لأكبر آية على « المد الفيضى الصينى » فى النصف الأول من القرن الثامن عشر . وإن خزف البورسلان الذى يمكن أن يقال أنه يرمز إلى هذه الناحية من نواحى التأثير الصينى ، قد أدخل إلى فرنسا بالفعل ، حتى إذا وافى النصف الثانى من القرن السابع عشر ، إذا مصانع سيفر الكبرى تنتج بالفعل خزفا ممتاز الجودة . غير أن حب أوغسطوس القوى أمير سكسونيا (١٦٧٠ — ١٧٣٨) للخزف اشتد حتى أصبح ولعاً بل جنونا ، ومن ثم صارت للخزف (موضة)

عظيمة فى ألمانيا وفرنسا وإنجلترة . ويقول ريخويين أن أوغسطوس كان يبطن بخزف البورسلان المصور جدرانه وسقوفه وفجوات نوافذه إلى غير ذلك . وفيما بين (١٧١٠ـ ١٧١٢) بدأ « الخزف » يصنع فى ميسن ، ويرجع الفضل فى ذلك كله إلى بوتيجار ، الذى فتح مصنع ميسن تحت رعاية أوغسطوس . وأصبحت سكسونيا المركز العظيم لأوربا فى تلك الصناعة ، وبلغ من شدة الثراء الذى عاد عليها من ذلك ، أنه يقال ان فردريك الأكبر استخدم بورسلان ميسن لتسديد بعض ديونه بعد أن استولى على سكسونيا فى حرب السبع سنوات .

وكان إقبال الناس على خزف البورسلان الصينى من العظم بحيث لم يكن هناك قصر فى أوربا لا يحتوى على مجموعة ثمينة. والجناح الصينى فى شنبرن وغرفة البورسلان المخصصة للفرسان فى قصر آنسپاخ وغرفة المرايا فى قصر ميونخ تذكر بوجه خاص مع الإشارة إلى احتوائها على مجموعات ثمينة * . على أن تلك (الموضة) وإن شاعت بإنجلترة إلا أنها لم تؤد رغم رسوخها إلى صنع « الخزف » هناك . وانقضت أربعون سنة أخرى قبل أن أنشئ مصنع بو ، ومن بعده مصنع كانتون الجديدة وأخذا يقلدان التصميمات الصينية ، وأن التصميمات التى حازت إعجاب وإقبال الناس أكثر من غيرها تصميم طائر الحجل وحزمة القمح . وكان إقبال الناس على الخزف الصينى عظيما جدا إلى حد أن عددا ضخما من المصانع ظهر فى عالم الوجود فى كل من إنجلترة وألمانيا . وبلغ إنتاج مصانع ورستر من الإتقان أن أحداً عدا صاحب العين الخبيرة ، لم يكن يستطيع فيما يقال أن يكتشف الفرق بينه وبين « الصينى الأصلى » .

وكانت لتصميمات ورستر المصنوعة بلونى كانج هسى الأبيض والأزرق واللون الأخضر العائلى (١) ، وكان للشكل الإمارى (٢) اليابانى واللون الوردى العائلى (٣) الذى يرجع إلى عهد يانج تشنج وفترة تشين لنج ، رواج وإقبال عظيم بأوربا .

وكان طلاء الملك (الجمالكة) السلعة الثانية التى تلى خزف البورسلان فى

---

* انظر فرانك هيرلبت فى « بورسلان بو Bow Porcelain » لندن ١٩٢٦ ص ٦ .

(١) Famille Verte

(٢) Imari

(٣) Famille Rose

الأهمية . وقد صارت الخزائن المطلية باللك طرازا جديدا فى البلاط الفرنسى منذ أوائل القرن السادس عشر . والظاهر أن الفرنسيين توصلوا عند نهاية القرن إلى معرفة سر الصنعة . ومن ثم بدأت تلك الصناعة هناك بمعاونة الملكية ، ولكن الذين بلغوا بها حد الكمال الموجود فى اللك الصينى هم الإخوة مارتن الأربعة . ويقال إن أول مرة استخدم فيها اللك بإنجلترة كانت فى (١٦٦٣) . وقد ألفت كونستانس سيمون كتابا أسمته « مصممو الأثاث من الإنجليز أثناء القرن الثامن عشر » ، وفيه أفاضت فى بحث تاريخ اللك بإنجلترة ، وهى تدعى فيه أن مصنع برمنجهام كان ينتج من اللك ما هو أحسن حتى من الفرنسى * .

وكان التأثير الصينى ملحوظا جدا فى الأثاث أيضا . وقد حدث أن الياهوييل الذى كتب له الخلود بتأسيس الجامعة المسماة على اسمه عاد من مدراس فى ١٦٩٩ حيث كان يشغل منصب محافظ المدينة وقد حمل معه مقدارا ضخما من قطع الأثاث الصينية . ومن ثم يمكن أن يقال إنه أول من بدأ (موضة) ذلك الأمر . ولكن الملكية كانت قد مالت قبل ييل نفسه إلى الأذواق الصينية والهندية. فقد لاحظ دانيال ديفو فى كتابه رحلة فى ربوع بريطانيا العظمى ما نصه : « أدخلت الملكة مارى إلى البلاد عادة — أو قل مزاج تأثيث البيوت بالأدوات الصينية التى تكاثرت بعد ذلك إلى درجة عجيبة ، حيث كان القوم يكدسون خزفهم الصينى فوق قمم الخزائن وقمطرات الكتابة وكل مدفئة ومدخنة حتى قمة السقف بل لقد كانوا يعلقون الأرفف لوضع السلع الصينية عليها . . . » وقد لاحظ فى قصر همبتون كورت وجود « فراش بديع من قماش القطن المطبوع بالألوان (الشنت **) » وقدرا عظيما من الصينى . وكان هناك بقصر وندسور أيضا « فراش دليت عليه أستار الأطلس والشنت المازولبياتامى » . ولم يأل النقاد وسعا فى ذم تلك الحال . ولو فتحت

---

* ولماذا أقذف بأموالنا خارج البلاد
لأرضى جنسنا اللطيف الهوائى المزاج
لم يعد يجوز إحضار أى شيء من الصين
فها هو الخزف الصينى الإنجليزى

** الشنت : لفظة هندية معناها القماش القطن المطبوع بعدة ألوان زاهية على أرضية فاتحة أو بيضاء.
(المترجم)

عدد صحيفة سبكتاتور الصادر فى ١٢ فبراير ١٧١٢ لوجدت فيه شكوى دبجها زوج أسمى نفسه جاك آنقل ، وقال فيها : « إن زوجتى قد حبست نفسها على إصلاح كل غرفة بمنزلى ، حيث زججت أثاث مصطليات المنزل جميعا بالمرايا ، وملأت كل ركن بأكوام من الصينى بلغت من الضخامة حدا يضطرنى أن أسير فى منزلى بأقصى غاية الحذر والانتباه خشية إيقاع الضرر بأثاثنا الهش »* .

وتزايد استخدام الخزائن والأستار الصينية وأقبل عليها كل من تتسع ماليته لتحمل مثل تلك الأذواق الباهظة النفقة . ولكن ذلك الأمر لم يشرع فى التأثير فى الذوق القومى إلا عندما أدخل توماس تشيبنديل صاحب ألمع اسم فى صناعة الأثاث الإنجليزى الحامه فى الرسم فى التصميمات الصينية . فإن كتاب « تشيبنديل المعنون « مرشد الأعيان وصناع الخزائن » يحتوى على كثير من التصميمات الصينية . فأما أن التصميم الصينى قد أثر فى تشيبنديل ، فمسألة لا شك فيها ، وهناك ناقد من الثقات يدعى أنه حتى عندما تكون المؤثرات الصينية غير واضحة تماما : « كما هو الشأن فى الكراسى المخرمة ذات الشباك ومناضد الكتابة أو فى رفوف تعليق الصينى ، فإنه يمكن تمييزها فى التفاصيل الصغيرة** . . . » وحتى الكراسى المسماة « بالفرنسية » يتجلى فيها المؤثر الصينى فى تصميمات المقاعد الطنفسية ، ففيها السفينة الصينية الأصيلة والصفصاف الذاوى المتدلى وصور الماندرين . وفى خمسينات ذلك القرن أصبح الذوق الصينى فى الأثاث من سعة الانتشار بحيث أن مطبوعات كالتى نشرها إدواردس ودارلى بعنوان « التصميمات الصينية للبناء والأثاث » والتى نشرها وليم تشامبرز بعنوان « تصميمات المبانى والأثاثات الصينية » وجدت سوقا نافقة .

وهناك موضوع آخر موصول بالذوق كان التأثير الصينى فيه قاطعا ، هو ورق الجدران . وكان غالبه يستورد فى الأصل . والظاهر أن هذا النوع من الورق كان يصل إلى إنجلترة على يد التجار الهولنديين ، وكان هذا من الأشياء ذات الذوق الهولندى التى وردت إلى إنجلترة على يدى وليم الثالث . وكتاب « يوميات » إيڤلين

---

* اقتبسه كتاب «تاريخ الأثاث الإنجليزى History of English Furniture, Age of walnut » ، تأليف پرسى ماكويد ص ١٥٢ .

** انظر آرثر هايدن فى : « تصميمات الأثاث عند توماس تشيبنديل لندن ١٩١٠ » .

يحوى وصفا لتلك المادة الجديدة : « صور رجال وأقاليم مرقشة بطريقة نادرة على ضرب من العباك المصمغ ، وهو شفاف كالزجاج ، وفيها الأزهار والأشجار والطيور والحيوان إلى غير ذلك ، وهى مصنوعة بطريقة فائقة ممتازة فى ضرب من حرير الأكمام ، وهى شئ طبيعى جدا » * .

ولعل المبشرين كانوا أول من جاء إلى أوربا بعينات ونماذج ورق الجدران ، ولكن أول من صنع ورق الجدران بأوربا تقليدا للورق الصينى هو چان پابيون فى (١٦٨٨) . وعندما بلغت الموضة أوجها بدأت التقليدات الإنجليزية فى الظهور ، وأصدر شخص اسمه چاكسون من باتريسيا كتابا بالعينات والتصميات فى (١٧٥٣) . وكان هو الذى بدأ بإنتاج ورق للجدران صالح للاستعمال على معيار تجارى ، وجاءت بعده مصانع تشلسى وتشيرنجهام التى وطنت تلك الصناعة بإنجلترة . وتشهد السجلات المعاصرة بالتأثير القوى الواسع الانتشار للبضائع الصينية والهندية فى ناحية تأثيث المنازل أثناء تلك الفترة . مثال ذلك أن الأسقف بوكوك يصف لانج بورو بالكلمات التالية : « ذهبنا إلى لانج بورو وهى بعد سالسبورى بثلاثة أميال . وهو يقدر بأنه من أحسن بيوت إنجلترة تأثيثا وتوجد فى ردهته بعض التصاوير العظيمة الأصالة ومناضد الرخام ومجاميع تماثيل البرونز وسطوح المصطليات بجميع أرجاء المنزل مصنوعة من الصور الصينية . وجناح النوم الخاص بنا مؤثث بالشنت والورق الهندى . والأثاث فى أحد الأجنحة مصنوع من خشب المغنى المحفور والمذهب ويحتوى على قطع كثيرة من الأثاث اليابانى ** » . ويذكر كتاب « تاريخ الأثاث

* كانت موضة استخدام ورق الجدران الصينى من الضخامة بحيث كان كل منزل عظيم فى ذلك الحين يتخذه له مظهراً . وقد كتبت المسز دلانى من كورنبورى فى ١٧٥٦ تقول : « والغرفة الأمامية مغشاة بالورق المزخرف بالأزهار من طراز جورجيت . والغرفة التالية مكسوة بأبدع أنواع الورق الهندى المرقش بالأزهار وجميع أنواع الطيور ؛ وجميع الأسقف مزينة على الذوق الهندى والتشكيل العام للغرفة متناسب أجود التناسب ؛ وغرفة النوم مغشاة أيضاً بالورق الهندى ذى الأرضية الذهبية ، كما أن الفراش مكون من المصنوعات الهندية المصنوعة من الحرائر والذهب فى قماش الساتان الأبيض . ولفظة الهندى معناها هنا « الصينى » . (تاريخ ورق الجدران الإنجليزى A History of English Wall Paper) تأليف سوجدن وإدموند صن لندن . (باتسفورد ١٩٢٦) ص١٠٠ والفصل الخامس من الكتاب يعالج الورق الصينى والتقليدات الإنجليزية .

** انظر تاريخ الأثاث الإنجليزى ، « عصر خشب المغنى History of English Furniture, Age of Mahogany » تأليف پرسى ماككويد ، جمعية ميديشى لندن MGMXIII ص ١٤٣ .

الإنجليزى » وهو يصف الفراشين الفاخرين فى هوتن : « إن الكلل والأستار الخلفية والسجافات واللحاف مصنوعة من الوشى الهندى المنمنم الدقيق على أرضية من قماش التيل مطرزة فى كل أجزائها بالخيط الدقيق . . . والأساس هنا من مشغولات الهند ، كما أن الغرزة من الضيق والنمنمة بحيث أنه لو أبعد الشيء قليلا عن الإنسان لظنه مصنوعا من الشنت المطبوع » .

وكان للحديقة الصينية فى الذوق الأوربى أثر لا يقل عن هذا دواما . ويمكننا تعقب الأصل الروحى لذلك الأثر حتى جذوره عند أديسون وپوپ ، ولكنه لم يصل إلى منزلة البروز الواضحة إلا عندما أنشأ السير وليم تشامبرز الحديقة الصينية فى حدائق كيو فى (١٧٥٩) . وكان تشامبرز على شيء من الإلمام بالحدائق الصينية ؛ وذلك لأنه أقام فى كانتون وأحضر معه عند عودته بعض تصميمات رسمها هو بنفسه هناك . وكان الإعجاب بطراز الحديقة الصينية قائما على فكرة أنه ينبغى للحديقة أن تجمع بطريقة طبيعية وفى خطة كثيرة الجوانب ولكنها موحدة ، أشد الأشكال الطبيعية الصرفة بوصفها مركبا يوصل إلينا عدداً جماً من الإيحاءات المتنوعة . كان ظهورها رد فعل جاء حيال الصبغة الرسمية الجامدة لحدائق لويس الرابع عشر بما تحوى من صفوف الأشجار التى زرعت كلها فى خطوط مستقيمة ، وثورة على تصميماتها المتناسقة الموحدة .

وقد قلد الناس بجميع عواصم أوربا الحديقة الصينية فى كيو . وقلدتها فرنسا بحماسة بالغة ، كما أن أمراء ألمانيا تطرفوا فى هذا المضمار ، وهم قوم كانوا على الدوام ميالين لمحاكاة ما يستمتع به جيرانهم من مباهج ومسرات . وبلغ من فرط تأثر لاندجراف كاسل بها أنه أطلق فى شأنها العنان لخياله حتى لقد شاد قرية صينية بأكملها . وكانت جميع الظروف الطبيعية اللازمة للقرية الصينية ميسرة قريبة المنال عند وسينشتاين فى الناحية الجنوبية من بحيرة ڤلهلم شوهى . وبدأ البناء فى (١٧٨١) . وشيدت جميع الأكواخ من طابق واحد على الطراز الصينى . وأجاد المهندسون تقليد طراز المبانى . وسميت القرية « مولانج » ، كما سميت البحيرة الصغيرة الواقعة عند سفح التل الذى تقوم عنده القرية باسم « هوكنج » . وكان ذلك مبلغ حماسته للزى

ومن العسير علينا عمل تقدير لأثر التصوير الصينى فى الفن الأوربى فى ذلك الوقت . ومع ذلك فلا نكران أن كثيرا من قادة مصورى المناظر البرية ومصورى الألوان المائية كان لهم إلمام بالفن الصينى ، والظاهر أنهم أكثروا من الاقتباس من الأصول الفنية للصنعة الصينية . ويظهر واتو بوجه خاص ميلا شديدا نحو الأشكال الصينية فى معالجته للجبال والسحاب . وإن واتو ليدخل أيضا بعض الصور الصينية فى رسومه ، بيد أنها تظل جميعا أوربية بشكل عجيب . ويقال إن واتو فى صورته المعنونة لادويت بباريس ، قد أطاق العنان لأخيلته الصينية . واتبع كثير من المصورين الفرنسيين هذا الطراز ، الذى يقال إن أشدهم نجاحا فيه هما خرستوف هلت وبوشيه .

ويقال إن التصوير بالألوان المائية نقل عن الصين . وكان چون روبرت كوزنس الذى سماه كونستابل « أعظم عبقرى مس المناظر البرية بمرقاشه » أول من استخدم الأصول الفنية للصنعة الصينية ، التى يقال إنها تتقابل حتى فى تفاصيلها وطريقة الصينيين فى تصوير المناظر البرية » * . ويقال أيضا إن إسكندر كوزنس الكبير والد كوزنس ، قد تأثر فى أعماله الأخيرة بإبنه — وفيما يقول لورنس بنيون : « يذكرنا رسمه تذكيرا عجيبا بالمخططات الصينية ذات اللون الواحد » .

وكان استخدام الروكوكو فى فن العمارة وتأثير الفكرات الصينية فى الحركة موضع دراسة تفصيلية من كثير من الخبراء ، ولا حاجة بنا إلى بحثها هنا . وإن هدسون فى الفصل المعجب الذى عقده حول ذلك الموضوع فى كتابه « أوربا والصيف » ليعالج المسألة بمعرفة الخبير ، فى حين أن ريخفاين يعالج الأمر معالجة العمدة الثقة مستخدما الأسانيد الكاملة فى بحثه . وإليكم الطريقة التى يصف بها هدسون خصائص الروكوكو :

« الواقع أن التنويع والوفرة من المقاصد التى يرمى إليها طراز الروكوكو الزخرفى . وتصميمه فى خير أحواله معقد وغزير ، على حين يظل مع ذلك محتفظا بوحدة وتوازن خفيين ؛ وهو يبتهج فوق كل شىء بالمنحنيات الحرة المرسومة على الطريقة الصينية ، وبالحركات المنحنية الجذلة الزخرفة ، وبتمزيق الخطوط المستقيمة ،

---

* ريخفاين ص ١٢٥ .

أو بالرسوم المستقيمة الخطوط ذات الإيقاع غير المنتظم مثل أشغال الشبيكة الصينية. وتختلف غزارته عن غزارة الباروك من حيث أنه يتجنب كل مظهر من مظاهر الضخامة والصلابة ؛ وهو يؤثر الأشكال الخفيفة الوثابة . . . ويحاول أن يعدل من أركان الزوايا القائمة ، بما يدخله عليها من انحناءات ، وأن يكثر من حلياته بما يدخله عليها من زيادات مستمرة دون شدة أو تأكيد . . . « على أن فن العمارة فى الأبنية الكبرى لم يكد يتأثر مطلقا بطراز الروكوكو : ذلك أن التقاليد الكلاسيكية ظلت صاحبة الغلبة فيها . ولكن المبانى الصغرى وبخاصة المثابات الريفية والبيوت الصيفية — التى كانا هذا العصر يبدى نحوها محبة بالغة والتى كان يهتم بتوجيه شطر من عنايته إليها أعظم مما يوجهه للمبانى الأكثر جدية فى أهدافها — كان للروكوكو فيها مجال كامل يجلى فيه ابتكاراته وأشكاله المنقولة عن كل من الخيمة (الباڤليون) الصينية والجوسق التركى . وأقيمت أيضا پاچودات كثيرة الطوابق فى محاكاة مباشرة للأصل الصينى . ومن الخصائص المميزة لفن عمارة الروكوكو خفة البناء والأسقف المقعرة والفنيالات (زخرفة رؤوس الأعمدة) العجيبة الأشكال والأجراس المدلاة من حافات السقوف والشرفات (القرندات) والنوافذ العجيبة الأشكال وأشغال الشبيكة المحكمة التفاصيل » . على أن الحركة اختفت عن الأنظار بنفس الفجاءة التى انتشر بها حبها لدى الناس ، بيد أن آثارها يمكن تقصيها حتى اليوم فى التقاليد المعمارية الأوربية .

وإن فضل الهند على الذوق الأوربى فى القرن الثامن عشر أو قبله ، شئ طفيف يمكن إهماله إلا فى ناحية واحدة ، هى المنسوجات . فإن المنسوجات القطنية بما هى عليه من الرخص والخفة وقابلية الغسيل والجمال الفنى للطباعة والمعروفة باسم العبك (الكاليكو) والملس (المالمولس) والسالمبور والمازوليباتام والمدراس إلى غير ذلك ، ثم الموسلين بطبيعة الحال ، أصبحت طرازا جديدا لا فى طبقات معينة محدودة فحسب ، بل أصبحت عادة قومية لدى الناس جميعا . ولم تستطع الاضطرابات العامة ولا حتى قوانين البرلمان مثل قرارات البرلمان فى (١٦٧٧) بحظر لبس الملابس القطنية فى شهور الشتاء — أن تقلل من محبة الناس لتلك الأصناف ، تلك المحبة التى هيأها للمنسوجات القطنية لونها وتصميماتها وقابليتها للغسيل . وكان دعاة حماية

الصوف يدعون أنهم ينزعجون لشفوف البضاعة الهندية ، وتعالت ملايين الأصوات تهتف بالقيمة القوية والمتانة التي تتصف بها الأصواف الإنجليزية ، بيد أن الأقمشة الهندية صمدت في مواقعها وأحدثت تأثيرا ضخما في العادات الاجتماعية في إنجلترة وأوربا .

وقد ذكر جيمس ليفر في كتابه « الملابس الإنجليزية في القرن الثامن عشر * » أن : « صناع الأقمشة الإنجليز انزعجوا (لشدة إقبال الناس على المنسوجات الهندية) وصدرت القوانين البرلمانية التي أقرها كل من الملكة آن والملك جورج الأول والتي تحرم على الناس استخدام الكاليكوه والحرائر وغيرها الواردة من الهند والصين وفارس . على أنها كانت مع ذلك تهرب إلى البلاد بكثرة شديدة ، وقد قدم ستيل تظلما عن النساجين الإنجليز ذكر فيه قائمة مسلية بأسماء السلع التي حلت محلها تلك البضائع الأجنبية . ولم يكن الصناع الفرنسيون أقل اضطرابا لهذا الأمر . ففي (١٧٠١) أصدر لوفواه وزير لويس الرابع عشر أمرا يحرم استيراد الموسلين والأقمشة البيضاء . وإن الكتاب الأول ليسلمون تسليما تاما بتأثير الأقمشة الهندية على صناعة الصباغة ؛ فقد ذكر ريخفاين (ص ٤٨) نقلا عن أحد الثقات : « لقد علمنا الهنود كيف ننتج المنسوجات القطنية ، والبفتة الهندية والموسلين وأن نطبعها بالألوان الثابتة . وقد قلدت أوربا صباغة الأقمشة الهندية ، وإن لم يكن ذلك التقليد من حيث امتياز وقوة التلوين على درجة من الكمال تماثل الأقمشة نفسها » .

وإن التبدل الاجتماعي الذي أدخلته إلى إنجلترة عادة شرب الشاي لممكن نسبته إلى الصين والهند . وكان الشاي يستورد أصلا من الصين ، وقد ازداد إقبال الناس عليه بحيث أصبح شرابا قوميا . وقد ذاقه بيبز فارتشف منه رشفات ولاحظ مع التقدير صفاته المبهجة . وكان الشاي كما رأينا أكبر سلعة في التجارة البريطانية مع الصين . حتى إذا وافت نهاية القرن الثامن عشر إذا هو قد غزا مائدة الإفطار لدى كل الطبقات ، كما أن معاودة شربه بعد الظهر بدأت أيضا . وقد بلغ من شدة وقع انتشاره العظيم بإنجلترة في نفس رينال الفيلسوف والمؤرخ الفرنسي ، أن أعلن أن له من الأثر في عفة الشعب الإنجليزي وامتناعه عن شرب الخمر ما لا تبلغه القوانين

* طبع لندن ، ١٩٣١ ، ص ٢٤ .

ولا المواعظ ولا المقالات الخلقية . ولكن كما حدث فى مسألة المنسوجات الهندية ، كان رجال الاقتصاد الإنجليز ، وقد أزعجهم فيض الذهب الذى كان يسيل نحو الخارج ، تواقين إلى جمع الحجج المناهضة لتناول الشاى . وكان أرثر يونج أحد كثيرين احتجوا على إسراف الفقراء بإقبالهم على شرائه . ويذكر قراء «رومانى راى» كيف أن سيدا إنجليزيا غريب الأطوار يسكن قرية شمال إنجلترة قد درس حروف الكتابة الصينية عن أباريق الشاى ؛ ذلك أن هذه العادة الجديدة بلغت المدى من الانتشار.

ومع أن وزارة الخزانة البريطانية واصلت رفع الرسوم الجمركية على الشاى مرة بعد أخرى ، فإن ذلك لم يزد الطلب إلا ازديادا . وعندئذ دخلت الهند السوق . ولم تكن الهند تزرع شجرة الشاى ، وإن كانت أصيلة بالبلاد فى أسام . ودخلت الهند فى ميدان تجارة الشاى فى القرن التاسع عشر ، ولما كانت مزارع الشاى الكبرى ملكا للبريطانيين فى غالب الحالات ، فإن شعبية الشاى كشراب يتناوله الشعب البريطانى على الإفطار وبعد الظهر ، استمرت دون أن تلقى تحديا جديا من أحد .

ومن الدلائل العجيبة على ظهور المؤثرات الشرقية بإنجلترة فى صورة (موضة) جديدة إبان القرن الثامن عشر شدة انتشار الموضوعات الآسيوية على المسرح الإنجليزى . وقد عد أحد الكتاب ما يقارب ١٣٦ مسرحية فى موضوعات شرقية صدرت بإنجلترة أو مثلت بها أثناء القرن الثامن عشر . وكانت الموضوعات تختلف ، فهى إما حول « اليتيم الصينى » ، وهى منقولة بتصرف عن نوع من المأساة الصينية فى كتاب « تاريخ الصين » تأليف دوهالد ، وقد تخللتها أغان على الطريقة الصينية بقلم وليم هاتشت ، و « زجيس » بقلم ألكسندر داو ، و « النابوب » بقلم صمويل فووتى ، و « أمير أجرا » بقلم السير وليم أدنجتون . ، و « أرملة ملبار » بقلم ماريانا ستاركى . وكان كتاب الكونت بنيوفسكى المسمى « مغامرة فى كمشتكا » موضوع مسرحية هو الآخر ، على حين أن قصص الحب فى الحرملك ، التى صدرت بعناوين منوعة مثل « سيراجليو » تأليف (تشارلس ديبليو) ، « سليمى ولازورد » — و « الجركسية الفاتنة » — و « الفضيلة الظافرة » — و « الحب فى الشرق » موضوع لا ينفرط عقد امتاعه ولذته . وقد كتب الكتاب عن جميع أجزاء آسيا دون تفريق بينها . فلئن كانت قصص « راما دورج » — و « القصة المغولية » —

و« ابن الهند الشرقية» تعالج شئون الهند ، فإن « اليتيم الصينى » — و « إيروس الصينى » تعالج شئون الصين . فأما الموضوعات الفارسية فهى لا جرم أكثر من أن تذكر . ويبدو أن المشاهد الشرقية على المسرح كانت لها على الأنفس جاذبية خاصة .

وفى نفس ذلك العصر كانت المسارح الفرنسية تمثل هى الأخرى مسرحيات تدور حول موضوعات مماثلة لهذه . وسنجتزئ بذكر العناوين التالية : « الصينيون » وهى كوميديا فى خمسة فصول ؛ و « هؤلاء الصينيون » وهى كوميديا ذات فصل واحد ؛ و « الصينيون العائدون » — و « الصينى المؤدب بفرنسا » — و « الباليه الصينى » — و « الأم الصينية » — و « العيد الصينى » . وكانت مسرحية ڤولتير « يتيم الصين » ، وهى تصف الأخلاق الكونفوشيوسية فى خمسة فصول ، مسرحية جادة بطبيعة الحال ، أقيمت على ترجمة پريمار لدراما صينية ، هى « يتيم تشاو » . وقد لقيت القصة رواجا عظيما بأوربا ، وظهرت لها فى الإنجليزية أكثر من ثلاث اقتباسات مختلفة .

ونختم هذه الناحية من تأثير الشرق فى إنجلترة بوصف الآنسة ساكڤيل وست للجو الشرقى فى « نول » : —

« كانت تلك هى الأيام التى بنى فيها حديثا برج الساعة ، الذى كان يبدو لنا غريبا . وكان يذكرنا بالباجودا عندما كان الستار الصينى ذى اللونين الوردى والذهبى فى غرفة استقبال الشاعر لا يزال قشيبا يلمع تحت ضياء الشمس ؛ وعندما كانت صناديق كروماندل لعبا جديدة . . .. كانت الصورة التى دبجتها ريشة السير يوشع للغلام الصينى وهو يجلس القرفصاء ويحمل بيده مروحة ويبدى مقدم حذائيه المربعين الأحمرين من تحت ثيابه ، كانت هذه هى الأيام التى يفضل فيها الإنسان لكى يبدو أكثر أصالة أن يقتنى غلاما صينيا يقوم على خدمته لا غلاما أسود » * .

---

* انظر نول وآل ساكفيل ص ص ١٨٦ — ١٨٧ .

الفصل الثانى

تأثير الشرق فى الفكر الغربى

ننتقل الآن من هذه الأذواق الغريبة المترفة ونحول أبصارنا إلى النفوذ الذى أوتيته آسيا على فكر أوربا وعقلها . وهنا أيضا كانت الصين صاحبة الدور الأعظم إبان القرن الثامن عشر . ذلك أن مفكرى أوربا العظماء قد اجتذبت أنظارهم نحو الصين وزاد فى فضولهم ما كان يرد من اليسوعيين فى بيكين من تقارير . وقد أثار الأب لوكونت فضول العلماء الأوربيين فعلا بكتابه « تاريخ الصين » . وكانت كتابات الأوربيين الأوائل بالصين موضوعية مليئة بالمعلومات ، كما كانت على وجه الجملة مشبعة بروح العطف . وكثر ظهور ترجمات الآداب الكلاسيكية الصينية بأوربا لأول مرة إبان النصف الثانى من القرن السابع عشر . وظهرت فى (١٦٦٢) ترجمة إغناطيوس داكاستا لكتاب تاهسويه بعنوان « العلم القديم » . وفى (١٦٨٣) نشر پر وسبر أنتوركتا ترجمة لكتاب « تشنج ينج » ، أحد الكتب الكلاسيكية الصينية الأربعة مع تذييل يحوى حياة كونفوشيوس باللاتينية والفرنسية جعل له عنوانا عاما هو « علوم الصينيين السياسية والأخلاقية » . ونما فى الغرب مقدار المؤلفات الصينية وبخاصة فى اللغة الفرنسية ، وهو أمر مكن المفكرين الفرنسيين من الحصول على فكرة صالحة عن الأحوال الخلقية والسياسية فى الإمبراطورية الصينية . وعند نهاية القرن اكتشف اليسوعيون كونفوشيوس وبسطوه ليكون فى متناول الشعب ، وقد وصفه أحدهم بأنه « الأستاذ وصاحب الوحى والعلم إلى أقصى حد بدرجة متساوية فى كل من الفلسفتين الخلقية والسياسية » .

وينبغى ألا يغيب عن بالنا أن اليسوعيين كانت لهم مصلحة خاصة فى ادعاء شبه الكمال لكونفوشيوس وتعاليمه . وكان موضوعهم الرئيسى فى منازعات « الطقوس » كما سنرى فيما بعد ، أن المبادئ الكونفوشيوسية قد صدرت عن وحى وتنزيل وأن الصين قد تلقتها « عن أبناء نوح » . وهكذا حاولوا أن يبرروا تساهلهم مع الممارسات الصينية . ومهما يكن الهدف فإن الفلاسفة استخدموا شهادة اليسوعيين فى معترك

الخصومة السياسية الكبيرة التى نشبت فى القرن الثامن عشر سلاحا يشهرونه على امتيازات الطبقات الإقطاعية . فهنا كان يوجد أعظم مجتمعات العالم وأكثرها سكانا وواحد من أشدها إمعانا فى القدم يعيش ثابتا ومع ذلك فهو فى تقدم وليس فيه أرستقراطية وراثية .

وقد أكد لوكونت ذلك الرأى فى رسالته « عن سياسة الصينيين وحكومتهم » . حيث قال : « ليس النبلاء وراثيين مطلقا ، كما أنه ليس هناك أى تمييز بين صفات الناس ، اللهم إلا ما تتيحه لهم الوظائف التى يشغلونها ويقومون على أدائها ، إلى حد أنهم باستثناء عائلة كونفوشيوس تكون المملكة كلها مقسمة إلى جماعة من القضاة الحكام لهم سلطة على جماعة أخرى من العامة . . . فإذا مات نائب ملك إحدى المقاطعات أو حاكمها ، وجب على أبنائه أن يكونوا حظهم فى الدنيا شأنهم شأن غيرهم تماما ، وإذاهم لم يرثوا فضيلة أبيهم ومهارته ، فإن اسمه الذى يحملون (مهما بلغ من ذيوع الصيت) لا يضفى عليهم أية صفة بأى حال » . ومثل هذا الاكتشاف لم يكن الإلقية ثمينةوعونًا عظيماً لڤولتير ،وكان يخوض معركةعارمة شنها على امتيازات النبلاء الوراثيين . وأصبحت الصين المثل المحتذى الذى يضرب للحكومة المستنيرة . ولما كانت بلدا نائيا ، العلم به غير مضبوط ، فإن حقائق الحكم الاستبدادى الصينى لم تؤثر قط فى نظرية الحكومة الأبوية . وفوق هذا فإن الحقبة العظيمة حقبة كانج هسى وتشين لنج كانت من كثير من الأوجه مدة يمكن أن يضرب بها المثل كنموذج للحكم الاستبدادى المستنير ، الذى لا تعتاقه المصلحة الذاتية لأرستقراطية وراثية . وقد خيل لڤولتير ومن شاكلوه أن الصينيين حصلوا نجاحا لا شك فيه فى فن الحكم . فصرح قائلا : « إنهم قوم بلغوا بعلم الخلق ذروة الكمال » . والعقيدة الدينية التى كانت لرجال من أمثال ڤولتير ، جعلت الكونفوشيوسية بما انطوت عليه من معقولية ، تبدو لهم فى صورة الفلسفة الكاملة للرجل المتحضر .

وكان قائد هذه الفكرة هو ليبنيتز . ففى (١٦٨٩) تعرف ذلك الفيلسوف إلى الأب جريمالدى ، يوم عاد من الصين بعد فترة قضاها بها يعمل مبشرا . وكان قد ألمّ من قبل بطرف من الفكر الصينى عن طريق الترجمات ، وإنه فى مقدمته لكتاب « أحدث العلم » ليعبر بقوة عن إعجابه بما كان يعتقد أنه هو السياسة الصينية : — وهى الأخلاق . « لقد بلغ بنا الحال حدا كبيرا من السوء . وقد بلغ

فساد الأخلاق مدىً طويلا بحيث أكاد أعتقد أنه أصبح من الضروري أن ترسل إلينا بعثات من المبشرين الصينيين لكى يعلمونا طرق الدين الطبيعى وممارسته ، مثلما نرسل لهم المبشرين لكى يعلموهم الدين المنزل » . وكان ليبنيتز يعمل جاهدا على الدوام ليتم تبادل الحضارات بين أوربا والصين .

ولما أن حان عهد ڤولتير ، كان قد اجتمع للناس من المعلومات ما يتيح لكل منهم أن يستنتج بنفسه نتائجه الخاصة . وكان على زعامة المدرسة المؤيدة للصين ، وقد صرح فى « مقال عن الأخلاق » (١٧٦٠) ، أن الفلاسفة قد استكشفوا فى الصين عالما خلقيا وطبيعيا جديدا . وكان يرى أن كونفوشيوس على حسب تصوير المرسلين اليسوعيين يبدو فى صورة الكمال المطابق للفيلسوف والنبى والسياسى . ووجد ڤولتير فى أعمال كونفوشيوس « أطهر أنواع الخلق » فهى تدعو إلى الفضيلة « ولا تتخذ المعجزات وسيلة للدعوة إليها ولا تتضمن « رموزا ولا مجازا مضحكا » — وكلها كما يلحظ القارئ سهام مصوبة نحو علم الدين المسيحى » . وكان يرى أن الصينيين مثل جديرة بالمحاكاة والتأسى ، « ماذا ينبغى على الأمراء الأوربيين أن يفعلوه عندما يسمعون بمثل تلك المثل ؟ أن « يبدوا إعجابهم ويحمروا خجلا ويقلدوهم » .

والظاهر أن ديدروه وهلڤتيوس وآخرين من فلاسفة الموسوعة قد تأثروا بحضارة الصين وثقافتها بنفس تلك القوة . والواقع أنهم كانوا يدخلون أحسن ما يستطيعون من تفاسير للمواد التى يقدمها إليهم اليسوعيون المتحمسون ، وكانوا يستنتجون منها بتوسع شديد لكى تصيب حججهم مقتلا من مجتمع قائم على ركنين توأمين هما النبلاء أصحاب الأملاك ثم الكنيسة ، ولكل منهما امتيازات لا حد لها ، كما أن الثانى من الركنين على الأقل كان يستخدم قوته الهائلة فى القضاء على حرية الفكر . لقد كانت الصين هى دار الأسلحة الجيدة التى زودهم بها عدوهم نفسه والتى أخذوا منها أشد أنواع أسلحتهم تدميرا .

واخترقت الحماسة للفلسفة الصينية حجب « قدس الأقداس » بالمجامع العلمية الغربية ، وهى كلية اللاهوت بجامعة باريس . ومهما يكن الأمر ، فإن الذين كانوا يكتبون التقارير عن ذلك الموضوع هم المبشرون الكاثوليك ، ولم يكن ثم شىء أنسب لمزاج ڤولتير وأصدقائه من أن يواجهوا على الكنيسة بذلك الإعجاب نفسه الذى

عبر عنه اليسوعيون بمجتمع الصين غير المسيحى . وهكذا أصبحت الصين لدى فلاسفة الاستنارة حجة يحتج بها ومثالا يحتذى : فهى مجتمع قائم على الأخلاق وليس على الكنيسة ، وهى حكومة لا تعتمد على طبقة ذات امتيازات ، وتنظيم مدرج للقيم يتبوأ فيه التضلع فى العلم ، ونظام يبدو أنه يكل السلطان للعلماء ويفترض فيه من ثم الحكمة ، وبناء سياسى لا يرفع من قدر العسكريين — فهى فى الواقع جماع كل شئ يرى مفكرو أوربا المتحررون أنه يعوز أوربا .

ولا ينبغى لنا أن نفترض أن هذا التحمس فى حب الصين لم يكن يلقى معارضة عنيفة . فعند أول استهلال الحركة الصينية بأوربا ، انبرى لها « فنيلون » معارضا معارضة صريحة بكتاب أسماه « محاورات بين الموتى » . وهنا يواجه سقراط زميله كونفوشيوس ، كما أنه لم يجد صعوبة كبيرة فى كشف سخف وحماقة ادعاء الصينيين أن لهم حضارة فائقة (وفى ذلك ما فيه من سعادة المؤلف وإدخال السرور إلى نفسه) . ووجد هذا الرأى فيما بعد فى روسو نصيرا أعظم شهرة ، ولم يكن روسو يرى أى شئ ذا قيمة فى وجهة النظر الصينية على الصورة التى كان يوضحها ويدافع عنها ڤولتير ومدرسته . وكان يتساءل قائلا : « فإذا كانت كفاية وزرائها أو الحكمة المزعومة لقوانينها . . . لم تستطع أن تحمى تلك المملكة من المذلة والخضوع لبرابرة جهلة غلاظ ، فما الجدوى من حكمائها ؟ » . لم يكن يرى فى الحديقة الصينية أى جمال .

وربما كان تأثير الصين فى « الطبيعيين * » أكثر من جهة المنطق ، كما كان أدوم بقاء . فإن كسناى مؤسس المدرسة ومفكرها الأصيل استقى إلهامه من المصادر الصينية بوجه خاص . ويقال إن اللوحات الاقتصادية التى وضعها كسناى لم تكن سوى ترجمة بارعة بالرياضة والأرقام لمذهب صينى ينسب إلى فوهى . وهنا أيضا كان غرض كسناى مهاجمة حقوق الإعفاء من الضرائب التى كان يدعيها النبلاء المحليون . فهنا كان للنموذج الصينى أعظم النفع ، ذلك لأن الصين لم يكن أحد بها يعفى من الضرائب الإمبراطورية ، وكما هو الحال بجميع أقطار آسيا ، كانت مدفوعات الدولة تحسب على أساس الإنتاج . ولا ينكر أحد من تلاميذه أنه تأثر بالآراء الصينية ، بل هم على العكس من ذلك يؤكدون تلك الفكرة مع الفخر . فقد

---

* Physiocrats .

صرح ميرابو الكبير ، الذى أعلن نفسه « صديقا للإنسان » فى خطاب التأبين الذى ألقاه فى جنازة أستاذه : « إن تعاليم كونفوشيوس موجهة جميعا نحو الطبيعة البشرية وإعادة ذلك الإشعاع الأول إليها ، ذلك الجمال الأول الذى تلقته من السماء والذى غطى عليه الجهل وحب الشهوات » . لذا نصح أبناء وطنه بطاعة رب السماء . . . « وألا يجعلوا الشهوة قط مقياس العمل بل يخضعوها للعقل . وعندئذ يكون من المحال إضافة أى شئ لذلك الإكليل النبيل ، إكليل الأخلاق الدينية ؛ بيد أنه يبقى بعد ذلك أن يتم أعظم الأجزاء أهمية جوهرية — وهو ربط الإكليل على جبين الأرض وكان ذلك هو عمل أستاذنا » . وهنا يدعى الخطيب المؤبن أن كسناى إنما هو وريث كونفوشيوس وخليفته . وقد كان تأثير الطبيعيين (الفزيوقراطيين) فى الفكر الاقتصادى ونظريات التعليم عميقا قويا ، كما كان لتأثير الصين فى هذه الحالة أثر أقوى من الإعجاب الذى أظهره ليبنتز وڤولتير وغيرهما نحو الفلسفة الأخلاقية لكونفوشيوس ومدرسته .

ولما انفجرت الثورة الفرنسية زال كل أثر للفلاسفة والفزيوقراطية ، وزال مع ذلك الأثر كل إعجاب بالصين ، وكان ذلك الإعجاب (موضة) فكرية شديدة البروز فى القرن الثامن عشر . ذلك أن أوربا القرن التاسع عشر ، أو ربا التى كانت تتيه عجبا بقوتها وبشعورها بتفوقها ، لم يكن للصين أو الهند لديها أى نفع . ولكن قوى جديدة كانت تعمل عملها . فإن الأيام الأخيرة التى ختم بها القرن الثامن عشر فتحت آنذاك كتاب السنسكريتية الذى ظل مغلقا حتى ذلك الحين . وبهذا المعنى كان من أكبر العلامات فى طريق العلاقات بين آسيا والغرب ، ترجمة شارلس واكنز لكتاب باهاجاڤادجيتا ونشره بمقدمة بقلم وارن هاستنجس (١٧٨٥) ، وترجمة كتاب ساكونتالا (١٨٧٩) بقلم السر وليم چونز . وفى السنوات التى عقبت ذلك عولجت دراسة السنسكريتية علاجا جديا ، وكان لمعرفة الناس بأسفار اليوپانيشاد عن طريق الترجمات أثر عميق فى فلسفة شوپنهور ونتشه . وفضلا عن ذلك فإن الأبحاث اللغوية التى ولدتها دراسة السنسكريتية فتحت ميادين مترامية من المعرفة كانت لها آثار سيكولوچية عظيمة . فإن اكتشاف العلماء أن السنسكريتية والفارسية والإغريقية واللاتينية ، تولدت كلها من أرومة واحدة ، وأن للجنس

الآرى تقاليد مشتركة ، تسلط على الشئ الكثير من التفكير الاجتماعى فى القرن التاسع عشر . ولن يقلل من أهمية الفكرة ، أن النظرية تحولت فى يد دعاة العنصرية فى ذلك العصر الآخر إلى الحد المتطرف من الغلو والتزيد *.

ومع أن ترجمة كتب الشرق المقدسة وبخاصة سفر بهاجافادجيتا واليوپانيشاد وأسفار البوذية — التى استكملت فيما بعد بأعمال جمعية نشر نصوص البالى — كانت فى ذلك الحين جهدا محدود الأثر يكاد يكون مهملا — فإنه مهد السبيل للتأثير العظيم الذى حظيت به فيما بعد الڤيدانتا والفكر الشرقى عامة فى عقول شطر من الطبقة المفكرة الأوربية فى فترة متأخرة . ولكن أثر الفكر الڤيدانتى الهندى كان ملحوظا واضحا فى كتابات مفكرين مبرزين من أمثال إمرصون وتورو ، وذلك حتى فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر . ومما يشهد أيضا بازدياد أثر الفكر الدينى الهندى ترجمة أدوين أرنولد لسفر « الجيتا » ، . « أنشودة الرب » ، وكتابه الموسوم « نور من آسيا » ، فإن كلا منهما قد ظل حتى بعد نصف قرن على نشره من الكتب الشعبية المحببة لدى الجمهور . وفى النصف الأول من القرن العشرين ولعل الأمر بدأ بترجمة كتاب جيتانچالى لطاغور ، بلغ الفكر الدينى الهندوكى مرتبة الأهمية المستقلة بنفسها فى الدوائر الدينية الأوربية . وكان بلوغه تلك المرتبة يسير ببطء ومهل ، ولم يصبح على الفجاءة (موضة) وبدعة جديدة ، ولا كان رد فعل مؤقت على مذهب قديم مستقر ، بل جاء على صورة تغلغل فكرى تدريجى يكاد لا يدرك .

وينبغى ألا يغيب عن ذاكرتنا عمل أولئك الذين قربوا تلك المادة إلى الذهن الشعبى . فقد كان ماكس مولر فيما يتعلق بالهند ، وجايلز وعدد آخر ضخم فيما يتعلق بالصين ، ولا فكاديو هيرن فى المسائل المتعلقة باليابان ذوى أثر عظيم فى أيامهم ، كما أن تلك التقاليد وإن اتجهت رويدا رويدا أن تصبح من نواحى التخصص ، لا تزال تلعب دورا هاما فى حياة أوربا الثقافية حتى فى أيامنا هذه . والواقع أن ت . س . إيليوت قد ادعى أن الشعر الصينى قد تدسس إلى حد ما فى تقاليد أوربا

---

* عن بيان ملخص للمؤثرات الهندية فى القرن التاسع عشر والعشرين انظر رادها كرشنان فى : « الأديان الشرقية والفكر الغربى Eastern Religions & Western Thought » أوكسفورد الطبعة الثانية ، ١٩٤٠ ص ص ٢٤٧ — ٢٥١ .

الأدبية بفضل ترجمة والاى وغيره ،وذلك فى حين أنه فيما يتعلق بالشعر الهندى ، لئن لم يمكن أن يقال إن أدبه لم يترك أى انطباع عظيم ، فإن عدد المجلدات التى تصدر فى كل عام عن الفكر الهندى ليشهد بالاهتمام الذى لا يغيض بفلسفة الهند الدائمة .

هذا ولزيادة تحسن فهم الناس للعقل الأسيوى — الهندى منه والصينى — عاقبة أخرى تحتاج إلى تأكيد . فقد كان من العقائد الراسخة فى الفكر الأوربى أوتكاد ، أن كل ما له قيمةفكرية قد نشأ بالمناطق المطلة على بحر إيجة . فكانوا يدّعون أن الدين والفلسفة والفن بل حتى العلم ، قد نشأت جميعا بتلك المنطقة . كان القوم فى الواقع يدعون أن الإغريق منبع كل الحضارات . وكان إصرار الناس على التمسك بهذا الاعتقاد هو المسئول إبان السنوات الأولى للمباحث الشرقية عن فشل المحاولات التى بذلت لتأريخ أحداث آسيا ، وبخاصة أحداث التاريخ الهندى بفترات يمكن التوفيق بينها بسهولة وبين التطورات التى حدثت ببلاد اليونان . واضطر القوم كارهين أن يتخلوا عن ذلك الاعتقاد باحتكار اليونان للحكمة ، نتيجة لزيادة المعرفة بالحضارات الآسيوية . وكان تحرير العقل الأوربى الذى ترتب على الاعتراف بأن جميع الشعوب قد أسهمت فى نمو الحضارة البشرية ، مكسبا ذا قيمة ضخمة .

ولا ينبغى أن يفهم أن أثر آسيا فى أوربا حتى فى ميدان الفكر ، كان مفيدا على الدوام أو كان تقدميا . فإنها فى ناحية النظريات السياسية أو القانونية ولدت حركة رد فعل كان لها سلطان واسع الانتشار بإنجلترة . فمنذ عهد ولنجتون حتى عهد كيرزون ، كانت تقاليد المحافظة على القديم ينصبّ فيها نهر دائم التدفق من الأنصار الذين صُبغت خبراتهم السياسية بارتباطهم بحكم الإمبراطوريات الاستعمارية أو التابعة . وكان السير هنرى ماين صاحب نظرية نتجت كأثر لرد الفعل تجاه القديم ، وقد كان له نفوذ عظيم جدا وخبرته بالهند تنعكس انعكاسا واضحا فى كتابه العظيم فى القانون القديم . وهناك آخرون كانوا أيضا رجالا لهم خبرة سياسية سابقة بآسيا ، مثل جيمس ستيفن فتزستيفن وألفريدليال ، اللذين زودا « المحافظين الجدد » بدعامة فكرية تدعم مذهبهم . كذلك لم يكن هناك بدّ من أن تتأثر البلاد الأم نفسها بعدد كبير رجع إليها من قوم زاولوا التجارة والتبشير والإدارة فى آسيا واتفقوا جميعا على أنه لا سبيل إلى المساواة ولا إلى الديموقراطية فى بلاد مثل بلاد آسيا .

وثمة نتيجة أخيرة للتصادم غير المتعادل بين آسيا وأوربا ، هى نمو الإحساس بالتفوق اللونى . فقد لاحظ كثير من المراقبين أنه لم يكن هناك إبان القرن الثامن عشر إلا اليسير من ذلك الإحساس باللون لدى الأوربيين سواء أكان ذلك ببلاد الهند أم بالصين . بل الواقع أن إحساس الأوربيين نحو الصينيين إبان القرن الثامن عشر كان على الجملة ينطوى على الاحترام ، بينما لم يكن تطور بعد بالهند ذلك الإحساس بالصلف العنصرى ، الذى أصبح الخصيصة المميزة الملحوظة فى الأوربيين فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر والعقود الثلاث الأولى من القرن العشرين * . وربما كانت هناك عدة أسباب لازدياد ذلك الشعور ، ولكن لعل من الجلى بمكان عظيم أنه يرجع إلى السيطرة السياسية التى صارت للأوربيين والتى كانوا يعدونها حقا طبيعيا لهم عند منتصف القرن التاسع عشر وليس أدل على أصل تلك الفكرة السياسى من أن ذلك الشعور لم ينتشر كثيرا فى بلاد ظلت مستقلة مثل اليابان أو حتى سيام .

* قال مشاهد إنجليزى قادم من إنجلترة متحدثاً عن « رجال التجارة بالهند ، إن كثيرين منهم قد طال بهم المقام بين ظهرانى الأسيويين ، بحيث انطوت نفوسهم على أسوأ مشاعرها ونسوا كل إحساسات الحضارة والدين : فهم فى القسوة كراهبات دير ولكن خلت نفوسهن مما لهن من الإيمان ، وهم من غلظة الفؤاد كرجال محكمة التفتيش بدون ما فى قلوبهم من التعصب الدينى » . منقول عن كتاب البريطانيون بآسيا « The British in Asia » تأليف جاى ونت ص ١٢٧ .

خاتمة الكتاب

إن مدة التسلط البحرى على آسيا التى بدأت بوصول ڤاسكوداجاما وانتهت برحيل الأساطيل الغربية من قواعدها ببلاد القارة الآسيوية ، لهى مدة تشمل حقبة من أهم الحقب فى تاريخ التطور الإنسانى . ولا شك أن التغيرات المباشرة التى أحدثها ذلك التسلط ، والقوى التى ولدها بمختلف أقطار آسيا التى لها اتصال بأوربا فى مدة تربى على ٤٥٠ عاما ، والتى خضعت للسيطرة الغربية نيفا ومئة سنة ، قد أحدثت تحولا يمس بالفعل كل ناحية من نواحى الحياة بتلك الأقطار . فليس من الممكن استعراضها ولو حتى فى صورة معالم عامة موجزة . وقد ألمت بالأحوال الاجتماعية والسياسية والاقتصادية فى أقطار آسيا تغيرات انقلابية نتيجة لتلك الاتصالات والمؤثرات . وغنى عن البيان أن نظمهم الدينية والفلسفية بل الهيكل المادى لحيواتهم ونظرتهم الفكرية ، قد تأثرت بدرجة لا يستطيع أحد الآن أن يقدر مداها . وكان هذا الاتصال الطويل يترك فى كل مكان دخله بآسيا من الخمائر ما لا قبل لأحد بالتكهن بآثارها الممكنة .

ومع أن من المحال توقع ما ستصنعه آسيا بهذه المؤثرات فى المستقبل ، وكيف ستستطيع الدول الآسيوية المختلفة أن تحول تلك الخبرات والفكرات والنظم وتصهرها فى بوتقة خصائصها ومميزاتها الجنسية وتاريخها وتقاليدها الاجتماعية ، فلا مشاحة فى أن ضخامة التغيرات التى حدثت فعلا ، وأن الفورات التى أدخلت تغييرات جوهرية على مجتمعاتها العتيقة ، والفكرات التى عدلت من نظرتها تنطوى على صدع موضوعى مع الماضى بلغ من شدة اتساعه أن يجعل من حق تلك التغيرات عدلا أن تسمى بأنها انقلابات . فالفترة التى هيمن فيها الأوربيون على دول آسيا ، إنما هى خط فاصل فى تاريخها ، وذلك لأنها اضطرت بحكم دوافع المقاومة ونوازع التكيف أن تستجمع لنفسها حيوية جديدة وأن تكيف نفسها تكييفا شعوريا نحو فكرات جديدة استطاعت بها وحدها أن تسترد بالتدريج استقلالها وقوتها .

وقبل أن نستطيع أن نعمل حتى مجرد تقدير عام لتأثير أوربا فى آسيا ، وهو

الشيء الذى أخذنا أنفسنا الآن به ، ينبغى لنا أن نعرف الشكل الذى سيتخذه البنيان السياسى الجديد بآسيا ، وكيف ستتطور مجتمعاتها يوم ينزع عنها الأثر الأوربى المباشر ، وكيف ستكون روح القانون عندها ، وكيف سترتكس وتستجيب إزاء القوى الاقتصادية التى تعمل الآن عملها بها . وعلينا كذلك أن نعرف كيف ستمتص ديانات الشرق الكبرى : الإسلام والهندوكية والبوذية ، — الأفكار الجديدة التى أدخلها الغرب إلى التفكير الاجتماعى . فإن هذه وغيرها من العوامل الضرورية لعمل تقدير صحيح للمؤثرات الأوربية فى الشرق ، لن تستبين إلا بمضى الوقت .

ومن ثم فان نحاول فى الصفحات التالية أن نعمل استعراضا شاملا يستنفد جميع نواحى التفاعل بين أوربا وآسيا ولا أن نقدر الآثار الدائمة لاتصالاتهما المديدة . ومع ذلك فربما كان من المفيد لنا فى ختام هذه الدراسة أن ندلى إليك ببضع ملحوظات حول أوضح الحقائق والعوامل التى تعمل عملها الآن فعلا ونجعلها ختاما لها .

والتوسع الأوربى نحو الشرق بدأ كما أسلفنا عليك على صورة حرب صليبية . جاء ذلك التوسع فى بداية إحدى الحروب الصليبية العظيمة ، وكان ما نستطيع تسميته باسم الحرب الصليبية الثامنة . وقد ورث هذه الحركة عن هنرى الملاح ، كل من مانويل السعيد ويوحنا الثالث ، فضلا عن أفونسو ألبوكرك وغيره من زعماء التوسع البرتغالى الذين كانوا يعدون أنفسهم مجاهدين بحق فى حملة صليبية حقة . وكانت كل ضربة تكال للمسلمين تعد فى نظرهم نصرا للمسيحية . وكما أوضح ألبوكرك بصريح العبارة لجنده فى ملقا ، كان كل هجوم يشن على تجارة الأفاويه ، هجوما على الرغد المالى الذى تسعد به الأمم الإسلامية ، وهى ناحية من نواحى الحرب الاقتصادية كان مدلولها مفهوما كل الفهم لدى كل من الدول الإسلامية والبرتغال على السواء . وكانت لذلك الاتجاه الصليبى نتائج معينة لها أهميتها ، ولم تكن علاقة البرتغاليين غير ودية على وجه الإجمال مع شعوب وحكام آسيا غير المسلمين .

وقد توقفت الناحية الصليبية والمضادة للمسلمين فى التوسع الأوربى عن أن تكون عاملا ضخما فى الحركة عند بداية القرن السابع عشر ، وذلك لسببين هامين . وأول هذين السببين أن الحركة البروتستنتية قد مزقت كلمة العالم المسيحى ، كما أن

التعصب الديني الذى كان موجها نحو الإسلام قد وجه ناره آنذاك إلى الحرب الأهلية بأوربا .

وكانت نتيجة الحروب الدينية التى عاثت بأوربا فسادا مدة تزيد على قرن من الزمان ، ولم تنته إلا عند عقد معاهدة وستفاليا ، أن عفت على آثار الخطر الإسلامى وأزالت ذكراه من العقول ، فكف منذ ذلك التاريخ عن أن يكون دافعا أوليا فى التاريخ الأوربى . وثانيهما معركة ليبانتو التى دمر فيها دون جوان النمساوى قوة الترك البحرية بالنيابة عن أوربا المسيحية . وبعد ذلك النصر أخذ خطر الإسلام يتضاءل شيئا فشيئا ، وإن ظلت الدولة العثمانية قوية عاتية وقادرة فى بعض الأحيان على دفع رحى الحرب إلى أبواب ڤيينا . بيد أن الأمم الأوربية الغربية لم يعد يداخلها من التركى بعد ذلك أى خوف .

وعندئذ حل محل الروح الصليبية فيما يتعلق بالأقطار الكاثوليكية روح التنصير ونشر المسيحية . فإن الانبجاسة التى حدثت فى المذهب الكاثوليكى ، تلك الانبجاسة التى كان من أخص وسائل التعبير عنها إنشاء جمعية يسوع ، كانت ترى فى الشرق مجالا عظيما للتنصير ونشر الأناجيل . وكان لتلك الفكرة أعمق الأثر فى الملكية البرتغالية ، ومن ثم نجد بين يدينا منذ تلك اللحظة دافعا جديدا بعث الآباء اليسوعيين على الشخوص إلى بلاطات المغولى الأعظم وإمبراطور الصين وشوجن اليابان . ودب الضعف قليلا فى ذلك الدافع عندما هبط الهولنديون والإنجليز أرباض آسيا ، وذلك أنه حتى بداية القرن التاسع عشر لم تحس الكنائس البروتستنتية بذلك الدافع يحفزها إلى تنصير الوثنيين والدخول جديا فى مضمار التبشير . ثم يعود التنصير أثناء القرن التاسع عشر بل وفى العشرين حتى الحرب العالمية الأولى فيصبح دافعا ضخما كبيرا فى علاقات أوربا بآسيا . وربما أمكن فعلا أن يقال إن أشد جهود الأمم الأوربية جدية وثباتا وأضبطها خطة مرسومة فى القرن التاسع عشر كان نشاطهم التبشيرى بالهند والصين ، حيث بذل جهد ضخم النطاق لإحداث فتح عقلى وروحى يستكمل به السلطان السياسى الذى كانت أوربا تستمتع به قبل ذلك فعلا . ومع أن نتائج تلك المحاولات كانت موئسة إلى درجة مفرطة من وجهة نظر المبشرين ، فإن ذلك الهجوم على الأسس الروحية للأقطار الآسيوية له عواقب بعيدة الأثر عند

إعادة تنظيم النظامين الاجتماعى والدينى للشعوب . وقد حاولنا فى فصل سابق أن نقدر آثار تلك الحركة فى عودة آسيا إلى الانتعاش . وكل ما يتطلب الأمر قوله هنا هو أنه من الضرورى لنا أثناء استعراضنا لعوامل تأثير أوربا فى الأقطار الآسيوية ، أن نضع نصب ذاكرتنا الدافع الدينى المتواصل للتوسع الأوربى ، وتضع فى اعتبارنا الجهد الهائل غير الرسمى الذى كان ذلك الدافع يمثله . والحق أن من المناسب أن يقال إنه بينما التوسع السياسى كان من عمل الحكومات والجامعات ، وكانت التجارة مدار اهتمام رأس المال المنظم ، فإن التبشير كان جهد شعوب الغرب التى شاءت أن تحمل إلى عقر دار الكتل الآسيوية رأيها فى قيم الحياة .

على أن الدين كان مع ذلك ناحية واحدة من نواحى التوسع الأوربى . إذ أنه ما لبثت التجارة أن غطت على الناحية الدينية حتى فى حال البرتغاليين أنفسهم ، الذين كانوا يسوّون فى البداية بين تأسيس الاحتكار فى تجارة التوابل وبين الدين . حتى إذا دخلت الدول البروتستنتية الحومة ، أصبحت التجارة الاعتبار الوحيد . فلم يكن هناك اتصال يخرج عن دائرة العلاقات التجارية إلا فى أضيق الحدود . فلو أنه تم بمشيئة من الله أن انقطعت العلاقات بين أوربا وآسيا على حين بغتة فى (١٧٤٨) ، فما الذى كان يتبقى أثرا لذلك النشاط العنيف المحموم الذى دام قرنين ونصف من الزمان ؟ لو أننا نظرنا إلى اليابان فى تلك السنة لما وجدنا فيها عدا عددا قليلا متناقصا من المسيحيين وتقاليد غامضة من « العلوم الهولندية » وخرائب مصنع فى ديشيما — أى شىء يذكر اليابانيين « بالبرابرة الحمر » الذين جاءوا من وراء البحار ، ولما وجدنا فى الصين لهم من أثر سوى تقويم أصلح وبضعة أمثلة على قيام مدرسة للتصوير عجيبة ودخيلة ، وسوى ذكريات وتقاليد فى كانتون لبرابرة جامحين . أجل ربما أضيف هامش إلى حوليات أسرة تشنج ، مفاده أن شعبا غريبا أظهر اهتماما عظيما بمنتجات الصين قد كف عن ارتياد الموانى الجنوبية بعد تاريخ معين . وحتى الهند نفسها ، لو أن اتصالها بأوربا قد انكف فى (١٧٤٨) لغدا كل ما يمكن أن يتبقى للتأثير الأوربى بضعة حصون مخربة على سواحل غير مأهولة ، وسوى بعض الكنائس التى شادها البرتغاليون بالمناطق الساحلية أيضا ، وسوى مجتمع صغير من الأنغال يكادون يقضون حسرة على الأيام التى كان لهم فيها شأن ثم لا تجد بعد ذلك

شيئا . وفى الفترة التجارية (١٦٠٠ — ١٧٥٨) . لم تفد أوربا آسيا إلا بالشىء القليل .

ومع ذلك ففى فترة الفتح (١٧٥٠ — ١٨٥٧) ، بدأ الموقف يتغير . فإن زعماء آسيا أخذوا يحسون أن الأوربيين بدأوا يصبحون خطرا يتهدد كيانهم وأن لابد من أخذهم مأخذ الجد . فليس عجيبا إذن أن أولى النواحى الهامة التى شرع الزعماء الآسيويون فى إبداء الاهتمام بها كانت صنع المدافع ، وتنظيم الجيوش والمعدات العسكرية . وكان الهولنديون فى ديشيما فى ضجر دائم من تعليم اليابانيين أسرار صب المدافع . واضطر الآباء اليسوعيون أن يصبحوا خبراء أسلحة ومدفعية عند بلاط بيكين ؛ بيد أن اليابان والصين ، لم تحاول واحدة منهما أثناء تلك المرحلة أن تنقل التنظيم العسكرى لدى الغرب . ولم تحاول « الدول الإقليمية » بالهند أن تدرب جندها وتعلمها على الطريقة الغربية إلا بعد أن دحر جيش السباهية التابع لشركة الهند الشرقية الإنجليزية جند المغولى فى بوكسار ، ولم تلبث تلك الدول حتى أجادت تعلم الدرس الذى تلقته إجادة جعلت الجيش البريطانى يلقى كل عنت حين حاول أن يفتح مملكة السيخ فى حروب البنجاب فى الفترة ما بين (١٨٤٥ ، ١٨٤٨) . ولكن كان هناك فيما عدا هذه الروح المستطلعة فى نواحى الشئون العسكرية استطلاع له ما يبرره صادر عن بضعة أفراد ممن بيدهم السلطان ، كان هناك آخرون تفيض أنفسهم اهتماما بالقوة الفكرية والروحية لدى الأمم الأوربية . وخير مثال يضرب لهذا الاتجاه الذى أخذ يتبدل نحو أوربا ؛ رام موهان روى ومدرسته بالهند ومدرسة الرانجاكوشا باليابان . ولا أدل على الاستيقاظ الفكرى وعلى الإحساس بالمجتمع العالمى الذى أخذ فجره يتنفس فى آسيا ، من أن المواطن تبوّ اشترك كعضو فى نادى اليعاقبة بسيرنجاباتام ، ومن تراسل رام موهان روى مع زعماء حركة الاستنارة بأوربا ، ومن الاجتماعات العامة التى عقدت فى كلكتا لتهنئة الثوريين التحرريين بأسبانيا .

والثورة الفرنسية هى أهم عامل مفرد غيّر العلاقة الفكرية بين أوربا وآسيا . وقل من الناس من يقدرون اليوم الأثر الهائل الذى أوتيته الثورة الفرنسية خارج أوربا . فإن زاوج هاييتى وتبوّ فى مايسور والراديكاليين الهولنديين بإندونيسيا ، كانوا يحسون جميعا بتموجات هذه الحركة تنداح حتى تصل إليهم . وكانت إصلاحات

داندايلز بجزيرة جاوة نتيجة مباشرة لها : ومن عواقبها غير المباشرة سياسة واسلى العدوانية التى انتهت بضم مناطق مترامية من الهند ، وذلك لأن الخوف من الفرنسيين الثوريين هو السبب الأساسى لسياسة الفتح التى انتهجها . بيد أن مبادئ الثورة الفرنسية : « الحرية والإخاء والمساواة » — لم تؤت آثارها النفاذة الشاملة بآسيا من حيث هذا المعنى . فإن ما حدث بفرنسا من تطورات لم يكن لها — كثورة — إلا أضأل الأثر المباشر فى الشعوب الآسيوية . ولكن لم تلبث مبادئ الثورة حتى أصبحت الإرث المشترك لحركة التحرير الأوربية أثناء الفترة التى عقبت انطفاء الفقاعة النابليونية . فإنها وقد امتدت إليها يد المصلحين بالتعديل وأضيفت إليها هالة من الاحترام أثناء الفترة التى عقبت العصر النابليونى مباشرة ، أصبحت الأساس العقلى لرجال السياسة الأوربيين . ومن ثم لم يعد فى الإمكان إهمال التعليم فى ممتلكات الشعوب الأوربية ولم يعد بد من تزويد الشعوب بقوانين عصرية ؛ وحتى الهولنديون أنفسهم اضطروا أن يقولوا بأفواههم أنهم سيسدون الخدمات لمصالح الأوندونيسيين عندما استردوا مستعمرة جاوة بعد أن فقدوها . ولم تلبث سياسات الدول الأوربية أن أخذ يتسرب فيها رويدا رويدا تقليد تحررى .

والمبادئ الثورية الفرنسية لم تصبح فى الوقت المناسب عاملا يؤثر فى الفكر الأوربى من حيث علاقته بالشرق وحسب ، بل إنها أمدّت الشعوب الآسيوية بأول مذاهب سياسية اعتنقوها . وإنك لتسمع فى ما كتبه الهنود أثناء الفترة الأولى للوطنية طنين أصداء مبادئ تلك المدرسة . وإن رام موهان روى وأتباعه حين قدموا الملتمسات مطالبين بإلغاء حرق الأرامل ، وبجعل التعليم باللغة الإنجليزية وبزيادة الحرية للنساء ، وإن جاءوا بالاقتباسات من الكتب المقدسة الهندوكية تبريرا لإصلاحاتهم ، إنما كانوا فى الحقيقة يفكرون بعقل روسو ، وأفكاره التى كيفوها حتى تتقابل والظروف الهندية . ولا يستطيع إنسان أن ينكر ما كان لأوربا من أثر ملهم لحركة الإصلاح الآسيوية التى قامت فى النصف الأول من القرن التاسع عشر .
وشهد القرن التاسع عشر بلوغ الرأسمالية بأوربا أوج ذروتها . وقد أصبح من الأمور المقررة الآن لدى المؤرخين أن ذلك يرجع إلى حد كبير إلى استغلال أوربا لثروات آسيا ومواردها . يقول هبسون مؤرخ الاستعمار : « إن استغلال مناطق

أخرى من العالم بواسطة النهب العسكرى والتجارة غير المتكافئة والسخرة ، كانت الشرط الوحيد العظيم الذى لم يستغن عنه أحد أثناء زيادة الرأسمالية الأوربية» . فثروات التجارة الآسيوية (والأمريكية) التى أخذت تتدفق إلى أوربا هى التى هيأت الجو لنشوء الانقلاب الصناعى العظيم بإنجلترة . بيد أن رسوخ قدم الرأسمالية باعتبارها الهيكل الاقتصادى المتسيطر على عقول الشعوب المستعمرة ، قد صحبه تغيرهائل بعيد الأثر ألم بعلاقات الغرب بآسيا . ففى القرن الثامن عشر ، كانت التجارة هى الهدف من الفتح : فأنت تستطيع فى المنطقة التى تفتحها أن تستبعد كل الشعوب الأخرى ، وتشترى بأرخص الأثمان ، وتنظم الإنتاج بحكم السخرة والقهر حتى يتناسب واحتياجاتك وتنقل كل الأرباح إلى الوطن الأم . ولم يكن الفتح أثناء القرن التاسع عشر بقصد التجارة بل بقصد الاستثمار . فمزارع الشاى العظيمة وإنشاء السكاك الحديدية أصبحت نواحى اهتمام عظمى فى علاقة بريطانيا بالهند . واستثمرت أموال طائلة بالهند فى إنشاء السكاك االحديدية . يقول كاتب إنجليزى : « إن عائدات قروض السكاك الحديدية الهندية كان ثلثها تقريبا يدفع فى لندن رسوما بأرض الوطن ، وكان مقدار يقل عن الثلث ينفق فى الأجور وفى النفقات الإدارية ، ومعظمها يدفع للمهندسين الإنجليز ومقدار يتجاوز الثلث قليلا ينفق فى شراء القضبان والآلات البريطانية وفى دفع النولون للسفن البريطانية مقابل نقلها إلى الهند * » .

والدور الثالث من أدوار علاقات الأوربيين بآسيا ، وهو الدور الذى يبدأ عند منتصف القرن التاسع عشر ، هو فترة التوسع الإمبراطورى بمعنى الكلمة الحق . وقد تم التحول بالهند فى أبكر وقت ، والهند دائما كانت النموذج الذى يحتذيه الباقون : فيحتذيه الهولنديون بإندونيسيا ، ويأخذ به الفرنسيون بالصين الهندية ، وتتلقفه الشعوب جميعا فيما يتعلق بالصين . وعلاقة التوسع الإمبراطورى القائمة على استثمار رأس المال فى أوسع الحدود ، كانت لها نتيجة مباشرة هى تصدير المهارات الفنية المتقدمة والمعرفة العلمية إلى آسيا . ذلك أن إنشاء السكاك الحديدية وهو الحقل الأعظم لاستثمار رأس المال ، كان يحتاج إلى استيراد المهندسين . وكانت الأنهار تحتاج إلى كبارى تعبر عليها القطارات ومسيرها يحتاج إلى حفر الأنفاق ، فإذا أنشئ الخط لم يكن له

---

* اقتبسه كاربختون فى : « البريطانيون وراء البحار British Overseas » ص ٤٧٩ .

بد من الصيانة . ولم تلبث المهارة الفنية المستوردة من الخارج أن أصبحت باهظة النفقات فيما عدا الخبرة الفنية العليا ، ونتيجة لذلك لم يكن بد من إنشاء كليات الهندسة ومدارسها . وكان انتشار المعرفة الفنية ببلاد الشرق ، الذى أشرنا إليه فى مسألة السكك الحديدية على سبيل المثال لا الحصر ، نتيجة ضرورية اقتضاها استثمار رأس المال . ولم يكن من الممكن الحيلولة بين الآسيويين وبين تلك المعرفة ، وذلك لأن عوائد رأس المال كانت تتوقف على العثور على المهارة الفنية محليا . وقد ظهرت حركة مماثلة لهذه فيما يتعلق بالصناعة أيضًا : فاضطرت الصناعات الأوربية المؤسسة فى كلكتا وبومباى وشنغهاى ، أن تعتمد فى مستوياتها الدنيا على الأقل على موظفين مدربين تدريبا محليا . حتى إذا تقدمت المعرفة بين السكان المحليين ، أصبح من المحال منع رأس المال الهندى من مزاحمة الاحتكارات الصناعية الأوربية . وفى الهند بدأت مصانع القطن تنتشر فى بومباى وأحمد آباد . وفى شنغهاى التى أصبحت بحق مدينة أوربية أو تكاد ، لم يجد رجال الصناعة الصينيون أية صعوبة فى إنشاء المصانع تقليدا للنماذج الأوربية . ولم يلبث إنشاء السكك الحديدية بالصين ، وهو الأمر الشائك الذى كان موضوع منافسة دولية عنيفة ، أن انتقل بعد الشروع فيه لأول مرة إلى يد الحكومة الصينية . وهكذا تجد أن التوسع الاستعمارى بحكم خاصته المميزة كمصدر لرأس المال قد حمل إلى آسيا بذور هدمه والقضاء عليه .

ثم إن التوسع الاستعمارى الأوربى فى القرن التاسع عشر ، من حيث ناحيته الثانية ، وهى التوسع الإقليمى بقصد الحصول على مناطق للاستغلال ، كان بحكم تأثره بالدوافع الإنسانية التى دعت إليها الحركة التحررية ، قد اتجه إلى عمل سياسة تعليمية ، وإلى وضع خطط لتحسين أحوال الناس بل حتى إلى التدريب السياسى نفسه . وطبيعى أن الحكم المباشر لمجتمعات ضخمة من الناس كان يتمخض عن نواحى جديدة تدعو إلى الاهتمام . ولم تكن للسلطات الإدارية أية صلة مباشرة بالتجارة ولا أية مصلحة فيها ، حيث كان رجالها تبعا للتقاليد الإنجليزية على الأقل ، يؤخذون من الطبقات الوسطى التى تتلقى التدريب بالمدارس الثانوية العامة . وهكذا ترى أنه حدث بالهند وإلى حد ما بإندونيسيا أن تناقضا ظهر داخل بنيان الاستعمار ، حيث كانت السلطات الإدارية ميالة فيه إلى تأكيد ناحية الخير العام التى تنشدها بعملها ، وذلك على حين أن أصحاب المصالح التجارية كانوا لا يزالون

يعدون المستعمرات مناطق للاستغلال . وقد ظهر الخلاف بين وجهتى النظر جليا بالهند فى مسألة مشروع قانون إلبرت والحركات المتتابعة لمقاومة الإصلاحات السياسية ، وكان مصدر الإلهام والزعامة فيها على الدوام كبار رجال الأعمال . وكانت مقاومة الإصلاحات السياسية ظاهرة فى الصين أيضا حيث كانت السلطة تستخدم عن طريق غير مباشر . فمن الأمثلة على هذا التناقض تلك المنازعات المريرة بين تجار شنغهاى وتجار موانى المعاهدات وبين وزارة الخارجية فى معالجة شئون الصين ، وهو نزاع قد بحثناه آنفا . والحق أن السلطات السياسية مجتمعة مع المثل الإنسانية العليا التى انتشرت فى حقبة السلم قد أدخلت فى الأنفس شعورا بالمسئولية نحو « الشعوب المتأخرة » . ذلك أن أحدا لم يتوقع كمون أى خطر على تفوق أوربا وراء تلك التطورات ، وذلك أنه حتى عند نهاية القرن التاسع عشر كان الأوربيون حتى أشد الناس روحا تقدمية فيهم ، كانوا يعتقدون أن تفوقهم كان شيئا قدرته وأمرت به الذات الإلهية وأنه أمر سيظل يعيش فى أمان تام لعدة قرون أخرى . ولقد كان مما يدعو إلى الضحك أثناء العصر الذهبى للتوسع الإمبراطورى أن يفكر امرؤ فى أن أولئك الصينيين الضعفاء الفاترى الهمة غير المعبئين والمحرومين من الإمكانيات الصناعية ، كان يمكنهم أن يقفوا على أقدامهم ويحاربوا الأوربيين فى مدى زمن يمكن تقديره ، أو أن فى إمكان الهنود أن ينافسوا البريطانيين فى التجارة أو الصناعة ، أو أن مئات الجزائر الإندونيسية كان فى إمكانها أن تتحد معارضة منها للهولنديين . من أجل ذلك كان المثل الأعلى الإنسانى القائم على تعليم الشعب الآسيوى وتشجيعه على أن يطور على الأقل تلكم المهارات التى كانت لازمة لإفراغ شحنة رسالة الرجل الأبيض إفراغا فعالا — يمارس بلا انقطاع دون أن يداخل أصحابه أى شعور بالخوف.

زد على ذلك أن المسائل المعقدة الشائكة المتعلقة بالإدارة المباشرة لمناطق ضخمة مثل الهند وإندونيسيا استلزمت إنشاء هيئة ضخمة من الموظفين الإداريين الوطنيين . ولم يكن هناك حاجة إلى مثل ذلك أثناء فترة التجارة . فأما فى فترة التوسع الإمبراطورى فكان ذلك أمرا لابد منه . ولم يكن بد لجهاز الدولة العصرى الذى تديره المواهب المحلية ، من أن يقوم وأن يدار ، وبذلك يمد الشعوب الآسيوية بالتدريب الإدارى من ناحية وبالمعرفة بدولاب الحكم العصرى وفهم أصوله من ناحية أخرى . وهذا أمر له أهمية خاصة ، وذلك لأن أحد الفوارق الرئيسية بين فترات التاريخ الأولى

والنظم السياسية التى تطورت إبان القرنين التاسع عشر والعشرين » ، كان يكمن فى النظم الإدارية الضخمة التى كانت تمس كل ناحية من نواحى الحياة ، التى كانت تتمثلها تنظيمات الدولة إبان القرنين التاسع عشر والعشرين . ففى القرن الثامن عشر لم يكن فى أوربا ولا فى آسيا حكومة تستطيع أن تدعى لنفسها القدرة على التدبير الإدارى بالمعنى الذى نفهمه اليوم . وفى النصف الثانى من القرن التاسع عشر اضطرت البلاد الأوربية وقد ألزمتها الظروف أن تعالج كل يوم مزيدا متصاعدا من مشاكل الصناعة والتجارة والصوالح الاجتماعية والاقتصادية ، أن تنظم الدولاب الهائل دولاب الإدارة العصرية وهو أمر لم يكن يخطر لفردريك الأكبر ولا لنابليون على بال ، فضلا عن أن ما سبق عصرهما من فكر سياسى ما كان إلا ليقاومهما بمرارة بوصف أن وجودهما كان عدوانا على الحرية. وكانت نظم الدولة القديمة وإن كانت فى جوهرها بلوتوقراطية ، فهى من ثم « إدارية » وليست سياسية ، — تقصر جهودها مع ذلك على الدفاع وإدارة شئون الأرض . وإن رجالا من أمثال أكبر أو كانج هسى أو هيديوشى لم يكن لديهم عن إدارة شئون الدولة أية فكرة تتجاوز جمع الضرائب ، وتوطيد السلام ومقاتلة الأعداء . وانقضى زمانهم — زمان أكبر بالهند وكانج هسى بالصين وهيديوشى باليابان — وجاء زمان آخر ولكن الفكرة عن الدولة لم تتطور . وهكذا كانت اليابان لا تزال عند منتصف القرن التاسع عشر تتقلب فى ظلال الإقطاع ، وكانت الصين تحكم فى ظل حكم استبدادى مطلق (أوتوقراطى) ، على حين أن نواب الملك بالولايات كانوا موظفين شبه مستقلين تابعين للإمبراطور مباشرة ، فأما فى الهند ، فحتى الحكومة البريطانية نفسها لم تكن تفكر إلا فى تولى أقل قدر ممكن من شئون الحكم وعدم التدخل مع الأهالى . فالنظام الإدارى الذى طوره التاج بالهند ، والذى كانت كل إدارة استعمارية تشعر بأنها مضطرة أن تطوره فى منطقتها ، كان لا يزود العقل الآسيوى بالخواطر الأولى عن الدولة الأجنبية فحسب ، بل يزودها أيضا بالجهاز اللازم لتحقيق ذلك فى الوقت المناسب . وحتى فيما يتعلق بالصين ، كان ذلك تطورا لم يلق القدر الكافى من الالتفات . وكان مما زود الصين بأمثلة حية للإدارة الجديدة ، تنظيم مصلحة الجمارك الإمبراطورية بإشراف الغربيين وقيادتهم ونمو مصالح البريد والبرق (التلغراف) .

والناحية الثالثة للتوسع الأرضى — فى حقبة التوسع الإمبراطورى — هى ناحية شيوع ذلك الإحساس بالمسئولية عن « الرفاهية المعنوية » التى وجدت أبرز ألوان التعبير عنها فى أعمال التبشير . وقد أثارا ضمير الناس وبخاصة فى الأقطار البروتستنتية ، أن المناطق التى يحكمونها حكما مباشرا ، كان مئات الملايين يعيشون بها ويموتون دون أن تتاح لهم فرصة الخلاص . وقد سبق أن ألقينا نظرة إلى الحمية والإخلاص الصادق لدى رجال مثل وليم هدسون تايلور مؤسس بعثة الصين الداخلية . ولم يكن ذلك الرجل إلا ألمع مثال بين آلاف من الرجال الأتقياء المترعى القلوب بالجد والذين كرسوا أنفسهم للتنصير وقضوا حيواتهم فى الأقطار المختلفة . ومع أن نتائج نشاطهم الدينى كانت ضئيلة لا تكاد تذكر ، وكثيرا ما كانت تؤدى إلى نتائج لم تكن تخطر لهم على بال ، إلا أن اهتمامهم بحياة الناس ورفاهيتهم وصلاح أحوالهم وما بذلوا من جهود فى سبيل هدم حواجز الجنس ، قد عادت بمنفعة صالحة هى التقريب بين الغرب وآسيا . وفضلا عن ذلك ، فإن عملهم التعليمى والطبى داخل الهند والصين وبورما كانت له عواقب بعيدة المدى .

وينبغى لنا أن نؤكد أن اتصال شعوب الشرق بالأوربيين لم يبدأ حقا إلا فى عصر التوسع الإمبراطورى . وفى نيف وثلاثمئة من السنين سبقت ذلك العصر (من ١٤٩٨ إلى ١٨٥٨) كان ذلك الاتصال محدودا حتى فى الهند نفسها ، وقاصرا على دوائر ضيقة ، ولم يكن قد تغلغل حتى بين الطبقات الحاكمة . حتى إذا جاء أوان الإدارة المباشرة وتطوير نظم التعليم ، والاتجاه نحو الاستغلال بدلا من التجارة ، أخذ الاتصال ينتقل رويدا رويدا نحو مستويات مختلفة أخرى . ولم يلبث شباب آسيا أن أخذ رويدا رويدا طريقه نحو دور العلم الأوربية . وقد شهدنا كيف بدأت اليابان سيرتها بخطة مرسومة بإيفادها نخبة مختارة من الشبان ليتفهموا أسرار أوربا . وكانت « المئة الأولى » التى أرسلها ورعاها نائب الملك العظيم تسانج كيوفان جهداً عقيما فى نفس ذلك الاتجاه . ولم يكن الدافع الأول إلى إرسال شباب الهند عبر البحار عجم أسرار الحياة الأوربية ، بل اعتبار آخر مادى أقوى هو البحث عن فرصة أحسن للتبارى فى امتحانات الخدمة المدنية . بيد أن هذه الحركة لم تلبث حتى بلغت بسرعة نسباً هائلة ، وتخصصت نسب كبيرة من الطلبة

الذين ذهبوا إلى أوربا فى دراسة مواد كالهندسة مثلا والطب وشئون الغابات والجيولوجيا والكيمياء ، بالإضافة إلى القانون والعلوم الاجتماعية . وحدثت حركة مماثلة لهذه حملت أعدادا ضخمة من شباب الصين الهندية وطلبتها إلى باريس ومن إندونيسيا إلى لندن . واجتذب الرايخ الألمانى بما كان له من حسن الأحدوثة عددا متزايدا من الطلبة إلى جامعات الرايخ .

وهكذا شهدت الفترة بين (١٨٧٠ – ١٩١٤) أول لقاء ضخم بين العقول الأسيوية والغربية . ولا شك أن الاختمار العقلى الذى أحدثه ذلك الاتصال بآسيا لا يمكن أن يعالج بوصفه تحدياً لتقاليد الماضى الراسخة التى كانوا يمثلونها ؛ ولكنه عاد أيضاً يبذر بذور الفكر الجديد الذى حل فى الوقت المناسب محل علم الأقدمين ووضع الأقطار الأسيوية على الدرب الموصل إلى التقدم الفكرى . ومن ناحية أخرى أصبحت الأقطار الأسيوية للمرة الثانية ذات نزعة عقلية علمية . فحملهم فكرهم السياسى إلى ما وراء كونفوشيوس ومانو ، وبدأ تاريخهم يمتص دروس البلاد الأخرى ويتمثلها – وفضلا عن ذلك كله ، فإن النقطة الجوهرية بالنسبة لغرضنا الذى إليه نهدف ، والذى حدث فى كل قطر من أقطار آسيا ، هو أن زعامة الحركة التى أزاحت فى النهاية التفوق الأوربى عن مكانته كانت بيد من دربهم الغرب تحت رعاية التوسع الإمبراطورى فلم يتدرب ببلاد الغرب المهاتما غاندى وجواهر لال نهرو فحسب ، بل قد تدرب هناك أيضاً مؤسسو المؤتمر الوطنى الهندى والأجيال المتعاقبة من زعماء المؤتمر . وفى اليابان كانت جماعة الرواد الذين أرسلتهم الشوجنية إلى الغرب ، هى التى قامت على رأس حركة تنظيم الدولة : فأما الصين ، فمع أن خلع أسرة المانشو بها لم يقم به أناس تعلموا ببلاد الغرب ، إلا أن بناء الحركة الثورية التى عقبت ذلك ، كان زعماؤه رجالا تلقوا التعليم الغربى . وفى إندونيسيا والهند الصينية وبورما وسيلان كان الذى حمل لواء الزعامة هناك هم الرجال والنساء الذين تعلموا ببلاد الغرب (وهم الوجز * أى الشرقيون المنطبعون بالطابع الغربى) وهو الاسم الذى أطلقه عليهم الأوربيون احتقاراً وزراية .

من ذلك يستبين القارئ فيما يتعلق بالعلاقات بين الشرق والغرب ، أن الفترة الحيوية التى شهدت تحقيق مطامع الأوربيين وولدت فى الحين عينه الحركات

* Wogs .

صورة أساطير وأقاصيص . ومنذ إثبات أن شخصيتى ساندرو كوتس وشاندراجوبتا موريا شيء واحد ، إلى حفائر موهنجودارو وهارابّا ، ومنذ حل رموز الكتابات التى خلفها أسوكا ، إلى الاستعراض الشامل للتسجيلات الكتابية التذكارية المتناثرة بكل أرجاء الهند ، كان العلماء الأوربيون هم الذين يزودون العالم بالمواد اللازمة لتدوين التاريخ الهندى . فأما أندونيسيا فحالها أشد إمعاناً فى الغرابة ، حيث قامت ثلة قليلة من العلماء الأوربيين أغلبهم من الهولنديين بتجميع الكتابات وإعادة تكوين تاريخ إمبراطوريات جاوة وسومطرة العظيمة التى أمدت القومية الأندونيسية بأساس تاريخى متين . وبهذا المعنى لا يمكن أن ينكر أن العلماء والمفكرين الأوربيين ، بما بذلوا من جهود فى سبيل المعرفة ، قد طوّعوا للهند وسيلان وأندونيسيا أن تفكر على أساس الاستمرار التاريخى .

والقومية إنما هى كذلك فخر بالتحصيل الثقافى — وشعور بالميراث المشترك لتراث ثقافى نبيل . ولم يكن الهنود ولا الصينيون ولا اليابانيون بحاجة إلى من يحدثهم عن جزالة ثقافتهم الموروثة ، والحق أنهم كانوا مقتنعين كل الاقتناع أنهم متفوقون على كل من عداهم . وسنعاود الحديث فى هذا الأمر بعدُ . ولكن لعل من الخير أن نتنبه هنا أن تبرير ذلك الاعتقاد تبريراً عقلياً فى العصر الحاضر إنما يرجع الفضل فيه إلى استرجاع علماء الغرب لثقافة الهند والصين وتفسيرهم لها . فإن تصاوير كهوف تنجهوان لم تكن معروفة لأحد حتى اكتشفها العالم المجرى السير أوريل ستاين ، وكذلك شأن كهوف آجنتا وباغ بالهند . وعندما استفاقت الشعوب الآسيوية من غاشية « سكرتها الأولى بالغرب » ، كما قال يونى نجوتشى كان فى إمكانهم أن يلتفتوا وراءهم فيجدوا سنداً يدعم احترامهم الذاتى الفكرى فى ثقافة اجتذبت إليها أنظار بعض العقول الممتازة بالغرب . والواقع أنه بينما كانت مقاومة السيطرة السياسية التى تفرضها أوربا تزود القوم بالقوة المحركة للقومية الجديدة ، فإن ركن تبريرها وقوتها هو التقدير المتزايد لثقافتها الخاصة ذلك التقدير الذى أسهم فيه أيضاً علماء الغرب إسهاماً مادياً له أهميته .

فلئن تطورت القومية بشكل مباشر بفضل المقاومة ، وبصورة غير مباشرة بفضل الشعور والكبرياء بالتحصيل الثقافى ، نتيجة للاحتكاك بالغرب ، فإن

الشعور بالنعرة الأسيوية إنما هو بأكمله المقابل لتماسك مشاعر الأوربيين . وقبل نهاية القرن التاسع عشر لم يكن هناك أى شعور اسمه النعرة الأسيوية . بيد أننا نجد عند بداية هذا القرن الفنان اليابانى العظيم أوكاكورا اكاكوزو يفتتح كتاباً بتصريح مروِّع هو « إن آسيا وحدة واحدة » . ولا شك أن النواحى المشتركة بين تقاليد آسيا غير الإسلامية كثيرة متعددة ، من حيث طريقة معالجة الشئون الدينية والتنظيم الاجتماعى والفنى إلى غير ذلك . وهناك بضع ظواهر مشتركة معينة بين حضارات الأقطار الأسيوية الممتدة من اليابان إلى الهند ، وهى أشياء لا يمكن أن تفسر فقط بوجود المؤثر البوذى ، وإن توقير السلف والروابط العائلية ، وكلاهما يخرج عن البوذية ، إنما هما من الظواهر العادية المشتركة للنظام الاجتماعى للشرق غير الإسلامى . وعلى حين أنه ليس هناك أدنى شك — كما يوضح ذلك كثير من المراقبين * الغربيين — أن هناك فروقاً جوهرية بين موقف كل من الهندوك والصينيين إزاء الحياة ، وبخاصة موقف الأدباء الصينيين الذين أثرت نظرتهم الكونفوشيوسية العملية تأثيراً قويًّا فى عقول المراقبين الغربيين ، فإن مما يعدل ذلك فى صدقه أن هناك تشاركاً فى الفكر والوجدان بين العامة من سكان الهند والصين ، ليس من الممكن تغافله. أجل إنه تقوم بين البرهمانى والكونفوشيوسى هوة لا سبيل إلى عبورها ولا التوصيل بين جانبيها ، كما أن المراقبين الأجانب وقعوا جميعاً فى الخطأ حين أرسلوا تعميمات تتعلق بالهند والصين على أساس الفروق القائمة بين هاتين الفلسفتين . غير أن وجهة النظر البرهمانية ، وإن كانت سائدة متسلطة ببلاد الهند من الناحية الفكرية ، ومع أنها كانت تدعى لنفسها مكان الأصالة ، إلا أنها لم تك قط فلسفة عامة الناس . أجل إنهم كانوا يظهرون نحوها الاحترام ؛ ولكن الظن بأنها هى التى كانت تشكل حياتهم قول يتجاوز بنا حدود آثارها . لقد كانت الحياة الهندية على الدوام مادية ، توجهها قبل كل شىء الظروف العسيرة التى تلازم اكتساب الرزق . وكذلك الشأن أيضاً فى الفلسفة الصينية الرسمية ، فلسفة الأدباء والماندرين ، فإنها مادية ، بيد أن هناك أسباباً تدعو إلى الظن بأن المراقبين الغربيين — تأثراً منهم « بمعقولية » وجهة النظر الكونفوشيوسية ، قد أساءوا تقدير الأثر الدينى التصوفى العميق للتاوية ، التى لها على الدوام تأثير ضخم على عقول العامة بالصين ، كما بخسوا حق بعض مدارس

* انظر ما كتب عن الصين بقلم لويس ديكنسن وبرتراند راسل خاصة .

فلسفية لايزال سلطانها قويًّا لدى أقسام كثيرة من المجتمع .

من أجل ذلك ليس صحيحاً ما يذهب إليه بعضهم من أنه ليس هناك أساس اجتماعى ولا روحى لتطور « فكرة النعرة الأسيوية » . ومهما يكن من أمر ، فلئن لم توجد تلك النعرة ، فإن المعاناة المشتركة لمحنة دامت مئة عام قد خلقت أساساً سياسيًّا واحداً ؛ ذلك أن الأقطار الأسيوية جميعاً مرت فى نوع واحد من العذاب وقاتلت فى نوع واحد من المعارك والتقت بنوع واحد من العدو . وسار هذا التطور المتجه نحو الحرية السياسية فى خطوط متوازية بوجه عام . وقد ترتب على صلف الأوربيين العنصرى وإدعائهم موقف التفوق الفكرى والخلقى ، بل حتى ترتب على الدعاية الدينية التى تعرضت لها جميع الأقطار الأسيوية ، — أن ظهرت بآسيا فى القرن العشرين نظرة سياسية مشتركة . ومن الدلائل على ما نشير إليه من تغير الاتجاه ظهور كتاب مثل « مستقبل أسيا الفتاة » الذى ألفه الكاتب الاشتراكى الهندى بنوى كومار ساركار .

وينبغى ألا يغيب عن البال أيضاً أن الشعوب الأوربية كانت تؤكد تماسكها ، وتؤكد أوربيتها فى معاملتها للأقطار الأسيوية ، فلم يكن ثمة مندوحة من إحداث شعور عام بالنعرة الأسيوية . ولو نظرت إلى الهند نفسها التى لم يكن رعايا الدول الأوربية الأخرى يستمتعون بأية حقوق سياسية بها ، لوجدت الانقسام قائماً بين الأوربى والهندى لا بين الإنجليزى والهندى . ولم تكن الأندية الاعتزالية بالهند مخصصة للإنجليز فقط ، بل للأوربيين جميعاً . وكانت المدارس الخاصة ووسائل التعليم وتسهيلاته الموجودة بالبلاد مخصصة أيضاً للأوربيين . فأما الصين التى كانت جميع الأقطار الأوربية تستمتع فيها بالامتيازات السياسية ، فإن المجتمعات الأوربية سارت فيها أشواطاً بعيدة جدًّا فى سبيل اتخاذ جبهة متحدة . وحتى بينما كانت رحى الحرب بين ألمانيا وفرنسا تدور فى أوربا ، اضطر السفير الألمانى إزاء ضغط مبدأ تماسك الأوربيين بعضهم مع بعض ضد الأسيويين أن ينضم إلى صف زملائه الفرنسيين فى مشكلة تيان تسن . وكذلك كان موقف الدول إزاء اليابان أثناء فترة مفاوضات تعديل المعاهدات . وذهبت جهود اليابان لعقد معاهدات ثنائية أدراج الرياح فى كثير من الحالات بسبب رغبة الدول الغربية فى التآزر والوقوف

صفاً واحداً ، فمنذ (١٨٨٠ إلى ١٩١٤) — أى أثناء فترة التوسع الاستعمارى — كان الأوربيون يتحدون معاً على آسيا ، وكانت نتيجة ذلك الموقف مولد الشعور بالنعرة الأسيوية التى لم يقوضها أى شيء تقويضاً خطيراً ولا حتى أعمال اليابان العدوانية وإعلانها لسياسة « الوقوف مع دول الغرب » .

وهناك رأى يذهب إليه على الجملة كثير من الكتاب الأوربيين مؤداه أن التغيرات التى حدثت بآسيا نتيجة احتكاكها بأوربا ، أمور سطحية ، وأنها لن تلبث متى زال عن أسيا السلطان السياسى ، أن تفقد قيمتها بمضى الوقت . وهم يشيرون بذلك إلى أن كتل السكان الغفيرة بالهند والصين وأندونيسيا بل حتى اليابان نفسها ، قد ظلت بمنأة عن التأثر بالتغيرات التى حدثت ببلادها ، وأن تأثير الأفكار الغربية وتغلغلها فى العقول والأنفس ظل قاصراً على طبقات محدودة من الناس ، وأن الديانات الشرقية العظيمة صمدت إزاء كل هجوم شن عليها ، وأن حياة الناس بالشرق ، على الرغم مما يظهر بها من تغير عظيم — إنما تسير فى مساربها القديمة المألوفة . وهم يشيرون بأصبعهم إلى التاريخ القديم مؤكدين أن المجتمعات القديمة بالهند والصين قد تمثلت فى القرون السابقة الأولى تقاليد أجنبية دون أن تتأثر بها فى تطورها : وأن شعوب الكوشان والهون وغيرهما قد كان لها فى الماضى نفوذ سياسى ببعض أجزاء الهند ، وأن الهون والمغول والمانشو قد سادوا الصين وحكموها ، دون أن يستطيع أحد منها أن يؤثر تأثيراً مادياً فى تطور المدنية الهندية أو الصينية . من أجل ذلك يذهبون إلى أنه ما أن يزول السلطان السياسى الأوربى ، حتى تنكفىء آسيا إلى طرازها الجامد القديم وحتى يمحى بالتدريج المؤثر الغربى وتطغى عليه الطرائق الوطنية للعيش .

ويلوح أن هذا الرأى يقوم على قراءة التاريخ قراءة سطحية بحتة — فأولا : إن المؤثرات القديمة التى تعرضت لها الهند لم يكن لها وجود إلا بمناطق محدودة ، كما أنها تمت على يد قوم كانوا أقل تقدماً من الهنود اجتماعياً وثقافياً ، ولو أنهم كانوا أقوياء من الناحية السياسية . لذا فإن الإغريق والكوشان « تهندوا » بدل أن يؤثروا هم أنفسهم فى الهند . فإن هليودوراس أقام العمود الشهير للإله ڤاسيوديڤا ، كما أن ميناندر أصبح من عباد البوذا المخلصين . ولم ينقض على الكوشان جيلان حتى

تهندكوا وأصبحوا هندوكاً . بل الواقع ونفس الأمر ، أن هؤلاء الأجانب لم يكونوا يدعون لأنفسهم أى تفوق ثقافى ولا هم حاولوا أن يغيروا ولا أن يعدلوا من البنيان الاجتماعى للهند . ولم يكن الموقف بالصين مختلفاً عن ذلك كثيراً . ولا شك أن الهونجنو (الهون) والمغول والمانشو قد غزوا الصين ، ولكنهم كانوا أبعد الناس عن إدعاء التفوق الثقافى على الصين وأتوقهم نفساً إلى تقريب ثقافتهم من ثقافة الصينيين . فأما فى حالة أوربا ، فكان الموقف مختلفاً جداً . فمع أن الهندوك واليابانيين والصينيين كانوا يودون أن يعتقدوا أن ثقافتهم كانت أعلى ، فإنهم لم يكن يسعهم إلا أن يسلموا بتفوق المعرفة الغربية وبقوة التنظيم الاجتماعي والاقتصادى بأوربا ، وإن لم يعترفوا له بخلة الثبات . وكانوا على اقتناع تام بعد أن مرت بهم فترة قصيرة من النشوة ، أن نظمهم الدينية والخلقية كانت فوق ما لدى الأوربيين ، بيد أنهم كان لديهم من البراهين ما يقنعهم بأن أوربا تتقدم عليهم بعدة قرون من الناحية الفكرية . من أجل ذلك حظيت العلوم الغربية باحترام الأسيويين جميعاً إبان قرن كامل من الزمان ؛ وأكثر من ذلك ، أن التنظيم الاجتماعى والاقتصادى الأوربى بات يعد معياراً كان القوم من ناحية جزئية يتقبلونه بحماسة كما أن الظروف العالمية كانت من ناحية أخرى تفرضه عليهم فرضاً . وهذا أمر لم يحدث قط قبل ذلك ، وذلك على الأقل فى تاريخ الهند والصين . ولم يستطع سلطان المسلمين وغلبتهم على شمال الهند أمد خمسة قرون كاملة ، أن يرغم الهندوك على أن يغيروا أفكارهم الاجتماعية من حيث الطائفية والنجس — بل الواقع أنه قوى تلك النزعات . ولم تستطع مئات من سنىّ الحكم الأجنبي أن ترغم الصينيين على التشكك فى صحة تعاليم كونفوشيوس ، أو الريبة فى أمر القيمة الدينية لكتاب « التقوى النبوية » . ومع ذلك ، ففى هذه الأيام ونتيجة للاحتكاك بالغرب ، صار النجس نسياً منسياً ولم يعد للطائفة تسلطها الهائل بالهند . وكف كونفوشيوس عن أن يكون أقدس الناس بالصين ، حيث تقضى عليه شعارات حركة الشباب . فليس ثمة شك إذن ، فى أن التغيرات التى أدخلت فى الحياة الأسيوية بواسطة الاتصال بأوربا ، إنما هى تغيرات أساسية جذرية بعيدة الأثر ، وأنها لن تختفى وتزول من الوجود بمجرد ظهور عاطفة أسيوية جديدة كما يعتقد كثير من المراقبين .

وقد يكون من المفيد لنا عند هذه النقطة أن نفحص الظواهر الكبرى التى يحتمل فيها الدوام للمؤثرات الغربية ، ومدى تلك المؤثرات فى المجتمع الأسيوى بوجه عام .

وأول هذه المؤثرات ولعله أدومها يقوم فى فلك القانون — فإن النظم القانونية تغيرت تغيراً جوهرياً بجميع الأقطار الأسيوية وأعيد تنظيمها من جديد وفق مفاهيم أوربا فى القرن التاسع عشر وبعد الثورة الفرنسية . وكانت الهند أولى البلاد التى أدخل فيها هذا التغيير ، حيث طبقت بها بطريقة منظمة مبادئ قانونية جديدة أدخلت بتأثير توماس بابنجتون ماكولى . وسأسمح لنفسى هنا بنقل ما كتبته عن هذا الأمر بموضع آخر : « إن النظام القانونى الذى عاشت بظله الهند مدة مئة من السنين والذى ظهر تطورها الاجتماعى والسياسى والاقتصادى داخل إطاره الفولاذى ، كان من عمل ماكولى . . . فإن إقامة صرح المبدأ العظيم مبدأ تساوى الجميع أمام القانون ببلاد لم يكن فى المستطاع فيها بحكم المبادئ الهندوكية إنزال العقوبة بأى برهمانى بشهادة فرد من طائفة السودرا الدنية ، بلاد كانت العقوبات فيها تختلف حسب الطوائف ، بلاد لم يكن من المستطاع فيها بحسب أصول الشرع الإسلامى أن تقبل الشهادة فى مسلم ، — كان فى حد ذاته ثورة قانونية فى الدرجة الأولى من الأهمية . وقلّ ممن يقارنون بين قانون ماكولى بأسلافه الثلاثة العظيمة — ، سواء منها ما وضعه مانو أوجستنيان أو نابليون ، من يستطيع أن يعترض على القول بأن قانون العقوبات الهندى إنما هو خطوة تنطوى على تحسن عظيم بالنسبة للمجاميع الأخرى * » .

ولا شك أن ذلك البنيان القانونى الرائع والفاخر حقاً الذى لم يعش فى ظله وحسب ٣٦٠ مليوناً من الأنفس بالهند ، بل وملايين آخرون فى الباكستان وبورما أثناء المئة السنة الأخيرة ، قد غير أساس المجتمع بطريقة قلّ من الناس من يدركها . ومع أن قوانين الأحوال الشخصية بمختلف المجتمعات ربما اختلفت ، إلا أن قانون العقوبات واحد للجميع . وقد أكمل ذلك القانون بمجموعة ضخمة من التشريعات ، أثرت أثراً عميقاً فى كل نوع من أنواع العلاقات الشخصية . مثال ذلك أن مركز المرأة بالهند اعتورته تغيرات كان الفكر الهندوكى حتى قبل خمسين

---

* انظر : « استعراض للتاريخ الهندى A Survey of Indian History » ص ٢٥٧ .

يتقبلها الشعب بوجه عام . ولم يعد أحد يقبل تلك الأفكار ولا تلك المبادئ . ولذا فلو حدث بإحدى المعجزات أن إمبراطوراً جلس على عرش الطاووس بالقلعة الحمراء بدلهى ، أو عقد بلاطه فى المدينة المحرمة ، لما استطاع أن يضع فى نفوس الناس ذلك التوقير الذى يوجده فيهم تقليد متواصل الحلقات . فما أن يقطع الحبل مرة حتى يقف سحر المبدأ تماماً .

ولذلك فعلى الرغم من أنه قد لا يعيش النظام الديمقراطى الجديد بآسيا أكثر من بضعة أجيال قليلة يتحول بعدها إلى صورة جامدة « للديموقراطية الحرة » . فلن نتجاوز الصدق إذا قلنا إن مبادئ الحكم التى تقبلتها آسيا نقلا عن الغرب قد أحدثت تغييراً هامًّا من حيث الكمّ والكيف ستمتد آثاره بعيداً فى أعماق المستقبل . ولابد أن تنعكس صورة البنيان الاجتماعى الجديد فى هيئة نظم سياسية جديدة — هذا إلى أن الاقتصاد التجارى الناتج عن المشاركة فى التجارة العالمية ؛ ثم التصنيع الذى يجتلب معه كلامن القدرة على الثروة المجمعة والعمل المنظم ؛ ثم نمو حياة المدن المنظمة التى تختلف عن مدن العواصم الكبرى التى كانت توجد فى الماضى ، كل هذه فضلا عن عوامل عديدة أخرى تجعل من غير المعقول أن تعود آسيا إلى النظم السياسية القديمة التى كانت تقوم على الاقتصاد الريفى وعلى ضريبة الأراضى . ولاشك أن البناء السياسى للأقطار الأسيوية ، على الرغم من أنه بنى محاكاة لنظم الغرب فإنه سيتمخض فى الوقت المناسب عن نماذج خاصة لا يتقيد فيها الأسيويون بتقاليد أوروبا . ولا مكان هنا للعودة إلى التقاليد الأسيوية البحتة فقد برزت فى آسيا قوى اجتماعية واقتصادية وسياسية جديدة لم يكن لها وجود فى فى الماضى فى القارة الأسيوية .

وإن نمو المدن الكبرى التى هى فى حد ذاتها مراكز عظمى للقوة المحركة السياسية والاقتصادية ، إنما هو نتيجة للاتصال بالأوربيين ، الذى لم يتمكن أحد حتى الآن من تقديره التقدير الوافى التام . وكان هناك قبل وصول الأوربيين إلى الهند والصين واليابان حياة وثقافة ريفية . ولو نظرت إلى لفظة « ناجاريكا » نفسها ومعناها قاطن المدن ، لوجدت معناها رجلا ذا ثقافة مهذبة وأذواق رقيقة ، كما أنها تستخدم بذلك المعنى منذ القرن الثالث قبل الميلاد على الأقل ، حيث كانت مدن لا صلة

لها بالبلاط الملكى مثل بنارس وپراياج وبروتش وسوارت ، تزدهر ببلاد الهند على طول العصور التاريخية جمعاء ، على أنها كانت على الجملة لا تمثل الحياة السياسية ولا حياة مجتمعات البلديات . ولم تكن لفظة « نجاريكا » تحمل فى طياتها معنى لفظة مواطن . والمدن والبلاد الكبرى بالهند إن لم تكن عواصم كبرى ، لم تكن إلا مراكز عظمى للسكان ، تكون أحياناً ذات أهمية من وجهة النظر التجارية ، وتكون أهميتها فى الغالب راجعة إلى القداسة الدينية . فهى لم تكن تنطوى على أى تقليد مدنى . وذلك هو الشأن فى الصين أيضاً .

والمدن الجديدة التى نمت نتيجة للاتصالات بالأوربيين وهى بومباى وكلكتا ومدراس وشنغهاى وتيان تسن وسنغافوره وكولومبو وجاكرتا وغيرها ، كانت تمثل مبدأ جديداً ؛ هو مبدأ تنظيم المدينة كوحدة مستقلة . فنحن فى مدراس وكلكتا وبومباى نجد لازمات المدينة كاملة بكل ما تحويه من مشرفين إداريين وعمد وهيئات ومعاونى بلديات . فإذا أنت قدرت مدينة شنغهاى من هذه الناحية وجدت أنها قد نظمتها لجنة من التجار البريطانيين فنمت فى خلال سبعين عاماً نمواً رائعاً ؛ وكان نموها ظاهرة أعظم وأبعد مدى من النفوذ الذى زاوله الأجانب فى البلاط الإمبراطورى . وهذه المدن وغيرها مما طبع على غرارها تكون اليوم ظاهرة كبرى فى الحياة الأسيوية . ويلاحظ كرستوفر دوسن فى حديثه عن تأثير روما فى أوربا الغربية « إن مهمة روما الكبرى كانت إدخال المدينة فى قارة أوربا ، ومع المدينة جاءت فكرة المواطنية والتقاليد المدنية التى كانت أعظم ما استحدثته ثقافة البحر المتوسط * . وقد مرت بجميع أرجاء آسيا عملية مماثلة ، وربما ظلت إلى الأبد الأثر الأكبر الباقى لأوربا فى بلاد الشرق .

فالمدينة هى التى خلقت الطبقات الوسطى الثرية بالهند والصين وغيرهما من الأقطار الأسيوية . وظهور الطبقات الوسطى بما اجتمع لها من الزعامة فى الحياة السياسية والاقتصادية ومن صفة المحتشد الجامع للمهارات العلمية الجوهرية ، كان فى جل شأنه ثمرة الحياة الجديدة للمدن . وستعيش هذه المدن الكبرى كمراكز للحضارة حتى ولو انحطت بقية البلاد الأسيوية وجرى عليها من النكوص ما جرى

* انظر دوسن : « تكوين أوربا Making of Europe » طبعه تشيد ووارد لندن ١٩٣٦ ص ٦ .

على أوربا فى القرون الوسطى . وعند ذلك سيكون الفضل فى بقاء الحياة الجديدة فى هذه المدن الكبرى راجعاً ولا شك إلى أوروبا .

وثمة نقطة أخرى تنبثق انبثاقاً مباشراً عن سيطرة أوربا طويلا على آسيا ، هى تكامل مساحات مترامية من الأرض وتكوينها دول أمم عظمى ذات نوع لم يعرف قبل ذلك فى تاريخ آسيا السابق . فالهند مثلا ظلت طوال تاريخها الطويل كله متفرقة الكلمة لم يجمع شتاتها قط وحدة تجعل منها دولة واحدة كشأنها الآن . وكان مما يؤكد وحدة أراضيها فى الماضى وحدة الهندوكية ، والتشابه القائم بين الثقافة السنسكريتية وبين الدافع السياسى الذى كان يدعو كل إمبراطورية سياسية بالهند أن تضطلع بعبء فتح الأراضى الممتدة من جبال الهملايا إلى رأس قومورين ووضعها تحت سلطان واحد . وكان ذلك الدافع الذى لا يرحم يدعو كل أسرة مالكة أوتيت أهمية فى الماضى ويستحثها إلى العمل ؛ ولكنه لم يتحقق قط .

وكانت هناك مساحات مترامية من الأرض قد تبلغ ما يقارب خمسى مساحة الهند واقعة حتى فى عهد البريطانيين أنفسهم تحت حكم أمراء شبه مستقلين — ولأول مرة فى التاريخ تكاملت الهند دولة موحدة تستظل بدستور واحد وتخضع لقوانين واحدة . وكان ذلك دون أدنى ريب نتيجة الإدارة البريطانية التى دامت مئة عام والتى فرضت على شعوب الهند وحدة جاءت نتيجة للجهاز الحكومى الذى أنشأته تلك الإدارة ولقوى المقاومة التى تسببت فى نشوئها . وكانت حالة أندونيسيا أروع وأدعى للعجب . فإن تلك الجزائر لم تتحد فى الماضى قط فى منظمة سياسية موحدة . كما لم يدُر قط بأحلام الإمبراطوريات العظيمة التى نشأت بسومطرة أو جاوة أن تجمع الأرخبيل بأكمله فى دولة واحدة . . ولم يدر قط بخلد أسرة سايلندرا ملوك سريفيجايا ، وهم فى أوج قوتهم البحرية ، أن يدعوا السيادة حتى على جزيرة جاوة كلها ، فضلا عن بورنيو ومُلَكَّا وجزائر سنده* التى لا حصر لها . ولما وصل الأوربيون إلى تلك الجزائر لم يجدوا بها أى إحساس بالوحدة الأندونيسية .

---

* جزائر سنده هى الجزائر الممتدة من شبه جزيرة الملايو إلى جزائر ملكا . وتضم سنده الكبرى : سومطرة وجاوة وبورنيو وسليبيز وبليتون ؛ وسنده الصغرى تضم بالى ولومبوك وشمباوه وفلورس وسمبا وتيمور إلخ .
(المترجم)

فكأن الوحدة الراهنة لتلك الجزر ثمرة القرون الأربعة والنصف التى عاشتها على اتصال بأوربا ، والروابط السياسية والاقتصادية التى أوجدها الهولنديون .

وكذلك الشأن مع الصين نفسها ، فإن مقاومتها لأوربا قد أورثتها تكاملا فى رقعة أراضيها لا يمكن إغفال أثره وأهميته . فمنذ أقدم العصور حتى عهد ثورة الكومنتانج ، لم تكن ولايات الصين العظيمة تخضع لسياسات واحدة متسقة ، وإن كانت تلك الولايات تحكم تحت أوامر الإمبراطور المباشرة . ولم تكن الإمبراطورية تشترك بأجمعها كما رأينا حتى فى المسائل المتصلة بالحرب . مثال ذلك أنه فى أثناء حرب الأفيون (١٨٣٩ — ١٨٤٢) ، لم تشترك فى القتال إلا حكومة كواتنج ، ولم يكن بلاط بيكين يدرى شيئاً عن مصائر الأمور هناك . وكانت الحرب مع اليابان فى (١٨٩٥) مسئولية تحملها نائب الملك فى تشهلى أكثر مما تحملتها الحكومة الإمبراطورية . إذ كانت الإمبراطورية فى الحقيقة اتحاداً كنفدرالياً مفككاً من ولايات يحكمها نواب ملك ، ولا يجمعها بعضها مع بعض سوى حاسة الوحدة التى تربط الشعب الصينى بعضه مع بعض ، وإلا النظام المركزى فى التعيين فى الوظائف وسلطان الإمبراطور . فلما أن واجهت حكومة بيكين صعوبة التعامل مع الدول الأوربية ، عمدت إلى تحويل نفسها ببطء إلى هيئة إدارية مركزية لها وزارة خارجية لم تنشأ إلا بضغط الدول ، فضلا عن جيش وطنى وبضع مصالح حكومية مركزية مثل مصلحة الجمارك . وجاءت ثورة الكومنتانج (١٩٢٥ — ١٩٢٧) وعندئذ فقط اتخذت بعد شبوبها أولى الخطوات الفعالة فى سبيل تحويل الصين إلى دولة أمة لها إدارة مركزية لائقة ، وجيش وطنى نظامى وسياسات قومية محددة فيما يتعلق بالمسائل الهامة . ومع ذلك فإن الكومنتانج لم ينجح نجاحاً كاملا ؛ وذلك لأن أمراء الحرب فى الزمان القديم مثل ين هسى شان فى شانسى وقواد « ما » أمراء الحرب المسلمين فى كانسو وغيرهم رفضوا أن يقدموا للحكومة المركزية خضوعاً يتجاوز الولاء الإسمى . بيد أن عوامل التكامل كانت تعمل عملها ، كما أن توحيد الصين الذى أنجزته حكومة الشعب ، لم يكن إلا الذروة القصوى التى بلغتها النزعات التى كانت تعمل عملها آنفاً .

وقد بحثنا حتى الآن فى التغيرات التى ألمت بالنظم الاجتماعية والسياسية التى

نشأت بدورها عن اتصال آسيا بأوربا . على أن هناك تغيراً ضخماً ولعله أعظم أهمية حدث فى فلك الأفكار ، وهو أمر ليس من الممكن تقليب النظر فيه فى هذا البحث . ولا شك أن دراسة ما عاد به إدخال العلوم العصرية والتاريخ وزيادة المعرفة بشئون العالم على العقل الأسيوى من أثر ، إنما هى من أمتع موضوعات الدرس وأخلبها للعقول . أما ما سيتمخض عنه ذلك الاختمار ، فأمر لا يستطيع أحد أن يستشفه أو يتكهن به . ومن الجلى أنه قد أثر فى كل ناحية من نواحى الحياة ، فمس الدين والفنون واللغات وطرائق الفكر والفلسفات التأملية التى رانت طويلا على عقول الناس . فلئن لم تزل الديانات والفلسفات الشرقية من الوجود وتحل محلها أخرى ، بل أصبحت والحق يقال أقوى اليوم منها قبلا ، فليس معنى ذلك عدم إلمام التغيرات العميقة بها . وهى فى موقفها أثناء اصطدامها بالأديان الأخرى والفلسفات الأخرى قد صمدت بقوة ؛ ولكن ألمت بها كرهاً تغيرات خفية اضطرت إليها لتحل الصراعات التى فرضها عليها العلم الحديث أكثر مما فرضتها الديانات الأخرى المنافسة . وهكذا تعكس التفاسير الجديدة للهندوكية والبوذية إلى حد ضخم تأثيرات الأفكار العصرية التى نشأت أغلب ما نشأت عن الاحتكاك بأوربا .

على أن الفلسفة والتفكير الدينى مهما يكن مبلغ تأثيرهما فى الناس عامة ، ليسا فى الواقع إلا ملكاً خاصاً بذوى العقول المفكرة وموضوع اهتمامهم . ولكن هذا لا ينطبق على اللغة ، وهنا يصبح تأثير أوربا ملحوظاً أكثر منه فى أى ميدان آخر . فإن تأثير الغرب يتجلى ساطعاً ويكسف كل ضياء للتقاليد القديمة سواء فى آداب الصين العظيمة ، أو الهند أو اليابان إلى اللغات الصغرى التى لا ينطق بها إلا بضع ملايين من الناس . ولعل الثورة الأدبية بالصين (١٩١٨ — ١٩٢١) ستعد فى المستقبل حدثاً أعظم أهمية من الثورات الكثيرة التى مرت بتلك البلاد فى غضون هذا القرن . فإن صيغ الكتابة التى تتبع اليوم بالصين لا يتبدى فيها إلا القليل النادر من أثر الآداب الكلاسيكية ، كما أنها تتخذ من أدب الغرب نموذجها ومثالها المحتذى — فالقصة الصينية لا تظهر اليوم على غرار « حلم الغرفة الحمراء » ، ولا « قصة الممالك الثلاث » بل تكتب فى قوالب ما سطر تولستوى وتورجنيف وروماں رولان وتوماس مان وماكسيم جوركى — فأما القصة القصيرة التى هى الوسيط الفائز بأعظم درجات المحبة الشعبية ، فلم يكن لها نماذج كلاسيكية فى الأدب

الصينى . إذ أن الأصل فيها غربى أويكاد ، كما أن عمل لوهسون وماوتن وكيو موچو أوثق صلة بنبوغ جيدىو باسان وتشيكوف والتقدميين العصريين منه إلى أى كاتب من كتاب الصينيين القدماء . وفى السنوات العشرين الأخيرة بالصين ، كانت كل الكتابات الابتداعية متأثرة أيما تأثر بأوربا .

على أن حالة الهند تكاد تكون أعظم دلالة . فلغات الهند العظمى لم يحدث لها أى فصم خطير لصلاتها بالماضى . بل الواقع أنه حتى حوالى (١٩١٤) ، كانت التقاليد الكلاسيكية لا تزال صاحبة اليد العليا ، وإن تغلغلت جذور أشكال الكتابة الغربية تغلغلا عميقاً فى اللغات ، فصدرت القصص الطويلة والقصص القصيرة والمسرحيات وكان لها أثرها وموقعها المحبوب من عقول الناس . وعمدت الهند فى الشعر خاصة بما لها من ميراث أدبى عمره ثلاثة آلاف عام إلى التمسك بالأشكال والطريقة السنسكريتية ، التى عدلتها إلى حد كبير تلك النهضة الأدبية التى قامت فى العصور الوسطى . وحتى طاغور نفسه وهو ثمرة حقة للثقافة الڤيكتورية ، كان تسلط التقاليد السنسكريتية واضحاً فيه كل الوضوح . فإنه استخدم كل شكل من أشكال الأدب فى الغرب ، فألف المسرحيات والقصص القصيرة والشعر الغنائى والمقالة ؛ بيد أن الصوت الذى كان يتكلم كان صوتاً اغتذى بلبان ملاحم ڤياسا وڤالميكى وبشعر كاليداسا وچاياديڤا وأناشيد ڤيدياپاسى وكابر وميرا . غير أنه ألم بآداب اللغات الهندية الكبرى أثناء الثلاثين سنة الأخيرة انقلاب ثورى ضخم . فهى لم تعد تشغل بالها بمحسنات الأساوب الكلاسيكى — وأخذت تتوسع فى الاستعارة من آداب الغرب جميعاً ، فتستعير الدراما من إبسن وبرنارد شو وبيراندلّو وتشيكوف ، وتتناول القصة القصيرة والرواية عن أساتذتهما الفرنسيين والروس ، وتنتهل الشعر من أحدث مدارسه بأوربا . ولم تعد تشغل نفسها بعد ذلك باللوتس والقمر والبجع « والشاتاكا » وغيرها من رموز الماضى التى عفى عليها الزمن .

وغنى عن البيان أن الأشكال الفنية الجديدة وبخاصة ما ظهر منها فى النثر لا تدين بشىء للتقاليد الهندية القديمة . والواقع أنه يمكن أن يقال أن فكر أوربا قد تأقلم فى النهاية بالهند بفضل الأدب الشعبى الذى صدر فى ربع القرن الأخير . ولا شك أن المحتوى الاجتماعى والسياسى للكتابات الجديدة خليط فى جوهره ، وأنه متأثر تأثراً رحيباً بانهيار المجتمع القديم بأوربا وبالقوة المحركة للأفكار الماركسية

بأوسع معانيها . وفوق هذا ، فإن هذه الرسالة لم تنتشر فقط عن طريق الأدب من ناحيته الابتداعية الخلاقة . والشعبية التى لا تبرح تتسع والتى أحرزها هذا الأدب الجديد ، إنما تقوم على المجلات الأسبوعية والمجلات الشهرية والصحف والأفلام السينمائية والراديو . يقول مُلك راج أناند : «لا ينكر فى هذه الأيام كاتب دون الأربعين أنه لم يجئ عليه وقت تأثر فيه بالقوة الجارفة المتسيطرة التى لجمعية الكتاب التقدميين التى تشكلت فى (١٩٣٥) . والحركة التى ولدتها تلك الهيئة قد أطلقت من عقالها كمية ضخمة من الشعر والنثر تروى فيها على الدوام أحوال وجودنا إلى أقصى حد ممكن » . والواقع أن الحياة الجديدة — لا أوربا — هى التى تجد صوتها يتردد على آلاف من الألسن . »

ولا شك أن هذا أمر من شأنه أن يوسع شقة التباعد بين الماضى والحاضر فى آسيا . وتغير اللغة هو فى الواقع أبعد التحولات مدى فى آسيا ، وذلك لأنه ليس الصورة التى تعكس العقل المتبدل فحسب ، بل هو فى حد ذاته أداة التغيرات المتواصلة ، وذلك لأن لغات آسيا الجديدة تمثل علماً جديداً للمعانى : عالماً جديداً للفكر تنداح دائرته فى كل آن وتزداد اتساعاً . ومما له أهميته أن التطور الهائل الذى ألم بالإذاعة ، كان من أول الأشياء التى تناولتها كل دولة جديدة بآسيا بعد أن حصلت على استقلالها ، ومما له أهميته أيضاً أن كلا من الهند والصين وأندونيسيا قد شرعت فى سياسة تطوير آدابها القومية حتى تجعلها قادرة على تقريب المثل العليا العصرية لعقول الشعب .

ومع ذلك ، فلابد لنا أن نؤكد أن تزايد إقبال الناس على تقبل الأفكار الجديدة وإن تولد عن الاحتكاك بالغرب وتأثر فى العهد الأخير أعظم التأثر بثورة أكتوبر وبمكانة الفكر الشيوعى ، إلا أنه لا ينطوى على انقطاع فى سلسلة الحضارات الأسيوية العظيمة . فالحضارات الصينية وغيرها ، وإن عدلتها الأفكار الجديدة وزادت غنى بفضل الخبرة الجديدة ، إلا أنها لا تزال تواصل بدرجة متزايدة تأكيد خصائصها الخاصة . وهذه هى نتيجة القوة التى اكتسبتها الديانات التى أعيد تنظيمها فى جنوب آسيا وجنوبها الشرقى وفى بلاد اليابان كذلك . وإن إخفاق المسيحية فى هجمتها على الهندوكية والبوذية ، فضلا عن الإسلام بطبيعة الحال ، قد غادر تلك الديانات أقوى وأعظم عافية نتيجة للتكيفات التى دعيت إلى

إحداثها بنفسها . فأما الصين التى أحرز فيها نشاط المبشرين نجاحاً محدوداً انحصر فى هدم التقاليد الدينية ، فإن التعلق بالحضارة القومية لا يزال عميقاً ، يزيد فى قوته الخصائص القومية والسيكولوجية التى ليس إلى تبديلها من سبيل . وهكذا يتجلى أن تأثير أوربا وتغلغل الأفكار الجديدة قد أحدثا تغييرات جديدة بآسيا ، وربما أديا إلى تغييرات أعظم ، فإن الحضارات الأسيوية ستواصل تطوير فرديتها البارزة وتظل منفصلة روحيًّا وفكريًّا عن أوربا المسيحية .

وهناك ناحية عجيبة اتسم بها المفهوم الأسيوى للسياسة ، واحتاج تغييرها إلى زمن طويل ، هى ذلك الاقتناع الذى انتشر بالهند والصين خاصة بأن العالم الخارجى لا يهم . فإن الهندوكى العادى لم يكن يعرف شيئاً عن وجود أقطار وشعوب خارج الهند . ولم تعد لأوربا فى عقله حقيقة إلا فى القرن التاسع عشر ، بعد أن أسس البريطانيون سلطانهم على بلاد الهند . واحتاج الصينيون إلى حربين قبل أن يستطيعوا أن يعتقدوا أن الأمم الأوربية تخرج عن كونها قبائل بربرية تسكن الأطراف الخارجية للمدنيات . فإن لن المندوب الإمبراطورى وجه رسالة إلى الملكة ڤيكتوريا فى (١٨٤٢) تحدث فيها بكل جد ونزاهة بأنها « شيخة القبيلة » . لقد كان الصينيون يرون حتى فى القرن التاسع عشر أن المحور الذى يدور عليه العالم أجمع هو المملكة المركزية ، التى كانوا يصفونها بغاية الجد والوقار أنها إمبراطورية السماء .

وكانت الدول التى تقع على الهوامش الخارجية للصين تتقبل تلك النظرية ، كما أن الشعب الصينى كان مقتنعاً كل الاقتناع بأنه لو وجدت أقطار هامة بمناطق بعيدة ، فلن يمكن بأى حال موازنتها بالصين من حيث القوة والعظمة والحضارة .

وفى النصف الثانى فقط من القرن التاسع عشر لا قبل ذلك تنبهت الشعوب الأسيوية إلى حقيقة واقعة ، هى أن آسيا إن هى إلا جزء — جزء لم يكن عند ذلك أهم الأجزاء — فى عالم أعظم رقعة لم يكونوا يعلمون عنه قبل ذلك شيئاً ، وما لبثت الصورة أن أخذت تتضح أمام نواظرهم رويداً رويداً ، فبدأت باليابانيين ثم ثنت بالآخرين ببطء ومهل . وكان نمو أهمية آسيا فى القرن العشرين نتيجة للإقبال على شراء مواد المناطق المدارية ، ونتيجة لظهور اليابان كدولة عظمى ثم نتيجة

لتحول الصين التدريجى بوصفها فى أول الأمر ملعباً تتبارى فيه المنافسات الأوربية وبوصفها بعد ذلك منطقة خطر، كانت كل هذه أسباباً دعت إلى أن يدرك العالم الدور الذى تلعبه آسيا . وبعد الحرب العظمى الأولى، يوم انتقلت زعامة العالم إلى أمريكا، وأمريكا على عكس الدول الأوربية تعد أيضاً من دول المحيط الهادى ، دخلت آسيا مباشرة دوامة السياسة العالمية .

من أجل ذلك لم تعد الدول الأسيوية الجديدة تستطيع بعد الآن أن تكتفىء بسياسة العزلة أو تتجاهل وجود غيرها من البلاد. فكأن الصين والهند وأندونيسيا — بغض النظر طبعاً عن اليابان — ستقوم بناء على ذلك بدور خطير فى السياسة العالمية . ولا شك أن هذا يرجع جميعه إلى التحول الذى أحدثته الإمبراطوريات السابقة التى أقامتها أوربا ببلاد الشرق .

هذا ، وإن الآثار التى عادت على أوربا من احتكاكها بآسيا ، لا يمكن أن تعد من الأمور العديمة الأهمية . فإن نمو الرأسمالية إبان القرون السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر ، وهو أمر كان فى حد ذاته تغيراً عميقاً وانقلاباً ثورياً ، يتصل اتصالا وثيقاً بانتشار التجارة والأعمال الأوربية بآسيا . هذا إلى أن التطور السياسى للأمم الغربية الكبرى أثناء تلك الفترة كان مرتبطاً أيضاً باستغلالها لممتلكاتها الأسيوية والثروة التى حصلوا عليها من التجارة مع توابعهم الشرقية وتولى شئون الحكم فيها . وإن حياتهم المادية ، كما تنعكس فى ثيابهم وطعامهم ومشروباتهم إلخ ، لتحمل أيضاً آثاراً وعلائم دائمة تنطق باتصالاتهم بالشرق ، وقد سبق أن عالجنا بإيجاز تغلغل المؤثرات الثقافية والفنية والفلسفية ، وإن لم يكن من المستطاع تقدير آثارها حتى الآن . وقد كانت الآثار الروحية والثقافية فى القرنين التاسع عشر والعشرين أعمق كثيراً كما أن نتائجها لم تبرز إلى السطح حتى الآن بروزاً تاماً — وذلك على نقيض حركة الروكوكو فى القرن الثامن عشر . وستمضى سنون كثيرة قبل أن يستطيع أحد أن يقدر مفعول الأدب الصينى والفكر الفلسفى الهندى فى ثقافة أوربا الحالية ، ونجتزئ هنا بذكر هذين الاتجاهين إذ صارت لهما أهمية فى السنوات الأخيرة . والصدق ما نطق به ت . س . . إليوت ، حيث قال : إن معظم الشعراء العصريين بأوربا قد تأثروا بقدرما بمؤثرات الصين . ويعدل هذا فى صدقه أن

عدد ترجمات بهاجاڤاد جيتا وأسفار اليوپانيشاد ، التى دأبت على الظهور كل عام والتى لم يصدرها ناشروها للمستشرقين والدارسين بل للجمهور المتعلم ، فضلا عن انتعاش الاهتمام بالخبرة الدينية الهندية ، إنما هى آيات كافية تشهد بأن المؤثرات الشرقية تتغلغل الآن فى الفكر الأوربى تغلغلا ربما اعتبره مؤرخو المستقبل أمراً ذا شىء من الأهمية .

هذا إلى أن علم الآثار القديمة قد أثر أثراً بليغاً فى اعتقاد طال إيمان الناس الراسخ به بأن كل ماله فى هذه الدنيا قدر وقيمة ، تطور على شواطئ البحر المتوسط . فإن ماضى الشعوب الأسيوية العظمى شىء بدأ الناس يعدونه رويداً رويداً جزءاً من التراث العام للإنسان المتحضر ، وربما أدى ذلك فى الوقت المناسب إلى هدم فكرة التعصب الأوربى الضيق العطن ، تلك الفكرة التى كانت تعد كل شىء يقع خارج الغرب وخبرته شيئاً له أهمية ثانوية .

ونقتصر هنا على الإشارة إلى هذه الموضوعات للدلالة على أن تأثير الاحتكاك بين أسيا وأوربا ليس من جهة واحدة فقط ، وأنه الآن وقد أصبحت السيطرة السياسية على أسيا فى ذمة الماضى ، فإن نتائج تبادل الثقافة من الجانبين ربما كان أعظم ثماراً .

وليس من أهدافنا التكهن بما يكنه المستقبل ، كما أن من المجازفة تصور ما ستتطور إليه العلاقات بين آسيا وأوربا . ذلك أن تزايد نفوذ أمريكا من ناحية والسوڤييت من ناحية أخرى ، وكلاهما يدعو دعوته إلى طريقة حياتهما المتنازعة بإيمان وحمية وإصرار ويحاول محاولة واعية أن يؤثر فى أقطار أسيا حتى يناصروه ، لابد أن يؤدى فى النهاية إلى إضعاف التأثير الأوربى على وجه العموم . وينبغى ألا يغيب عن بالنا أنه أثناء الأدوار المتعاقبة التى مرت فيها علاقة أوربا بأسيا ، لم يبذل أحد أية محاولة لإجبار الشعوب الأسيوية على اعتناق مذهب معين . وكان تأثير أوربا فى الأقطار الأسيوية التى احتكت بالأوربيين ناجماً قبل كل شىء عن المقاومة التى كانت السلطات الأوربية هى السبب فى تولدها وضرورة الحصول على المهارات والأصول الفنية لمحاربة أوربا بنفس أسلحتها . ولم يكن بد من أن يكون ذلك الأثر متسع الجنبات إلى حدما ، ولم يكن بد من أن ينتشر إلى نواحى

مختلفة من نواحى الحياة قبل أن يتهيأ له من القوة ما يجعله ذا أثر فعال . ولم يحدث قط أن وضعت الأمم الأوربية فى مناهجها محاولة واعية لطبع الشرق بالطابع الغربى ، وبالتالى فإن التأثير الذى تم تمثيله ربما بات أدوم ، بل ربما أوتى ثماره الطيبة ولو بعد قرون عديدة .

محتويات الكتاب

فهرس الصور

تم طبع هذا الكتاب على مطابع
دار المعارف بمصر سنة ١٩٦٢